# (٣٧) سُورَةُ الصَّافَّاتِ مَكِّيَّة
## وَآيَاتُهَا اثْنَتَانِ وَثَمَانُونَ وَمِائَة

سورةُ الصافات من السور المكية التي تتناول أصول العقيدة الإسلامية من التوحيد ، والبعث والجزاء ، والوحي والرسالة ، وتهدف إلى تقرير الدعائم والأركان التي شيدت عليها عقيدة الإيمان في أصوله الراسخة المتينة . سُميت السورة الكريمة « سورةَ الصافات » تذكيراً للعباد بمراتب الملائكة الأطهار ووظائفهم التي كلفوا بها ، فهم مع جلالِ خَلْقهم ، وعظيم قدرهم ، لا ينفكون عن عبادة الله « يسبحون الليلَ والنهار لا يفترون » يصطفُّون للعبادَة كاصطفاف المؤمنين في الصلاة ، وهم خاشعون خاضعون في مقام العبودية لمالك المُلك ، العزيز الجبار ، الذي دانت له الخلائق وخضعت لجلاله الرقاب بما فيهم الملأ الأعلى ، حملةُ العرش والملائكةُ الأبرار . ابتدأ تعالى السورة الكريمة بالقسم بهذه الطوائف من الملائكة ، الصافاتِ قوائمها في الصلاة أو أجنحتها في ارتقاب أمر الله ، الزاجرين للسحاب يسوقونه إلى حيث شاء الله ، التالين لآيات الله على أنبيائه وأوليائه ، أقسم بذلك على وحدانيته وعظيم سلطانه ﴿ والصَّافاتِ صفاً . فالزاجراتِ زجراً . فالتاليات ذكِراً . إنَّ إلهكم لواحدٌ . ربُّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما وربُّ المشارق﴾ وهو قسمٌ يتجلَّى فيه عِظَم مكانة التوحيد ، وعِظَم شأن الملائكة فيما وكل إليهم من أعمال هامة ، فيها تدبيرٌ لأمور الكون العلوية والسفلية وتنتقل الآيات بعد ذكر الملائكة إلى ذكر الجنِّ ، وتَعَرُّضِهم للرَّجْم

بالشُهُب الثاقبة ، ردّاً لمزاعم الجاهلية في تلك الأساطير الواهية ، وهي اعتقادهم بأن هناك قرابةً بين الله سبحانه وبين الجن ، وأن الجنَّ يعلمون الغيب لمكانتهم عند الله ، وأنه من التزاوج بين الله والجِنَّة ولدت الملائكة كما قال تعالى في هذه السورة ﴿وجعلوا بينه وبين الجِنَّةِ نَسَباً﴾ فأبطل الله تلك الأساطير المتهافتة ببيان أنه لو كان كما زعموا لما طُورد الشياطين هذه المطاردة برجمهم بالشُهب الثاقبة ﴿إنا زينا السماءَ الدنيا بزينةٍ الكواكب. وحِفظاً من كل شيطان مارد. لا يَسَّمَّعون إلى الملأ الأعلى ويقْذفون من كل جانب. دحوراً ولهم عذابٌ واصب. إلاّ من خطِف الخطفة فأتبعه شهابٌ ثاقب﴾ وفي معرض الحديث عن القيامة وأهوالها تتحدث الآيات عن كفار مكة وإنكارهم للبعث ، واستبعادهم للحياة مرةً ثانية بعد أن يصبحوا رفاتاً وعظاماً ، ولهذا يتهمون الرسول بالسحر والشعوذة ، ويقابلونه بالسخرية والتهكم ﴿بل عجبتَ ويسخرون. وإذا ذُكِّروا لا يذكرون. وإذا رأوا آيةً يستسخرون – أي يبالغون في السُخرية – وقالوا إن هذا إلا سحرٌ مبين. أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئناء لمبعوثون. أَوَ آباؤنا الأولون؟ قل نعم وأنتم داخرون. فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون﴾ وتتناول السورة الكريمة – تأكيداً لقضية البعث والجزاء والحساب – قصة المؤمن الذي كان له من الدنيا جليسٌ مكذب ، ينكر الآخرة يكذّب بالبعث والجزاء ، وكان في الدنيا يسخر من ذلك المؤمن ويوبخه على إيمانه وتصديقه ، وبينا ذاك المؤمن ينعم في الجنة ويستمتع بما فيها من الشراب والنعيم مع إخوانه أهلِ الجنة إذْ تذكَّر جليسه في الدنيا وتطلَّعت نفسُه ليتفقد حاله ويعرف مصيره ، فدعا إخوانه إلى التطلع معه على حال ذلك الشقي التعيس ﴿فأقبل بعضُهم على بعض يتساءلون. قال قائلٌ منهم إني كان لي قرين. يقول أئنك لمنِ المصدّقين؟ أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون؟

— أي مجازَوْن ومحاسبُون على الأعمال — قال هل أنتم مطَّلعون؟ فاطَّلع فرآه في سواء الجحيم. قال تاللهِ إن كِدْتَ لَتُردين. ولولا نعمةُ ربي لكنتُ من المحضرين. أفما نحن بميّتين إلا موتتنا الأولى، وما نحن بمعذبين؟﴾ وإلى هنا ينتهي الحوار ويقرر القرآن سعادة المؤمن بالفوز بأسمى المراتب، مع النعيم الخالد الدائمِ الراضي ﴿إنَّ هذا لهو الفوز العظيم. لمثلِ هذا فليعمل العاملون﴾.

وتستعرض السورة الكريمة طرفاً من قصص الأنبياء، تُعْرَضُ فيه قصةُ الهدى والضلال، منذ فجر البشرية الأولى، فهاهم أولئك المكذبون الضالون يواجهون رسلهم بمثل ما واجه به كفار مكةَ رسول الله ﷺ مِن العناد والتكذيب ﴿ولقد أرسلنا فيهم مُنْذِرين. فانظر كيف كان عاقبةُ المُنْذَرين. الا عبادَ الله المخلَصين. ولقد نادانا نوحٌ فلنعم المجيبون. ونجيناه وأهلَه من الكرب العظيم. وجعلنا ذريته هم الباقين. وتركنا عليه في الآخرين. سلامٌ على نوح في العَالَمين. إنا كذلكَ نجزي المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين ثم أغرقنا الآخرين﴾ ثم تتلوها الآياتُ تستعرض قصة «إبراهيم وإسماعيل، وقصة موسى وهارون، وإلياس ولوط» وتقف عند قصة إبراهيم وقفةً طويلة تكشف فيها عن سرِّ اصطفاء الله عز وجل للخليل، ويتجلى فيها أعظم الدروس في الإيمان والصبر والطاعة، والاستسلام لحكم الله العلي القدير، فها هو الخليل يؤمر في المنام بذبح ولده وفَلْذة كَبِده، فما يتردَّد وما يتأخر، بل يسارع إلى تنفيذ أمر الله، وكأنما الأمر عنده جَرْعةُ ماء، ويمضي لتنفيذ ما أُمر به في رضىً ويقينٍ واطمئنان، ويعرض الأمر على ولده لا ليستشيره في الأمر الذي هو حتم، بل ليختبر إيمانه وليرى مبلغ استسلامه وطاعته لله ﴿فلما بلغ معه السعيَ قال يا بُنَّيَ إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى؟ قال يا أبتِ افعلْ ما تُؤمرُ ستجدني

إن شاء الله من الصابرين﴾ يا لروعة الإيمان ، ويا لنُبْل الطاعة ، ويا لَعظمةِ الاستسلام ! ! الوالد والولد كلٌّ منهما يُسلم نفسه لله ، وإنه لحقاً درسٌ بليغٌ في التضحية بالنفس ، ابتغاءً لمرضاة الله ، وخليقٌ بأن يكون إبراهيم خليلاً للرحمن ﴿فلما أسلما وتلَّه للجبين - أي فلما استسلما وانقادا لأمر الله وصرعه بالأرض على جبينه ليذبحه - وناديناه أن يا إبراهيم قد صدَّقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبحٍ عظيم﴾ وبعد أن تتحدث السورةُ عن بقية الرسل الكرام ، تُعَقِّبُ بهذا القاطع في نصرة الله لأنبيائه وأوليائه ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون﴾ وتختم السورة الكريمة بتنزيه الله سبحانه عما لا يليق من صفات العجز والنقص ، واختصاصه بالعزة والجلال ، وبالسلام على رسله الكرام ، وبإعلان الحمد لله الواحد الأحد وهو الختام المناسب لموضوع السورة ﴿سبحان ربك ربِّ العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين﴾

# سورة الصافات

[٧٧١] ك.. أخرج ابن جرير عن قتادة قال: قال أبو جهل زعم صاحبكم هذا أن في النار شجرة والنار تأكل الشجر وإنا والله ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد فأنزل الله حين عجبوا أن يكون في النار شجرة: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾(١) الآية. وأخرج نحوه عن السدي.

[٧٧٢] وأخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: أنزلت هذه الآية في ثلاثة أحياء من قريش سليم وخزاعة وجهينة ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾(٢) الآية.

[٧٧٣] وأخرج البيهقي في شعب الأيمان عن مجاهد قال: قال كفار قريش الملائكة بنات الله فقال لهم أبو بكر الصديق فمن أمهاتهم قالوا بنات سراة الجن فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾(٣).

[٧٧٤] وأخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن أبي مالك قال: كان الناس يصلون متبددين فأنزل الله ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾(٤) فأمرهم أن يصفوا، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: حدثت فذكر نحوه.

[٧٧٥] وأخرج جويبر عن ابن عباس قال: قالوا يا محمد أرنا العذاب الذي تخوفنا به عجله لنا فنزلت: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾(٥) صحيح على شرط الشيخين.

* * *

---

[٧٧١] (١) سورة الصافات: الآية (٦٤).
[٧٧٢] (٢) سورة الصافات: الآية (١٥٨).
[٧٧٣] (٣) سورة الصافات: الآية (١٥٨).
[٧٧٤] (٤) سورة الصافات: الآية (١٦٥).
[٧٧٥] (٥) سورة الصافات: الآية (١٧٦).

# سورة الصافات

## وآياتها ثنتان وثمانون ومائة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ۝٥ ﴾

**وفي الآية مسائل:**

المسألة الأولى: قرأ أبو عمرو وحمزة (والصافات صفا) بإدغام التاء فيما يليه، وكذلك في قوله: ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ والباقون بالإظهار، وقال الواحدي رحمه الله: إدغام التاء في الصاد حسن لمقاربة الحرفين، ألا ترى أنهما من طرف اللسان وأصول الثنايا يسمعان في الهمس، ولامدغم فيه يزيد على المدغم بالإطباق والصفير، وإدغام الأنقص في الأزيد حسن، ولا يجوز أن يدغم الأزيد صوتًا في الأنقص، وأيضًا إدغام التاء في الزاي في قوله: ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ حسن لأن التاء مهموسة والزاي مجهورة وفيها زيادة صفير كما كان في الصاد، وأيضًا حسن إدغام التاء في الذال في قوله: ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ لاتفاقهما في أنهما من طرف اللسان وأصول الثنايا، وأما من قرأ بالإظهار وترك الإدغام فذلك لاختلاف المخارج، والله أعلم.

المسألة الثانية: في هذه الأشياء الثلاثة المذكورة المقسم بها يحتمل أن تكون صفات ثلاثة لموصوف واحد، ويحتمل أن تكون أشياء ثلاثة متباينة، أما على التقدير الأول ففيه وجوه الأول: أنها صفات الملائكة، وتقديره أن الملائكة يقفون صفوفًا؛ إما في السموات لأداء العبادات كما أخبر الله عنهم أنهم قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ [الصافات: ١٦٥] وقيل: إنهم يصفون أجنحتهم في الهواء يقفون منتظرين وصول أمر الله إليهم، ويحتمل أيضًا أن يقال معنى كونهم صفوفًا أن لكل واحد منهم مرتبة معينة ودرجة معينة في الشرف والفضيلة أو في الذات والعلية وتلك الدرجة المرتبة باقية غير متغيرة وذلك يشبه الصفوف.

**وأما قوله:** ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ فقال الليث: يقال زجرت البعير فأنا أزجره زجرًا إذا حثثته ليمضي، وزجرت فلانًا عن سوء فانزجر أي نهيته فانتهى، فعلى هذا الزجر للبعير كالحث وللإنسان كالنهي، إذا عرفت هذا فنقول في وصف الملائكة بالزجر وجوه الأول: قال ابن عباس يريد الملائكة الذي وكلوا بالسحاب يزجرونها بمعنى أنهم يأتون بها من موضع إلى موضع، الثاني: المراد منه أن الملائكة لهم تأثيرات في قلوب بني آدم على سبيل الإلهامات فهم يزجرونهم عن

المعاصي زجرًا، الثالث: لعل الملائكة أيضًا يزجرون الشياطين عن التعرض لبني آدم بالشر والإيذاء، وأقول قد ثبت في العلوم العقلية أن الموجودات على ثلاثة أقسام: مؤثر لا يقبل الأثر وهو الله سبحانه وتعالى وهو أشرف الموجودات، ومتأثر لا يؤثر وهم عالم الأجسام وهو أخس الموجودات، وموجود يؤثر في شيء ويتأثر عن شيء آخر وهو عالم الأرواح وذلك لأنها تقبل الأثر عن عالم كبرياء الله، ثم إنها تؤثر في عالم الأجسام، واعلم أن الجهة التي باعتبارها تقبل الأثر من عالم كبرياء الله غير الجهة التي باعتبارها تستولي على عالم الأجسام وتقدر على التصرف فيها. وقوله: ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ إشارة إلى الأشرف من الجهة التي باعتبارها تقوى على التأثير في عالم الأجسام إذا عرفت هذا فقوله: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ إشارة إلى وقوفها صفًّا صفًّا في مقام العبودية والطاعة بالخشوع والخضوع وهي الجهة التي باعتبارها تقبل تلك الجواهر القدسية أصناف الأنوار الإلهية والكمالات الصمدية، وقوله تعالى: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ إشارة إلى تأثير الجواهر الملكية في تنوير الأرواح القدسية البشرية وإخراجها من القوة إلى الفعل، وذلك لما ثبت أن هذه الأرواح النطقية البشرية بالنسبة إلى أرواح الملائكة كالقطرة بالنسبة إلى البحر وكالشعلة بالنسبة إلى الشمس، وأن هذه الأرواح البشرية بالنسبة إلى أرواح الملائكة كالقطرة بالنسبة إلى البحر وكالشعلة بالنسبة إلى الشمس، وأن هذه الأرواح البشرية إنما تنتقل من القول إلى الفعل في المعارف الإلهية والكمالات الروحانية بتأثيرات جواهر الملائكة ونظيره قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل: ٢] وقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٢، ١٩٣]. وقوله تعالى: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [المرسلات: ٥]. إذا عرفت هذا فنقول في هذه الآية دقيقة أخرى وهي أن الكمال المطلق للشيء إنما يحصل إذا كان تامًّا وفوق التام والمراد بكونه تامًّا أن تحصل جميع الكمالات اللائقة به حصولاً بالفعل والمراد بكونه فوق التام أن تفيض منه أصناف الكمالات والسعادات على غيره، ومن المعلوم أن كونه كاملاً في ذاته مقدم على كونه مكملاً لغيره، إذا عرفت هذا فقوله: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ إشارة إلى استكمال جواهر الملائكة في ذواتها وقت وقوفها في مواقف العبودية وصفوف الخدمة والطاعة، وقوله تعالى: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ إشارة إلى كيفية تأثيراتها في إزالة ما لا ينبغي عن جواهر الأرواح البشرية وقوله تعالى: ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ إشارة إلى كيفية تأثيراتها في إفاضة الجلايا القدسية والأنوار الإلهية على الأرواح الناطقة البشرية، فهذه مناسبات عقلية واعتبارات حقيقية تنطبق عليها هذه الألفاظ الثلاثة، قال أبو مسلم الأصفهاني: لا يجوز حمل هذه الألفاظ على الملائكة لأنها مشعرة بالتأنيث والملائكة مبرءون عن هذه الصفة، والجواب من وجهين الأول: أن الصافات جمع الجمع فإنه يقال جماعة صافة ثم يجمع على صافات، والثاني: أنهم مبرءون عن التأنيث المعنوي، أما التأنيث في اللفظ فلا، وكيف وهم يسمون بالملائكة مع أن علامة التأنيث حاصلة في هذا الوجه.

الثاني: أن تحمل هذه الصافات على النفوس البشرية الطاهرة المقدسة المقبلة على عبودية الله تعالى الذين هم ملائكة الأرض وبيانه من وجهين

**الوجه الأول:** أن قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ المراد الصفوف الحاصلة عند أداء الصلوات بالجماعة وقوله: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾ إشارة إلى قراءة (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) كأنهم بسبب قراءة هذه الكلمة يزجرون الشياطين عن إلقاء الوساوس في قلوبهم في أثناء الصلاة، وقوله: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ إشارة إلى قراءة القرآن في الصلاة وقيل: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾ إشارة إلى رفع الصوت بالقراءة كأنه يزجر الشيطان بواسطة رفع الصوت، روى أنه ﷺ طاف على بيوت أصحابه في الليالي فسمع أبا بكر يقرأ بصوت منخفض وسمع عمر يقرأ بصوت رفيع فسأل أبا بكر: لم تقرأ هكذا؟ فقال: المعبود سميع عليم، وسأل عمر: لم تقرأ هكذا؟ فقال: أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان.

**الوجه الثاني:** في تفسير هذه الألفاظ الثلاثة في هذه الآية أن المراد من قوله: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ الصفوف الحاصلة من العلماء المحقين الذين يدعون إلى دين الله تعالى والمراد من قوله: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾ اشتغالهم بالزجر عن الشبهات والشهوات، والمراد من قوله تعالى: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ اشتغالهم بالدعوة إلى دين الله والترغيب في العمل بشرائع الله.

**الوجه الثالث:** في تفسير هذه الألفاظ الثلاثة أن نحملها على أحوال الغزاة والمجاهدين في سبيل الله فقوله: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ المراد منه صفوف القتال لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا﴾ [الصف: ٤] وأما ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾ فالزجرة والصيحة سواء، والمراد منه رفع الصوت بزجر الخيل، وأما ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ فالمراد اشتغال الغزاة وقت شروعهم في محاربة العدو بقراءة القرآن وذكر الله تعالى بالتهليل والتقديس.

**الوجه الرابع:** في تفسير هذه الألفاظ الثلاثة أن نجعلها صفات لآيات القرآن فقوله: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ المراد آيات القرآن فإنها أنواع مختلفة بعضها في دلائل التوحيد وبعضها في دلائل العلم والقدرة والحكمة وبعضها في دلائل النبوة وبعضها في دلائل المعاد وبعضها في بيان التكاليف والأحكام وبعضها في تعليم الأخلاق الفاضلة، وهذه الآيات مرتبة ترتيبًا لا يتغير ولا يتبدل فهذه الآيات تشبه أشخاصًا واقفين في صفوف معينة، وقوله: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾ المراد منه الآيات الزاجرة عن الأفعال المنكرة، وقوله: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ المراد منه الآيات الدالة على وجوب الإقدام على أعمال البر والخير وصف الآيات بكونها تالية على قانون ما يقال شعر شاعر وكلام قائل قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] وقال: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يس: ١، ٢] قيل: الحكيم بمعنى الحاكم.

فهذه جملة الوجوه المحتملة على تقدير أن تجعل هذه الألفاظ الثلاثة صفات لشيء واحد.

وأما الاحتمال الثاني: وهو أن يكون المراد بهذه الثلاثة أشياء متغايرة فقيل المراد بقوله:

﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ الطير من قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ﴾ [النور: ٤١] و﴿ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾ كل ما زجر عن معاصي الله و﴿ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ﴾ كل ما يتلى من كتاب الله، وأقول فيه وجه آخر وهو أن مخلوقات الله إما جسمانية وإما روحانية، أما الجسمانية فإنها مرتبة على طبقات ودرجات لا تتغير ألبتة، فالأرض وسط العالم وهي محفوفة بكرة الماء والماء محفوف بالهواء، والهواء محفوف بالنار، ثم هذه الأربعة محفوفة بكرات الأفلاك إلى آخر العالم الجسماني فهذه الأجسام كأنها صفوف واقفة على عتبة جلال الله تعالى، وأما الجواهر الروحانية فهي على اختلاف درجاتها وتباين صفاتها مشتركة في صفتين أحدهما التأثير في عالم الأجسام بالتحريك والتصريف وإليه الإشارة بقوله: ﴿ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾ فإنا قد بينا أن المراد من هذا الزجر السوق والتحريك، والثاني الإدراك والمعرفة والاستغراق في معرفة الله تعالى والثناء عليه، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ ولما كان الجسم أدنى منزلة من الأرواح المستقلة فالتصرف في الجسمانيات أدون منزلة من الأرواح المستغرقة في معرفة جلال الله المقبلة على تسبيح الله كما قال: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأنبياء: ١٩] لا جرم بدأ في المرتبة الأولى بذكر الأجسام فقال: ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ ثم ذكر في المرتبة الثانية الأرواح المدبرة لأجسام هذا العالم ثم ذكر في هذه المرتبة الثالثة أعلى الدرجات وهي الأرواح المقدسة المتوجهة بكليتها إلى معرفة جلال الله والاستغراق في الثناء عليه، فهذه احتمالات خطرت بالبال، والعالم بأسرار كلام الله تعالى ليس إلا الله.

**المسألة الثالثة**: للناس في هذا الموضع قولان الأول: قول من يقول المقسم به ههنا خالق هذه الأشياء لا أعيان هذه الأشياء، واحتجوا عليه بوجوه الأول: أنه ﷺ نهى عن الحلف بغير الله فكيف يليق بحكمة الله أن يحلف بغير الله، والثاني: أن الحلف بالشيء في مثل هذا الموضع تعظيم عظيم للمحلوف به، ومثل هذا التعظيم ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٥ - ٧]، والقول الثاني: قول من يقول: إن القسم واقع بأعيان هذه الأشياء واحتجوا عليه بوجوه الأول: أن القسم وقع بهذه الأشياء بحسب ظاهر اللفظ فالعدول عنه خلاف الدليل، والثاني: أنه تعالى قال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ فعلق لفظ القسم بالسماء، ثم عطف عليه القسم بالباني للسماء، فلو كان المراد من القسم بالسماء القسم بمن بنى السماء لزم التكرار في موضع واحد وأنه لا يجوز، الثالث: أنه لا يبعد أن تكون الحكمة في قسم من الله تعالى بهذه الأشياء التنبيه على شرف ذواتها وكمال حقائقها، لا سيما إذا حملنا هذه الألفاظ على الملائكة فإنه تكون الحكمة في القسم بها التنبيه على جلالة درجاتها وكمال مراتبها، والله أعلم، فإن قيل ذكر الحلف في هذا الموضع غير لائق وبيانه من وجوه الأول: أن المقصود من هذا القسم إما إثبات هذا المطلوب عند المؤمن أوعند الكافر والأول باطل لأن المؤمن مقر به سواء حصل الحلف أو لم يحصل، فهذا الحلف عديم الفائدة على كل التقديرات، الثاني: أنه تعالى حلف في أول هذه السورة على أن الإله واحد، وحلف في أول سورة والذاريات على أن القيامة حق

فقال: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات: ١ - ٦] وإثبات هذه المطالب العالية الشريفة على المخالفين من الدهرية وأمثالهم بالحلف واليمين لا يليق بالعقلاء، والجواب من وجوه الأول: أنه تعالى قرر التوحيد وصحة البعث والقيامة في سائر السور بالدلائل اليقينية، فلما تقدم ذكر تلك الدلائل لم يبعد تقريرها فذكر القسم تأكيدًا لما تقدم لا سيما والقرآن إنما أنزل بلغة العرب وإثبات المطالب بالحلف واليمين طريقة مألوفة عند العرب، والوجه الثاني في الجواب: أنه تعالى لما أقسم بهذه الأشياء على صحة قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ ذكر عقيبه ما هو كالدليل اليقيني في كون الإله واحدًا، وهو قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ وذلك لأنه تعالى بين في قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] أن انتظام أحوال السموات والأرض يدل على أن الإله واحد، فههنا لما قال: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ أردفه بقوله: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ كأنه قيل: قد بينا أن النظر في انتظام هذا العالم دل على كون الإله واحدًا فتأملوا في ذلك الدليل ليحصل لكم العلم بالتوحيد، الوجه الثالث: في الجواب أن المقصود من هذا الكلام الرد على عبدة الأصنام في قولهم بأنها آلهة فكأنه قيل: هذا المذهب قد بلغ في السقوط والركاكة إلى حيث يكفي في إبطاله مثل هذه الحجة، والله أعلم.

**المسألة الرابعة**: أما دلالة أحوال السموات والأرض على وجود الإله القادر العالم الحكيم، وعلى كونه واحدًا منزهًا عن الشريك فقد سبق تقريرها في هذا الكتاب مرارًا وأطوارًا، وأما قوله تعالى: ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ فيحتمل أن يكون المراد مشارق الشمس قال السدي: المشارق ثلاثمائة وستون مشرقًا وكذلك المغارب فإنه تطلع الشمس كل يوم من مشرق وتغرب كل يوم في مغرب، ويحتمل أن يكون المراد مشارق الكواكب لأن لكل كوكب مشرقًا ومغربًا، فإن قيل: لم اكتفى بذكر المشارق؟ قلنا: لوجهين الأول: أنه اكتفى بذكر المشارق كقوله: ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] والثاني أن الشروق أقوى حالاً من الغروب وأكثر نفعًا من الغروب فذكر الشرق تنبيهًا على كثرة إحسان الله تعالى على عباده، ولهذه الدقيقة استدل إبراهيم عليه السلام بالمشرق فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

**المسألة الخامسة**: احتج الأصحاب بقوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ على كونه تعالى خالقًا لأعمال العباد، قالوا: لأن أعمال العباد موجودة فيما بين السموات والأرض، وهذه الآية دالة على أن كل ما حصل بين السموات والأرض فالله ربه ومالكه، فهذا يدل على أن فعل العبد حصل بخلق الله، وإن قالوا: الأعراض لا يصح وصفها بأنها حصلت بين السموات والأرض لأن هذا الوصف إنما يليق بما يكون حاصلاً في حيز وجهة والأعراض ليست كذلك، قلنا: إنها لما كانت حاصلة في الأجسام الحاصلة بين السموات والأرض فهي أيضًا حاصلة بين السماء والأرض.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾

**في الآية مسائل:**

المسألة الأولى: قرأ حمزة وحفص عن عاصم (زينة) منونة (الكواكب) بالجر وهو قراءة مسروق بن الأجدع، قال الفراء: وهو رد معرفة على نكرة كما قال: ﴿بِالنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ﴾ [العلق: ١٥، ١٦] فرد نكرة على معرفة. وقال الزجاج: الكواكب بدل من الزينة، لأنها هي كما تقول: مررت بأبي عبد الله زيد. وقرأ عاصم بالتنوين في الزين ونصب الكواكب قال الفراء: يريد زينا الكواكب، وقال الزجاج: يجوز أن تكون الكواكب في النصب بدلاً من قوله: ﴿بِزِينَةٍ﴾، لأن ﴿بِزِينَةٍ﴾ في موضع نصب وقرأ الباقون (بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ) بالجر على الإضافة.

المسألة الثانية: بين تعالى أنه زين السماء الدنيا، وبين أنه إنما زينها لمنفعتين إحداهما: تحصيل الزينة، والثانية: الحفظ من الشيطان المارد، فوجب أن نحقق الكلام في هذه المطالب الثلاثة أما الأول: وهو تزيين السماء الدنيا بهذه الكواكب، فلقائل أن يقول: إنه ثبت في علم الهيئة أن هذه الثوابت مركوزة في الكرة الثامنة، وأن السيارات الستة مركوزة في الكرات الست المحيطة بسماء الدنيا فكيف يصح قوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ والجواب أن الناس الساكنين على سطح كرة الأرض إذا نظروا إلى السماء فإنهم يشاهدونها مزينة بهذه الكواكب، وعلى أنا قد بينا في علم الهيئة أن الفلاسفة لم يتم لهم دليل في بيان أن هذه الكواكب مركوزة في الفلك الثامن، ولعلنا شرحنا هذا الكلام في تفسير سورة ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١] في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥].

وأما المطلوب الثاني: وهو كون هذه الكواكب زينة السماء الدنيا. ففيه بحثان:

البحث الأول: أن الزينة مصدر كالنسبة واسم لما يزن به، كالليقة اسم لما تلاق به الدواة، قال صاحب الكشاف وقوله: ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ يحتملهما فإن أردت المصدر فعلى إضافته إلى الفاعل أي بأن زينتها الكواكب أو على إضافته إلى المفعول أي بأن زان الله الكواكب وحسنها، لأنها إنما زينت السماء بحسنها في أنفسها، وإن أردت الاسم فللإضافة وجهان أن تقع الكواكب بيانًا للزينة، لأن الزينة قد تحصل بالكواكب وبغيرها، وأن يراد ما زينت به الكواكب.

البحث الثاني: في بيان كيفية كون الكواكب زينة للسماء وجوه الأول: أن النور والضوء أحسن الصفات وأكملها، فإن تحصل هذه الكواكب المشرقة المضيئة في سطح الفلك لا جرم بقي الضوء والنور في جرم الفلك بسبب حصول هذه الكواكب فيها، قال ابن عباس: ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾

أي بضوء الكواكب، الوجه الثاني: يجوز أن يراد أشكالها المتناسبة المختلفة كشكل الجوزاء وبنات نعش والثريا وغيرها، الوجه الثالث: يجوز أن يكون المراد بهذه الزينة كيفية طلوعها وغروبها، الوجه الرابع: أن الإنسان إذا نظر في الليلة الظلماء إلى سطح الفلك ورأى هذه الجواهر الزواهر مشرقة لامعة متلألئة على ذلك السطح الأزرق، فلا شك أنها أحسن الأشياء وأكملها في التركيب والجوهر، وكل ذلك يفيد كون هذه الكواكب زينة.

وأما المطلوب الثالث: وهو قوله: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ **ففيه بحثان:**

**البحث الأول:** فيما يتعلق باللغة فقوله: ﴿وَحِفْظًا﴾ أي وحفظناها، قال المبرد: إذا ذكرت فعلاً ثم عطفت عليه مصدر فعل آخر نصبت المصدر لأنه قد دل على فعله، مثل قولك: أفعل وكرامة، لأنه لما قال: أفعل، علم أن الأسماء لا تعطف على الأفعال، فكان المعنى أفعل ذلك وأكرمك كرامة، قال ابن عباس: يريد حفظ السماء بالكواكب و﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ يريد الذي تمرد على الله قيل إنه الذي لا يتمكن منه، وأصله من الملاسة ومنه قوله: ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ [النمل: ٤٤] ومنه الأمرد: وذكرنا تفسير المارد عند قوله: ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ [التوبة: ١٠١].

**البحث الثاني:** فيما يتعلق بالمباحث العقلية في هذا الموضع، فنقول: الاستقصاء فيه مذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥] قال المفسرون: الشياطين كانوا يصعدون إلى قرب السماء فربما سمعوا كلام الملائكة وعرفوا به ما سيكون من الغيوب، وكانوا يخبرونهم به ويوهمونهم أنهم يعلمون الغيب فمنعهم الله تعالى من الصعود إلى قرب السماء بهذه الشهب فإنه تعالى يرميهم بها فيحرقهم بها.

**وبقي هاهنا سؤالات:**

السؤال الأول: هذه الشهب هل هي من الكواكب التي زين الله السماء بها أم لا؟ والأول باطل لأن هذه الشهب تبطل وتضمحل فلو كانت هذه الشهب تلك الكواكب الحقيقية لوجب أن يظهر نقصان كثير من أعداد كواكب السماء، ومعلوم أن هذا المعنى لم يوجد ألبتة فإن أعداد كواكب السماء باقية في حالة واحدة من غير تغير ألبتة، وأيضًا فجعلها رجومًا للشياطين مما يوجب وقوع النقصان في زينة السماء فكأن الجمع بين هذين المقصودين كالمتناقض، وأما القسم الثاني: وهو أن يقال: إن هذه الشهب جنس آخر غير الكواكب المركوزة في الفلك، فهذا أيضًا مشكل لأنه تعالى قال في سورة: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥] فالضمير في قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ عائد إلى المصابيح، فوجب أن تكون تلك المصابيح هي الرجوع بأعيانها من غير تفاوت، والجواب أن هذه الشهب غير تلك الثواقب الباقية، وأما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥] فنقول: كل نير يحصل في الجو العالي فهو مصابيح لأهل الأرض إلا أن تلك المصابيح منها باقية على وجه الدهر آمنة من التغير والفساد، ومنها ما لا يكون كذلك،

وهي هذه الشهب التي يحدثها الله تعالى ويجعلها رجومًا للشياطين، وبهذا التقدير فقد زال الإشكال، والله أعلم.

**السؤال الثاني**: كيف يجوز أن تذهب الشياطين إلى حيث يعلمون بالتجويز أن الشهب تحرقهم ولا يصلون إلى مقصودهم ألبتة، وهل يمكن أن يصدر مثل هذا الفعل عن عاقل، فكيف من الشياطين الذين لهم مزيّة في معرفة الحيل الدقيقة؟ والجواب: أن حصول هذه الحالة ليس له موضع معين وإلا لم يذهبوا إليه، وإنما يمنعون من المصير إلى مواضع الملائكة ومواضعها مختلفة، فربما صاروا إلى موضع تصيبهم فيه الشهب، وربما صاروا إلى غيره ولا يصادفون الملائكة فلا تصيبهم الشهب، فلما هلكوا في بعض الأوقات، وسلموا في بعض الأوقات، جاز أن يصيروا إلى مواضع يغلب على ظنونهم أنه لا تصيبهم الشهب فيها، كما يجوز فيمن يسلك البحر أن يسلكه في موضع يغلب على ظنه حصول النجاة، هذا ما ذكره أبو علي الجبائي من الجواب عن هذا السؤال في تفسيره. ولقائل أن يقول: إنهم إذا صعدوا فإما أن يصلوا إلى مواضع الملائكة، أو إلى غير تلك المواضع، فإن وصلوا إلى مواضع الملائكة احترقوا، وإن وصلوا إلى غير مواضع الملائكة لم يفوزوا بمقصودهم أصلاً، فعلى كلا التقديرين المقصود غير حاصل، إذا حصلت هذه التجربة وثبت بالاستقراء أن الفوز بالمقصود محال وجب أن يمتنعوا عن هذا العمل وأن لا يقدموا عليه أصلاً بخلاف حال المسافرين في البحر، فإن الغالب عليهم السلامة والفوز بالمقصود، أما ههنا فالشيطان الذي يسلم من الاحتراق إنما يسلم إذا لم يصل إلى مواضع الملائكة، وإذا لم يصل إلى تلك المواضع لم يفز بالمقصود، فوجب أن لا يعود إلى هذا العمل ألبتة، والأقرب في الجواب أن نقول هذه الوقعة إنما تتفق في الندرة، فلعلها لا تشتهر بسبب كونها نادرة بين الشياطين، والله أعلم.

**السؤال الثالث**: قالوا: دلت التواريخ المتواترة على أن حدوث الشهب كان حاصلاً قبل مجيء النبي ﷺ، فإن الحكماء الذين كانوا موجودين قبل مجيء النبي ﷺ بزمان طويل ذكروا ذلك وتكلموا في سبب حدوثه، إذا ثبت أن ذلك كان موجودًا قبل مجيء النبي ﷺ امتنع حمله على مجيء النبي ﷺ، أجاب القاضي بأن الأقرب أن هذه الحالة كانت موجودة قبل النبي ﷺ لكنها كثرت في زمان النبي ﷺ فصارت بسبب الكثرة معجزة.

**السؤال الرابع**: الشيطان مخلوق من النار، قال تعالى حكاية عن إبليس ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ [الأعراف: ١٢] وقال: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧] ولهذا السبب يقدر على الصعود إلى السموات، وإذا كان كذلك فكيف يعقل إحراق النار بالنار؟ والجواب يحتمل أن الشياطين وإن كانوا من النيران إلا أنها نيران ضعيفة، فإن وصلت نيران الشهب إليهم، وتلك النيران أقوى حالاً منهم لا جرم، صار الأقوى مبطلاً للأضعف، ألا ترى أن السراج الضعيف إذا رجع في النار القوية فإنه ينطفئ، فكذلك ههنا.

السؤال الخامس: أن مقر الملائكة هو السطح الأعلى من الفلك، والشياطين لا يمكنهم الوصول إلا إلى الأقرب من السطح الأسفل من الفلك، فيبقى جرم الفلك مانعًا من وصول الشياطين إلى القرب من الملائكة، ولعل الفلك عظيم المقدار دفع حصول هذا المانع العظيم، كيف يعقل أن تسمع الشياطين كلام الملائكة، فإن قلتم إن الله تعالى يقوي سمع الشيطان حتى يسمع كلام الملائكة، فنقول: فعلى هذا التقدير إذا كان الله تعالى يقوي سمع الشيطان حتى يسمع كلام الملائكة، وجب أن لا ينفي سمع الشيطان، وإن كان لا يريد منع الشيطان من العمل فما الفائدة في رميه بالرجوم؟ فالجواب: مذهبنا أن أفعال الله تعالى غير معللة، فيفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد، ولا اعتراض لأحد عليه في شيء من أفعاله، فهذا ما يتعلق بمباحث هذا الباب، وإذا أضيف ما كتبناه ههنا إلى ما كتبناه في سورة الملك، وفي سائر الآيات المشتملة على هذه المسألة بلغ تمام الكفاية في هذا الباب، والله أعلم.

**وأما قوله:** ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

**ففيه مسائل:**

**المسألة الأولى:** قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم (لاَ يَسَّمَّعُونَ) بتشديد السين والميم وأصله يتسمعون، فأدغمت التاء في السين لاشتراكهما في الهمس، والتسمع تطلب السماع يقال: تسمع سمع أو لم يسمع، والباقون بتخفيف السين، واختار أبو عبيد التشديد في (يسمعون)، قال: لأن العرب تقول: تسمعت إلى فلان، ويقولون: سمعت فلانًا، ولا يكادون يقولون: سمعت إلى فلان، وقيل في تقوية هذه القراءة إذا نفى التسمع، فقد نفى سمعه، وحجة القراءة الثانية قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾[الشعراء: ٢١٢] وروى مجاهد عن ابن عباس: أن الشياطين يسمعون إلى الملأ الأعلى، ثم يمنعون فلا يسمعون، وللأولين أن يجيبوا فيقولون التنصيص على كونهم معزولين عن السمع لا يمنع من كونهم معزولين أيضًا عن التسمع بدلالة هذه الآية، بل هو أقوى في ردع الشياطين ومنعهم من استماع أخبار السماء، فإن الذي منع من الاستماع فبأن يكون ممنوعًا من السمع أولى.

**المسألة الثانية:** الفرق بين قولك سمعت حديث فلان، وبين قولك سمعت إلى حديثه، بأن قولك سمعت حديثه يفيد الإدراك، وسمعت إلى حديثه يفيد الإصغاء مع الإدراك.

**المسألة الثالثة:** في قوله: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ قولان الأول: وهو المشهور أن تقدير الكلام: لئلا يسمعوا، فلما حذف الناصب عاد الفعل إلى الرفع كما قال: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾[النساء: ١٧٦] وكما قال: ﴿رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[النحل: ١٥] قال صاحب (الكشاف): حذف أن واللام كل واحد منهما جائز بانفراده. أما اجتماعهما فمن المنكرات التي يجب صون القرآن عنها. والقول الثاني: وهو الذي اختاره صاحب (الكشاف) أنه كلام مبتدأ منقطع عما قبله، وهو حكاية حال المسترقة للسمع وأنهم لا يقدرون أن يسمعوا إلى كلام الملائكة، ويتسمعوا وهم مقذوفون بالشهب، مدحورون عن ذلك المقصود.

المسألة الرابعة: الملأ الأعلى الملائكة لأنهم يسكنون السموات. وأما الإنس والجن فهم الملأ الأسفل لأنهم سكان الأرض.

واعلم أنه تعالى وصف أولئك الشياطين بصفات ثلاثة الأولى: أنهم لا يسمعون، الثانية: أنهم يقذفون من كل جانب دحورًا وفيه أبحاث:

**الأول:** قد ذكرنا معنى الدحور في سورة الأعراف عند قوله: ﴿ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾ [الأعراف: ١٨] قال المبرد: الدحور أشد الصغار والذل. وقال ابن قتيبة: دحرته دحرًا ودحورًا أي دفعته وطردته.

**البحث الثاني:** في انتصاب قوله: ﴿دُحُورٗاۖ﴾ وجوه الأول: أنه انتصب بالمصدر على معنى يدحرون دحورًا، ودل على الفعل قوله تعالى: ﴿وَيُقۡذَفُونَ﴾، الثاني: التقدير ويقذفون للدحور ثم حذف اللام، الثالث: قال مجاهد: دحورًا مطرودين، فعلى هذا هو حال سميت بالمصدر كالركوع والسجود والحضور.

**البحث الثالث:** قرأ أبو عبد الرحمن السلمي (دحورًا) بفتح الدال قال الفراء: كأنه قال يقذفون يدحرون بما يدحر، ثم قال ولست أشتهي الفتح، لأنه لو وجد ذلك على صحة لكان فيها الباء كما تقول يقذفون بالحجارة ولا تقول يقذفون الحجارة إلا أنه جائز في الجملة كما قال الشاعر:

نغالي اللحم للأضياف نيئا

أي نغالي باللحم.

الصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ﴾ والمعنى أنهم مرجومون بالشهب وهذا العذاب مسلط عليهم على سبيل الدوام، وذكرنا تفسير الواصب في سورة النحل عند قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ [النحل: ٥٢] قالوا كلهم: إنه الدائم، قال الواحدي: ومن فسر الواصب بالشديد والموجع فهو معنى وليس بتفسير.

**ثم قال تعالى:** ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ﴾ ذكرنا معنى الخطف في سورة الحج قال الزجاج: وهو أخذ الشيء بسرعة، وأصل خطف اختطف قال صاحب (الكشاف) ﴿مَنۡ﴾ في محل الرفع بدل من الواو في ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ أي لا يسمع الشياطين إلا الشيطان الذي خطف الخطفة أي اختلس الكلمة على وجه المسارقة ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ﴾ يعني لحقه وأصابه يقال: تبعه وأتبعه إذا مضى في أثره وأتبعه إذا لحقه وأصله من قوله تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الأعراف: ١٧٥] وقد مر تفسيره. وقوله تعالى: ﴿شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾ قال الحسن: ثاقب أي مضيء، وأقول سمي ثاقبًا لأنه يثقب بنوره الهواء، قال ابن عباس في تفسير قوله: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ٣] قال: إنه رجل سمي بذلك لأنه يثقب بنوره سمك سبع سموات، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ١١﴾

**في الآية مسائل:**

المسألة الأولى: في بيان النظم اعلم أنا قد ذكرنا أن المقصد الأقصى من هذا الكتاب الكريم

إثبات الأصول الأربعة وهي الإلهيات والمعاد والنبوة وإثبات القضاء والقدر. فنقول: إنه تعالى افتتح هذه السورة بإثبات ما يدل على وجود الصانع ويدل على وحدانيته وهو خلق السموات والأرض وما بينهما وخلق المشارق والمغارب، فلما أحكم الكلام في هذا الباب فرع عليها إثبات القول بالحشر والنشر والقيامة.

واعلم أن الكلام في هذه المسألة يتعلق بطرفين أولهما: إثبات الجواز العقلي، وثانيهما: إثبات الوقوع، أما الكلام في المطلوب الأول فاعلم أن الاستدلال على الشيء يقع على وجهين أحدهما: أن يقال: إنه قدر على ما هو أصعب وأشد وأشق منه فوجب أيضًا أن يقدر عليه، والثاني: أن يقال: إنه قدر عليه في إحدى الحالتين والفاعل والقابل باقيين كما كانا، فوجب أن تبقى القدرة عليه في الحالة الثانية والله تعالى ذكر هذين الطريقين في بيان أن القول بالبعث والقيامة أمر جائز ممكن. أما الطريق الأول: فهو المراد من قوله: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ والتقدير كأنه تعالى يقول: استفت يا محمد هؤلاء المنكرين أهم أشد خلقًا من خلق السموات والأرض وما بينهما وخلق المشارق والمغارب وخلق الشياطين الذين يصعدون الفلك؟ ولا شك أنهم يعترفون بأن خلق هذا القسم أشق وأشد في العرف من خلق القسم الأول، فلما ثبت بالدلائل المذكورة في إثبات التوحيد كونه تعالى قادرًا على هذا القسم الذي هو أشد وأصعب، فبأن يكون قادرًا على إعادة الحياة في هذه الأجساد كان أولى، ونظير هذه الدلالة قوله تعالى في آخر يس ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١] وقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وأما الطريق الثاني: فهو المراد من قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ والمعنى أن هذه الأجسام قابلة للحياة إذ لو لم تكن قابلة للحياة لما صارت حية في المرة الأولى والإله قادر على خلق هذه الحياة في هذه الأجسام، ولولا كونه تعالى قادرًا على هذا المعنى لما حصلت الحياة في المرة الأولى، ولا شك أن قابلية تلك الأجسام باقية وأن قادرية الله تعالى باقية لأن هذه القابلية وهذه القادرية من الصفات الذاتية فامتنع زوالها فثبت بهذين الطريقين أن القول بالبعث والقيامة أمر ممكن، ولما بين تعالى إمكان هذا المعنى بهذين الطريقين بين وقوعه بقوله؛ ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ [الصافات: ١٨] وذلك لأنه ثبت صدق الرسول ﷺ لأجل ظهور المعجزات عليه والصادق إذا أخبر عن أمر ممكن الوقوع وجب الاعتراف بوقوعه فهذا تقرير نظم هذه الآية وهو في غاية الحسن، والله أعلم.

المسألة الثانية: في تفسير ألفاظ هذه الآية، أما قوله: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ يعني أنه لما ثبت بالدلائل القاطعة كونه تعالى خالقًا للسموات والأرض وما بينهما فاستفت هؤلاء المنكرين وقل لهم: ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أم هذه الأشياء التي بينا كونه تعالى خالقًا لها؟ ولم يحك عنهم أنهم أقروا أن خلق هذه الأشياء أصعب لأجل أن ظهور ذلك كالمعلوم بالضرورة فلا حاجة أن يحكى عنهم صحة أن الأمر كذلك.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ يعني أنا لما قدرنا على خلق الحياة في ذواتهم أولاً وجب أن نبقى قادرين على خلق الحياة فيهم ثانيًا، لما بينا أن حال القابل وحال الفاعل ممتنع التغير. وفيه دقيقة أخرى وهي أن القوم قالوا كيف يعقل تولد الإنسان لا من النطفة ولا من الأبوين؟ فكأنه قيل لهم: إنكم لما أقررتم بحدوث العالم واعترفتم بأن السموات والأرض وما بينهما إنما حصل بتخليق الله تعالى وتكوينه فلا بد وأن تعترفوا بأن الإنسان الأول إنما حدث لا من الأبوين، فإذا عقلتم ذلك واعترفتم به فقد سقط قولكم: الإنسان كيف يحدث من غير النطفة ومن غير الأبوين؟ وأيضًا قد اشتهر عند الجمهور أن آدم مخلوق من الطين اللازب ومن قدر على خلق الحياة في الطين اللازب فكيف يعجز عن إعادة الحياة إلى هذه الذوات. وأما كيفية خلق الإنسان من الطين اللازب فهي مذكورة في السورة المتقدمة، واعلم أن هذا الوجه إنما يحسن إذا قلنا المراد من قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ هو أنا خلقنا أباهم آدم من طين لازب، وفيه وجوه أخر وهو أن يكون المراد أنا خلقنا كل إنسان من طين لازب، وتقريره أن الحيوان إنما يتولد من المني ودم الطمث والمني يتولد من الدم فالحيوان إنما يتولد من الدم والدم إنما يتولد من الغذاء، والغذاء إما حيواني وإما نباتي أما تولد الحيوان الذي صار غذاء فالكلام في كيفية تولده كالكلام في تولد الإنسان، فثبت أن الأصل في الأغذية هو النبات والنبات إنما يتولد من امتزاج الأرض بالماء وهو الطين اللازب، وإذا كان الأمر كذلك فقد ظهر أن كل الخلق متولدون من الطين اللازب، وإذا ثبت هذا فنقول: إن هذه الأجزاء التي منها تركب هذا الطين اللازب قابلة للحياة والله تعالى قادر عليها، وهذه القابلية والقادرية واجبة البقاء فوجب بقاء هذه الصحة في كل الأوقات وهذه بيانات ظاهرة واضحة، وأما اللازب فقيل اللاصق، وقيل اللزج وقيل الجيد، وأكثر أهل اللغة على أن الباء في لازب بدل من الميم يقال لازب ولازم.

## قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝١٢﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: تقرير الكلام أن يقال: إن هؤلاء المنكرين أقروا بأنه تعالى قادر على تكوين أشياء أصعب من إعادة الحياة إلى هذه الأجساد، وقد تقرر في صرائح العقول أن القادر على الأشق الأشد يكون قادرًا على الأسهل الأيسر، ثم مع قيام هذه الحجة البديهية بقي هؤلاء الأقوام مصرين على إنكار البعث والقيامة وهذا في موضع التعجب الشديد فإن مع ظهور هذه الحجة الجلية الظاهرة كيف يعقل بقاء القوم على الإصرار فيه. فأنت يا محمد تتعجب من إصرارهم على الإنكار وهم في طرف الإنكار وصلوا إلى حيث يسخرون منك في قولك بإثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة، فهذا هو المراد من قوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾.

المسألة الثانية: قرأ حمزة والكسائي (عَجِبْتُ) بضم التاء والباقون بفتحها قال الواحدي:

والضم قراءة ابن عباس وابن مسعود وإبراهيم ويحيى بن وثاب والأعمش وقراءة أهل الكوفة واختيار أبي عبيدة، أما الذين قرأوا بالفتح فقد احتجوا بوجوه الأول: أن القراءة بالضم تدل على إسناد العجب إلى الله تعالى وذلك محال، لأن التعجب حالة تحصل عند الجهل بصفة الشيء ومعلوم أن الجهل على الله محال، والثاني: أن الله تعالى أضاف التعجب إلى محمد ﷺ في آية أخرى في هذه المسألة فقال: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ [الرعد: ٥]، والثالث: أنه تعالى قال: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ والظاهر أنهم إنما سخروا لأجل ذلك التعجب فلما سخروا منه وجب أن يكون ذلك التعجب صادرًا منه، وأما الذين قرءوا بضم التاء، فقد أجابوا عن الحجة الأولى من وجوه الأول: أن القراءة بالضم لا نسلم أنها تدل على إسناد التعجب إلى الله تعالى، وبيانه أنه يكون التقدير قل يا محمد: ﴿بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ﴾ ونظيره قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ [مريم: ٣٨] معناه أن هؤلاء ما تقولون فيه أنتم هذا النحو من الكلام، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥] الثاني: سلمنا أن ذلك يقتضي إضافة التعجب إلى الله تعالى فلم قلتم إن ذلك محال؟ ويروى أن شريحًا كان يختار القراءة بالنصب ويقول العجب لا يليق إلا بمن لا يعلم، قال الأعمش: فذكرت ذلك لإبراهيم فقال: إن شريحًا يعجب بعلمه وكان عبد الله أعلم، وكان يقرأ بالضم وتحقيق القول فيه أن نقول: دل القرآن والخبر على جواز إضافة العجب إلى الله تعالى، أما القرآن فقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ [الرعد: ٥] والمعنى إن تعجب يا محمد من قولهم، فهو أيضًا عجب عندي، وأجيب عنه أنه لا يمتنع أن يكون المراد وإن تعجب فعجب قولهم عندكم، وأما الخبر فقوله ﷺ: «عَجِبَ رَبُّكُمْ مِنْ إِلِّكُمْ وَقُنُوطِكُمْ، وَعَجِبَ رَبُّكُمْ مِنْ شَابٍّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ»(١).

وإذا ثبت هذا فنقول: العجب من الله تعالى خلاف العجب من الآدميين كما قال: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠] وقال: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] والمكر والخداع والسخرية من الله تعالى بخلاف هذه الأحوال من العباد، وقد ذكرنا أن القانون في هذا الباب أن هذه الألفاظ محمولة على نهايات الأعراض لا على بدايات الأعراض. وكذلك ههنا من تعجب من شيء فإنه يستعظمه فالتعجب في حق الله تعالى محمول على أنه تعالى يستعظم تلك الحالة إن كانت قبيحة فيترتب العقاب العظيم عليه، وإن كانت حسنة فيترتب الثواب العظيم عليه، فهذا تمام الكلام في هذه المناظرة، والأقرب أن يقال: القراءة بالضم إن ثبتت بالتواتر وجب المصير إليها ويكون التأويل ما ذكرناه وإن لم تثبت هذه القراءة بالتواتر كانت القراءة بفتح التاء أولى، والله أعلم.

---

(١) لم أجده.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ۝١٣ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۝١٤ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٥ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝١٧ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ۝١٨ ﴾

اعلم أنه تعالى لما قرر الدليل القاطع في إثبات إمكان البعث والقيامة حكى عن المنكرين أشياء أولها: أن النبي ﷺ يتعجب من إصرارهم على الإنكار وهم يسخرون منه في إصراره على الإثبات، وهذا يدل على أنه ﷺ مع أولئك الأقوام كانوا في غاية التباعد وفي طرفي النقيض، وثانيها قوله: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ﴾، وثالثها قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ ويجب أن يكون المراد من هذا الثاني والثالث غير الأول لأن العطف يوجب التغاير ولأن التكرير خلاف الأصل، والذي عندي في هذا الباب أن يقال القوم كانوا يستبعدون الحشر والقيامة ويقولون: من مات وصار ترابًا وتفرقت أجزاؤه في العالم كيف يعقل عوده بعينه؟ وبلغوا في هذا الاستبعاد إلى حيث كانوا يسخرون ممن يذهب إلى هذا المذهب وإذا كان كذلك فلا طريق إلى إزالة هذا الاستبعاد عنهم إلا من وجهين أحدهما: أن يذكر لهم الدليل الدال على صحة الحشر والنشر مثل أن يقال لهم: هل تعلمون أن خلق السموات والأرض أشد وأصعب من إعادة إنسان بعد موته؟ وهل تعلمون أن القادر على الأصعب الأشق يجب أن يكون قادرًا على الأسهل الأيسر؟ فهذا الدليل وإن كان جليًّا قويًّا إلا أن أولئك المنكرين إذا عرض على عقولهم هذه المقدمات لا يفهمونها ولا يقفون عليها، وإذا ذكروا لم يذكروها لشدة بلادتهم وجهلهم، فلا جرم لم ينتفعوا بهذا النوع من البيان.

الطريق الثاني: أن يثبت الرسول ﷺ جهة رسالته بالمعجزات ثم يقول لما ثبت بالمعجز كوني رسولاً صادقًا من عند الله فأنا أخبركم بأن البعث والقيامة حق، ثم إن أولئك المنكرين لا ينتفعون بهذا الطريق أيضًا لأنهم إذا رأوا معجزة قاهرة وآية باهرة حملوها على كونها سحرًا وسخروا بها واستهزءوا منها وهذا هو المراد من قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ فظهر بالبيان الذي ذكرناه أن هذه الألفاظ الثلاثة منبهة على هذه الفوائد الجليلة.

واعلم أن أكثر الناس لم يقفوا على هذه الدقائق، فقالوا: إنه تعالى قال: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢].

ثم قال: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ فوجب أن يكون المراد من قوله: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ غير ما تقدم ذكره من قوله: ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ فقال هذا القائل: المراد من قوله: ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ إقدامهم على السخرية والمراد من قوله: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ طلب كل واحد منهم من صاحبه أن يقدم على السخرية وهذا التكليف إنما لزمهم لعدم وقوفهم على الفوائد التي ذكرناها، والله أعلم، والرابع: من الأمور التي حكاها الله تعالى عنهم أنهم قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يعني أنهم إذا رأوا آية ومعجزة سخروا منها، والسبب في تلك السخرية اعتقادهم أنها من باب السحر وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾

معناه أن كونه سحرًا أمر بين لا شبهة لأحد فيه، ثم بين تعالى أن السبب الذي يحملهم على الاستهزاء بالقول بالبعث وعلى عدم الالتفات إلى الدلائل الدالة على صحة القول وعلى الاستهزاء بجميع المعجزات هو قولهم: إن الذي مات وتفرقت أجزاؤه في جملة العالم فما فيه من الأرضية اختلط بتراب الأرض وما فيه من المائية والهوائية اختلط ببخارات العالم فهذا الإنسان كيف يعقل عوده بعينه حيًّا فاهمًا؟ فهذا الكلام هو الذي يحملهم على تلك الأحوال الثلاثة المتقدمة، ثم إنه تعالى لما حكى عنهم هذه الشبهة قال: قل يا محمد نعم وأنتم داخرون وإنما اكتفى تعالى بهذا القدر من الجواب لأنه ذكر في الآية المتقدمة بالبرهان اليقيني القطعي أنه أمر ممكن وإذا ثبت الجواز القطعي فلا سبيل إلى القطع بالوقوع إلا بإخبار المخبر الصادق، فلما قامت المعجزات على صدق محمد ﷺ كان واجب الصدق فكان مجرد قوله: ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ دليلاً قاطعًا على الوقوع. ومن تأمل في هذه الآيات علم أنها وردت على أحسن وجوه الترتيب، وذلك لأنه بين الإمكان بالدليل العقلي وبين وقوع ذلك الممكن بالدليل السمعي، ومن المعلوم أن الزيادة على هذا البيان كالأمر الممتنع.

**أما قوله:** ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا﴾ فالمعنى أو تبعث آباؤنا وهذه ألف الاستفهام دخلت على حرف العطف وقرأ نافع وابن عامر ههنا، وفي سورة الواقعة ساكنة الواو وذكرنا الكلام في هذا في سورة الأعراف عن قوله: ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [الأعراف: ٩٨].

**أما قوله تعالى:** ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ فنقول قرأ الكسائي وحده (نعم) بكسر العين.

**أما قوله تعالى:** ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ أي صاغرون، قال أبو عبيد: الدخور أشد الصغار، وذكرنا تفسير هذه اللفظة عند قوله: ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بين في الآية المتقدمة ما يدل على إمكان البعث والقيامة، ثم أردفه بما يدل على وقوع القيامة، ذكر في هذه الآيات بعض تفاصيل أحوال القيامة، وأنه تعالى ذكر في هذه الآية أنواعًا من تلك الأحوال فالحالة الأولى: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾.

**وفيه أبحاث:**

**البحث الأول:** قوله: ﴿فَإِنَّمَا﴾ جواب شرط مقدر والتقدير إذا كان كذلك فما هي إلا زجرة واحدة.

**البحث الثاني:** الضمير في قوله: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ﴾ ضمير على شريطة التفسير، والتقدير فإنما البعث زجرة واحدة.

**البحث الثالث:** الزجرة في اللغة الصيحة التي يزجر بها كالزجرة بالنعم والإبل عند البحث ثم

كثر استعمالها حتى صارت بمعنى الصيحة وإن لم يكن فيها معنى الزجر كما في هذه الآية وأقول لا يبعد أن يقال إن تلك الصيحة إنما سميت زجرة لأنها تزجر الموتى عن الرقود في القبور وتحثهم على القيام من القبور والحضور في موقف القيامة، فإذا عرفت هذا فنقول: المراد من هذه الزجرة ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] فبالنفخة الأولى يموتون وبالنفخة الثانية يحيون ويقومون، وههنا سؤالات:

السؤال الأول: ما الفائدة في هذه الصيحة فإن القوم في تلك الساعة أموات؟ لأن النفخة جارية مجرى السبب لحياتهم فتكون مقدمة على حصول حياتهم فثبت أن هذه الصيحة إنما حصلت حال كون الخلق أمواتًا، فتكون تلك الصيحة عديمة الفائدة فهي عبث والعبث لا يجوز في فعل الله، والجواب: أما أصحابنا فيقولون: يفعل الله ما يشاء، وأما المعتزلة فقال القاضي: فيه وجهان الأول: أن تعتبر بها الملائكة، الثاني: أن تكون الفائدة التخويف والإرهاب.

السؤال الثاني: هل لتلك الصيحة تأثير في إعادة الحياة؟ الجواب: لا، بدليل أن الصيحة الأولى استعقبت الموت والثانية الحياة وذلك يدل على أن الصيحة لا أثر لها في الموت ولا في الحياة، بل خالق الموت والحياة هو الله تعالى كما قال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢].

السؤال الثالث: تلك الصيحة صوت الملائكة أو الله تعالى يخلقها ابتداء؟ الجواب: الكل جائز إلا أنه روي أن الله تعالى يأمر إسرافيل حتى ينادي: أيتها العظام النخرة والجلود البالية والأجزاء المتفرقة اجتمعوا بإذن الله تعالى. اللفظ الرابع: من الألفاظ المذكورة في هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ فيحتمل أن يكون المراد ينظرون ما يحدث بهم ويحتمل ينظر بعضهم إلى بعض وأن يكون المراد ينظرون إلى البعث الذي كذبوا به، الحالة الثانية: من وقائع القيامة ما أخبر الله عنهم أنهم بعد القيام من القبور قالوا: ﴿يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ قال الزجاج: الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة والمقصود أنهم لما شاهدوا القيامة قالوا: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ أي يوم الجزاء هذا، والمقصود أن الله تعالى ذكر في آيات كثيرة من القرآن، أنا نرى في الدنيا محسنًا ومسيئًا وعاصيًا وصديقًا وزنديقًا، ورأينا أنه لم يصل إليهم في الدنيا ما يليق بهم من الجزاء فوجب القول بإثبات القيامة: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]وبالجملة فهذا يدل على أن الجزاء إنما يحصل بعد الموت، والكفار وإن سمعوا هذا الدليل القوي لكنهم أنكروا وتمردوا ثم إنه تعالى إذا أحياهم يوم القيامة فإذا شاهدوا القيامة يذكرون ذلك اليوم ويقولون: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ أي يوم الجزاء الذي ذكر الله الدلائل الكثيرة عليه في القرآن فكفرنا بها، ونظيره أن من خوف بشيء ولم يلتفت إليه، ثم عاينه بعد ذلك فقد يقول: هذا يوم الواقعة الفلانية، فكذا ههنا، وفيه احتمال آخر وهو أنه تعالى قال في سورة الفاتحة: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] فبين أنه لا مالك في ذلك اليوم إلا الله فقولهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾، إشارة إلى أن هذا هو اليوم الذي لا حكم فيه لأحد إلا لله، وإنما ذكروه لما حصل في قلوبهم من الخوف الشديد.

**أما قوله تعالى:** ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

**ففيه بحثان:**

**الأول:** اختلفوا في أن هذا هو من بقية كلام الكفار أو يقال: تم كلامهم عند قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ . وأما قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ فهو كلام غيرهم، فبعضهم قال بالأول وزعم أن قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ الآية من كلام بعضهم لبعض، والأكثرون على القول الثاني واحتجوا بوجهين: الأول: أن قوله: ﴿كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ من كلام بعضهم لبعض خطاب مع جميع الكفار فقائل هذا القول لا بد وأن يكون غير الكفار.

**الثاني:** أن قوله: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] منسوق على قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ فلما كان قوله: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كلام غير الكفار فكذلك قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ يجب أن يكون كلام غير الكفار، وعلى هذا التقدير فقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ من كلام الكفار، وقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ من كلام الملائكة جوابًا لهم، والوجه في كونه جوابًا لهم أن أولئك الكفار، إنما اعتقدوا في أنفسهم كونهم محقين في إنكار دعوة الأنبياء عليهم السلام وكونهم محقين في تلك الأديان الفاسدة فقالوا: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ أي هذا اليوم الذي يصل فيه إلينا جزاء طاعتنا وخيراتنا، فالملائكة يقولون لهم: إنه لا اعتبار بظواهر الأمور في هذا اليوم فإن هذا اليوم يفصل فيه الجزاء الحقيقي عن الجزاء الظاهري وتميز فيه الطاعات الحقيقية عن الطاعات المقرونة بالرياء والسمعة، فبهذا الطريق صار هذا الكلام من الملائكة جوابًا لما ذكره الكفار.

**قوله تعالى:** ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

**ثم قال تعالى:** ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾.

**وفي الآية أبحاث:**

**البحث الأول:** اعلم أنه لا نزاع في أن هذا من كلام الملائكة فإن قيل: ما معنى: ﴿احْشُرُوا﴾ مع أنهم قد حشروا من قبل وحضروا في محفل القيامة وقالوا: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الصافات: ٢٠] وقالت الملائكة لهم: بل ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ [الصافات: ٢١] أجاب القاضي عنه، فقال: المراد احشروهم إلى دار الجزاء وهي النار، ولذلك قال بعده: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أي خذوهم إلى ذلك الطريق ودلوهم عليه ثم سأل نفسه فقال: كيف يصح ذلك وقد قال بعده ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ ومعلوم أن حشرهم إلى الجحيم، إنما يكون بعد المسألة، وأجاب أنه ليس في العطف بحرف الواو ترتيب

فلا يمتنع أن يقال: احشروهم وقفوهم، مع أنا بعقولنا نعلم أن الوقوف كان قبل الحشر إلى النار، هذا ما قاله القاضي، وعندي فيه وجه آخر وهو أن يقال: إنهم إذا قاموا من قبورهم لم يبعد أن يقفوا هناك بحيرة تلحقهم بسبب معاينة أهوال القيامة، ثم إن الله تعالى يقول للملائكة: احشروا الذين ظلموا واهدوهم إلى صراط الجحيم، أي سوقوهم إلى طريق جهنم وقفوهم هناك وتحصل المسألة هناك ثم من هناك يساقون إلى النار وعلى هذا التقدير فظاهر النظم موافق لما عليه الوجه.

**البحث الثاني:** الآمر في قوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ هو الله فهو تعالى أمر الملائكة أن يحشروا الكفار إلى موقف السؤال والمراد من الحشر أن الملائكة يسوقونهم إلى ذلك الموقف.

**البحث الثالث:** أن الله أمر الملائكة بحشر ثلاثة أشياء: الظالمين، وأزواجهم، والأشياء التي كانوا يعبدونها. وفيه فوائد:

**الفائدة الأولى:** أنه تعالى قال: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ ثم ذكر من صفات الذين ظلموا كونهم عابدين لغير الله وهذا يدل على أن الظالم المطلق هو الكافر وذلك يدل على أن كل وعيد ورد في حق الظالم فهو مصروف إلى الكفار ومما يؤكد هذا قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

**الفائدة الثانية:** اختلفوا في المراد بأزواجهم وفيه ثلاثة أقوال الأول: المراد بأزواجهم أشباههم أي أحزابهم ونظراؤهم من الكفر فاليهودي مع اليهودي والنصراني مع النصراني والذي يدل على جواز أن يكون المراد من الأزواج الأشباه وجوه الأول: قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَـٰثَةً﴾ [الواقعة: ٧] أي أشكالاً وأشباهًا الثاني: أنك تقول: عندي من هذا أزواج أي أمثال وتقول زوجان من الخف لكون كل واحد منهما نظير الآخر وكذلك الرجل والمرأة سميا زوجين لكونهما متشابهين في أكثر أحكام النكاح وكذلك العدد الزوج سمي بهذا الاسم لكون كل واحد من سميه مثالاً للقسم الثاني في العدد الصحيح، قال الواحدي: فعلى هذا القول يجب أن يكون المراد بالذين ظلموا الرؤساء لأنك لو جعلت الذين ظلموا عامًّا في كل من أشرك لم يكن للأزواج معنى. القول الثاني: في تفسير الأزواج أن المراد قرناؤهم من الشياطين لقوله تعالى: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]، والقول الثالث: أن المراد نساؤهم اللواتي على دينهم.

**أما قوله:** ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ففيه قولان الأول: المراد ما كانوا يعبدون من دون الله من الأوثان والطواغيت، ونظيره قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] قيل المراد بالناس عباد الأوثان والمراد بالحجارة الأصنام التي هي أحجار منحوتة، فإن قيل: إن تلك الأحجار جمادات فما الفائدة في حشرها إلى جهنم؟ أجاب القاضي بأنه ورد الخبر بأنها تعاد وتحيا لتحصل المبالغة في توبيخ الكفار الذين كانوا يعبدونها ولقائل أن يقول: هب أن الله تعالى يحيي تلك الأصنام إلا أنه لم يصدر عنها ذنب، فكيف يجوز من الله تعالى

تعذيبها؟ والأقرب أن يقال: إن الله تعالى لا يحيي تلك الأصنام بل يتركها على الجمادية. ثم يلقيها في جهنم لأن ذلك مما يزيد في تخجيل الكفار، القول الثاني: أن المراد من قوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الشياطين الذين دعوهم إلى عبادة ما عبدوا فلما قبلوا منهم ذلك الدين صاروا كالعابدين لأولئك الشياطين وتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠] والقول الأول أولى لأن الشياطين عقلاء وكلمة (ما) لا تليق بالعقلاء، والله أعلم.

ثم قال: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ قال ابن عباس: دلوهم. يقال هديت الرجل إذا دللته وإنما استعملت الهداية ههنا، لأنه جعل بدل الهداية إلى الجنة، كما قال: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] فوقعت البشارة بالعذاب لهؤلاء بدل البشارة بالنعيم لأولئك، وعن ابن عباس ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾ سوقوهم. وقال الأصم: قدموهم، قال الواحدي: وهذا وهم، لأنه يقال هدى إذا تقدم ومنه الهداية والهوادي والهاديات الوحش، قال: ولا يقال هدى بمعنى قدم، ثم قال ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ يقال: وقفت الدابة أقفها وقفًا فوقفت هي وقوفًا، والمعنى احبسوهم وفي الآية قولان أحدهما: على التقديم والتأخير، والمعنى قفوهم واهدوهم، والأصوب أنه لا حاجة إليه، بل كأنه قيل: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ فإذا انتهوا إلى الصراط قيل: ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ فإن السؤال يقع هناك. وقوله: ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ قيل: عن أعمالهم في الدنيا وأقوالهم، وقيل: المراد سألتهم الخزنة ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ ... ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١] ويجوز أن يكون هذا السؤال ما ذكر بعد ذلك وهو قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أي أنهم يسألون توبيخًا لهم، فيقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا ينصر بعضكم بعضًا كما كنتم في الدنيا، وذلك أن أبا جهل قال يوم بدر: نحن جميع منتصر، فقيل لهم يوم القيامة ما لكم غير متناصرين، وقيل: يقال للكفار: ما لشركائكم لا يمنعونكم من العذاب.

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ يقال استسلم للشيء إذا انقاد له وخضع، ومعناه في الأصل طلب السلامة بترك المنازعة، والمقصود أنهم صاروا منقادين لا حيلة لهم في دفع تلك المضار لا العابد ولا المعبود.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ قيل هم والشياطين، وقيل الرؤساء والأتباع. ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي يسأل بعضهم بعضًا، وهذا التساؤل عبارة عن التخاصم وهو سؤال التبكيت يقولون: غررتمونا، ويقول أولئك: لم قبلتم منا، وبالجملة فليس ذلك تساؤل المستفهمين، بل هو تساؤل التوبيخ واللوم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ۝٢٨ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٢٩ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ۝٣٠ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ

﴿٣١ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ٣٢ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ٣٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ
بِٱلْمُجْرِمِينَ ٣٤ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا
لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ٣٦ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ٣٧ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟
ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ٣٨ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ٤٠﴾

واعلم أن الله تعالى لما حكى عنهم أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون شرح كيفية ذلك التساؤل فقال: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ وهذا قول الأتباع لمن دعاهم إلى الضلالة، وفي تفسير اليمين وجوه الأول: أن لفظ اليمين ههنا استعارة عن الخيرات والسعادات، وبيان كيفية هذه الاستعارة، أن الجانب الأيمن أفضل من الجانب الأيسر لوجوه أحدها: اتفاق الكل على أن أشرف الجانبين هو اليمين. والثاني: لا يباشرون الأعمال الشريفة إلا باليمين مثل مصافحة الأخيار والأكل والشرب وما على العكس منه يباشرونه باليد اليسرى. الثالث: أنهم كانوا يتفاءلون وكانوا يتيمنون بالجانب الأيمن ويسمونه بالبارح. الرابع: أن النبي ﷺ كان يحب التيامن في كل شيء. الخامس: أن الشريعة حكمت بأن الجانب الأيمن لكاتب الحسنات والأيسر لكاتب السيئات. السادس: أن الله تعالى وعد المحسن أن يؤتى كتابه بيمينه، والمسيء أن يؤتى كتابه بيساره، فثبت أن الجانب الأيسر، وإذا كان كذلك لا جرم، استعير لفظ اليمين للخيرات والحسنات والطاعات، فقوله: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ يعني أنكم كنتم تخدعوننا وتوهمون لنا أن مقصودكم من الدعوة إلى تلك الأديان نصرة الحق وتقوية الصدق. والوجه الثاني في التأويل: أنه يقال فلان يمين فلان، إذا كان عنده بالمنزلة الحسنة، فقال هؤلاء الكفار لأئمتهم الذين أضلوهم وزينوا لهم الكفر: إنكم كنتم تخدعوننا وتوهمون لنا، أننا عندكم بمنزلة اليمين، أي بالمنزلة الحسنة، فوثقنا بكم وقبلنا عنكم. الوجه الثالث: أن أئمة الكفار كانوا قد حلفوا لهؤلاء المستضعفين أن ما يدعونهم إليه هو الحق، فوثقوا بإيمانهم وتمسكوا بعهودهم التي عهدوها لهم، فمعنى قوله: ﴿كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي من ناحية المواثيق والأيمان التي قدمتموها لنا. الوجه الرابع: أن لفظ اليمين مستعار من القوة والقهر، لأن اليمين موصوفة بالقهر وبها يقع البطش، والمعنى أنكم كنتم تأتوننا عن القوة والقهر، وتقصدوننا عن السلطان والغلبة حتى تحملونا على الضلال وتعيرونا عليه، ثم حكى الله تعالى عن الرؤساء أنهم أجابوا الأتباع من وجوه الأول: أنهم قالوا لهم: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني أنكم ما كنتم موصوفين بالإيمان حتى يقال: إنا أزلناكم عنه، الثاني: قولهم: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾ يعني لا قدرة لناعليكم حتى نقهركم ونجبركم، الثالث: ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ أي ضالين غالين في معصية الله، الرابع: قولهم: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ والمعنى أن الله تعالى لما أخبر عن وقوعنا في العذاب، فلو لم يحصل وقوعنا في العذاب لما كان خبر الله حقًّا، بل كان باطلاً، ولما كان خبر الله أمرًا

واجبًا لا جرم، كان الوقوع في العذاب الأليم لازمًا، قال مقاتل قوله تعالى: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ إشارة إلى قول الله لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ يعني لما وجب أن يحق علينا قول ربنا وجب أن نكون ذائقين لهذا العذاب، الخامس قولهم: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ والمعنى أنا إنما أقدمنا على إغوائكم لأنا كنا موصوفين في أنفسنا بالغواية، وفيه دقيقة أخرى، كأنهم قالوا: إن اعتقدتم أن غوايتكم بسبب إغوائنا فغوايتنا إن كانت بسبب إغواء غاوٍ آخر ولزم التسلسل وذلك محال، فعلمنا أن حصول الغواية والرشاد ليس من قبلنا، بل من قبل غيرنا، وذلك الغير هو الذي ذكره فيما قبل، وهو قوله: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ ولما حكى الله تعالى كلام الأتباع للرؤساء وكلام الرؤساء للأتباع قال بعده: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ يعني فالمتبوع والتابع والمخدوم والخادم مشتركون في الوقوع في العذاب كما كانوا في الدنيا مشتركين في الغواية، ثم قال أيضًا: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وعنى بالمجرمين ههنا الكفار بدليل أنه تعالى قال بعد هذه الكلمة: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ والضمير في قوله: ﴿إِنَّهُمْ﴾ عائد إلى المذكور السابق وهو قوله: ﴿بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وهذا يدل على أن لفظ المجرم المطلق مختص في القرآن بالكافر، ثم بين تعالى أنهم إنما وقعوا في ذلك العذاب لأنهم كانوا مكذبين بالتوحيد وبالنبوة، أما التكذيب بالتوحيد فهو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يعني ينكرون ويتعصبون لإثبات الشرك ويستنكفون عن الإقرار بالتوحيد. وأما التكذيب بالنبوة فهو قولهم: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ ويعنون محمدًا، ثم إنه تعالى كذبهم في ذلك الكلام فقال: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وتقرير هذا الكلام أنه جاء بالدين الحق لأنه ثبت بالعقل أنه تعالى منزه عن الضد والند والشريك فلما جاء محمد ﷺ بتقرير هذه المعاني كان مجيئه بالدين الحق، قرأ ابن كثير (أينا لتاركوا آلهتنا) بهمزة وياء بعدها خفيفة ساكنة بلا مد، وقرأ نافع في رواية قالون وأبو عمرو على هذا التفسير يمدان والباقون بهمزتين بلا مد وقوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (١) يعني صدقهم في مجيئهم بالتوحيد ونفي الشريك، وهذا تنبيه على أن القول بالتوحيد دين لكل الأنبياء، ولما حكى الله عنهم تكذيبهم بالتوحيد والنبوة نقل الكلام من الغيبة إلى الحضور فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ كأنه قيل: فكيف يليق بالرحيم الكريم المتعالي عن النفع والضر أن يعذب عباده؟ فأجاب عنه بقوله: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والمعنى أن الحكم يقتضي الأمر بالحسن والطاعة والنهي عن القبيح والمعصية والأمر والنهي لا يكمل المقصود منهما إلا بالترغيب في

---

(١) وصدق المرسلون في المصحف مرفوعة بالواو والنون ولكن المفسر جرى في تفسيره على أنها منصوبة بالياء والنون ومعنى قراءة الرفع أن المرسلين صدقوا في كل ما أخبروا له وإنما شدد الدال من صدق للمبالغة في وصفهم بالصدق وقراءة الرفع عامة تشمل جميع الأنبياء ومنهم محمد ﷺ وأما قراءة النصب فلا تشمل نبينا عليه السلام إذ يكون الخطاب عليه.

الثواب والترهيب بالعقاب وإذا وقع الإخبار عنه وجب تحقيقه صونًا للكلام عن الكذب، فلهذا السبب وقعوا في العذاب، ثم قال: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ يعني ولكن عباد الله المخلصين ناجون وهو من الاستثناء المنقطع.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما وصف أحوال المتكبرين عن قبول التوحيد المصرين على إنكار النبوة أردفه بذكر حال المخلصين في كيفية الثواب.

**وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى**: ذكرنا في فتح اللام وكسرها من المخلصين قراءتين فالفتح أن الله تعالى أخلصهم بلطفه واصطفاهم بفضله والكسر هو أنهم أخلصوا الطاعة لله تعالى.

**المسألة الثانية**: اعلم أنه تعالى وصف رزقهم بكونه معلومًا، ولم يبين أن أي الصفات منه هو المعلوم فلذلك اختلفت الأقوال، فقيل: معناه إن ذلك الرزق معلوم الوقت وهو مقدار غدوة وعشية وإن لم يكن ثمة لا بكرة ولا عشية، قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]، وقيل: معناه أن ذلك الرزق معلوم الصفة لكونه مخصوصًا بخصائص خلقها الله فيه من طيب طعم ورائحة ولذة وحسن منظر، وقيل: معناه أنهم يتيقنون دوامه لا كرزق الدنيا الذي لا يعلم متى يحصل ولا متى ينقطع، وقيل: معناه القدر الذي يستحقونه بأعمالهم من ثواب الله وكرامته عليهم، وقد بين الله تعالى أنه يعطيهم غير ذلك على سبيل التفضل، ثم لما ذكر تعالى أن لهم رزقًا بين أن ذلك الرزق ما هو فقال: ﴿فَوَٰكِهُ﴾ وفيه قولان الأول: أن الفاكهة عبارة عما يؤكل لأجل التلذذ لا لأجل الحاجة، وأرزاق أهل الجنة كلها فواكه لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات فإنهم أجسام محكمة مخلوقة للأبد، فكل ما يأكلونه فهو على سبيل التلذذ، والثاني: أن المقصود من ذكر الفاكهة التنبيه بالأدنى على الأعلى، يعني لما كانت الفاكهة حاضرة أبدًا كان الإدام أولى بالحضور، والقول الأول أقرب إلى التحقيق، واعلم أنه تعالى لما ذكر الأكل بين أن ذلك الأكل حاصل مع الإكرام والتعظيم فقال: ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ لأن الأكل الخالي عن التعظيم يليق بالبهائم.

ولما ذكر تعالى مأكولهم وصف تعالى مساكنهم فقال: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ ومعناه أنه لا كلفة عليهم في التلاقي للأنس والتخاطب، وفي بعض الأخبار أنهم إذا أرادوا

القرب سار السرير تحتهم، ولا يجوز أن يكونوا متقابلين إلا مع حصول الخواطر والسرائر ولن يكونوا كذلك إلا مع الفسحة والسعة، ولا يجوز أن يسمع بعضهم خطاب بعض ويراه على بعد إلا بأن يقوي الله أبصارهم وأسماعهم وأصواتهم، ولما شرح الله صفة المأكل والمسكن ذكر بعده صفة الشراب فقال: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ يقال للزجاجة التي فيها الخمر كأس وتسمى الخمرة نفسها كأسًا قال:

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا(١)

**وعن الأخفش:** كل كأس في القرآن فهي الخمر، وقوله: ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ أي من شراب معين، أو من نهر معين، المعين مأخوذ من عين الماء أي يخرج من العيون كما يخرج الماء وسمي معينًا لظهوره يقال عان الماء إذا ظهر جاريًا، قاله ثعلب، فهو مفعول من العين نحو مبيع ومكيل، وقيل سمي معينًا لأنه يجري ظاهر العين، ويجوز أن يكون فعيلاً من المعين وهو الماء الشديد الجري ومنه أمعن في المسير إذا اشتد فيه، وقوله: ﴿بَيْضَآءَ﴾ صفة للخمر، قال الأخفش: خمر الجنة أشد بياضًا من اللبن، وقوله: ﴿لَذَّةٍ﴾ فيه وجوه أحدها: أنها وصفت باللذة كأنها نفس اللذة وعينها كما يقال فلان جود وكرم إذا أرادوا المبالغة في وصفه بهاتين الصفتين، وثانيها: قال الزجاج: أي ذات لذة، فعلى هذا حذف المضاف، وثالثها: قال الليث: اللذ واللذيذ يجريان مجرى واحدًا في النعت ويقال شراب لذ ولذيذ قال تعالى: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾[محمد: ١٥] ولذلك سمي النوم لذًّا لاستلذاذه، وعلى هذا لذة بمعنى لذيذة، والأقرب من هذه الوجوه الأول.

**ثم قال تعالى:** ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾.

**وفيه أبحاث:**

**البحث الأول:** قال الفراء: العرب تقول ليس فيها غيلة وغائلة وغول سواء، وقال أبو عبيدة: الغول أن يغتال عقولهم، وأنشد قول مطيع بن إياس:

وَمَا زَالَتِ الْكَأْسُ تَغْتَالُهُمْ وَتَذْهَبُ بِالْأَوَّلِ الْأَوَّلِ(٢)

**وقال الليث:** الغول الصداع والمعنى ليس فيها صداع كما في خمر الدنيا، قال الواحدي

(١) البيت للأعشى وقد تقدمت ترجمته.

(٢) مطيع بن إياس هو مطيع بن إياس الكناني، أبو سلمى: شاعر، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. (؟ - ١٦٦ هـ = ؟- ٧٨٣م)، كان ظريفًا، مليح النادرة، ماجنا، متهمًا بالزندقة. مولده ومنشأه بالكوفة، وأصل أبيه من فلسطين، مدح الوليد بن يزيد ونادمه، في العصر الأموي، وانقطع في الدولة العباسية إلى جعفر بن المنصور فكان معه إلى أن مات، وكان صديقًا لحماد عجرد الشاعر وحماد الراوية. أقام ببغداد زمنا، وولاه المهدي العباسي الصدقات بالبصرة فتوفي فيها.

رحمه الله: وحقيقته الإهلاك، يقال غاله غولاً أي أهلكه، والغول والغائل المهلك، ثم سمي الصداع غولاً لأنه يؤدي إلى الهلاك.

**ثم قال تعالى:** ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ وقرئ بكسر الزاي قال الفراء: من كسر الزاي فله معنيان يقال أنزف الرجل إذا نفدت خمرته، وأنزف إذا ذهب عقله من السكر ومن فتح الزاي فمعناه لا يذهب عقولهم أي لا يسكرون يقال نزف الرجل فهو منزوف ونزيف، والمعنى ليس فيها قط نوع من أنواع الفساد التي تكون في شرب الخمر من صداع أو خمار أو عربدة ولا هم يسكرون أيضًا، وخصه بالذكر لأنه أعظم المفاسد في شرب الخمر، ولما ذكر الله تعالى صفة مشروبهم ذكر عقيبه صفة منكوحهم من ثلاثة أوجه الأول: قوله: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ ومعنى القصر في اللغة الحبس ومنه قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢] والمعنى أنهن يحبسن نظرهن ولا ينظرن إلى غير أزواجهن.

**الصفة الثانية:** قوله تعالى: ﴿عِينٌ﴾ قال الزجاج: كبار الأعين حسانها واحدها عيناء.

**الصفة الثالثة:** قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ المكنون في اللغة المستور يقال كننت الشيء وأكننته، ومعنى هذا التشبيه أن ظاهر البيض بياض يشوبه قليل من الصفرة، فإذا كان مكنونًا كان مصونًا عن الغبرة والقترة، فكان هذا اللون في غاية الحسن والعرب كانوا يسمون النساء بيضات الخدور.

ولما تمم الله صفات أهل الجنة قال: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ فإن قيل: على أي شيء عطف قوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾؟ قلنا: على قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ والمعنى يشربون ويتحادثون على الشراب، قال الشاعر:

وَمَا بَقِيَتْ مِنَ اللَّذَّاتِ إلاَّ ... مُحَادَثَةُ الكِرَامِ عَلَى المُدَامِ

والمعنى فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى لهم وعليهم في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

**في الآية مسائل:**

**المسألة الأولى:** اعلم أنه تعالى كما ذكر في أهل الجنة أنهم يتساءلون عند الاجتماع على شرب خمر الجنة فإن محادثة العقلاء بعضهم مع بعض على الشرب من الأمور اللذيذة، وتذكر

الخلاص عند اجتماع أسباب الهلاك من الأمور اللذيذة، ذكر تعالى في هذه الآية أن أهل الجنة إذا اجتمعوا على الشرب وأخذوا في المكالمة والمساءلة كان من جملة تلك الكلمات أنهم يتذكرون أنهم كان قد حصل لهم في الدنيا ما يوجب لهم الوقوع في عذاب الله، ثم إنهم تخلصوا عنه وفازوا بالسعادة الأبدية، والمقصود من ذكر هذه الأشياء أن أهل الجنة يتكامل سرورهم وبهجتهم.

**أما قوله:** ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ أي قال قائل من أهل الجنة: إني كان لي قرين في الدنيا ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ أي كان يوبخني على التصديق بالبعث والقيامة ويقول تعجبا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي لمحاسبون ومجازون، والمعنى أن ذلك القرين كان يقول هذه الكلمات على سبيل الاستنكار، ثم إن ذلك الرجل الذي هو من أهل الجنة يقول لجلسائه يدعوهم إلى كمال السرور بالاطلاع إلى النار لمشاهدة ذلك القرين ومخاطبته ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝ فَٱطَّلَعَ﴾ والأقرب أنه تكلف أمرًا اطلع معه لأنه لو كان مطلعًا بلا تكلف لم يكن إلى اطلاعه حاجة فلذلك قال بعضهم: إنه ذهب إلى بعض أطراف الجنة فاطلع عندها إلى النار ﴿فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي في وسط الجحيم قال له موبخًا: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ أي لتهلكني بدعائك إياي إلى إنكار البعث والقيامة ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ بالإرشاد إلى الحق والعصمة عن الباطل ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ في النار مثلك، ولما تمم ذلك الكلام مع الرجل الذي كان في الدنيا قرينًا له وهو الآن من أهل النار عاد إلى مخاطبة جلسائه الذين هم من أهل الجنة فقال: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ وفيه قولان الأول: أن أهل الجنة لا يعلمون في أول دخولهم في الجنة أنهم لا يموتون، فإذا جيء بالموت على صورة كَبْشٍ أَمْلَحَ وَذُبِحَ[1] فعند ذلك يعلمون أنهم لا يموتون، فلعل هذا الكلام حصل قبل ذبح الموت، والثاني: أن الذي يتكامل خيره وسعادته فإذا عظم تعجبه بها قد يقول: أيدوم هذا لي؟ أفيبقى هذا لي؟ وإن كان على يقين من دوامه، ثم عند فراغهم من هذه المباحثات يقولون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

**وأما قوله:** ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ فقيل إنه من بقية كلامهم، وقيل إنه ابتداء كلام من الله تعالى أي لطلب مثل هذه السعادات يجب أن يعمل العاملون.

**المسألة الثانية:** قال بعضهم: المراد من هذا القائل ومن قرينه ما ذكره الله تعالى في سورة

---

(١) هذا الحديث إشارة على موت الموت على هيئة كبش أملح، أخرجه البخاري في (صحيحه) (٤/ ١٧٦٠)، حديث رقم (٤٤٥٣)، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٢١٨٨/ ٢٨٤٩)، كلاهما من طريق أبي صالح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ثم يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي مناديًا يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون فيقول هل تعرفون هذا فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ثم ينادي يا أهل النار فيشرئبون وينظرون فيقول هل تعرفون هذا فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه فيذبح ثم يقول يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت ثم قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ . . . واللفظ للبخاري.

الكهف في قوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ [الكهف: ٣٢] إلى آخر الآيات، وروي أن رجلين كانا شريكين فحصل لهما ثمانية آلاف دينار فقال أحدهما للآخر أقاسمك فقاسمه واشترى دارًا بألف دينار فأراها صاحبه وقال: كيف ترى حسنها فقال: ما أحسنها فخرج وقال: اللهم إن صاحبي هذا قد ابتاع هذه الدار بألف دينار وإني أسألك دارًا من دور الجنة، فتصدق بألف دينار، ثم إن صاحبه تزوج بامرأة حسناء بألف دينار فتصدق هذا بألف دينار لأجل أن يزوجه الله من الحور العين، ثم إن صاحبه اشترى بساتين بألفي دينار فتصدق هذا بألفي دينار، ثم إن الله أعطاه في الجنة ما طلب فعند هذا قال: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ اختلف القراء في هذه الاستفهامات الثلاثة قرأ نافع الأولى والثانية بالاستفهام بهمزة غير ممدودة والثالثة بكسر الألف من غير استفهام، ووافقه الكسائي إلا أنه يستفهم الثالثة بهمزتين، وقرأ ابن عامر الأولى والثالثة بالاستفهام بهمزتين والثانية بكسر الألف من غير استفهام، وقرأ الباقون بالاستفهام في جميعها، ثم اختلفوا فابن كثير يستفهم بهمزة واحدة غير مطولة وبعدها ياء ساكنة خفيفة، وأبو عمرو مطولة، وعاصم وحمزة بهمزتين.

**وأما قوله:** ﴿إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ قرأ نافع برواية ورش لترديني بإثبات الياء في الوصل والباقون بحذفها.

المسألة الرابع: احتج أصحابنا على أن الهدى والضلال من الله تعالى بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ وقالوا: مذهب الخصم أن كل ما فعله الله تعالى من وجوه الإنعام في حق المؤمن فقد فعله في حق الكافر، وإذا كان ذلك الإنعام مشتركًا فيه امتنع أن يكون سببًا لحصول الهداية للمؤمن، وأن يكون سببًا لخلاصه من الكفر والردى فوجب أن تكون تلك النعمة المخصوصة أمرًا زائدًا على تلك الإنعامات التي حصل الاشتراك فيها، وما ذلك إلا بقوة الداعي إلى الإيمان وتكميل الصارف عن الكفر.

المسألة الخامسة: احتج نفاة عذاب القبر بقول الرجل الذي من أهل الجنة: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ فهذا يدل على أن الإنسان لا يموت إلا مرة واحدة ولو حصلت الحياة في القبر لكان الموت حاصلاً مرتين والجواب: أن قوله: ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ المراد منه كل ما وقع في الدنيا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ۝٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥ فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝٦٧ ثُمَّ إِنَّ

مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾
وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما قال بعد ذكر أهل الجنة ووصفها ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١] أتبعه بقوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ فأمر رسول الله ﷺ أن يورد ذلك على كفار قومه ليصير ذلك زاجرًا لهم عن الكفر، وكما وصف من قبل مآكل أهل الجنة ومشاربهم وصف أيضًا في هذه الآية مآكل أهل النار ومشاربهم.

**أما قوله:** ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ فالمعنى أن الرزق المعلوم المذكور لأهل الجنة ﴿خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ أي خير حاصلاً ﴿أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ وأصل النزل الفضل الواسع في الطعام يقال: طعام كثير النزل، فاستعير للحاصل من الشيء، ويقال: أرسل الأمير إلى فلان نزلاً وهو الشيء الذي يصلح حال من ينزل بسببه، إذا عرفت هذا فنقول حاصل الرزق المعلوم لأهل الجنة اللذة والسرور، وحاصل شجرة الزقوم الألم والغم، ومعلوم أنه لا نسبة لأحدهما إلى الآخر في الخيرية إلا أنه جاء هذا الكلام، إما على سبيل السخرية بهم أو لأجل أن المؤمنين لما اختاروا ما أوصلهم إلى الرزق الكريم، والكافرين اختاروا ما أوصلهم إلى العذاب الأليم فقيل لهم ذلك توبيخًا لهم على سوء اختيارهم، وأما ﴿ٱلزَّقُّومِ﴾ فقال الواحدي رحمه الله: لم يذكر المفسرون للزقوم تفسيرًا إلا الكلبي فإنه روي أنه لما نزلت هذه الآية قال ابن الزبعرى: أكثر الله في بيوتكم الزقوم، فإن أهل اليمن يسمون التمر والزبد بالزقوم، فقال أبو جهل لجاريته: زقمينا، فأتته بزبد وتمر، وقال: تزقموا. ثم قال الواحدي: ومعلوم أن الله تعالى لم يرد بالزقوم ههنا الزبد والتمر، قال ابن دريد: لم يكن للزقوم اشتقاق من التزقم وهو الإفراط من أكل الشيء حتى يكره ذلك يقال بات فلان يتزقم. وظاهر لفظ القرآن يدل على أنها شجرة كريهة الطعام منتنة الرائحة شديدة الخشونة موصوفة بصفات كل من تناولها عظم من تناولها، ثم إنه تعالى يكره أهل النار على تناول بعض أجزائها.

**أما قوله تعالى:** ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ ففيه أقوال: الأول: أنها إنما صارت فتنة للظالمين، من حيث إن الكفار لما سمعوا هذه الآية، قالوا: كيف يعقل أن تنبت الشجرة في جهنم مع أن النار تحرق الشجرة؟ والجواب عنه أن خالق النار قادر على أن يمنع النار من إحراق الشجر، ولأنه إذا جاز أن يكون في النار زبانية والله تعالى يمنع النار عن إحراقهم فلم لا يجوز مثله في هذه الشجرة؟ إذا عرفت هذا السؤال والجواب فمعنى كون شجرة الزقوم فتنة للظالمين هو أنهم لما سمعوا هذه الآية وقعت تلك الشبهة في قلوبهم وصارت تلك الشبهة سببًا لتماديهم في الكفر فهذا هو المراد من كونها فتنة لهم، والوجه الثاني في التفسير: أن يكون المراد صيرورة هذه

الشجرة فتنة لهم في النار لأنهم إذا كلفوا تناولها وشق ذلك عليهم، فحينئذ يصير ذلك فتنة في حقهم، الوجه الثالث: أن يكون المراد من الفتنة الامتحان والاختبار، فإن هذا شيء بعيد عن العرف والعادة مخالف للمألوف والمعروف، فإذا ورد على سمع المؤمن فوض علمه إلى الله وإذا ورد على الزنديق توسل به إلى الطعن في القرآن والنبوة.

ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الشجرة وصفها بصفات الصفة الأولى: قوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ قيل منبتها في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها، الصفة الثانية: قوله: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ قال صاحب (الكشاف): الطلع للنخلة فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها، إما استعارة لفظية أو معنوية، وقال ابن قتيبة: سمي (طلعًا) لطلوعه كل سنة، ولذلك قيل طلع النخل لأول ما يخرج من ثمره، وأما تشبيه هذا الطلع برءوس الشياطين ففيه سؤال، لأنه قيل: إنا ما رأينا رءوس الشياطين فكيف يمكن تشبيه شيء بها؟ وأجابوا عنه من وجوه: الأول: وهو الصحيح أن الناس لما اعتقدوا في الملائكة كمال الفضل في الصورة والسيرة واعتقدوا في الشياطين نهاية القبح والتشويه في الصورة والسيرة، فكما حسن التشبيه بالملك عند إرادة تقرير الكمال والفضيلة في قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١] فكذلك وجب أن يحسن التشبيه برءوس الشياطين في القبح وتشويه الخلقة، والحاصل أن هذا من باب التشبيه لا بالمحسوس بل بالمتخيل، كأنه قيل: إن أقبح الأشياء في الوهم والخيال هو رءوس الشياطين فهذه الشجرة تشبهها في قبح النظر وتشويه الصورة، والذي يؤكد هذا أن العقلاء إذا رأوا شيئًا شديد الاضطراب منكر الصورة قبيح الخلقة، قالوا إنه شيطان، وإذا رأوا شيئًا حسن الصورة والسيرة، قالوا إنه ملك، وقال امرؤ القيس (١):

أَيَقْتُلُنِي وَالْمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي ... وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

**والقول الثاني:** أن الشياطين حيات لها رءوس وأعراف، وهي من أقبح الحيات، وبها يضرب المثل في القبح، والعرب إذا رأت منظرًا قبيحًا قالت: كأنه شيطان الحماطة، والحماطة شجرة معينة، والقول الثالث: أن رءوس الشياطين، نبت معروف قبيح الرأس، والوجه الأول هو الجواب الحق، واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الشجرة وذكر صفتها بين أن الكفار ﴿لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ واعلم أن إقدامهم على ذلك الأكل يحتمل وجهين: الأول: أنهم أكلوا منها لشدة الجوع، فإن قيل: وكيف يأكلونها مع نهاية خشونتها ونتنها ومرارة طعمها؟ قلنا: إن الواقع في الضرر العظيم ربما استروح منه إلى ما يقاربه في الضرر، فإذا جوعهم الله الجوع الشديد فزعوا في إزالة ذلك الجوع إلى تناول هذا الشيء وإن كان بالصفة التي ذكرتموها، الوجه الثاني: أن يقال: الزبانية يكرهونهم على الأكل من تلك الشجرة تكميلاً لعذابهم.

واعلم أنهم إذا شبعوا فحينئذ يشتد عطشهم ويحتاجون إلى الشراب، فعند هذا وصف الله

(١) تقدم ترجمة امرئ القيس.

شرابهم، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الصافات: ٦٧] قال الزجاج: الشوب اسم عام في كل ما خلط بغيره، والحميم الماء الحار المتناهي في الحرارة، والمعنى أنه إذا غلبهم ذلك العطش الشديد سقوا من ذلك الحميم، فيحنئذ يشوب الزقوم بالحميم نعوذ بالله منهما.

واعلم أن الله وصف شرابهم في القرآن بأشياء منها كونه غساقًا، ومنها قوله: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥] ومنها ما ذكره في هذه الآية، فإن قيل: ما الفائدة في كلمة ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾؟ قلنا: فيه وجهان الأول: أنهم يملئون بطونهم من شجرة الزقوم وهو حار يحرق بطونهم فيعظم عطشهم، ثم إنهم لا يسقون إلا بعد مدة مديدة والغرض تكميل التعذيب، والثاني: أنه تعالى ذكر الطعام بتلك البشاعة والكراهة، ثم وصف الشراب بما هو أبشع منه، فكان المقصود من كلمة (ثم) بيان أن حال المشروب في البشاعة أعظم من حال المأكول، ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ قال مقاتل: أي بعد أكل الزقوم وشرب الحميم، وهذا يدل على أنهم عند شرب الحميم لم يكونوا في الجحيم، وذلك بأن يكون الحميم من موضع خارج عن الجحيم، فهم يوردون الحميم لأجل الشرب كما تورد الإبل إلى الماء، ثم يوردون إلى الجحيم، فهذا قول مقاتل، واحتج على صحته بقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤] وذلك يدل على صحة ما ذكرناه، ثم إنه تعالى لما وصف عذابهم في أكلهم وشربهم قال: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ قال الفراء: الإهراع الإسراع يقال هرع وأهرع إذا استحث، والمعنى أنهم يتبعون آباءهم اتباعًا في سرعة كأنهم يزعجون إلى اتباع آبائهم، والمقصود من الآية أنه تعالى علل استحقاقهم للوقوع في تلك الشدائد كلها بتقليد الآباء في الدين وترك اتباع الدليل، ولو لم يوجد في القرآن آية غير هذه الآية في ذم التقليد لكفى.

ثم إنه تعالى ذكر لرسوله ما يوجب التسلية له في كفرهم وتكذيبهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ فبين تعالى أن إرساله للرسل قد تقدم والتكذيب لهم قد سلف، ويجب أن يكون له ﷺ أسوة بهم حتى يصبر كما صبروا، ويستمر على الدعاء إلى الله وإن تمردوا، فليس عليه إلا البلاغ.

**ثم قال تعالى:** ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ وهذا وإن كان في الظاهر خطابًا مع الرسول ﷺ، إلا أن المقصود منه خطاب الكفار لأنهم سمعوا بالأخبار جميع ما جرى من أنواع العذاب على قوم نوح وعلى عاد وثمود وغيرهم، فإن لم يعلموا ذلك فلا أقل من ظن وخوف يصلح أن يكون زاجرًا لهم عن كفرهم. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ فيه قولان أحدهما: أنه استثناء من قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ والثاني: أنه استثناء من قوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ [يونس: ٧٣] فإنها كانت أقبح العواقب وأفظعها إلا عاقبة عباد الله المخلصين، فإنها كانت مقرونة بالخير والراحة.

## القصة الأولى قصة نوح عليه السلام

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ۝٧٥ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٦ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝٧٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨١ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝٨٢﴾

**اعلم أنه تعالى لما قال من قبل:** ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٧١] وقال: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: ٧٣] أتبعه بشرح وقائع الأنبياء عليهم السلام فالقصة الأولى: حكاية حال نوح عليه السلام وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾.

**فيه مباحث:**

**الأول:** أن اللام في قوله: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ جواب قسم محذوف والمخصوص بالمدح محذوف، أي فلنعم المجيبون نحن.

**البحث الثاني:** أنه تعالى ذكر أن نوحًا نادى ولم يذكر أن ذلك النداء في أي الوقائع كان؟ لا جرم حصل فيه قولان الأول: وهو المشهور عند الجمهور أنه نادى الرب تعالى في أن ينجيه من محنة الغرق وكرب تلك الواقعة، والقول الثاني: أن نوحًا عليه السلام لما اشتغل بدعوة قومه إلى الدين الحق بالغوا في إيذائه وقصدوا قتله، ثم إنه عليه السلام نادى ربه واستنصره على كفار قومه، فأجابه الله تعالى ومنعهم من قتله وإيذائه، واحتج هذا القائل على ضعف القول الأول بأنه عليه السلام إنما دعا عليهم لأجل أن ينجيه الله تعالى وأهله، وأجاب الله دعاءه فيه فكان حصول تلك النجاة كالمعلوم المتيقن في دعائه، وذلك يمنع من أن يقال المطلوب من هذا النداء حصول هذه النجاة.

ثم إنه تعالى لما حكى عن نوح أنه ناداه قال بعده: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ وهذه اللفظة تدل على أن تلك الإجابة كانت من النعم العظيمة، وبيانه من وجوه الأول: أنه تعالى عبر عن ذاته بصيغة الجمع فقال: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ والقادر العظيم لا يليق به إلا الإحسان العظيم، والثاني: أنه أعاد صيغة الجمع في قوله: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ وذلك أيضًا يدل على تعظيم تلك النعمة، لا سيما وقد وصف تلك الإجابة بأنها نعمت الإجابة، والثالث: أن الفاء في قوله: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ يدل على أن حصول هذه الإجابة مرتب على ذلك النداء، والحكم المرتب على الوصف المناسب يقتضي كونه معللاً به، وهذا يدل على أن النداء بالإخلاص سبب لحصول الإجابة، ثم إنه تعالى لما بين أنه سبحانه نعم المجيب على سبيل الإجمال، بين أن الإنعام حصل في تلك الإجابة من وجوه الأول: قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وهو على القول الأول الكرب الحاصل بسبب الخوف من الغرق، وعلى الثاني الكرب الحاصل من أذى قومه، والثاني: قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ يفيد الحصر وذلك يدل على أن كل من سواه وسوى

ذريته فقد فنوا، قال ابن عباس: ذريته بنوه الثلاثة: سام وحام ويافث، فسام أبو العرب وفارس والروم، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك.

**النعمة الثالثة:** قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ يعني يذكرون هذه الكلمة، فإن قيل: فما معنى قوله: ﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾؟ قلنا: معناه الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعًا أي لا يخلو أحد منهم منها، كأنه قيل: أثبت الله التسليم على نوح وأدامه في الملائكة والثقلين فيسلمون عليه بكليتهم، ثم إنه تعالى لما شرح تفاصيل إنعامه عليه قال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ والمعنى أنا إنما خصصنا نوحًا عليه السلام بتلك التشريفات الرفيعة من جعل الدنيا مملوءة من ذريته ومن تبقية ذكره الحسن في ألسنة جميع العالمين لأجل أنه كان محسنًا، ثم علل كونه محسنًا بأنه كان عبدًا لله مؤمنًا، والمقصود منه بيان أن أعظم الدرجات وأشرف المقامات الإيمان بالله والانقياد لطاعته.

## القصة الثانية قصة إبراهيم عليه السلام

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾

**في الآية مسائل:**

المسألة الأولى: الضمير في قوله: ﴿مِن شِيعَتِهِ﴾ إلى ماذا يعود؟ فيه قولان: الأول: وهو الأظهر أنه عائد إلى نوح عليه السلام أي من شيعة نوح أي من أهل بيته وعلى دينه ومنهاجه لإبراهيم، قالوا: وما كان بين نوح وإبراهيم إلا نبيان هود وصالح، وروى صاحب (الكشاف) أنه كان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة، الثاني: قال الكلبي: المراد من شيعة محمد لإبراهيم بمعنى أنه كان على دينه ومنهاجه فهو من شيعته وإن كان سابقًا له والأول أظهر، لأنه تقدم ذكر نوح عليه السلام، ولم يتقدم ذكر النبي ﷺ فعود الضمير إلى نوح أولى.

المسألة الثانية: العامل في (إذ) ما دل عليه قوله: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ﴾ من معنى المشايعة يعني وإن ممن شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه بقلب سليم لإبراهيم.

**أما قوله:** ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

**ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: في قوله: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قولان: الأول: قال مقاتل والكلبي: يعني خالص

من الشرك، والمعنى أنه سلم من الشرك فلم يشرك بالله، والثاني: قال الأصوليون: المراد أنه عاش ومات على طهارة القلب من كل دنس من المعاصي، فيدخل فيه كونه سليمًا عن الشرك وعن الشك وعن الغل والغش والحقد والحسد. عن ابن عباس أنه كان يحب للناس ما يحب لنفسه، وسلم جميع الناس من غشه وظلمه وأسلمه الله تعالى فلم يعدل به أحدًا، واحتج الذاهبون إلى القول الأول بأنه تعالى ذكر بعد هذه الكلمة إنكاره على قومه الشرك بالله، وهو قوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ واحتج الذاهبون إلى القول الثاني بأن اللفظ مطلق فلا يقيد بصفة دون صفة، ويتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١] مع أنه تعالى قال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] فإن قيل: ما معنى المجيء بقلبه ربه؟ قلنا: معناه أنه أخلص لله قلبه، فكأنه أتحف حضرة الله بذلك القلب، ورأيت في التوراة أن الله قال لموسى: أجب إلهك بكل قلبك.

واعلم أنه تعالى لما ذكر أن إبراهيم جاء ربه بقلب سليم ذكر أن من جملة آثار تلك السلامة أن دعا أباه وقومه إلى التوحيد فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ والمقصود من هذا الكلام تهجين تلك الطريقة وتقبيحها.

**ثم قال:** ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ قال صاحب (الكشاف): أئفكا مفعول له تقديره أتريدون آلهة من دونه إفكًا، وإنما قدم المفعول على الفعل للعناية وقدم المفعول له على المفعول به لأنه كان الأهم عنده أن يقرر عندهم بأنهم على إفك وباطل في شركهم، ويجوز أن يكون إفكًا مفعولاً به يعني أتريدون إفكًا، ثم فسر الإفك بقوله: ﴿ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ﴾ على أنها إفك في أنفسها، ويجوز أن يكون حالاً بمعنى تريدون آلهة من دون الله آفكين.

**ثم قال:** ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وفيه وجهان أحدهما: أتظنون برب العالمين أنه يجوز جعل هذه الجمادات مشاركة له في المعبودية، وثانيها: أتظنون برب العالمين أنه من جنس هذه الأجسام حتى جعلتموها مساوية له في المعبودية فنبههم بذلك على أنه ليس كمثله شيء.

**ثم قال:** ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ عن ابن عباس أنهم كانوا يتعاطون علم النجوم فعاملهم على مقتضى عادتهم، وذلك أنه أراد أن يكايدهم في أصنامهم ليلزمهم الحجة في أنها غير معبودة وكان لهم من الغد يوم عيد يخرجون إليه فأراد أن يتخلف عنهم ليبقى خاليًا في بيت الأصنام فيقدر على كسرها وههنا سؤالان الأول: أن النظر في علم النجوم غير جائز فكيف أقدم عليه إبراهيم؟ والثاني: أنه عليه السلام ما كان سقيمًا فلما قال: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ كان ذلك كذبًا، واعلم أن العلماء ذكروا في الجواب عنهما وجوهًا كثيرة الأول: أنه نظر نظرة في النجوم في أوقات الليل والنهار وكانت تأتيه سقامة كالحمى في بعض ساعات الليل والنهار، فنظر ليعرف هل هي في تلك الساعة وقال: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ فجعله عذرًا في تخلفه عن العيد الذي لهم وكان

صادقًا فيما قال، لأن السقم كان يأتيه في ذلك الوقت، وإنما تخلف لأجل تكسير أصنامهم، الوجه الثاني: في الجواب أن قوم إبراهيم عليه السلام كانوا أصحاب النجوم يعظمونها ويقضون بها على غائب الأمور، فلذلك نظر إبراهيم في النجوم أي في علوم النجوم وفي معانيه لا أنه نظر بعينه إليها، وهو كما يقال فلان نظر في الفقه وفي النحو وإنما أراد أن يوهمهم أنه يعلم ما يعلمون ويتعرف من حيث يتعرفون حتى إذا قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ سكنوا إلى قوله.

**أما قوله:** ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ فمعناه سأسقم كقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ [الزمر: ٣٠] أي ستموت، الوجه الثالث: أن قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ هو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ [الأنعام: ٧٦] إلى آخر الآيات وكان ذلك النظر لأجل أن يتعرف أحوال هذه الكواكب هل هي قديمة أو محدثة، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ يعني سقيم القلب غير عارف بربي وكان ذلك قبل البلوغ، الوجه الرابع: قال ابن زيد: كان له نجم مخصوص، وكلما طلع على صفة مخصوصة مرض إبراهيم ولأجل هذا الاستقراء لما رآه في ذلك الوقت طالعًا على تلك الصفة المخصوصة قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي هذا السقم واقع لا محالة، الوجه الخامس: أن قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي مريض القلب بسبب إطباق ذلك الجمع العظيم على الكفر والشرك، قال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الشعراء: ٣] الوجه السادس: في الجواب أنا لا نسلم أن النظر في علم النجوم والاستدلال بمقايستها حرام، لأن من اعتقد أن الله تعالى خص كل واحد من هذه الكواكب بقوة وبخاصية لأجلها يظهر منه أثر مخصوص، فهذا العلم على هذا الوجه ليس بباطل. وأما الكذب فغير لازم لأنه ذكر قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ على سبيل التعريض بمعنى أن الإنسان لا ينفك في أكثر أحواله عن حصول حالة مكروهة، إما في بدنه وإما في قلبه وكل ذلك سقم. الوجه السابع: قال بعضهم ذلك القول عن إبراهيم عليه السلام كذبة ورووا فيه حديثًا عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا كَذَبَ إِبْرَاهِيمُ إِلاَّ ثَلاَثَ كَذَبَاتٍ»(١) قلت لبعضهم: هذا الحديث لا ينبغي أن يقبل لأن نسبة الكذب إلى إبراهيم لا تجوز، فقال ذلك الرجل: فكيف يحكم بكذب الرواة العدول؟ فقلت: لما وقع التعارض بين نسبة الكذب إلى الراوي وبين نسبته إلى الخليل عليه السلام كان من المعلوم بالضرورة أن نسبته إلى الراوي أولى، ثم نقول: لم لا يجوز أن يكون المراد بكونه كذبًا خبرًا شبيهًا بالكذب؟ والوجه الثامن: أن المراد من قوله ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ أي نظر في نجوم كلامهم ومتفرقات أقوالهم، فإن الأشياء التي تحدث قطعة قطعة يقال إنها منجمة أي متفرقة ومنه نجوم الكتابة، والمعنى أنه لما سمع كلماتهم المتفرقة نظر فيها كي يستخرج منها حيلة يقدر بها على إقامة عذر لنفسه في التخلف عنهم فلم يجد عذرًا أحسن من قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ والمراد أنه لا بد من أن أصير سقيمًا كما تقول لمن رأيته على أوقات السفر: إنك مسافر. واعلم أن إبراهيم

---

(١) تقدم تخريجه.

عليه السلام لما قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ تولوا عنه معرضين فتركوه وعذروه في أن لا يخرج اليوم فكان ذلك مراده ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ يقال: راغ إليه إذا مال إليه في السر على سبيل الخفية، ومنه روغان الثعلب. وقوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني الطعام الذي كان بين أيديهم، وإنما قال ذلك استهزاء بها، وكذا قوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا﴾ فأقبل عليهم مستخفيًا كأنه قال فضربهم ضربًا لأن راغ عليهم في معنى ضربهم أو فراغ عليهم ضربًا بمعنى ضاربًا. وفي قوله: ﴿بِٱلْيَمِينِ﴾ قولان الأول: معناه بالقوة والشدة لأن اليمين أقوى الجارحتين، والثاني: أنه أتى بذلك الفعل بسبب الحلف، وهو قوله تعالى عنه: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧] ثم قال: ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ قرأ حمزة (يزفون) بضم الياء والباقون بفتحها وهما لغتان، قال ابن عرفة من قرأ بالنصب فهو من زف يزف، ومن قرأ بالضم فهو من أزف يزف، قال الزجاج: يزفون يسرعون وأصله من زفيف النعامة وهو ابتداء عدوها، وقرأ حمزة (يُزِفُّونَ) أي يحملون غيرهم على الزفيف، قال الأصمعي: يقال أزففت الإبل إذا حملتها على أن تزف، قال وهو سرعة الخطوة ومقاربة المشي والمفعول محذوف على قراءته كأنهم حملوا دوابهم على الإسراع في المشي، فإن قيل: مقتضى هذه الآية أن إبراهيم عليه السلام لما كسرها عدوا إليه وأخذوه، وقال في سورة أخرى في عين هذه القصة ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٥٩، ٦٠] وهذا يقتضي أنهم في أول الأمر ما عرفوه فبين هاتين الآيتين تناقض؟ قلنا: لا يبعد أن يقال إن جماعة عرفوه فعمدوا إليه مسرعين. والأكثرون ما عرفوه فتعرفوا أن ذلك الكاسر من هو، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ۝٩٧ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ۝٩٨ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٩٩ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝١٠١﴾

**وفي الآية مسائل:**

المسألة الأولى: اعلم أن القوم لما عاتبوا إبراهيم على كسر الأصنام فهو أيضًا ذكر لهم الدليل الدال على فساد المصير إلى عبادتها فقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ووجه الاستدلال ظاهر وهو أن الخشب والحجر قبل النحت والإصلاح ما كان معبودًا للإنسان ألبتة، فإذا نحته وشكله على الوجه المخصوص لم يحدث فيه إلا آثار تصرفه، فلو صار معبودًا عند ذلك لكان معناه أن الشيء الذي ما كان معبودًا لما حصلت آثار تصرفاته فيه صار معبودًا عند ذلك، وفساد ذلك معلوم ببديهة العقل.

المسألة الثانية: احتج جمهور الأصحاب بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى فقال النحويون: اتفقوا على أن لفظ (ما) مع ما بعده في تقدير المصدر فقوله:

﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ معناه وعملكم، وعلى هذا التقدير صار معنى الآية والله خلقكم وخلق عملكم، فإن قيل: هذه الآية حجة عليكم من وجوه الأول: أنه تعالى قال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ أضاف العبادة والنحت إليهم إضافة الفعل إلى الفاعل ولو كان ذلك واقعًا بتخليق الله لاستحال كونه فعلاً للعبد الثاني: أنه تعالى إنما ذكر هذه الآية توبيخًا لهم على عبادة الأصنام، لأنه تعالى بين أنه خالقهم وخالق لتلك الأصنام والخالق هو المستحق للعبادة دون المخلوق، فلما تركوا عبادته سبحانه وهو خالقهم وعبدوا الأصنام لا جرم أنه سبحانه وتعالى وبخهم على هذا الخطأ العظيم فقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ولو لم يكونوا فاعلين لأفعالهم لما جاز توبيخهم عليها سلمنا أن هذه الآية ليست حجة عليكم لكن لا نسلم أنها حجة لكم، قوله: لفظة (ما) مع ما بعدها في تقدير المصدر، قلنا هذا ممنوع وبيانه أن سيبويه والأخفش اختلفا في أنه هل يجوز أن يقال أعجبني ما قمت أي قيامك فجوزه سيبويه ومنعه الأخفش وزعم أن هذا لا يجوز إلا في الفعل المتعدي وذلك يدل على أن (ما) مع ما بعدها في تقدير المفعول عند الأخفش، سلمنا أن ذلك قد يكون بمعنى المصدر، لكنه أيضًا قد يكون بمعنى المفعول ويدل عليه وجوه الأول: قوله: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ والمراد بقوله: ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾ المنحوت لا النحت لأنهم ما عبدوا النحت وإنما عبدوا المنحوت فوجب أن يكون المراد بقوله: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ المعمول لا العمل حتى يكون كل واحد من هذين اللفظين على وفق الآخر، والثاني: أنه تعالى قال: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧] وليس المراد أنها تلقف نفس الإفك بل أراد العصي والحبال التي هي متعلقات ذلك الإفك فكذا، ههنا الثالث: أن العرب تسمي محل العمل عملاً يقال في الباب والخاتم هذا عمل فلان والمراد محل عمله فثبت بهذه الوجوه الثلاثة أن لفظة (ما) مع بعدها كما تجيء بمعنى المصدر فقد تجيء أيضًا بمعنى المفعول فكان حمله ههنا على المفعول أولى لأن المقصود في هذه الآية تزييف مذهبهم في عبادة الأصنام لا بيان أنهم لا يوجدون أفعال أنفسهم، لأن الذي جرى ذكره في أول الآية إلى هذا الموضع هو مسألة عبادة الأصنام لا خلق الأعمال، واعلم أن هذه السؤالات قوية وفي دلائلنا كثيرة، فالأولى ترك الاستدلال بهذه الآية، والله أعلم.

واعلم أن إبراهيم عليه السلام لما أورد عليهم هذه الحجة القوية ولم يقدروا على الجواب عدلوا إلى طريق الإيذاء فقالوا: ﴿ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا﴾ واعلم أن كيفية ذلك البناء لا يدل عليها لفظ القرآن، قال ابن عباس: بنو حائطًا من حجر طوله في السماء ثلاثون ذراعًا وعرضه عشرون ذراعًا وملئوه نارًا فطرحوه فيها، وذلك هو قوله تعالى: ﴿فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ وهي النار العظيمة، قال الزجاج: كل نار بعضها فوق بعض فهي جحيم، والألف واللام في الجحيم يدل على النهاية والمعنى في جحيمه، أي في جحيم ذلك البنيان، ثم قال تعالى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ والمعنى أن في وقت المحاجة حصلت الغلبة له، وعندما ألقوه في النار

صرف الله عنه ضرر النار، فصار هو الغالب عليهم. واعلم أنه لما انقضت هذه الواقعة قال إبراهيم: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

**وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: دلت هذه الآية على أن الموضع الذي تكثر فيه الأعداء تجب مهاجرته، وذلك لأن إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه، مع أن الله سبحانه خصه بأعظم أنواع النصرة، لما أحس منهم بالعداوة الشديدة هاجر من تلك الديار، فلأن يجب ذلك على الغير كان أولى.

المسألة الثانية: في قوله ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ قولان الأول: المراد منه مفارقة تلك الديار، والمعنى إني ذاهب إلى مواضع دين ربي، والقول الثاني: قال الكلبي: ذاهب بعبادتي إلى ربي، فعلى القول الأول المراد بالذهاب إلى الرب هو الهجرة من الديار، وبه اقتدى موسى حيث قال: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] وعلى القول الثاني المراد رعاية أحوال القلوب، وهو أن لا يأتي بشيء من الأعمال إلا لله تعالى، كما قال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩] قيل إن القول الأول أولى، لأن المقصود من هذه الآية بيان مهاجرته إلى أرض الشام، وأيضًا يبعد حمله على الهداية في الدين، لأنه كان على الدين في ذلك الوقت إلا أن يحمل ذلك على الثبات عليه، أو يحمل ذلك على الاهتداء إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة في أمر الدين.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ يدل على أن الهداية لا تحصل إلا من الله تعالى، كما يقول أصحابنا ولا يمكن حمل هذه الهداية على وضع الأدلة وإزاحة الأعذار، لأن كل ذلك قد حصل في الزمان الماضي، وقوله: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ يدل على اختصاص تلك الهداية بالمستقبل، فوجب حمل الهداية في هذه الآية على تحصيل العلم والمعرفة في قلبه، فإن قيل: إبراهيم عليه السلام جزم في هذه الآية بأنه تعالى سيهديه، وأن موسى عليه السلام لم يجزم به، بل قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢] فما الفرق؟ قلنا: العبد إذا تجلى له مقامات رحمة الله فقد يجزم بحصول المقصود، وإذا تجلى له مقامات كونه غنيًّا عن العالمين، فحينئذٍ يستحقر نفسه فلا يجزم، بل لا يظهر إلا الرجاء والطمع.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ يدل على فساد تمسك المشبهة بقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] لأن كلمة إلى موجودة في قوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ مع أنه لم يلزم أن يكون الإله موجودًا في ذلك المكان، فكذلك ههنا.

واعلم أنه صلوات الله عليه لما هاجر إلى الأرض المقدسة أراد الولد فقال: ﴿هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي هب لي بعض الصالحين، يريد الولد، لأن لفظ الهبة غلب في الولد، وإن كان قد

جاء في الأخ في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣] وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [الأنبياء: ٧٢] ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ [الأنبياء: ٩٠] وقال علي بن أبي طالب لابن عباس رضي الله عنهم حين هنأه بولده: على أبي الأملاك شكرت الواهب، وبورك لك في الموهوب، ولذلك وقعت التسمية بهبة الله تعالى وبهبة الوهاب وبموهوب ووهب.

واعلم أن هذا الدعاء اشتمل على ثلاثة أشياء: على أن الولد غلام ذكر، وأنه يبلغ الحلم، وأنه يكون حليمًا، وأي حلم يكون أعظم من ولد حين عرض عليه أبوه الذبح ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] ثم استسلم لذلك، وأيضًا فإن إبراهيم عليه السلام كان موصوفًا بالحلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤] ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥] فبين أن ولده موصوف بالحلم، وأنه قائم مقامه في صفات الشرف والفضيلة، واعلم أن الصلاح أفضل الصفات بدليل أن الخليل عليه السلام طلب الصلاح لنفسه، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣] وطلبه للولد فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وطلبه سليمان عليه السلام بعد كمال درجته في الدين والدنيا، فقال: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩] وذلك يدل على أن الصلاح أشرف مقامات العباد.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾

**واعلم أن سبحانه وتعالى لما قال:** ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١] أتبعه بما يدل على حصول ما بشر به وبلغه، فقال: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ ومعناه فلما أدرك وبلغ الحد الذي يقدر فيه على السعي، وقوله: ﴿مَعَهُ﴾ في موضع الحال والتقدير كائنًا معه، والفائدة في اعتبار هذا المعنى أن الأب أرفق الناس بالولد، وغيره ربما عنف به في الاستسعاء فلا يحتمله لأنه لم تستحكم قوته، قال بعضهم: كان في ذلك الوقت ابن ثلاث عشرة سنة، والمقصود من هذا الكلام أن الله تعالى لما وعده في الآية الأولى بكون ذلك الغلام حليمًا، بين في هذه الآية ما يدل على كمال حلمه، وذلك لأنه كان به من كمال الحلم وفسحة الصدر ما قواه على احتمال تلك البلية العظيمة، والإتيان بذلك الجواب الحسن.

**أما قوله:** ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾.

**ففيه مسائل:**

**المسألة الأولى**: في تفسير هذه اللفظة وجهان الأول: قال السدي: كان إبراهيم حين بشر بإسحاق قبل أن يولد له قال: هو إذن لله ذبيح، فقيل لإبراهيم: قد نذرت نذرًا فف بنذرك فلما أصبح ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾.

وروي من طريق آخر أنه رأى ليلة التروية في منامه، كأن قائلاً يقول له: إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا، فلما أصبح تروى في ذلك من الصباح إلى الرواح، أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان؟ فمن ثم سمي يوم التروية، فلما أمسى رأى مثل ذلك، فعرف أنه من الله فسمي يوم عرفة، ثم رأى مثله في الليلة الثالثة فهم بنحره فسمي يوم النحر وهذا هو قول أهل التفسير وهو يدل على أنه رأى في المنام ما يوجب أن يذبح ابنه في اليقظة، وعلى هذا فتقدير اللفظ: إني أرى في المنام ما يوجب أن أذبحك، والقول الثاني: أنه رأى في المنام أنه يذبحه ورؤيا الأنبياء عليهم السلام من باب الوحي، وعلى هذا القول فالمرئي في المنام ليس إلا أنه يذبح، فإن قيل إما أن يقال إنه ثبت بالدليل عند الأنبياء عليهم السلام أن كل ما رآه في المنام فهو حق حجة أو لم يثبت ذلك بالدليل عندهم، فإن كان الأول فلم راجع الولد في هذه الواقعة، بل كان من الواجب عليه أن يشتغل بتحصيل ذلك المأمور، وأن لا يراجع الولد فيه، وأن لا يقول له؛ ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ وأن لا يوقف العمل على أن يقول له الولد: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾؟، وأيضًا فقد قلتم إنه بقي في اليوم الأول متفكرًا، ولو ثبت عنده بالدليل أن كل ما رآه في النوم فهو حق لم يكن إلى هذا التروي والتفكر حاجة، وإن كان الثاني، وهو أنه لم يثبت بالدليل عندهم أن ما يرونه في المنام حق، فكيف يجوز له أن يقدم على ذبح ذلك الطفل بمجرد رؤيا لم يدل الدليل على كونها حجة؟ والجواب: لا يبعد أن يقال إنه كان عند الرؤيا مترددًا فيه ثم تأكدت الرؤيا بالوحي الصريح، والله أعلم.

المسألة الثانية: اختلفوا في أن هذا الذبيح من هو؟ فقيل إنه إسحاق وهذ قول عمر وعلي والعباس بن عبد المطلب وابن مسعود وكعب الأحبار وقتادة وسعيد بن جبير ومسروق وعكرمة والزهري والسدي ومقاتل رضي الله عنهم، وقيل إنه إسماعيل وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب والحسن والشعبي ومجاهد والكلبي، واحتج القائلون بأنه إسماعيل بوجوه: الأول: أن رسول الله ﷺ قال: **«أَنَا ابْنُ الذَّبِيحَيْنِ»**[(١)] وقال له أعرابي: **«يَا ابْنَ الذَّبِيحَيْنِ فَتَبَسَّمَ فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: إِنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ لَمَّا حَفَرَ بِئْرَ زَمْزَمَ نَذَرَ لِلَّهِ لَئِنْ سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهَا لَيَذْبَحَنَّ أَحَدَ وَلَدِهِ، فَخَرَجَ السَّهْمُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ فَمَنَعَهُ أَخْوَالُهُ وَقَالُوا لَهُ افْدِ ابْنَكَ بِمِائَةٍ مِنَ الْإِبِلِ، فَفَدَاهُ بِمِائَةٍ مِنَ**

(١) أورده العجلوني في (كشف الخفا) (١/ ١٩٩)، حديث رقم (٦٠٦).
وقال: كذا في الكشاف قال الزيلعي وابن حجر في تخريج أحاديثه لم نجده بهذا اللفظ.

الإِبِلِ، وَالذَّبِيحُ الثَّانِي إِسْمَاعِيلُ» (١).

**الحجة الثانية:** نقل عن الأصمعي أنه قال: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح، فقال: يا أصمعي أين عقلك، ومتى كان إسحاق بمكة وإنما كان إسماعيل بمكة وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة؟.

**الحجة الثالثة:** أن الله تعالى وصف إسماعيل بالصبر دون إسحاق في قوله: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥] وهو صبره على الذبح، ووصفه أيضًا بصدق الوعد في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤] لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به.

**الحجة الرابعة:** قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] فنقول لو كان الذبيح إسحاق لكان الأمر بذبحه إما أن يقع قبل ظهور يعقوب، منه أو بعد ذلك فالأول: باطل لأنه تعالى لما بشرها بإسحاق، وبشرها معه بأنه يحصل منه يعقوب فقبل ظهور يعقوب منه لم يجز الأمر بذبحه، وإلا حصل الخلف في قوله: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ والثاني: باطل لأن قوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ يدل على أن ذلك الابن لما قدر على السعي ووصل إلى حد القدرة على الفعل أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه، وذلك ينافي وقوع هذه القصة في زمان آخر، فثبت أنه لا يجوز أن يكون الذبيح هو إسحاق.

**الحجة الخامسة:** حكى الله تعالى عنه أنه قال: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩] ثم طلب من الله تعالى ولدًا يستأنس به في غربته فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠] وهذا السؤال إنما يحسن قبل أن يحصل له الولد، لأنه لو حصل له ولد واحد لما طلب الولد الواحد، لأن طلب الحاصل محال وقوله: ﴿هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لا يفيد إلا طلب الولد الواحد، وكلمة من للتبعيض وأقل درجات البعضية الواحد فكأن قوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لا يفيد إلا طلب الولد الواحد فثبت أن هذا السؤال لا يحسن إلا عند عدم كل الأولاد فثبت أن هذا السؤال وقع حال طلب الولد الأول، وأجمع الناس على أن إسماعيل متقدم في الوجود على إسحاق، فثبت أن المطلوب بهذا الدعاء هو إسماعيل، ثم إن الله تعالى ذكر عقيبه قصة الذبيح فوجب أن يكون الذبيح هو إسماعيل.

**الحجة السادسة:** الأخبار الكثيرة في تعليق قرن الكبش بالكعبة، فكان الذبيح بمكة. ولو كان الذبيح إسحق كان الذبح بالشام.

واحتج من قال: إن ذلك الذبيح هو إسحاق بوجهين: الوجه الأول: أن أول الآية وآخرها

---

(١) حسن: أخرجه أبو نعيم في (معرفة الصحابة) (١٧/ ٣٢١)، حديث رقم (٥٤٨١)، والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٦٠٤)، حديث رقم (٤٠٣٦)، والطبري في (تفسيره) (٢١/ ٨٥)، جميعًا من طريق عمر بن عبد الرحيم الخطابي عن عبيد بن محمد العتبى من ولد عتبة بن أبي سفيان عن أبيه قال حدثني عبد الله بن سعيد عن الصنابحي قال كنا عند معاوية بن أبي سفيان فذكروا الذبيح إسماعيل أو إسحاق فقال علي الخبير سقطتم... فذكره. وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (١/ ١٩٩). وقال: والحديث حسن بل صححه الحاكم والذهبي لتقوية بتعدد طرقه. انتهى.

يدل على ذلك، أما أولها فإنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام قبل هذه الآية أنه قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ وأجمعوا على أن المراد منه مهاجرته إلى الشام ثم قال: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]فوجب أن يكون هذا الغلام ليس إلا إسحاق، ثم قال بعده: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ وذلك يقتضي أن يكون المراد من هذا الغلام الذي بلغ معه السعي هو ذلك الغلام الذي حصل في الشام، فثبت أن مقدمة هذه الآية تدل على أن الذبيح هو إسحاق، وأما آخر الآية فهو أيضًا يدل على ذلك لأنه تعالى لما تمم قصة الذبيح قال بعده: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ ومعناه أنه بشره بكونه نبيًّا من الصالحين، وذكر هذه البشارة عقيب حكاية تلك القصة يدل على أنه تعالى إنما بشره بهذه النبوة لأجل أنه تحمل هذه الشدائد في قصة الذبيح، فثبت بما ذكرنا أن أول الآية وآخرها يدل على أن الذبيح هو إسحاق عليه السلام.

**الحجة الثانية:** على صحة ذلك ما اشتهر من كتاب يعقوب إلى يوسف عليه السلام من يعقوب إسرائيل نبي الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله. فهذا جملة الكلام في هذا الباب، وكان الزجاج يقول: الله أعلم أيهما الذبيح، والله أعلم. واعلم أنه يتفرع على ما ذكرنا اختلافهم في موضع الذبح فالذين قالوا الذبيح هو إسماعيل قالوا: كان الذبح بمنى، والذين قالوا: إنه إسحاق قالوا هو بالشام وقيل ببيت المقدس، والله أعلم.

**المسألة الثالثة:** اختلف الناس في أن إبراهيم عليه السلام كان مأمورًا بهذا بما رأى، وهذا الاختلاف مفرع على مسألة من مسائل أصول الفقه، وهي أنه هل يجوز نسخ الحكم قبل حضور مدة الامتثال فقال أكثر أصحابنا: إنه يجوز، وقالت المعتزلة وكثير من فقهاء الشافعية والحنفية: إنه لا يجوز، فعلى القول الأول أنه سبحانه وتعالى أمره بالذبح، ثم إنه تعالى نسخ هذا التكليف قبل حضور وقته، وعلى القول الثاني أنه تعالى ما أمره بالذبح، وإنما أمره بمقدمات الذبح وهذه مسألة شريفة من مسائل باب النسخ، واحتج أصحابنا على أنه يجوز نسخ الأمر قبل مجيء مدة الامتثال بأن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده، ثم إنه تعالى نسخه عنه قبل إقدامه عليه وذلك يفيد المطلوب إنما قلنا إنه تعالى أمره بذبح الولد لوجهين الأول: أنه عليه السلام قال لولده: ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ فقال الولد: ﴿افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ وهذا يدل على أنه عليه السلام كان مأمورًا بمقدمات الذبح لا بنفس الذبح، ثم إنه أتى بمقدمات الذبح وأدخلها في الوجود، فحينئذٍ يكون قد أمر بشيء وقد أتى به، وفي هذا الموضع لا يحتاج إلى الفداء، لكنه احتاج إلى الفداء بدليل قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ فدل هذا على أنه أتى بالمأمور به، وقد ثبت أنه أتى بكل مقدمات الذبح، وهذا يدل على أنه تعالى كان قد أمره بنفس الذبح، وإذا ثبت هذا فنقول إنه تعالى نسخ ذلك الحكم قبل إثباته وذلك يدل على المقصود، وقالت المعتزلة: لا نسلم أن الله أمره بذبح الولد بل نقول إنه تعالى أمره بمقدمات الذبح، ويدل عليه وجوه الأول: أنه ما أتى بالذبح وإنما أتى بمقدمات الذبح، ثم إن الله تعالى أخبر عنه بأنه أتى بما أمر به بدليل

قوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ وذلك يدل على أنه تعالى إنما أمره في المنام بمقدمات الذبح لا بنفس الذبح وتلك المقدمات عبارة عن إضجاعه ووضع السكين على حلقه، والعزم الصحيح على الإتيان بذلك الفعل إن ورد، الأمر الثاني: الذبح عبارة عن قطع الحلقوم فلعل إبراهيم عليه السلام قطع الحلقوم إلا أنه كلما قطع جزءًا أعاد الله التأليف إليه، فلهذا السبب لم يحصل الموت، والوجه الثالث: وهو الذي عليه تعويل القوم أنه تعالى لو أمر شخصًا معينًا بإيقاع فعل معين في وقت معين، فهذا يدل على أن إيقاع ذلك الفعل في ذلك الوقت حسن، فإذا أنهاه عنه فذلك النهي يدل على أن إيقاع ذلك الفعل في ذلك الوقت قبيح، فلو حصل هذا النهي عقيب ذلك الأمر لزم أحد أمرين، لأنه تعالى إن كان عالمًا بحال ذلك الفعل لزم أن يقال إنه أمر بالقبيح أو نهى عن الحسن، وإن لم يكن عالمًا به لزم جهل الله تعالى وإنه محال، فهذا تمام الكلام في هذا الباب. والجواب عن الأول أنا قد دللنا على أنه تعالى إنما أمره بالذبح.

**أما قوله تعالى:** ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ فهذا يدل على أنه اعترف بكون تلك الرؤيا واجب العمل بها ولا يدل على أنه أتى بكل ما رآه في ذلك المنام. وأما قوله ثانيًا كلما قطع إبراهيم عليه السلام جزءًا أعاد الله تعالى التأليف إليه، فنقول هذا باطل لأن إبراهيم عليه السلام لو أتى بكل ما أمر به لما احتاج إلى الفداء وحيث احتاج إليه علمنا أنه لم يأت بما أمر به. وأما قوله ثالثًا إنه يلزم، إما الأمر بالقبيح وإما الجهل، فنقول هذا بناءً على أن الله تعالى لا يأمر إلا بما يكون حسنًا في ذاته ولا ينهى إلا عما يكون قبيحًا في ذاته، وذلك بناءً على تحسين العقل وتقبيحه وهو باطل، وأيضًا فهب أنا نسلم ذلك إلا أنا نقول لم لا يجوز أن يقال إن الأمر بالشيء تارة يحسن لكون المأمور به حسنًا وتارة لأجل أن ذلك الأمر يفيد صحة مصلحة من المصالح وإن لم يكن المأمور به حسنًا ألا ترى أن السيد إذا أراد أن يروض عبده، فإنه يقول له: إذا جاء يوم الجمعة فافعل الفعل الفلاني، ويكون ذلك الفعل من الأفعال الشاقة، ويكون مقصود السيد من ذلك الأمر ليس أن يأتي ذلك العبد بذلك الفعل، بل أن يوطن العبد نفسه على الانقياد والطاعة، ثم إن السيد إذا علم منه أنه وطن نفسه على الطاعة فقد يزيل الألم عنه ذلك التكليف، فكذا ههنا، فما لم تقيموا الدلالة على فساد هذا الاحتمال لم يتم كلامكم.

المسألة الرابعة: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الله تعالى قد يأمر بما لا يريد وقوعه، والدليل عليه أنه أمر بالذبح وما أراد وقوعه، أما أنه أمر بالذبح فلما تقدم في المسألة الأولى. وأما أنه ما أراد وقوعه فلأن عندنا أن كل ما أراد الله وقوعه فإنه يقع، وحيث لم يقع هذا الذبح علمنا أنه تعالى ما أراد وقوعه، وأما عند المعتزلة فلأن الله تعالى نهى عن ذلك الذبح، والنهي عن الشيء يدل على أن الناهي لا يريد وقوعه فثبت أنه تعالى أمر بالذبح، وثبت أنه تعالى ما أراده، وذلك يدل على أن الأمر قد يوجد بدون الإرادة، وتمام الكلام في أن الله تعالى أمر

بالذبح ما تقدم في المسألة المتقدمة، والله أعلم.

**المسألة الخامسة**: في بيان الحكمة في ورود هذا التكليف في النوم لا في اليقظة وبيانه من وجوه الأول: أن هذا التكليف كان في نهاية المشقة على الذابح والمذبوح، فورد أولاً في النوم حتى يصير ذلك كالمنبه لورود هذا التكليف الشاق، ثم يتأكد حال النوم بأحوال اليقظة، فحينئذٍ لا يهجم هذا التكليف دفعة واحدة بل شيئًا فشيئًا، الثاني: أن الله تعالى جعل رؤيا الأنبياء عليهم السلام حقًا، قال الله تعالى في حق محمد ﷺ: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [الفتح: ٢٧] وقال عن يوسف عليه السلام: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] وقال في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢] والمقصود من ذلك تقوية الدلالة على كونهم صادقين، لأن الحال إما حال يقظة وإما حال منام، فإذا تظاهرت الحالتان على الصدق، كان ذلك هو النهاية في بيان كونهم محقين صادقين في كل الأحوال، والله أعلم.

ثم نقول: مقامات الأنبياء عليهم السلام على ثلاثة أقسام منها ما يقع على وفق الرؤية كما في قوله تعالى في حق رسولنا ﷺ: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [الفتح: ٢٧] ثم وقع ذلك الشيء بعينه، ومنها ما يقع على الضد كما في حق إبراهيم عليه السلام فإنه رأى الذبح وكان الحاصل هو الفداء والنجاة، ومنها ما يقع على ضرب من التأويل والمناسبة كما في رؤيا يوسف عليه السلام، فلهذا السبب أطبق أهل التعبير على أن المنامات واقعة على هذه الوجوه الثلاثة.

**المسألة السادسة**: قرأ حمزة والكسائي: (تُرِي) بضم التاء وكسر الراء، أي: ما ترى من نفسك من الصبر والتسليم؟ وقيل: ما تشير، والباقون بفتح التاء، ثم منهم من يميل ومنهم من لا يميل.

**المسألة السابعة**: الحكمة في مشاورة الابن في هذا الباب أن يطلع ابنه على هذه الواقعة ليظهر له صبره في طاعة الله فتكون فيه قرة عين لإبراهيم حيث يراه قد بلغ في الحلم إلى هذا الحد العظيم، وفي الصبر على أشد المكاره إلى هذه الدرجة العالية ويحصل للابن الثواب العظيم في الآخرة والثناء الحسن في الدنيا، ثم إنه تعالى حكى عن ولد إبراهيم عليه السلام أنه قال: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ ومعناه افعل ما تؤمر به، فحذف الجار كما حذف من قوله:

أَمَرْتُكَ الخير فافعل ما أمرت به(١)

**ثم قال**: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وإنما علق ذلك بمشيئة الله تعالى على سبيل التبرك والتيمن، وأنه لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله.

**ثم قال تعالى**: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ يقال سلم لأمر الله وأسلم واستسلم بمعنى واحد، وقد قرئ بهن جميعًا إذ انقاد له وخضع، وأصلها من قولك سلم هذا لفلان إذا خلص له، ومعناه سلم من أن ينازع فيه، وقولهم سلم لأمر الله وأسلم له منقولان عنه بالهمزة، وحقيقة معناها أخلص نفسه

---

(١) البيت للشاعر عمرو الزبيدي وقد تقدمت ترجمته.

لله وجعلها سالمة له خالصة، وكذلك معنى استسلم استخلص نفسه لله وعن قتادة في ﴿أَسْلَمَا﴾ أسلم هذا ابنه وهذا نفسه.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ أي صرعه على شقه فوقع أحد جبينيه على الأرض وللوجه جبينان، والجبهة بينهما، قال ابن الأعرابي: التليل والمتلول المصروع والمتل الذي يتل به أي يصرع، فالمعنى أنه صرعه على جبينه، وقال مقاتل: كبه على جبهته، وهذا خطأ لأن الجبين غير الجبهة.

ثم قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ وفيه قولان الأول: أن هذا جواب فلما عند الكوفيين والفراء والواو زائدة، والقول الثاني: أن عند البصريين لا يجوز ذلك والجواب مقدر والتقدير: فلما فعل ذلك وناداه الله أن: يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، سعد سعادة عظيمة وآتاه الله نبوة ولده وأجزل له الثواب، قالوا: وحذف الجواب ليس بغريب في القرآن والفائدة فيه أنه إذا كان محذوفًا كان أعظم وأفخم، قال المفسرون: لما أضجعه للذبح نودي من الجبل: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ قال المحققون: السبب في هذا التكليف كمال طاعة إبراهيم لتكاليف الله تعالى فلما كلفه الله تعالى بهذا التكليف الشاق الشديد وظهر منه كمال الطاعة وظهر من ولده كمال الطاعة والانقياد، لا جرم قال: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾، يعني حصل المقصود من تلك الرؤيا.

وقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ابتداء إخبار من الله تعالى، وليس يتصل بما تقدم من الكلام، والمعنى أن إبراهيم وولده كانا محسنين في هذه الطاعة، فكما جزينا هذين المحسنين فكذلك نجزي كل المحسنين.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ أي الاختبار البين الذي يتميز فيه المخلصون من غيرهم أو المحنة البينة الصعوبة التي لا محنة أصعب منها ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ الذبح مصدر ذبحت والذبح أيضًا ما يذبح وهو المراد في هذه الآية، وههنا مباحث تتعلق بالحكايات:

فالأول: حكي في قصة الذبيح أن إبراهيم عليه السلام لما أراد ذبحه قال: يا بني خذ الحبل والمدية وانطلق بنا إلى الشعب نحتطب، فلما توسطا شعب ثبير أخبره بما أمر به، فقال: يا أبت اشدد رباطي فيَّ كيلا أضطرب، واكفف عني ثيابك لا ينتضح عليها شيء من دمي فتراه أمي فتحزن، واستحد شفرتك وأسرع إمرارها على حلقي ليكون أهون فإن الموت شديد، واقرأ على أمي سلامي وإن رأيت أن ترد قميصي على أمي فافعل فإنه عسى أن يكون أسهل لها، فقال إبراهيم عليه السلام: نعم العون أنت يا بني على أمر الله، ثم أقبل عليه يقبله وقد ربطه وهما يبكيان ثم وضع السكين على حلقه فقال: كبني على وجهي فإنك إذا نظرت وجهي رحمتني وأدركتك رقة وقد تحول بينك وبين أمر الله سبحانه وتعالى: ففعل ثم وضع السكين على قفاه فانقلبت السكين ونودي يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا.

**البحث الثاني:** اختلفوا في ذلك الكبش فقيل إنه الكبش الذي تقرب به هابيل بن آدم إلى الله تعالى فقبله، وكان في الجنة يرعى حتى فدى الله تعالى به إسماعيل، وقال آخرون أرسل الله كبشًا من الجنة قد رعى أربعين خريفًا، وقال السدي: نودي إبراهيم فالتفت فإذا هو بكبش أملح انحط من الجبل، فقام عنه إبراهيم فأخذه فذبحه، وخلى عن ابنه، ثم اعتنق ابنه وقال: يا بني اليوم وهبت لي، وأما قوله: ﴿عَظِيمٍ﴾ فقيل سمي عظيمًا لعظمه وسمنه، وقال سعيد بن جبير: حق له أن يكون عظيمًا وقد رعى في الجنة أربعين خريفًا، وقيل سمي عظيمًا لعظم قدره حيث قبله الله تعالى فداء عن ولد إبراهيم، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ عائد إلى إبراهيم، ثم قال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فقوله: ﴿نَبِيًّا﴾ حال مقدرة أي بشرناه بوجود إسحاق مقدرة نبوته، ولمن يقول إن الذبيح هو إسماعيل أن يحتج بهذه الآية، وذلك لأن قوله: ﴿نَبِيًّا﴾ حال ولا يجوز أن يكون المعنى فبشرناه بإسحاق حال كون إسحق نبيًّا لأن البشارة به متقدمة على صيرورته نبيًّا، فوجب أن يكون المعنى وبشرناه بإسحاق حال ما قدرناه نبيًّا، وحال ما حكمنا عليه فصبر، وإذا كان الأمر كذلك فحينئذٍ كانت هذه البشارة بشارة بوجود إسحاق حاصلة بعد قصة الذبيح، فوجب أن يكون الذبيح غير إسحاق، أقصى ما في الباب أن يقال لا يبعد أن يقال هذه الآية وإن كانت متأخرة في التلاوة عن قصة الذبيح إلا أنها كانت متقدمة عليها في الوقوع والوجود، إلا أنا نقول الأصل رعاية الترتيب وعدم التغيير في النظم، والله أعلم بالصواب.

**ثم قال تعالى:** ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ وفي تفسير هذه البركة وجهان الأول: أنه تعالى أخرج جميع أنبياء بني إسرائيل من صلب إسحاق، والثاني: أنه أبقى الثناء الحسن على إبراهيم وإسحاق إلى يوم القيامة، لأن البركة عبارة عن الدوام والثبات، ثم قال تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ وفي ذلك تنبيه على أنه لا يلزم من كثرة فضائل الأب فضيلة الابن، لئلا تصير هذه الشبهة سببًا لمفاخرة اليهود، ودخل تحت قوله: ﴿مُحْسِنٌ﴾ الأنبياء والمؤمنين وتحت قوله: ﴿وَظَالِمٌ﴾ الكافر والفاسق، والله أعلم.

## قصة موسى وهارون عليهما السلام

**قوله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

اعلم أن هذا هو القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة، واعلم أن وجوه الإنعام

وإن كانت كثيرة إلا أنها محصورة في نوعين إيصال المنافع إليه ودفع المضار عنه والله تعالى ذكر القسمين هاهنا، فقوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ إشارة إلى إيصال المنافع إليهما، وقوله: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ إشارة إلى دفع المضار عنهما.

**أما القسم الأول:** وهو إيصال المنافع، فلا شك أن المنافع على قسمين: منافع الدنيا ومنافع الدين، أما منافع الدنيا فالوجود والحياة والعقل والتربية والصحة وتحصيل صفات الكمال في ذات كل واحد منهما، وأما منافع الدين فالعلم والطاعة، وأعلى هذه الدرجات النبوة الرفيعة المقرونة بالمعجزات الباهرة القاهرة، ولما ذكر الله تعالى هذه التفاصيل في سائر السور، لا جرم اكتفى ههنا بهذا الرمز.

**وأما القسم الثاني:** وهو دفع الضرر فهو المراد من قوله: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وفيه قولان: قيل إنه الغرق، أغرق الله فرعون وقومه، ونجى الله بني إسرائيل، وقيل المراد أنه تعالى نجاهم من إيذاء فرعون حيث كان يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم.

واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه منَّ على موسى وهارون، فصل أقسام تلك المنة. والهاء في قوله: ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾ أي نصرنا موسى وهارون وقومهما: ﴿فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ في كل الأحوال بظهور الحجة وفي آخر الأمر بالدولة والرفعة، وثانيهما: قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ والمراد منه التوراة، وهو الكتاب المشتمل على جميع العلوم التي يحتاج إليها في مصالح الدين والدنيا، كما قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي دللناهما على طريق الحق عقلاً وسمعًا، وأمددناهما بالتوفيق والعصمة، وتشبيه الدلائل الحقة بالطريق المستقيم واضح، ورابعها: قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ وفيه قولان الأول: أن المراد ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ وهم أمة محمد ﷺ قولهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، والثاني: أن المراد ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ وهم أمة محمد ﷺ الثناء الحسن والذكر الجميل، وعلى هذا التقدير فقوله بعد ذلك: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ هو كلام الله تعالى، ولما ذكر تعالى هذه الأقسام الأربعة من أبواب التعظيم والتفضيل قال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وقد سبق تفسيره، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والمقصود التنبيه على أن الفضيلة الحاصلة بسبب الإيمان أشرف وأعلى وأكمل من كل الفضائل، ولولا ذلك لما حسن ختم فضائل موسى وهارون بكونهما من المؤمنين، والله أعلم.

## قصة إلياس عليه السلام

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ

لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

اعلم أن هذه القصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة.

**وفيه مسائل:**

**المسألة الأولى**: قرأ ابن عامر: (وإن الياس) بغير همزة على وصل الألف والباقون بالهمزة وقطع الألف، قال أبو بكر بن مهران: من ذكر عند الوصل الألف فقد أخطأ، وكان أهل الشام ينكرونه ولا يعرفونه، قال الواحدي: وله وجهان أحدهما: أنه حذف الهمزة من إلياس حذفًا، كما حذفها ابن كثير من قوله: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ [المدثر: ٣٥] وكقول الشاعر:

وَيْـلُـمِّـهَـا فِـي هَـوَاءِ الْـجَـوِّ طَـالِـبَـةً

والآخر أنه جعل الهمزة التي تصحب اللام للتعريف كقوله: ﴿وَٱلْيَسَعَ﴾ [الأنعام: ٨٦].

**المسألة الثانية**: في إلياس قولان: يروى عن ابن مسعود أنه قرأ (وإن إدريس)، وقال: إن إلياس هو إدريس، وهذا قول عكرمة، وأما أكثر المفسرين فهم متفقون على أنه نبي من أنبياء بني إسرائيل وهو إلياس بن ياسين، من ولد هارون أخي موسى عليهم السلام، ثم قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ والتقدير: اذكر يا محمد لقومك: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي ألا تخافون الله، وقال الكلبي: ألا تخافون عبادة غير الله. واعلم أنه لما خوفهم أولاً على سبيل الإجمال ذكر ما هو السبب لذلك الخوف فقال: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

**وفيه أبحاث:**

**الأول**: في (بعل) قولان أحدهما: أنه اسم علم لصنم كان لهم كمناة وهبل، وقيل كان من ذهب، وكان طوله عشرين ذراعًا وله أربعة أوجه، وفتنوا به وعظموه، حتى عينوا له أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياء، وكان الشيطان يدخل في جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة، والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس وهم أهل بعلبك من بلاد الشأم، وبه سميت مدينتهم بعلبك. واعلم أن قولهم بعل اسم لصنم من أصنامهم لا بأس به، وأما قولهم: إن الشيطان كان يدخل في جوف بعلبك ويتكلم بشريعة الضلالة. فهذا مشكل لأنا إن جوزنا هذا كان ذلك قادحًا في كثير من المعجزات، لأنه نقل في معجزات النبي ﷺ كَلَامُ الذِّئْبِ مَعَهُ وَكَلَامُ الْجَمَلِ مَعَهُ وَحَنِينُ الْجِذْعِ [1]، ولو جوزنا أن يدخل الشيطان في جوف جسم ويتكلم، فحينئذٍ يكون هذا الاحتمال

---

(١) هذه من معجزات النبي ﷺ وقد جاءت ضمن أحاديث صحيحة وقد قمت بجمع كتاب سميته الآيات المبهرات فيما صح عن النبي من المعجزات طبعة دار الحديث بالقاهرة جمعت فيها حوالي ستة وثلاثين معجزة والحمد لله رب العالمين.

قائمًا في الذئب والجمل والجذع، وذلك يقدح في كون هذه الأشياء معجزات، القول الثاني: أن البعل هو الرب بلغة اليمن، يقال من بعل هذه الدار، أي من ربها، وسمي الزوج بعلاً لهذا المعنى، قال تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢] فعلى هذا التقدير المعنى، أتعبدون بعض البعول وتتركون عبادة الله.

**البحث الثاني:** المعتزلة احتجوا بهذه الآية على كون العبد خالقًا لأفعال نفسه، فقالوا: لو لم يكن غير الله خالقًا لما جاز وصف الله بأنه أحسن الخالقين، والكلام فيه قد تقدم في قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

**البحث الثالث:** كان الملقب بالرشيد الكاتب يقول: لو قيل: أتدعون بعلاً وتدعون أحسن الخالقين. أوهم أنه أحسن، لأنه كان قد تحصل فيه رعاية معنى التحسين وجوابه: أن فصاحة القرآن ليست لأجل رعاية هذه التكاليف، بل لأجل قوة المعاني وجزالة الألفاظ. واعلم أنه لما عابهم على عبادة غير الله صرح بالتوحيد ونفى الشركاء، فقال: ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾.

**وفيه مباحث:**

**البحث الأول:** أنا ذكرنا في هذا الكتاب أن حدوث الأشخاص البشرية كيف يدل على وجود الصانع المختار، وكيف يدل على وحدته وبراءته عن الأضداد والأنداد، فلا فائدة في الإعادة.

**البحث الثاني:** قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ﴾ كلها بالنصب على البدل من قوله: ﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ والباقون بالرفع على الاستئناف، والأول اختيار أبي حاتم وأبي عبيد، ونقل صاحب (الكشاف) أن حمزة إذا وصل نصب، وإذا وقف رفع، ولما حكى الله عنه أنه قرر مع قومه التوحيد قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي لمحضرون النار غدًا، وقد ذكرنا الكلام فيه عند قوله: ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٧].

**ثم قال تعالى:** ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ وذلك لأن قومه ما كذبوه بكليتهم، بل كان فيهم من قبل ذلك التوحيد فلهذا قال تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ يعني الذين أتوا بالتوحيد الخالص فإنهم لا يحضرون ثم قال: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝١٢٩ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ قرأ نافع وابن عامر ويعقوب (آلِ يَاسِينَ) على إضافة لفظ آل إلى لفظ ياسين والباقون بكسر الألف وجزم اللام موصولة بياسين، أما القراءة الأولى ففيها وجوه الأول: وهو الأقرب أنا ذكرنا أنه إلياس بن ياسين فكان إلياس آل ياسين، الثاني: (آلُ يَاسِينَ) آل محمد ﷺ، والثالث: أن ياسين اسم القرآن، كأنه قيل سلام الله على من آمن بكتاب الله الذي هو ياسين، والوجه هو الأول لأنه أليق بسياق الكلام، وأما القراءة الثانية ففيها وجوه الأول: قال الزجاج يقال ميكال وميكائيل وميكالين، فكذا ههنا إلياس

وإلياسين، والثاني: قال الفراء: هو جمع وأراد به إلياس وأتباعه من المؤمنين، كقولهم المهلبون والسعدون قال:

أنا ابن سعد أكرم السعدينا[١]

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ وقد سبق تفسيره، والله أعلم.

## قصة لوط عليه السلام

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

هذا هو القصة الخامسة، وإنه تعالى إنما ذكر هذه القصة ليعتبر بها مشركو العرب، فإن الذين كفروا من قومه هلكوا والذين آمنوا نجوا، وقد تقدم شرح هذه القصة، وقد نبههم بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ﴾ وذلك لأن القوم كانوا يسافرون إلى الشام والمسافر في أكثر الأمر إنما يمشي في الليل وفي أول النهار، فلهذا السبب عين تعالى هذين الوقتين.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يعني أليس فيكم عقول تعتبرون بها، والله أعلم.

## قصة يونس عليه السلام

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾

واعلم أن هذا هو القصة السادسة وهو آخر القصص المذكورة في هذه السورة، وإنما صارت هذه القصة خاتمة للقصص، لأجل أنه لما لم يصبر على أذى قومه وأبق إلى الفلك وقع في تلك الشدائد فيصير هذا سببًا لتصبر النبي ﷺ على أذى قومه.

أما قوله: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ ففيه مسائل:

**المسألة الأولى**: قال صاحب (الكشاف): قرئ يونس بضم النون وكسرها.

**المسألة الثانية**: دلت هذه الآية على أن هذه الواقعة إنما وقعت ليونس عليه السلام بعد أن

(١) هذا البيت للشاعر رؤبة بن العجاج وقد تقدمت ترجمته.

صار رسولاً، لأن قوله: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ﴾ معناه أنه كان من المرسلين حينما أبق إلى الفلك، ويمكن أن يقال: إنه جاء في كثير من الروايات أنه أرسله ملك زمانه إلى أولئك القوم ليدعوهم إلى الله، ثم أبق والتقمه الحوت فعند ذلك أرسله الله تعالى، والحاصل أن قوله: ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لا يدل على أنه كان في ذلك الوقت مرسلاً من عند الله تعالى، ويمكن أن يجاب بأنه سبحانه وتعالى ذكر هذا الوصف في معرض تعظيمه، ولن يفيد هذه الفائدة إلا إذا كان المراد من قوله: ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أنه من المرسلين عند الله تعالى.

المسألة الثالثة: أبق من إباق العبد وهو هربه من سيده، ثم اختلف المفسرون فقال بعضهم: إنه أبق من الله تعالى، وهذا بعيد لأن ذلك لا يقال إلا فيمن يتعمد مخالفة ربه، وذلك لا يجوز على الأنبياء، واختلفوا فيما لأجله صار مخطئًا، فقيل: لأنه أمر بالخروج إلى بني إسرائيل فلم يقبل ذلك التكليف وخرج مغاضبًا لربه، وهذا بعيد سواء أمره الله تعالى بذلك بوحي أو بلسان نبي آخر، وقيل: إن ذنبه أنه ترك دعاء قومه، ولم يصبر عليهم. وهذا أيضًا بعيد لأن الله تعالى لما أمره بهذا العمل فلا يجوز أن يتركه، والأقرب فيه وجهان الأول: أن ذنبه كان لأن الله تعالى وعده إنزال الإهلاك بقومه الذين كذبوه فظن أنه نازل لا محالة، فلأجل هذا الظن لم يصبر على دعائهم، فكان الواجب عليه أن يستمر على الدعاء لجواز أن لا يهلكهم الله بالعذاب وإن أنزله، وهذا هو الأقرب لأنه إقدام على أمر ظهرت أماراته فلا يكون تعمدًا للمعصية، وإن كان الأولى في مثل هذا الباب أن لا يعمل فيه بالظن ثم انكشف ليونس من بعد أنه أخطأ في ذلك الظن، لأجل أنه ظهر الإيمان منهم فمعنى قوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ﴾ ما ذكرناه، الوجه الثاني: أن يونس كان وعد قومه بالعذاب فلما تأخر عنهم العذاب خرج كالمستور عنهم فقصد البحر وركب السفينة، فذلك هو قوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ﴾ وتمام الكلام في مشكلات هذه الآية ذكرناه في قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وقوله: ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ مفسر في سورة يونس والسفينة إذا كان فيها الحمل الكثير والناس يقال إنها مشحونة، ثم قال تعالى: ﴿فَسَاهَمَ﴾ المساهمة هي المقارعة، يقال: أسهم القوم إذا اقترعوا، قال المبرد: وإنما أخذ من السهام التي تجال للقرعة ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ أي: المغلوبين يقال: أدحض الله حجته فدحضت أي: أزالها فزالت وأصل الكلمة من الدحض الذي هو الزلق، يقال: دحضت رجل البعير إذا زلقت، وذكر ابن عباس في قصة يونس عليه السلام أنه كان يسكن مع قومه فلسطين فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفًا وبقي سبطان ونصف، وكان الله تعالى أوحى إلى بني إسرائيل إذا أسركم عدوكم أو أصابتكم مصيبة فادعوني أستجب لكم، فلما نسوا ذلك وأسروا أوحى الله تعالى بعد حين إلى نبي من أنبيائهم أن اذهب إلى ملك هؤلاء الأقوام وقل له حتى يبعث إلى بني إسرائيل نبيًّا، فاختار يونس عليه السلام لقوته وأمانته، قال يونس: آلله أمرك بهذا؟ قال: لا ولكن أمرت أن أبعث قويًّا أمينًا وأنت كذلك، فقال يونس:

وفي بني إسرائيل من هو أقوى مني فلم لا تبعثه، فألح الملك عليه فغضب يونس منه وخرج حتى أتى بحر الروم ووجد سفينة مشحونة فحملوه فيها، فلما دخلت لجة البحر أشرفت على الغرق، فقال الملاحون: إن فيكم عاصيًا وإلا لم يحصل في السفينة ما نراه من غير ريح ولا سبب ظاهر، وقال التجار: قد جربنا مثل هذا فإذا رأيناه نقترع، فمن خرج سهمه نغرقه، فلأن يغرق واحد خير من غرق الكل فخرج سهم يونس، فقال التجار: نحن أولى بالمعصية من نبي الله، ثم عادوا ثانيًا وثالثًا يقترعون فيخرج سهم يونس، فقال: يا هؤلاء أنا العاصي وتلفف في كساء ورمى بنفسه فابتلعته السمكة فأوحى الله تعالى إلى الحوت: «لاَ تَكْسِرْ مِنْهُ عَظْمًا وَلاَ تَقْطَعْ لَهُ وَصْلاً» ثم إن السمكة أخرجته إلى نيل مصر ثم إلى بحر فارس ثم إلى بحر البطائح ثم دجلة فصعدت به ورمته بأرض نصيبين بالعراء، وهو كالفرخ المنتوف لا شعر ولا لحم، فأنبت الله عليه شجرة من يقطين، فكان يستظل بها ويأكل من ثمرها حتى تشدد، ثم إن الأرض أكلتها فخرت من أصلها فحزن يونس لذلك حزنًا شديدًا، فقال: يا رب كنت أستظل تحت هذه الشجرة من الشمس والريح وأمص من ثمرها وقد سقطت، فقيل له يا يونس تحزن على شجرة أنبتت في ساعة واقتلعت في ساعة ولا تحزن على مائة ألف أو يزيدون تركتهم! انطلق إليهم، والله أعلم بحقيقة الواقعة.

**ثم قال تعالى:** ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ يقال: التقمه والتهمه والكل بمعنى واحد، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ يقال: ألام إذا أتى بما يلام عليه، فالمليم المستحق للوم الآتي بما يلام عليه.

**ثم قال تعالى:** ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وفي تفسير كونه من المسبحين قولان الأول: أن المراد منه ما حكى الله تعالى عنه في آية أخرى أنه كان يقول في تلك الظلمات ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] الثاني: أنه لولا أنه كان قبل أن التقمه الحوت من المسبحين يعني المصلين وكان في أكثر الأوقات مواظبًا على ذكر الله وطاعته للبث في بطن ذلك الحوت، وكان بطنه قبرًا له إلى يوم البعث، قال بعضهم: اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة، فإن يونس عليه السلام كان عبدًا صالحًا ذاكرًا لله تعالى، فلما وقع في بطن الحوت قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وإن فرعون كان عبدًا طاغيًا ناسيًا، فلما أدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] قال الله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ [يونس: ٩١] واختلفوا في أنه كم لبث في بطن الحوت، ولفظ القرآن لا يدل عليه. قال الحسن: لم يلبث إلا قليلاً وأخرج من بطنه بعد الوقت الذي التقمه، وعن مقاتل بن حيان ثلاثة أيام وعن عطاء سبعة أيام وعن الضحاك عشرين يومًا وقيل شهرًا ولا أدري بأي دليل عينوا هذه المقادير، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «سَبَّحَ يُونُسُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ فَسَمِعَتِ الْمَلاَئِكَةُ تَسْبِيحَهُ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا نَسْمَعُ صَوْ

ضَعِيفًا بِأَرْضٍ غَرِيبَةٍ، فَقَالَ ذَاكَ عَبْدِي يُونُسُ عَصَانِي فَحَبَسْتُهُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ فِي الْبَحْرِ، فَقَالُوا الْعَبْدُ الصَّالِحُ الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ إِلَيْكَ مِنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عَمَلٌ صَالِحٌ؟ قَالَ: نعم، فَشَفَعُوا لَهُ فَأَمَرَ الْحُوتَ فَقَذَفَهُ فِي السَّاحِلِ»[1] فذاك هو قوله: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾.

**وفيه مباحث:**

**الأول:** العراء المكان الخالي قال أبو عبيدة: إنما قيل له العراء لأنه لا شجر فيه ولا شيء يغطيه.

**الثاني:** أنه تعالى قال: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾ فأضاف ذلك النبذ إلى نفسه، والنبذ إنما حصل بفعل الحوت، وهذا يدل على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى.

**ثم قال تعالى:** ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ قيل المراد أنه بلي لحمه وصار ضعيفًا كالطفل المولود كالفرخ الممعط الذي ليس عليه ريش، وقال مجاهد ﴿سَقِيمٌ﴾ أي سليب.

**ثم قال تعالى:** ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ ظاهر اللفظ يدل على أن الحوت لما نبذه في العراء فالله تعالى أنبت عليه شجرة من يقطين وذلك المعجز له، قال المبرد والزجاج: كل شجر لا يقوم على ساق وإنما يمتد على وجه الأرض فهو يقطين، نحو الدباء والحنظل والبطيخ، قال الزجاج: أحسب اشتقاقها من قطن بالمكان إذا أقام به وهذا الشجر ورقه كله على وجه الأرض فلذلك قيل له اليقطين، روى الفراء أنه قيل عند ابن عباس هو ورق القرع، فقال: ومن جعل القرع من بين الشجر يقطينًا كل ورقة اتسعت وسترت فهي يقطين، قال الواحدي رحمه الله، والآية تقتضي شيئين لم يذكرهما المفسرون أحدهما: أن هذا اليقطين لم يكن قبل فأنبته الله لأجله، والآخر: أن اليقطين كان معروشًا ليحصل له ظل، لأنه لو كان منبسطًا على الأرض لم يمكن أن يستظل به.

**ثم قال تعالى:** ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾.

**وفيه مباحث:**

**الأول:** يحتمل أن يكون المراد وأرسلناه قبل أن يلتقمه الحوت وعلى هذا الإرسال وإن ذكر بعد الالتقام، فالمراد به التقديم والواو معناها الجمع، ويحتمل أن يكون المراد به الإرسال بعد الالتقام، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كانت رسالة يونس عليه السلام بعد ما نبذه الحوت، وعلى هذا التقدير يجوز أن يكون أرسل إلى قوم آخرين سوى القوم الأول، ويجوز أن يكون أرسل إلى الأولين ثانيًا بشريعة فآمنوا بها.

**البحث الثاني:** ظاهر قوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ يوجب الشك وذلك على الله تعالى محال ونظيره قوله تعالى: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات: ٦] وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] وقوله

---

(١) إسناده ضعيف: رواه الطبراني في (تفسيره) (١٨/ ٥١٨) من طريق سلمة قال حدثني ابن إسحاق عمن حدثه عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة زوج النبي ﷺ قال سمعت أبا هريرة يقول... فذكره. وفي إسناده انقطاع بين ابن إسحاق وعبد الله بن رافع.

تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣] وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩] وأجابوا عنه من وجوه كثيرة والأصح منها وجه واحد وهو أن يكون المعنى أو يزيدون في تقديركم بمعنى أنهم إذا رآهم الرائي قال هؤلاء مائة ألف أو يزيدون على المائة، وهذا هو الجواب عن كل ما يشبه هذا.

ثم قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ والمعنى أن أولئك الأقوام لما آمنوا أزال الله الخوف عنهم وآمنهم من العذاب ومتعهم الله إلى حين، أي إلى الوقت الذي جعله الله أجلاً لكل واحد منهم.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما ذكر أقاصيص الأنبياء عليهم السلام عاد إلى شرح مذاهب المشركين وبيان قبحها وسخافتها، ومن جملة أقوالهم الباطلة أنهم أثبتوا الأولاد لله سبحانه وتعالى، ثم زعموا أنها من جنس الإناث لا من جنس الذكور فقال: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ وهذا معطوف على قوله في أول السورة: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ [الصافات: ١١] وذلك لأنه تعالى أمر رسوله ﷺ باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أولاً ثم ساق الكلام موصولاً بعضه ببعض إلى أن أمره بأن يستفتيهم في أنهم لِمَ أثبتوا لله سبحانه البنات ولأنفسهم البنين، ونقل الواحدي عن المفسرين أنهم قالوا: إن قريشًا وأجناس العرب جهينة وبني سلمة وخزاعة وبني مليح قالوا: الملائكة بنات الله، واعلم أن هذا الكلام يشتمل على أمرين أحدهما: إثبات البنات لله، وذلك باطل لأن العرب كانوا يستنكفون من البنت، والشيء الذي يستنكف المخلوق منه كيف يمكن إثباته للخالق، والثاني: إثبات أن الملائكة إناث، وهذا أيضًا باطل لأن طريق العلم إما الحس وإما الخبر وإما النظر، أما الحس: فمفقود ههنا لأنهم ما شهدوا كيفية تخليق الله الملائكة وهو المراد من قوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾، وأما الخبر: فمفقود أيضًا لأن الخبر إنما يفيد العلم إذا علم كونه صدقًا قطعًا وهؤلاء الذين يخبرون عن هذا الحكم كذابون أفاكون، لم يدل على صدقهم لا دلالة ولا أمارة، وهو المراد من قوله: ﴿أَلَآ

﴿إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ وأما النظر: فمفقود وبيانه من وجهين الأول: أن دليل العقل يقتضي فساد هذا المذهب، لأن الله تعالى أكمل الموجودات، والأكمل لا يليق به اصطفاء الأخسّ وهو المراد من قوله ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝١٥٣ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ يعني إسناد الأفضل إلى الأفضل أقرب عند العقل من إسناد الأخس إلى الأفضل، فإن كان حكم العقل معتبرًا في هذا الباب كان قولكم باطلاً، والوجه الثاني: أن نترك الاستدلال على فساد مذهبهم، بل نطالبهم بإثبات الدليل الدال على صحة مذهبهم فإذا لم يجدوا ذلك الدليل فضده يظهر أنه لم يوجد ما يدل على صحة قولهم وهذا هو المراد من قوله: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ۝١٥٦ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فثبت بما ذكرنا أن القول الذي ذهبوا إليه لم يدل على صحته، لا الحس ولا الخبر ولا النظر، فكان المصير إليه باطلاً قطعًا، واعلم أنه تعالى لما طالبهم بما يدل على صحة مذهبهم دل ذلك على أن التقليد باطل، وأن الدين لا يصح إلا بالدليل.

**المسألة الثانية**: قوله: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ قراءة العامة بفتح الهمزة وقطعها من ﴿أَصْطَفَى﴾ ثم بحذف ألف الوصل وهو استفهام توبيخ وتقريع، كقوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ [الزخرف: ١٦] وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩] وقوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢١] وكما أن هذه المواضع كلها استفهام فكذلك في هذه الآية، وقرأ نافع في بعض الروايات: (لكاذبون اصطفى) موصولة بغير استفهام، وإذا ابتدأ كسر الهمزة على وجه الخبر والتقدير اصطفى البنات في زعمهم كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] في زعمه واعتقاده.

**ثم قال تعالى**: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ واختلفوا في المراد بالجنة على وجوه الأول: قال مقاتل: أثبتوا نسبًا بين الله تعالى وبين الملائكة حين زعموا أنهم بنات الله، وعلى هذا القول فالجنة هم الملائكة سموا جنًّا لاجتنانهم عن الأبصار أو لأنهم خزّان الجنة، وأقول: هذا القول عندي مشكل، لأنه تعالى أبطل قولهم الملائكة بنات الله، ثم عطف عليه قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ والعطف يقتضي كون المعطوف مغايرًا للمعطوف عليه، فوجب أن يكون المراد من هذه الآية غير ما تقدم، الثاني: قال مجاهد: قالت كفار قريش: الملائكة بنات الله، فقال لهم أبو بكر الصديق: فمن أمهاتهم؟ قالوا: سروات الجن، وهذا أيضًا عندي بعيد لأن المصاهرة لا تسمى نسبًا، والثالث: روينا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ [الأنعام: ١٠٠] أن قومًا من الزنادقة يقولون: الله وإبليس أخوان فالله الخير الكريم وإبليس هو الأخ الشرير الخسيس، فقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ المراد منه هذا المذهب، وعندي أن هذا القول أقرب الأقاويل، وهو مذهب المجوس القائلين بيزدان وإهرمن [1] ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ

---

(١) يزدان وإهرمن أي الشر والخير أو النور والظلمة وهذا المذهب هو المذهب المعروف بمذهب المانوية نسبة إلى (ماني) أول من قال به وهو مذهب باطل لما فيه من الإشراك بالله.

﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ أي قد علمت الجنة أن الذين قالوا هذا القول محضرون النار ويعذبون، وقيل: المراد ولقد علمت الجنة أنهم سيحضرون في العذاب، فعلى القول الأول: الضمير عائد إلى قائل هذا القول، وعلى القول الثاني عائد إلى الجنة أنفسهم، ثم إنه تعالى نزه نفسه عما قالوا من الكذب فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وفي هذا الاستثناء وجوه، قيل: استثناء من المحضرين، يعني: أنهم ناجون، وقيل هو استثناء من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ وقيل: هو استثناء منقطع من المحضرين، ومعناه ولكن المخلصين برآء من أن يصفوه بذلك، والمخلص بكسر اللام من أخلص العبادة والاعتقاد لله وبفتحها من أخلصه الله بلطفه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝١٦١ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ۝١٦٢ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦٣ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۝١٦٤ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ۝١٦٦ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ۝١٦٧ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦٨ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝١٦٩ فَكَفَرُواْ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝١٧٠﴾

**فيه مسائل:**

**المسألة الأولى:** اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل على فساد مذهب الكفار أتبعه بما نبه به على أن هؤلاء الكفار لا يقدرون على حمل أحد على الضلال إلا إذا كان قد سبق حكم الله في حقه بالعذاب والوقوع في النار، وذكر صاحب (الكشاف) في قوله: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝١٦١ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ قولين الأول: الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ لله عز وجل معناه فإنكم ومعبوديكم ما أنتم وهم جميعًا بفاتنين على الله إلا أصحاب النار الذين سبق في علم الله كونهم من أهل النار، فإن قيل: كيف يفتنونهم على الله؟ قلنا: يفتنونهم عليه بإغوائهم، من قولك فتن فلان على فلان امرأته كما تقول أفسدها عليه، والوجه الثاني: أن تكون الواو في قوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ بمعنى (مع) كما في قولهم: كل رجل وضيعته، فكما جاز السكوت على كل رجل وضيعته، فكذلك جاز أن يسكت على قوله: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ لأن قوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ساد مسد الخبر، لأن معناه فإنكم مع ما تعبدون، والمعنى فإنكم مع آلهتكم أي فإنكم قرناؤهم وأصحابهم لا تتركون عبادتها، ثم قال تعالى: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على ما تعبدون ﴿بِفَٰتِنِينَ﴾ بباعثين أو حاملين على طريق الفتنة والإضلال ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ مثلكم. وقرأ الحسن (صالُ الجحيم) بضم اللام ووجهه أن يكون جمعًا وسقوط واوه لالتقاء الساكنين، فإنه قيل كيف يستقيم الجمع مع قوله: ﴿مَنْ هُوَ﴾ قلنا ﴿مَنْ﴾ موحد اللفظ مجموع المعنى فحمل هو على لفظه والصالون على معناه.

**المسألة الثانية:** احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه لا تأثير لإغواء الشيطان ووسوسته، وإنما المؤثر قضاء الله تعالى وتقديره، لأن قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝١٦١ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ تصريح

بأنه لا تأثير لقولهم ولا تأثير لأحوال معبوديهم في وقوع الفتنة والضلال، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ يعني إلا من كان كذلك في حكم الله وتقديره، وذلك تصريح بأن المقتضي لوقوع هذه الحوادث حكم الله تعالى، وكان عمر بن عبد العزيز يحتج بهذه الآية في إثبات هذا المطلوب، قال الجبائي: المراد أن الذين عبدوا الملائكة يزعمون أنهم بنات الله لا يكفرون أحدًا إلا من ثبت في معلوم الله أنه سيكفر، فدل هذا على أن من ضل بدعاء الشيطان لم يكن ليؤمن بالله لو منع الله الشيطان من دعائه وإلا كان يمنع الشيطان، فصح بهذا أن كل من يعصي لم يكن ليصلح عنه شيء من الأفعال. والجواب: حاصل هذا الكلام أنه لا تأثير لإغواء شياطين الإنس والجن، وهذا لا نزاع فيه إلا أن وجه الاستدلال أنه تعالى بين أنه لا تأثير لكلامهم في وقوع الفتنة، ثم استثنى منه ما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ فوجب أن يكون المراد من وقوع الفتنة هو كونه محكومًا عليه بأنه صال الجحيم، وذلك تصريح بأن حكم الله بالسعادة والشقاوة هو الذي يؤثر في حصول الشقاوة والسعادة. واعلم أن أصحابنا قرروا هذه الحجة بالحديث المشهور وهو أنه حج آدم موسى، قال القاضي: هذا الحديث لم يقبله علماء التوحيد، لأنه يوجب أن لا يلام أحد على شيء من الذنوب، لأنه إن كان آدم لا يجوز لموسى أن يلومه على عمل كتبه الله عليه قبل أن يخلقه، فكذلك كل مذنب. فإن صحت هذه الحجة لآدم عليه السلام، فلماذا قال موسى عليه السلام في الوكزة ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥]؟ ولماذا قال: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧]؟ ولماذا لام فرعون وجنوده على أمر كتبه الله عليهم؟ ومن عجيب أمرهم أنهم يكفرون القدرية، وهذا الحديث يوجب أن آدم كان قدريًا، فلزمهم أن يكفروه، وكيف يجوز مع قول آدم وحواء عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] أن يحتج على موسى بأنه لا لوم عليه، وقد كتب عليه ذلك قبل أن يخلقه؟ هذا جملة كلام القاضي فيقال له: هب أنك لا تقبل ذلك الخبر، فهل ترد هذه الآية أم لا؟ فإنا بينا أن صريح هذه الآية يدل على أنه لا تأثير للوساوس في هذا الباب، فإن الكل يحصل بحكمة الله تعالى، والذي يدل عليه وجوه الأول: أن الكافر إن ضل بسبب وسوسة الشيطان فضلال الشيطان إن كان بسبب شيطان آخر لزم تسلسل الشياطين وهو محال، وإن انتهى إلى ضلال لم يحصل بسبب وسوسة متقدمة فهو المطلوب، الثاني: أن كل أحد يريد أن يحصل لنفسه الاعتقاد الحق والدين الصدق، فحصول ضده يدل على أن ذلك ليس منه، الثالث: أن الأفعال موقوفة على الدواعي وحصول الدواعي بخلق الله، فيكون الكل من الله تعالى، الرابع: أنه تعالى لما اقتضت حكمته شيئًا، وعلم وقوعه، فلو لم يقع ذلك الشيء لزم انقلاب ذلك الحكم كذبًا وانقلاب ذلك العلم جهلاً وهو محال، وأما الآيات التي تمسك بها القاضي فهي معارضة بالآيات الدالة على أن الكل من الله والقرآن كالبحر المملوء من هذه الآيات فتبقى الدلائل العقلية التي ذكرناها سليمة، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ فالجمهور على أنهم الملائكة، وصفوا أنفسهم بالمبالغة في العبودية، فإنهم يصطفون للصلاة والتسبيح، والغرض منه التنبيه على فساد قول من يقول إنهم أولاد الله وذلك لأن مبالغتهم في العبودية تدل على اعترافهم بالعبودية، واعلم أن هذه الآية تدل على ثلاثة أنواع من صفات الملائكة فأولها: قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ وهذا يدل على أن لكل واحد منهم مرتبة لا يتجاوزها ودرجة لا يتعدى عنها، وتلك الدرجات إشارة إلى درجاتهم في التصرف في أجسام هذا العالم إلى درجاتهم في معرفة الله تعالى، أما درجاتهم في التصرفات والأفعال فهي قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ والمراد كونهم صافين في أداء الطاعات ومنازل الخدمة والعبودية، وأما درجاتهم في المعارف فهي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ والتسبيح تنزيه الله عما لا يليق به.

واعلم أن قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ يفيد الحصر ومعناه أنهم هم الصافون في مواقف العبودية لا غيرهم وأنهم هم المسبحون لا غيرهم، وذلك يدل على أن طاعات البشر ومعارفهم بالنسبة إلى طاعات الملائكة وإلى معارفهم كالعدم، حتى يصح هذا الحصر. وبالجملة فهذه الألفاظ الثلاثة تدل على أسرار عجيبة من صفات الملائكة فكيف يجوز مع هذا الحصر أن يقال: البشر تقرب درجته من الملك فضلاً عن أن يقال هل هو أفضل منه أم لا.

وأما قوله: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فالمعنى أن مشركي قريش وغيرهم كانوا يقولون: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا﴾ أي كتابًا من كتب الأولين الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل لأخلصنا العبادة لله، ولما كذبنا كما كذبوا. ثم جاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار والكتاب المهيمن على كل الكتب، وهو القرآن فكفروا به. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢] ثم قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي فسوف يعلمون عاقبة هذا الكفر والتكذيب.

**قوله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما هدد الكفار بقول تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي عاقبة كفرهم أردفه بما يقوي قلب الرسول ﷺ فقال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ فبين أن وعده بنصرته قد تقدم والدليل عليه قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾

[المجادلة: ٢١] وأيضًا أن الخير مقضي بالذات والشر مقضي بالعرض، وما بالذات أقوى مما بالعرض، وأما النصرة والغلبة فقد تكون بقوة الحجة، وقد تكون بالدولة والاستيلاء، وقد تكون بالدوام والثبات فالمؤمن وإن صار مغلوبًا في بعض الأوقات بسبب ضعف أحوال الدنيا فهو الغالب، ولا يلزم على هذه الآية أن يقال: فقد قتل بعض الأنبياء وقد هزم كثير من المؤمنين، ثم قال تعالى لرسوله وقد أخبره بما تقدم ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ والمراد ترك مقاتلتهم والثقة بما وعدناهم إلى حين يتمتعون، ثم تحل بهم الحسرة والندامة، واختلف المفسرون فقيل المراد إلى يوم بدر، وقيل إلى فتح مكة، وقيل إلى يوم القيامة، ثم قال: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ والمعنى بأبصرهم وما يقضى عليهم من القتل والأسر في الدنيا والعذاب في الآخرة، فسوف يبصرونك مع ما قدر لك من النصرة والتأييد في الدنيا والثواب العظيم في الآخرة، والمراد من الأمر المشاهد بأبصارهم على الحال المنتظرة الموعودة الدلالة على أنها كائنة واقعة لا محالة، وأن كينونتها قريبة كأنها قدام ناظريك، وقوله: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ للتهديد والوعيد، ثم قال: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ والمعنى أن الرسول عليه السلام كان يهددهم بالعذاب، وما رأوا شيئًا فكانوا يستعجلون نزول ذلك العذاب على سبيل الاستهزاء، فبين تعالى أن ذلك الاستعجال جهل، لأن لكل شيء من أفعال الله تعالى وقتًا معينًا لا يتقدم ولا يتأخر، فكأن طلب حدوثه قبل مجيء ذلك الوقت جهلاً، ثم قال تعالى: في صفة العذاب الذي يستعجلونه ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ أي هذا العذاب ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ وإنما وقع هذا التعبير عن هذه المعاني كأنهم كانوا يقدمون على العادة في وقت الصباح، فجعل ذكر ذلك الوقت كناية عن ذلك العمل، ثم أعاد تعالى قوله: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ فقيل: المراد من هذه الكلمة فيما تقدم أحوال الدنيا، وفي هذه الكلمة أحوال القيامة، وعلى هذا التقدير فالتكرير زائل، وقيل: إن المراد من التكرير المبالغة في التهديد والتهويل، ثم إنه تعالى ختم السورة بخاتمة شريفة جامعة لكل المطالب العالية، وذلك لأن أهم المهمات للعاقل معرفة أحوال ثلاثة فأولها معرفة إله العالم بقدر الطاقة البشرية، وأقصى ما يمكن عرفانه من صفات الله تعالى ثلاثة أنواع أحدهما: تنزيهه وتقديسه عن كل ما لا يليق بصفات الإلهية، وهو لفظة (سبحان)، وثانيها: وصفه بكل ما يليق بصفات الإلهية وهو قوله: ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ فإن الربوبية إشارة إلى التربية وهي دالة على كمال الحكمة، والرحمة والعزة إشارة إلى كمال القدرة، وثالثها: كونه منزهًا في الإلهية عن الشريك والنظير، وقوله: ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ يدل على أنه القادر على جميع الحوادث، لأن الألف واللام في قوله: ﴿الْعِزَّةِ﴾ تفيد الاستغراق، وإذا كان الكل مُلكًا له ومِلكًا له لم يبق لغيره شيء، فثبت أن قوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ كلمة محتوية على أقصى الدرجات وأكمل النهايات في معرفة إله العالم، والمهم الثاني: من مهمات العاقل أن يعرف أنه كيف ينبغي أن يعامل نفسه ويعامل الخلق في هذه الحياة الدنيوية.

واعلم أن أكثر الخلق ناقصون ولا بد لهم من مكمل يكملهم، ومرشد يرشدهم، وهاد يهديهم، وما ذلك إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وبديهة الفطرة شاهدة بأنه يجب على الناقص الاقتداء بالكامل، فنبه على هذا الحرف بقوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لأن هذا اللفظ يدل على أنهم في الكمال اللائق بالبشر فاقوا غيرهم، ولا جرم يجب على كل من سواهم الاقتداء بهم، والمهم الثالث: من مهمات العاقل أن يعرف أنه كيف يكون حاله بعد الموت.

واعلم أن معرفة هذه الحالة قبل الموت صعبة، فالاعتماد فيها على حرف واحد، وهو أنه إله العالم غني رحيم، والغني الرحيم لا يعذب، فنبه على هذا الحرف بقوله: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وذلك لأن استحقاق الحمد لا يحصل إلا بالإنعام العظيم، فبين بهذا كونه منعمًا، وظاهر كونه غنيًّا عن العالمين، ومن هذا وصفه كان الغالب منه هو الرحمة والفضل والكرم، فكان هذا الحرف منبهًا على سلامة الحال بعد الموت، فظهر بما ذكرنا أن هذه الخاتمة كالصدفة المحتوية على درر أشرف من دراري الكواكب، ونسأل الله سبحانه وتعالى حسن الخاتمة والعافية في الدنيا والآخرة.

تم تفسير هذه السورة ضحوة يوم الجمعة السابع عشر من ذي القعدة سنة ثلاث وستمائة، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وصحبه وأزواجه وذرياته أجمعين.

## تفسير سورة الصافات

### مكية في قول الجميع[1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

**قوله تعالى:** ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ هذه قراءةُ أكثر القرّاء. وقرأ حمزةُ بالإدغام فيهنّ[2]. وهذه القراءة التي نَفَر منها أحمدُ بن حنبل لمَّا سَمِعَها.

النحاس[3]: وهي بعيدةٌ في العربية من ثلاث جهات: إحداهنّ: أن التاء ليست من مَخْرج الصاد، ولا من مَخْرَج الزاي، ولا من مَخْرَج الذال، ولا من أَخواتهن، وإنما أُختاها الطاء والدال، وأختُ الزاي الصاد والسين، وأختُ الذال الظاء والثاء.

والجهة الثانية: أن التاء في كلمة، وما بعدها في كلمة أُخرى.

والجهة الثالثة: أنك إذا أدغمتَ جمعتَ بين ساكنين من كلمتين، وإنما يجوز الجمعُ بين ساكنين في مثل هذا إذا كانا في كلمة واحدة؛ نحو: دابَّة، وشابَّة. ومجازُ قراءة حمزة أن التاء قريبةُ المَخْرج من هذه الحروف.

«وَالصَّافَّاتِ» قَسَمٌ، الواو بدل من الباء. والمعنى: بربِّ الصَّافَّات، و«الزَّاجِراتِ» عطف عليه. ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ جوابُ القسم. وأجاز الكسائي فتحَ إنَّ في القسم[4].

---

(١) زاد المسير ٧/ ٤٤.

(٢) وهي قراءة أبي عمرو في رواية السوسي. السبعة ص٥٤٩، والتيسير ص١٨٥.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٠٩، وما قبله منه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٠.

والمراد بـ «الصَّافَّاتِ» وما بعدها إلى قوله: «فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً» الملائكةُ في قول ابن عباس وابن مسعود وعِكرمة وسعيد بن جُبير ومجاهد وقتادة[١]، تصفُّ في السماء كصفوف الخَلْق في الدنيا للصلاة[٢]. وقيل: تَصُفُّ أجنحتَها في الهواء واقفةً فيه حتى يأمرَها الله بما يُريد. وهذا كما تقومُ العبيدُ بين أيدي ملوكهم صفوفاً. وقال الحسن: «صَفًّا» لِصفوفهم عند ربهم في صلاتهم[٣].

وقيل: هي الطير، دليلُه قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾[٤] [الملك: ١٩].

والصفُّ ترتيبُ الجمع على خطٍّ، كالصفّ في الصلاة. «وَالصَّافَّاتِ» جمع الجمع؛ يقال: جماعةٌ صافَّة، ثم يُجمَع صافَّات[٥].

وقيل: «الصَّافات» جماعةُ الناس المؤمنين إذا قاموا صفًّا في الصلاة أو في الجهاد؛ ذكره القشيري[٦].

«فَالزَّاجِرَاتِ» الملائكةُ في قول ابن عباس وابن مسعود ومسروق وغيرهم على ما ذكرناه. إما لأنها تَزجُر السحابَ وتَسوقه في قول السُّدي. وإما لأنها تَزجُر عن المعاصي بالمواعظ والنصائح. وقال قتادة: هي زواجر القرآن.

«فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً» الملائكة، تقرأ كتابَ الله تعالى؛ قاله ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وابن جُبير والسُّدي[٧].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٦ ، وزاد المسير ٧/ ٤٤ .

(٢) نزهة القلوب للسجستاني ص٢٩٩ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٦ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٢ ، وزاد المسير ٧/ ٤٤ .

(٥) تفسير الطبري ١٩/ ٤٩٢ بنحوه.

(٦) وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٦ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٧ . وقول قتادة أخرجه الطبري ١٩/ ٤٩٤ .

وقيل: المراد جبريلُ وحده، فَذُكِرَ بلفظ الجمع؛ لأنه كبيرُ الملائكة، فلا يخلو من جنود وأتباع.

وقال قتادة: المراد: كلُّ من تلا ذِكْرَ الله تعالى وكُتُبَهُ[1]. وقيل: هي آياتُ القرآن، وَصَفَها بالتلاوة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [النمل: ٧٦]. ويجوز أن يقال لآيات القرآن: تاليات؛ لأن بعضَ الحروف يتبع بعضاً؛ ذكره القشيري.

وذكره الماوردي[2]: أن المراد بـ «التَّالِيَات» الأنبياءُ يتلون الذِّكر على أُمَمهم.

فإن قيل: ما حكم الفاء إذا جاءت عاطفةً في الصفات؟ قيل له: إما أن تدلَّ على ترتُّب معانيها في الوجود، كقوله:

يا لَهْفَ زَيَّابَةَ للحارِث الصـ ... ـصابِح فالغانِم فالآيِبِ[3]

كأنه قال: الذي صَبَّحَ فَغَنِمَ فآبَ. وإما على ترتُّبها في التفاوت من بعض الوجوه، كقولك: خُذِ الأفضلَ فالأكمل، واعمَلِ الأحسنَ فالأجمل. وإما على ترتُّب موصوفاتها في ذلك، كقوله: رَحِمَ الله المُحلِّقين فالمقصِّرين. فعلى هذه القوانين الثلاثة ينساقُ أمرُ الفاء العاطفة في الصفات قاله الزمخشري[4].

«إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ» جوابُ القسم. قال مقاتل: وذلك أنَّ الكفار بمكة قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] وكيف يَسَعُ هذا الخَلْقَ فردٌ إله[5]؟! فأقسمَ اللهُ بهؤلاء تشريفاً، ونزلت الآية.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٥، والكشاف ٣/ ٣٣٣.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٣٧.

(٣) البيت لابن زَيَّابة التيمي، وهو في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ١٤٧ وأمالي ابن الشجري ٢/ ٥٠٨، وخزانة الأدب ٥/ ١٠٧. وزَيَّابة اسم أمّ الشاعر، فيما قاله البغدادي.

(٤) في الكشاف ٣/ ٣٣٤.

(٥) ذكره بنحوه البغوي في تفسيره ٤/ ٢٢ دون نسبة.

قال ابن الأنباري[١]: وهو وقفٌ حسن، ثم تبتدئ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ على معنى: هو ربُّ السماوات.

النحاس[٢]: ويجوز أن يكون «رَبُّ السَّمَاوَاتِ والأرض» خبراً بعد خبرٍ، ويجوز أن يكون بدلاً من «وَاحِدٌ».

قلت: وعلى هذين الوجهين لا يوقف «لَوَاحِدٌ». وحكى الأخفش[٣]: «رَبَّ السَّماواتِ» و«رَبَّ الْمَشَارِقِ» بالنَّصب على النعت لاسم «إن»[٤].

بيَّن سبحانه معنى وحدانيَّتِه وأُلوهيَّته وكمالِ قُدرته بأنه «رَبُّ السَّماواتِ والأرض» أي: خالقُهما ومالِكُهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ أي: مالكُ مطالعِ[٥] الشمس. ابن عباس: للشمس كلَّ يوم مشرقٌ ومغرب؛ وذلك أن اللهَ تعالى خلقَ للشمس ثلاثَ مئة وخمسةً وستين كَوَّة في مَطْلِعها، ومثلها في مَغْرِبها على عَدَد أيام السنة الشمسية، تطلُع في كل يوم في كَوَّة منها، وتغيبُ في كَوَّة، لا تطلعُ في تلك الكَوَّة إلا في ذلك اليوم من العام المُقبِل. ولا تطلعُ إلا وهي كارهةٌ فتقول: ربِّ لا تُطلعِني على عبادك، فإني أَراهم يعصونك[٦].

ذكرَ[٧] أبو عمر في كتاب «التمهيد»[٨]، وابنُ الأنباري في كتاب «الرد» عن عكرمة، قال: قلت لابن عباس: أرأيتَ ما جاء عن النبي ﷺ في أُميَّةَ بن أبي الصَّلْت:

---

(١) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٥٧ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٤١٠ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٦٦٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤١٠ .

(٤) وهذا يجوز في اللغة لا في التلاوة.

(٥) في النسخ: مطلع، والمثبت من (م).

(٦) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٦٥٠) و (٦٧٢).

(٧) في (د) و (ز) و (م): ذكره، ولم تجود في (ظ)، والمثبت من (ف).

(٨) ٤/ ٧ - ٨ .

«آمنَ شِعرهُ وكَفَرَ قَلْبُه»[1] قال: هو حقٌّ، فما أنكرتُم من ذلك؟ قلت: أنكرنا قوله:

والشمسُ تطلُعُ كلَّ آخِرِ ليلةٍ ... حمراءَ يُصبِحُ لونُها يتورَّدُ
ليستْ بطالعةٍ لَهم في رِسْلِها ... إلَّا مُعَذَّبةً وإلَّا تُجْلَدُ[2]

ما بالُ الشمس تُجْلَد؟ فقال: والذي نفسي بيده، ما طلعتْ شمسٌ قطُّ حتى يَنْخُسَها سبعون ألف مَلَك، فيقولون لها: اطلعي اطلعي، فتقول: لا أَطْلُعُ على قوم يعبدونني من دون الله، فيأتيها ملكٌ فيستقل لضياء بني آدم، فيأتيها شيطانٌ يريد أن يصدَّها عن الطُّلوع، فتطلعُ بين قَرْنيه فيحرقه الله تعالى تحتها، فذلك قولُ رسول الله ﷺ: «ما طلعتْ إلا بين قرنَيْ شيطان، ولا غربَتْ إلا بين قَرْني شيطان»[3] وما غربَتْ قط إلا خَرَّتْ لله ساجدةُ، فيأتيها شيطانٌ يريدُ أن يصدَّها عن السجود، فتغربُ بين قرنيه فيحرقه الله تعالى تحتها[4]. لفظ ابن الأنباري.

وذَكَر عن عكرمة، عن ابن عباس قال: صدَّق رسولُ الله ﷺ أُميَةَ بن أبي الصَّلْت في هذا الشعر:

رَجُلٌ[5] وثَوْرٌ تحتَ رِجلِ يَمينِهِ ... والنَّسر للأُخرى وليثٌ مُرْصَدُ
والشمسُ تَطلُعُ كلَّ آخرِ ليلةٍ ... حمراءَ يُصبِحُ لونُها يَتورَّدُ

---

(١) سلف ٩/ ٣٨٤ بهذا اللفظ، وأخرجه مسلم (٢٢٥٥) من حديث الشَّريد بن سُويد ﷺ أن النبيَّ ﷺ، استنشده من شعر أمية فأنشده.. فقال النبي ﷺ: «فلقد كاد يُسلم في شعره».

(٢) ديوان أمية بن أبي الصلت ص٥٠ - ٥١ وصدر البيت الثاني فيه: تأبى فلا تبدو لنا في رسلها.

(٣) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وفي الباب عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «لا تَحيَّنوا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها، فإنها تطلع بين قرني شيطان» أخرجه أحمد (٤٦١٢)، والبخاري (٣٢٧٣)، ومسلم (٨٢٨) : (٢٩٠).

(٤) بعدها في النسخ الخطية: فذلك قول رسول الله ﷺ: «ولا غربت إلا بين قرني شيطان» والمثبت من (م).

(٥) في (م): زحل، وهو كذلك في الإصابة ١/ ٢١١ ، والمثبت من النسخ الخطية، وديوان أمية ص٥٠-٥١ ، وخزانة الأدب ١/ ٢٤٨ .

ليست بطالعةٍ لهم في رِسْلِها إلا معذَّبةً وإلا تُجلَدُ

قال عكرمة: فقلت لابن عباس: يا مولاي، أتُجْلَدُ الشمس؟ فقال: إنما اضطره الرَّويّ إلى الجلد، لكنها تخافُ العقاب(١).

ودلَّ بذكر المطالع على المغارب؛ فلهذا لم يذكُر المغارب، وهو كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل:٨١]. وخصَّ المشارقَ بالذِّكر؛ لأن الشُّروق قبل الغروب(٢). وقال في سورة «الرحمن»: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الآية:١٧] أراد بالمشرقين أقصى مَطْلِع تطلُع منه الشمسُ في الأيام الطِّوال، وأقصر يوم في الأيام القِصار على ما تقدَّم في «يس»(٣) والله أعلم.

**قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ قال قتادة: خُلقت النجومُ ثلاثاً: رجوماً للشياطين، ونوراً يُهتدَى بها، وزينةَ السماء الدنيا(٤).

وقرأ مسروق والأعمش والنخعي وعاصم وحمزة: «بِزِينةٍ» مخفوض منوَّن «الكواكبِ» خفض على البدل من «زينةٍ» لأنها هي. وقرأ أبو بكر كذلك إلا أنه نصب «الكواكبَ»(٥) بالمصدر الذي هو «زينة». والمعنى: بأنْ زيَّنا الكواكبَ فيها.

ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أعني؛ كأنه قال: إنَّا زيَّنَّاها «بِزينة» أعني

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٤/٨ - ٩ دون قول عكرمة: يا مولاي، أتجلد الشمس.. وقول عكرمة هذا أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٦٥٠).

(٢) النكت والعيون ٥/٣٧ -٣٨ ، وزاد المسير ٧/٤٥ - ٤٦ ، وينظر تفسير الطبري ١٩/٤٩٦ .

(٣) ١٥/٢٨ .

(٤) النكت والعيون ٥/٣٨ .

(٥) السبعة ص٥٤٦ ، والتيسير ص١٨٦ .

«الكواكِبَ». وقيل: هي بدل من «زينة» على الموضع.

ويجوز «بِزِينَةٍ الكواكبُ»[١] بمعنى: بأنَّ زينتَها الكواكبُ. أو بمعنى: هي الكواكب.

الباقون: «بِزِينَةِ الكواكبِ» على الإضافة. والمعنى: زيَّنا السماءَ بتزيين الكواكِبِ؛ أي: بُحسْنِ الكواكب. ويجوز أن يكون كقراءة من نوَّن إلا أنه حذفَ التنوين استخفافاً[٢].

﴿وَحِفۡظٗا﴾ مصدر؛ أي: حَفِظناها حِفْظاً ﴿مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ﴾ لمَّا أخبر أن الملائكة تنزل بالوحي من السماء، بيَّن أنه حَرَس السماءَ عن استراق السَّمع بعد أن زيَّنها بالكواكب.

والمارد: العاتي من الجنّ والإنس، والعرب تُسمِّيه شيطاناً[٣].

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ قال أبو حاتم: أي: لئلا يسمَّعوا، ثم حذفَ [اللام و] «أن» فرفع الفعل[٤].

الملأ الأعلى: أهلُ السماء الدنيا فما فوقها، وسمَّى الكلَّ منهم أعلى بالإضافة إلى ملأ الأرض. الضمير في «يَسَّمَّعون» للشياطين.

وقرأ جمهورُ الناس: «يَسْمَعُونَ» بسكون السين وتخفيف الميم. وقرأ حمزةُ وعاصمٌ في رواية حفص: «لا يَسَّمَّعُونَ» بتشديد السين والميم، من التسميع[٥].

فينتفي على القراءة الأُولى سماعُهم وإنْ كانوا يستمعون، وهو المعنى الصحيح، ويعضُده قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢] وينتفي على القراءة

---

(١) حكاها الزهراوي كما في المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٦.

(٢) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٠ - ٤١١، وينظر الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢٢١.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١١.

(٤) ذكره السمين الحلبي في الدر المصون ٩/ ٢٩٣ (وما بين حاصرتين منه) ثم قال: وفيه تعسُّف.

(٥) وهي قراءة الكسائي. السبعة ص٥٤٧، والتيسير ص١٨٦.

الأخيرة أن يقعَ منهم استماعٌ أو سَماع.

قال مجاهد: كانوا يتسمَّعون، ولكن لا يسمعون. وروي عن ابن عباس: «لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الملأ» قال: هم يَسَّمَّعون ولا يَسْمَعون[1].

وأصل «يَسَّمَّعُونَ» يتسمَّعون، فأُدغِمَتِ التاءُ في السين لِقُربها منها. واختارها أبو عُبيد؛ لأن العربَ لا تكاد تقول: سمعتُ إليه، وتقول: تسمَّعت إليه[2].

﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي: يُرمَون من كل جانب؛ أي: بالشُّهب. ﴿دُحُورًا﴾ مصدر؛ لأن معنى «يُقْذَفُونَ» يُدْحَرون؛ دحرته دَحْراً ودُحُوراً، أي: طردته.

وقرأ السُّلَمي ويعقوب الحَضْرمي: «دَحُوراً» بفتح الدال[3]، يكون مصدراً على فَعول. وأما الفرَّاء، فقدَّره[4] على أنه اسمُ الفاعل. أي: ويُقْذَفون بما يَدْحَرهم، أي: بدحور، ثم حذف الباء؛ والكوفيون يستعملون هذا كثيراً [كما أنشدوا]:

تَـمـرُّون الـديـارَ ولـم تَـعـوجُـوا[5]

واختُلف هل كان هذا القذف قبل المَبْعث، أو بعده لأجل المَبْعث؛ على قولين. وجاءت الأحاديثُ بذلك على ما يأتي من ذكرها في سورة «الجن»[6] عن ابن عباس. وقد يُمكن الجمعُ بينهما أن يقال: إنَّ الذين قالوا: لم تكن الشياطين تُرْمَى بالنجوم قبل مَبْعث النبيِّ ﷺ، ثم رُميت؛ أي: لم تكن تُرمَى رمياً يَقْطَعُها عن السَّمع، ولكنها

(١) في (خ) و (د) و (ز) و (م): هم لا يسمعون ولا يتسمعون. وفي (ظ): هم لا يتسمعون. والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١١ ، والنكت والعيون ٥/ ٣٨ ، وتفسير الرازي ٢٦/ ١٢٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٦ .

(٣) وهي غير المشهورة عن يعقوب، وقراءته المشهورة عنه كقراءة الجماعة، وقراءة السلمي في القراءات الشاذة ص١٢٧ .

(٤) في (م): فإنه قدَّره.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٢ ، وما بين حاصرتين منه. والبيت لجرير، وهو في ديوانه ١/ ٢٧٨ ، وعجزه: كلامُكُمُ عليَّ إذاً حرامُ. ووقع صدره في الديوان: أتمضون الرسومَ ولا تُحيَّى. وهو برواية المصنف في الخزانة ٩/ ١٢١ .

(٦) في تفسير الآيات (٨ - ١٠).

كانت تُرمَى وقتاً ولا تُرمَى وقتاً، وتُرمى من جانب ولا تُرمَى من جانب. ولعل الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ . دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ إلى هذا المعنى، وهو أنهم كانوا لا يُقذَفون إلا من بعض الجوانب، فصاروا يُرمَوْن واصباً. وإنما كانوا من قبلُ كالمُتَجَسِّسة من الإنس، يبلغُ الواحدُ منهم حاجتَه ولا يبلُغها غيرُه، ويَسْلَمُ واحدٌ ولا يَسلَمُ غيره، بل يُقبَضُ عليه ويُعاقب وينكل.

فلما بُعث النبيُّ ﷺ زِيد في حِفظ السماء، وأُعِدَّت لهم شُهُبٌ لم تكن من قبل؛ لِيُدْحَروا عن جميع جوانب السماء، ولا يَقَرُّوا في مقعد من المقاعد التي كانت لهم منها؛ فصاروا لا يقدِرون على سماع شيء مما يجري فيها، إلا أن يَختطِفَ أحدٌ منهم بخفَّة حركته خطفةً، فيتبعه شهابٌ ثاقبٌ قبلَ أن يَنزِلَ إلى الأرض، فَيُلقيها إلى إخوانه فيحرقه؛ فبطلت من ذلك الكَهانة، وحصلت الرسالةُ والنبوَّة.

فإن قيل: إن هذا القذفَ إن كان لأجل النبوَّة فَلِمَ دامَ بعد النبي ﷺ؟ فالجواب: أنه دامَ بدوام النبوَّة، فإن النبي ﷺ أخبر ببطلان الكَهانة فقال: «ليس منَّا من تَكَهَّن»(١) فلو لم تُحرَسْ بعد موته لعادت الجنُّ إلى تسمُّعها؛ وعادت الكهانة. ولا يجوز ذلك بعد أن بطل، ولأنَّ قَطْعَ الحراسة عن السماء إذا وقع لأجل النبوّة فعادت الكهانة دخلت الشُّبهة على ضُعفاء المسلمين، ولم يُؤمَن أن يظنُّوا أنَّ الكهانة إنما عادت لِتناهي النبوّة، فصحَّ أن الحِكمة تقتضي دوامَ الحراسة في حياة النبي عليه الصلاة والسلام، وبعد أن توفَّاه الله إلى كرامته صلى الله عليه وعلى آله.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي: دائم؛ عن مجاهد وقتادة. وقال ابن عباس: شديد. الكلبي والسدّي وأبو صالح: مُوجِع؛ أي: الذي يَصِلُ وجعُه إلى القلب؛ مأخوذٌ من الوَصَب، وهو المرض(٢).

---

(١) أخرجه البزار في البحر الزخار (٣٥٧٨) من حديث عمران بن حصين ﷺ بلفظ: «ليس منا تطيَّر أو تُطيِّر له، أو تكهَّنَ أو تُكُهِّنَ له..» قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١١٧/٥ : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح خلا إسحاق بن الربيع، وهو ثقة. وسلف نحوه ٣٠٧/٩ .

(٢) تفسير الطبري ٥٠٦/١٩ - ٥٠٧ ، والنكت والعيون ٣٩/٥ .

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ استثناء من قوله: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ وقيل: الاستثناء يرجِع إلى غير الوحي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢] فيسترقُ الواحدُ منهم شيئاً مما يَتفاوضُ فيه الملائكة مما سيكون في العالم قبلَ أن يعلمَه أهلُ الأرض؛ وهذا لِخفَّة أجسام الشياطين، فَيُرجَمون بالشُّهب حينئذ.

ورُوي في هذا الباب أحاديثُ صحاح، مضمنها: أن الشياطين كانت تَصعَدُ إلى السماء، فتقعد للسمع واحداً فوق واحد، فيتقدَّم الأجسرُ نحو السماء، ثم الذي يَليه، ثم الذي يَليه، فيقضي اللهُ تعالى الأمرَ من أمر الأرض، فيتحدَّث به أهلُ السماء، فيسمعه منهم الشيطان الأدْنى، فَيُلقيه إلى الذي تحته، فربما أحرقَه شهاب وقد ألقى الكلامَ، وربما لم يُحْرِقه، على ما بيَّناه. فتنزل تلك الكلمةُ إلى الكُهَّان، فيكذِبون معها مئةَ كذبة، وتصدق تلك الكلمة، فَيُصدِّق الجاهلون الجميعَ، كما بيَّناه في «الأنعام»(١).

فلما جاء الله بالإسلام حُرِست السماء بشدَّة، فلا يُفلت شيطانٌ سمع بَتَّة. والكواكبُ الراجمة هي التي يراها الناس تنقضّ. قال النقَّاش ومكِّي: وليست بالكواكب الجارية في السماء؛ لأن تلك لا تُرى حركتها، وهذه الراجمة تُرى حركتها؛ لأنها قريبة منا(٢).

وقد مضى في هذا الباب في سورة «الحجر»(٣) من البيان ما فيه كفاية. وذكرنا في «سبأ»(٤) حديثَ أبي هريرة. وفيه: «والشياطينُ بعضُهم فوق بعض» وقال فيه الترمذي: حديث حسن صحيح. وفيه: عن ابن عباس: «ويختطفُ الشياطينُ السَّمْعَ، فَيُرمَوْن،

---

(١) ٨/ ٤٠٥ ، وذكر المصنف ثمة في هذا المعنى حديث عائشة رضي الله عنها، وهو عند البخاري (٣٢١٠)، وينظر حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند مسلم (٢٢٢٩)، وهذا الكلام وما بعده من المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٦ .

(٢) قال ابن عطية: في هذا نظر.

(٣) ١٢/ ١٨٧ وما بعدها .

(٤) ١٤/ ٢٩٦ .

فَيَقذِفُونه إلى أوليائهم، فما جاءوا به على وَجْهِهِ فهو حقٌّ، ولكنهم يُحرِّفونه ويَزيدون». قال: هذا حديثٌ حسن صحيح[١].

والخَطْف: أخذُ الشيء بسرعة؛ [يقال:] خَطَفَ وخَطِفَ وخَطَّفَ وخِطَّفَ وخِطِّف[٢]. والأصل في المُشدَّدات: اختطف، فأدغم التاء في الطاء لأنها أُختها، وفتحت الخاء؛ لأن حركةَ التاء أُلقيت عليها. ومَن كَسَرها فلالتقاء الساكنين. ومَن كَسَرَ الطاء أتبع الكسر الكسر[٣].

﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أي: مُضيء؛ قاله الضحاك والحسن وغيرهما[٤]. وقيل: المراد كواكبُ النار تَتْبعهم حتى تُسقطهم في البحر. وقال ابن عباس في الشهب: تُحرقهم من غير موت[٥]. وليست الشُّهُب التي يرجم[٦] بها من الكواكب الثوابت. يدلُّ على ذلك رؤيةُ حركاتها، والثابتة تجري ولا تُرى حركاتُها لِبُعْدها. وقد مضى هذا.

وجمعُ شِهاب شُهُب، والقياسُ في القليل أَشْهِبة وإن لم يُسمَع من العرب[٧]. و«ثَاقِبٌ» معناه: مُضِيء؛ قاله الحسن ومجاهد وأبو مِجْلَز. ومنه قوله: وَزَنْدُكَ أَثْقَبُ أزنادِها[٨]. أي: أضوأ. وحكى الأخفش في الجمع: شُهُبٌ ثُقُبٌ، وثواقب وثقاب. وحكى الكسائي: ثَقَبتِ النارُ تَثقُبُ ثَقابةً وثقوبا، إذا اتَّقدت، وأثقبتُها أنا[٩]. وقال زيد ابن أسلم في الثاقب: إنه المستوقد؛ من قولهم: أَثْقِب زَنْدَك، أي: استوقد نارَك؛

---

(١) سنن الترمذي (٣٢٢٤).

(٢) وهذه قراءة الحسن وقتادة وعيسى كما في القراءات الشاذة ص١٢٧ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٩ عن الضحاك.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٠٨ .

(٦) بعدها في (م): الناس.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٣ .

(٨) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٣ ، والزَّند: خشبة يُستَقْدَح بها. اللسان (زند).

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٣ ، وينظر اللسان (ثقب).

قاله الأخفش. وأنشد قول الشاعر:

بينما المرءُ شِهابٌ ثاقبٌ ضربَ الدهرُ سَناهُ فَخمدْ[(١)]

**قوله تعالى:** ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ⑪ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ⑫ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ⑬ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ⑭ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ⑮ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ⑯ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ⑰﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ أي: سَلْهم، يعني أهلَ مكة؛ مأخوذٌ من استفتاء المُفتي. ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ قال مجاهد: أي: مَن خَلَقنا مِن السماوات والأرض والجبال والبحار. وقيل: يدخل فيه الملائكة ومَن سلف من الأُمم الماضية. يدلّ على ذلك أنه أخبر عنهم بـ«مَنْ» قال سعيد بن جُبير: الملائكة. وقال غيره: من الأُمم الماضية، وقد هلكوا، وهم أشدُّ خَلْقاً منهم[(٢)].

نزلت في أبي الأشدّ بن كَلَدَة، وسُمّي بأبي الأشدّ لِشِدَّة بَطْشه وقوَّته[(٣)]. وسيأتي في «البلد»[(٤)] ذِكْره. ونظيرُ هذه: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾[(٥)] [النازعات: ٢٧].

﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ أي: لاصق؛ قاله ابن عباس. ومنه قول عليّ ﷺ:

تَعلَّمْ فإنّ الله زادكَ بَسطةً وأخلاقَ خيرٍ كلُّها لكَ لازِبُ

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٩، وقول زيد بن أسلم أخرجه الطبري ١٩/ ٥٠٩، والبيت لعبد الله بن عبد الأعلى الشيباني، ذكره الجاحظ في «البرصان» ص١٢٢.

(٢) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ٤٠، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٩/ ٥١٠.

(٣) الكشاف ٣/ ٣٣٧، وأبو الأشدّ الجمحي قُتل كافراً، وذكر السهيلي في الروض الأنف ٢/ ٦٥ أنه قال للنبي ﷺ: إن صرعتَني آمنت بك، فصرعه رسول الله ﷺ مراراً فلم يؤمن.

(٤) في تفسير الآيات (٥ - ٩).

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٣.

وقال قتادة وابن زيد: معنى «لَازِبٍ» لازق. الماوردي[١]: والفرقُ بين اللّاصق واللّازق: أن اللَّاصق: هو الذي قد لَصِقَ بعضُه ببعض، واللَّازق: هو الذي يلتزق بما أصابه.

وقال عِكرمة: «لَازِبٍ» لزج[٢]. سعيد بن جُبير: أي: جيد حرٌّ يَلْصَق باليد. مجاهد: «لَازِب» لاتم[٣]. والعرب تقول: طينٌ لازِبٌ ولازِمٌ، تبدل الباء من الميم. ومثله قولهم: لاتب و لاتم[٤]. على إبدال الباء بالميم. واللازب الثابت؛ تقول: صار الشيء ضَرْبَةَ لازب، وهو أفصحُ من لازم. قال النابغة:

ولا يَحْسِبُونَ الخيرَ لا شَرَّ بعدَهُ ولا يَحْسِبُونَ الشرَّ ضربةَ لَازِبِ[٥]

وحكى الفرّاء عن العرب: طين لاتب بمعنى لازِم[٦]. واللاتِب الثابت؛ تقول منه: لَتَب يَلْتُب لَتْباً ولُتُوباً، مثل: لَزَب يَلْزُب ـ بالضم ـ لُزوباً؛ وأنشد أبو الجرَّاح في اللَّاتب:

فإن يَكُ هذا من نَبيذٍ شربْتُهُ فإنّيَ من شُربِ النَّبيذِ لَتائِبُ
صُدَاعٌ وَتَوْصيمُ العِظَامِ وفَتْرَةٌ وغَمٌّ مع الإشْرَاقِ في الْجَوفِ لَاتِبُ

واللَّاتب أيضاً: اللَّاصق: مثل: اللَّازب، عن الأصمعي، حكاه الجوهري[٧].

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٤٠ ، وما قبله منه، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٩/ ٥١٣ .

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٥١٢ .

(٣) تفسير مجاهد ٢/ ٥٤٠ ، وأخرجه الطبري ١٩/ ٥١٣ .

(٤) في (خ) و (ز) و (ف): لاثب ولاثم، وفي (د): لاثب و لازم، وفي (م): لاتب ولازم، والمثبت من (ظ). واللَّتْب واللَّتْم: الطعن في النحر. اللسان (لتم).

(٥) تفسير الطبري ١٩/ ٥١١ ، والصحاح (لزب) والبيت في ديوان النابغة ص١٣ .

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٨٤ ، ونسب هذه اللغة لقيس، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤١٣ .

(٧) في الصحاح (لتب) و (لزب) والبيتان فيه، والبيت الثاني في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٨٤ ، وتفسير الطبري ١٩/ ٥١١ ، وفيهما: وغثيٌ، بدل: وغمٌّ.

وقال السدي والكلبي في اللّازب: إنه الخالص. مجاهد والضحَّاك: إنه المُنتن[١].

قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ قراءةُ أهل المدينة وأبي عمر وعاصم بفتح التاء خِطاباً للنبي ﷺ[٢]؛ أي: بل عجبتَ مما نزل عليك من القرآن وهم يَسخرون به. وهي قراءة شُرَيح و[أنكر قراءة الضم وقال:] إن الله لا يعجب من شيء، وإنما يعجب من لا يعلم. وقيل: المعنى بل عجبت من إنكارها للبعث[٣].

وقرأ الكوفيون إلا عاصماً بضم التاء[٤].

واختارها أبو عُبيد والفرّاء، وهي مرويَّة عن عليٍّ وابن مسعود؛ رواها شعبة عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ: «بَلْ عَجِبْتُ» بضم التاء. وتُروَى عن ابن عباس[٥].

قال الفرَّاء[٦] في قوله سبحانه: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ قرأها الناس بنصب التاء ورفعها، والرفعُ أحبُّ إليَّ؛ لأنها عن علي وعبد الله وابن عباس. وقال أبو زكريا الفراء: العجبُ إن أُسْنِد إلى الله عز وجل فليس معناه من الله كمعناه من العباد؛ وكذلك قوله ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة:١٥] ليس ذلك من الله كمعناه من العباد. وفي هذا بيان الكسر لقول شُريْح حيث أنكر القراءة بها.

روى جرير عن الأعمش[٧] عن أبي وائل شَقِيق بن سَلَمة قال: قرأها عبد الله يعني ابن مسعود: «بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ» قال شُريح: إنَّ الله لا يعجبُ من شيء، إنما يعجبُ مَن لا يعلم. قال الأعمش: فذكرته لإبراهيم فقال: إنَّ شُريحاً كان يُعجبه

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٤ .

(٢) السبعة ص٥٤٧ ، والتيسير ص١٨٦ ، والنشر ٢/ ٣٥٦ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٥ ، وما بين حاصرتين منه. وقال الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٣٠٠ : وإنكارها هذا غلط؛ لأن القراءة والرواية كثيرة، والعجبُ من الله عز وجل خِلافُه من الآدميِّين.

(٤) السبعة ص٥٤٧ ، والتيسير ص١٨٦ ، والنشر ٢/ ٣٥٦ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٣ .

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٤ .

(٧) في (م): والأعمش. وجرير: هو ابن عبد الحميد الضبي.

رأيه، إن عبد الله كان أعلمَ من شُرَيح، وكان يقرؤها عبد الله: «بَلْ عَجِبْتُ»[١].

قال الهرويّ: وقال بعضُ الأئمة: معنى قوله: «بَلْ عَجِبْتُ»: بل جازيتهم على عجبهم[٢]؛ لأن الله تعالى أخبر عنهم في غير موضع بالتعجب من الحقّ؛ فقال: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ص:٤]، وقالوا[٣]: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥] ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ [يونس:٢] فقال تعالى: «بَلْ عَجِبْتُ» بل جازيتهم على التعجُّب.

قلت: وهذا تمامُ قول الفرّاء، واختاره البيهقي[٤].

وقال علي بن سليمان: معنى القراءتين واحد، والتقدير: قُلْ يا محمد: بل عجبت؛ لأن النبيَّ ﷺ مُخاطب بالقرآن. النحاس[٥]: وهذا قول حسن، وإضمارُ القول كثير.

البيهقي[٦]: والأول أصحّ.

المهدوي: ويجوز أن يكون إخبارُ اللهِ عن نفسه بالعجب محمولاً على أنه أظهر من أمره وسخطه على من كَفَر به ما يقوم مقامَ العجب من المخلوقين؛ كما يُحْمَل إخباره تعالى عن نفسه بالضَّحِك لمن يرضى عنه ـ على ما جاء في الخبر عن النبي ﷺ[٧] ـ على أنه أَظْهرَ له من رضاه عنه ما يقوم له مقام الضحك من المخلوقين مجازاً واتّساعاً.

---

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٩٩١).

(٢) نسبه ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٥٠ لابن الأنباري.

(٣) في (م): وقال.

(٤) في الأسماء والصفات ٢/ ٤١٦ .

(٥) في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٣ ، وما قبله منه.

(٦) في الأسماء والصفات ٢/ ٤١٦ .

(٧) مثل حديث: «يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة، يقاتل هذا في سبيل الله فيقتل، ثم يتوب الله على القاتل فيستشهد» أخرجه البخاري (٢٨٢٦)، ومسلم (١٨٩٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

قال الهرويّ: ويقال: معنى «عَجِبَ رَبُّكم»: أي: رضي وأثاب؛ فسمَّاه عجباً، وليس بعجب في الحقيقة؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠] معناه: ويُجازيهم الله على مَكْرهم، ومثلُه في الحديث: «عَجبَ رَبُّكُمْ مِنْ إِلِّكُمْ وقُنوطكم»(١). وقد يكون العجبُ بمعنى وقوع ذلك العمل عند الله عظيماً. فيكون معنى قوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ أي: بل عَظُم فِعْلُهم عندي.

قال البيهقي(٢): ويُشبه أن يكون هذا معنى حديثِ عُقبة بن عامر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «عَجِبَ ربُّك من شاب ليست له صَبْوة»(٣) وكذلك ما خرَّجه البخاري عن [أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «عَجِبَ اللهُ من قومٍ يدخلون الجنة في السلاسل»(٤)].

قال البيهقي: وقد يكون هذا الحديثُ وما ورد من أمثاله أنه يعجبُ ملائكته من كرمه ورأفته بعباده(٥)، حين حَمَلَهم على الإيمان به بالقتال والأَسْر في السلاسل، حتى إذا آمنوا أَدْخلهم الجنة.

وقيل: معنى «بَلْ عَجِبْتُ»: بل أنكرتُ. حكاه النقَّاش.

وقال الحسين بن الفَضْل: التعجبُ من الله إنكارُ الشيء وتعظيمه، وهو لغةُ العرب. وقد جاء في الخبر: «عَجِبَ ربُكم من إِلِّكم وقُنوطكم».

﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ قيل: الواو واو الحال؛ أي: عَجِبتُ منهم في حال سُخريتهم.

---

(١) أورده أبو عبيد في غريب الحديث ٢/ ٢٦٩. وقال: فإن كان المحفوظ قوله: «من إِلِّكم» بكسر الألف، فإني أحسبها: من أَلِّكم، بالفتح، وهو أشبه بالمصادر. وهو أن يرفع الرجل صوته بالدعاء، ويجأر فيه.

(٢) في الأسماء والصفات ٢/ ٤١٧ -٤١٨.

(٣) أخرجه أحمد (١٧٣٧١).

(٤) من قوله: وكذلك.. إلى هنا، ليس في (خ) و (د) و (ز) و (ظ)، ووقع في (ف): وكذلك ما خرجه البخاري عن، وبعده بياض إلى هنا، وما بين حاصرتين من صحيح البخاري (٣٠١٠)، وأخرجه أحمد (٩٢٧١).

(٥) الصواب إثبات صفة العَجَب لله عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته.

وقيل: تمَّ الكلام عند قوله: «بَلْ عَجِبْتَ» ثم استأنف فقال: «وَيَسْخَرُونَ» أي: مما جئتَ به إذا تلوتَه عليهم. وقيل: يَسخرون منك إذا دعوتَهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا﴾ أي: وُعظوا بالقرآن في قول قتادة ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ لاينتفعون به. وقال سعيد بن جُبير: أي: إذا ذُكر لهم ما حلَّ بالمُكَذِّبين من قبلهم أعرضوا عنه ولم يتدبَّروا[1].

﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً﴾ أي: معجزة ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ أي: يسخرون في قول قتادة. ويقولون: إنها سحر. واستسخر وسَخِرَ بمعنىً، مثل: استقر وقرَّ، واستعجب وعَجِبَ[2].

وقيل: «يَسْتَسْخِرُونَ» أي: يستدعون السُّخْري من غيرهم[3]. وقال مجاهد: يستهزئون[4]. وقيل: أي: يظنُّون أن تلك الآية سُخرية.

﴿وَقَالُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إذا عَجزوا عن مقابلة المُعجزات بشيء قالوا: هذا سحرٌ وتَخييل وخِداع.

﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ أي: أَنُبعثُ إذا مِتنا؟. فهو استفهامُ إنكار منهم وسُخرية. ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي: أَوَ تُبعثُ آباؤنا. دخلت ألفُ الاستفهام على حرف العطف. وقرأ نافع: «أَوْ آبَاؤُنَا» بسكون الواو[5]. وقد مضى هذا في سورة «الأعراف» في قوله تعالى: ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [الآية: ٩٧].

**قوله تعالى: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ أي: تُبعثون. ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ أي: صاغرون أذلَّاء[6]؛

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤١ بنحوه، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٩/ ٥١٥.

(٢) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٣٧٠.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٤.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٥١٥ - ٥١٦.

(٥) قرأ بها نافع في رواية قالون، وابن عامر. السبعة ص٢٨٧، والتيسير ص١٨٦.

(٦) زاد المسير ٧/ ٥٢.

لأنهم إذا رأَوا وقوعَ ما أنكروه فلا محالةَ يَذِلُّون. وقيل: أي: ستقوم القيامةُ وإنْ كَرِهتم، فهو أمرٌ واقع على رغمكم وإنْ أنكرتموه اليومَ بزعمكم.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي: صيحةٌ واحدةٌ؛ قاله الحسن. وهي النفخة الثانية. وسُمِّيت الصيحةُ زجرةً؛ لأن مقصودَها الزجر[1]؛ أي: يُزْجَر بها كزجر الإبل والخيل عند السَّوق.

﴿فَإِذَا هُم﴾ قِيَامٌ ﴿يَنظُرُونَ﴾ أي: ينظر بعضهم إلى بعض. وقيل: المعنى: ينتظرون ما يفعل بهم. وقيل: هي مثل قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنبياء:٩٧]. وقيل: أي: ينظرون إلى البعث الذي أنكروه[2].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ نادَوْا على أنفسهم بالويل؛ لأنهم يومئذ يعلمون ما حلَّ بهم. وهو منصوبٌ على أنه مصدر عند البصريين. وزعم الفرّاء أن تقديره: يا وَيْ لَنَا، ووَيْ بمعنى حُزْن. النحاس[3]: ولو كان كما قال لكان منفصلاً، وهو في المصحف مُتَّصل، ولا نعلم أحداً يكتبه إلا مُتَّصلاً.

و«يَوْمُ الدِّينِ» يوم الحساب. وقيل: يوم الجزاء[4].

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ قيل: هو من قول بعضهم لبعض؛ أي: هذا اليوم الذي كذَّبنا به. وقيل: هو من قول الله تعالى لهم[5]. وقيل: من قول الملائكة؛ أي: هذا يومُ الحكم بين الناس، فيبين المُحِقَ من المُبطل. فـ ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾[6] [الشورى:٧].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٢ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٦٨ بنحوه.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤١٤ ، وما قبله منه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٢ .

(٥) تفسير الطبري ١٩/ ٥١٨ .

(٦) تفسير الرازي ٢٦/ ١٣٠ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ هو مِن قول الله تعالى للملائكة: «احْشُرُوا» المشركين «وَأَزْوَاجَهُمْ» أي: أشياعَهم في الشِّرك، والشِّرك الظُّلم؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] فَيُحشَر الكافر مع الكافر؛ قاله قتادة وأبو العالية.

وقال عمر بن الخطاب في قول الله عز وجل: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال: الزاني مع الزاني، وشاربُ الخمر مع شاربِ الخمر، وصاحبُ السرقة مع صاحبِ السرقة. وقال ابن عباس: «وَأَزْوَاجَهُمْ» أي: أشباههم. وهذا يَرجِعُ إلى قول عمر.

وقيل: «وَأَزْوَاجَهُمْ» نساءهم المُوافِقات عل الكُفر؛ قاله مجاهد والحسن، ورواه النعمان بن بَشير عن عمر بن الخطاب.

وقال الضحاك: «وَأَزْوَاجَهُمْ» قُرناءهم من الشياطين. وهذا قولُ مقاتل أيضاً: يُحشَر كلُّ كافر مع شيطانه في سلسلة(١).

﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُون مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي: من الأصنام والشياطين وإبليس(٢).
﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أي: سُوقوهم إلى النار. وقيل: «فَاهْدُوهُمْ» أي: دُلُّوهم.

---

(١) الأقوال السالفة في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٥، والنكت والعيون ٥/ ٤٣، وزاد المسير ٧/ ٥٢. وقول ابن عباس وعمر رضي الله عنهم أخرجه الطبري ١٩/ ٥١٩ - ٥٢٠.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٣.

يقال: هَدَيْتُه إلى الطريق، وهَدَيْتُه الطريق؛ أي: دَلَلْته عليه. وأهديتُ الهديَّةَ، وهَديتُ العروسَ، ويقال: أَهديتها؛ أي: جعلتها بمنزلة الهديَّة[١].

قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ وحكى عيسى بن عمر: «أَنَّهُمْ» بفتح الهمزة. قال الكسائي: أي: لأنهم، وبأنهم[٢]، يقال: وَقفتُ الدابَّةَ أَقِفُها وَقْفاً فوقفتْ هي وقوفاً، يتعدَّى ولا يتعدَّى[٣]؛ أي: احبِسوهم. وهذا يكون قبلَ السَّوق إلى الجحيم؛ وفيه تقديمٌ وتأخيرٌ، أي: قِفُوهم للحساب، ثم سُوقوهم إلى النار. وقيل: يُساقون إلى النار أولاً، ثم يُحشَرون للسؤال إذا قَرُبوا من النار.

«إِنَّهُمْ مسؤولون» عن أعمالهم وأقوالهم وأفعالهم؛ قاله القُرَظي والكلبي. الضحاك: عن خطاياهم. ابن عباس: عن لا إله إلا الله[٤]. وعنه أيضاً: عن ظُلم الخَلْق.

وفي هذا كلِّه دليلٌ على أن الكافر يُحاسَب. وقد مضَى في «الحجر» الكلام فيه[٥].

وقيل: سؤالهم: أن يقال لهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] إقامة للحجة. ويقال لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ على جهة التقريع والتوبيخ؛ أي: ينصُر بعضُكم بعضاً، فيمنعه من عذاب الله[٦].

وقيل: هو إشارةٌ إلى قول أبي جهل يومَ بدر: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾[٧] [القمر: ٤٤]. وأصلُه: تتناصرون، فطُرحت إحدى التاءين تخفيفاً. وشدَّد البَزِّي التاء في الوصل[٨].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٦ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٦ ، وقراءة عيسى بن عمر في القراءات الشاذة ص ١٢٧.

(٣) الصحاح (وقف).

(٤) هذه الأقوال في زاد المسير ٧/ ٥٣ .

(٥) ١٢/ ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٤ بنحوه.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٩ ، وزاد المسير ٧/ ٥٣ .

(٨) التيسير ص ٨٣ .

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ قال قتادة: مستسلمون في عذاب الله عز وجل[١]. ابن عباس: خاضعون ذليلون. الحسن: مُنقادون. الأخفش: مُلقون بأيديهم. والمعنى مُتقارب.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يعني: الرؤساء والأتباع ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يتخاصمون[٢].

ويقال: لا يتساءلون، فسقطت لا. النحاس[٣]: وإنما غلِطَ الجاهل باللغة، فتوهَّم أنَّ هذا من قوله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١]، إنما هو: لا يتساءلون بالأرحام، فيقول أحدُهم: أسألك بالرَّحِم الذي بيني وبينك لما نفعتني، أو أسقطتَ لي حقّاً لك عليَّ، أو وهبتَ لي حسنة. وهذا بيِّن؛ لأن قبلَه ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾. أي: ليس ينتفعون بالأنساب التي بينهم؛ كما جاء في الحديث «إنَّ الرجلَ لَيُسَرُّ بأن يصحَّ له على أبيه أو على ابنه حقٌّ فيأخذَه منه، لأنها الحسناتُ والسيئات»[٤]، وفي حديث آخر: «رَحِمَ اللهُ امرءا كان لأخيه عنده مَظْلِمةٌ من مال أو عِرْض، فأتاه فاستحلَّه قبل أن يُطالبَه به، فيأخذَ من حسناته، فإنْ لم تكن له حسناتٌ زِيد عليه من سيئات المُطالِب»[٥].

و«يَتَسَاءَلُونَ» هاهنا إنما هو أن يسألَ بعضُهم بعضاً ويُوبِّخه في أنه أضلَّه أو فتح له باباً من المعصية؛ يُبيِّن ذلك أن بعده ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾[٦].

قال مجاهد: هو قولُ الكفار للشياطين. قتادة: هو قولُ الإنس للجن. وقيل: هو من قول الأتباع للمتبوعين[٧]؛ دليلُه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٢٤ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٥ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤١٦ - ٤١٧ .

(٤) لم نقف عليه.

(٥) أخرجه الترمذي (٢٤١٩) بنحوه من حديث أبي هريرة ﷺ. وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٧ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٥ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٦٩ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٩/ ٥٢٤ .

رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ الآية [سبأ: ٣١].

قال سعيد عن قتادة: أي: تأتوننا عن طريق الخير وتصدُّوننا عنها. وعن ابن عباس نحو منه. وقيل: تأتوننا عن اليمين التي نُحبها ونتفاءل بها لتغرونا بذلك من جهة النُّصح. والعربُ تتفاءل بما جاء عن اليمين وتُسمِّيه السانح. وقيل: «تَأْتُونَنا عن اليمينِ» تأتوننا مجيء من إذا حلفَ لنا صدَّقناه[1]. وقيل: تأتوننا من قِبَل الدِّين فتهوِّنون علينا أمرَ الشريعة وتُنفِّروننا عنها[2].

قلت: وهذا القولُ حسنٌ جداً؛ لأن من جهة الدِّين يكون الخير والشرّ، واليمين بمعنى الدِّين؛ أي: كنتم تزيِّنون لنا الضَّلالة.

وقيل: اليمين بمعنى القوّة؛ أي: تمنعوننا بقوّة وغلبة وقهر؛ قال الله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ﴾ أي: بالقوّة وقوّة الرجل في يمينه؛ وقال الشاعر:

إذا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ   تَلَقَّاها عَرابَةُ باليَمِينِ[3]

أي: بالقوَّة والقُدرة. وهذا قولُ ابن عباس. وقال مجاهد: «تَأْتُونَنَا عَنِ اليَمِينِ» أي: من قِبَل الحقّ أنه معكم[4]؛ وكلُّه مُتقارب المعنى.

﴿قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ قال قتادة: هذا قولُ الشياطين لهم[5]. وقيل: من قول الرؤساء؛ أي: لم تكونوا مؤمنين قطُّ حتى ننقلكم منه إلى الكفر، بل كنتم على الكفر فأقمتُم عليه لِلإلف والعادة ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾ أي: من حُجة في ترك الحق. ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ أي: ضالِّين مُتجاوزين الحدّ.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ هو أيضاً من قول المتبوعين؛ أي: وجب علينا وعليكم قولُ

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٧.

(٢) زاد المسير ٧/ ٥٤ بنحوه.

(٣) قائله الشماخ بن ضرار، وهو في ديوانه ص ٣٣٦.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٥ - ٤٦.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٧.

ربّنا، فكلنا ذائقو العذاب، كما كتب اللهُ وأخبرَ على ألسنة الرُّسل ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[(١)] [هود:١١٩]. وهذا موافق للحديث: «إنَّ اللهَ جلّ وعزّ كتب للنار أهلاً وللجنة أهلاً، لا يُزادُ فيهم ولا ينقصُ منهم»[(٢)].

﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾ أي: زيَّنا لكم ما كنتم عليه من الكفر ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ بالوسوسة والاستدعاء. ثم قال خبراً عنهم: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ الضالّ والمُضِلّ. ﴿إِنَّا كَذَلِكَ﴾ أي: مثل هذا الفعل ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أي: المشركين.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: إذا قيل لهم: قولوا، فأضمرَ القولَ.

و«يَسْتَكْبِرُونَ» في موضع نصب على خبر كان. ويجوز أن يكون في موضع رفع على أنه خبر إنّ، وكان مُلغاة[(٣)]. ولما قال النبي ﷺ لأبي طالب عند موته واجتماع قريش «قولوا: لا إله إلا الله، تَملِكوا بها العربَ، وتَدين لكم بها العَجَم»[(٤)] أبَوْا وأَنِفُوا من ذلك. وقال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «أنزل اللهُ تعالى في كتابه فذكَر قوماً استكبروا فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح:٢٦] وهي: لا إلهَ إلا اللهُ محمدٌ رسولُ الله» استكبر عنها المشركون يومَ الحُدَيْبِيَة يومَ كاتَبهم رسولُ الله ﷺ

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٤/ ٣٦ ، وزاد المسير ٧/ ٥٤ - ٥٥ .

(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج نحوه أحمد (٦٥٦٣) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وإسناده ضعيف، وفي هذا المعنى عدة أحاديث ثابتة سلفت الإشارة إليها ٩/ ٣٧٦ ، منها حديث علي ﷺ، ولفظه: «ما منكم من أحدٍ، ما من نفس منفوسة إلا كُتِبَ مكانُها من الجنة والنار..» أخرجه أحمد (٦٢١)، والبخاري (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٨ .

(٤) أخرجه أحمد (٢٠٠٨)، والترمذي (٣٢٣٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه.

على قضية المُدَّة؛ ذكر هذا الخبرَ البيهقيُّ[١]، والذي قبله القشيري.

**قوله تعالى:** ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ أي: لِقول شاعرٍ مجنون؛ فردَّ الله جل وعز عليهم فقال: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني القرآن والتوحيد ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فيما جاؤوا به من التوحيد.

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ الأصلُ: لذائقون، فَحُذِفَت النون استخفافاً وخُفضت للإضافة. ويجوز النصبُ كما أنشد سيبويه[٢]:

فَأَلْفَيْتُهُ غَيرَ مُسْتَعْتِبٍ ... وَلَا ذَاكِرِ اللهَ إِلَّا قَلِيلاً[٣]

وأجاز سيبويه «وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةَ» [الحج: ٣٥][٤] على هذا.

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: إلا بما عَمِلتم من الشِّرك ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء ممن يذوق العذاب. وقراءة أهل المدينة والكوفة: «الْمُخْلَصِينَ» بفتح اللام[٥]، يعني الذين أخلصهم اللهُ لطاعته ودينه وولايته. الباقون بكسر اللام؛ أي: الذين أخلصوا لله العبادة. وقيل: هو استثناءٌ منقطع؛ أي: إنكم أيها المجرمون ذائقو العذاب، لكن عباد الله المخلصين لا يذوقون العذاب[٦].

---

(١) في الأسماء والصفات (١٩٦)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (٢١٨).

(٢) في الكتاب ١/١٦٩، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/٤١٨.

(٣) قائله أبو الأسود الدؤلي، وسلف ٢/ ١٥.

(٤) قرأ بها ابن أبي إسحاق، كما ذكرناه ١٤/ ٣٩٣.

(٥) السبعة ص ٣٤٨، والتيسير ص ١٢٨.

(٦) تفسير الرازي ٢٦/١٣٦ بنحوه.

**قوله تعالى**: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ يعني المخلَصين؛ أي: لهم عطيةٌ معلومةٌ لاتنقطع. قال قتادة: يعني الجنة. وقال غيره: يعني رزق الجنة. وقيل: هي الفواكهُ التي ذَكَر. قال مقاتل: حين يَشتهونه. وقال ابن السائب: إنه بمقدار الغَداة والعَشِيّ؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

﴿فَوَٰكِهُ﴾ جمع فاكهة؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ﴾ [الطور: ٢٢] وهي الثِّمار كلُّها رَطْبها ويابسها؛ قاله ابن عباس[(١)].

﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ أي: ولهم إكرامٌ من الله جل وعز برفع الدرجات وسماع كلامه ولقائه. ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: في بساتين يتنعَّمون فيها. وقد تقدَّم أن الجِنان سبعٌ في سورة «يونس» منها النعيم[(٢)].

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ قال عكرمة ومجاهد: لا ينظر بعضُهم في قَفا بعض[(٣)]، تواصلاً وتحاباً. وقيل: الأَسِرَّة تدور كيف شاؤوا، فلا يرى أحدٌ قفا أحد. وقال ابن عباس: على سُرر مُكلَّلة بالدُّرّ والياقوت والزَّبرجد؛ السرير ما بين صنعاء إلى الجابية، وما بين عَدَن إلى أيلة[(٤)]. وقيل: تدور بأهل المنزل الواحد. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ﴾ لـمَّا ذكَر مطاعِمَهم ذَكَر شرابَهم.

---

(١) زاد المسير ٧/ ٥٥ - ٥٦ .

(٢) ١٠/ ٤٨١ .

(٣) قول مجاهد أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٣/ ١٣٨ ، وقول عكرمة أورده النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤١٩ .

(٤) لم نقف عليه. وأيلة: جبل بين مكة والمدينة قرب ينبع.

والكأسُ عند أهل اللغة اسمٌ شامل لكلِّ إناء مع شرابه؛ فإنْ كان فارغاً فليس بكأس[١]. قال الضحاك والسدي: كلُّ كأس في القرآن فهي الخمر، والعربُ تقول للإناء إذا كان فيه خمرٌ: كأس، فإذا لم يكن فيه خمر قالوا: إناء وقدح[٢].

النحاس[٣]: وحكَى من يُوثق به من أهل اللغة أن العرب تقول لِلقَدَح إذا كان فيه خمر: كأس؛ فإذا لم يكن فيه خمرٌ فهو قَدَح؛ كما يقال للخُوَان إذا كان عليه طعام: مائدة، فإذا لم يكن عليه طعام لم تقل له: مائدة. قال أبو الحسن بن كيسان: ومنه: ظَعينة، للهودج إذا كان فيه المرأة.

وقال الزجاج[٤]: «بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ» أي: من خمر تجري كما تجرى العيون على وجه الأرض. والمعين: الماء الجاري الظاهر[٥].

﴿بَيْضَآءَ﴾ صفةٌ للكأس. وقيل: للخمر. ﴿لَذَّةٍ لِلشَّٰرِبِينَ﴾ قال الحسن: خمرُ الجنة أشدُّ بياضاً من اللبن[٦]. «لَذَّةٍ»، قال الزجاج[٧]: أي: ذات لذَّة، فحذف المضاف. وقيل: هو مصدر جعل اسما، أي: بيضاء لذيذة؛ يقال: شرابٌ لذٌّ ولذيذ، مثل: نباتٌ غَضٌّ وغَضِيض. فأما قولُ القائل:

ولَذٍّ كطَعْمِ الصَّرْخَدِيِّ تركتُهُ ... بأرض العِدَا مِنْ خَشيةِ الحَدَثَانِ[٨]

---

(١) زاد المسير ٧/ ٥٦ ، وينظر تهذيب اللغة ١٠/ ٣١٤ .

(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٥٣١ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤١٩ .

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣٠٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤١٩ .

(٥) تهذيب اللغة ٣/ ١٦ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤٧٢ ، وزاد المسير ٧/ ٥٦ .

(٧) في معاني القرآن ٤/ ٣٠٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤١٩ .

(٨) البيت للراعي النميري، وهو في ديوانه ص١٨٦ ، وروايته:

ولَذٍّ كطعم الصرخدي طرحتُه ... عشية خمس القوم والعين عاشقه

والبيت ذكره مثل رواية المصنف الأزهريُّ في تهذيب اللغة ١٤/ ٤٠٩ ، والزمخشري في الكشاف =

فإنه يريد النوم. وقيل: «بَيْضَاءَ» أي: لم يعتصرها الرجال بأقدامهم. ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي: لا تغتال عقولهم، ولا يُصيبهم منها مرضٌ ولا صُداع[١].

﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ أي: لا تذهبُ عقولُهم بشربها[٢]؛ يقال: الخمرُ غَوْل للحِلْم، والحربُ غولٌ للنفوس؛ أي: تذهبُ بها. ويقال: نُزِف الرجلُ يُنْزَف، فهو منزوفٌ ونَزِيفٌ، إذا سَكِرَ. قال امرؤ القيس:

وإذ هـي تـمـشِـي كـمـشـي الـنَّـزِيـ ... ـفِ يَـصْـرَعُـه بـالـكـثـيـب الـبُـهُـرْ[٣]

وقال أيضاً:

نَـزِيـفٌ إذا قـامـتْ لِـوجـهٍ تـمـايـلَـتْ ... تُـراشِـي الـفـؤادَ الـرَّخْـصَ ألَّا تَـخـتَّـرا[٤]

وقال آخر:

فـلـثـمـتُ فـاهـا آخِـذاً بِـقُـرونـهـا ... شُـرْبَ الـنَّـزِيـفِ بـبـرد مـاءِ الـحَـشْـرجِ[٥]

وقرأ حمزة والكسائي بكسر الزاي[٦]؛ من أنزف القومُ، إذا حان منهم النَّزْف، وهو السُّكر. يقال: أحصدَ الزَّرعُ، إذا حان حَصادُه، وأَقطفَ الكرمُ، إذا حان قِطافُه، وأَركبَ المهرُ، إذا حان رُكوبه. وقيل: المعنى: لا يُنفِدون شرابَهم؛ لأنه دأبهم؛ يقال: أَنزف الرجل، فهو منزوف، إذا فَنِيتْ خمرُه. قال الحُطيئة:

---

= ٣/ ٣٤٠ . وصرخد: موضع ينسب إليه الشراب. اللسان (صرخد). قال الأزهري: أراد: أنه لما دخل ديار أعدائه لم ينم حذاراً لهم.

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٧ ، وزاد المسير ٧/ ٥٦.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٣٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) ديوان امرئ القيس ص ١٥٦ . قال شارحه: البهر: من الانبهار، وهو انقطاع النَّفَس.

(٤) ديوان امرئ القيس ص٦١. الرخص: الناعم. القاموس (رخص). قال شارح الديوان: أي: تداري فؤادها لتشتدّ عند المشي ولا تفتر.

(٥) البيت في الأغاني ١/ ١٩١ ضمن أبيات لعمر بن أبي ربيعة. وهو في اللسان (حشرج) وفيه: قال ابن بري: البيت لجميل بن معمر وليس لعمر بن أبي ربيعة. والنزيف: المحموم الذي مُنع من الماء. والحشرج: النُّقرة في الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو.

(٦) السبعة ص ٥٤٧ والتيسير ص ١٨٦ .

لَعَمْرِي لئن أنْزفْتُم أو صَحَوْتُم لَبئس النَّدامَى كنتمُ آلَ أبْجَرا[١]

النحاس[٢]: والقراءةُ الأولى[٣] أبينُ وأصحُّ في المعنى؛ لأن معنى «يُنْزفُونَ» عند جِلَّة أهل التفسير ـ منهم مجاهد[٤] ـ: لا تذهب عقولهم؛ فنفى الله عز وجل عن خمر الجنة الآفاتِ التي تلحق في الدنيا من خمرها، من الصُّداع والسُّكر. ومعنى «يُنْزِفُونَ» الصحيح فيه أنه يقال: أنزف الرجل إذا نَفِدَ شرابُه، وهو يبعد أن يُوصَفَ به شرابُ الجنة؛ ولكن مجازه أن يكون بمعنى: لا يَنفَدُ أبداً.

وقيل: «لَايُنْزِفُونَ» بكسر الزاي: لا يَسْكَرون؛ ذكره الزجاج وأبو عليّ[٥] على ما ذكره القُشَيري.

المهدوي: ولا يكون معناه: يَسْكَرون؛ لأن قبلَه «لا فيها غَوْلٌ». أي: لا تغتال عقولَهم فيكون تكراراً؛ ويسوغ ذلك في «الواقعة»[٦].

ويجوز أن يكون معنى «لا فيها غَوْلٌ» لا يمرضون؛ فيكون معنى «ولاهُمْ عنها يُنْزَفُونَ» لا يَسْكَرون أو لا ينفَدُ شرابُهم[٧]. قال قتادة: الغول وجعُ البطن. وكذا روى ابنُ أبي نَجيح عن مجاهد: «لا فيها غَوْلٌ» قال: لا فيها وجعُ بطن. الحسن: صُداع. وهو قول ابن عباس «لا فيها غَوْلٌ»: لا فيها صُداع[٨]. وحكى الضحاك عنه أنه قال:

---

(١) لم نقف عليه في ديوان الحطيئة، ونسبه الطبري في تفسيره ١٩/ ٥٣٧، والجوهري في صحاحه (نزف)، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٧٢ للأُبَيْرد الرِّياحي، والكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٠٣، والحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ٥٤ - ٥٥، والنكت والعيون ٥/ ٤٨، وزاد المسير ٧/ ٥٧، وكلهم أورد البيت شاهداً على أن أنزف بمعنى سَكِرَ.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٤١٩.

(٣) يعني قراءة: «يُنزَفون» بفتح الزاي.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٣٦.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٠٣، والحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ٥٥.

(٦) في تفسير الآية (١٩).

(٧) الكلام بنحوه في الحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ٥٥.

(٨) أخرج هذه الأقوال ـ ماعدا قول الحسن ـ الطبري ١٩/ ٥٣٢ - ٥٣٣ وقول الحسن ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٢٧

في الخمر أربعُ خِصال: السُّكر والصُّداع والقيء والبول؛ فذكر الله خمرَ الجنة فنزَّهَها عن هذه الخِصال[1]. مجاهد: داء. ابن كيسان: مَغْص. وهذه الأقوالُ متقاربة.

وقال الكلبي: «لا فيها غَوْلٌ» أي: إثم[2]؛ نظيره: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣]. وقال الشعبي والسدي وأبو عُبيدة: لا تغتال عقولَهم فتذهب بها. ومنه قول الشاعر:

وما زالتِ الكأسُ تغتالُنا ... وتَذهبُ بالأولِ الأولِ[3]

أي: تصرعُ واحداً واحداً.

وإنما صرفَ الله تعالى السُّكر عن أهل الجنة لئلا ينقطعَ الالتذاذ عنهم بنعيمهم.

وقال أهل المعاني: الغَوْل فسادٌ يلحق في خفاء. يقال: اغتاله اغتيالاً إذا أفسدَ عليه أمره في خُفية[4]. ومنه الغَوْل والغِيلة: وهو القتل خُفية.

قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي: نساء قد قَصَرْنَ طرفهنَّ على أزواجهنَّ فلا ينظرن إلى غيرهم؛ قاله ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وغيرهم. عكرمة: «قَاصِرَات الطَّرْف» أي: محبوساتٌ على أزواجهنّ. والتفسير الأوّل أبينُ؛ لأنه ليس في الآية مقصورات، ولكن في موضع آخر: ﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾ [الرحمن: ٧٢] يأتي بيانُه[5].

و«قاصرات» مأخوذ من قولهم: قد اقتصر على كذا، إذا اقتنع به وعدلَ عن غيره؛ قال امرؤ القيس:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه كما في الدر المنثور ٥/ ٢٧٤.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٧.

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٦٩، وقول السدي أخرجه الطبري ١٩/ ٥٣٤، والبيت نسبه الرازي في تفسيره ٢٦/ ١٣٧ لمطيع بن إياس، وهو غير منسوب في تفسير الطبري ١٩/ ٥٣٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٧٢.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٧.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٠، وقول ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد أخرجه الطبري ١٩/ ٥٣٧ - ٥٣٨.

من القاصراتِ الطَّرْفِ لو دَبَّ مُحْوِلٌ مِن الذَّرِّ فَوْقَ الإتْبِ منها لأثَّرا[١]

ويروى: فوق الخد[٢]. والأوّل أبلغ. والإتْب القميص، والمُحْوِل: الصغير من الذر. وقال مجاهد أيضاً: معناه: لا يَغرْنَ[٣].

﴿عِينٌ﴾ عِظامُ العيون، الواحدة عَيْناء؛ وقاله السُّدي. مجاهد: «عِينٌ» حِسان العيون[٤]. الحسن: الشديداتُ بياض العين، الشديدات سوادها[٥]. والأوّل أشهرُ في اللغة. يقال: رجلٌ أعينُ، واسع العين، بيِّن العَيَن، والجمع: عِين، وأصله فُعْل بالضم، فكسرت العين؛ لئلا تنقلب الواو ياء. ومنه قيل لبقر الوحش: عِين، والثور أعينُ، والبقرة عَيْناء[٦].

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ أي: مصون. قال الحسن وابن زيد: شُبِّهن ببيض النَّعام، تَكُنُّها النعامة بالريش من الريح والغبار، فلونُها أبيضُ في صُفرة، وهو أحسنُ ألوان النساء. وقال ابن عباس وابن جُبير والسدي: شُبِّهن ببطن البيض قبل أن يُقْشَرَ وتَمَسَّه الأيدي. وقال عطاء: شُبِّهن بالسِّحاء الذي يكون بين القِشرة العليا ولُباب البَيْض[٧]. وسَحَاةُ كل شيء قِشْره، والجمع سَحًا؛ قاله الجوهري[٨]. ونحوه قول الطبري[٩]، قال: هو القِشر الرقيق، الذي على البيضة بين ذلك. ورَوَى نحوه عن النبيّ ﷺ[١٠].

---

(١) ديوان امرئ القيس ص ٦٨ .

(٢) ذكره بهذه الرواية الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤٨، والكلام السالف فيه.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٧ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٨ ، وزاد المسير ٧/ ٥٨ ، وقول السدي أخرجه الطبري ١٩/ ٥٣٩ .

(٥) مجمع البيان ٢٣/ ٥٧ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٠ ، والصحاح (عين).

(٧) هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٩/ ٥٤٠ ، والنكت والعيون ٥/ ٤٨، وتفسير البغوي ٤/ ٢٧ ، وزاد المسير ٧/ ٥٨ .

(٨) في الصحاح (سحا).

(٩) في تفسيره ١٩/ ٥٤١ .

(١٠) من حديث أم سلمة رضي الله عنها، بلفظ: قلت: يا رسول الله، أخبرني عن قوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ =

والعربُ تُشبِّه المرأة بالبيضة لِصفائها وبياضها[١]؛ قال امرؤ القيس:

وبيضةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خِباؤها تمتَّعتُ من لَهْوٍ بها غيرَ مُعْجَلِ[٢]

وتقول العرب إذا وصفت الشيء بالحُسن والنظافة: كأنه بيضُ النعام المُغطَّى بالريش[٣]. وقيل: المكنون: المَصُون عن الكسر؛ أي: إنهنَّ عذارى. وقيل: المرادُ بالبيض اللؤلؤ[٤]؛ كقوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢-٢٣] أي: في أصدافه؛ قاله ابن عباس أيضاً. ومنه قول الشاعر:

وهي بيضاءُ مِثلُ لُؤلُؤة الغوَّاصِ مِيزَتْ مِن جَوْهَرٍ مَكْنونِ[٥]

وإنما ذكر المكنون والبيض جمع؛ لأنه ردَّ النَّعت إلى اللَّفظ[٦].

**قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٥٧ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ۝٦١﴾**

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: يتفاوضون فيما بينهم

---

= قال: «رِقَّتُهنَّ كرِقَّة الجلدة التي رأيتها في داخل البيضة التي تلي القشرة..» وفي إسناده سليمان ابن أبي كريمة. ضعَّفه أبو حاتم، وقال ابن عدي: عامة أحاديثه مناكير، ميزان الاعتدال ٢/ ٢٢١.

(١) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٨، و تفسير البغوي ٤/ ٢٧، وزاد المسير ٧/ ٥٨، وفيهما: والعرب تُشَبِّه المرأة ببيضة النعامة.

(٢) ديوان امرئ القيس ص ١٣، والبيت من معلقته.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٠.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٤١ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) قائله أبو دهبل، وهو في تفسير الطبري ١٩/ ٥٤١، والنكت والعيون ٥/ ٤٨، وخزانة الأدب (طبعة دار صادر) ٣/ ٢٨٠ وعند الطبري والبغدادي: زهراء، بدل: بيضاء.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٧.

أحاديثَهم في الدنيا. وهو من تمام الأُنس في الجنة. وهو معطوفٌ على معنى «يُطَاف عليهم» المعنى: يشربون فيتحادثون على الشَّراب كعادة الشُّرَّاب. قال بعضهم:

وما بَقِيَتْ من اللّذاتِ إلَّا أحاديثُ الكِرامِ على المُدام

فَيُقبِل بعضُهم على بعض يتساءلون عمَّا جرى لهم وعليهم في الدنيا؛ إلا أنه جيء به ماضياً على عادة الله تعالى في إخباره[1].

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: من أهل الجنة: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ أي: صديقٌ مُلازم ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ أي: بالمبعث والجَزاء. وقال سعيد بن جُبير: قرينه شريكه[2]. وقد مضى في «الكهف» ذكرهما وقصَّتهما والاختلافُ في اسميهما مستوفىً عند قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ [الآية: ٢٢]. وفيهما أنزل اللهُ جلّ وعزّ: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ إلى ﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾.

وقيل: أراد القرين قرينَه من الشياطين، كان يُوسوس إليه بإنكار البعث[3].

وقرئ: «أَئِنَّكَ لمنَ المُصَدِّقِينَ» بتشديد الصاد. رواه عليّ بن كِيْسة عن سليم عن حمزة[4]. قال النحاس[5]: ولا يجوز «أَئِنَّكَ لمنَ المُصَدِّقِينَ» لأنه لا معنى للصَّدقة هاهنا.

وقال القشيري: وفي قراءة عن حمزة: «أَئِنَّكَ لَمنَ المُصَدِّقِينَ» بتشديد الصاد.

---

(١) تفسير الرازي ٢٦/ ١٣٨، والبيت فيه دون نسبة.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤٩، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٥٩ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٩، وتفسير البغوي ٤/ ٢٨، وزاد المسير ٧/ ٥٩ عن مجاهد.

(٤) وهي غير المشهورة عن حمزة، والمشهورة عنه كقراءة الجماعة، وذكرها عن حمزة غير المصنف ابنُ الجوزي في زاد المسير ٧/ ٥٩ لكن من طريق بكر بن عبد الرحمن القاضي عنه. وعلي بن كِيْسة روى القراءة عن سليم، وهو ابن عيسى بن سليم أبو محمد الحنفي، مولاهم، الكوفي، المقرئ، توفي سنة (١٨٨ هـ). الإكمال لابن ماكولا ٧/ ١٥٧ - ١٥٨، وطبقات القراء ١/ ٣١٨.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٤٢١.

واعتُرِضَ عليه بأنَّ هذا من التصديق لا من التصدُّق. والاعتراضُ باطل؛ لأن القراءة إذا ثَبتتْ عن النبيّ ﷺ فلا مَجال للطَّعن فيها. فالمعنى «أئِنَّكَ لمنَ المُصَّدِّقِينَ» بالمال طلباً في ثواب الآخرة.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي: مَجْزِيُّون مُحاسَبون بعد الموت.

فـ ﴿قَالَ﴾ الله تعالى لأهل الجنة: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾. وقيل: هو من قول المؤمن لإخوانه في الجنة: هل أنتم مُطَّلعون إلى النار لِننظُرَ كيف حالُ ذلك القرين[1].

وقيل: هو من قول الملائكة. وليس «هَلْ أنتم مُطَّلِعُونَ» باستفهام، إنما هو بمعنى الأمر، أي: اِطَّلِعوا؛ قال ابن الأعرابي[2] وغيره. ومنه لمَّا نزلت آية الخمر قام عمرُ قائماً بين يدي النبيّ ﷺ، ثم رفع رأسَه إلى السماء، ثم قال: يا ربّ، بياناً أشفى من هذا في الخمر. فنزلت: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] قال: فنادى عمرُ: انتهينا يا ربَّنا[3].

وقرأ ابن عباس: «هل أنتم مُطْلِعُونَ» بإسكان الطاء خفيفة «فَأُطْلِعَ»، بقطع الألف مخفَّفة[4]، على معنى: هل أنتم مُقبلون فأقبل.

قال النحاس[5]: «فَأُطْلِعَ فَرَآهُ» فيه قولان: أحدهما أن يكون فعلاً مستقبلاً، معناه: فأطلع أنا، ويكون منصوباً على أنه جوابُ الاستفهام. والقول الثاني: أن يكون فعلاً ماضياً، ويكون اطَّلعَ وأطلع واحداً. قال الزجاج[6]: يقال: طَلَع وأَطْلَعَ واطَّلعَ بمعنىً واحد. وقد حُكي: «هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونِ» بكسر النون، وأنكره أبو حاتم[7] وغيره.

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٨.
(٢) ياقوتة الصراط ص ٤٢٧ - ٤٢٨، وما بعده منه.
(٣) أخرجه أحمد (٣٧٨)، وأبو داود (٣٦٧٠)، والترمذي (٣٠٤٩)، وسلف ٨/ ٥٧.
(٤) القراءات الشاذة ص ١٢٨، والمحتسب ٢/ ٢١٩.
(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٣.
(٦) في معاني القرآن ٤/ ٣٠٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٢.
(٧) نسبها أبو حيان في البحر ٧/ ٣٦١ لعمار بن أبي عمار، وإنكار أبي حاتم ذكره ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٢٠.

النحاس[١]: وهو لحنٌ لا يجوز؛ لأنه جمعٌ بين النون والإضافة، ولو كان مضافاً لكان: هل أنتم مُطْلِعيّ، وإن كان سيبويه والفرّاء قد حكيا مثلَه، وأنشدا:

هُمُ القائلونَ الخيرَ والآمِرونَهُ إذا ما خَشَوا مِن مُحْدَثِ الأمرِ مُعْظَما[٢]

وأنشد الفراء: والفاعلونه. وأنشد سيبويه وحدَه:

ولم يَرْتَفِق والناس مُحتَضِرونه[٣]

وهذا شاذٌّ خارجٌ عن كلام العرب[٤]، وما كان مثل هذا لم يُحتَجَّ به في كتاب الله عز وجل، ولا يدخل في الفصيح. وقد قيل في توجيهه: إنه أجرى اسمَ الفاعل مجرى المضارع لِقُربه منه، فجرى «مُطْلِعُونِ» مجرى يُطْلِعُونِ. ذكره أبو الفتح عثمان بن جني[٥] وأنشد:

أَرَيْتَ[٦] إن جئتُ به أُمْلُودا مُرَجَّلاً ويَلْبَسُ البُرُودا

أَقائِلُنَّ أحضِروا[٧] الشُّهُودا

فأجرى أقائلُنّ مجرى أَتَقولُن. وقال ابن عباس في قوله تعالى: «هَلْ أَنْتُم مُطَّلِعُونَ فاطَّلَعَ فَرَآهُ» إنّ في الجنة كُوًى ينظر أهلُها منها إلى النار وأهلِها[٨]. وكذلك قال كعب

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٢.

(٢) الكتاب لسيبويه ١/ ١٨٨، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٣٨٦،

(٣) الشطر الثاني كما في الكتاب ١/ ١٨٨: جميعاً وأيدي المُعتَفين رَواهِقُه.

(٤) هذا قول النحاس، وقد قال قبله: أما البيتان اللذان أنشدهما سيبويه وشركه الفراء في أحدهما فلا يُعرف من قالهما، ولا تثبت بهما حجة، اهـ. ونقل البغدادي في خزانة الأدب ٤/ ٢٧٠ عن النحاس قوله: وهذا لا يلزم سيبويه منه غلط؛ لأنه قد قال نصًّا: وزعموا أنه مصنوع، فهو عنده مصنوع لا يجوز، فكيف يلزمه منه غلط؟!

(٥) المحتسب ٢/ ٢٢٠.

(٦) في النسخ: أرأيت، والمثبت من الخزانة ١١/ ٤٢٠، قال البغدادي: أصله: أرأيت، بمعنى: أخبرني، حذفت الهمزة تخفيفاً.

(٧) في الخزانة: أحضري، قال البغدادي: رواه العيني: أحضروا، بواو الجمع، ولا وجه له. والأُملود: الناعم. وهذا من رجز أورده السكري في أشعار هذيل لرجل منهم.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٨، وزاد المسير ٧/ ٦٠.

فيما ذكر ابن المبارك، قال: إنَّ بين الجنة والنار كُوّى، فإذا أراد المؤمن أن ينظُرَ إلى عدوٍّ كان له في الدنيا اطلع من بعض الكُوى؛ فقال الله تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: في وسط النار والحسَكُ حواليه؛ قاله ابن مسعود[١].

ويقال: تعبتُ حتى انقطع سَوَائي: أي وسطي. وعن أبي عُبيدة: قال لي عيسى بن عمر: كنتُ أكتبُ يا أبا عُبيدة حتى ينقطع سَوَائي[٢].

وعن قتادة قال: قال بعض العلماء: لولا أنَّ الله جلّ وعزّ عرَّفه إيَّاه لما عَرَفه، لقد تغيَّر حِبْرهُ وسِبْرهُ[٣]. فعند ذلك يقول: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ «إنْ» مُخفَّفة من الثقيلة دخلتْ على كاد كما تدخل على كان. ونحوه ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ [الفرقان: ٤٢] واللامُ هي الفارقةُ بينها وبين النافية[٤].

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ في النار. وقال الكسائي: «لَتُرْدِينِ» أي: لَتُهْلِكني، والرَّدَى الهلاك. وقال المبرد: لو قيل: «لَتُردِينِ» لَتُوقِعني في النار لكان جائزاً[٥]. «وَلَولا نِعْمَةُ رَبِّي» أي: عصمتُه وتوفيقُه بالاستمساك بعروة الإسلام والبراءة من القَرين السوء. وما بعد «لولا» مرفوعٌ بالابتداء عند سيبويه، والخبرُ محذوف.

«لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ» قال الفراء[٦]: أي: لَكنتُ معك في النار مُحضَراً. وأحضر لا يُستعمل مطلقاً إلا في الشرّ؛ قاله الماوردي[٧].

قوله تعالى: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ وقرئ: «بِمائِتِين»[٨]، والهمزة في «أفما»

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٣ .

(٢) مجاز القرآن ٢/ ١٧٠.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٤٨ عن قتادة عن مطرف بن عبد الله، وأورده الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٥٠ عن قتادة. وقوله: حبره وسبره، يعني: لونه وهيئته. الصحاح (حبر).

(٤) الكشاف ٣/ ٣٤١ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٤ .

(٦) نقله المصنف عنه بواسطه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٤ ، وما قبله منه.

(٧) في النكت والعيون ٥/ ٥٠ .

(٨) قرأ بها زيد بن علي كما في البحر المحيط ٧/ ٣٦٢ .

للاستفهام دخلتْ على فاء العطف، والمعطوف محذوفٌ، معناه: أنحن مخَلَّدون مُنعَّمون فما نحن بميِّتين ولا مُعذَّبين[١]؟

﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ يكون استثناءً ليس من الأول، ويكون مصدراً؛ لأنه منعوت[٢]. وهو من قول أهل الجنة للملائكة حين يُذبَح الموت، «ويقال: يا أهلَ الجنة، خلودٌ ولا موت، ويا أهلَ النار، خلودٌ ولا موت»[٣].

وقيل: هو من قول المؤمن على جهة الحديث بنعمة الله في أنهم لا يموتون ولا يُعذَّبون؛ أي: هذه حالُنا وصفتُنا.

وقيل: هو من قول المؤمن توبيخاً للكافر لِمَا كان يُنكره من البعث، وأنه ليس إلا الموت في الدنيا. ثم قال المؤمن مُشيراً إلى ما هو فيه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٤] يكون «هو» مبتدأ، وما بعده خبرٌ عنه، والجملةُ خبرُ «إنّ». ويجوز أن يكون «هو» فاصلاً[٥]. ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ يَحتمِل أن يكونَ من كلام المؤمن لمَّا رأى ما أعدَّ اللهُ له في الجنة وما أعطاه قال: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا﴾ العطاء والفضل ﴿فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾. نظير ما قال له الكافر: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤]. ويَحتمِلُ أن يكون من قول الملائكة. وقيل: هو من قول الله عز وجل لأهل الدنيا؛ أي: قد سمعتم ما في الجنة من الخيرات والجزاء، و«لمثل هذا» الجزاء «فَلْيَعْمَلِ العاملُونَ»[٦].

النحاس: وتقدير الكلام - والله أعلم -: فَلْيعملِ العاملون لمثل هذا. فإن قال

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٤١.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٤.

(٣) قطعة من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، أخرجه أحمد (١١٠٦٦)، والبخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩)، وأوله: «يُؤتَى بالموت كهيئة كبش أملح... فَيُذبَح»، وسلف بتمامه ١٣/ ٤٥٥.

(٤) زاد المسير ٧/ ٦٠ - ٦١.

(٥) إعراب النحاس ٣/ ٤٢٤.

(٦) زاد المسير ٧/ ٦١ بنحوه.

قائل: الفاء في العربية تدلُّ على أن الثاني بعد الأول، فكيف صار ما بعدها يُنوَى به التقديم؟ فالجواب أن التقديم كمثل التأخير؛ لأن حقَّ حروفِ الخفض وما بعدها أن تكون متأخرةً[1].

**قوله تعالى:** ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ مبتدأ وخبر، وهو من قول الله جل وعز. ﴿نُّزُلًا﴾ على البيان؛ والمعنى: أنعيمُ الجنة خيرٌ نُزلاً ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ خيرٌ نزلاً؟. والنُّزُل في اللغة: الرِّزق الذي له سَعَة. النحاس[2]: وكذا النَّزل والنُّزل[3]، إلا أنه يجوز أن يكون النُّزْل بإسكان الزاي لغة، ويجوز أن يكون أصلُه النُّزُل [فَحُذِفت الضَّمةِ لِثقلها]؛ ومنه: أُقيم للقوم نُزُلهم. واشتقاقُه أنه الغذاء الذي يصلُح أن ينزلوا معه ويُقيموا فيه. وقد مضى هذا في آخر سورة «آل عمران»[4]. وشجرةُ الزَّقُّوم مشتقةٌ من التزقُّم، وهو البَلْع على جهد لكراهتها ونَتْنها[5].

قال المفسرون: وهي في الباب السادس، وأنها تحيا بِلهَبِ النار كما تحيا الشجرة ببرد الماء[6]؛ فلابدَّ لأهل النار من أن ينحدرَ إليها مَن كان فوقها فيأكلون منها، وكذلك يصعَد إليها من كان أسفلَ.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٤ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٤ ، وما قبله منه، وما بين حاصرتين الآتي منه.

(٣) قوله: النُّزْل، ليست في (م).

(٤) ٥/ ٤٨٣ - ٤٨٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٥ .

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٥١ عن يحيى بن سلام.

واختلف فيها هل هي من شجر الدنيا التي تعرفها العرب أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنها معروفةٌ من شجر الدنيا. ومن قال بهذا اختلفوا فيها؛ فقال قطرب: إنها شجرةٌ مُرَّة تكون بِتِهامة من أخبثِ الشجر. وقال غيره: بل هو كلُّ نبات قاتل. القول الثاني: إنها لا تُعرف في شجر الدنيا. فلما نزلت هذه الآية في شجرة الزقُّوم قالت كفار قريش: ما نعرف هذه الشجرة. فقَدِمَ عليهم رجلٌ من إفريقية، فسألوه فقال: هو عندنا الزُّبْد والتَّمر. فقال ابن الزِّبَعْرى: أكثرَ اللهُ في بيوتنا الزَّقُّوم. فقال أبو جهل لجاريته: زَقِّمينا؛ فأَتَتْه بِزُبْد وتمر. ثم قال لأصحابه تزقَّموا؛ هذا الذي يُخوِّفنا به محمد؛ يزعمُ أن النار تُنبِتُ الشجر، والنارُ تَحرِقُ الشجر[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: المشركين، وذلك أنهم قالوا: كيف تكون في النار شجرةٌ وهي تَحرِق الشجر؟ وقد مضَى هذا المعنى في «سبحان»[2]. واستخفافُهم في هذا كقولهم في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠]: ما الذي يُخصِّص هذا العَدَد؟ حتى قال بعضُهم: أنا أكفيكم منهم كذا، فاكفُوني الباقين[3]. فقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [المدثر: ٣١] والفتنة الاختبار، وكان هذا القولُ منهم جهلاً، إذ لا يستحيل في العقل أن يخلُقَ اللهُ في النار شجراً من جنسها لا تأكلُه النار، كما يخلقُ اللهُ فيها الأغلالَ والقيود والحياتِ والعقاربَ وخَزَنَةَ النار.

وقيل: هذا الاستبعاد الذي وقع للكفار هو الذي وقع الآن للملحدة، حتى حملوا الجنةَ والنار على نعيم أو عقاب تتخلَّله الأرواح، وحملوا وزنَ الأعمال والصراط واللوح والقلم على معانٍ زوَّروها في أنفسهم، دون ما فَهِمه المسلمون من موارد

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٥٠ - ٥١ . وخبر أبي جهل أخرجه الطبري ١٩/ ٥٥٢ عن السدي، وسلف قوله وقول ابن الزبعرى ١٣/ ١١١-١١٢ .

(٢) ١٣/ ١١١ .

(٣) هو أبو الأشدّ الجمحي، وسيأتي خبره في تفسير الآية (٣٠) من سورة المدثر.

الشَّرع، وإذا ورد خبرُ الصادق بشيء موهوم في العقل، فالواجب تصديقُه وإن جاز أن يكون له تأويل، ثم التأويل في موضع إجماع المسلمين على أنه تأويلٌ باطلٌ لا يجوز، والمسلمون مُجمعون على الأَخْذِ بهذه الأشياء من غير مصير إلى علم الباطن وقيل: إنها فتنة، أي: عقوبة للظالمين؛ كما قال: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات: ١٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: قَعْر النار، ومنها منشؤها، ثم هي متفرِّغة في جهنم(١). ﴿طَلْعُهَا﴾ أي: ثمرها؛ سُمِّي طَلْعاً لِطلوعه ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ قيل: يعني: الشياطين بأعيانهم، شَبَّهها برؤوسهم لِقُبْحِهم، ورؤوس الشياطين متصوَّر في النفوس وإن كان غيرَ مرئيّ. ومن ذلك قولهم لكل قبيح: هو كصورة الشيطان، ولكلِّ صورة حسنة: هي كصورة مَلَك. ومنه قوله تعالى مُخبراً عن صَواحب يوسف: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١] وهذا تشبيهٌ تخييلي؛ رُوي معناه عن ابن عباس والقُرَظي(٢). ومنه قول امرئ القيس:

ومَسْنُونةٌ زُرْقٌ كأنيابِ أغْوَالِ(٣)

وإن كانت الغولُ لا تُعرَف؛ ولكن لِمَا تصوَّر من قُبحها في النفوس(٤). وقد قال الله تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] فمردةُ الإنس شياطينُ مرئية. وفي الحديث الصحيح: «ولَكأنَّ نَخْلها رؤوس الشياطين»(٥) وقد ادَّعى كثيرٌ من العرب رؤيةَ الشياطين والغيلان.

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٦٣ عن الحسن بنحوه.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٩ بنحوه.

(٣) ديوان امرئ القيس ص ٣٣، وصدره: أَيَقتُلني والمَشْرَفيُّ مُضاجِعي. قال شارحه: المَشْرَفي: سيف نسب إلى قرى بالشام يقال لها: المشارف. وأراد بالمسنونة الزُّرق: سهاماً محدَّدة الأزجَّة صافية، شبَّهها بأنياب الأغوال تشنيعاً لها.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥١ - ٥٢ بنحوه.

(٥) قطعة من حديث سِحْر النبي ﷺ أخرجه أحمد (٢٤٣٠٠)، والبخاري (٥٧٦٦)، ومسلم (٢١٨٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقال الزجاج والفرّاء[١]: الشياطين حياتٌ لها رؤوس وأعراف، وهي من أقبح الحيَّات وأخبثها وأخفِّها جسماً. قال الراجز وقد شبَّه المرأة بحية لها عُرْف:

عَـنْـجَـرِدٌ تَـحْـلِـفُ حـيـن أحـلِـف كـمـثـلِ شـيـطـانِ الـحَـمَـاطِ أعْـرَفُ

الواحدة حَمَاطة[٢]. والأعرف: الذي له عُرْف.

وقال الشاعر يَصِفُ ناقته:

تُـلاعِـبُ مَـثْـنَـى حَـضْـرَمِـيٍّ كـأنَّـه تَـعَـمُّـجُ شـيـطـان بـذي خِـرْوَعٍ قَـفْـرِ

التَّعَمُّج: الاعوجاج في السَّير. وسهم عَمُوج: يتلوَّى في ذهابه. وتَعمَّجَتِ الحية: إذا تلوَّتْ في سَيْرها. وقال يَصِفُ زِمام الناقة:

تُـلاعِـبُ مَـثْـنَـى حَـضْـرَمِـيٍّ كـأنـه تَـعَـمُّـجُ شـيـطـانٍ بـذي خِـرْوَعٍ قَـفْـرِ[٣]

وقيل: إنما شبه ذلك بِنَبْتٍ قبيح في اليمن يقال له: الأَسْتَن والشيطان. قال النحاس[٤]: وليس ذلك معروفاً عند العرب. الزمخشري[٥]: هو شجرٌ خَشِنٌ مُنتِنٌ مُرٌّ مُنكَر الصورة يُسمَّى ثمره رؤوسَ الشياطين. النحاس[٦]: وقيل: الشياطين ضربٌ من الحيات قِباح.

﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ فهذا طعامُهم وفاكهتهم بدل رِزْق أهل الجنة. وقال في «الغاشية»: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الآية: ٦] وسيأتي.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ أي: بعد الأكل من الشجرة ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ الشَّوب

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٠٦، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٣٨٧.

(٢) الصحاح (حمط)، والرجز فيه وفي معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٨٧، وتفسير الطبري ١٩/ ٥٥٤ دون نسبة. وامرأة عَنْجَرِدٌ: خبيثة سيئة الخُلق. اللسان (عنجرد). والحَمَاط: شجر شبيهٌ بالتين أحبُّ شجر إلى الحيَّات. القاموس (حمط).

(٣) الصحاح (عمج)، والبيت فيه دون نسبة، ونسبه الجاحظ في الحيوان ٤/ ١٣٣ لطرفة.

(٤) في معاني القرآن ٦/ ٣٤، وما قبله منه.

(٥) في الكشاف ٣/ ٣٤٢.

(٦) في معاني القرآن ٦/ ٣٥.

الخلط، والشَّوْب والشُّوب لغتان[١]، كالفَقْر والفُقْر، والفتح أشهر. قال الفراء[٢]: شابَ طعامَه وشرابَه إذا خلطَهما بشيء، يشوبهما شَوْباً وشيابة. فأخبر أنه يُشاب لهم. والحميم: الماءُ الحار، ليكونَ أشنع؛ قال الله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

السّدي: يُشاب لهم الحميم بغسّاق أعينهم وصديدٍ من قيحهم ودمائهم[٣]. وقيل: يُمزَج لهم الزقُّوم بالحميم ليجمع لهم بين مرارةِ الزقُّوم وحرارةِ الحميم؛ تغليظاً لِعذابهم وتجديداً[٤] لبلائهم.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ قيل: إنَّ هذا يدلُّ على أنهم كانوا حين أكلوا الزقُّوم في عذابٍ في غيرِ النار، ثم يُرَدُّون إليها. وقال مقاتل: الحميم خارجُ الجحيم، فهم يُوردون الحميم لِشُربه، ثم يُرَدُّون إلى الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ . يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٣-٤٤].

وقرأ ابن مسعود: «ثُمَّ إِنَّ مُنْقَلَبَهُم لإلى الجحيم»[٥] وقال أبو عُبيدة: يجوز أن تكون «ثم» بمعنى الواو. القشيري: ولعلَّ الحميمَ في موضع من جهنم على طَرَفٍ منها.

**قوله تعالى:** ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾ أي: صادفوهم كذلك فاقتَدَوا بهم ﴿فَهُمْ

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٠٧، وقال: الشَّوب المصدر، والشُّوب الاسم.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٥.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٥٥ عن ابن زيد.

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٥٢ (والكلام منه): وتشديداً.

(٥) تفسير الطبري ١٩/ ٥٥٦، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٧٦، وتفسير البغوي ٤/ ٢٩.

﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ أي: يُسرعون؛ عن قتادة. وقال مجاهد: كهيئة الهرولة[١]. قال الفراء[٢]: الإهراعُ الإسراع برِعْدة. وقال أبو عُبيدة[٣]: «يُهْرَعُونَ» يُستحَثُّون من خلْفهم. ونحوه قول المبرّد. قال: المُهرَع المُستحثّ؛ يقال: جاء فلان يُهْرَع إلى النار إذا استحثَّه البردُ إليها[٤]. وقيل: يُزعَجون من شِدَّة الإسراع؛ قاله الفضل[٥]. الزجاج[٦]: يقال: هُرِع وأُهْرِع، إذا استحثَّ وأزعج.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: من الأمم الماضية. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ أي: رُسُلاً أنذروهم العذاب فكفروا. ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: آخر أمرهم. ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي: الذين استخلصهم اللهُ من الكفر. وقد تقدَّم[٧]. ثم قيل: هو استثناء من «المُنْذَرِينَ». وقيل: هو من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[٨].

**قوله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ۝٧٥ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٦ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝٧٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨١ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝٨٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ من النداء الذي هو الاستغاثة؛ ودعا، قيل: بمسألة هلاك قومه. فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[٩] [نوح:٢٦].

(١) أخرجهما الطبري ١٩/ ٥٥٧.
(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٥.
(٣) في مجاز القرآن ٢/ ١٧١.
(٤) إعراب القرآن ٣/ ٤٢٥.
(٥) ذكره النحاس في معاني القرآن ٦/ ٣٦ دون نسبة.
(٦) في معاني القرآن ٤/ ٣٠٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٦.
(٧) ١١/ ٣١٨ و١٢/ ٢١٢.
(٨) تفسير الرازي ٢٦/ ١٤٥.
(٩) تفسير الطبري ١٩/ ٥٥٩.

﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ قال الكسائي: أي: فَلَنِعْمَ المُجِيبُونَ له كنّا[١]. ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ يعني أهلَ دِينه؛ وهم مَن آمن معه؛ وكانوا ثمانين على ما تقدَّم[٢]. ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وهو الغَرَق.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ قال ابن عباس: لمَّا خرج نوحٌ من السفينة مات مَن معه من الرجال والنساء إلا ولدَه ونساءه؛ فذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾[٣]. وقال سعيد بن المسيَّب: كان ولد نوح ثلاثة، والناس كلُّهم من ولد نوح: فسام أبو العرب وفارس والروم واليهود والنصارى. وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب: السِّند والهند والنوب والزنج والحبشة والقِبط والبربر وغيرهم. ويافث أبو الصقالبة والترك والأبر[٤] والخزر ويأجوج ومأجوج وما هنالك. وقال قوم: كان لغير ولد نوح أيضاً نسل[٥]؛ بدليل قوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء:٣]. وقوله: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود:٤٨] فعلى هذا معنى الآية: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ دون ذرية مَن كفَر؛ فإنَّا أغْرقنا أولئك.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ أي: تركنا عليه ثناءً حسناً في كل أمة، فإنه مُحبَّب إلى الجميع؛ حتى إنَّ في المجوس من يقول: إنه أفريدون[٦]. رُوي معناه عن مجاهد وغيره.

وزعم الكسائي أن فيه تقديرين: أحدهما: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ يقال: ﴿سَلَٰمٌ

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٦.

(٢) ١١/ ١١٧.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٥٣، والبغوي في تفسيره ٤/ ٣٠.

(٤) كذا في النسخ: الأبر، ولم نقف على من ذكر أُمة بهذا الاسم من أبناء يافث. وقول سعيد بن المسيَّب هذا ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٣٠.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٧٧ بمعناه، وقال ابن عطية: والأول أشهر عند علماء الأمة.

(٦) نسبه الطبري في تاريخه ١/ ٢١١ لبعض نسابي الفرس.

عَلَىٰ نُوحٍ﴾ أي: تركنا عليه هذا الثناء الحسن. وهذا مذهب أبي العباس المبرّد[١]. أي: تركنا عليه هذه الكلمة باقية؛ يعني: يُسلِّمون عليه تسليماً ويدعون له؛ وهو من الكلام المَحْكي؛ كقوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ [النور: ١][٢].

والقول الآخر: أن يكون المعنى: وأبقينا عليه؛ وتمَّ الكلام، ثم ابتدأ فقال: «سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ» أي: سلامة له من أن يُذكر بسوء «في الآخرِين». قال الكسائي: وفي قراءة ابن مسعود: «سلاماً» منصوب بـ«تركنا» أي: تركنا عليه ثناءً حسناً سلاماً[٣].

وقيل: «فِي الآخِرِينَ» أي: في أمة محمد ﷺ[٤]. وقيل: في الأنبياء إذْ لم يُبعث بعده نبيٌّ إلا أُمر بالاقتداء به؛ قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣].

وقال سعيد بن المسيَّب: وبلغني أنه مَن قال حين يُمسي: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى الْعَٰلَمِينَ﴾ لم تَلْدغه عقرب. ذكره أبو عمر في «التمهيد»[٥]. وفي «الموطأ»: عن خولة بنت حكيم أن رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ نزلَ مَنزِلاً فليقل: أعوذُ بكلمات الله التامَّاتِ مِن شرِّ ما خَلَقَ، فإنه لن يضرَّه شيء حتى يَرتَحِلَ»[٦]. وفيه: عن أبي هريرة أن رجلاً مِن أسلم قال: ما نمتُ هذه الليلة؛ فقال رسول الله ﷺ: «مِن أيّ شيء» فقال: لَدغتني عقرب؛ فقال رسولُ الله ﷺ: «أَمَا إنَّك لو قلتَ حين أمسيتَ: أعوذُ بكلماتِ الله التامّات من شرِّ ما خَلَق لم تضرَّك»[٧].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٧.

(٢) يعني كقولك: قرأت: «سورةٌ أنزلناها». الكشاف ٣/ ٣٤٣، والدر المصون ٩/ ٣١٧.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٧، وقراءة ابن مسعود ﷺ ذكرها أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٧٧.

(٤) مجمع البيان ٢٣/ ٦٥.

(٥) ٢١/ ٢٤١.

(٦) الموطأ ٢/ ٩٧٨، وأخرجه أحمد (٢٧١٢٢)، ومسلم (٢٧٠٨).

(٧) الموطأ ٢/ ٩٥١، وأخرجه أحمد (٨٨٨٠)، ومسلم (٢٧٠٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: نُبقي عليهم الثَّناء الحسن. والكاف في موضع نصب؛ أي: جزاء كذلك. ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا بيانُ إحسانه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ أي: مَن كَفر. وجمعه آخر[1]. والأصلُ فيه أن يكون معه «مِن» إلا أنها حُذفت؛ لأن المعنى معروف، ولا يكون آخر إلا وقبلَه شيء من جِنسه. و«ثمّ» ليس للتراخي هاهنا، بل هو لتعديد النِّعم؛ كقوله: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد:١٦-١٧] أي: ثم أُخبركم أني قد أغرقتُ الآخرين، وهم الذين تأخَّروا عن الإيمان.

**قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ قال ابن عباس: أي: من أهل دينه. وقال مجاهد: أي: على مِنهاجه وسُنَّته[2]. قال الأصمعي: الشِّيعة الأعوان، وهو مأخوذٌ من الشِّياع، وهو الحَطبُ الصِّغار الذي يُوقَد مع الكبار حتى يستوقد. وقال الكلبي والفراء[3]: المعنى: وإنَّ من شيعة محمد لإبراهيم. فالهاء في «شيعته» على هذا لمحمد عليه الصلاة والسلام[4]. وعلى الأوّل لنوح، وهو أظهرُ؛ لأنه هو المذكور أوّلاً، وما كان بين نوح وإبراهيم إلا نبيَّان: هود وصالح، وكان بين نوح وإبراهيمَ ألفان وستُّ مئة وأربعون سنة؛ حكاه الزمخشري[5].

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي: مُخلص من الشِّرك والشَّك. وقال

(١) كذا في النسخ، والصواب: الآخَرين جمع آخَر. والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٧ .
(٢) أخرجهما الطبري ١٩/ ٥٦٤ .
(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٥٤ ، وما قبله منه.
(٤) قال الشوكاني في فتح القدير ٤/ ٤٠١ : ولايخفى ما في هذا من الضعف والمخالفة للسياق.
(٥) في الكشاف ٣/ ٣٤٤.

عوف الأعرابي: سألتُ محمد بن سيرين: ما القلب السليم؟ فقال: الناصحُ لله عز وجل في خلقه[١].

وذكر الطبري عن غالب القطّان وعوف وغيرهما عن محمد بن سيرين أنه كان يقول للحجّاج: مسكين أبو محمد، إن عذّبه الله فبذنبه، وإنْ غَفَرَ له فهنيئاً له، وإن كان قلبه سليماً فقد أصاب الذنوبَ من هو خير منه. قال عوف: فقلتُ لمحمد: ما القلب السليم؟ قال: أن يعلمَ أن الله حقٌّ، وأن الساعةَ قائمة، وأن الله يبعثُ مَن في القبور[٢]. وقال هشام بن عروة: كان أبي يقول لنا: يا بَنيّ، لا تكونوا لَعَّانِين، ألم تَرَوْا إلى إبراهيم لم يلعن شيئاً قطّ، فقال تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٣].

ويَحتمِل مجيئه إلى ربّه وجهين: أحدهما عند دعائه إلى توحيده وطاعته، الثاني: عند إلقائه في النار[٤].

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ وهو آزر، وقد مضى الكلام فيه[٥]. ﴿وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ تكون «ما» في موضع رفع بالابتداء و«ذا» خبره. ويجوز أن تكون «ما» و«ذا» في موضع نصب بـ «تعبدون». ﴿أَئِفْكًا﴾ نصب على المفعول به؛ بمعنى: أتُريدون إفكاً. قال المبرّد: والإفك أسوأُ الكذب، وهو الذي لا يثبتُ ويضطرب، ومنه ائتفكَتْ بهم الأرض. ﴿ءَالِهَةً﴾ بدل من إفك[٦].

﴿دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ أي: تعبدون. ويجوز أن يكون حالاً بمعنى: أتريدون آلهةً من دون الله آفكين[٧]. ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: ما ظنُّكم به إذا لَقِيتموه وقد عَبَدْتم

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٧.
(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٢/ ١٩٠.
(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٦٥.
(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٥.
(٥) ٨/ ٤٣٢ وما بعدها.
(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٨.
(٧) الكشاف ٣/ ٣٤٤.

غيره[١]؟ فهو تحذير، مثل قوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] وقيل: المعنى: أي شيء توهَّمتموه[٢] حتى أشركتم به غيره؟.

قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ قال ابن زيد عن أبيه: أَرسل إليه مَلِكُهم: إنَّ غداً عيدُنا فاخرُج معنا، فنظر إلى نجم طالع فقال: إنَّ هذا يطلُع مع سقمي[٣].

وكان علمُ النجوم مستعملاً عندهم منظوراً فيه، فأَوهمهم هو من تلك الجِهة، وأَراهم من مُعتقدهم عُذراً لنفسه؛ وذلك أنهم كانوا أهلَ رِعاية وفلاحة، وهاتان المعيشتان يُحتاج فيهما إلى نظرٍ في النجوم[٤].

وقال ابن عباس: كان علمُ النجوم من النبوّة، فلما حَبَسَ الله تعالى الشمسَ على يوشع بن نون أَبطل ذلك، فكان نظرُ إبراهيم فيها علماً نبويّاً. وحكى جُوَيبر عن الضحاك: كان عِلمُ النجوم باقياً إلى زمن عيسى عليه السلام، حتى دخلوا عليه في موضع لا يطلُع عليه منه، فقالت لهم مريم: من أين عَلِمتم بموضعه؟ قالوا: من النجوم. فدعا ربَّه عند ذلك فقال: اللهم لا تُفهمهم في عِلْمها، فلا يعلم علمَ النجوم أحدٌ؛ فصار حكمها في الشَّرع محظوراً، وعِلْمها في الناس مجهولاً.

قال الكلبي: وكانوا في قرية بين البصرة والكوفة يقال لها: هرمزجرد، وكانوا ينظرون في النجوم[٥]. فهذا قول.

وقال الحسن: المعنى: أنهم لما كلَّفوه الخُروجَ معهم تفكَّر فيما يعمل. فالمعنى على هذا: أنه نظرَ فيما نَجَمَ له من الرأي، أي: فيما طَلَع له منه، فعلم أن كلَّ حيٍّ

---

(١) تفسير الطبري ١٩/٥٦٦.

(٢) في (خ) و(ظ): توهموه، وفي (م): أوهمتموه، والمثبت من (د) و(ز) و(ف).

(٣) أخرجه الطبري ١٩/٥٦٧.

(٤) المحرر الوجيز ٤/٤٧٨.

(٥) قول ابن عباس رضي الله عنهما وقول الضحاك وقول الكلبي في النكت والعيون ٥/٥٥ - ٥٦.

يَسْقَم فقال: «إِنِّي سَقِيم»[١].

الخليل والمبرّد: يقال للرجل إذا فكَّر في الشيء يدبِّره: نظرَ في النجوم. وقيل: كانت الساعةُ التي دَعَوْه إلى الخروج معهم فيها ساعةً تغشاه فها الحُمَّى. وقيل: المعنى: فنظر فيما نَجَمَ من الأشياء، فعلم أنَّ لها خالقاً ومُدبِّراً، وأنه يتغير كتغيرها فقال: «إِنِّي سَقِيمٌ»[٢]. وقال الضحاك: معنى «سَقِيمٌ»: سَأَسْقَم سَقَم الموت؛ لأنَّ من كُتب عليه الموت يَسْقَم في الغالب، ثم يموت، وهذا توريةٌ وتعريضٌ[٣]؛ كما قال للمَلِك لما سأله عن سارَّة: هي أختي؛ يعني أُخوَّةَ الدين[٤]. وقال ابن عباس وابن جُبير والضحاك أيضاً: أشار لهم إلى مرضٍ وسَقَمٍ يُعدي كالطاعون، وكانو يهربون من الطاعون[٥]، فلذلك «تَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ» أي: فارّين منه خوفاً من العَدْوى.

وروى الترمذيّ الحكيم قال: حدثنا أبي قال: حدثنا عمرو بن حماد، عن أسباط، عن السّديّ، عن أبي مالك وأبي صالح، عن ابن عباس، وعن سَمُرةَ عن الهَمْداني، عن ابن مسعود قال: قال أبو إبراهيم: إنَّ لنا عيداً، لو خرجتَ معنا لأَعجبكَ دِينُنا. فلما كان يومُ العيد خرجوا إليه وخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى بنفسه، وقال: إني سقيمٌ أشتكي رجلي، فوطئوا رِجْلَه وهو صريعٌ، فلما مضَوا نادى في آخرهم: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾. قال أبو عبد الله: وهذا ليس بمعارِضٍ لما قال ابن عباس وابن جُبير؛ لأنه يَحتمِل أن يكون قد اجتمع له أمران.

قلت: وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «لم يكذبْ إبراهيمُ النبيُّ عليه السلام إلا ثلاثَ كَذَبات» الحديث. وقد مضى في سورة «الأنبياء»[٦]. وهو يدلُّ على أنه لم يكن

(١) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٠.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤١.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٨ بنحوه.

(٤) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١) من حديث أبي هريرة ﷺ وأوله: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات..» وسلف ١٤/ ٢٢٢.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٦٧ عن ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك بنحوه.

(٦) ١٤/ ٢٢٢، وينظر التعليق قبل السابق.

سقيماً، وإنما عَرَّضَ لهم. وقد قال جلّ وعزّ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. فالمعنى: إني سقيمٌ فيما أستقبل، فتوهَّموا هم أنه سقيمٌ الساعة. وهذا من مَعاريض الكلام على ما ذكرنا[١]، ومنه المثل السائر: «كَفَى بالسلامة داءً»[٢]، وقول لَبيد:

فدعوتُ ربِّي بالسَّلامةِ جاهِداً ... لِيُصحَّنِي فإذا السَّلامَةُ داءُ[٣]

وقد مات رجلٌ فجأة فالتفَّ عليه الناس فقالوا: مات وهو صحيح، فقال أعرابي: أصحيح مَنِ الموت في عنقه[٤]؟.

فإبراهيمُ صادق، لكن لما كان الأنبياءُ لِقُرب محلّهم واصطفائهم عُدَّ هذا ذنباً؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢] وقد مضى هذا كلُّه مبيَّناً، والحمد لله.

وقيل: أراد: سقيم النفس لِكُفرهم[٥].

والنجوم يكون جمع نَجْم، ويكون واحداً مصدراً[٦].

**قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ ءَالِهَتِهِمْ﴾ قال السّدي: ذهبَ إليهم. وقال أبو مالك: جاء

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٨.

(٢) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٤٠٩) من حديث أنس ﷺ.

(٣) لم نقف عليه في ديوان لبيد، وقد نسبه له الزمخشري في الكشاف (والكلام منه) ٣/ ٣٤٤، ونسبه القيرواني في زهر الآداب ١/ ٢٢٣ لعمرو بن قميئة، ونسبه البغدادي في الخزانة ٢/ ٢١٧ لبعض شعراء الجاهلية.

(٤) الكشاف ٣/ ٣٤٤.

(٥) المصدر السابق.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٨.

إليهم. وقال قتادة: مال إليهم. وقال الكلبي: أقبل عليهم. وقيل: عَدَل[١]. والمعنى مُتقارب. فراغ يَرُوغ رَوْغاً ورَوَغاناً، إذا مال. وطريقٌ رائغ، أي: مائل[٢]. وقال الشاعر:

ويُريكَ مِن طَرَفِ اللسانِ حَلَاوةً ... ويَروغ عنك كما يَرُوغ الثعلبُ[٣]

فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ فخاطَبها كما يُخاطب مَن يعقِل؛ لأنهم أنزلوها بتلك المنزلة. وكذا ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾[٤].

قيل: كان بين يدي الأصنام طعامٌ تركوه ليأكلوه إذا رجَعوا من العيد، وإنما تركوه لِتُصيبه بركةُ أصنامهم بزعمهم[٥]. وقيل: تركوه لِلسَّدَنة. وقيل: قرَّب هو إليها طعاماً على جهة الاستهزاء؛ فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾[٦].

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ خصَّ الضَّرب باليمين لأنها أقوى والضربُ بها أشدُّ؛ قاله الضحاك والربيع بن أنس. وقيل: المراد باليمين اليمين التي حَلَفها حين قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾[٧].

وقال الفراء وثعلب: ضرباً بالقوة، واليمين القوة[٨].

وقيل: بالعَدْل، واليمين هاهنا العَدْل. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٥] أي: بالعَدْل، فالعَدْل لليمين؛ والجَوْر للشمال. ألا

---

(١) هذه الأقوال في معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٢ - ٤٣ ، والنكت والعيون ٥/ ٥٧ ، وقولا السدي وقتادة أخرجهما الطبري ١٩/ ٥٧٠ .

(٢) الصحاح (روغ).

(٣) لم نهتد إلى قائله.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٩ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٥٧ .

(٦) تفسير الطبري ١٩/ ٥٧٠ - ٥٧١ بنحوه.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٥٧ ، ومجمع البيان ٢٣/ ٦٩ .

(٨) قول الفراء في زاد المسير ٧/ ٦٩ ، وقول ثعلب في النكت والعيون ٥/ ٥٧ .

ترى أن العدوَّ عن الشمال، والمعاصي عن الشمال، والطاعة عن اليمين؛ ولذلك قال: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات:٢٨] أي: من قِبل الطاعة .فاليمينُ هو موضع العَدْل من المسلم، والشِّمال موضع الجَوْر. ألا ترى أنه بايع اللهَ بيمينه يومَ المِيثاق، فالبيعةُ باليمين؛ فلذلك يُعطَى كتابَه غداً بيمينه؛ لأنه وفَّى بالبيعة، ويُعطَى الناكثُ للبيعة الهاربُ برقبته من الله بشماله؛ لأنَّ الجَوْرَ هناك. فقوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ﴾ أي: بذلك العَدْل الذي كان بايعَ اللهَ عليه يومَ الميثاق، ثم وفَّى له هاهنا. فجعل تلك الأوثان جُذاذاً، أي: فُتاتاً كالجَذِيدة،وهي السَّوِيق، وليس من قَبيل القوة؛ قاله الترمذي الحكيم .

﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ قرأ حمزة: «يُزِفُّونَ» بضم الياء. الباقون بفتحها(١). أي: يُسرعون؛ قاله ابن زيد(٢). قتادة والسُّدي: يَمشون(٣). وقيل: المعنى: يمشون بجمعهم على مَهَل آمنين أن يُصيب أحدٌ آلهتَهم بسوء. وقيل: المعنى: يتسلَّلون تسلُّلاً بين المَشْي والعَدْو؛ ومنه زَفِيف النَّعامة. وقال الضحاك: يسعَوْن. وحكى يحيى بن سلَّام: يُرْعَدون غَضَباً. وقيل: يختالون، وهو مشيُ الخُيَلاء؛ قاله مجاهد. ومنه أُخِذَ زِفاف العروس إلى زوجها(٤). وقال الفرزدق:

وجاء قَرِيعُ الشَّوْلِ قبلَ إفالِها يَزِفُّ وجاءتْ خَلْفَه وهي زُفَّفُ(٥)

ومن قرأ: «يُزِفُّون» فمعناه: يُزِفُّون غيرهم، أي: يَحملونهم على التزفيف. وعلى هذا فالمفعول محذوف. قال الأصمعي: أزففت الإبل، أي: حملتُها على أن تَزِفَّ(٦). وقيل: هما لغتان، يقال: زَفَّ القوم وأزفُّوا .

---

(١) السبعة ص ٥٤٨ ، والتيسير ص ١٨٦ .

(٢) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٢٣/ ٦٩ .

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٧٤ عن السدي، وذكره النحاس في معاني القرآن ٦/ ٤٤ عن قتادة.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٧ .

(٥) ديوان الفرزدق ص٢٧ ، وفيه: وراحت، بدل: وجاءت.

(٦) الحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ٥٧، والكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢٢٥ .

وزَفَفتُ العروسَ وأَزففتها وازدففتها بمعنًى، والمِزفّة: المِحَفّة التي تُزَفُّ فيها العروس؛ حُكي ذلك عن الخليل[١].

النحاس[٢]: «يُزِفُّون» بضم الياء. زعم أبو حاتم أنه لا يعرف هذه اللغة، وقد عَرَفَها جماعةٌ من العلماء منهم الفراء[٣] وشبَّهها بقولهم: أطردتُ الرجل، أي: صيَّرته إلى ذلك. وطردته نَحَّيته؛ وأنشد هو وغيره:

تَـمَـنَّـى حُـصَـيـنٌ أن يَـسـودَ جِـذَاعَـهُ ... فـأمـسـى حُـصَـيـنٌ قـد أَذَلَّ وأَقـهَـرا[٤]

أي: صُيِّر إلى ذلك؛ فكذلك «يُزِفُّون» يَصيرون على الزفيف. قال محمد بن يزيد: الزفيف الإسراع. وقال أبو إسحاق[٥]: الزفيفُ أول عَدْو النَّعام. وقال أبو حاتم: وزعم الكسائي أن قوماً قرؤوا: «فَأَقْبَلُوا إليه يَزِفُونَ»[٦] خفيفة؛ من وَزَف يَزِف، مثل: وَزَن يَزِن.

قال النحاس[٧]: فهذه حكايةُ أبي حاتم، وأبو حاتم لم يسمع من الكسائي شيئاً. وروى الفراء[٨] ـ وهو صاحبُ الكسائي ـ عن الكسائي أنه لا يعرف «يَزِفُون» مخفَّفة.

---

(١) الصحاح (زفف).

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٩.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٩.

(٤) البيت للمخبَّل السعدي يهجو به الزِّبرقان بن بدر ـ وهو حصين المذكور في البيت ـ وهو في أدب الكاتب ص٤٤٧، والخزانة ٨/ ١٠١. والجِذاع: هم رهط حُصين. وهذه رواية الأصمعي للبيت ويروى: أُذِلَّ وأُقهِرا، بالبناء للمجول. ينظر الاقتضاب في شرح أدب الكاتب ٣/ ٢٨٠.

(٥) هو الزجاج، وقوله في معاني القرآن ٤/ ٣٠٩، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٩، وما قبله وما بعده منه.

(٦) قرأ بها عبد الله بن يزيد كما سيأتي عند المصنف، وذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٢١، وزاد أبو حيان في البحر ٧/ ٣٦٦ نسبتها لمجاهد والضحاك ويحيى بن عبد الرحمن المقرئ وابن أبي عبلة.

(٧) في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٩.

(٨) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٩.

قال الفراء: وأنا لا أعرفُها. قال أبو إسحاق[١]: وقد عَرَفَها غيرهما [أنه يقال] وَزَف يَزِف إذا أسرعَ. قال النحاس: ولا نعلم أحداً قرأ: «يَزِفُون».

قلت: هي قراءةُ عبد الله بن يزيد فيما ذكر المهدوي.

الزمخشري[٢]: و«يُزَفُّون» على البناء للمفعول. و«يَزْفُونَ» من زَفاه إذا حَداه؛ كأنَّ بعضَهم يزفو بعضاً لِتسارعهم إليه.

وذكر الثعلبي عن الحسن ومجاهد وابن السَّمَيْفع: «يَرفون» بالراء [من] رفيف النعام، وهو ركضٌ بين المَشْي والطيران.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ فيه حذف؛ أي: قالوا: مَن فَعل هذا بآلهتنا؟ فقال مُحتجّاً: «أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتونَ» أي: أتعبدون أصناماً أنتم تَنْحِتونها بأيديكم تَنْجُرُونها. والنَّحْت: النَّجْر والبَرْي؛ نَحَته يَنْحِتُه ـ بالكسر ـ نحتاً، أي: بَراه. والنُّحَاتةُ البُرَاية، والمِنْحَت: ما يُنْحَتُ به[٣].

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ «ما» في موضع نصب، أي: وخلق ما تعملونه من الأصنام[٤]، يعني الخشب والحجارة وغيرهما كقوله ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ [الأنبياء: ٥٦].

وقيل: إن «ما» استفهام، ومعناه: التحقير لِعملهم. وقيل: هي نَفْي، والمعنى: وما تعملون ذلك، لكنَّ اللهَ خالقُه. والأحسنُ أن تكون «ما» مع الفعل مصدراً، والتقديرُ: والله خَلَقَكم وعملكم[٥].

وهذا مذهبُ أهل السنة: أنَّ الأفعالَ خلقٌ لله عز وجل واكتسابٌ للعباد. وفي هذا إبطالُ

(١) هو الزجاج، وقوله في معاني القرآن ٤/ ٣٠٩، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٩ - ٤٣٠، وما بين حاصرتين الآتي منه.

(٢) في الكشاف ٣/ ٣٤٥.

(٣) الصحاح (نحت).

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٠.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٥ - ٤٦.

مذاهب القَدَرية والجَبْرية. وروى أبو هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «إنَّ الله خالقُ كلِّ صانع وصَنْعته» ذكره الثعلبي. وخرَّجه البيهقي من حديث حُذَيفة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ عزّ وجلّ صنعَ كلَّ صانع وصَنْعته»[١] فهو الخالقُ، وهو الصانع سبحانه، وقد بيَّناهما في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[٢].

**قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا﴾ أي: تشاوروا في أمره لمَّا غَلَبهم بالحُجَّة حَسَبَ ما تقدَّم في «الأنبياء» بيانه[٣]. فـ ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا﴾ تملؤونه حَطَباً فَتُضْرِمونه، ثم أَلقوه فيه، وهو الجحيم. قال ابن عباس: بَنَوْا حائطاً من حجارة طوله في السماء ثلاثون ذراعاً، ومَلَؤوه ناراً وطرحوه فيها[٤]. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: فلما صار في البُنيان قال: حسبي الله ونعم الوكيل[٥]. والألف واللام في «الجحيم» تدلُّ على الكناية؛ أي: في جحيمه؛ أي: في جحيم ذلك البُنيان[٦].

وذكر الطبري[٧]: أنَّ قائلَ ذلك اسمه الهيزن[٨]، رجلٌ من أعراب فارس، وهو

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (٣٧)، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد ص ٢٥.

(٢) ص٣٣٤ و٣٤٤.

(٣) ١٤/ ٢٢٦.

(٤) ذكره الرازي في تفسيره ٢٦/ ١٥٠، والطبرسي في مجمع البيان ٢٣/ ٧٠.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٠.

(٦) تفسير الرازي ٢٦/ ١٥٠.

(٧) في تفسيره ١٦/ ٣٠٥، ونقله المصنف عنه بواسطة السهيلي في التعريف والإعلام ص ١٤٦، وقد أخرجه الطبري عن ابن عمر رضي الله عنهما ومجاهد وابن جريج. وسلف ١٤/ ٢٢٦.

(٨) اضطرب رسمها في النسخ، والمثبت من (م)، وتفسير الطبري والتعريف والإعلام. وقال أبو حيان في البحر ٦/ ٣٢٨: وذكروا لهذا القائل اسماً مختلفاً فيه لا يوقف منه على حقيقة لكونه ليس مضبوطاً بالشكل والنقط، وهكذا تقع أسماء كثيرة أعجمية في التفاسير لا يمكن الوقوف منها على حقيقة لفظ لعدم الشكل والنقط.

التُّرك[١]، وهو الذي جاء فيه الحديث: «بينما رجلٌ يمشي في حُلّة له يَتبختَرُ فيها فَخُسِفَ به، فهو يَتجلْجَلُ في الأرض إلى يوم القيامة»[٢]. والله أعلم.

﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا﴾ أي: بإبراهيم. والكَيْد المَكْر؛ أي: احتالوا لإهلاكه ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ المقهورين المغلوبين إذْ نَفَذَتْ حُجَّته من حيث لم يُمكنهم دَفْعها، ولم يَنفُذْ فيه مكرُهم ولا كيدُهم.

**قوله تعالى:** ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

**فيه مسألتان:**

**الأولى:** هذه الآيةُ أصلٌ في الهجرة والعزلة، وأوَّل مَن فَعَلَ ذلك إبراهيمُ عليه السلام، وذلك حين خلَّصه الله من النار قال: «إِنِّي ذَاهِبٌ إِلى رَبِّي» أي: مُهاجر من بلدِ قومي ومولدي إلى حيث أَتمكَّن من عبادة ربي، فإنه «سَيَهْدينِ» فيما نويتُ إلى الصواب. قال مقاتل: هو أوَّلَ مَن هاجر من الخَلْق مع لوط وسارَّة إلى الأرض المقدَّسة، وهي أرضُ الشام. وقيل: ذاهبٌ بعملي وعبادتي، وقلبي ونيَّتي[٣]. فعلى هذا ذهابُه بالعمل لا بالبدن. وقد مضى بيانُ هذا في «الكهف» مستوفىً[٤]. وعلى الأوّل بالمهاجرة إلى الشام وبيت المَقْدس. وقيل: خرج إلى حرَّان، فأقام بها مُدَّة. ثم قيل: قال ذلك لمن فارقه من قومه؛ فيكون ذلك توبيخاً لهم. وقيل: قاله لمن هاجر معه من أهله؛ فيكون ذلك منه ترغيباً.

وقيل: قال هذا قبلَ إلقائه في النار. وفيه على هذا القول تأويلان: أحدهما: إني ذاهبٌ إلى ما قضاه عليَّ ربي. الثاني: إني ميِّت؛ كما يقال لمن مات: قد ذهب إلى

(١) كذا في النسخ والتعريف والإعلام: الترك، وفي المصادر: الكرد، وهو الصواب.
(٢) أخرجه أحمد (٩٣٤٦)، ومسلم (٢٠٨٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٣) النكت والعيون ٥/ ٥٩.
(٤) ١٣/ ٢١٦ وما بعدها.

الله تعالى؛ لأنه عليه السلام تصوَّر أنه يموت بإلقائه في النار، على المعهود من حالها في تَلَفِ ما يُلقى فيها، إلى أن قيل لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا﴾ [الأنبياء: ٦٩] فحينئذ سَلِمَ إبراهيمُ منها.

وفي قوله: «سَيَهْدِينِ» على هذا القول تأويلان: أحدُهما: «سَيَهْدِينِ» إلى الخَلاص منها. الثاني: إلى الجنة[١].

وقال سليمان بن صُرَد ـ وهو ممن أدركَ النبيَّ ﷺ ـ: لما أرادوا إلقاءَ إبراهيم في النار جعلوا يجمعون له الحَطَب؛ فجعلت المرأةُ العجوز تحملُ على ظهرها وتقول: أذهبُ به إلى هذا الذي يذكُر آلهتنا؛ فلما ذُهب به لِيُطرح في النار «قال إِنِّي ذَاهِبٌ إلى رَبِّي»، فلما طُرح في النار قال: «حَسْبِيَ اللَّهُ ونِعْمَ الوَكِيل» فقال الله تعالى: ﴿يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا﴾ [الأنبياء: ٦٩] فقال أبو لوط ـ وكان ابنَ عمِّه ـ: إنَّ النارَ لم تحرِقْه من أجل قَرابته مني. فأرسل اللهُ عُنقاً من النار فأحرقه[٢].

**الثانية**: قول تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ لما عرَّفه اللهُ أنه مُخَلِّصه دعا اللهَ لِيعضُدَه بولدٍ يأنَسُ به في غُرْبته. وقد مضى في «آل عمران» القولُ في هذا[٣]. وفي الكلام حذفٌ؛ أي: هَبْ لي ولداً صالحاً من الصالحين، وحذفُ مثل هذا كثيرٌ.

قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ﴾ أي: إنه يكون حليماً في كِبَره[٤]، فكأنه بُشِّر ببقاء ذلك الولد؛ لأنّ الصغيرَ لا يُوصف بذلك، فكانت البُشرى على ألسنة الملائكةِ كما تقدَّم في «هود»[٥]. ويأتي أيضاً في «الذاريات»[٦].

---

(١) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ٥٩ - ٦٠ .

(٢) أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٤/ ٣٢٢ ، والطبري ١٩/ ٥٧٧ ، وفيه: فقال ابن لوط، أو ابن أخي لوط.

(٣) ٥/ ١١٠ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٠ .

(٥) ١١/ ١٥٧ .

(٦) في تفسير الآية (٢٨).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾

**فيه سبعَ عشرةَ مسألة:**

**الأولى:** قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ أي: فوهبنا له الغلام؛ فلما بلغ معه المبلغ الذي يَسعى مع أبيه في أمور دنياه مُعيناً له على أعماله ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾.

وقال مجاهد: «فلما بلغَ معه السَّعْيَ» أي: شبَّ وأدركَ سَعْيُهُ سَعْيَ إبراهيم[١]. وقال الفراء[٢]: كان يومئذ ابنَ ثلاثَ عشرةَ سنة. وقال ابن عباس: هو الاحتلام[٣]. قتادة: مَشَى مع أبيه. الحسن ومقاتل: هو سعي العقل الذي تقومُ به الحُجَّة. ابن زيد: هو السَّعْي في العبادة. ابن عباس: صام وصلَّى، ألم تسمع اللهَ عزّ وجلّ يقول: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾[٤] [الإسراء: ١٩].

واختلف العلماءُ في المأمور بذبحه. فقال أكثرُهم: الذبيحُ إسحاق. وممن قال بذلك العباسُ بن عبد المطلب وابنه عبد الله[٥]، وهو الصحيحُ عنه. روى الثوريّ

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٧٩.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٩.

(٣) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج الطبري ١٩/ ٥٧٩ عنه قال: السعي العمل.

(٤) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ٦٠، وقولا قتادة وابن زيد أخرجهما الطبري ١٩/ ٥٨٠.

(٥) أخرجه عنهما الطبري ١٩/ ٥٨٨.

وابن جُريج يرفعانه إلى ابن عباس قال: الذبيح إسحاق. وهو الصحيحُ عن عبد الله بن مسعود أن رجلاً قال له: أنا ابن[١] الأشياخِ الكرام. فقال عبد الله: ذلك يوسفُ بن يعقوبَ بنِ إسحاقَ ذبيحِ الله بنِ إبراهيمَ خليلِ الله صلى الله عليهم وسلم.

وقد روى حمّاد بن زيد يرفعه[٢] إلى رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الكريمَ ابنَ الكريمِ ابنِ الكريم ابنِ الكريم يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بن إبراهيم» ﷺ.

وروى أبو الزبير عن جابر قال: الذبيح إسحاق. وذلك مَرويٌّ أيضاً عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. وعن عبد الله بن عمر: أن الذبيحَ إسحاق. وهو قولُ عمر رضي الله عنه.

فهؤلاء سبعةٌ من الصحابة. وقال به من التابعين وغيرهم عَلْقَمة والشَّعبي ومجاهد وسعيد بن جُبير وكعب الأحبار وقتادة ومسروق وعِكرمة والقاسم بن أبي بَزَّة وعطاء ومقاتل وعبد الرحمن بن سابط والزهريّ والسُّدي وعبد الله بن أبي الهُذيل ومالك بن أنس، كلُّهم قالوا: الذبيح إسحاق. وعليه أهلُ الكتابَيْن اليهود والنصارى، واختاره غير واحد، منهم النحاس والطبري وغيرهما[٣]. قال سعيد بن جُبير: أُرِيَ إبراهيمُ ذبحَ إسحاق في المنام، فسار به مَسيرة شهر في غَداة واحدة، حتى أتى به المَنْحر من مِنىً؛ فلما صرف اللهُ عنه الذَّبح وأمره أنْ يَذبحَ الكبشَ فذبحه[٤]، وسار به مسيرةَ شهر في

(١) في (ز) و(ظ): أيا ابن، وفي (د) و(ف) و(م): يا بن. والمثبت المصادر، والخبر أخرجه الطبري ١٩/ ٥٨٩، والطبراني في الكبير (٨٩١٦)، والحاكم ٢/ ٥٧١.

(٢) الكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣١، وفيه: وقد روى حماد بن زيد، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ.. وذكر الحديث ا. هـ. وأخرجه أحمد (٩٣٨٠) من طريق حماد ابن سلمة عن محمد بن عمرو به، ولم نقف على الحديث في المصادر من طريق حماد بن زيد كما ذكر النحاس. وسلف ١١/ ٣٧١.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣١ ـ والكلام السالف منه ـ وتفسير الطبري ١٩/ ٥٩٨، وليس فيهما نسبة القول لعمر رضي الله عنه وقد ذكره عن عمر البغوي في تفسيره ٤/ ٣٢، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٧٢. وقد استبعد الدكتور محمد أبو شهبة في كتابه الإسرائيليات والموضوعات في التفسير ص ٢٥٧ أن يكون عمر رضي الله عنه قال ذلك. قال: وكذلك اختُلف في عليّ رضي الله عنه، فالبغوي على أنه يقول: إسحاق، وابن أبي حاتم [كما في تفسير ابن كثير ٧/ ٣٤] على أنه يقول: إسماعيل.

(٤) كذا في النسخ، ولعل الصواب: أمره أن يذبح الكبش فذبحه، دون واو، ولم ترد لفظة: فذبحه في (ظ). والخبر في تفسير البغوي ٤/ ٣٢ وفيه: فلما أمره الله تعالى بذبح الكبش ذبحه وسار به...

رَوْحة واحدة طُويت له الأودية والجبال. وهذا القولُ أقوى في النَّقل عن النبي ﷺ[١] وعن الصحابة والتابعين[٢].

وقال آخرون: هو إسماعيل. وممن قال ذلك أبو هريرة[٣] وأبو الطُّفيل عامر بن واثله[٤]. ورُوي ذلك عن ابن عمر وابن عباس أيضاً، ومن التابعين سعيدُ بن المسيَّب والشّعبي ويوسف بن مِهْران ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القُرَظيّ والكلبي وعلقمة[٥]. وسُئل أبو سعيد الضَّرير عن الذبيح فأنشد:

إنّ الذبيح هُدِيتَ إسماعيلُ ... نَطقَ الكتابُ بِذاك والتنزيلُ
شرفٌ به خصَّ الإلهُ نبيَّنا ... وأتى به التفسيرُ والتأويلُ
إن كنتَ أُمَّتَه فلا تُنْكِرْ له ... شرفاً به قد خصَّه التفضيل[٦]

وعن الأصمعي قال: سألتُ أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح، فقال: يا أصمعيُّ، أين عَزَب عنك عقلك؟! ومتى كان إسحاق بمكة؟ وإنما كان إسماعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمَنْحر بمكة[٧].

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٨٨ من حديث العباس ﷺ مرفوعاً. قال الحافظ ابن كثير: في إسناده ضعيفان، وهما الحسن بن دينار البصري، متروك، وعلي بن زيد بن جُدعان، منكر الحديث.

(٢) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ٣٢: وهذه الأقوال (يعني الواردة في أن الذبيح إسحاق عليه السلام) والله أعلم كلها مأخوذة عن كعب الأحبار، فإنه لما أسلم.. جعل يحدث عمر ﷺ عن كتبه.. ونقلوا عنه غثَّها وسمينَها، وليس لهذه الأمة حاجة إلى حرف واحد مما عنده.

(٣) ذكره عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٣١.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٩٥.

(٥) هذه الأقوال في تفسير البغوي ٤/ ٣٢، وزاد المسير ٧/ ٧٢ - ٧٣. وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ٣٣: وهو الصحيح المقطوع به. وينظر كتاب الإسرائيليات والموضوعات للدكتور محمد أبو شهبة ص٢٥٢ -٢٦٠.

(٦) ذكر هذه الأبيات الآلوسي في روح المعاني ٢٣/ ١٣٣.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٣٣.

ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنَّ الذبيحَ إسماعيل(١)

والأوّل أكثرُ عن النبي ﷺ وعن أصحابه وعن التابعين .

واحتجُّوا بأنَّ اللهَ عزّ وجلّ قد أخبر عن إبراهيم حين فارق قومَه، فهاجر إلى الشام مع امرأته سارَّة وابن أخيه لوط فقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أنه دعا فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٤٩]؛ ولأنَّ اللّه قال: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ فذكر أن الفداء في الغلام الحليم الذي بُشِّر به إبراهيم، وإنما بُشِّر بإسحاق؛ لأنه قال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾ [الصافات: ١١٢]، وقال هنا: ﴿بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ وذلك قبلَ أن يتزوَّج هاجرَ وقبلَ أن يُولَد له إسماعيل، وليس في القرآن أنه بُشر بولد إلا إسحاق .

احتجَّ من قال: إنه إسماعيل، بأن اللهَ تعالى وصفَه بالصبر دون إسحاق في قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥] وهو صبرُه على الذَّبح، ووصفَه بِصِدْق الوَعْد في قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤]؛ لأنه وعدَ أباه من نفسه الصبرَ على الذَّبح فوفَّى به؛ ولأن الله تعالى قال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا﴾ [الصافات: ١١٢] فكيف يأمرُه بذبحه وقد وعدَه أن يكون نبيّاً، وأيضاً فإنَّ الله تعالى قال: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] فكيف يُؤمَر بذبح إسحاق قبلَ إنجاز الوعد في يعقوب. وأيضاً ورد في الأخبار تعليقُ قَرْن الكبش في الكعبة، فدلَّ على أن الذبيحَ إسماعيل، ولو كان إسحاقَ لكان الذبحُ يقع ببيت المَقْدس(٢) .

وهذا الاستدلال كلُّه ليس بقاطع، أمَّا قولُهم: كيف يأمره بذبحه وقد وعدَه بأنه يكون نبيّاً، فإنه يَحتمِلُ أن يكونَ المعنى: وبشَّرناه بنبوَّته بعد أن كان من أمره ما كان؛

(١) لعله يريد حديث معاوية ﷺ أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا بن الذبيحين.. وهو ضعيف، وسيأتي بتمامه في المسألة السادسة عشرة.

(٢) تفسير الرازي ٢٦/ ١٥٣ - ١٥٥ .

قاله ابن عباس. وسيأتي[١].

ولعلَّه أُمِرَ بذبح إسحاق بعد أن وُلِدَ لإسحاق يعقوب[٢]. أو يقال: لم يَرِدْ في القرآن أن يعقوبَ يُولَد من إسحاق.

وأما قولهم: ولو كان الذبيح إسحاقَ لكان الذبح يقع ببيت المقدس، فالجواب عنه ما قاله سعيد بن جُبير على ما تقدَّم.

وقال الزجاج[٣]: الله أعلمُ أيّهما الذبيح. وهذا مذهبٌ ثالث.

**الثانية**: قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ قال مقاتل: رأى ذلك إبراهيمُ عليه السلام ثلاثَ ليال مُتتابعات[٤]. وقال محمد بن كعب: كانت الرُّسل يأتيهم الوحيُ من الله تعالى أيقاظاً ورُقوداً؛ فإنَّ الأنبياءَ لا تنام قلوبُهم. وهذا ثابتٌ في الخبر المرفوع، قال ﷺ: «إنَّا معاشرَ الأنبياء تنامُ أعينُنا ولا تنامُ قلوبُنا»[٥]. وقال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وَحْيٌ؛ واستدلَّ بهذه الآية[٦].

وقال السّدي: لما بُشِّر إبراهيمُ بإسحاق قبلَ أن يُولَد له قال: هو إذاً لله ذبيح. فقيل له في منامه: قد نذرتَ نذراً فَفِ بنذرك[٧].

---

(١) في المسألة السادسة عشرة.

(٢) الكلام بمعناه في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٢ دون ذكر ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣١١.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٣.

(٥) أخرجه بهذا اللفظ ابن سعد في طبقاته ١/ ١٧١ عن عطاء مرسلاً. وأخرج البخاري (٣٥٧٠) عن أنس بن مالك ﷺ قوله ضمن حديث الإسراء: وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم. وأخرج أحمد (٢٤٠٧٣)، والبخاري (٢٠١٣)، ومسلم (٧٣٨) حديث عائشة رضي الله عنها ولفظه: «يا عائشة، إن عينيَّ تنامان ولا ينام قلبي» وفي الباب عن ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه أحمد (١٩١١)، والبخاري (١٣٨).

(٦) أخرجه ابن ابي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٧/ ٢٨، الطبراني في الكبير (١٢٣٠٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٧٦: رواه الطبراني عن شيخه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم، وهو ضعيف، وبقية رجاله رجال الصحيح. وأخرجه البخاري (١٣٨) من قول عُبيد بن عُمير.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٣٣.

ويقال: إنَّ إبراهيمَ رأى في ليلة التروية كأنَّ قائلاً يقول: إنَّ الله يأمركَ بذبح ابنك؛ فلما أصبحَ رَوَّى في نفسه، أي: فَكَّر؛ أهذا الحُلْم من الله أَمْ من الشيطان؟ فَسُمِّي يومَ التَّرْوية. فلما كانت الليلةُ الثانيةُ رأى ذلك أيضاً، وقيل له: الوعدَ، فلما أصبح عَرَفَ أن ذلك من الله، فَسُمِّيَ يومَ عَرَفة. ثم رأى مثلَه في الليلة الثالثة، فَهمَّ بنحره، فسُمِّي يومَ النَّحر[1]. ورُوي أنه لما ذَبحه قال جبريل: الله أكبرُ، الله أكبر. فقال الذبيح: لا إله إلا الله والله أكبر. فقال إبراهيم: الله أكبرُ والحمدُ لله؛ فبقي سُنَّةً. وقد اختلف الناسُ في وقوع هذا الأمر وهي:

**الثالثة:** فقال أهلُ السنة: إنَّ نفسَ الذَّبح لم يَقَعْ، وإنما وقع الأمرُ بالذبح قبل أن يقعَ الذَّبح، ولو وقع لم يُتصوَّر رَفْعُه، فكان هذا من باب النَّسخ قبل الفعل؛ لأنه لو حصل الفراغُ من امتثال الأمر بالذَّبح ما تحقَّق الفِداء[2]. وقوله تعالى: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّؤْيَآ﴾. أي: حقَّقت ما نبَّهناك عليه، وفعلتَ ما أمكنكَ، ثم امتنعتَ لمَّا منعناك. هذا أصحُّ ما قيل به في هذا الباب.

وقالت طائفة: ليس هذا مما يُنسخ بوجه؛ لأن معنى ذبحت الشيء قطعته. واستدلّ على هذا بقول مجاهد: قال إسحاق لإبراهيم لا تنظر إليَّ فترحمَني، ولكن اجعَلْ وجهيَ إلى الأرض؛ فأخذَ إبراهيمُ السِّكين فأمَرَّها على حَلْقه فانقلبتْ. فقال له: ما لكَ؟ قال: انقلبتِ السِّكين. قال: اطعنّي بها طَعْناً[3].

وقال بعضهم: كان كلما قطعَ جُزءاً اِلْتأم. وقالت طائفة: وجدَ حَلْقه نُحاساً أو مُغشّى بنحاس، وكان كلَّما أراد قطعاً وجدَ منعاً. هذا كلُّه جائزٌ في القُدرة الإلهية، لكنه يفتقرُ إلى نقل صحيح، فإنه أَمْرٌ لا يُدرك بالنَّظر وإنما طريقُه الخبر[4].

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٣٣ بنحوه عن محمد بن إسحاق، وفيه أن هذه القصة جرت مع إسماعيل عليه السلام.

(٢) تفسير الرازي ٢٦/ ١٥٥، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٠٦ بنحوه.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٢.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٠٦.

ولو كان قد جرى ذلك لَبيَّنه اللهُ تعالى تعظيماً لِرُتْبة إسماعيل وإبراهيم صلوات الله عليهما، وكان أولى بالبيان من الفِداء[١].

وقال بعضُهم: إنَّ إبراهيم ما أُمر بالذَّبح الحقيقي الذي هو فَرْيُ الأوداج وإنهارُ الدم، وإنما رأى أنه أَضجعه للذبح فتوهَّم أنه أُمر بالذبح الحقيقي، فلما أتى بما أُمر به من الإضجاع قيل له: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّؤْيَآ﴾.

وهذا كلُّه خارجٌ عن المفهوم. ولا يُظَنُّ بالخليل والذبيح أن يَفهما من هذا الأمر ما ليس له حقيقة حتى يكون منهما التوهُّم. وأيضاً لو صحَّتْ هذه الأشياءُ لما احتيج إلى الفِداء.

**الرابعة**: قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ قرأ أهلُ الكوفة غير عاصم: «ماذا تُرِي» بضم التاء وكسر الراء مِن: أُرِي يُرِي[٢]. قال الفرّاء[٣]: أي: فانظُر ماذا تري من صبرك وجَزَعك. قال الزجاج[٤]: لم يَقُلْ هذا أحدٌ غيره، وإنما قال العلماء: ماذا تُشير؛ أي: ما تُريك نفسُك من الرأي. وأنكر أبو عُبيد «تُرِي» وقال: إنما يكون هذا من رؤية العين خاصة. وكذلك قال أبو حاتم.

النحاس[٥]: وهذا غلطٌ، وهذا يكون من رؤية العين وغيرها، وهو مشهور، يقال: أَريت فلاناً الصواب، وأَريته رُشدَه، وهذا ليس من رؤية العين.

الباقون: «تَرَى» مضارع رَأَيت.

وقد رُوي عن الضحاك والأعمش: «تُرَى» غير مسمى الفاعل[٦]. ولم يقل له ذلك

---

(١) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٥٧.

(٢) السبعة ص ٥٤٨، والتيسير ص ١٨٦.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٣٣.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣١٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٦/ ٤٧.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٤٣٣، وما قبله منه.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٣٣، وزاد المسير ٧/ ٧٥.

على وجه المُؤامرة في أمر الله، وإنما شاوره لِيعلم صبرَه لأمر الله[١]؛ أو لِتقرَّ عينُه إذا رأى من ابنه طاعةً في أمر الله فـ ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي: ما تُؤمر به، فحذفَ الجار كما حذف من قوله:

أَمَرْتُكَ الخيرَ فافعلْ مَا أُمِرتَ بِهِ[٢]

فوصل الفعل إلى الضمير فصار: تُؤمره، ثم حذفت الهاء؛ كقوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩] أي: اصطفاهم على ما تقدَّم. و«ما» بمعنى الذي.

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ قال بعضُ أهل الإشارة: لما استثنى وفَّقه الله للصبر. وقد مضى الكلامُ في «يا أبَتِ» وكذلك في «يا بُنَيَّ» في «يوسف» وغيرها[٣].

**الخامسة**: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ أي: انقادا لأمر الله. وقرأ ابن مسعود وابن عباس وعليٌّ رضوان الله عليهم: «فلمَّا سَلَّما»[٤] أي: فوَّضا أمرَهما إلى الله. وقال ابن عباس: استسلما. وقال قتادة: أسلم أحدُهما نفسَه لله عز وجل وأسلمَ الآخرُ ابنَه[٥].

﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ قال قتادة: كَبَّه وحوَّل وجهَه إلى القِبلة. وجواب «لمَّا» محذوفٌ عند البصريين تقديره: «فلمَّا أسْلَما وَتَلَّهُ للجبين» فديناه بكبش.

وقال الكوفيون: الجوابُ: «نَادَيْنَاهُ» والواو زائدة مُقْحَمة[٦]؛ كقوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ﴾ [يوسف: ١٥] أي: أوحينا. وقوله: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ . وَٱقْتَرَبَ﴾ [الأنبياء: ٩٦-٩٧] أي: اقترب. وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا

(١) المحتسب ٢/ ٢٢٢.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٤٨، والبيت سلف بتمامه ٤/ ١٢٣، واختلف في قائله، وقد بيَّناه ثمة.

(٣) ١١/ ٢٤٥.

(٤) المحتسب ٢/ ٢٢٢.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٨٤.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٣.

﴿جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ﴾ [الزمر: ٧٣] أي: قال لهم. وقال امرؤ القيس:

فلمّا أَجَزْنا ساحةَ الحيِّ وانتحى[١]

أي: انتحى، والواو زائدة. وقال أيضاً:

حتّى إذا حَمَلَتْ بُطُونُكُمُ ورأيتُمُ أبناءَكم شَبُّوا
وَقَلَبْتُمُ ظهرَ المِجَنِّ لنا إنَّ اللئيمَ الفاجِرُ الخِبُّ[٢]

أراد: قلبتم. النحاس[٣]: والواو من حروف المعاني لا يجوز أن تُزاد.

وفي الخبر: إنَّ الذبيحَ قال لإبراهيم عليه السلام حين أراد ذبحه: يا أبت اشدُدْ رِباطي حتى لا أَضطرب، واكفف ثيابَك لئلا ينتضِحَ عليها شيء من دمي فتراه أُمّي فتحزن، وأَسْرِعْ مَرَّ السِّكين على حَلْقي ليكونَ الموتُ أهونَ عليَّ، واقذُفني للوجه؛ لئلا تنظر إلى وجهي فترحَمَني، ولئلا أنظرَ إلى الشَّفرة فأجزع، وإذا أتيتَ إلى أُمي فأقرئها مني السلام. فلما جَرَّ إبراهيمُ عليه السلام السِّكين ضربَ اللهُ عليه صفيحةً من نُحاس، فلم تعمل السكين شيئاً، ثم ضرب به على جبينه وحزَّ في قفاه فلم تعمل السِّكين شيئاً[٤]؛ فذلك قوله تعالى: «وَتَلَّهُ للجبينِ»، كذلك قال ابن عباس: معناه: كبَّه على وجهه[٥]، فنُودي ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ فالتفت فإذا بكبش؛ ذكره المهدوي. وقد تقدّمت الإشارة إلى عدم صحته[٦]، وأن المعنى لما اعتقد الوجوبَ وتهيَّأ للعمل؛ هذا بهيئة الذبح، وهذا بصورة المَذْبوح، أعطيا محلّاً للذبح فِداء، ولم

(١) سلف ٢/ ٨٥.

(٢) البيتان في معاني القرآن للفراء ١/ ١٠٧، وأمالي ابن الشجري ٢/ ١٢١، وخزانة الأدب ١١/ ٤٤، واللسان (قمل) من غير نسبة، وفيها: قَمِلَتْ، بدل: حملت، والعاجز، بدل: الفاجر. وقملت بطونكم، أي: كثرت قبائلكم. اللسان (قمل).

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٣٣.

(٤) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٣٣ - ٣٤ بنحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٨٥.

(٦) في المسألة الثالثة.

يكن هناك مرُّ سكين[١]. وعلى هذا يتصوَّر النَّسخ قبل الفعل على ما تقدَّم[٢]. والله أعلم.

قال الجوهري: «وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ» أي: صرعه؛ كما تقول: كَبَّه لِوجهه[٣]. الهروي: والتَّلُّ: الدَّفْع والصَّرع؛ ومنه حديث أبي الدرداء ﷺ: وتركوك لِمَتَلِّكَ[٤]، أي: لمصرعك. وفي حديث آخر: «فجاء بناقةٍ كَوْماء فَتلَّها»[٥] أي: أناخها. وفي الحديث: «بينا أنا نائمٌ أُتِيتُ بمفاتيح خَزائنِ الأرض فَتُلَّتْ في يدي»[٦]، قال ابن الأنباري: أي: فَأُلقيتْ في يدي؛ يقال: تَلَلْتُ الرجل، إذا أَلقيته. قال ابن الأعرابي: فَصُبَّتْ في يدي؛ والتَّلُّ الصَّبُّ؛ يقال: تلَّ يتلُّ إذا صبَّ، وتَلَّ يَتِلّ ـ بالكسر ـ إذا سقط[٧].

قلت: وفي «صحيح مسلم»: عن سهل بن سعد السَّاعدي أن رسولَ الله ﷺ أُتي بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلامٌ وعن يساره أشياخ؛ فقال للغلام: «أتأذَنُ لي أن أُعطي هؤلاء» فقال الغلام: لا والله، لا أُوثر بنصيبي منك أحداً. قال: فتلَّه رسولُ الله ﷺ في يده[٨]؛ يُريد: جعله في يده.

وقال بعضُ أهل الإشارة: إنَّ إبراهيمَ ادَّعى محبةَ الله، ثم نظر إلى الولد بالمحبة، فلم يرضَ حبيبه محبةً مشتركة؛ فقيل له: يا إبراهيم، اذبح ولدَك في

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٦٠٧ بنحوه.

(٢) في المسألة الثالثة.

(٣) الصحاح (تلل).

(٤) ذكره ابن الجوزي في غريب الحديث ١/ ١١٠، وابن الأثير في النهاية (تلل).

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٢/ ٤٠ - ٤١ مطولاً من حديث وائل بن حجر ﷺ. وفي الباب عن سُويد ابن غَفَلَة ﷺ أخرجه أحمد (١٨٨٣٧)، والنسائي ٥/ ٣٠ . وقوله: كوماء: أي: مشرفة السنام عالية. حاشية السندي على المجتبى.

(٦) أخرجه أحمد (١٠٥١٧)، والبخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣) من حديث أبي هريرة ﷺ، وعند البخاري ومسلم: فَوُضِعَتْ، بدل: فَتُلَّت.

(٧) تهذيب اللغة ١٤/ ٢٥١ .

(٨) صحيح مسلم (٢٠٣٠)، وأخرجه أحمد (٢٢٨٢٤)، والبخاري (٢٤٥١).

مرضاتي، فشمَّر وأخذ السكين وأضجع ولدَه، ثم قال: اللهم تَقبَّلْهُ مني في مرضاتك. فأوحى الله إليه: يا إبراهيم لم يكن المرادُ ذبحَ الولد، وإنما المرادُ أن تَرُدَّ قلبك إلينا، فلما رددتَ قلبك بكُلِّيَّته إلينا رددنا ولدَكَ إليك(١).

وقال كعب وغيره: لما أُري إبراهيمُ ذبحَ ولده في منامه، قال الشيطان: والله، لئن لم أَفتن عند هذا آلَ إبراهيم لا أفتن منهم أحداً أبداً. فتمثَّل الشيطانُ لهم في صورة الرجل، ثم أتى أُمَّ الغُلام وقال: أتدرينَ أين يذهب إبراهيمُ بابنك؟ قالت: لا. قال: إنه يذهبُ به لِيذبحه. قالت: كلاّ، هو أرأفُ به من ذلك. فقال: إنه يَزعُم أن ربَّه أمره بذلك. قالت: فإنْ كان ربُّه قد أمره بذلك فقد أحسنَ أن يُطيعَ ربَّه. ثم أتى الغُلام فقال: أتدري أين يذهبُ بك أبوك؟ قال: لا. قال: فإنه يذهب بك لِيذبحك. قال: ولم؟ قال: زَعم أنَّ ربَّه أمره بذلك. قال: فَلْيفعَلْ ما أمره اللهُ به، سمعاً وطاعةً لأمر الله. ثم جاء إبراهيمُ فقال: أين تُريد؟ والله، إني لأَظنُّ أن الشيطانَ قد جاءك في منامك، فأمرك بذبح ابنك. فَعَرفَه إبراهيمُ عليه السلام، فقال: إليك عني يا عدوَّ الله، فوالله لأَمضِينَّ لأمر ربي. فلم يُصب الملعونُ منهم شيئاً(٢).

وقال ابن عباس: لما أُمر إبراهيمُ بذبح ابنه عرضَ له الشيطان عند جمرة العقبة فرماه بسبع حَصَيَات حتى ذهب، ثم عرضَ له عند الجَمْرة الوسطى، فرماه بسبع حَصَيات حتى ذهب، ثم عرضَ له عند الجمرة الأُخرى، فرماه بسبع حَصَيات حتى ذهب، ثم مضَى إبراهيمُ لأمر الله تعالى(٣).

واختُلف في الموضع الذي أراد ذبحه [فيه] فقيل: بمكة في المقام(٤). وقيل: في المَنْحر بمنى عند الجمار التي رمَى بها إبليسَ لعنه الله؛ قاله ابن عباس وابن عمر

---

(١) لطائف الإشارات ٣/ ٢٣٩ بمعناه.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٩٠، وذكره أبو الليث في تفسيره ٣/ ١٢٠، والبغوي في تفسيره ٤/ ٣٤.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٤.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٠١. عن عُبيد بن عُمير.

ومحمد بن كعب وسعيد بن المسيَّب.

وحُكي عن سعيد بن جُبير: أنه ذبحه على الصخرة التي بأصل ثَبِير بِمنىً. وقال ابن جُريج: ذبحه بالشام، وهو من بيت المقدس على مِيلين[١].

والأول أكثر[٢]؛ فإنه ورد في الأخبار تعليقُ قَرْن الكبش في الكعبة، فدلَّ على أنه ذبحه بمكة. وقال ابن عباس: فوالذي نفسي بيده، لقد كان أول الإسلام، وإنَّ رأسَ الكبش لَمعلَّق بقرنيه في مِيزاب الكعبة وقد يَبِسَ[٣].

أجاب مَن قال بأنَّ الذبح وقع بالشام: لعلَّ الرأسَ حُمِلَ من الشام إلى مكة. والله أعلم[٤].

**السادسة**: قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: نَجزيهم بالخَلاص من الشدائد في الدنيا والآخرة. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: النِّعمة الظاهرة؛ يقال: أبلاه الله إبْلاءً وبَلاءً، إذا أنعم عليه. وقد يقال: بَلاهُ. قال زهير:

فأَبْلاهما خَيْرَ البلاءِ الذي يَبْلو[٥]

فزعم قومٌ أنه نجاء باللُّغتين. وقال آخرون: بل الثاني من: بَلاهُ يَبْلُوهُ إذا اختبره، ولا يقال من الاختبار إلا بَلاه يَبْلوه، ولا يقال من الابتلاء: يبلوه. وأصلُ هذا كلِّه من الاختبار أن يكون بالخير والشرّ؛ قال الله عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]. وقال ابن زيد[٦]: هذا في[٧] البلاء الذي نزلَ به في أن يذبحَ ابنه؛ قال:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٦٢.

(٢) وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٨٣: وما يستغرب في هذه الآية أن عُبيد بن عُمير قال: ذُبح في المقام.. وقال الجمهور: ذُبح بمنى.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٠٣.

(٤) تفسير الطبري ١٩/ ٦٠٣ بنحوه.

(٥) شرح ديوان زهير ص١٠٩، وصدره: رأى الله بالإحسان ما فعلا بكم. وفي رواية: جزى الله..

(٦) في النسخ: أبو زيد، وهو خطأ، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٤ والكلام منه. والخبر أخرجه الطبري ١٩/ ٥٨٧ عن ابن زيد.

(٧) في (م): من.

وهذا من البلاء المكروه.

**السابعة**: قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ الذِّبح اسمُ المَذْبوح وجمعه ذبوح؛ كالطِّحن اسم المَطْحون. الذَّبح بالفتح المصدر[1]. «عظيم» أي: عظيم القَدْر، ولم يُرِدْ عظيمَ الجُثَّة، وإنما عَظُم قدرُه لأنه فدى به الذبيح؛ أو لأنه مُتقبَّل.

قال النحاس[2]: عظيم في اللغة يكون للكبير وللشريف. وأهلُ التفسير على أنه هاهنا للشريف، أي: المُتقبَّل.

وقال ابن عباس: هو الكبش الذي تقرَّب به هابيلُ، وكان في الجنة يرعى حتى فدى اللهُ به إسماعيل. وعنه أيضاً: أنه كبشٌ أرسله اللهُ من الجنة كان قد رعَى في الجنة أربعين خريفاً. وقال الحسن: ما فُدِيَ إسماعيلُ إلا بتيس من الأَرْوَى أُهبِطَ عليه من ثَبِير، فذبحه إبراهيم فِداءً عن ابنه، وهذا قولُ علي ﷺ[3]. فلما رآه إبراهيمُ أخذَه فذبحه وأعتق ابنَه. وقال: يا بُنيَّ، اليومَ وُهِبتَ لي.

وقال أبو إسحاق الزجاج[4]: قد قيل: إنه فُدِيَ بوَعْل، والوَعْل: التيس الجبليّ وأهلُ التفسير على أنه فُدِيَ بكبش.

**الثامنة**: في هذه الآية دليلٌ على أنَّ الأُضحيَّةَ بالغنم أفضلُ من الإبل والبقر. وهذا مذهبُ مالك وأصحابه. قالوا: أفضلُ الضحايا الفُحول من الضَّأن، وإناثُ الضأن أفضلُ من فحل المَعْز، وفُحول المَعْز خيرٌ من إناثها، وإناثُ المَعز خيرٌ من الإبل والبقر. وحُجَّتهم قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ أي: ضخم الجُثَّة سمين، وذلك كبشٌ لا جملٌ ولا بقرةٌ.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٤.

(٢) في معاني القرآن ٦/ ٥١.

(٣) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٩/ ٦٠٠ - ٦٠٤. والأروى: غنم الجبل، وثبير: جبل بمكة. النهاية (أرو) و(ثبر).

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣١٢.

وروى مجاهد وغيره عن ابن عباس أنه سأله رجل: إني نذرتُ أن أنحرَ ابني؟ فقال: يجزيك كبشٌ سمين[١]، ثم قرأ: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

وقال بعضهم: لو علم اللهُ حيواناً أفضلَ من الكبش لَفدَى به إسحاق.

وضحَّى رسول الله ﷺ بكبشين أمْلحين[٢]. وأكثر ما ضحّى به الكباش. وذكر ابن أبي شيبة عن ابن عُلَيَّة، عن الليث، عن مجاهد قال: الذِّبح العظيم الشاة[٣]؟

**التاسعة**: واختلفوا أيما أفضل: الأُضحيَّة أو الصدقة بثمنها. فقال مالك وأصحابه: الضَّحِيَّة أفضلُ إلا بمنىً؛ لأنه ليس موضع الأُضحيَّة؛ حكاه أبو عمر[٤].

وقال ابن المنذر: روينا عن بلال أنه قال: ما أُبالي ألَّا أُضحِّي إلا بديك، ولأن أضعَه في يتيم قد تَرِب فيه ـ هكذا قال المُحدِّث ـ أحبُّ إليَّ من أنْ أُضحِّيَ به[٥]. وهذا قولُ الشعبي: إنَّ الصدقةَ أفضلُ. وبه قال مالك وأبو ثور. وفيه قول ثانٍ: وهو أن الضَّحِيَّة أفضل؛ هذا قولُ ربيعةَ وأبي الزِّناد. وبه قال أصحاب الرأي. زاد أبو عمر[٦] وأحمد بن حنبل قالوا: الضحيَّة أفضلُ من الصدقة؛ لأن الضحيَّة سنةٌ وكيدة[٧] كصلاة العيد، ومعلومٌ أن صلاةَ العيد أفضلُ من سائر النوافل، وكذلك صلواتُ السُّنَن أفضلُ من التطوّع كلِّه.

قال أبو عمر[٨]: وقد رُوي في فضل الضحايا آثارٌ حِسان؛ فمنها ما رواه سعيدُ بن

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٥٩٠٤)، وفيه وفي التمهيد ٢٢/ ٢٩ ـ والكلام منه ـ أن السائل نذر أن ينحر نفسه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٥٨)، ومسلم (١٩٦٦) من حديث أنس ﷺ، وسلف ١٤/ ٤٠٤ .

(٣) التمهيد ٢٢/ ٢٩ .

(٤) في التمهيد ٢٣/ ١٩٢ .

(٥) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٨١٥٦)، وفيه: .. ولأن أتصدَّق بثمنها على يتيم أو مغبرّ أحبُّ إليَّ..

(٦) في التمهيد ٢٣/ ١٩٢ .

(٧) في (م): مؤكدة، وكلاهما بمعنى.

(٨) في التمهيد ٢٣/ ١٩٢ - ١٩٣ .

داود بن أبي زَنْبَر[١]، عن مالك، عن ثور بن زيد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما مِنْ نفقةٍ بعد صِلَةِ الرحم أفضلُ عند الله من إهراق الدَّمِ». قال أبو عمر: وهو حديثٌ غريب من حديث مالك.

وعن عائشة قالت: يا أيها الناس، ضَحُّوا وطِيبوا أَنْفُساً؛ فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما مِنْ عبد توجَّه بأُضْحِيَّته إلى القِبلة إلا كان دَمُها وقَرْنُها وصوفُها حسناتٍ مُحضراتٍ في ميزانه يومَ القيامة، فإنَّ الدَّمَ إن وقعَ في التراب فإنما يقعُ في حِرْز الله حتى يُوفيه صاحبه يومَ القيامة» ذكره أبو عمر في كتاب «التمهيد». وخرَّجه الترمذي أيضاً عنها أن رسولَ الله ﷺ قال: «ما عَمِلَ آدميٌّ من عملٍ يومَ النَّحرِ أحبَّ إلى الله من إهراق الدم، إنها لَتأتي[٢] يومَ القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها، وإنَّ الدَّم ليقعُ من الله بمكانٍ قبل أن يقع إلى الأرض، فَطِيبوا بها نفساً» قال: وفي الباب عن عِمْران بن حُصَين وزيد بن أَرْقَم، وهذا حديث حسن[٣].

**العاشرة**: الضحيَّة ليست بواجبة، ولكنها سنّة ومعروف. وقال عكرمة: كان ابن عباس يَبعثني يومَ الأضحى بدرهمين أشتري له لحماً، ويقول: مَنْ لَقِيتَ فقل: هذه أُضْحِيَّة ابن عباس.

قال أبو عمر[٤]: ومَحْمل هذا وما رُوي عن أبي بكر وعمر أنهما لا يُضَحِّيان عند أهل العلم؛ لئلا يُعتقَدَ في المواظبة عليها أنها واجبةٌ فرض، وكانوا أئمةً يقتدي بهم

(١) قال فيه الحافظ ابن حجر في التقريب ص ١٧٥: صدوق، له مناكير عن مالك، ويقال: اختلط عليه بعض حديثه، وكذَّبه عبد الله بن نافع في دعواه أنه سمع من لفظ مالك.

(٢) في النسخ الخطية: إنه ليأتى، والمثبت من (م)، وهو الموافق لسنن الترمذي.

(٣) سنن الترمذي (١٤٩٣) وقول الترمذي فيه: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث هشام بن عروة: لا من هذا الوجه. قال ابن العربي في عارضة الأحوذي ٦/ ٢٨٨: ليس في فضل الأضحية حديث صحيح.

(٤) في التمهيد ٢٣/ ١٩٤ - ١٩٥، وما قبله منه. وخبر ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه عبد الزاق في مصنفه (٨١٤٦).

مَن بعدَهم ممن ينظر في دينه إليهم؛ لأنهم الواسطةُ بين النبي ﷺ وبين أُمَّته، فساغ لهم من الاجتهاد في ذلك ما لا يَسوغ اليومَ لغيرهم.

وقد حكى الطحاوي في «مختصره»[١]: وقال أبو حنيفة: الأُضْحِيَّةُ واجبةٌ على المقيمين الواجدين من أهل الأمصار، ولا تجبُ على المسافر. قال: ويجبُ على الرجل من الأُضحيَّة على ولده الصغير مثل الذي يجب عليه عن نفسه. وخالفه أبو يوسف ومحمد فقالا: ليست بواجبة، ولكنها سنةٌ غيرُ مُرخَّص لمن وجدَ السبيل إليها في تركها. قال: وبه نأخذ.

قال أبو عمر[٢]: وهذا قولُ مالك؛ قال: لا ينبغي لأحدٍ تركُها مسافراً كان أو مقيماً، فإنْ تركها فبئس ما صنع إلا أن يكونَ له عذرٌ إلا الحاجَّ بمنىً. وقال الإمام الشافعي: هي سنة على جميع الناس وعلى الحاجِّ بمنىً، وليست بواجبة. وقد احتجَّ من أوجبها بأنَّ النبيَّ ﷺ أمر أبا بُرْدةَ بن نِيَار أن يُعيدَ ضَحِيَّةً أُخرى[٣]؛ لأنَّ ما لم يكن فرضاً لا يُؤمر فيه بالإعادة.

احتجَّ الآخرون بحديث أُمِّ سلمةَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إذا دخلَ العشرُ وأَراد أُحدكم أن يُضَحِّيَ»[٤] قالوا: فلو كان ذلك واجباً لم يَجعلْ ذلك إلى إرادة المُضحِّي. وهو قولُ أبي بكر وعمر وأبي مسعود البَدريّ وبلال.

**الحادية عشرة**: والذي يُضَحَّى به بإجماع المسلمين الأزواج الثمانية: وهي: الضأن، والمَعْز، والإبل، والبقر[٥].

قال ابن المنذر: وقد حُكي عن الحسن بن صالح أنه قال: يُضحَّى ببقرة الوحش

---

(١) ص٣٠٠، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عبد البر في التمهيد ٢٣/ ١٨٩، والاستذكار ١٥/ ١٥٨.

(٢) في التمهيد ٢٣/ ١٩١ - ١٩٢، والاستذكار ١٥/ ١٥٥ - ١٥٦.

(٣) أخرجه أحمد (١٦٤٨٥)، والبخاري (٩٥٥)، ومسلم (١٩٦١)، وسلف قسم منه ٢/ ٧٥.

(٤) أخرجه أحمد (٢٦٤٧٤)، ومسلم (١٩٧٧)، وتتمته: «.. فلا يمسَّ من شعره وبشره شيئاً».

(٥) التمهيد ٢٣/ ١٨٨.

عن سبعة، وبالظَّبي عن رجل. وقال الإمام الشافعي(١): لو نزا ثورٌ وحشيٌّ على بقرة إنسيّة، أو ثورٌ إنسيٌّ على بقرة وحشية لا يجوز شيء من هذا أُضْحِيَّةً. وقال أصحابُ الرأي: جائز(٢)؛ لأن ولدَها بمنزلة أُمِّه. وقال أبو ثور: يجوز إذا كان منسوباً إلى الأنعام.

**الثانية عشرة**: قد مضى في سورة «الحج»(٣) الكلامُ في وقت الذبح والأكل من الأُضحيَّة مستوفىً. وفي «صحيح مسلم»: عن أنس قال: «ضحَّى النبيُّ ﷺ بكبشين أَمْلحين أقْرنين ذَبَحهما بيده وسمَّى وكبَّر، ووضع رِجْلَه على صِفَاحِهما». في رواية قال: «ويقول: بسم الله والله أكبر(٤)». وقد مضَى في آخر «الأنعام» حديثُ عِمران بن حُصَين(٥)، ومضَى في «المائدة» القولُ في التذكية وبيانها وما يُذَكَّى به، وأنَّ ذكاةَ الجنين ذكاةُ أُمِّه مستوفىً(٦).

وفي «صحيح» مسلم: عن عائشةَ أن رسولَ الله ﷺ أَمَر بكبشٍ أقرنَ يَطَأُ في سواد، ويبرك في سواد، وينظرُ في سواد فأتي به لِيُضَحِّيَ به، فقال لها: «يا عائشةُ، هَلُمِّي المُدْيَةَ» ثم قال: «اشْحَذِيها بحجر» ففعلت، ثم أخذها وأخذَ الكبش فأَضجعه، ثم ذَبحه، ثم قال: «بسم الله، اللهمَّ تقبَّل من محمد وآل محمد ومن أمة محمد» ثم ضحَّى به(٧).

وقد اختلف العلماءُ في هذا فكان الحسنُ البصري يقول في الأُضحيَّة: بسم الله واللهُ أكبر، هذا منكَ ولك، تقبَّل من فلان. وقال مالك. إنْ فَعَلَ ذلك فحسن، وإن لم

---

(١) في الأم ٢/ ١٦.

(٢) يعني في الحالة الأولى.

(٣) ١٤/ ٣٦٦ وما بعدها.

(٤) صحيح مسلم (١٩٦٦) وسلف في المسألة الثامنة وفي ١٤/ ٤٠٣.

(٥) ٩/ ١٤٣.

(٦) ٧/ ٢٧٤ وما بعدها.

(٧) صحيح مسلم (١٩٦٧)، وهو في مسند أحمد (٢٤٤٩١).

يفعلْ وسمَّى اللهَ أجزأه. وقال الشافعي: والتسميةُ على الذبيحة: بسم الله، فإنْ زاد بعد ذلك شيئاً من ذِكْر الله، أو صلَّى على محمد عليه الصلاة والسلام لم أكرهه، أو قال: اللهم تقبَّلْ مني، أو قال: تقبَّلْ من فلان فلا بأس. وقال النعمان: يُكره أن يذكُرَ مع اسمِ الله غيرَه[١]؛ يُكره أن يقول: اللهمَّ تقبَّلْ من فلان عند الذَّبح. وقال: لا بأس إذا كان قبلَ التسمية وقبلَ أن يضجعَ للذبح. وحديث عائشة يردُّ هذا القولَ. وقد تقدَّم أن إبراهيمَ عليه السلام قال لما أراد ذبح ابنه: الله أكبرُ والحمد لله. فبقي سُنَّةً[٢].

**الثالثة عشرة:** روى البَرَاءُ بن عازِب أن رسولَ الله ﷺ سُئل: ماذا يُتَّقى من الضحايا؟ فأشار بيده وقال: «أربعاً» وكان البراءُ يُشير بيده ويقول: يدي أقصرُ من يَدِ رسول الله ﷺ: «العَرْجاء البَيِّنُ ظَلَعُها، والعوراءُ البَيِّنُ عَوَرُها، والمريضةُ البَيِّن مرضُها، والعَجْفاءُ التي لا تُنْقي» لفظ مالك، ولا خلاف فيه[٣]. واختلف في اليَسير من ذلك.

وفي الترمذيّ: عن عليّ ﷺ قال: أمرنا رسولُ الله ﷺ أن نستَشرِفَ العينَ والأُذن وألّا نُضَحِّيَ بمقابلة ولا مُدَابَرة ولا شَرْقاء ولا خَرْقاء. قال: والمُقابلة: ما قُطِع طرفُ أُذنها، والمُدابَرة: ما قطِع من جانب الأُذن، والشَّرقاء المشقوقة، والخَرْقاء المثقوبة؛ قال هذا حديثٌ حسن صحيح[٤].

وفي «الموطأ» عن نافع: أنَّ عبدَ الله بن عمر كان يَتَّقي من الضحايا والبُدْن التي لم تُسْنِنْ والتي نقصَ مِن خَلْقها. قال مالك: وهذا أحبُّ ما سمعتُ إليَّ[٥].

---

(١) ذكر قول أبي حنيفة وقول الحسن البصري السالف ابنُ قدامة في المغني ١٣/ ٣٩٠ - ٣٩١.

(٢) في المسألة الثانية.

(٣) الموطأ ص٤٨٢، وأخرجه أحمد (١٨٥١٠)، وأبو داود (٢٨٠٢)، والترمذي (١٤٩٧)، وعند أحمد وأبي داود: الكسير، بدل: العجفاء. وقوله: «لا تُنقي»؛ من: أنقى، إذا صار ذا نِقْي، أي: مخ، فالمعنى: التي ما بقي لها مخ من غاية العجف. حاشية السندي على مسند أحمد.

(٤) سنن الترمذي (١٤٩٨)، وهو في مسند أحمد (٨٥١). وسلف ٧/ ٣٧.

(٥) الموطأ ص٤٨٢.

قال القُتبي: لم تُسْنَنْ، أي: لم تَنبُتْ أسنانُها، كأنها لم تُعْطَ أسناناً. وهذا كما يقال: فلانٌ لم يُلْبَنْ، أي: لم يُعْطَ لبناً، ولم يُسْمَنْ، أي: لم يُعْطَ سمناً، ولم يُعسَلْ أي: لم يُعْطَ عسلاً[١]. وهذا مثل النهي في الأضاحي عن الهَتْماء.

قال أبو عمر[٢]: ولا بأسَ أن يُضحِّيَ عند مالك بالشاة الهَتْماء إذا كان سقوط أسنانها من الكِبَر والهَرَم وكانت سمينةً؛ فإنْ كانت ساقطةَ الأسنان وهي فتيةٌ لم يَجُزْ أن يُضحِّيَ بها، لأنه عيبٌ غير خفيف. والنقصان كلُّه مكروه، وشرحُه وتفصيلُه في كتب الفقه. وفي الخبر عن النبيِّ ﷺ: «استشرفوا ضحاياكم، فإنها على الصِّراط مَطاياكم» ذكره الزمخشري[٣].

**الرابعة عشرة**: ودلَّت الآيةُ على أنَّ من نَذَرَ نَحرَ ابنه أو ذبحه أنه يَفديه بكبش، كما فدَى به إبراهيمُ ابنَه؛ قاله ابن عباس. وعنه رواية أُخرى: يَنحر مئةً من الإبل كما فَدى بها عبدُ المطَّلب ابنَه؛ روى الروايتين عنه الشعبي. وروى عنه القاسم بن محمد: يَجزيه كفارةُ يمين. وقال مسروق: لا شيء عليه[٤].

وقال الشافعي: هو معصيةٌ يستغفر اللهَ منها. وقال أبو حنيفة: هي كلمةٌ يَلزمه بها في ولده ذبحَ شاة ولا يَلزمه في غير ولده شيء[٥]. وقال محمد: عليه في الحلف بنحر

---

(١) غريب الحديث لابن قتيبة ٢/ ٧٧، ونقله المصنف عنه بواسطة التمهيد ٢٠/ ١٧٠ وما بعده منه. وقوله: لم تسنن، قال ابن الأثير في النهاية (سنن): رواه القتيبي بفتح النون الأولى، قال الأزهري: وهم في الرواية، وإنما المحفوظ عن أهل الثبت والضبط بكسر النون، وهو الصواب في العربية. وقال الأزهري: وقوله أيضاً: لم يُلبَن ولم يُسمَن، أي: لم يُعطَ لبناً وسمناً خطأ أيضاً، وإنما معناهما: لم يُطعَم سمناً، ولم يُسْقَ عسلاً. ينظر تهذيب اللغة ١٢/ ٣٠٠، واللسان (سنن).

(٢) في الكافي ١/ ٤٢٢.

(٣) في الكشاف ٣/ ٣٤٩، قال الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ٤/ ١٣٨: لم أره، ونقل عن ابن الصلاح قوله فيه: هذا الحديث غير معروف ولا ثابت فيما علمناه.

(٤) الاستذكار ١٥/ ٥٤، وأقوال ابن عباس رضي الله عنهما أخرجها عبد الرزاق في مصنفه (١٥٩٠٣) و(١٥٩٠٥) و(١٥٩٠٨) و(١٥٩١٠).

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٠٧.

عبده مثل الذي عليه في الحلف بنحر ولده إذا حنث[١].

وذكره ابنُ عبد الحكم عن مالك فيمن قال: أنا أنحرُ ولدي عند مقام إبراهيم في يمين ثم حنثَ، فعليه هَدْيٌ. قال: ومَن نذَر أن ينحرَ ابنَه، ولم يقل: عند مقام إبراهيم ولا أراده[٢]، فلا شيء عليه. قال: ومَن جعل ابنَه هَدْياً أهدى عنه[٣].

قال القاضي ابن العربي[٤]: يلزمه شاةٌ كما قال أبو حنيفة؛ لأنَّ اللهَ تعالى جعل ذبح الولد عبارة عن ذبح الشاة شرعاً، فألزم اللهُ إبراهيمَ ذبح الولد، وأخرجه عنه بذبح شاة. وكذلك إذا نذَر العبدُ ذبح ولده يَلزمه أن يذبحَ شاة؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج:٧٨] والإيمانُ التزامٌ أصليٌّ، والنَّذر التزامٌ فرعيٌّ؛ فيجب أن يكونَ محمولاً عليه.

فإنْ قيل: كيف يُؤمر إبراهيمُ بذبح الولد وهو معصيةٌ، والأمرُ بالمعصية لا يجوز. قلنا: هذا اعتراضٌ على كتاب الله، ولا يكون ذلك ممن يعتقد الإسلامَ، فكيف بمن يُفتي في الحلال والحرام؟! وقد قال الله تعالى: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ والذي يجلو الإلباس عن قُلوب الناس في ذلك: أن المعاصي والطاعاتِ ليست بأوصافٍ ذاتية للأعيان، وإنما الطاعاتُ عبارةٌ عما تعلَّق به الأمرُ من الأفعال، والمعصيةُ عبارةٌ عمَّا تعلَّق به النَّهي من الأفعال؛ فلما تعلَّق الأمرُ بذبح الولدِ إسماعيلَ من إبراهيم صار طاعةً وابتلاء، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ في الصبر على ذبح الولد والنَّفس، ولما تعلَّق النهي بنا في ذبح أبنائنا صار معصية.

فإنْ قيل: كيف يصير نَذْراً وهو معصية؟. قلنا: إنما يكون معصيةً لو كان يقصِدُ ذبحَ الولد بنذره ولا يَنوي الفِداء. فإن قيل: فلو وقع ذلك وقصدَ المعصيةَ ولم ينوِ

---

(١) مختصر اختلاف العلماء ٢/ ٢٣٩.

(٢) في (م): أراد.

(٣) الاستذكار ١٥/ ٥٥.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٠٨ - ١٦٠٩، والكلام منه إلى آخر المسألة.

الفِداء؟ قلنا: لو قَصَدَ ذلك لم يَضُرَّه في قَصْده، ولا أثَّر في نَذْره؛ لأنَّ نذر[1] الولد صار عبارةً عن ذبح الشاة شرعاً.

**الخامسة عشرة**: قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ أي: على إبراهيم ثناءً جميلاً في الأُمم بعدَه؛ فما من أُمَّة إلا تُصلِّي عليه وتُحِبُّه. وقيل: هو دعاءُ إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾[2] [الشعراء: ٨٤].

وقال عكرمة: هو السلامُ على إبراهيم[3]، أي: سلاماً منَّا. وقيل: سلامة له من الآفات مثل: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩] حَسَبَ ما تقدَّم. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: من الذين أُعطوا العبودية حقَّها حتى استحقُّوا الإضافةَ إلى الله تعالى.

**السادسة عشرة**: قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قال ابن عباس: بُشِّر بنبوَّته، وذهب إلى أن البِشارة كانت مرتين[4]؛ فعلى هذا الذبيحُ هو إسحاقُ، بُشِّرَ بنبوَّته جزاءً على صَبْره ورِضاهُ بأمر ربِّه واستسلامه له.

﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ أي: ثَنَّينا عليهم النِّعمة وقيل: كثَّرنا ولدَهما؛ أي: باركنا على إبراهيم وعلى أولاده، وعلى إسحاق حين أخرجَ أنبياءَ بني إسرائيل من صُلبه. وقد قيل: إنَّ الكنايةَ في «عليه» تعودُ على إسماعيل وأنه هو الذبيحُ.

قال المفضَّل: الصحيحُ الذي يدلُّ عليه القرآن أنه إسماعيلُ، وذلك أنه قصَّ قِصَّة الذبيح، فلما قال في آخر القِصَّة: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ ثم قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ . كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ . وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: على إسماعيل ﴿وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ كنَى عنه؛ لأنه قد تقدَّم ذِكره ثم قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ فدلَّ

---

(١) في (ظ) و(ف) وأحكام القرآن لابن العربي: ذبح.

(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٦٠٥ - ٦٠٦.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٦٣.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٥، وأخرجه الطبري ١٩/ ٦٠٧.

على أنها ذريَّة إسماعيل وإسحاق، وليس تختلف الرواةُ في أنَّ إسماعيل كان أكبرَ من إسحاق بثلاثَ عشرةَ سنةً[١].

قلت: قد ذكرنا أوَّلاً ما يدلُّ على أنَّ إسحاقَ أكبرُ من إسماعيل، وأن المُبَشَّر به هو إسحاق بنصِّ التنزيل[٢]؛ فإذا كانت البِشارة بإسحاق نصّاً، فالذبيحُ لاشكَّ هو إسحاق، وبُشِّر به إبراهيمُ مرتين؛ الأُولى بولادته، والثانية بنبوَّته؛ كما قال ابن عباس[٣]. ولا تكون النبوَّة إلا في حال الكِبَر.و«نَبِيّاً» نصب على الحال، والهاء في «عليهِ» عائدةٌ إلى إبراهيم، وليس لإسماعيل في الآية ذِكْر حتى ترجعَ الكِنَاية إليه.

وأما ما رُوي من طريق معاوية قال: سمعتُ رجلاً يقول للنبي ﷺ: يا ابنَ الذَّبيحين؛ فضحك النبيُّ ﷺ. ثم قال معاوية: إنَّ عبد المُطَّلب لما حفر بئرَ زمزم، نذَر لله إنْ سهَّل عليه أمرَها لَيذبحنَّ أحدَ ولده لله، فسهَّلَ الله عليه أمرَها، فوقع السهمُ على عبد الله، فمنعه أخوالُ بنو مخزوم، وقالوا: افدِ ابنَك: فَفَداهُ بمئة من الإبل، وهو الذبيح، وإسماعيل هو الذبيحُ الثاني[٤]. فلا حُجَّةَ فيه؛ لأنَّ سندَه لا يثبتُ على ما ذكرناه في كتاب «الإعلام في معرفة مَوْلد المصطفى عليه الصلاة والسلام»؛ ولأن العربَ تجعلُ العم أباً؛ قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣] وقال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠] وهما أبوه وخالته. وكذلك ما رُوي عن الشاعر الفرزدق عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ[٥] لو صحَّ إسنادُه فكيف وفي الفرزدق نَفْسِه مَقَال؟!.

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره ٤/ ٥١٣ ، وسلف ذكر اختلاف العلماء في المأمور بذبحه في المسألة الأولى، ونقلنا ثمة قول ابن كثير أن الصحيح المقطوع به أنه إسماعيل عليه السلام

(٢) ١٨/ ٦٣ وما بعدها.

(٣) سلف قريباً.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٩٧ - ٥٩٨ . قال ابن كثير في تفسيره ٧/ ٣٥: وهذا حديث غريب جداً.

(٥) أخرج عبد بن حُميد كما في الدر المنثور ٥/ ٢٨١ عن الفرزدق قال: رأيت أبا هريرة ﷺ يخطب على منبر رسول الله ﷺ ويقول: إن الذي أمر بذبحه إسماعيل.

**السابعة عشرة**: قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ﴾ لَمَّا ذكر البركةَ في الذرية والكَثْرة قال: منهم مُحسن، ومنهم مُسيء، وأن المُسيء لا تَنفعه بُنوَّةُ النبوَّة؛ فاليهودُ والنصارى وإن كانوا من ولد إسحاق، والعربُ وإنْ كانوا من ولد إسماعيل، فلابدَّ من الفرق بين المُحسن والمُسيء والمؤمن والكافر، وفي التنزيل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة:١٨] الآية؛ أي: أبناء رُسُلِ الله فرأَوْا لأنفسهم فَضْلاً. وقد تقدَّم.

**قوله تعالى**: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ لَمَّا ذكر إنجاءَ إسحاق من الذبح، وما مَنَّ به عليه بعد النبوة، ذكر ما مَنَّ به أيضاً على موسى وهارون من ذلك. وقوله: ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ قيل: من الرِّقِّ الذي لَحِقَ بني إسرائيل. وقيل: من الغَرَق الذي لَحِقَ فرعون.

﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾ قال الفراء[1]: الضميرُ لموسى وهارون وحدَهما؛ وهذا على أنَّ الاثنين جمع؛ دليلُه قوله: «وآتيناهُما» «وهَدَيْناهُما». وقيل: الضميرُ لموسى وهارون وقومِهما، وهذا هو الصوابُ؛ لأنَّ قبلَه«ونَجَّيْناهُما وقَوْمَهُما»[2].

و﴿الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ التوراة؛ يقال: استبان كذا، أي: صار بَيِّناً، واستبانه فلانٌ مثل: تبيَّن الشيءُ بنفسه وتبيَّنه فلانٌ.

و﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الدِّين القَويم الذي لا اعوجاج فيه، وهو دينُ الإسلام.

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٣٥.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٥٣.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ يريدُ الثَّناء الجميل. ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ . إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدَّم.

**قوله تعالى:** ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قال المفسرون: إلياسُ نبيٌّ من بني إسرائيل. ورُوي عن ابن مسعود قال: إسرائيلُ هو يعقوبُ، وإلياسُ هو إدريس(١)، وقرأ: «وإنَّ إدْرِيسَ»(٢). وقاله عكرمة. وقال: هو في مصحف عبد الله: «وإنَّ إدْرِيس لَمِنَ المُرْسَلينَ» وانفرد بهذا القول. وقال ابن عباس: هو عمُّ اليَسع(٣).

وقال ابن إسحاق وغيره: كان القَيِّمُ بأمر بني إسرائيل بعد يوشع كالبَ بن يوقنا، ثم حِزقيل، ثم لمَّا قبض اللهُ حِزقيلَ النبيَّ عظمتِ الأحداثُ في بني إسرائيل، ونَسُوا عهدَ الله، وعبدوا الأوثان من دونه، فبعث اللهُ إليهم إلياسَ نبيّاً، وتَبِعه اليَسع وآمن به، فلما عتا عليه بنو إسرائيل دعا ربَّه أن يُريحه منهم، فقيل له: اخرج يومَ كذا وكذا إلى موضع كذا وكذا فما استقبلكَ من شيء فارْكَبه ولا تَهَبْه. فخرج ومعه اليَسع فقال: يا إلياسُ، ما تأمرني، فقذفَ إليه بكِسائه من الجوِّ الأعلى، فكان ذلك علامةَ استخلافه إيَّاه على بني إسرائيل، وكان ذلك آخرَ العَهْد به. وقطعَ اللهُ على إلياسَ لذَّةَ المَطْعَم والمَشْرَب، وكساه الرِّيش، وألبسه النُّور(٤)، فطار مع الملائكة، فكان إنسيّاً مَلَكيّاً سماويّاً أرضيّاً(٥).

---

(١) أخرجه الطبري ٩/ ٣٨٣.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٢٨، والمحتسب ٢/ ٢٢٤.

(٣) في تفسير البغوي ٤/ ٣٦ (والكلام فيه بنحوه): هو ابن عم اليسع.

(٤) النَّور: الزَّهر، أو الأبيض منه. القاموس (نور).

(٥) عرائس المجالس ص ٢٥٥ و٢٦٢، وينظر النكت والعيون ٥/ ٦٤، وتفسير البغوي ٤/ ٣٦.

قال ابن قتيبة: وذلك أنَّ اللهَ تعالى قال لإلياس: «سَلْني أُعطِكَ». قال: تَرفَعُني إليك وتُؤَخِّرعني مَذاقة الموت. فصار يطيرُ مع الملائكة.

وقال بعضهم: كان قد مَرِضَ وأحسَّ الموتَ فبكى، فأوحى الله إليه: لِمَ تبكِ؟ حرصاً على الدنيا، أو جزعاً من الموت، أو خوفاً من النار؟ قال: لا، ولا لشيء[1] من هذا وعِزَّتِك، إنما جَزَعي كيف يَحْمَدُك الحامدون بعدي ولا أَحْمَدُك، ويذكُرك الذاكرون بعدي ولا أَذْكُرك، ويصومُ الصائمون بعدي ولا أصوم، ويُصلِّي المصلُّون ولا أُصلِّي.

فقيل له: «يا إلياسُ، وعزَّتي لَأُؤَخِّرنَّك إلى وقت لا يذكُرني فيه ذاكر». يعني يومَ القيامة.

وقال عبدُ العزيز بن أبي روَّاد: إنَّ إلياسَ والخَضِرَ عليهما السلام يصومان شهرَ رمضانَ في كلِّ عام ببيتِ المَقْدس يُوافيان الموسم في كل عام[2].

وذكر ابن أبي الدنيا أنهما يقولان عند افتراقهما عن الموسم: ما شاء الله، ما شاء الله، لا يسوقُ الخير إلا الله، ما شاء الله، ما شاء الله، لا يَصرِفُ السُّوء إلا الله، ما شاء الله، ما شاء الله، ما يكون من نعمة فمن الله، ما شاء الله، ما شاء الله، توكَّلت على الله، حسبُنا الله ونِعْم الوكيل. وقد مضَى في «الكهف»[3].

وذكر من طريق مكحول عن أنس قال: غَزَوْنا مع رسولِ الله ﷺ حتى إذا كُنَّا بفَجِّ الناقة عند الحِجْر، إذا نحن بصوت يقول: اللهمَّ اجعَلْني من أُمَّة محمدٍ المرحومة، المغفورِ لها، المَتوبِ عليها، المُستجابِ لها. فقال رسولُ الله ﷺ: «يا أنسُ، انظُرْ ما هذا الصوت». فدخلتُ الجبلَ، فإذا أنا برجلٍ أبيضِ اللِّحية والرأس، عليه ثيابٌ بِيْضٌ، طوله أكثرُ من ثلاث مئة ذراع، فلما نظر إليَّ قال: أنت رسولُ النبي؟ قلت:

---

(١) في (م): ولا شيء.

(٢) أخرجه أحمد في الزهد ص ٢٨١.

(٣) ١٣/ ١٧٠.

نعم؛ قال: اِرْجِعْ إليه فأَقرِئْه مني السلام وقل له: هذا أخوكَ إلياسُ يُريد لِقاءك. فجاء النبي ﷺ وأنا معه، حتى إذا كنا قريباً منه، تقدَّم النبي ﷺ وتأخَّرت، فتحدَّثا طويلاً، فنزل عليهما شيء من السماء شبه السُّفرة فدَعَواني فأكلتُ معهما، فإذا فيها كَمْأة ورُمَّان وكَرَفْس، فلما أكلتُ قمتُ فتنحَّيتُ، وجاءت سحابةٌ فاحتملَتْه، فإذا أنا أنظرُ إلى بَيَاضِ ثيابِه فيها تَهوي به. فقلتُ للنبي ﷺ: بأبي أنت وأُمّي، هذا الطعامُ الذي أكلنا أَمِنَ السماء نزل عليه؟ فقال النبي ﷺ: «سألتُه عنه فقال: يأتيني به جبريلُ في كل أربعين يوماً أَكْلة، وفي كلِّ حول شَرْبة من ماء زمزم، وربما رأيتُه على الجُبِّ يملأ بالدَّلو فيشرب، وربما سَقَاني»[١].

قال ثعلب: اختلف الناسُ في قوله عز وجل هاهنا: «بَعْلاً» فقالت طائفة: البَعْل هاهنا الصَّنَم. وقالت طائفة: البعل هاهنا مَلَك. وقال ابن إسحاق: امرأة كانوا يعبدُونها. والأوّل أكثر.

وروى الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس: «أَتَدْعُونَ بَعْلاً» قال: صنماً. وروى عطاء بن السائب عن عكرمة عن ابن عباس: «أَتَدْعُونَ بَعْلاً» قال: رَبّاً.

النحاس: والقولان صحيحان؛ أي: أتدعون صنماً عَمِلْتموه رباً. يقال: هذا بعلُ الدار، أي: ربُّها. فالمعنى: أتدعون ربّاً اختلقتموه، و«أَتَدْعُونَ» بمعنى أتُسمُّون. حكى ذلك سيبويه[٢].

وقال مجاهد وعكرمة وقتادة والسُّدي: البعل الربُّ بلغة اليمن[٣]. وسمع ابن عباس رجلاً من أهل اليمن يسومُ ناقةً بمنىً فقال: منَ بعلُ هذه؟[٤]. أي: مَن ربُّها؛

(١) الهواتف لابن أبي الدنيا ص ٧٨ - ٧٩، وأخرجه بنحوه الحاكم ٢/ ٦١٧ ونقله المصنف عن ابن أبي الدنيا بواسطة السُّهيلي في التعريف والإعلام ص ١٠٧ -١٠٨. قال الذهبي في التلخيص: موضوع، قبَّح الله من وضعه، وقال ابن كثير في البداية والنهاية ٢/ ٢٧٥: موضوع. وقد سلفت الإشارة إليه في تفسير سورة الكهف [الآية: ٨٢] المسألة الرابعة.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٥، ومعاني القرآن له ٦/ ٥٥.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٦١٢ - ٦١٣.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٦١٣ بنحوه، ونقله المصنف من النكت والعيون ٥/ ٦٤.

ومنه سُمِّي الزوج بعلاً. قال أبو دؤاد:

ورأيتُ بَعْلَكِ في الوغى مُتقلِّدا سيفاً ورُمْحاً[١]

مقاتل: صنمٌ كسره إلياسُ وهربَ منهم. وقيل: كان مِن ذهب وكان طولُه عشرين ذراعاً، وله أربعةُ أوجه، فُتِنوا به وعظَّموه حتى أخدموه أربع مئة سادن وجعلوهم أنبياءه، فكان الشيطانُ يدخل في جوف بَعْل ويتكلَّم بشريعة الضلالة، والسَّدَنة يحفظُونها ويُعلِّمونها الناس، وهم أهل بعلبك من بلاد الشام. وبه سُمِّيت مدينتهم بعلبك كما ذكرنا[٢].

﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ أي: أحسنَ من يقال له: خالق. وقيل: المعنى: أحسن الصانعين؛ لأن الناسَ يصنعون ولا يخلُقون[٣].

﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ بالنصب في الأسماء الثلاثة قرأ الربيع بن خُثَيم والحسن وابن أبي إسحاق وابن وثَّاب والأعمش وحمزة والكسائي[٤]. وإليها يذهب أبو عُبيد وأبو حاتم. وحكى أبو عُبيد أنها على النعت. النحاس[٥]: وهو غلطٌ، وإنما هو على البَدَل، ولا يجوز النعت هاهنا؛ لأنه ليس بتحلية.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وأبو جعفر وشيبة ونافع بالرفع[٦]. قال أبو حاتم: بمعنى: هو اللهُ ربُّكم. قال النحاس: وأولى مما قال أنه مبتدأ وخبر بغير إضمار ولا حذف. ورأيتُ عليَّ بن سليمان يذهبُ إلى أن الرفع أولى وأحسن؛ لأن

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٦٤، وقول مقاتل التالي منه. والبيت لعبد الله بن الزِّبعرى كما في المصادر وليس لأبي دؤاد كما ذكر الماوردي، وقد سلف ١/ ٢٩١ وفي عدة مواضع أخر. وأبو دؤاد اسمه: جارية بن الحجَّاج، كان في عصر كعب بن مامَةَ الإيادي. الشعر والشعراء ١/ ٢٣٧

(٢) عرائس المجالس ص ٢٥٧ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٦٥ .

(٤) وقرأ بها عاصم في رواية حفص. السبعة ص ٥٤٩ ، والتيسير ص ١٨٧ .

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ١١٧ ، وما قبله منه.

(٦) السبعة ص ٥٤٩ ، والتيسير ص ١٨٧ ، والنشر ٢/ ٣٦٠ .

قبلَه رأسُ آية، فالاستئنافُ أولى.

ابن الأنباري[١]: مَن نصبَ أو رفعَ لم يَقِفْ على «أحسَنَ الخَالِقِينَ» على جهة التَّمام؛ لأنَّ اللهَ عزّ وجلّ مُترجمٌ عن «أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ» من الوجهين جميعاً.

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أخبر عن قوم إلياس أنهم كذّبوه. ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: في العذاب. ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: من قومه، فإنهم نَجَوْا من العذاب. وقُرئ: «المُخلِصينَ» بكسر اللام، وقد تقدّم[٢]. ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ تقدَّم.

﴿سَلَامٌ عَلَى آلِ ياسينَ﴾ قراءة الأعرج وشيبة ونافع[٣]. وقرأ عكرمةُ وأبو عمرو وابن كثير وحمزةُ والكسائي: «سَلَامٌ على إِلْيَاسِينَ»[٤]. وقرأ الحسن: «سَلَامٌ على اليَاسِينَ» بوصل الألف[٥]، كأنها «ياسين» دخلتْ عليها الألف واللام التي للتعريف. والمُراد إلياسُ عليه السلام، وعليه وقع التسليم، ولكنه اسمٌ أعجميٌّ. والعربُ تضطرب في هذه الأسماء الأعجمية ويَكثُر تغييرُهم لها[٦].

قال ابن جِنّي[٧]: العربُ تتلاعب بالأسماء الأعجمية تلاعباً؛ فياسين وإلياس والياسِين شيء واحد.

الزمخشريّ[٨]: وكان حمزةُ إذا وصَلَ نصَبَ، وإذا وقَفَ رفَعَ. وقُرئ: «على إلياسينَ» و«إِدْريسينَ وإِدْرَسين وَإِدْرَاسِينَ»[٩] على أنها لُغات في إلياس وإدريس. ولعلَّ

---

(١) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٥٩.

(٢) ١٨/ ٢٨.

(٣) وهي قراءة ابن عامر.

(٤) وهي قراءة عاصم.

(٥) المحتسب ٢/ ٢٢٣.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٦ و٤٣٨.

(٧) ذكره عنه السُّهيلي في الروض الأنف ١/ ٧٢.

(٨) في الكشاف ٣/ ٣٥٢.

(٩) المحتسب ٢/ ٢٢٥.

لزيادةِ الياء والنون في السُّريانية معنى .

النحاس[١]: ومن قرأ: «سَلَامٌ على آلِ ياسِينَ» فكأنه ـ والله أعلم ـ جعل اسمه إلياس وياسين، ثم سلَّم على آله؛ أي: أهل دينه ومَن كان على مذهبه، وعَلِم أنه إذا سلَّم على آله من أجله، فهو داخلٌ في السلام؛ كما قال النبيّ ﷺ: «اللهم صلِّ على آل أبي أوفى»[٢] وقال الله تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]. ومن قرأ: «إلياسِين» فللعلماء فيه غير قول. فروى هارون عن ابن أبي إسحاق قال: إلياسين مثل إبراهيم؛ يذهبُ إلى أنه اسمٌ له. وأبو عُبيدة[٣] يذهب إلى أنه جُمع جمعَ التسليم على أنه وأهل بيته سلّم عليهم؛ وأنشد:

قَدْنِيَ مِنْ نَصْرِ الخُبَيْبِينَ قَدِي[٤]

يقال: قدني وقَدِي لغتان بمعنى حَسْب. وإنما يُريد أبا خُبَيْب عبدَ الله بن الزبير، فجمعه على أنَّ مَن كان على مَذْهبه داخلٌ معه. وغير أبي عُبيدة يرويه: الخُبَيْبَيْن، على التثنية، يُريد عبد الله ومُصْعباً. ورأيت عليَّ بن سليمان يشرحه بأكثرَ من هذا؛ [قال]: فإن العربَ تُسمِّي قومَ الرجل باسم الرجل الجليل منهم، فيقولون: المهالِبة على أنهم سمَّوْا كلَّ رجل منهم بالمهلَّب. قال: فعلى هذا «سَلَامٌ عَلَى إِلْياسِينَ» سمَّى كلَّ رجل منهم بإلياس. وقد ذكر سيبويه في «كتابه»[٥] شيئاً من هذا، إلا أنه ذكَر أن العربَ تفعلُ هذا على جهة النِّسبة؛ فيقولون: الأشعرون، يريدون به النَّسب .

المهدوي: ومن قرأ: «إلياسِين» فهو جمع يدخل فيه إلياس، فهو جمع إلياسيّ،

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٤٣٦ .

(٢) أخرجه البخاري (١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨)، وسلف ٢/ ٨٢ .

(٣) في مجاز القرآن ٢/ ١٧٢ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس.

(٤) الرجز لحُمَيْد الأرقط، وبعده: ليس الإمام بالشَّحيح المُلحِدِ. وهو في الكتاب ٢/ ٣٧١ ، والخزانة ٥/ ٣٨٢ .

(٥) ٣/ ٤١٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس ٣/ ٤٣٧ ، وما قبله وما بين حاصرتين منه.

فحذفت ياء النِّسبة؛ كما حُذفت ياء النسبة في جمع المُكَسَّر في نحو المهالبة في جمع مهلبيّ، كذلك حُذفت في المسلَّم فقيل: المهلّبون.

وقد حكى سيبويه[١]: الأشعرون والنميرون، يُريدون الأشعريِّين والنميريِّين.

السهيليّ[٢]: وهذا لا يصحُّ، بل هي لغةٌ في إلياس، ولو أراد ما قالوه لأدخلَ الألفَ واللام كما تدخلُ في المهالبة والأشعريين؛ فكان يقول: «سلامٌ على الإلياسِين» لأن العَلم إذا جُمع يُنكَّر حتى يُعرَّف بالألف واللام؛ لاتقول: سلام على زيدين، بل: على الزيدين، بالألف واللام. فإلياسُ عليه السلام فيه ثلاثُ لغات.

النحاس[٣]: واحتجَّ أبو عُبيدة في قراءته: «سَلَامٌ على إِلْياسِينَ» وأنه اسمه كما أن اسمَه إلياس؛ لأنه ليس في السورة سلامٌ على «آل» لغيره من الأنبياء ﷺ، فكما سُمِّي الأنبياء كذا سُمِّي هو. وهذا الاحتجاجُ أصلُه لأبي عمرو، وهو غيرُ لازم؛ لأنَّا بيَّنا قولَ أهل اللغة أنه إذا سلَّم على آله من أجله، فهو سلام عليه. والقولُ بأن اسمه «إلياسين» يحتاجُ إلى دليل ورواية؛ فقد وقع في الأمر إشكال.

قال الماوردي[٤]: وقرأ الحسن: «سلَامٌ على ياسِينَ» بإسقاط الألف واللام[٥]، وفيه وجهان: أحدُهما: أنهم آلُ محمد ﷺ؛ قاله ابن عباس. الثاني: أنهم آل ياسين؛ فعلى هذا في دخول الزيادة في ياسين وجهان: أحدهما: أنها زِيدت لِتَساوي الآي، كما قال في موضع: ﴿طُورِ سَيْنَآءَ﴾ [المؤمنون: ٢٠] وفي موضع آخر ﴿طُورِ سِينِينَ﴾ [التين: ٢]، فعلى هذا يكون السلام على أهله دونَه، وتكون الإضافة إليه تشريفاً له. الثاني: أنها دخلت للجمع فيكون داخلاً في جُملتهم فيكون السلامُ عليه وعليهم.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) في التعريف والإعلام ص ١٤٨.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٣٧.

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٦٥.

(٥) سلف أن الحسن قرأ: «سلام على الياسين» بغير همز.

وقال السُّهيلي(١): قال بعضُ المتكلّمين في معاني القرآن: آلُ ياسين آلُ محمد عليه الصلاة والسلام، ونزعَ إلى قول من قال في تفسير «يس»: يا محمد. وهذا القولُ يَبطُلُ من وجوه كثيرة: أحدها: أن سِياقة الكلام في قصة إلياسين يَلزم أن تكون كما هي في قصة إبراهيم ونوح وموسى وهارون، وأنَّ التسليم راجعٌ عليهم، ولا معنى للخروج عن مقصودِ الكلام لِقول قيل في تلك الآية الأُخرى مع ضَعْف ذلك القول أيضاً؛ فإنَّ «يس» و«حم» و«الم» ونحوَ ذلك القولُ فيها واحدٌ، إنما هي حروفٌ مُقطَّعة؛ إما مأخوذةٌ من أسماء الله تعالى كما قال ابن عباس، وإما من صفات القرآن، وإما كما قال الشعبي: لله في كلِّ كتاب سرٌّ، وسرُّه في القرآن فواتحُ القرآن(٢). وأيضاً فإنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لي خمسةُ أسماء»(٣) ولم يذكُرْ فيها «يس». وأيضاً فإنَّ «يس» جاءت التلاوة فيها بالسكون والوقف، ولو كان اسماً للنبي ﷺ لقال: «ياسينُ» بالضم؛ كما قال تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف:٤٦] وإذا بطلَ هذا القولُ لِما ذكرناه؛ فـ«إلياسين» هو إلياسُ المذكور، وعليه وقع التسليم.

وقال أبو عمرو بن العلاء: هو مثل: إدريس وإدراسين، كذلك هو في مصحف ابن مسعود: ﴿وَإِنَّ إِدْرِيسَ لَمِنَ المُرسِلينَ﴾ ثم قال: «سَلَامٌ على إدراسِين»(٤). ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدَّم.

**قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ . إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾

---

(١) في التعريف والإعلام ص ١٤٨ .

(٢) سلفت هذه الأقوال، والكلام على الحروف المقطعة أول سورة البقرة ١/ ٢٣٧ .

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٣٢)، ومسلم (٢٣٥٤) من حديث جبير بن مطعم ﷺ، وسلف ٩/ ٣٩٢ .

(٤) المحتسب ٢/ ٢٢٥ ، وسلفت الإشارة إليها قريباً.

تقدَّم قصة لوط[١]. ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ أي: بالعقوبة. ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ خاطب العرب: أي تمرُّون على منازلهم وآثارهم «مُصْبِحِينَ» وقتَ الصَّباح ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾ تمرُّون عليهم أيضاً. وتمَّ الكلام. ثم قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: تعتبرون وتتدبَّرون.

**قوله تعالى:** ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾

**فيه ثمان مسائل:**

**الأولى: قوله تعالى:** ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يونس: هو ذو النون، وهو ابن متَّى، وهو ابن العجوز التي نزل عليها إلياس، فاستخفى عندها من قومه ستةَ أشهر ويونسُ صبيٌّ يرضع، وكانت أُمُّ يونس تخدُمه بنفسها وتُؤانسه، ولا تدَّخر عنه كرامة تقدرُ عليها. ثم إن إلياس سئم ضِيقَ البيوت فلحق بالجبال، ومات ابنُ المرأة يونسُ، فخرجت في إثر إلياسَ تطوف وراءه في الجبال حتى وجدَتْه، فسألته أن يدعوَ اللهَ لها لعلّه يُحيي لها ولدها؛ فجاء إلياسُ إلى الصبي بعد أربعةَ عشر يوماً من موته، فتوضأ وصلَّى ودعا اللهَ، فأحيا اللهُ يونسَ بن متى بدعوة إلياس عليه السلام[٢].

وأرسل الله يونس إلى أهل نينَوَى من أرض المَوْصل وكانوا يعبدون الأصنام ثم تابوا، حسبما تقدَّم بيانه في سورة «يونس»[٣]، ومضى في «الأنبياء»[٤] قصة يونس في خروجه مُغاضِباً.

واختلف في رسالته هل كانت قبل التقام الحوت إيَّاه أو بعده.

قال الطبري[٥]: عن شهر بن حَوْشَب: إن جبريل عليه السلام أتى يونس فقال:

---

(١) ١١/١٧٣ وما بعدها.
(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٩.
(٣) ١١/ ٥٤.
(٤) ١٤/ ٢٦٦، وما بعدها.
(٥) في تفسيره ١٩/ ٦٣٩.

انطلق إلى أهل نِينوَى فأنْذِرْهم أن العذاب قد حَضَرهم. قال: ألتمس دابَّة. قال: الأمرُ أعجلُ من ذلك. قال: أَلتمس حذاءً. قال: الأمرُ أعجلُ من ذلك. قال: فغضب فانطلق إلى السفينة فركب، فلما ركب السفينةَ احتبست السفينةُ لا تتقدَّم ولا تتأخَّر. قال: فتساهموا، قال: فسُهِم، فجاء الحوتُ يُبصبص بذنبه؛ فنُودي الحوت: أيا حوت، إنَّا لم نجعل لك يونسَ رزقاً؛ إنما جعلناك له حِرْزاً ومسجداً. قال: فالتقمه الحوتُ من ذلك المكان حتى مَرَّ به إلى الأُبُلَّة[1]، ثم انطلق به حتى مرَّ به على دِجلة، ثم انطلق حتى ألقاه في نِينوى.

حدّثنا الحارث قال: حدثنا الحسن قال: حدثنا أبو هلال قال: حدثنا شهرُ بن حَوْشَب عن ابن عباس قال: إنما كانت رسالةُ يونس بعد ما نبذه الحوت، واستدلَّ هؤلاء بأن الرسولَ لا يخرج مُغاضباً لربِّه، فكان ما جرى منه قبل النبوَّة.

وقال آخرون: كان ذلك منه بعد دعائه من أرسل [إليهم][2] إلى ما أمره اللهُ بدعائهم إليه، وتبليغه إيَّاهم رسالةَ ربِّه، ولكنه وعدَهم نزولَ ما كان حذَّرهم من بأس الله في وقتٍ وَقَّته لهم، ففارقهم إذْ لم يتوبوا ولم يراجعوا طاعة الله، فلما أظلَّ القومَ العذابُ وغَشِيَهم ـ كما قال الله تعالى في تنزيله ـ تابوا إلى الله، فرفع الله العذاب عنهم، وبلغ يونسَ سلامتُهم وارتفاعُ العذاب الذي كان وعدهموه، فغضب من ذلك وقال: وعدتهم وعداً فكذب وعدي. فذهب مغاضباً ربَّه وكَرِهَ الرجوعَ إليهم، وقد جرَّبوا عليه الكذب؛ رواه سعيد بن جُبير عن ابن عباس[3]. وقد مضى هذا في «الأنبياء»[4] وهو الصحيح على ما يأتي عند قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾.

---

(١) هي بلدة على شاطئ دجلة. معجم البلدان ١/ ٧٧.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة ليست في النسخ.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٧٥ و٣٧٦.

(٤) ١٤/ ٢٦٦، وما بعدها.

ولم ينصرف يونسُ؛ لأنه اسمٌ أعجميّ، ولو كان عربيّاً لانصرف وإن كانت في أوّله الياء؛ لأنه ليس في الأفعال يُفْعُل كما أنك إذا سمَّيت بيُعْفُر صرفته؛ وإن سمَّيت بيَعْفُر لم تَصرِفْه[١].

**الثانية**: قوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ قال المبرِّد: أصلُ أَبَقَ تباعد؛ ومنه غلامٌ آبقٌ. وقال غيره: إنما قيل ليونس: أَبَقَ؛ لأنه خرج بغير أمر الله عز وجل مستتراً من الناس. ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي: المملوءة. و«الفُلك» يُذكَّر ويُؤنَّث ويكون واحداً وجمعاً[٢]. وقد تقدّم[٣].

قال الترمذي الحكيم: سمَّاه آبقاً لأنه أَبَقَ عن العبودية، وإنما العبودية تركُ الهوى وبذل النفس عند أمور الله؛ فلما لم يبذل النَّفْسَ عندما اشتدَّت عليه العَزمة من المَلِك ـ حسَبما تقدَّم بيانُه في «الأنبياء»[٤] ـ آثَرَ هواه لَزِمَه اسمُ الآبق، وكانت عزمة المَلِك في أمر الله لا في أمر نفسه، وبحظّ حقِّ الله لا بحظِّ نفسه؛ فتحرَّى يونسُ فلم يُصِبِ الصوابَ الذي عند الله، فسمَّاه: آبقاً، ومُلِيماً.

**الثالثة**: قوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ﴾ قال المبرّد: فقارع، قال: وأصلُه من السِّهام التي تُجال. ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ قال: من المغلوبين. قال الفرّاء[٥]: دَحَضَتْ حُجَّتُه وأَدْحضها الله، وأصلُه من الزَّلَق؛ قال الشاعر:

قَتلْنا الْمُدْحَضِينَ بكُلِّ فَجٍّ    فقد قَرَّتْ بقتلِهِمُ العيونُ[٦]

أي: المغلوبين.

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٨.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٩.

(٣) ٢/ ٤٩٢.

(٤) ١٤/ ٢٦٨، واسم الملك: حزقيا، كما سلف.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٣؛ ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٣٩، وما قبله منه.

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٦٧ ونسبه لأبي قيس.

**الرابعة**: قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: أتى بما يُلام عليه فأما المَلوم: فهو الذي يُلام، استحقَّ ذلك أو لم يستحقَّ[١].

وقيل: المُليم المعيب. يقال: لام الرجل إذا عمل شيئاً فصار معيباً بذلك العمل.

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ قال الكسائي: لم تكسر «أن» لدخول اللام؛ لأن اللام ليست لها. النحاس[٢]: والأمر كما قال؛ إنما اللام في جواب «لولا». ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ أي: من المصلِّين ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: عقوبةً له؛ أي: يكون بطنُ الحوت قبراً له إلى يوم القيامة.

واختُلف كم أقام في بطن الحوت؟. فقال السديّ والكلبيّ ومقاتل بن سليمان: أربعين يوماً. الضحاك: عشرين يوماً. عطاء: سبعة أيام. مقاتل بن حيان: ثلاثة أيام. وقيل: ساعة واحدة[٣]. والله أعلم.

**الخامسة**: روى الطبري من حديث أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لما أراد اللهُ ـ تعالى ذِكْره ـ حَبْسَ يونس في بطن الحوت أَوحى اللهُ إلى الحوت أن خُذْه ولا تَخدِشْ لحماً، ولا تكسِرْ عظماً، فأخذه ثم هوَى به إلى مَسْكنه من البحر؛ فلما انتهى به إلى أسفل البحر سَمِعَ يونسُ حسّاً، فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إليه وهو في بطن الحوت: إنَّ هذا تسبيحُ دوابِّ البحر» قال: «فسبَّحَ وهو في بطن الحوت» قال: «فسمعتِ الملائكةُ تسبيحَه فقالوا: يا ربَّنا، إنَّا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرضٍ غريبة» قال: «ذلك عبدي يونُس عصَاني فحبستُه في بطن الحوت في البحر. قالوا: العبدُ الصالح الذي كان يَصعَدُ إليك منه في كل يوم وليلة عملٌ صالح؟ قال: نعم. فشفعوا له عند ذلك فأمرَ الحوتَ بِقَذْفه في الساحل كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾»[٤].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٩.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٤٣٩، وما قبله منه.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٨٦، وتفسير البغوي ٤/ ٤٣.

(٤) تفسير الطبري ١٦/ ٣٨٥، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٩٨: فيه ابن إسحاق، وهو مدلس، وبقيه رجاله رجال الصحيح.

وكان سقمُه الذي وصفَه به الله تعالى ذكره: أنه ألقاه الحوتُ على الساحل كالصبيّ المَنْفوس قد نُشِر اللحمُ والعظم[1].

وقد رُوي: أن الحوتَ سار مع السفينة رافعاً رأسَه يتنفس فيه يونسُ ويُسبِّح، ولم يُفارقهم حتى انتَهَوْا إلى البرّ، فلفظَهُ سالماً لم يتغيَّر منه شيء فأَسلموا؛ ذكره الزمخشريّ في «تفسيره»[2].

وقال ابن العربي[3]: أخبرني غيرُ واحد من أصحابنا عن إمام الحرمين أبي المعَالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجُويني: أنه سُئل: هل[4] الباري في جهة؟ فقال: لا، هو يتعالَى عن ذلك. قيل له: ما الدليلُ عليه؟ قال: الدليلُ عليه قولُ النبي صله الله عليه وسلم: «لا تُفضِّلوني على يونسَ بن متَّى»[5] فقيل له: ما وجهُ الدليل في هذا الخبر؟ فقال: لا أقوله حتى يأخُذَ ضيفي هذا ألفَ دينار يقضي بها دَيْناً[6]. فقام رجلان فقالا: هي علينا. فقال: لا يتبع بها اثنين؛ لأنه يشقُّ عليه. فقال واحد: هي عليّ. فقال: إنَّ يونسَ بن متّى رمى بنفسه في البحر فالتقمه الحوت، فصار في قَعْر البحر في ظُلمات ثلاث، ونادى ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] كما أخبر الله عنه، ولم يكن محمدٌ ﷺ حين جَلَس على الرَّفرف الأخضر وارتقى به صعداً، حتى انتهى به إلى موضع يسمعُ فيه صَرِيفَ الأقلام، وناجاه ربُّه بما ناجاه به، وأوحى إليه ما أوحى، بأقربَ إلى الله تعالى من يونس في بطن الحوت في ظُلمة البحر.

**السادسة**: ذكر الطبري: أنَّ يونسَ عليه السلام لما رَكِبَ في السفينة أصابَ أهلَها

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٣ من قول ابن زيد.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٥٣ .

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٠٩ .

(٤) في النسخ: عن، والمثبت من أحكام القرآن.

(٥) أخرجه البخاري (٣٤١٣)، ومسلم (٢٣٧٧) بنحوه، وسلف ٤/ ٢٥٤ و١٤/ ٢٧٤ .

(٦) في أحكام القرآن: دينه.

عاصفٌ من الريح، فقالوا: هذه بخطيئة أحدِكم. فقال يونسُ وعَرَفَ أنه هو صاحبُ الذنب: هذه خطيئتي، فألقُوني في البحر، وأنهم أبَوْا عليه حتى أفاضوا بسهامهم ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ فقال لهم: قد أخبرتُكم أن هذا الأمرَ بذنبي. وأنهم أبَوْ عليه حتى أفاضوا بسهامهم الثانية، فكان من المدحضين، وأنهم أبَوْ أن يُلقوه في البحر حتى أعادوا سِهامهم الثالثةَ فكان من المدحضين. فلما رأى ذلك ألقى نفسه في البحر، وذلك تحت الليل فابتلعه الحوت.

ورُوي أنه لما رَكِبَ في السفينة تَقنَّع ورقدَ، فساروا غيرَ بعيد إذْ جاءتهم ريحٌ كادت السفينةُ أن تغرقَ، فاجتمع أهلُ السفينة فدعَوْا فقالوا: أيقظوا الرجلَ النائم يدعو معنا؛ فدعا اللهَ معهم فرفع اللهُ عنهم تلك الريح. ثم انطلق يونسُ إلى مكانه فرقد، فجاءت ريحٌ كادت السفينةُ أن تغرقَ، فأيقظوه ودعَوا اللهَ فارتفعت الريح.

قال: فبينما هم كذلك إذ رفع حوتٌ عظيم رأسَه إليهم أراد أن يبتلعَ السفينةَ، فقال لهم يونس: يا قوم، هذا من أجلي، فلو طرحتموني في البحر لَسِرْتُم، ولَذَهب الريح عنكم والرَّوْع. قالوا: لا نطرحك حتى نتساهم، فمن وقعت عليه رَمَيْناه في البحر. قال: فتساهموا، فوقع على يونس؛ فقال لهم: يا قوم، اطرحوني، فمن أجلي أُوتيتم؛ فقالوا: لا نفعل حتى نتساهم مرةً أُخرى. ففعلوا فوقع على يونس. فقال لهم: يا قوم، اطرحوني، فمن أجلي أُوتيتم؛ فذلك قولُ الله عز وجل: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ أي: وقع السهم عليه؛ فانطلقوا به إلى صَدْر السفينة لِيُلقوه في البحر، فإذا الحوت، فاتحٌ فاه، ثم جاءوا به إلى جانب السفينة، فإذا بالحوت، ثم رجَعوا به إلى الجانب الآخر، فإذا بالحوت فاتحٌ فاه؛ فلما رأى ذلك ألقى بنفسه فالتقمه الحوت؛ فأوحى الله تعالى إلى الحوت: إني لم أجعله لك رزقاً، ولكن جعلتُ بطنك له وعاءً. فمكث في بطن الحوت أربعين ليلة فنادى في الظلمات: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ . فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨] وقد تقدم ويأتي.

ففي هذا من الفِقه أن القُرْعة كانت معمولاً بها في شرع مَن قبلنا، وجاءت في شرعنا على ما تقدَّم في «آل عمران»(١).

قال ابن العربي(٢): وقد وردت القُرعة في الشَّرع في ثلاثة مواطن:

الأول: كان النبي ﷺ إذا أراد سفراً أَقرعَ بين نسائه، فأيتهنَّ خرج سَهْمها خرج بها معه(٣).

الثاني: أن النبي ﷺ رُفِعَ إليه أن رجلاً أعتق ستةَ أَعْبُدٍ لا مالَ له غيرهم، فأَقرعَ بينهم؛ فأَعتق اثنين وأرقَّ أربعة(٤).

الثالث: أن رجلين اختصما إليه في مواريثَ قد دَرَسَتْ فقال: «اذهبا وتوخَّيا الحق واستَهِما ولِيُحلل كل واحدٍ منكما صاحبَه»(٥).

فهذه ثلاثةُ مواطن، وهي القَسْم في النكاح، والعِتق، والقِسمة. وجَريان القُرعة فيها لِرَفْع الإشكال وحَسْم داء التشهِّي.

واختلف علماؤنا في القُرعة بين الزوجات في الغزو على قولين؛ الصحيح منهما الاقتراع؛ وبه قال فقهاءُ الأمصار. وذلك أن السَّفر بجميعهن لا يُمكن، واختيار واحدة منهن إيثارٌ، فلم يبقَ إلا القُرعة. وكذلك في مسألة الأَعْبُد الستة؛ فإن كلَّ اثنين منهما ثلث، وهو القَدْر الذي يجوز له فيه العِتق في مرض الموت، وتعيينهما بالتشهِّي لا يجوز شرعاً؛ فلم يبقَ إلا القُرعة. وكذلك التشاجر إذا وقع في أعيان المواريث لم يُميِّز الحقَّ إلا القُرْعة، فصارت أصلاً في تعيين المستحقّ إذا أَشكل. قال: والحقُّ

---

(١) ٥/ ١٣٢.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦١٠ - ١٦١١، والكلام منه إلى آخر المسألة.

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٨٨)، ومسلم (٢٧٧٠)، وسلف ٥/ ١٣٣.

(٤) أخرجه أحمد (١٩٩٣٢)، ومسلم (١٦٦٨) من حديث عمران بن حصين ﷺ.

(٥) قطعة من حديث أم سلمة رضي الله عنها، أخرجه أحمد (٢٦٧١٧)، وأبو داود (٣٥٨٤)، وأوله: «إنكم تختصمون إليّ، وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم ألحنُ بحجته من بعض..» وأخرجه بأخصر منه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (١٧١٣).

عندي أن تجري في كل مُشكِل، فذلك أبينُ لها، وأقوى لفصل الحُكم فيها، وأجلى لرفع الإشكال عنها؛ ولذلك قلنا: إنَّ القرعة بين الزوجات في الطلاق كالقُرعة بين الإماء في العِتق.

**السابعة**: الاقتراع على إلقاء الآدمي في البحر لا يجوز. وإنما كان ذلك في يونس وزمانِه مقدِّمةً لتحقيق برهانه، وزيادةً في إيمانه؛ فإنه لا يجوز لمن كان عاصياً أن يُقتل ولا يُرمى به في النار أو البحر، وإنما تجري عليه الحدود والتعزير على مقدار جنايته. وقد ظنَّ بعضُ الناس أن البحر إذا هال على القوم فاضطروا إلى تخفيف السفينة أن القُرعة تُضرَبُ عليهم، فيُطرَح بعضُهم تخفيفاً؛ وهذا فاسدٌ؛ فإنها لا تخفُّ برمي بعض الرجال، وإنما ذلك في الأموال، ولكنهم يصبِرون على قضاء الله عز وجل[١].

**الثامنة**: أخبر اللهُ عز وجل أن يونسَ كان من المُسبِّحين، وأن تسبيحَه كان سببَ نَجاته؛ ولذلك قيل: إن العملَ الصالح يرفعُ صاحبَه إذا عَثَر. قال ابن عباس: «مِنَ المُسَبِّحِينَ» من المُصلِّين. قال قتادة: كان يُصلِّي قبلَ ذلك لحفظ الله عز وجل له فنجَّاه. وقال الربيع بن أنس: لولا أنه كان له قبلَ ذلك عملٌ صالح ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ قال: ومكتوب في الحكمة: إنَّ العملَ الصالح يرفع ربَّه إذا عَثَر[٢].

وقال مقاتل: «مِنَ المُسَبِّحِينَ»: من المصلِّين المُطيعين قبلَ المعصية. وقال وهب: من العابدين. وقال الحسن: ما كان له صلاةٌ في بطن الحوت؛ ولكنه قدَّم عملاً صالحاً في حال الرَّخَاء فذكره اللهُ به في حال البلاء، وإنَّ العملَ الصالحَ ليَرفع صاحبَه، وإذا عَثَر وجد مُتَّكَأً[٣]. قلت: ومن هذا المعنى قولُه ﷺ: «مَنْ استطاعَ منكم أن تكونَ له خَبيئةٌ مِن عَمَل صالحٍ فَليفعَلْ»[٤] فيجتهد العبد، ويَحرِص على خَصْلة من

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦١١ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٠، وتنظر الأقوال في تفسير الطبري ١٩/ ٦٢٨ - ٦٣٠ .

(٣) ذكر قولي وهب والحسن البغوي في تفسيره ٤/ ٤٣ .

(٤) أخرجه الدارقطني في العلل ٤/ ٢٤٥ ، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١٣٧٦) من حديث الزبير بن العوام ﷺ مرفوعاً، وأخرجه الدارقطني عنه موقوفاً، وقال: وهو الصحيح.

صالح عمله، يُخلص فيها بينه وبين ربِّه، ويدَّخرها ليوم فاقته وفَقْره، ويَخْبَؤُها بجهده، ويستُرها عن خَلْقه، يَصِلُ إليه نفعُها أحوجَ ما كان إليه. وقد خرَّج البخاري ومسلم من حديث ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بينما ثلاثةُ نَفَر ـ في رواية ممن كان قبلَكم ـ يتماشَوْن أخذَهم المطرُ، فَأوَوْا إلى غارٍ في جبل فانحطَّت على فم الغار صخرةٌ من الجبل فانطبقَتْ عليهم، فقال بعضُهم لبعض انظُروا أعمالاً عَمِلْتُموها صالحةً لله، فادعوا اللهَ بها لعلَّه يَفرُجها عنكم» الحديث بكماله وهو مشهور[1] شُهْرتُه أغنتْ عن تمامه.

وقال سعيد بن جُبير: لما قال في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قَذَفهُ الحوتُ[2]. وقيل: ﴿مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾ من المُصلِّين في بطن الحوت.

قلت: والأظهرُ أنه تسبيحُ اللسان الموافق للجنان، وعليه يدلُّ حديثُ أبي هريرة المذكورقبل الذي ذكره الطبري. قال: فسبَّح في بطن الحوت. قال: فسمعت الملائكةُ تسبيحَه؛ فقالوا: يا ربَّنا، إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة[3]. وتكون «كان» على هذا القول زائدةً؛ أي: فلولا أنه من المُسبِّحين. وفي كتاب أبي داود: عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال: «دعاءُ ذي النون في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لم يدعُ به رجلٌ مسلمٌ في شيء قطُّ إلا استُجيب له» وقد مضَى هذا في سورة «الأنبياء»[4].

فيونس عليه السلام كان قبلُ مصلِّيا مُسبِّحاً، وفي بطن الحوت كذلك.وفي الخبر:

---

(١) أخرجه أحمد (٥٩٧٤) والبخاري (٢٣٣٣)، ومسلم (٢٧٤٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٣١.

(٣) سلف في المسألة الخامسة.

(٤) ١٤/ ٢٧٥، وقد ذكرنا ثمة أننا لم نقف عليه في سنن أبي داود ولا في تحفة الأشراف، وهو في سنن الترمذي (٣٥٠٥).

فنُودي الحوت: إنا لم نجعَلْ يونسَ لك رِزقاً؛ إنما جعلناك له حِرْزاً ومسجداً. وقد تقدَّم[١].

**قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ . وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ روي أن الحوت قَذَفه بساحل قرية من المَوْصل. وقال ابن قُسَيْط عن أبي هريرة: طُرح يونس بالعراء وأنبت اللهُ يَقْطِينةً، فقلنا: يا أبا هريرة، وما اليقطينة؟ قال: شجرةالدُّبَّاء؛ هيَّأ اللهُ له أُرْوِيَّةً[٢] وحشيَّة تأكل من خَشَاش الأرض ـ أو هَشَاش الأرض ـ فَتَفْشِج[٣] عليه فترويه من لَبنها كلَّ عشية وبُكرة حتى نبت. وقال سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: خرج به ـ يعني الحوت ـ حتى لَفَظه في ساحل البحر، فطرحه مثلَ الصبيِّ المنفوس لم ينقص من خَلْقه شيء[٤].

وقيل: إن يونس لما ألقاه الحوتُ على ساحل البحر أنبت اللهُ عليه شجرةً من يقطين، ـ وهي فيما ذُكر شجرةُ القرع ـ يتقطر عليه من اللبن حتى رَجَعت إليه قوَّته. ثم رَجَع ذاتَ يوم إلى الشجرة فوجدها يَبِسَتْ، فحزن وبكى عليها فَعُوتب؛ فقيل له: أَحَزِنت على شجرة وبكيتَ عليها، ولم تحزنْ على مئة ألف وزيادة من بني إسرائيل، من أولاد إبراهيمَ خليلي، أسرى في أيدي العدو، وأردتَ إهلاكهم جميعاً[٥]؟.

وقيل: هي شجرة التين. وقيل: شجرة الموز تغطَّى بورقها، واستظلَّ بأغصانها، وأفطرَ على ثمارها. والأكثرُ على أنها شجرة اليقطين على ما يأتي.

---

(١) في المسألة السادسة.

(٢) الأُرْوِيَّة: أنثى الوعول. القاموس (روي).

(٣) الفَشْج: تفريج ما بين الرجلين.

(٤) أخرجهما الطبري ١٩/ ٦٣٥ و٦٣٢.

(٥) تفسير الطبري ١٩/ ٦٣٥ - ٦٣٦ بنحوه.

ثم إن الله تبارك وتعالى اجتباه فجعله من الصالحين. ثم أمره أن يأتي قومَه ويُخبرهم أن الله تعالى قد تاب عليهم، فعمدَ إليهم حتى لقي راعياً فسأله عن قوم يونس وعن حالهم وكيف هم، فأخبره أنهم بخير، وأنهم على رجاء أن يرجعَ إليهم رسولُهم. فقال له: فأخبِرْهم أني قد لقيتُ يونس. فقال: لا أستطيعُ إلا بشاهد. فسمَّى له عنزاً من غنمه فقال: هذه تشهد لك أنك لقيتَ يونس. قال: وماذا؟ قال: وهذه البقعة التي أنت فيها تشهدُ لك أنك لقيتَ يونس. قال: وماذا؟ قال: وهذه الشجرةُ تشهد لك أنك لقيتَ يونس. وأنه رجَع الراعي إلى قومه فأخبرهم أنه لقي يونسَ فكذَّبوه، وهمُّوا به شرّاً فقال: لا تَعْجَلوا عليَّ حتى أُصبح، فلما أصبح غدا بهم إلى البقعة التي لقي فيها يونس، فاستنطقها فأخبرتهم أنه لقي يونس، واستنطق الشاةَ والشجرةَ فأخبرتاهم إنه لقي يونس، ثم إن يونس أتاهم بعد ذلك. ذكر هذا الخبرَ وما قبله الطبري رحمه الله[١].

﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾ طرحناه. وقيل: تركناه ﴿بِالعراءِ﴾ بالصحراء؛ قاله ابن الأعرابي[٢]. الأخفش: بالفضاء. أبو عُبيدة: الواسع من الأرض.

الفراء: العراء المكان الخالي. قال: وقال أبو عُبيدة: العراء وجهُ الأرض[٣]؛ وأنشد لرجل من خُزاعة:

ورفعتُ رِجلاً لا أخافُ عِثارها ... ونَبَذْتُ بالبلدِ العَراءِ ثِيابي[٤]

وحكى الأخفش[٥] في قوله: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ جمع سقيم [سَقْمى و] وسقامَى وسِقام.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ١١/٥٤١ - ٥٤٢، وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/٢٨٨. وهو في عرائس المجالس ص ٤١٣ - ٤١٤.

(٢) ياقوتة الصراط ص٤٣٢.

(٣) مجاز القرآن ٢/ ١٧٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٦/ ٥٧، وقول الفراء السالف منه وعبارة مجاز القرآن: بالعراء، أي: الأرض الفضاء.

(٤) أورده المبرد في الكامل ٤/ ٣٦٠، والطبري في تفسيره ١٩/ ٦٣١.

(٥) نقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٠، وما بين حاصرتين الآتي منه.

وقال في هذه السورة: «فَنَبَذْنَاهُ بِالعَرَاءِ» وقال في «نون والقلم»: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [الآية: ٤٩] والجواب: أن الله عز وجل خبَّر هاهنا أنه نبذه بالعراء وهو غيرُ مذموم، ولولا رحمةُ الله عز وجل لَنُبِذَ بالعراء وهو مذموم؛ قاله النحاس.

وقوله: «وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ» يعني «عَلَيْهِ» أي: عنده؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ﴾ [الشعراء: ١٤] أي: عندي. وقيل: «عَلَيْه» بمعنى له.

«شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ» اليقطين: شجر الدُّبَّاء: وقيل غيرها؛ ذكره ابن الأعرابي[(١)]. وفي الخبر: «الدُّبَّاء والبِطِّيخ من الجنة»[(٢)] وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة».

وقال المبرّد: يقال لكل شجرة ليس لها ساق يفترشُ ورقها على الأرض: يقطينة، نحو: الدُّبَّاء، والبطيخ، والحنظل، فإن كان لهاساق يُقِلُّها فهي شجرة فقط، وإنْ كانت قائمةً، أي: بعروق تفترش فهي نجمة، وجمعها: نَجْم[(٣)]؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦] ورُوي نحوه عن ابن عباس والحسن ومقاتل. قالوا: كلُّ نبت يمتدُّ ويبسط على الأرض، ولا يبقى على استواء، وليس له ساق نحو القِثَّاء والبطيخ والقرع والحنظل فهو يقطين. وقال سعيد بن جبير: هو كلُّ شيء ينبتُ، ثم يموت من عامِه[(٤)]. فيدخل في هذا الموز.

قلت: وهو مماله ساق. الجوهري[(٥)]: واليقطين مالا ساق له كشجر القرع ونحوه. الزجاج[(٦)]: اشتقاق اليقطين من: قَطَنَ بالمكان، إذا أقام به، فهو يَفْعيل.

---

(١) ياقوتة الصراط ص ٤٣٢.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٠.

(٤) قولا ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير أخرجهما الطبري ١٩/ ٦٣٣.

(٥) الصحاح (قطن).

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٣١٤.

وقيل: هو اسمٌ أعجميٌّ. وقيل: إنما خص اليقطين بالذكر؛ لأنه لا ينزل عليه ذباب[١]. وقيل: ما كان ثَمَّ يقطين فأنبته اللهُ في الحال.

القشيري: وفي الآية ما يدلُّ على أنه كان مفروشاً ليكون له ظلّ.

الثعلبي: كانت تُظِلُّه فرأى خُضرتها فأعجبته، فيبستْ فجعل يتحزن عليها؛ فقيل له: يا يونس، أنت الذي لم تَخلُق، ولم تَسقِ، ولم تُنبتْ تحزن على شُجيرة، فأنا الذي خلقتُ مئة ألف من الناس أو يزيدون تُريد مني أن أستأصِلَهم في ساعة واحدة، وقد تابوا وتبتُ عليهم؟! فأين رحمتي يا يونس، أنا أرحمُ الراحمين[٢].

ورُوي عن النبيّ ﷺ أنه كان يأكل الثَّريد باللحم والقرع. وكان يَحبُّ القرع ويقول: «إنها شجرةُ أخي يونس»[٣].

وقال أنس: قُدِّم للنبيّ ﷺ مَرَقٌ فيه دُبّاء وقَدِيد، فجعل يتَّبع الدُّبَّاء من حوالَى القَصْعة. قال أنس: فلم أَزَلْ أُحبُّ الدُّبّاء من يومئذ. أخرجه الأئمة[٤].

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قد تقدَّم عن ابن عباس أن رسالةَ يونس عليه السلام إنما كانت بعد ما نبذَه الحوت[٥]، وليس له طريقٌ إلا عن شَهْر بن حَوْشَب.

النحاس[٦]: وأجودُ منه إسناداً وأصحُّ ما حدَّثناه عليّ[٧] بن الحسين قال: حدّثنا الحسن بن محمد قال: حدّثنا عمرو بن العَنْقَزيّ قال: حدّثنا إسرائيل، عن أبي

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٨٧.

(٢) عرائس المجالس ص ٤١٣ - ٤١٤ بنحوه.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) أخرجه البخاري (٥٤٣٩)، ومسلم (٢٠٤١).

(٥) ١٨/ ٩٢ - ٩٣.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٠، وما قبله منه.

(٧) في (م): عن علي.

إسحاق، عن عمرو بن ميمون قال: حدّثنا عبدُ الله بن مسعود في بيت المال عن يونس النبيّ ﷺ قال: إنَّ يونسَ وعدَ قومَه العذابَ وأخبرهم أنه[١] يأتيهم إلى ثلاثة أيام، ففرَّقوا بين كلِّ والدةٍ وولدِها، وخرجوا فجأروا إلى الله عز وجل واستغفروا، فكفَّ اللهُ عز وجل عنهم العذابَ، وغدا يونسُ عليه السلام ينتظر العذابَ فلم يَرَ شيئاً ـ وكان مَن كَذَب ولم تكن له بيِّنةٌ قُتِلَ ـ فخرج يونسُ مُغاضِباً، فأتى قوماً في سفينة فحملوه وعَرَفوه، فلما دخل السفينة ركدت السفينةُ، والسُّفن تَسير يميناً وشِمالاً، فقالوا: ما لِسفينتكم؟ فقالوا: لا نَدري. فقال يونسُ عليه السلام: إنَّ فيها عبداً آبقاً من ربِّه جلَّ وعزَّ، وإنها لن تسيرَ حتى تُلقوه. قالوا: أمَّا أنت يا نبيَّ الله فإنَّا لا نُلقيك.

قال: فاقترِعوا، فمن قُرِع فَلْيقَعْ، فاقترَعوا فقرعهم يونسُ فأبَوْ أن يدعوه، قال: فاقترِعوا ثلاثاً فمن قُرِع فَلْيقع، فاقترَعوا فقرعهم يونسُ ثلاثَ مرات ـ أو قال: ثلاثاً ـ فوقع. وقد وكَّل الله به جلَّ وعزَّ حوتاً فابتلعه وهو يهوي به إلى قَرار الأرض، فسمع يونسُ عليه السلام تسبيح الحصى ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] قال: ظُلمة الليل، وظُلمة البحر، وظُلمة بطن الحوت.

قال: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ﴾ قال: كهيئة الفَرْخ الممعوط الذي ليس عليه ريش. قال: وأنبت اللهُ عليه شجرةً من يقطين فنبتت، فكان يستظلّ بها ويُصيب منها، فيبست فبكى عليها؛ فأوحى الله جل وعز إليه: أتبكي على شجرة يَبِستْ، ولا تبكي على مئة ألف أو يَزيدون أردتَ أن نُهلِكَهم[٢]؟! قال: وخَرج رسولُ الله يونس فإذا هو بغلام يرعى؛ قال: يا غلام، من أنت؟ قال: من قوم يونس. قال: فإذا جئتَ إليهم فأخبرهم أنك قد لقيتَ يونس. قال: إن كنتَ يونس فقد علمتَ أنه من كذب قُتِل إذا لم تكن له بينة، فمن يشهدُ لي؟ قال: هذه الشجرة وهذه البقعة. قال: فَمُرْهما؛ فقال لهما

---

(١) في النسخ: أن، والمثبت من إعراب القرآن.

(٢) في (د) و(م): تهلكهم.

يونس: إذا جاءَكُما هذا الغلامُ فاشهدا له. قالتا: نعم.

قال: فرجَع الغلام إلى قومه وكان في مَنَعة، وكان له إخوة، فأتى المَلِكَ فقال: إني قد لقيتُ يونسَ وهو يقرأ عليك السلام. قال: فأمرَ به أن يُقتل؛ فقالوا: إن له بيِّنةً، فأرسلوا معه. فأتى الشجرة والبقعةَ فقال لهما: نشدتُكما بالله جل وعز، أتشهدانِ أني لقيتُ يونس؟ قالتا: نعم، قال: فرجعَ القومُ مذعورين يقولون له: شهدَتْ له الشجرة والأرض، فأتَوا الملكَ فأخبروه بما رأَوْا. قال عبد الله: فتناول الملكُ يدَ الغلام فأجلسه في مجلسه، وقال: أنت أحقُّ بهذا المكان مني.

قال عبد الله: فأقام لهم ذلك الغلام أمرَهم أربعين سنة.

قال أبو جعفر النحاس: فقد تبين في هذا الحديث أن يونسَ كان قد أُرسل قبل أن يلتقمه الحوتُ بهذا الإسناد الذي لا يُؤخَذ بالقياس.

وفيه أيضاً من الفائدة أن قوم يونس آمنوا ونَدِموا قبل أن يَرَوُا العذابَ؛ لأن فيه أنه أخبرهم أنه يأتيهم العذابُ إلى ثلاثة أيام، ففرَّقوا بين كل والدة وولدها، وضجُّوا ضجةً واحدة إلى الله عز وجل. وهذا هو الصحيح في الباب، وأنه لم يكن حكم الله عز وجل فيهم كحكمه في غيرهم في قوله عز وجل: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥] وقوله عز وجل: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ الآية [النساء: ١٨].

وقال بعض العلماء: إنهم رأَوْا مخائلَ العذاب فتابوا. وهذا لا يمنع[١]، وقد تقدَّم ما للعلماء في هذا في سورة «يونس» فَلْيُنظر هناك[٢].قوله تعالى: «أَوْ يَزِيدُونَ» قد مضَى في «البقرة»[٣] محاملُ «أو» في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾. وقال الفراء[٤]:

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٢.

(٢) ١١/ ٥٤ - ٥٥.

(٣) ٢/ ٢٠٥.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٣، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٣.

«أو» بمعنى بل. وقال غيره: إنها بمعنى الواو، ومنه قول الشاعر:

فلما اشتدَّ أمرُ الحربِ فينا تأمَّلنا رِياحاً أو رِزاما[١]

أي: ورِزاماً. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ [النحل: ٧٧].

وقرأ جعفر بن محمد: «إلى مئة ألف ويزِيدون» بغير همز[٢]؛ فـ«يزِيدون» في موضع رفع بأنه خبر مبتدأ محذوف، أي: وهم يَزيدون.

النحاس[٣]: ولا يصحُّ هذان القولان عند البصريين، وأنكروا كونَ «أو» بمعنى بل وبمعنى الواو؛ لأن بل للإضراب عن الأوّل والإيجاب لما بعده، وتعالى الله عز وجل عن ذلك، أو خروج من شيء إلى شيء، وليس هذا موضعَ ذلك؛ والواو معناه خلافُ معنى «أو» فلو كان أحدُهما بمعنى الآخر لَبطلت المعاني؛ ولو جاز ذلك لكان: وأرسلناه إلى أكثرَ من مئة[٤] ألف أخصرَ.

وقال المبرد: المعنى: وأَرسلناه إلى جماعة لو رأيتموهم لَقُلتم: هم مئةُ ألف أو أكثر، وإنما خُوطب العباد على ما يعرفون.

وقيل: هو كما تقول: جاءني زيد أو عمرو، وأنت تعرِف مَن جاءك منهما إلا أنك أبهمتَ على المُخاطَب.

وقال الأخفش والزجاج: أي: أو يزيدون في تقديركم[٥]. قال ابن عباس: زادوا على مئة ألف عشرين ألفاً. ورواه أُبيّ بن كعب مرفوعاً[٦]. وعن ابن عباس أيضاً:

---

(١) لم نقف عليه، وسلف ١٧/ ٣١٣.

(٢) المحتسب ٢/ ٢٢٦.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٣.

(٤) في النسخ: مئتي ألف، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

(٥) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٦٩، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٣١٤.

(٦) أخرجه الترمذي (٣٢٢٩)، والطبري ١٩/ ٦٣٧. قال الترمذي: هذا حديث غريب.

ثلاثين ألفاً[١]. الحسن والربيع: بضعاً وثلاثين ألفاً. وقال مقاتل بن حيان: سبعين ألفاً[٢]. ﴿فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعۡنَـٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ أي: إلى مُنتهى آجالهم.

**قوله تعالى:** ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثٗا وَهُمۡ شَـٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَـٰنٞ مُّبِينٞ ﴿١٥٦﴾ فَأۡتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَـٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾ لما ذكر أخبارَ الماضين تسليةً للنبي ﷺ احتجَّ على كفار قريش في قولهم: إنَّ الملائكةَ بناتُ الله؛ فقال: «فَاسْتَفْتِهِمْ». وهو معطوفٌ على مثله في أول السورة وإنْ تباعدَتْ بينهم المسافة؛ أي: فَسَلْ يا محمد أهلَ مكة: «أَلِرَبِّكَ البناتُ». وذلك أن جُهَينةَ وخُزاعةَ وبني مُلَيْح وبني سلمة وعبد الدار زعَموا أن الملائكةَ بناتُ الله. وهذا سؤالُ توبيخ.

﴿أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثٗا وَهُمۡ شَـٰهِدُونَ﴾ أي: حاضرون لِخَلْقنا إيَّاهم إناثاً؛ وهذا كما قال الله عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَـٰدُ ٱلرَّحۡمَـٰنِ إِنَـٰثًاۚ أَشَهِدُوا۟ خَلۡقَهُمۡۚ﴾ [الزخرف: ١٩][٣]. ثم قال: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ﴾ وهو أسوأُ الكذب ﴿لَيَقُولُونَ . وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَـٰذِبُونَ﴾ في قولهم: إنَّ لله ولداً وهو الذي لا يلِدُ ولا يُولد.

و«إنّ» بعد «ألَا» مكسورة؛ لأنها مبتدأة. وحكى سيبويه أنها تكون بعد أَمَا مفتوحةً أو مكسورة؛ فالفتح على أن تكون أَمَا بمعنى حقّاً، والكسر على أن تكون أَمَا بمعنى ألَا.

النحاس[٤]: وسمعتُ علي بن سليمان يقول: يجوز فتحُها بعد ألَا تشبيهاً بأمَا،

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٣٧.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٣٧ من قول سعيد بن جبير.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٤ بنحوه.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٣ - ٤٤٤، وما قبله منه.

وأمّا في الآية فلا يجوز إلا كسرُها؛ لأن بعدَها اللام[١].

وتمامُ الكلام «لَكَاذِبُونَ». ثم يبتدئ ﴿أَصْطَفَى﴾ على معنى التقريع والتوبيخ كأنه قال: وَيْحَكم «أَصْطَفَى البناتِ» أي: أَخْتار البناتِ وتركَ البنين؟.

وقراءةُ العامة: «أَصْطَفَى» بقطع الألف؛ لأنها ألفُ استفهام دخلت على ألفِ الوصل، فَحُذفت ألفُ الوصل وبقيتْ ألفُ الاستفهام مفتوحةً مقطوعةً على حالها، مثل: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾[٢] [مريم:٧٨] على ما تقدَّم.

وقرأ أبو جعفر وشيبةُ ونافع وحمزة: «اصْطَفَى» بوصل الألف على الخبر بغير استفهام[٣]. وإذا ابتدأ كَسَرَ الهمزة. وزعم أبو حاتم أنه لا وجهَ لها؛ لأن بعدها ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ فالكلام جارٍ على التوبيخ. [قال أبو جعفر[٤]: هذه القراءة وإن كانت شاذة فهي تجوز من جهتين: إحداهما: أن يكون تبييناً وتفسيراً لما قالوه من الكذب ويكون ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ منقطعاً مما قبلَه. والجِهةُ الثانية: أنه قد حكى النحويون ـ منهم الفراء ـ أن التوبيخَ يكون باستفهام وبغير استفهام كما قال جل وعز: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وقيل: هو على إضمار القول، أي: ويقولون: «اصطفى البنات» أو يكون بدلاً من قوله: «وَلَدَ اللهُ»[٥] لأنَّ ولادةَ البناتِ واتخاذَهنَّ اصطفاءٌ لهنَّ، فأبدل مثالَ الماضي من مثال الماضي، فلا يوقف على هذا على «لَكاذِبُونَ».

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ في أنه لا يجوز أن يكونَ له ولد. ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ حُجَّة

---

(١) في النسخ: الرفع، والمثبت من إعراب القرآن.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٤ بنحوه.

(٣) قراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٦٠، وقراءة نافع وحمزة ـ وهي غير المشهورة عنهما ـ ذكرها النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤، والكلام منه بنحوه.

(٤) هو النحاس وما بين حاصرتين منه من إعراب القرآن له.

(٥) الكشاف ٣/ ٣٥٤ بنحوه.

وبُرهان. ﴿فَأْتُوا بِكِتَٰبِكُمْ﴾ أي: بحججكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم.

**قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾**

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ أكثرُ أهل التفسير أنَّ الجِنّة هاهنا الملائكة. روى ابن أبي نَجيح عن مجاهد قال: قالوا ـ يعني كفار قريش ـ: الملائكة بناتُ الله جل وتعالى. فقال: أبو بكر الصديق ﷺ: فمن أُمَّهاتُهنَّ. قالوا: مُخدَّرات الجنّ[١].

وقال أهل الاشتقاق: قيل لهم: جِنَّة، لأنهم لا يُرَوْن[٢]. وقال مجاهد: إنهم بطنٌ من بطون الملائكة يقال لهم: الجِنَّة[٣].

ورُوي عن ابن عباس. وروى إسرائيل عن السدي عن أبي مالك قال: إنما قيل لهم: جِنة؛ لأنهم خُزَّانٌ على الجِنان والملائكةُ كلُّهم جِنَّة[٤].

«نَسَباً» مصاهرة. قال قتادة والكلبي ومقاتل: قالت اليهودُ لَعَنهم الله: إنَّ الله صاهر الجِنّ، فكانت الملائكةُ من بينهم. وقال مجاهد والسُّدي ومقاتل أيضاً: القائلُ ذلك كِنانة وخُزاعة؛ قالوا: إنَّ الله خطبَ إلى ساداتِ الجنّ فزوَّجوه من سَرَوات بناتهم، فالملائكةُ بناتُ الله من سَرَوات بنات الجنّ. وقال الحسن: أشركوا الشيطانَ في عبادة الله، فهو النَّسب الذي جعلوه[٥].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٦٥ ، وأخرجه الطبري ١٩/ ٦٤٥ مخدرات، جمع مخدرة، قال ابن الأثير في النهاية (خدر): الخِدْر: ناحية في البيت. . تكون فيه الجارية البكر، خُدِّرت، فهي مُخدَّرة. اهـ، وفي تفسير الطبري: سروات الجن. يعني أشرافهم. اللسان (سرو).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٤ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٧١ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٤ .

(٥) ذكر هذه الأقوال بنحوها الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٧٠ - ٧١ .

قلت: قولُ الحسن في هذا أحسنُ؛ دليلُه قوله تعالى: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٩٨] أي: في العبادة. وقال ابن عباس والضحاك والحسن أيضاً: هو قولُهم إنَّ الله تعالى وإبليسَ أخوان؛ تعالى الله عن قولهم علوّاً كبيراً(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾ أي: الملائكة ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني قائل هذا القول ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ في النار؛ قاله قتادة. وقال مجاهد: للحساب(٢).

الثعلبي: الأولُ أولى؛ لأن الإحضار تكرَّر في هذه السورة، ولم يُرِدِ الله به غيرَ العذاب. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: تنزيهاً لله عما يَصِفون. ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فإنهم ناجون من النار.

**قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾**

**فيه ثلاث مسائل:**

**الأولى**: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ «ما» بمعنى الذي. وقيل: بمعنى المصدر، أي: فإنكم وعبادتَكم لهذه الأصنام. وقيل: أي: فإنكم مع ما تعبُدون من دون الله؛ يقال: جاء فلانٌ وفلان. وجاء فلانٌ مع فلان. ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على الله ﴿بِفَٰتِنِينَ﴾ بمضلِّين(٣).

النحاس(٤). أهلُ التفسير مُجمعون فيماعلمت على أن المعنى: ما أنتم بمضلِّين أحداً إلا من قدَّر اللهُ عز وجل عليه أن يَضِلَّ.

وقال الشاعر:

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٤٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٧١، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٩/ ٦٤٦.

(٣) الكلام بنحوه في الكشاف ٣/ ٣٥٥، وينظر الدر المصون ٩/ ٣٣٥.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٥.

فــردَّ بــنــعــمــتــه كــيــدَهُ عــلــيــهِ وكــان لــنــا فــاتِــنــا

أي: مُضِلاًّ[١].

**الثانية**: في هذه الآية ردٌّ على القَدَرية. قال عمر[٢] بن ذرّ: قَدِمنا على عمر بن عبد العزيز فذُكِر عنده القَدَر، فقال عمر: لو أراد اللهُ ألَّا يُعْصَى ما خلقَ إبليسَ وهو رأسُ الخطيئة، وإن في ذلك لَعلماً في كتاب الله جل وعز، عَرَفه من عَرَفه، وجَهِلَه مَن جَهِلَه؛ ثم قرأ: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ . مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ إلا مَن كَتب الله عز وجل عليه أن يَصلَى الجحيم. وقال: فَصَلَتْ هذه الآيةُ بين الناس[٣].

وفيها من المعاني أن الشياطين لا يَصِلون إلى إضلال أحدٍ إلا مَن كَتَبَ الله عليه أنه لا يهتدي، ولو علم اللهُ جل وعز أنه يهتدي لَحَالَ بينه وبينهم؛ وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤] أي: لستَ تَصِلُ منهم إلى شيء إلَّا إلى ما في علمي[٤]. وقال لَبِيد بن ربيعة في تثبيت القدَرِ فأَحسَنَ:

إنّ تَــقْــوى ربِّــنــا خــيــرُ نَــفَــلْ وبِــإذنِ الــلــه رَيْــثــي وعَــجَــلْ

أَحــمَــدُ الــلــهَ فــلا نِــدَّ لــهُ بِــيــديــهِ الــخــيــرُ مــا شاء فَــعَــلْ

مَــنْ هَــدَاهُ سُــبُــلَ الــخــيــر اهــتــدى نــاعِــم الــبَــالِ ومَــنْ شــاء أَضَــل[٥]

قال الفراء[٦]: أهلُ الحجاز يقولون: فتنتُ الرجل، وأهل نجد يقولون: أَفتنته.

**الثالثة**: رُوي عن الحسن أنه قرأ: «إلَّا مَن هو صَالُ الجحيمِ» بضم اللام.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٧٢.

(٢) في (د) و(ز) و(ظ) و(م): عمرو، والمثبت من (ف). وهو عمر بن ذر بن عبد الله بن زرارة الهَمْداني، المرهبي، أبو ذر الكوفي، رُمي بالإرجاء. تهذيب التهذيب ٣/ ٢٢٣.

(٣) أخرجه بنحوه الآجري في الشريعة ص ٢٣٠، واللا لكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١٢٤٥)، والبيهقي في الاعتقاد ص ١٠٤.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٥.

(٥) ديوان لبيد ص١٧٤، والبيت الأول سلف ٩/ ٤٤٣.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٥.

النحاس[١]: وجماعةُ أهل التفسير يقولون: إنه لحن؛ لأنه لا يجوزُ: هذا قاضُ المدينةِ. ومن أحسن ما قيل فيه ما سمعتُ عليَّ بن سليمان يقوله؛ قال: هو محمولٌ على المعنى؛ لأن معنى «مَنْ» جماعة؛ فالتقدير: صالون؛ فحذفت النون للإضافة، وحُذفت الواو لالتقاء الساكنين. وقيل: أصلُه فاعل إلا أنه قُلب من صالٍ إلى صايل، وحذفت الياء وبقيت اللام مضمومةً، فهو مثل: «شَفَا جُرُفٍ هَارٍ».

ووجهٌ ثالث: أن تحذف لام «صال» تخفيفاً، وتجري الإعراب على عينه، كما حُذف من قولهم: ما باليت به بالة. وأصلُها: بالية، من بالَى، كعافية من عافَى؛ ونظيرُه قراءةُ من قرأ: «وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانُ[٢]» [الرحمن: ٥٤]، «وَلَهُ الْجَوَارُ الْمُنْشَآتُ»[٣] [الرحمن: ٢٤] أجرى الإعرابَ على العين[٤]. والأصلُ في قراءة الجماعة: صالي، بالياء، فحذفها الكاتبُ من الخطّ لِسُقوطها في اللفظ.

**قوله تعالى:** ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾

هذا مِن قول الملائكة تعظيماً لله عز وجل، وإنكاراً منهم عبادةَ مَنْ عَبَدَهم. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ . وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ قال مقاتل: هذه الثلاثُ الآيات نزلتْ ورسول الله ﷺ عند سِدرة المُنتهى، فتأخَّر جبريلُ، فقال النبي ﷺ: «أَهُنا تُفارقني» فقال: ما أستطيع أن أتقدَّمَ عن مكاني[٥]. وأنزل الله تعالى حكايةً عن قول الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ الآيات.

والتقدير عند الكوفيين: وما منا إلا مَن له مقامٌ معلوم، فحذف الموصول.

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٥ - ٤٤٦، وما قبله منه، وقراءة الحسن في القراءات الشاذة ص١٢٨، والمحتسب ٢/ ٢٢٨.

(٢) لم نقف على من قرأ بها.

(٣) قرأ بها ابن مسعود والحسن كما في القراءات الشاذة ص١٤٩.

(٤) الكشاف ٣/ ٣٥٦، وينظر البيان لأبي البركات الأنباري ٢/ ٣١٠.

(٥) لم نقف عليه.

والتقدير عند الكوفيين: وما منا إلا مَن له مقامٌ معلوم، فحذف الموصول. وتقديره عند البصريين: وما منا مَلَكٌ إلا له مقامٌ معلوم[١]؛ أي: مكان معلومٌ في العبادة؛ قاله ابن مسعود وابن جُبير[٢]. وقال ابن عباس: ما في السماوات موضعُ شبرٍ إلا وعليه مَلَكٌ يُصلِّي ويُسبح[٣]. وقالت عائشة رضي الله عنها: قال النبي ﷺ: «ما في السماء موضعُ قَدَم إلا عليه مَلَكٌ ساجدٌ أو قائم[٤]».

وعن أبي ذرٍّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إني أرى ما لا تَرون، وأسمعُ ما لا تسمعون أَطَّتِ السماءُ وحُقَّ لها أن تَئِطّ، ما فيها موضعُ أربعِ أصابعَ إلا وَملَكٌ واضعٌ جبهتَه ساجداً لله، والله، لو تعلمون ما أعلمُ لَضَحِكْتُم قليلاً ولَبَكَيتُم كثيراً، وما تلذَّذتُم بالنساء على الفُرش، ولخَرجتم إلى الصُّعُدات تَجْأَرون إلى الله» لَوَدِدْتُ أني كنتُ شجرةً تُعضَد. خرجه أبو عيسى الترمذي[٥]، وقال فيه: حديث حسن غريب. ويروى من غير هذا الوجه أن أبا ذرّ قال: لَوَدِدْتُ أني كنت شجرةً تُعْضَد[٦]. ويروى عن أبي ذرّ موقوفاً[٧].

وقال قتادة: كان يُصلِّي الرجال والنساء جميعاً حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾. قال: فتقدَّم الرجال وتأخَّر النساء[٨].

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ قال الكلبي: صفوفُهم كصفوفِ أهل الدنيا في الأرض[٩].

وفي «صحيح مسلم»: عن جابر بن سَمُرةَ قال: خرجَ علينا رسولُ الله ﷺ ونحن

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٦.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٧٢.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٥.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٥١.

(٥) في سننه (٢٣١٢)، وسلف ٥/ ٤٢٨.

(٦) أخرجه أحمد (٢١٥١٦).

(٧) أخرجه الحاكم ٤/ ٥٧٩ مختصراً على قوله: لو تعلمون ما أعلم... إلى آخره.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٧٢.

(٩) تفسير البغوي ٤/ ٤٥.

كيف تَصُفُّ الملائكةُ عند ربِّها؟ قال: «يُتِمُّون الصفوفَ الأُول، ويتراصُّون في الصفّ»(١).

وكان عمر يقول إذا قام للصلاة: أَقيموا صُفوفَكم واستووا، إنما يريدُ الله بكم هَذْي الملائكة عند ربِّها ويقرأ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ تأخَّر يا فلان، تقدَّم يا فلان؛ ثم يتقدَّم فَيُكَبِّر(٢). وقد مضى في سورة «الحجر» بيانُه(٣).

وقال أبو مالك: كان الناسُ يُصلُّون مُتبدِّدين، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ فأمرهم النبيُّ ﷺ أن يَصْطفُّوا(٤).

وقال الشعبي: جاء جبريلُ أو ملَكٌ إلى النبي ﷺ فقال: تقوم أَدنى من ثُلثي الليل ونِصْفَه وثُلُثَه؛ إنَّ الملائكة لَتُصلي وتُسبِّح، ما في السماء ملَك فارغ(٥).

وقيل: أي: لَنحن الصافُّون أجنحتنا في الهواء وقوفاً ننتظرُ ما نُؤمَر به. وقيل: أي: نحن الصافُّن حولَ العرش.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ أي: المُصلُّون؛ قاله قتادة. وقيل: أي: المُنزِّهون اللهَ عمَّا أضافه إليه المشركون(٦). والمراد أنهم يُخبرون أنهم يعبدون اللهَ بالتسبيح والصلاة، وليسوا معبودين ولا بناتِ الله.

وقيل: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ من قول الرسول ﷺ والمؤمنين للمشركين؛ أي: لكل واحدٍ منا ومنكم في الآخرة مقامٌ معلوم، وهو مقامُ الحساب. وقيل: أي: مِنَّا من له مقامُ الخوف، ومِنَّا من له مقامُ الرَّجاء، ومِنا من له مقامُ الإخلاص، ومِنَّا مَن له مقامُ الشُّكر، إلى غيرها من المقامات.

---

(١) صحيح مسلم (٤٣٠)، وهو في مسند أحمد (٢٠٩٦٤).

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٥٣ .

(٣) ١٢/ ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٧٢ .

(٥) ذكره أبو الليث في تفسيره ٣/ ١٢٦ دون نسبة.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٧٢ .

قلت: والأظهرُ أن ذلك راجعٌ إلى قول الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾، والله أعلم.

**قوله تعالى:** ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

عاد إلى الإخبار عن قول المشركين، أي: كانوا قبلَ بعثة محمد ﷺ إذا عُيِّروا بالجهل قالوا: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: لو بُعِثَ إلينا نبيٌّ ببيان الشرائع لاتَّبعناه.

ولمّا خففت «إنْ» دخلتْ على الفعل ولَزِمتها اللامُ فَرْقاً بين النَّفي والإيجاب. والكوفيون يقولون: «إنْ» بمعنى ما، واللام بمعنى إلا[1]. وقيل: معنى ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا﴾ أي: كتاباً من كتب الأنبياء ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي: لو جاءنا ذكرٌ كما جاء الأوّلين لأخلصنا العبادةَ لله. ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: بالذِّكر. والفراء[2] يُقدِّره على حذف؛ أي: فجاءهم محمد ﷺ بالذِّكر فكفروا به. وهذا تعجيبٌ منهم، أي: فقد جاءهم نبيٌّ وأُنزلَ عليهم كتابٌ فيه بيانُ ما يحتاجون إليه فكفروا وما وفَوْا بما قالوا.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ قال الزجاج[3]: يعلمون مَغَبَّة كُفْرهم.

**قوله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قال الفراء[4]: أي: بالسعادة.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٦ - ٤٤٧.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٧.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣١٦، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٧.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٧.

وقيل: أراد بالكلمة قوله عز وجل: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾(١) [المجادلة: ٢١] قال الحسن: لم يُقتَل من [الرُّسُل] أصحابِ الشرائع قط أحدٌ(٢).

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ أي: سبق الوعدُ بنصرهم بالحُجَّة والغَلَبة. ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ على المعنى، ولو كان على اللَّفظ لكان: هو الغالبَ مثل ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾. وقال الشَّيباني(٣): جاء هاهنا على الجمع من أجل أنه رأسُ آية.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرِضْ عنهم. ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ قال قتادة: إلى الموت. وقال الزجاج(٤): إلى الوقت الذي أُمهلوا إليه. وقال ابن عباس: يعني القتل ببدر. وقيل: يعني فتح مكة. وقيل: الآيةُ منسوخةٌ بآية السيف(٥).

﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ قال قتادة: سوف يُبصرونه حين لا يَنفعهم الإبصارُ(٦). وعسى من الله للوجوب(٧)، وعبّر بالإبصار عن تقريب الأمر؛ أي: عن قريبٍ يُبصرون. وقيل: المعنى: فسوف يُبصرون العذابَ يومَ القيامة.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ كانوا يقولون من فَرْط تكذيبهم: متى هذا العذابُ؛ أي: لا تستعجلوه، فإنه واقعٌ بكم.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ أي: العذاب. قال الزجاج(٨): وكان عذابُ هؤلاء بالقتل. ومعنى «بِسَاحَتِهِمْ» أي: بدارهم؛ عن السُّدّي(٩) وغيره. والساحة

---

(١) زاد المسير ٧/ ٩٣.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٧٣، وما بين حاصرتين منه.

(٣) في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٧ (والكلام منه): الكسائي.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣١٦، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٨، وقول قتادة الذي قبله منه، وأخرجه الطبري ١٩/ ٦٥٨.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٧٣ بنحوه.

(٦) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٥٩.

(٧) كذا في النسخ، وليس في الآيات لفظ «عسى».

(٨) في معاني القرآن ٤/ ٣١٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٨.

(٩) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٦٠.

والسَّحْسَة في اللغة: فِناءُ الدار الواسع[١]. الفرّاء[٢]: «نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ» ونزل بهم سواء.

﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: بئس صباحُ الذين أُنذروا بالعذاب. وفيه إضمارٌ، أي: فساءَ الصباحُ صباحُهم[٣]. وخُصَّ الصباح بالذِّكر؛ لأن العذابَ كان يأتيهم فيه. ومنه الحديث الذي رواه أنس ﷺ قال: لما أتى رسولُ الله ﷺ خَيْبَر، وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المَسَاحي، فقالوا: محمدٌ والخميسُ، ورجَعوا إلى حِصْنهم؛ فقال ﷺ: «اللهُ أكبرُ، خَرِبت خيبرُ، إنا إذا نَزَلْنا بساحةِ قومٍ فساءَ صباحُ المُنذَرين»[٤]. وهو يُبيِّن معنى ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ يُريد النبيَّ ﷺ.

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ كرَّر تأكيداً، وكذا ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تأكيدٌ أيضاً

**قوله تعالى:** ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾

**فيه أربعُ مسائل:**

**الأولى:** قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ﴾ نزَّه سبحانه نفسَه عما أضافَ إليه المشركون. ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ على البَدَل. ويجوزُ النصب على المَدْح، والرفعُ بمعنى: هو ربُّ العِزَّة[٥].

﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: من الصاحبة والولد. وسُئل رسولُ الله ﷺ عن معنى «سبحانَ اللَّهِ» فقال: «هو تنزيهُ الله عن كلِّ سوء» وقد مضَى في «البقرة» مستوفى[٦].

---

(١) العين ٣/ ١٦ .

(٢) معاني القرآن ٢/ ٣٩٦ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٧٠ .

(٤) أخرجه أحمد (١١٩٩٢)، والبخاري (٣٧١)، ومسلم (١٣٦٥) (٨٤) و(٨٧) مطولاً. والخميس: الجيش، سُمّي به لأنه مقسوم بخمسة أقسام: المقدمة، والساقة، والميمنة، والميسرة، والقلب، وقيل: لأنه تُخَمَّس فيه الغنائم. النهاية (خمس).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٨ .

(٦) ١/ ٤١٢ ، وهو حديث ضعيف.

**الثانية**: سُئل محمد بن سُحْنون عن معنى «رَبِّ العزَّة» لِمَ جاز ذلك، والعِزَّةُ من صِفات الذَّات، ولا يقال: ربُّ القُدرة ونحوها من صفات ذاته جلّ وعزّ؟ فقال: العِزّة تكون صفةَ ذاتٍ وصفةَ فِعْل، فَصِفةُ الذات نحو قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ [فاطر: ١٠] وصفةُ الفعل نحو قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ والمعنى: ربّ العِزّة التي يتعازُّ بها الخَلْق فيما بينهم، فهي من خَلْق الله عز وجل. قال: وقد جاء في التفسير: إنَّ العِزَّة هاهنا يُراد بها الملائكة.

قال: وقال بعض علمائنا[١]: مَن حلف بعزَّة الله، فإنْ أراد عزَّتَه التي هي صِفتُه فَحَنِثَ فعليه الكَفَّارة، وإنْ أراد التي جعلها اللهُ بين عبادِه فلا كفَّارةَ عليه.

الماوردي[٢]: «رَبِّ العِزَّةِ» يَحتمِلُ وجهين: أحدهما: مالك العِزّة، والثاني: ربّ كلِّ شيء مُتعزِّز من مَلِك أو مُتجبِّر.

قلت: وعلى الوجهين فلا كفَّارةَ إذا نواها الحالفُ.

**الثالثة**: رُوي من حديث أبي سعيد الخُدريّ أن رسولَ الله ﷺ كان يقول قبلَ أن يُسلِّم: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ إلى آخر السورة[٣]؛ ذكره الثعلبي.

قلت: قرأتُ على الشيخ الإمامِ المُحدِّث الحافظ أبي عليّ الحسن بن محمد بن محمد بن محمد بن عمروك البكريّ بالجزيرة قُبالةَ المنصورة من الديار المصرية، قال: أخبرتنا الحُرَّة أمُّ المُؤيَّد زينبُ بنت عبد الرحمن بن الحسن الشَّعْري بنيسابور في المرة الأُولى، أخبرنا أبو محمد إسماعيل بن أبي بكر القارئ، قال: حدثنا أبو الحسن عبد القادر بن محمد الفارسيّ، قال: حدّثنا أبو سهل بِشرُ بن أحمد الإسفراييني، قال: حدَّثنا أبو سليمان داودُ بن الحسين البيهقي، قال: حدَّثنا أبو زكريا يحيى بن يحيى بن عبد الرحمن التميمي النيسابوري، قال: حدّثنا هُشَيم،

(١) هو محمد بن سحنون كما في المحرر الوجيز ٤/ ٤٩٠.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٧٤.

(٣) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (١١٩)، والخطيب البغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق (٤٧٨).

عن أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخُدريّ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ غيرَ مرة ولا مرتين يقول في آخر صلاته أو حين ينصرف: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ . وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ .

قال الماوردي: روى الشعبي قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ سرَّه أن يكتالَ بِالمكيال الأوفى من الأجرِ يومَ القيامة فَلْيقُلْ آخرَ مَجْلسهِ حين يُريد أن يقوم: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ . وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾»[١]. ذكره الثعلبي من حديث عليّ ﷺ مرفوعاً[٢].

**الرابعة**: قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: الذين بلَّغوا عن الله تعالى التوحيد والرسالة.

وقال أنسٌ: قال النبي ﷺ: «إذا سلَّمتم عليَّ فسلِّموا على المُرسلين، فإنما أنا رسولٌ من المرسلين»[٣].

وقيل: معنى «وسلامٌ على المرسلين» أي: أمنٌ لهم من الله جلَّ وعزَّ يومَ الفَزَع الأكبر.

«والحمد لله ربِّ العالمين» أي: على إرسال المرسلين مُبشِّرين ومُنذرين. وقيل: أي: على جميع ما أنعم اللهُ به على الخَلق أجمعين[٤]، وقيل: أي: على هلاك المشركين[٥]؛ دليلُه: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

قلت: والكلُّ مُراد، والحمدُ يَعُمُّ. ومعنى «يَصِفُونَ» يكذِبون، والتقدير: عما يَصِفون من الكذب. تَمَّ تفسيرُ «الصافات».

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٣٤، وهو مرسل.

(٢) أخرجه البغوي في تفسيره ٤/ ٤٦ من طريق الثعلبي عن علي ﷺ موقوفاً.

(٣) أخرجه أبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان (٩٢)، وأخرجه الطبري ١٩/ ٦٦١ عن قتادة مرسلاً.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٧٤.

(٥) زاد المسير ٧/ ٩٥.

# سُورَةُ الصَّافَّاتِ

مَكِّيَّةٌ، وآيُها إحدَى أو اثنتانِ وثمانونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١ ـ ٣) ـ ﴿وَالصَّـٰٓفَّـٰتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّـٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّـٰلِيَـٰتِ ذِكْرًا﴾ أقسمَ بالمَلائكةِ الصَّافِّينَ في مقامِ العُبوديَّةِ على مراتِبَ باعتبارِها تُفيضُ عليهِم الأنوارَ الإلهيَّةَ مُنتظِرينَ لأمرِ اللهِ. الزَّاجرينَ الأجرامَ العلويَّةَ والسُّفليَّةَ بالتَّدبيرِ المأمورِ فيها، أو النَّاسَ[1] عن المعاصي بإلهامِ الخيرِ، أو الشياطينَ عن التعرُّضِ لهم. التالين آياتِ الله وجلايا قُدسِه على أنبيائِه وأَوْليائِه.

أو بطوائفِ الأجرامِ[2] المُترتِّبَةِ كالصُّفوفِ المَرصوصةِ، والأرواحِ المدبِّرةِ لها، والجواهرِ القدسيَّةِ المستغرقةِ في بحارِ القدسِ يسبحونَ الليلَ والنَّهارَ لا يفترونَ.

أو بنفوسِ العُلماءِ الصَّافِّينَ في العباداتِ، الزَّاجرينَ عن الكفرِ والفُسوقِ بالحُجَجِ والنَّصائحِ، التَّالينَ آياتِ اللهِ وشرائعَه.

---

(١) قوله: «أو الناس» و«أو الشياطين» عطفٌ على «الأجرام». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٦٩).

(٢) قوله: «أو بطوائف الأجرام» هو مع تاليه عطف على «بالملائكة». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٦٩).

أو بنفوسِ الغزاةِ الصَّافِّينَ في الجهادِ، الزَّاجرينَ الخيلَ أو العدوَّ، التَّالينَ ذِكرَ اللهِ لا يَشغَلُهُم عنه مباراةُ العدوِّ.

والعطفُ لاختلافِ الذَّواتِ أو الصِّفاتِ[1]، والفاءُ لتَرتُّبِ الوجودِ كقولِه:

يَا لَهْفَ زَيَّابَةَ للحَارِثِ الصْـ ... ـصَابِحِ فَالغَانِمِ فالآيِبِ[2]

فإنَّ الصفَّ كَمالٌ، والزَّجرَ تَكميلٌ بالمنعِ عن الشرِّ أو الإساقةِ إلى قبولِ الخيرِ، والتِّلاوةَ إفاضَتُه.

أو الرُّتبةِ[3] كقولِه عليه السَّلامُ: «رَحِمَ اللهُ المُحَلِّقِينَ فالمُقَصِّرِينَ»[4]، غيرَ أنَّه لفَضلِ المتقدِّمِ على المتأخِّرِ وهذا للعكسِ.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «والصفات».

(٢) البيت لابن زيابة التيمي، وهو في «الحماسة» بشرح المرزوقي (ص: ١٠٩). اللهف: كلمة استغاثة يُتحسر بها على ما فات، وزيابة بفتح الزَّاي المُعْجَمة وتشديد المُثنَّاة التَّحتيَّة وبعد الألف باء مُوَحَّدة: اسم أم الشَّاعِر. والحارث هو ابن همام الشيباني، وكان غزاهم وصبحهم وغنم منهم، وآب إلى قومه سالماً، واللَّام في (للحارث) للتعليل؛ أي: يا لهف أُمِّي من أجل الحارِث. قاله البغدادي في «خزانة الأدب» (٥/ ١١٠).

(٣) قوله: «أو الرتبة» عطف على «الوجود». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٦٩).

(٤) ذكره السيوطي في «حاشيته» (١٠/ ٤٢٠) دون تعليق أو تخريج، وقد قال الشيخ زكريا الأنصاري في «الحاشية» (٤/ ٥٧٠) وهو ممن ينقل عن السيوطي: لم أره بهذا اللفظ. وقال المناوي في «الفتح السماوي» (٣/ ٩٥٤): لم أقف عليه.

قلت: أصله في الصحيحين دون الشاهد، فقد رواه البخاري (١٧٢٧)، ومسلم (١٣٠١)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم ارحم المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله، قال: «اللهم ارحم المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله، قال: «والمقصرين».

وقال الطيبي في «فتوح الغيب» (١٣/ ١١٣) في شرح الشاهد: أي: المحلق أقرب من المقصر، والفاء لدنو رتبة المقصر من المحلق.

وأدغمَ أبو عمرٍو وحمزةُ التَّاءاتِ فيما يليها لتقارُبِها، فإنَّها مِن طرفِ اللسانِ وأُصولِ الثَّنايَا[١].

(٤) ـ ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ جوابُ القَسَمِ، والفائدةُ فيه: تعظيمُ المقسَمِ به وتأكيدُ المقسَمِ عليه على ما هو المألوفُ في كلامِهم، وأمَّا تَحقيقُه فبقولِه:

(٥) ـ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ فإنَّ وُجودَها وانتظامَها على الوجهِ الأكمَلِ مع إمكانِ غيرِه دليلٌ على وُجودِ الصَّانعِ الحكيمِ ووحدتِه على ما مرَّ غيرَ مرَّةٍ، و﴿رَّبُّ﴾ بدلٌ مِن (واحدٌ) أو خبرٌ ثانٍ، أو خبرُ مَحذوفٍ، وما بينَهُما يتناوَلُ أفعالَ العِبادِ فيدلُّ على أنَّها مِن خَلقِه.

و﴿ٱلْمَشَٰرِقِ﴾: مَشارِقُ الكواكبِ، أو مَشارِقُ الشَّمسِ في السَّنَةِ، وهي ثلاثُ مئةٍ وسِتُّونَ مَشرِقًا، تشرقُ كلَّ يومٍ في واحدٍ، وبحسبِهَا تَختَلِفُ المغارِبُ، ولذلك اكتفَى بذكرِهَا، مع أنَّ الشُّروقَ أدَلُّ على القُدرَةِ وأبلَغُ في النِّعمَةِ، وما قيلَ: إنَّها مئةٌ وثمانونَ إنَّما يَصِحُّ لو لم تختَلِفْ أوقاتُ الانتقالِ.

(٦) ـ ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾: القُرْبَى مِنكُم ﴿بزينةِ الكَواكِبِ﴾: بزينةٍ هي الكواكبُ والإضافةُ للبيانِ، ويعضُدُه قراءةُ حمزةَ ويعقوبَ وحفصٍ بتنوينِ: ﴿زينةٍ﴾ وجرِّ ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾ على إبدالِها منهُ[٢].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٦)، و«التيسير» (ص: ٢٢ ـ ٢٦)، و(ص: ١٨٥ ـ ١٨٦).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٦ ـ ٥٤٧)، و«التيسير» (ص: ١٨٦)، و«النشر» (٢/ ٣٥٦)، و«المبسوط» (ص: ٣٧٥)، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿بزينةٍ﴾ منونةً ﴿الكواكبَ﴾ نصباً، ولم أقف على قراءة يعقوب التي ذكرها المصنف، وفي «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٧٨): وحكى يعقوب القارئ أن أبا عمرو والأعمش قرءا: ﴿بزينةٍ الكواكبَ﴾ بتنوين زينة ونصب الكواكب، وهي المعروفة من قراءة عاصم.

أو: بزينةٍ هي لها كأضوائِها وأوضاعِها.

أو: بأنْ زينَّا الكواكبَ فيها، على إضافةِ المصدرِ إلى المفعولِ فإنَّها كما جاءَت اسمًا[١] كاللِّيقةِ جاءَتْ مصدرًا كالنِّسبَةِ، ويؤيِّدُه قراءةُ أبي بكرٍ بالتَّنوينِ والنَّصبِ[٢] على الأصلِ.

أو: بأَنْ زيَّنَتْها الكواكبُ، على إضافتهِ إلى الفاعلِ.

وركوزُ[٣] الثَّوابتِ في الكُرَةِ الثَّامنَةِ، وما عدا القمرَ مِن السَّيَّاراتِ في الستِّ المتوسِّطَةِ بينَها وبين سماءِ الدُّنيا، إن تحقَّقَ لم يقدَحْ في ذلك، فإنَّ أهلَ الأرضِ يَرونَها بأَسْرِها كجواهرَ مُشرِقَةٍ مُتلألِئَةٍ على سطحِها الأزرقِ بأشكالٍ مُختَلِفَةٍ.

(٧) ـ ﴿وَحِفْظًا﴾ منصوبٌ بإضمارِ فِعلِه، أو العطفِ على ﴿زينة﴾ باعتبارِ المعنى كأنَّه قال: إنَّا خَلَقْنا الكواكبَ زِينَةً للسَّماءِ الدُّنيا وحِفْظًا[٤] ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾: خارجٍ مِن الطَّاعةِ برمي الشُّهُبِ.

(٨) ـ ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ كلامٌ مُبتدَأٌ لبيانِ حالِهم بعدما حفظَ السَّماءَ عَنهُم، ولا يجوزُ جعلُه صِفَةً لـ﴿كُلِّ شَيْطَٰنٍ﴾، فإنَّه يَقتَضِي أن يكونَ الحفظُ مِن شَياطين لا يَسْمَعونَ، ولا علَّةَ للحفظِ على حذفِ اللامِ كما في: (جِئتُكَ أَنْ تُكرِمَنِي) ثمَّ حذفِ (أنْ) وإهدارِها كقولِه:

---

(١) في نسخة الفاروقي: «آلة». قال الخفاجي: قولُه: (اسمًا) جامِدًا كالليقَةِ بلام مكسورَة من لاق بمعنى التصق، وهوَ ما يجعلُ في الدواةِ من حرير ونحوه من الخيوط المانعَة لغوصِ القلم في الحبرِ وهيَ اسم جامد. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) تقدم ذكرها قريباً.

(٣) في نسخة التفتازاني والخيالي: «وركون».

(٤) «الدنيا» زيادة من نسخة التفتازاني والطبلاوي، وفي نسخة التفتازاني زيادة: «وحفظًا لها».

أَلَا أَيُّهَـذَا الزَّاجِـرِي أَحْضُـرُ الوَغَـى[(١)]

فإنَّ اجتماعَ ذلك مُنْكَرٌ[(٢)].

والضَّميـرُ لـ﴿كُلِّ﴾ باعتبـارِ المعنـى، وتعديةُ السَّـماعِ بـ﴿إِلَى﴾ لتَضمينِه معنى الإصغـاءِ مُبالغَـةً لنَفيِـه، وتَهويلًا لِمَا يمنَعُهُم عنـه، ويدلُّ عليه قراءةُ حمزةَ والكِسـائيِّ وحَفصٍ بالتَّشـديدِ مِن التَّسـمُّعِ[(٣)]، وهو تطلُّبُ السَّـماعِ، و(الملأُ الأعلى): الملائكةُ، أو أشرافُهُم.

﴿وَيُقْذَفُونَ﴾: ويُرمَونَ ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ مِن جَوانبِ السَّماءِ إذا قصدوا صعودَهُ.

(٩) ـ ﴿دُحُورًا﴾ عِلَّـةٌ؛ أي: للدُّحـورِ وهـو الطَّـردُ، أو مصـدرٌ لأنَّـه والقـذفَ متقاربـانِ، أو حـالٌ بمَعنـى: مدحورينَ، أو منزوعٌ عنـه الباءُ جمع دَحْرٍ، وهـو ما يُطرَدُ بـه، ويقوِّيـهِ القراءةُ بالفتـحِ[(٤)]، وهو يحتمِـلُ أَنْ يكونَ أيضاً مصدرًا كالقَبُـولِ، أو صفةً لـه؛ أي: قذفًـا دَحُورًا.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾؛ أي: عذابٌ آخرُ ﴿وَاصِبٌ﴾: دائمٌ، أو شديدٌ، وهو عذابُ الآخرةِ.

(١٠) ـ ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ استثناءٌ مِن واوِ ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾ و﴿مَنْ﴾ بدلٌ منه ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ﴾ والخطفُ: الاختلاسُ، والمرادُ: اختلاسُ كلامِ الملائكةِ مُسارقَةً، ولذلكَ عرَّفَ الخطفةَ.

---

(١) صدر بيت لطرفة بن العبد من معلقته، وهو في «ديوانه» (ص: ٣٢)، و«الكتاب» (٣/ ٩٩). و(أحضر) يروى بالرفع والنصب، وعجزه:

وأن أشْـهدَ اللَّـذاتِ هل أنـتَ مُخْلِدِي

(٢) قوله: «فإن اجتماع ذلك»؛ أي: ما ذكر من الحذفين. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٧١).

(٣) والباقون بإسكان السين وتخفيف الميم. انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٧)، و«التيسير» (ص: ١٨٦).

(٤) أي: بفتح الدال، نسبت لأبي عبد الرحمن السلمي وعلي رضي الله عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٧)، و«المحتسب» (٢/ ٢١٩).

وقُـرِئَ: (خَـطِّف) بالتشـديد مفتـوحَ الخـاءِ ومكسـورَها، ومكسـورَ الطاء[١] وأصلُهمـا: اختطـفَ.

و(أتبعَ) بمعنى: تبعَ، والشِّهابُ: ما يُرَى كأنَّ كوكبًا انقضَّ، وما قيل: إنَّه بخارٌ يصعدُ إلى الأثيرِ فيشتعلُ، فتخمينٌ[٢] إن صحَّ لم ينافِ ذلك؛ إذ ليسَ فيه ما يدلُّ على أنَّه ينقضُّ من الفلَكِ، ولا في قولِه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥] فإنَّ كلَّ نيرٍ يحصلُ فـي الجوِّ العالي فهو مِصباحٌ لأهلِ الأرضِ وزينةٌ للسَّماءِ مِن حيثُ إنَّه يُرى كأنَّه على سطحِه.

ولا يَبعدُ أَنْ يصيرَ الحادثُ[٣] ـ كما ذُكرَ ـ في بعضِ الأوقاتِ رجمًا لشيطانٍ يَتصعَّدُ إلى قربِ الفَلَكِ للتَّسمُّعِ.

وما رُوِيَ أنَّ ذلك حـدثَ بمِيلادِ النَّبيِّ ﷺ[٤] ـ إنْ صَحَّ ـ فلعلَّ المرادَ كثرةُ وُقوعِه[٥]، أو مصيرُه دُحورًا.

واختُلفَ في أنَّ المرجومَ يَتأذَّى به فيرجعُ، أو يحترقُ به، لكن قد يصيبُ الصَّاعدَ مرَّةً وقد لا يصيبُ كالموجِ لراكبِ السَّفينَةِ، ولذلك لا يرتدِعُونَ عنه رأسًا.

---

(١) نسبت الأولى للحسن وقتادة وعيسى، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٨)، والثانية لابن عباس رضي الله عنهما، انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٦٧).

(٢) في نسخة الطبلاوي: «فتحس»؛ وفي الهامش كالمثبت نسخة. وأشار إليها الخفاجي بقوله: «فتخمين»؛ وقعَ في نسخَةٍ: فتُحَسُّ؛ أي: تُرَى. انظر: «حاشية الخفاجي»، وقوله: «فتخمين» خبر لـ«ما قيل». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٧٢).

(٣) قوله: «أن يصير الحادث»؛ أي: وهو البخار. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٧٢).

(٤) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٤١) عن الشعبي.

(٥) قوله: «كثرة وقوعه»؛ أي: بعد الميلاد. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٧٢).

ولا يقال: إنَّ الشَّيطانَ مِن النَّارِ فلا يحترقُ؛ لأنَّه ليسَ مِن النَّارِ الصِّرْفِ كما أنَّ الإنسانَ ليسَ مِن التُّرابِ الخالصِ، مع أنَّ النَّارَ القويَّةَ إذا استَوْلَت على الضَّعيفَةِ استهلَكَتْها.

﴿ثَاقِبٌ﴾: مُضيءٌ كأنَّه يَثقُبُ الجوَّ بضَوئِه.

(١١) ـ ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾: فاستَخْبِرْهُم، والضَّميرُ لِمُشركِي مَكَّةَ، أو لِبَني آدمَ.

﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ يعني: ما ذكرَ مِن الملائكةِ والسَّماءِ والأرضِ وما بينَهُما، والمشارقِ والكواكبِ والشُّهبِ الثَّواقبِ، و﴿مَّنْ﴾ لتَغليبِ العُقلاءِ، ويدلُّ عليه إطلاقُه ومجيئُه بعدَ ذلك، وقراءةُ مَن قرأَ: (أَمْ مَنْ عَدَدْنَا)[1]، وقولُه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ فإنَّه الفارقُ بينَهُم وبينَها[2]، لا بينَهُم وبينَ مَن قبلَهُم كعادٍ وثمودَ، ولأنَّ المرادَ إثباتُ المعادِ وردُّ استحالَتِهم، والأمرُ فيه[3] بالإضافَةِ إليهم وإلى مَن قبلَهُم سَواءٌ، وتقريرُه: أنَّ استحالةَ ذلك:

---

(١) أي: بالتخفيف والتشديد كما في «الكشاف» (٧/ ٣٠٩)، نسبت إلى ابن مسعود رضي الله عنه والضحاك. انظر: «تفسير الطبري» (١٩/ ٥٠٩ ـ ٥١٠)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٦٧). ولم يقيداها بتخفيف أو تشديد.

(٢) قوله: «ويدل عليه»؛ أي: على أن المراد بـ ﴿مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ ما ذكر من الملائكة.. إلى آخره «إطلاقه»؛ أي: إطلاق الخلق عن التقيد ببيانٍ؛ اكتفاءً بما تقدَّمه، «ومجيئه بعد ذلك» هو وتالياه عطف على (إطلاقه)، وجه دلالة المعطوف الأول: مجيءُ الخلق مطلقاً بعد البيان، والمطلق محمول على المقيَّد، وجه دلالة الثاني: أن التعداد يدل قطعاً على أنه يريد به ما ذكر من خلائقه، ووجه دلالة الثالث: اختصاصُ خَلْق بني آدم بكونه من طين لازب، فمَن عداهم داخل في مقابلهم المطلق «فإنه»؛ أي: خلق آدم من طين لازب «الفارق بينهم وبينها»؛ أي: وبين السماء والأرض ونحوِهما مما لم يخلق من ذلك. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٧٣).

(٣) قوله: «ورد استحالتهم»؛ أي: إحالتهم للمعاد، «والأمر فيه»؛ أي: في المعاد. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٧٣).

إمَّا لعدمِ قابليَّةِ المادَّةِ، ومادَّتُهم الأصليَّةُ هي الطِّينُ اللازبُ الحاصِلُ مِن ضمِّ الجزءِ المائيِّ إلى الجزءِ الأَرضيِّ، وهما باقيانِ قابلانِ للانضمامِ بعدُ، وقد عَلِمُوا أنَّ الإنسانَ الأوَّلَ إنَّما تولَّدَ منه: إمَّا لاعترافِهم بحدوثِ العالمِ، أو بقصَّةِ آدم، وشاهَدوا تولُّدَ كثيرٍ مِن الحيواناتِ منه بلا توسُّطِ مَواقعةٍ، فلزِمَهُم أن يجوِّزُوا إعادَتَهُم كذلك.

وإمَّا لعدمِ قدرةِ الفاعلِ، فإنَّ مَن[1] قدرَ على خلقِ هذه الأشياءِ قَدرَ على ما لا يعتدُّ به بالإضافةِ إليها، سِيَّما ومن ذلك بدَأَهُم أوَّلًا وقدرتُهُ ذاتيَّةٌ لا تَتغيَّرُ[2].

(١٢) ـ ﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ مِن قُدرَةِ اللهِ وإنكارِهم للبَعثِ ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ مِن تَعجُّبِك وتقريرِكَ للبَعثِ. وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ بضمِّ التَّاءِ[3]؛ أي: بلغَ كمالُ قُدرَتي وكثرةُ خَلائقِي أني تعجَّبْتُ مِنها، وهؤلاء بجهلِهِم يسخرونَ مِنْها، أو: عَجِبْتُ من أن يُنكَرَ البَعثُ ممَّنْ هذه أفعالُهُ وهم يسخرونَ ممَّنْ يُجَوِّزُه، والعجبُ مِن اللهِ إمَّا على الفَرْضِ والتَّخييلِ، أو على مَعنى الاستعظامِ اللازمِ له، فإنَّه روعةٌ تَعتري الإنسانَ عندَ استعظامِه الشَّيءَ.

وقيل: إنَّه مُقدَّرٌ بالقولِ؛ أي: قل يا مُحمَّدُ: بَل عَجِبْتُ.

(١٣) ـ ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴾: وإذا وُعِظُوا بشَيءٍ لا يتَّعِظُونَ به، أو: إذا ذُكِرَ لهم ما يدلُّ على صِحَّةِ الحشرِ لا يَنتَفِعُونَ به لبَلادَتِهم وقِلَّةِ فِكْرِهم.

(١٤) ـ ﴿ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً ﴾: مُعجِزَةً تدلُّ على صدقِ القائلِ بِهِ ﴿يَسْتَسْخِرُونَ ﴾: يبالغونَ في السُّخريةِ، ويقولونَ: إنَّه سِحرٌ، أو يستدعي بعضُهُم مِن بعضٍ أَنْ يسخرَ مِنها.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «وأن من»، وفي نسخة الطبلاوي: «ومن»، وأشار إليها الخفاجي بقوله: وقولُه: (ومن قدر)، وفي نسخَةٍ: (فإنَّ من قدر)، وهوَ تعليلٌ لقدرَةِ الفاعل. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) في نسخة التفتازاني: «قدرته ذاتية لا تبعية».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٧)، و«التيسير» (ص: ١٨٦).

(١٥) ـ ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ﴾ يعنونَ ما يَرَوْنَه[١] ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: ظاهرٌ سحريَّتُه.

(١٦) ـ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أصلُه: أنُبعَثُ إذا مِتْنا؟! فبدَّلُوا الفِعليَّةَ بالاسميَّةِ وقدَّمُوا الظَّرفَ وكرَّرُوا الهمزةَ مُبالغَةً في الإنكارِ، وإشعارًا بأنَّ البَعْثَ مُستنكَرٌ في نفسِهِ، وفي هذهِ الحالِ أشدُّ استنكارًا[٢]، فهو أبلَغُ مِن قراءةِ ابنِ عامرٍ بطرحِ الهمزَةِ الأُولى، وقراءةِ نافعٍ والكِسائيِّ ويَعقوبَ بطَرحِ الثَّانيةِ[٣].

(١٧) ـ ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ عطفٌ على محلِّ (إنَّ) واسمِها، أو على الضَّميرِ في (مَبْعوثونَ)، فإنَّه مَفصولٌ عنه بهمزَةِ الاستفهامِ لزيادَةِ الاستبعادِ لبُعدِ زَمانِهِم، وسكَّنَ نافِعٌ بروايةِ قالونَ وابنُ عامرٍ الواوَ[٤] على مَعنى التَّرديدِ.

(١٨) ـ ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾: صاغرونَ، وإنما اكتَفَى به في الجَوابِ لسبقِ ما يَدُلُّ على جوازِه، وقيامِ المعجزِ على صدقِ المخبِرِ عن وُقوعِه.

وقُرِئَ: (قالَ)[٥]؛ أي: اللهُ أو الرَّسولُ.

وقرأ الكِسائيُّ وحدَهُ: ﴿نَعِم﴾ بالكسرِ[٦]، وهو لُغَةٌ فيه.

(١٩) ـ ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ جوابُ شرطٍ مُقَدَّرٍ؛ أي: إذا كانَ ذلك فإنَّما البعثةُ زجرةٌ؛ أي: صيحةٌ واحدةٌ هي النَّفخةُ الثَّانيَةُ، مِن زَجَر الرَّاعِي نَعَمه: إذا صاحَ علَيْها، وأمرُها في الإعادةِ كأمرِ (كن) في الإبداءِ، ولذلك رتَّبَ عليها:

---

(١) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «ما يروه» وفي نسخة الفاروقي: «ما نراه». والمثبت من نسخة الخيالي.

(٢) في نسخة الطبلاوي: «إنكارا».

(٣) انظر: «التيسير» (ص: ١٣٣)، و«النشر» (١/ ٣٧٣).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٧)، و«التيسير» (ص: ١٨٦).

(٥) انظر: «الكشاف» (٧/ ٣١٣) من غير نسبة.

(٦) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨١)، و«التيسير» (ص: ١١٠).

﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ فإذا هُم قِيامٌ مِن مَراقِدِهم أحياءٌ يُبصِرُونَ، أو: يَنتَظِرُونَ ما يُفعَلُ بهم.

(٢٠ ـ ٢١) ـ ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾: اليومُ الذي نُجازَى بأعمالِنا، وقد تمَّ به كلامُهُم، وقولُه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ جوابُ الملائكةِ.

وقيل: هو أيضًا مِن كلامِ بَعضِهم لبَعضٍ.

والفصلُ: القَضاءُ، أو الفرقُ بين المحسنِ والمُسيءِ.

(٢٢ ـ ٢٣) ـ ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أمرُ اللهِ للمَلائكةِ، أو أمرُ بَعضِهم لبعضٍ، بحشرِ الظَّلَمَةِ مِن مقامِهم إلى الموقفِ، وقيل: منه إلى الجَحيمِ.

﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾: وأشباهَهُم، عابدَ الصَّنَمِ معَ عَبَدَةِ الصَّنمِ، وعابدَ الكوكَبِ مع عَبَدَتِه، كقولِه: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ [الواقعة: ٧].

أو: ونساءَهُم اللاتي على دينِهِم.

أو: قُرناءَهُم مِن الشَّياطينِ.

﴿وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مِن الأَصنامِ وغيرِها؛ زيادةً في تَحسيرِهم(١) وتَخجيلِهم، وهو عامٌّ مَخصوصٌ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ الآيةَ [الأنبياء: ١٠١]، وفيه دليلٌ على أنَّ الذينَ ظلَمُوا هم المشركونَ.

﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾: فعرِّفُوهُم طريقَها لِيَسلُكُوها.

(٢٤) ـ ﴿وَقِفُوهُمْ﴾: احبِسُوهُم في الموقفِ ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ عن عقائدِهِم وأَعمالِهِم، والواوُ لا توجِبُ التَّرتيبَ مَع جوازِ أَنَّ موقِفَه متعدِّدٌ(٢).

---

(١) في نسخة الخيالي: «تخسيرهم» وفي نسخة الفاروقي والتفتازاني: «تحسرهم». والمثبت من نسخة الطبلاوي.

(٢) في النسخ هنا اختلاف كثير واضطراب في العبارة، مما لا طائل من إيراده، وأشار إلى ذلك الخفاجي =

(٢٥) ـ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾: لا ينصرُ بعضُكُم بعضًا بالتَّخليصِ، وهو توبيخٌ وتقريعٌ.

(٢٦) ـ ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾: مُنقادونَ لعَجزِهم وانسدادِ الحِيَلِ عليهِمْ، وأَصلُ الاستسلامِ: طلبُ السَّلامَةِ، أو: مُتسالِمُونَ، كأنَّه يُسْلِمُ بعضُهم بعضًا ويَخذلُهُ.

(٢٧) ـ ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ يعني: الرُّؤساءَ والأتباعَ، أو الكَفَرَةَ والقُرَناءَ.

﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾: يَسأَلُ بَعضُهم بَعْضًا للتَّوبيخِ، ولذلك فُسِّرَ بـ: يتَخاصَمونَ.

(٢٨) ـ ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ عن أقوى الوُجوهِ وأيمَنِه، أو: عن الدِّينِ، أو: عن الخيرِ؛ كأنَّكُم تَنفعونَنا نفعَ السَّانحِ فتَبِعْنَاكُم وهَلَكْنا، مُستعارٌ مِن يمينِ الإنسانِ الذي هو أَقْوَى الجانِبَيْنِ وأشرفُه وأنفعُه، ولذلك سُمِّيَ يمينًا، وتيمَّن بالسَّانحِ.

أو: عن القُوَّةِ والقهرِ[1] فتَقْسِرونَنا على الضَّلالِ.

أو: عن الحَلِفِ، فإنَّهُم كانوا يحلفونَ لَهُم أنَّهُم على الحقِّ.

(٢٩ ـ ٣٠) ـ ﴿قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ أجابَهُم الرُّؤساءُ أَوَّلًا بمنعِ إضلالِهم بأنَّهُم[2] كانوا ضالِّينَ في أنفُسِهم، وثانيًا بأنَّهُم ما أجبرُوهُم على الكفرِ إذْ لم يَكُن لهم عليهِم تَسلُّطٌ، وإنَّما جنَحُوا إليه لأنَّهُم كانوا قومًا مُختارينَ الطُّغيانَ.

---

= في «حاشيته»، والمثبت ما في نسخة الطبلاوي، وقد رجحها شيخ زاده في «حاشيته» (٧/ ١٢٤). وقول: «موقفه»؛ أي: السؤال، وفي نسخة: «موقفهم»؛ أي: المسؤولين. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٧٦).

(١) قوله: «أو عن القوة والقهر» عطفٌ على «أقوى الوجوه»، وكذلك «أو عن الحلف». انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) في نسخة التفتازاني: «فإنهم».

(٣١ ـ ٣٢) ـ ﴿فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ٣١ فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ ثمَّ بيَّنُوا أنَّ ضَلالَ الفريقَيْنِ ووقوعَهُم في العذابِ كان أمرًا مَقْضِيًّا لا محيصَ لهم عنه، وأنَّ غايةَ ما فعَلُوا بهم أنَّهم دَعَوْهُم إلى الغيِّ لأنَّهُم كانوا على الغيِّ، فأحبُّوا أن يكونوا مِثلَهُم، وفيه إيماءٌ بأنَّ غِوايتَهُم في الحقيقةِ ليسَتْ مِن قِبَلِهم؛ إذ لو كانَ كلُّ غوايةٍ لإغواءِ غاوٍ فمَنْ أغواهُم؟

(٣٣) ـ ﴿فَإِنَّهُمۡ﴾: فإنَّ الأتباعَ والمتبوعينَ ﴿يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ كما كانوا مُشتركينَ في الغوايةِ.

(٣٤ ـ ٣٥) ـ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾: مثلَ ذلك الفعلِ ﴿نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ بالمُشركينَ، لقوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾؛ أي: عن كلمةِ التَّوحيدِ، أو: على مَن يَدعوهُمْ إليهِ[1].

(٣٦) ـ ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ﴾ يَعنونَ مُحمَّدًا عليهِ السَّلامُ.

(٣٧) ـ ﴿بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ ردٌّ عليهِمْ بأنَّ ما جاءَ به مِن التَّوحيدِ حقٌّ قامَ به البُرهانُ وتطابقَ عليهِ المُرسَلونَ.

(٣٨) ـ ﴿إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ﴾ بالإشراكِ وتكذيبِ الرَّسُولِ، وقُرِئَ بنَصبِ العَذابِ[2] على تَقديرِ النُّونِ، كقولِه:

وَلَا ذَاكِـــرَ اللهَ إِلَّا قَلِيـــلَا[3]

---

(١) في نسخة التفتازاني: «إليها».

(٢) نسبت لأبي السمال، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٨).

(٣) عجز بيت لأبي الأسود الدؤلي كما في «ديوانه» (ص: ٥٤)، وصدره:

فألفيتُـــه غيـــرَ مســـتعتِبٍ

وهو ضعيفٌ في غيرِ المحلَّى باللامِ. وعلى الأصلِ[١].

(٣٩ ـ ٤٠) ـ ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: إلا مثلَ ما عَمِلْتُم ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناءٌ

مُنقطِعٌ، إلَّا أنْ يكونَ الضَّميرُ في ﴿تُجْزَوْنَ﴾ لجميعِ المُكلَّفينَ، فيكونُ استثناؤهُم عنه باعتبارِ المُماثلَةِ فإنَّ ثوابَهُم مضاعفٌ، والمنقطعُ أيضًا بهذا الاعتبارِ.

(٤١) ـ ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ خصائِصُه[٢]: مِن الدَّوامِ، وتمحُّضِ[٣] اللذَّةِ، ولذلك فسَّرَهُ بقولِه:

(٤٢) ـ ﴿فواكهُ﴾ فإنَّ الفاكهةَ ما يقصدُ للتَّلذُّذِ[٤] دونَ التَّغذِّي والقوتَ بالعَكْسِ، وأهلُ الجنَّةِ لَمَّا أُعيدُوا على خِلقةٍ مُحكَمَةٍ محفوظَةٍ عن التَّحلُّلِ كانت أرزاقُهُم فواكهَ خالصةً.

﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ في نَيلِه، يَصِلُ إليهم مِن غيرِ تَعَبٍ وسؤالٍ كمَا عليه رزقُ الدُّنيا.

(٤٣ ـ ٤٤) ـ ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾: في جنَّاتٍ ليسَ فيها إلا النَّعيمُ، وهو ظرفٌ أو حالٌ مِن المستكنِّ في ﴿مُّكْرَمُونَ﴾، أو خبرٌ ثانٍ لـ﴿أُولَٰئِكَ﴾ وكذلك:

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ يحتملُ الحالَ والخبرَ فيكونُ ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ حالًا مِن المستكنِّ فيه، أو في ﴿مُّكْرَمُونَ﴾، وأن يتعلَّقَ بـ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ فيكونُ حالًا مِن ضميرِ ﴿مُّكْرَمُونَ﴾.

---

(١) أي: (لذائقون العذاب). انظر: «الكشاف» (٧/ ٣١٩) دون نسبة، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٦٩)، وفيه: (وقرأ أبو السمال: (لذائقٌ) بالتنوين (العذابَ) نصباً).

(٢) قوله: «خصائصه» مرفوع بـ﴿مَّعْلُومٌ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٧٨).

(٣) في نسخة الطبلاوي: «أو تمحض»، وأشار الخفاجي إلى النسختين في «حاشيته».

(٤) في نسخة التفتازاني: «به التلذذ».

(٤٥) ـ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ﴾: بإناءٍ فيه خمرٌ، أو خمرٍ كقولِه:

وكأسٍ شـربتُ علـى لـذَّةٍ[١]

﴿مِّن مَّعِينٍ﴾: مِن شَرابِ مَعِينٍ، أو نهرٍ مَعِينٍ؛ أي: ظاهرٍ للعُيونِ أو خارجٍ مِن العيونِ، وهو صِفَةُ الماءِ؛ مِن عانَ الماءُ: إذا نبَعَ، وُصفَ به خمرُ الجنَّةِ لأنَّها تجري كالماءِ، أو للإشعارِ بأنَّ ما يكونُ لهم بمنزلةِ الشَّرابِ جامِعٌ لِمَا يُطلَبُ مِن أنواعِ الأشربَةِ لكَمالِ اللذةِ، وكذلك قولُه:

(٤٦) ـ ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ وهُمَا أيضًا صِفَتانِ لـ﴿كَأْسٍ﴾، ووصفُها بـ﴿لَذَّةٍ﴾ إمَّا للمُبالغَةِ، أو لأنَّها تأنيثُ لَذٍّ بمعنى لَذِيذٍ كطَبٍّ، ووزنهُ فَعْلٌ قال:

وَلَـذٍّ كَطَعْـمِ الصَّـرْخَـدِيِّ تَـرَكْـتُـهُ     بِأَرْضِ العِـدَا مِـنْ خَشْـيَةِ الحَدَثَـانِ[٢]

(٤٧) ـ ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾: غائلَةٌ كما في خمرِ الدُّنيا كالخُمَارِ[٣]، مِن غالَهُ يَغولُهُ: إذا أفسدَهُ، ومنه الغُولُ.

﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾: يَسْكَرونَ، مِـن: نُـزِفَ الشَّـارِبُ فهو نزيـفٌ ومَنْزوفٌ:

---

(١) صدر بيتٍ للأعشى. انظر: «ديوانه» (ص: ١٧٣)، وعجزه:

وأُخْـرَى تَدَاويـتُ مِنْهَـا بهـا

(٢) البيت بهذه الرواية دون نسبة في «الحيوان» (١/ ١٧٤)، و«أمالي القالي» (١/ ٢١٠)، و«تهذيب اللغة» (١٤/ ٢٩٤)، و«غريب الحديث» للخطابي (٢/ ٥٨٧). وهو في «ديوان الراعي النميري» (ص: ١٨٦)، و«الصحاح» (مادة: صرخد ولذذ) برواية:

ولذ كطَعمِ الصَرْخَدِيِّ طَرَحْـتُـهُ     عَشِيَّةَ خِمْسِ القوم والعينُ عاشقه

قال الجوهري: الصرخد: موضع نسب إليه الشراب، واللذ: النوم.

وقال الأزهري: أَرَادَ أنه لمَّا دَخل ديارَ أعدائِه لم يَنم حذاراً لَهُم.

(٣) الخُمار: صداع الخمر. انظر: «حاشية الخفاجي».

إذا ذهبَ عقلُهُ، أفردَهُ بالنَّفيِ وعَطَفَ[1] على ما يَعُمُّهُ؛ لأنَّه مِن عِظَمِ فَسادهِ كأنَّه جِنسٌ برأسِه.

وقرَأَ حمزَةُ والكِسائيُّ بكسرِ الزَّايِ، وتابعَهُما عاصِمٌ في الواقعَةِ[2]، مِن أَنْزَفَ الشَّاربُ: إذا نَفِدَ[3] عَقلُهُ أو شرابُه، وأصلُهُ النَّفاد، يقال: نُزِفَ المطعونُ: إذا خرجَ دمُهُ كلُّهُ، ونَزَحْتُ الرَّكيَّةُ حتَّى نَزَفْتُها.

(٤٨) ـ ﴿وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قَصَرْنَ أبصارَهُنَّ على أزواجِهنَّ ﴿عِينٌ﴾: نُجلُ العُيونِ، جمعُ عَيْناءَ.

(٤٩) ـ ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ شبَّهَهُنَّ ببَيضِ النَّعام المَصونِ مِن الغبارِ ونحوِهِ في الصَّفاءِ والبياضِ المخلوطِ بأدنى صُفرَةٍ فإنَّه أحسَنُ ألوانِ الأبدانِ.

(٥٠) ـ ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ معطوفٌ على ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾؛ أي: يَشربونَ فيَتحادَثُونَ على الشَّرابِ، قال:

وَمَا بَقِيَتْ مِنَ اللذَّاتِ إِلَّا  أَحَادِيثُ الكِرَامِ عَلَى المُدَامِ[4]

والتَّعبيرُ عنه بالماضي للتَّأكيدِ فيه، فإنَّه أَلَذُّ تلكَ اللذَّاتِ إلى العقلِ، وتَساؤلهم عن المعارفِ والفَضائلِ وما جَرى لهم وعليهِم في الدُّنيَا.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «وعطفه».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٧)، و«التيسير» (ص: ١٨٦).

(٣) في نسخة التفتازاني: «نزف» وفي الهامش كالمثبت نسخة.

(٤) نسب لأبي محمد عبد الله بن عمرو بن محمد الفياض كاتب سيف الدولة ونديمه في «يتيمة الدهر» (١/ ١٣٢) للثعالبي. ولأبي الحسن علي بن حريق في «المغرب في حلى المغرب» لأبي سعيد الأندلسي (٢/ ٣١٩).

(٥١ ـ ٥٢) ـ ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ في مُكالَمَتِهم: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾: جليسٌ في الدُّنيا ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ يُوبِّخُني على التَّصديقِ بالبَعثِ.

وقُرِئَ بتَشديدِ الصَّادِ مِن التَّصدُّقِ[١].

(٥٣) ـ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾: لَمَجزِيُّونَ، مِن الدَّيْنِ بمَعنى الجَزاءِ.

(٥٤) ـ ﴿قَالَ﴾؛ أي: ذلك القائلُ: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ إلى أهلِ النَّارِ لأُرِيَكُم ذلك القرينَ،

وقيلَ: القائلُ هو اللهُ أو بعضُ الملائكَةِ، يقولُ لهم: هل تُحِبُّونَ أَنْ تَطَّلِعُوا على أهلِ النَّارِ لأُرِيَكُم ذلك القرينَ، فتعلَمُوا أينَ مَنزِلَتُكُم مِن مَنزِلَتِهِم.

وعن أبي عَمرٍو: (مُطْلِعُونِ... فأُطْلِعَ) بالتَّخفيفِ وكسرِ النُّونِ وضمِّ الألِفِ[٢] على أنَّه جعلَ إطلاعَهُم سببَ إطْلاعِه مِن حيثُ إنَّ أدبَ المُجالسةِ يمنَعُ الاستبدادَ به، أو خاطبَ الملائكةَ[٣] على وضعِ المتَّصلِ موضِعَ المنفصل كقولِه:

هُـم الفاعلـونَ الخيـرَ والآمرونَـهُ[٤]

---

(١) نسبت لابن كيسة في «الكامل» للهذلي (ص: ٦٢٧)، وفي «تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٦) لعلي بن كِيسة عن سليم (وهو ابن عيسى بن سليم الحنفي مولاهم الكوفي) عن حمزة، وفي «زاد المسير» (٧/ ٥٩) لبكر بن عبد الرحمن القاضي عن حمزة، والمشهور عن حمزة كقراءة الجماعة.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٨)، و«المحتسب» (٢/ ٢١٩) عن ابن عباس وابن محيصن وأبي عمرو، وذكرها مجاهد في «السبعة» (ص: ٥٤٨) فقال: كلهم قرأ ﴿مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَٱطَّلَعَ﴾ إلا أن ابن حيّان أخبرنا عن أبي هشام عن حسين الجعفي عن أبي عمرو أنه قرأ (هل أنتم مُطْلِعون فأُطْلِعَ) الألف مضمومة والطاء ساكنة واللام مكسورة والعين مفتوحة.

(٣) قوله: «أو خاطب الملائكة» عطف على «جعل إطلاعهم». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٨١).

(٤) صدر بيت في «الكتاب» (١/ ١٨٨)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٨٦)، و«الكامل» للمبرد =

أو شُبِّهَ اسمُ الفاعلِ بالمُضارعِ.

(٥٥ ـ ٥٦) ـ ﴿فَٱطَّلَعَ﴾ عليهم ﴿فَرَءَاهُ﴾؛ أي: قرينَه، ﴿فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾: وسطِه ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾: لتهلكُني بالإغواءِ. وقُرِئَ: (لَتُغْوِين)[1]، و﴿إِن﴾ هي المخفَّفةُ واللامُ هي الفارقةُ.

(٥٧) ـ ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى﴾ بالهدايةِ والعصمةِ ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ معكَ فيها.

(٥٨) ـ ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ عطفٌ على محذوفٍ؛ أي: أنحن مُخلَّدونَ منعمونَ فمَا نَحنُ بمَيِّتينَ؛ أي: بمَنْ شَأنُه الموتُ، وقُرِئَ: (بمَائِتينَ)[2].

(٥٩) ـ ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ التي كانَتْ في الدُّنيَا، وهي مُتناولَةٌ لِمَا في القبرِ بعد الإحياءِ للسُّؤالِ، ونصبُها على المصدَرِ مِن اسمِ الفاعلِ، وقيل: على الاستثناءِ المُنقطعِ.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ كالكُفَّارِ، وذلك تمامُ كلامِه لقرينِه تقريعًا له، أو معاودةٌ إلى مُكالَمةِ جلسائِه تَحدُّثًا بنعمةِ اللهِ وتَبجُّحًا بها وتَعجُّبًا منها وتعريضًا[3] للقرينِ بالتَّوبيخِ.

---

= (١/ ٩٧)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (٤/ ٢٦٩)، ولا يعرف قائله، قال سيبويه: وذكروا أنه مصنوع. وعجزه:

إِذَا مَا خَشُوا مِنْ مُحْدَثِ الأَمْرِ مُعْظَمَا

وفي نسخة الخيالي والطبلاوي: «هم الآمرون الخير والفاعلونه»، وكذا وقع الاختلاف نفسه في المصادر، ولا يضر ذلك بمحل الشاهد. والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في «الكشاف» (٧/ ٣٢٦).

(١) هي قراءة عبد الله، انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٨٥)، و«معاني القرآن» للنحاس (٦/ ٣١).

(٢) ذكرها في «الكشاف» (٧/ ٣٢٧) من غير نسبة، ونسبها أبو حيان في «البحر» (١٨/ ١٧٩) لزيد بن علي.

(٣) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «وتقريعاً».

(٦٠) ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يحتمِلُ أَنْ يكونَ مِن كَلامِهِم، وأن يكونَ كلامُ اللهِ لتَقريرِ قولِه والإشارةِ إلى ما هُمْ عليه[1] مِن النِّعمَةِ والخُلودِ والأمنِ مِن العَذابِ.

(٦١) ـ ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾؛ أي: لنيلِ مثلِ هذا يجبُ أن يعملَ العاملونَ، لا للحُظوظِ الدُّنيَوِيَّةِ المشوبةِ بالآلامِ، السَّريعَةِ الانصرامِ، وهو أيضًا يحتمِلُ الأمرينِ.

(٦٢) ـ ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ شجرةٌ[2] ثمرُها نُزُلُ أهلِ النَّارِ.

وانتصابُ ﴿نُّزُلًا﴾ على التَّمييزِ أو الحالِ، وفي ذكرِه دلالةٌ على أنَّ ما ذكرَ مِن النَّعيمِ لأهلِ الجنَّةِ بمنزلةِ ما يقامُ للنَّازلِ، ولهم ما وراءَ ذلك ما تَقْصُرُ عنهُ الأفهامُ، وكذلك الزَّقومُ لأهلِ النَّارِ، وهو اسمُ شجرةٍ صغيرةِ الورقِ دَفِرَةٍ[3] مُرَّةٍ تكونُ بتِهامةَ، سُمِّيَت بهِ الشَّجَرَةُ الموصوفَةُ.

(٦٣) ـ ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾: محنةً وعَذابًا لهم في الآخرةِ، أو: ابتلاءً في الدُّنيَا، فإنَّهُم لَمَّا سَمِعُوا أنَّها في النَّارِ قالوا: كيفَ ذلك والنَّارُ تحرقُ الشَّجرَ؟ ولم يعلَمُوا أنَّ مَن قدرَ على خَلْقِ ما[4] يعيشُ في النَّارِ ويلتَذُّ بها فهو أقدرُ على خلقِ الشَّجرِ في النَّارِ وحِفظِه من الإحراقِ.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «فيه».

(٢) في نسخة الفاروقي: «التي».

(٣) دَفِرة، بفتح المهملة وكسر الفاء: مُنتِنة. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٨٢).

(٤) في نسخة التفتازاني «حيوان» وفي نسخة الطبلاوي: «من»، و«ما» ليست في نسخة الخيالي، والمثبت من نسخة الفاروقي.

(٦٤) ـ ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴾: مَنبِتُها في قعرِ جهنَّمَ، وأغصانُها تَرتَفِعُ إلى دَرَكاتِها.

(٦٥) ـ ﴿ طَلْعُهَا ﴾: حملُهَا، مُستعَارٌ مِن طلعِ التَّمرِ[١] لِمُشاركَتِهِ إيَّاهُ في الشَّكلِ، أو الطُّلوعِ مِن الشَّجرِ ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ في تَناهي القُبحِ والهولِ، وهو تَشبيهٌ بالمتخيَّلِ كتَشبيهِ الفائقِ في الحسنِ بالمَلَك.

وقيل: الشَّـياطينُ حيَّـاتٌ هائلةٌ قبيحَـةُ المنظرِ لها أعـرافٌ، ولعلَّها سُـمِّيَتْ بها لذلك.

(٦٦) ـ ﴿ فَإِنَّهُمْ لَـَٔاكِلُونَ مِنْهَا ﴾: مِن الشَّجرَةِ أو من طَلْعها ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾ لغلبةِ الجُوعِ أو الجبرِ على أكلِها.

(٦٧) ـ ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا ﴾؛ أي: بعدَمـا شَـبِعُوا منهـا وغلَبَهُـم[٢] العطـشُ وطالَ استِسـقاؤُهُم، ويجـوزُ أنْ يكونَ ﴿ ثُمَّ ﴾ لِمَا في شَـرابِهم مِن مَزيدِ الكراهةِ والبَشـاعَةِ.

﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾: لَشرابًا من غسَّاقٍ أو صديدٍ مَشُوبًا بماءٍ حَمِيمٍ يُقطِّعُ أمعاءَهُم، وقُرِئَ بالضَّمِّ[٣]، وهو اسمُ ما يُشابُ به، والأوَّلُ مَصدَرٌ سُمِّيَ به.

(٦٨) ـ ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ ﴾: مَصيرَهُم ﴿لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾: إلى دَركاتِها، أو إلى نَفسِهَا، فإنَّ الزَّقُّومَ والحميمَ نزلٌ يقدَّمُ إليهِم قبلَ دُخولِها.

وقيل: الحميمُ خارجٌ عنها؛ لقولِه تعالى: ﴿هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾

---

(١) في نسخة التفتازاني والخيالي: «الثمر».

(٢) في نسخة التفتازاني: «وغلب عليهم».

(٣) أي: بضم الشين. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٩)، و«المحتسب» (٢/ ٢٢٠) عن شيبان النحوي.

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٣] يُورَدُونَ إليه كما توردُ الإبلِ إلى الماءِ، ثمَّ يُرَدُّونَ إلى الجَحيمِ، ويؤيِّدُه أنَّه قُرِئَ: (ثمَّ إنَّ مُنقلَبَهُم)[١].

(٦٩ ـ ٧٠) ـ ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝٦٩ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ تعليلٌ لاستِحْقَاقِهِم تلكَ الشَّدائدَ بتَقليدِ الآباءِ في الضَّلالِ.

والإهراعُ: الإسراعُ الشَّديدُ كأنَّهُم يُزعَجونَ على الإسراعِ على آثارِهِم[٢]، وفيهِ إشعارٌ بأنَّهُم بادَرُوا إلى ذلك مِن غيرِ تَوقُّفٍ على نظرٍ وبَحثٍ.

(٧١) ـ ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾: قبلَ قومِك ﴿أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

(٧٢) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾: أنبياءَ أنذَرُوهُم من العواقبِ.

(٧٣) ـ ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ مِن الشِّدَّةِ والفَظاعَةِ.

(٧٤) ـ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللهِ المُخْلِصِينَ﴾: إلا الذينَ تنبَّهوا بإنذارِهِم فأخلَصُوا دينَهُم للهِ.

وقُرِئَ بالفَتحِ[٣]؛ أي: الذينَ أخلَصَهُم اللهُ لدينِه.

والخطابُ مع الرَّسُولِ ﷺ والمقصودُ خطابُ قومِه، فإنَّهُم أيضًا سَمِعُوا أخبارَهُم ورأَوْا آثارَهُم.

(٧٥) ـ ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ شروعٌ في تَفصيلِ القصصِ بعدَ إجمالِها؛ أي: ولقَدْ دَعانا حين أَيِسَ مِن قومِه ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾؛ أي: فأجبناهُ أحسنَ الإجابةِ، فواللهِ لنِعمَ المُجيبونَ نحن، فحُذِفَ مِنْها ما حُذِفَ لقيامِ ما يَدُلُّ عليه.

---

(١) رواها أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٣١١) عن ابن جريج، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٥٦) عن السدي، كلاهما ذكرها عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «إثرهم».

(٣) وهي قراءة حمزة والكسائي وعاصم ونافع بفتح اللام والباقون بكسرها، انظر: «التيسير» (ص: ١٢٨).

(٧٦) ـ ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾: مِن الغرقِ، أو أذى قومِه.

(٧٧) ـ ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ إذ هلكَ مَن عداهُم وبقُوا متناسلينَ إلى يومِ القيامَةِ؛ إذْ رُوِيَ أنَّه ماتَ كلُّ مَن كانَ مَعَه في السَّفينَةِ[1] غير بنيهِ وأزواجِهِم.

(٧٨) ـ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ مِن الأُمَمِ.

(٧٩) ـ ﴿سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ هذا الكلامُ جِيءَ بهِ على الحكايةِ، والمعنى: يسلِّمونَ عليهِ تسليمًا، وقيل: هو سَلامٌ مِن اللهِ عليهِ.

ومَفعولُ ﴿تَرَكْنَا﴾ مَحذوفٌ مثل: الثَّناءَ.

﴿فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ مُتعلِّقٌ بالجارِّ والمَجرورِ، ومعناه: الدُّعاءُ بثبوتِ هذه التَّحِيَّةِ في الملائكةِ والثَّقَلينِ جميعًا.

(٨٠) ـ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليلٌ لِمَا فُعلَ بنُوحٍ مِن التَّكرمةِ بأنَّه مُجازاةٌ له على إحسانِه.

(٨١) ـ ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تعليلٌ لإحسانِه بالإيمانِ إظهارًا لجلالَةِ قَدرِهِ وأصالةِ أمرِه.

(٨٢) ـ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ يعني: كُفَّارَ قومِه.

(٨٣) ـ ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾: ممَّنْ شايعَهُ في الإيمانِ وأصولِ الشَّريعَةِ ﴿لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ ولا يبعدُ اتِّفاقُ شَرعِهِما في الفُروعِ أو غالبًا، وكانَ بينَهُما ألفانِ وستُّ مئةٍ وأربعونَ سنةً، وبينَهُما نبيَّانِ: هودٌ وصالحٌ.

(٨٤) ـ ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ مُتعلِّقٌ بما في الشِّيعةِ مِن مَعنى المشايعةِ، أو بمحذوفٍ هو: اذكُرْ.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «في ألف سنة» وفي الهامش كالمثبت نسخة. والمثبت موافق لما في «الكشاف» (٧/ ٣٣٢).

﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ مِن آفاتِ القُلوبِ، أو مِن العلائقِ خالصٍ للهِ أو مُخلِصٍ له، وقيل: حزينٍ؛ مِن السَّليمِ بمَعْنَى اللَّديغِ، ومَعنى المجيءِ بهِ ربَّهُ: إخلاصُه له كأنَّهُ جاءَ بهِ مُتْحِفًا إيَّاهُ.

(٨٥) ـ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ بدلٌ مِن الأولى، أو ظرفٌ لـ﴿جَآءَ﴾ أو ﴿سَلِيمٍ﴾.

(٨٦) ـ ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾؛ أي: أتريدونَ آلهةً دونَ اللهِ إفكًا، فقدَّمَ المفعولَ للعنايةِ ثمَّ المفعولَ له لأنَّ الأهمَّ أن يقرِّرَ أنَّهُم على الباطلِ ومَبنَى أمرِهم على الإفكِ.

ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿إِفْكًا﴾ مَفْعولًا به، و﴿ءَالِهَةً﴾ بدلٌ منه على أنَّها إفكٌ في أنفسِها للمُبالغةِ، أو المرادُ بها عبادَتُها بحذفِ المضافِ، أو حالًا بمَعنى: آفكينَ.

(٨٧) ـ ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بمَنْ هو حقيقٌ بالعبادةِ لكَونِه ربًّا للعالمينَ حتى تركتُم عبادَتَهُ، أو أشرَكْتُم به غيرَهُ، أو أَمِنْتُم مِن عَذابِه، والمعنى: إنكارُ ما يوجِبُ ظنًّا فَضْلًا عن قطعٍ[1] يصدُّ عن عبادَتِه، أو يجوِّزُ الإشراكَ به، أو يَقتَضِي الأمنَ مِن عِقابِه على طريقةِ الإلزامِ، وهو كالحجَّةِ على ما قبلَهُ.

(٨٨) ـ ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾ فرَأى مواقِعَها واتِّصالاتِها، أو: في علمِها، أو: في كتابِها، ولا منعَ منهُ مَع أنَّ قَصدَهُ إيهامُهُم، وذلك حينَ سَأَلُوه أَنْ يُعيِّدَ مَعَهُم.

(٨٩) ـ ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ أراهُم أنَّه استدلَّ بها ـ لأنَّهُم كانوا منجِّمينَ ـ على أنَّه مُشارِفٌ للسقمِ، لئلَّا يخرجوهُ إلى مُعَيَّدِهِم فإنَّه كانَ أغلبُ أسقامِهِم الطَّاعونَ، وكانوا يخافونَ العَدْوَى.

---

(١) في نسخة التفتازاني والخيالي زيادة: «ما».

أو أرادَ: إني سَقِيمُ القلبِ لكُفْرِكُم، أو: خارجُ المزاجِ عن الاعتدالِ خُروجًا قلَّ مَن يَخْلُو منه، أو: بصَدَدِ المَوتِ ومنهُ المَثَلُ: كفَى بالسَّلامَةِ داءً، وقولُ لَبِيد:

فَدَعَـوْتُ رَبِّي بِالسَّـلَامَةِ جَاهِدًا لِيُصِـحَّنِي فَإِذَا السَّـلَامَةُ دَاءُ[1]

(٩٠) ـ ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾: هاربينَ مخافةَ العَدْوَى.

(٩١) ـ ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾: فذهبَ إليها في خفيةٍ، مِن روغةِ الثَّعلَبِ، وأصلُه: المَيْلُ بحيلةٍ.

﴿فَقَالَ﴾؛ أي: للأصنامِ استهزاءً: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني: الطَّعامَ الذي كانَ عِندَهُم.

(٩٢) ـ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ بجوابي.

(٩٣) ـ ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾: فمالَ عَلَيهِم مُستَخْفِيًا، والتَّعدِيَةُ بـ(على) للاستعلاءِ وأنَّ الميلَ لِمَكروهٍ.

﴿ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ مَصدرٌ لـ«راغَ عَلَيهِم» لأنَّه في مَعنى: ضَرَبَهُم، أو لِمُضمَرٍ تَقديرُه: فراغَ عَليهِم يضرِبُهُم ضرباً، وتقييدُهُ باليَمينِ للدَّلالَةِ على قُوَّتِه، فإنَّ قُوَّةَ الآلَةِ تَستَدْعِي قُوَّةَ الفعلِ.

وقيل: ﴿بِٱلْيَمِينِ﴾ بسببِ الحَلِفِ، وهو قوله: ﴿تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧].

(٩٤) ـ ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ﴾: إلى إبراهيمَ بعدَما رَجَعُوا فرأَوْا أصنامَهُم مُكسَّرَةً وبحثُوا عن كاسرِها، فظَنُّوا[2] أنَّه هو كما شرحَهُ في قولِه: ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا

---

(١) نسبه للبيد: الثعالبي في «التمثيل والمحاضرة» (ص: ٦١)، ولم أجده في «ديوانه»، ونسبه الثعالبي نفسه في «الإعجاز والإيجاز» (ص: ١٣٦) للجعدي، ونسبه القيرواني في «زهر الآداب» (١/ ٢٦٨) لعمرو بن قميئة، وهو في ذيل «ديوانه» (ص: ٧٥)، ونسبه المبرد في «الفاضل» (ص: ٧٠) للنمر بن تولب.

(٢) في نسخة الفاروقي: «وظنوا».

بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٥٩ ـ ٦٠].

﴿يَزِفُّونَ﴾: يُسرِعُونَ، مِن زَفيفِ النَّعامِ، وقرأَ حمزَةُ على بناءِ المَفعولِ مِن أَزَفَّ[1]؛ أي: يُحملونَ على الزَّفيفِ.

وقُرِئَ: ﴿يُزِفُّون﴾[2]؛ أي: يُزِفُّ بَعضُهُم بعضًا.

و: (يَزِفون) مِن وَزَفَ يَزِفُ: إذا أسرعَ[3].

و: (يَزْفُون) مِن زَفَاهُ: إذا حَدَاهُ[4]؛ كأنَّ بعضَهُم يَزْفوا بعضًا لتَسارُعِهِم إليهِ.

(٩٥ ـ ٩٦) ـ ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾: ما تنحتونَهُ مِن الأصنامِ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: وما تعملونَه، فإنَّ جوهرَهَا بخَلْقِه، وشَكلَهَا ـ وإن كانَ بفعلِهِم، ولذلك جُعلَ مِن أعمالِهِم ـ فبإقدارِهِ إيَّاهُم عليهِ وخلقِه ما يَتوقَّفُ عليهِ فِعلُهُم مِن الدَّواعِي والعُدَدِ.

أو: عملَكُم، بمعنى مَعمولِكُم؛ ليُطابِقَ ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾، أو أنه[5] بمعنى الحَدَثِ،

---

(١) ليست هذه قراءة حمزة بل التي بعدها، وهذه وردت دون نسبة في «الكشاف» (٧/ ٣٣٧) و«البحر» (١٨/ ١٩٠).

(٢) هذه هي قراءة حمزة. انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٨)، و«التيسير» (ص: ١٨٦).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٩) عن الضحاك وابن أبي عبلة ويحيى بن عبد الرحمن، و«المحتسب» (٢/ ٢٢١) عن عبد الله بن يزيد. وذكرها الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٣٨٩) دون نسبة.

ولم يثبت الفراء: (وَزَفَ)، ونَقَل عن الكسائي أيضاً أنه لم يثبته، قال ابن جني: إلا أن ظاهر اللفظ مقتضٍ لها على ما مضى، وعلى أن أحمد بن يحيى قد أثبت (وَزَفَ): إذا أسرع، وشاهِدُه عنده هذه القراءة.

(٤) بفتح الياء وسكون الزاي وتخفيف الفاء. انظر: «زاد المسير» (٣/ ٥٤٥) عن ابن أبي عبلة وأبي نهيك.

(٥) في نسخة الفاروقي: «لأنه» وفي الهامش كالمثبت نسخة.

فإنَّ فِعلَهُم إذا كان بخلقِ اللهِ فيهم كانَ مَفعولُهُم المتوقِّفُ على فعلِهِم أولى بذلك، وبهذا المعنى تمسَّكَ أصحابُنا على خلقِ الأعمالِ، ولهم أَنْ يُرجِّحُوهُ على الأَوَّلَيْنِ لِمَا فيهِمَا مِن حَذفٍ أو مَجازٍ.

(٩٧) ـ ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾: في النَّارِ الشَّديدةِ، مِن الجُحمَة وهي شدَّةُ التَّأجُّجِ، واللامُ بدلَ الإضافةِ؛ أي: جحيمِ ذلك البُنْيانِ.

(٩٨) ـ ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا﴾ فإنَّهم لَمَّا قَهرَهُم بالحُجَّة قَصدُوا تعذيبَهُ بذلك لئلَّا يظهرَ للعامَّةِ عَجزُهُم.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾: الأذلِّينَ بإبطالِ كَيدِهِم وجعلِه بُرهانًا نيِّرًا على علوِّ شأنِه حيثُ جعلَ النَّارَ عليه بَرْدًا وسَلَامًا.

(٩٩) ـ ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾ إلى حَيثُ أَمَرني ربِّي وهو الشَّامُ، أو حيثُ أَتجرَّدُ فيه لِعبادَتِه ﴿سَيَهْدِينِ﴾ إلى ما فيه صَلاحُ دِيني، أو إلى مَقصِدِي، وإنما بتَّ القولَ لسبقِ وعدِه، أو لفَرْطِ تَوكُّلِه، أو للبناءِ على عادَتِه مَعه، ولم يَكُن كذلك حالُ مُوسى عليه السَّلامُ حين قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢] فلذلك ذُكرَ بصيغةِ التَّوقُّعِ.

(١٠٠) ـ ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: بعضَ الصَّالحينَ يُعينُني على الدَّعوةِ والطَّاعةِ، ويُؤنِسُني في الغُربَةِ، يعني: الولدَ؛ لأنَّ لفظَ الهِبَةِ غالبٌ فيه، ولقوله:

(١٠١) ـ ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ بشَّرَه بالولدِ، وبأنَّهُ ذكرٌ يبلغُ أوانَ الحلمِ، فإنَّ الصَّبيَّ لا يُوصَفُ بالحِلْمِ ويكونُ حليمًا، وأيُّ حِلمٍ مثلُ حِلْمِه حينَ عرضَ عليه أبوهُ الذَّبحَ وهو مراهقٌ فقال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؟

وقيل: ما نَعَتَ اللهُ نَبيًّا بالحلمِ لعِزَّةِ وُجودِه غيرَ إبراهيمَ وابنِه عليهِما السَّلامُ، وحالُهما المذكورةُ بَعْدُ تَشهَدُ عليه.

(١٠٢) ـ ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾؛ أي: فلَمَّا وُجدَ وبلَغَ أن يَسْعَى معهُ في أعمالِه، و﴿مَعَهُ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ دلَّ عليه ﴿ٱلسَّعۡيَ﴾ لا به؛ لأنَّ صِلَةَ المصدرِ لا تَتقدَّمُه، ولا بـ﴿بَلَغَ﴾؛ فإنَّ بُلوغَهُما لم يَكُن معًا، كأنَّه قال: فلَمَّا بلغَ السَّعْيَ، فقيل: مع مَن؟ فقيل: ﴿مَعَهُ﴾، وتخصيصُه لأنَّ الأبَ أكمَلُ في الرِّفقِ به والاستصلاحِ له فلا يَستَسْعِيهِ قبلَ، ولأنَّه استوهَبَهُ لذلك، وكانَ له يومئذٍ ثلاثَ عشرةَ سنةً.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾ قرأ حفصٌ وحدَه بفتحِ الياء[1].

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ يحتمِلُ أنَّه رأى ذلك، وأنَّه رأى ما هو تَعبيرُهُ.

وقيل: إنَّه رأى ليلةَ التَّروِيَةِ أنَّ قائلًا يقولُ له: إنَّ اللهَ يأمرُكَ بذبحِ ابنِكَ، فلَمَّا أصبحَ روَّى[2] أنَّهُ مِن اللهِ أو مِن الشَّيطانِ، فلَمَّا أَمْسَى رأى مثلَ ذلك فعرفَ أنَّهُ مِن اللهِ، ثمَّ رأى مثلَهُ في الليلةِ الثَّالثَةِ، فهمَّ بنحرِهِ وقال له ذلك، ولهذا سُمِّيَت الأيامُ الثَّلاثَةُ بالتَّروِيَةِ وعرفةَ والنَّحرِ.

والأظهَرُ أنَّ المُخاطبَ إسماعيلُ عليهِ السَّلامُ؛ لأنَّه الذي وُهِبَ له إثرَ الهجرةِ، ولأنَّ البشارةَ بإسحاقَ بعدُ مَعطوفةٌ على البشارةِ بهذا الغُلامِ.

ولقوله عليه السلام: «أنا ابنُ الذَّبيحينِ»[3]، فأحدُهما: جدُّهُ إسماعيلُ، والآخرُ

---

(١) وقرأ الباقونَ بكسرِها، انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٤)، و«التيسير» (ص: ١٢٧).

(٢) «روَّى»؛ أي: فكر. انظر: «حاشية الجاربردي على الكشاف» (ج٢/ و٣٠٨ب).

(٣) قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٣/ ١٧٧): «غريب»، وروى الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٩٧)، والحاكم في «المستدرك» (٤٠٣٦)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٦٠٦٧)، عن الصنابحي، قال: كنا عند معاوية بن أبي سفيان، فذكروا الذبيح إسماعيل أو إسحاق، فقال: على الخبير سقطتم: كنا عند رسول الله ﷺ فجاءه رجل، فقال: يا رسول الله عد عليَّ مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين؛ فضحك عليه الصلاة والسلام؛ فقلنا له: يا أمير المؤمنين، وما الذبيحان؟ فقال: «إن =

أبوهُ عبدُ اللهِ، فإنَّ عبدَ المُطَّلبِ نذرَ أَنْ يذبحَ ولدًا إن سهَّلَ اللهُ له حفرَ زَمْزَم أو بلغَ بنوهُ عَشْرًا، فلمَّا سَهَّلَ الله أَقْرَعَ فخرجَ السَّهمُ على عبدِ اللهِ، ففَداهُ بمئةٍ مِن الإبلِ، ولذلك سُنَّت الدِّيَةُ مئةً؛ ولأنَّ ذلك كان بمَكَّةَ، وكان قرنا الكبشِ مُعَلَّقينِ بالكعبةِ حتى احترقَا مَعَها في أيَّامِ ابنِ الزُّبيرِ[1]، ولم يَكُن إسحاقُ ثَمَّةَ، ولأنَّ البشارةَ بإسحاقَ كانَتْ مَقرونةً بولادةِ يعقوبَ مِنْهُ فلا يُناسِبُها الأمرُ بذَبحِه مُراهِقًا.

وما رُوِيَ أنَّه عليهِ السَّلامُ سُئِلَ: أيُّ النَّسبِ أشرَفُ فقال: «يوسفُ صِدِّيقُ اللهِ ابنُ يعقوبَ إسرائيلِ اللهِ ابنِ إسحاقَ ذَبيحِ اللهِ ابنِ إبراهيمَ خليلِ اللهِ»، فالصَّحيحُ أنَّه قال:

---

= عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم، نذر لله لئن سهل عليه أمرها ليذبحن أحد ولده، قال: فخرج السهم على عبد الله، فمنعه أخواله، وقالوا: افد ابنك بمائة من الإبل، ففداه بمائة من الإبل، وإسماعيل الثاني». قال ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٣٥): «غريب جدًّا»، وضعف إسناده السيوطيُّ في «الدر المنثور» (٧/ ١٠٥).

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٦٦٣٧)، وأبو داود (٢٠٣٠)، والأزرقي في «أخبار مكة» (١/ ٢٢٣) واللفظ له، من طريق سفيان، عن منصورٍ الحَجَبيِّ، حدثني خالي مسافع بن شيبة، عن أُمي صفية بنت شيبة: أن امرأةً من بني سُلَيمٍ وَلَدَت عامَّتهم قالت لعثمانَ بن طلحة: لِمَ دعاكَ النبيُّ ﷺ بَعْد خروجه من البيت؟ قال: قال لي: «إنِّي رأيتُ قَرْنَي الكبش في البيت، فَنَسِيتُ أَنْ آمُرَكَ أَنْ تخمِّرها، فإنه لا ينبغي أَنْ يكون في البيت شيءٌ يَشْغَلُ مُصلِّيًا». زاد الأزرقي: قال عثمانُ: وهو الكبشُ الذي فُدِي به إسماعيلُ بن إبراهيم عليهما السلام. وفي رواية أحمد: قال سفيانُ: لمْ تَزَلْ قرنَا الكبش في البيت حتى احترق البيتُ فاحترَقَا. ورجاله ثقات.

وروى الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٩٥) عن الشعبي أنه قال في هذه الآية ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ قال: هو إسماعيل، قال: وكان قَرْنا الكبش مَنُوطَيْن بالكعبة.

وفي رواية عنه قال: رأيت قرني الكبش في الكعبة.

وروى (١٩/ ٦٠٣) عن ابن عباس خبراً فيه: فوَالَّذي نَفْسُ ابن عباس بيده، لقد كان أَوَّلُ الإسلام وإن رأسَ الكبشِ لَمُعَلَّقٌ بقرنيه عند مِيزاب الكعبة قد حَشَّ، يعني: يَبِسَ.

«يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بن إبراهيمَ»، والزَّوائدُ مِن الرَّاوي[١]، وما رُوِيَ أنَّ يعقوبَ كتبَ إلى يوسُفَ مثلَ ذلك لم يَثْبُت[٢].

وقرأَ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وأبو عَمرٍو بفَتحِ الياءِ فيهِمَا[٣].

﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ مِن الرَّأيِ، وإنَّما شاورَهُ فيه وهو حتمٌ ليَعْلَمَ ما عندَهُ فيما نزلَ مِن بلاءِ اللهِ، فيُثبِّتَ قدمَهُ إن جزعَ، ويأمنَ عليه إن سَلَّمَ، وليوطِّنَ نفسَهُ عليه فيَهُونَ ويكتسبَ المثوبةَ[٤] بالانقيادِ له قبلَ نُزولِه.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿ماذا تُرِي﴾ بضَمِّ التَّاءِ وكسرِ الرَّاءِ خالِصَةً والباقونَ بفَتحِها، وأبو عمرٍو يُميلُ فتحةَ الرَّاءِ، وورشٌ بينَ بينَ، والباقونَ بإخلاصِ فَتحِهِما[٥].

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ﴾ وقرأَ ابنُ عامرٍ بفتحِ التَّاءِ[٦].

﴿افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾؛ أي: ما تُؤمَرُ به، فحُذِفَا دفعةً أو على التَّرتيبِ كما عرفتَ، أو:

---

(١) أخرجَ البُخاريُّ (٣٣٥٣)، ومسلمٌ (٢٣٧٨) عَن أبي هُريرةَ رضي الله عنه قال: قيل: يا رسولَ اللهِ: مَن أكرَمُ النَّاسِ؟ قال: «أتقاهُم» فقالوا: ليسَ عن هذا نسألُكَ، قال: «فيوسُفُ نبيُّ اللهِ بنُ نبيِّ اللهِ بنِ نبيِّ اللهِ بنِ خَليلِ اللهِ».

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٥٧٩) عن الحكيم الترمذي وأبي الشيخ عن وهب بن منبه، وينظر نصه بتمامه ثمة.

وقال ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٤٠٥): «إن الإسرائيليين ينقلون أن يعقوب كتب إلى يوسف لما احتبس أخاه بسبب السرقة يتلطف له في رده، ويذكر له أنهم أهل بيت مصابون بالبلاء، فإبراهيم ابتلي بالنار، وإسحاق بالذبح، ويعقوب بفراق يوسف، في حديث طويل لا يصح».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٤)، و«التيسير» (ص: ١٢٧).

(٤) في نسخة التفتازاني: «الفضيلة».

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٨)، و«التيسير» (ص: ١٨٦).

(٦) انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٤).

أَمْرَكَ[١]، على إرادةِ المأمورِ بهِ والإضافةِ إلى المأمورِ، ولعلَّهُ فَهِمَ مِن كَلامِه أنَّه رأى أنَّه يَذبحُه مأمورًا به، أو عَلِمَ أنَّ رُؤيا الأنبياءِ حَقٌّ وأنَّ مِثلَ ذلك لا يُقدِمُونَ عليه إلَّا بأمرٍ، ولعلَّ الأمرَ به في المنامِ دونَ اليَقَظةِ لتكونَ مُبادرَتُهما إلى الامتثالِ أدَلَّ على كمالِ الانقيادِ والإخلاصِ، وإنَّما ذُكِرَ بلَفظِ المُضارعِ لتكرُّرِ الرُّؤيا.

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على الذَّبحِ، أو على قَضاءِ اللهِ.

وقرأ نافعٌ بفتحِ اليَاءِ[٢].

(١٠٣) ـ ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾: استَسْلَمَا لأمرِ اللهِ، أو سَلَّمَا الذَّبيحُ نفسَهُ وإبراهيمُ ابنَهُ، وقَدْ قُرِئَ بهما[٣]، وأصلُها: سَلِمَ هذا لفلانٍ: إذا خَلصَ له، فإنه سَلِمَ مِن أَنْ يُنازَعَ فيه.

﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾: صرعَهُ على شقِّهِ فوقعَ جبينُهُ على الأرضِ وهو أحدُ جانبَي الجبهَةِ.

وقيل: كبَّهُ على وجهِهِ بإشارَتِه كيلا يَرى فيه تغيُّرًا يَرِقُّ له فلا يذبحُهُ، وكان ذلك عندَ الصَّخرةِ بمِنًى، أو في الموضعِ المشرِفِ على مَسجدِه، أو المنحرِ الذي يُنحَرُ فيه اليومَ.

(١٠٤ ـ ١٠٥) ـ ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ بالعَزمِ والإتيانِ بالمُقدِّماتِ.

---

(١) قوله: «أمرك» بسكون الميم؛ عطف على (ما تؤمر به» فـ(ما)درية، وعلى الأول موصولة انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٩٠).

(٢) انظر: «التيسير» (ص: ١٧٢ و١٨٧).

(٣) (سلَّما) هي قراءة علي بن أبي طالب وابن عباس وابن مسعود وغيرهم. كما في «المحتسب» (٢/ ٢٢٢)، وعزى الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٣٩٣) القراءة الثانية إلى ابن مسعود.

وقد رُوِيَ أنَّه أَمَرَّ السكِّينَ بقُوَّتِه على حلقِهِ مِرارًا فلَمْ تقطَعْ[١].

وجوابُ: (لَمَّا) محذوفٌ تقديرُهُ: كان ما كانَ ممَّا ينطقُ به الحالُ ولا يحيطُ به المقالُ مِن استبشارِهما وشُكرِهما للهِ على ما أنعَمَ عليهِمَا مِن دَفعِ البَلاءِ بعدَ حُلولِه والتَّوفيقِ لِمَا لم يُوفَّقْ غيرُهُما لِمثلِه، وإظهارِ فَضلِهما به على العالَمِينَ مع إحرازِ الثَّوابِ العَظيمِ، إلى غيرِ ذلك.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليلٌ لإفراجِ تلك الشِّدَّةِ عنهما بإحسانِهما.

واحتجَّ بِهِ مَن جوَّزَ النَّسخَ قبلَ وُقوعِه[٢]، فإنَّه عليه السَّلامُ كانَ مأمورًا بالذَّبحِ لقولِه: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ ولم يَحْصُل.

(١٠٦) - ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾: الابتلاءُ البيِّنُ الذي يتميَّزُ فيه المخلِصُ مِن غَيرِه، أو: المحنَةُ البيِّنَةُ الصُّعوبَةِ فإنَّه لا أصعبَ مِنْها.

(١٠٧) - ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ﴾: بمَا يُذبَحُ بدلَهُ فيَتِمُّ بِهِ الفعلُ ﴿عَظِيمٍ﴾: عظيمِ الجُثَّةِ سمينٍ، أو: عظيمِ القَدْرِ لأنه يَفْدِي به اللهُ نَبِيًّا ابنَ نبيٍّ، وأيَّ نبيٍّ مِن نَسلِه سيِّدُ المُرسَلِينَ.

قيل: كان كبشًا من الجنَّةِ.

وقيل: وَعْلًا أهبِطَ عليهِ من ثَبِيرٍ.

ورُوِيَ أنَّه هربَ مِنْه عند الجمرةِ، فرمَاهُ بسبعِ حصَيَاتٍ حتَّى أخذَهُ فصارَتْ سُنَّةً.

والفادي به على الحقيقةِ إبراهيمُ عليهِ السَّلامُ[٣]، وإنما قال: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ﴾ لأنَّه المُعطِي له والآمِرُ بِهِ على التَّجوُّزِ في الفِداءِ أو الإسنادِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٨٠) عن السدي.

(٢) في نسخة الفاروقي: «قبل الفعل».

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٧٠٧) مطولًا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

واستدلَّ به الحنفيَّةُ على أنَّ مَن نذرَ ذبحَ وَلدِهِ لَزِمَه ذبحُ شاةٍ، وليس فيه ما يَدُلُّ عليه(١).

(١٠٨ ـ ١٠٩) ـ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ سبقَ بيانُهُ في قصَّةِ نوحٍ.

(١١٠ ـ ١١١) ـ ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ لعلَّهُ طُرِحَ عنه (إنَّا) اكتفاءً بذكرِه مرَّةً في هذه القصَّةِ ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

(١١٢) ـ ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾: مَقضِيًّا نبوَّتُه مُقدَّرًا كونُه مِن الصَّالِحينَ، وبهذا الاعتبارِ وقعَا حالَيْنِ، ولا حاجةَ إلى وُجودِ(٢) المُبشَّرِ به وقتَ البشارةِ، فإنَّ وُجودَ ذي الحالِ غيرُ شَرطٍ، بَلِ الشَّرطُ مُقارنَةُ تَعلُّقِ الفعلِ به للاعتبارِ المعنيِّ بالحالِ، فلا حاجةَ إلى تقديرِ مُضافٍ يُجعَلُ عامِلًا فيهمَا مثل: وبشَّرْنَا بوجودِ إسحاقَ؛ أي: بأن يوجَدَ إسحاقُ نبيًّا من الصَّالحينَ، ومع ذلك لا يصيرُ نظيرَ قولِه: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، فإنَّ الدَّاخلينَ مقدَّرونَ خلودَهُم وقتَ الدُّخولِ، وإسحاقُ لم يَكُن مُقدَّرًا نبوَّةَ نفسِه وصلاحَها حينما يوجدُ.

ومَن فسَّرَ الغُلامَ بإسحاقَ جعلَ المقصودَ مِن البِشارَةِ نُبوَّتَه.

وفي ذكرِ الصَّلاحِ بعدَ النُّبوَّةِ تعظيمٌ لشَأنِه، وإيماءٌ بأنَّه الغايَةُ لها لتَضمُّنِها معنى الكمالِ والتَّكميلِ بالفعلِ على الإطلاقِ.

---

(١) ذكر هذه المسألة القدوري في «التجريد» (١٢/ ٦٥٠٦) قال: نذر نحر ولده، قال أبو حنيفة ومحمد رحمهما الله: إذا نذر نحر ولده، فعليه شاة، وقال أبو يوسف رحمه الله: لا يلزمه شيء، وبه قال الشافعي رحمه الله.

(٢) في نسخة الفاروقي: «ولا يقدح فيه عدم» بدل: «ولا حاجة إلى وجود».

(١١٣) ـ ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾: على إبراهيمَ في أولادِه ﴿وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ﴾ بأَنْ أخرَجْنا مِن صُلْبِه أنبياءَ بني إسرائيلَ وغيرَهُم كأيُّوبَ وشُعيبٍ، أو: أَفَضْنا عليهِما بَرَكاتِ الدِّينِ والدُّنيَا.

وقُرِئَ: (وبرَّكْنا)[١].

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ﴾ في عملِه أو على نفسِه بالإيمانِ والطَّاعَةِ ﴿وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ بالكُفرِ والمَعاصِي ﴿مُبِينٞ﴾: ظاهرٌ ظلمُهُ، وفي ذلك تنبيهٌ على أنَّ النَّسبَ لا أثرَ لَهُ في الهُدَى والضَّلالِ، وأنَّ الظُّلْمَ في أعقابِهما لا يعودُ عليهِمَا بنَقيصَةٍ وعَيبٍ.

(١١٤ ـ ١١٥) ـ ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾: أنعمْنا عليهِمَا بالنُّبوَّةِ وغيرِهَا مِن المنافعِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾: مِن تَغلُّبِ فِرعونَ أو الغرقِ.

(١١٦) ـ ﴿وَنَصَرۡنَٰهُمۡ﴾ الضَّميرُ لَهُما مع القومِ ﴿فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ على فِرعونَ وقَومِه.

(١١٧) ـ ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ﴾: البليغَ في بيانِهِ وهو التَّوراةُ.

(١١٨) ـ ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾: الطَّريقَ الموصِلَ إلى الحقِّ والصَّوابِ.

(١١٩ ـ ١٢٢) ـ ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۝١١٩ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٢١ إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ سبقَ مِثلُ ذلك.

---

(١) رواه أبو عمرو الداني في «جامع البيان» (ص: ١٨٠)، والمستغفري في «فضائل القرآن» (ص: ٣٧٣): عن الأصمعي قال: قلت لأبي عمرو: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾ في موضع (وبركنا عليه) أتعرف هذا؟ فقال: ما نعرف إلا أن نسمع من المشايخ الأولين، قال: وقال أبو عمرو: إنما نحن فيمن مضى كبقل في أصول نخل طوال.

(١٢٣) ـ ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ هـو إلياسُ بن ياسـينَ من سِـبْط هارونَ أخي موسـى بعـثَ بعدَهُ.

وقيل: إدريسُ، لأنَّه قُرِئَ: (إدريس)[١] و(إِدْرَاس)[٢] مكانَهُ.

وفي حرفِ أُبيٍّ: (وإنَّ إيليسَ)[٣].

وقرأَ ابنُ ذكوانَ مع خلافٍ عنه بحذفِ همزةِ إلياسَ[٤].

(١٢٤ ـ ١٢٦) ـ ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذابَ اللهِ ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾: أتعبدونَهُ؟ أو: أتطلبونَ الخيرَ مِنه؟

وهو اسمُ صَنمٍ كانَ لأهلِ بَكَّ مِن الشَّامِ، وهو البلدُ الذي يقالُ له الآنَ: بَعْلَبَكّ.

وقيل: البَعْلُ: الرَّبُّ بلُغَةِ اليَمنِ، والمعنى: أتدعونَ[٥] بعضَ البعولِ؟

﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾: وتتركونَ عِبادَتَه، وقـد أشارَ فيه إلى المقتضي للإنكارِ المعنيِّ بالهمزةِ، ثمَّ صرَّحَ به بقولِه: ﴿اللهُ ربُّكم وربُّ آبائكُم الأوَّلين﴾.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ ويَعقوبُ وحَفصٌ بالنَّصبِ على البَدلِ[٦].

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٨)، و«المحتسب» (٢/ ١٢٤)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) انظر: «المحتسب» (٢/ ٢٢٤) عن ابن مسعود أيضاً.

(٣) انظر: «المحتسب» (٢/ ٢٢٥).

(٤) ذكرها في «السبعة» (ص: ٥٤٨) عن ابن عامر، وفي «التيسير» (ص: ١٨٧) عنه من رواية ابن ذكوان.

(٥) في نسخة الخيالي: «أتعبدون».

(٦) انظر: «التيسير» (ص: ١٨٧)، و«النشر» (٢/ ٣٦٠).

(١٢٧) ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾؛ أي: في العَذابِ، وإنَّما أطلقَهُ اكتفاءً بالقرينةِ، أو لأنَّ الإحضارَ المطلَقَ مخصوصٌ بالشرِّ عُرْفًا.

(١٢٨) ـ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ مُستثنًى مِن الواوِ، لا مِن المحضرينَ لفسادِ المَعنى.

(١٢٩ ـ ١٣٢) ـ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ لغةٌ في إلياسَ؛ كسِيناءَ وسِينينَ.

وقيل: جمعٌ له مرادٌ بِهِ هو وأتباعُهُ كالمُهَلَّبِينَ، لكنْ فيه: أنَّ العَلَمَ إذا جُمعَ يجِبُ تعريفُه باللامِ، أو للمَنسوبِ إليه[١] بحذفِ ياءِ النَّسَبِ كالأعجمينَ وهو قليلٌ ملبسٌ.

وقرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ ويعقوبُ على إضافةِ ﴿آلِ﴾ إلى ﴿ياسينَ﴾[٢]؛ لأنَّهما في المصحفِ مَفصولانِ، فيكونُ ياسينُ أبا إلياسَ.

وقيل: مُحمَّدٌ عليه السَّلامُ، أو القرآنُ، أو غيرُه مِن كتبِ اللهِ، والكلُّ لا يناسِبُ نظمَ سائرِ القصصِ، ولا قولَه: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ إذِ الظَّاهِرُ أنَّ الضَّميرَ لإلياسَ.

(١٣٣ ـ ١٣٦) ـ ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ سبقَ بيانُه.

(١٣٧ ـ ١٣٨) ـ ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ يا أهلَ مكَّةَ ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾: على مَنازِلِهم في مَتاجِرِكُم إلى الشَّامِ، فإنَّ سدومَ في طريقِه ﴿مُّصْبِحِينَ﴾: داخلينَ في الصَّباحِ ﴿وَبِاللَّيْلِ﴾؛ أي: ومساءً، أو: نهارًا وليلًا، ولعلَّها وقَعت قريبَ مَنزلٍ يمرُّ بها المرتحِلُ عنه صباحًا والقاصدُ لها مساءً.

---

(١) «أو للمنسوب إليه» عطف على «له». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٥٩٤).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٩)، و«التيسير» (ص: ١٨٧)، و«النشر» (٢/ ٣٦٠).

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: أفليسَ فيكُم عقلٌ تَعتبِرونَ به.

(١٣٩ ـ ١٤١) ـ ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وقُرِئَ بكسرِ النُّونِ[1] ﴿إِذْ أَبَقَ﴾: هربَ، وأصلُه: الهَرَبُ مِن السيِّدِ، لكنْ لَمَّا كان هربُهُ مِن قومِه بغيرِ إذنِ ربِّهِ حَسُنَ إطلاقُه عليه.

﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾: المملوءِ ﴿فَسَاهَمَ﴾: فقارعَ أهلَه ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾: فصارَ مِن المغلوبينَ بالقرعةِ، وأصلُه: المُزْلَقُ عن مقامِ الظَّفرِ.

رُوِيَ أنَّه لَمَّا وعدَ قومَهُ بالعَذابِ خرجَ مِن بينِهِم قبلَ أَنْ يَأْمُرَه اللهُ به، فركبَ السَّفينةَ فوقفَتْ، فقالوا: هاهنا عبدٌ آبقٌ، فاقترَعُوا فخرجَتِ القُرعَةُ عليه، فقال: أنا الآبقُ، ورمَى[2] بنفسِهِ في الماءِ[3].

(١٤٢) ـ ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ﴾: فابتلعَهُ ـ مِن اللُّقمَةِ ـ ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ داخلٌ في المَلَامةِ، أو: آتٍ بما يُلَامُ عليه، أو مُليمٌ نفسَه، وقُرِئَ بالفتحِ[4] مبنيًّا مِن لِيمَ؛ كمَشِيبٍ في مَشُوبٍ.

(١٤٣) ـ ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾: الذَّاكرينَ اللهَ كثيرًا بالتَّسبيحِ مُدَّةَ عمرِهِ.

أو: في بطنِ الحوتِ، وهو قولُه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وقيل: مِن المُصلِّينَ.

---

(١) نسبت للحسن في «إعراب القرآن» للنحاس (١/ ٢٥٠)، وهي رواية ابن جماز عن نافع، انظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ١٣٦).

(٢) في نسخة الفاروقي: «وزج».

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٥٥٠) عن قتادة.

(٤) انظر: «الكشاف» (٧/ ٣٦٠)، و«البحر» (١٨/ ٢١٠).

(١٤٤) ـ ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ حيًّا، وقيل: ميتًا، وفيه حَثٌّ على إكثارِ الذِّكرِ وتَعظيمٌ لشأنِه، وأنَّ مَن أقبلَ عليه في السَّرَّاءِ أخذَ بيدِهِ عندَ الضَّرَّاءِ.

(١٤٥) ـ ﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾ بأنْ حَملنَا الحُوتَ على لفظِه ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ بالمكانِ الخالي عمَّا يُغطِّيهِ مِن شَجَرٍ أو نبتٍ.

رُوِيَ أنَّ الحوتَ سارَ مع السَّفينَةِ رافعًا رأسَهُ، يتنفَّسُ فيه يونسُ ويُسبِّحُ حتى انتَهوا إلى البرِّ فلَفَظَهُ[1].

واختُلِفَ في مدَّةِ لبثِه: فقيل: يوم، وقيل: بعضُ يومٍ، وقيل: ثلاثةُ أيَّامٍ، وقيل: سَبعةٌ، وقيل: عِشرونَ، وقيل: أربعونَ.

﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ ممَّا نالَهُ، قيل: صارَ بدنهُ كبدنِ الطِّفلِ حين يولَدُ[2].

(١٤٦) ـ ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ﴾؛ أي: فوقَهُ مُظلَّةً عليه ﴿شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾: مِن شجرٍ يَنبَسِطُ على وجهِ الأرضِ ولا يقومُ على ساقِهِ، (يَفْعِيلٌ) مِن قَطَنَ بالمكانِ: إذا أقامَ بهِ، والأكثرُ على أنَّها كانَتِ الدُّبَّاءَ، غطَّتْه بأوراقِها عن[3] الذُّبابِ فإنَّه لا يقعُ عليه، ويدلُّ عليه أنَّه قيلَ لرسولِ اللهِ ﷺ: إنَّكَ لتُحِبُّ القَرْعَ، قال: «أجَل، هي شجرةُ أخي يُونُسَ»[4].

---

(١) انظر: «الكشاف» (٧/ ٣٦١).

(٢) في هامش نسخة التفتازاني: «في نسخة: لا قوة له»، انظر: «تفسير القرآن العزيز» لابن أبي زمنين (٤/ ٧٣).

(٣) في نسخة الفاروقي: «من».

(٤) قال الولي العراقي: لم أقف عليه، انظر: «حاشية السيوطي» (١٠/ ٤٦٥)، وقال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ١٨٠): «غريب»، ثم ذكر رواية من «تفسير ابن مردويه» وفيه: «وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، قال عبد الله عن النبي ﷺ: واليقطين القرع». أما حب النبي ﷺ للدباء فقد =

وقيل: التِّينُ.

وقيل: الموزُ يُغَطَّى بورقِهِ، ويَستظِلُّ بأغصانِه، ويُفطِرُ على ثمارِه.

(١٤٧) ـ ﴿وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ﴾ هم قومُهُ الذين هربَ عَنْهُم، وهم أهلُ نينوَى، والمرادُ: ما سبقَ مِن إرسالِه، أو إرسالٌ ثانٍ إليهم أو إلى غيرِهم.

﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ في مَرْأَى النَّاظرِ؛ أي: إذا نظرَ إليهم قال: هُم مئةُ ألفٍ أو أكثرُ، والمرادُ: الوَصفُ بالكَثرَةِ، وقُرِئَ بالواوِ[1].

(١٤٨) ـ ﴿فَـَٔامَنُواْ﴾: فصدَّقُوهُ، أو: فجَدَّدُوا الإيمانَ به بمَحْضَرِه.

﴿فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾: إلى أجلِهِم المُسمَّى، ولعلَّهُ إنَّما لم يَخْتِم قصَّتَه وقصَّةَ لوطٍ بما ختمَ به سائرَ القصصِ تفرِقَةً بينَهُما وبينَ أربابِ الشَّرائعِ الكُبَرِ وأولي العزمِ مِن الرُّسُلِ، أو اكتفاءً بالتَّسليمِ الشَّاملِ لكلِّ الرُّسُلِ المذكورينَ في آخرِ السُّورةِ.

(١٤٩) ـ ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ معطوفٌ على مثلِه في أوَّلِ السُّورَةِ، أمرَ رَسولَهُ أوَّلًا باستفتاءِ قُرَيشٍ عن وجهِ إنكارِهم البعثَ، وساقَ الكلامَ في تَقريرِهِ جارًّا لِمَا يُلائِمُه مِن القصصِ مَوصولًا بعضُها ببعضٍ.

ثمَّ أمرَ باستِفتائِهم عن وَجهِ القِسمَةِ حيثُ جعلوا للهِ البناتِ ولأَنفُسِهِم البنينَ في قولِهم: الملائكةُ بناتُ اللهِ.

---

= ورد في عدة أحاديث، منها ما رواه البخاري (٥٣٧٩)، ومسلم (٢٠٤١) عن أنس رضي الله عنه قال: «ذهبت مع رسول الله ﷺ، فرأيته يتتبع الدباء من حوالي القصعة». وروى النسائي في «السنن الكبرى» (٦٦٣٠) عن أنس رضي الله عنه قال: (كان رسول الله ﷺ يحب الدباء). وفي رواية (٩٩٩٣) عن أنس قال: «وكان يعجبه القرع».

(١) نسبت لجعفر بن محمد، انظر: «المحتسب» (٢/ ٢٢٧)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤٨٧)، ونسبت في «زاد المسير» (٣/ ٥٥٣) لأبي بن كعب، ومعاذ القارئ، وأبي المتوكل، وأبي عمران الجوني.

وهؤلاءِ زادُوا على الشِّركِ ضَلالاتٍ أُخَرَ: التَّجسيمُ، وتَجْويزُ الفَناءِ[١] على اللهِ تَعالى، فإنَّ الوِلادةَ مَخصوصَةٌ بالأجسامِ الكائنَةِ الفاسدَةِ، وتفضيلُ أنفُسِهم عليه حيث جَعَلُوا أوضعَ الجِنسينِ له وأرفعَهُمَا لهم، واستهانتُهُم بالملائكةِ حيثُ أَنَّثوهُم، ولذلكَ كرَّرَ اللهُ تعالى إنكارَ ذلك وإبطالَهُ في كتابهِ مِرارًا، وجعلَهُ ممَّا تَكادُ السَّماواتُ يَتفطَّرْنَ منه وتنشَقُّ الأرضُ وتخرُّ الجبالُ هَدًّا، والإنكارُ هاهنا مقصورٌ على الأخيرينَ لاختصاصِ هذه الطَّائفةِ بهما، ولأن فسادَهُما مما يُدرِكُه العامَّةُ بمُقتَضى طباعِهِم حيثُ جعلَ المعادلَ للاستفهامِ عن التَّقسيمِ.

(١٥٠) ـ ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ وإنَّما خصَّ علمَ المشاهدَةِ؛ لأنَّ أمثالَ ذلك لا يُعلَمُ إلا بهِ، فإنَّ الأنوثةَ ليسَتْ مِن لَوازمِ ذاتهم ليُمْكنَ معرفَتُه بالعقلِ الصرفِ، مع ما فيهِ مِن الاستهزاءِ، والإشعارِ بأنَّهُم لفَرْطِ جَهلِهِم يبتُّونَ بهِ كأنَّهُم قد شاهَدُوا خلقَهُم.

(١٥١ ـ ١٥٢) ـ ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ لعَدمِ ما يقتضيهِ وقيامِ ما يَنفيهِ ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما يَتديَّنُونَ بهِ.

وقُرِئَ: (وَلَدُ اللهِ)؛ أي: الملائكةُ ولدُه[٢]، (فَعَلٌ) بمعنى مَفعولٍ يَسْتَوي فيه الواحدُ والجمعُ والمذكَّرُ والمؤنَّثُ.

(١٥٣) ـ ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ استفهامُ إنكارٍ واستبعادٍ: والاصطفاءُ:

---

(١) في نسخة الطبلاوي: «وجواز البنات». وأشار إلى ذلك الخفاجي في «حاشيته» فقال: وقولُه: (تجويز البنات) وقعَ في نسخَةٍ: الفناء بدله؛ لأنَّ التوالد لبقاءِ النَّوع، وإنَّما يطلبه من يجوزُ عليه فناء الشَّخص، فلا وجهَ لِما قيلَ: إنَّه لا وجهَ له، بل تلكَ النُّسخَة لا تناسب ما بعدَه مِن قولِه: (فإن الولادَة... إلخ)، فإنَّه تعليل للزومِ التَّجسيم والفناء.

(٢) انظر: «الكشاف» (٧/ ٣٦٥) دون نسبة.

أخذُ صَفوَةِ الشَّيءِ، وعن نافعٍ كسرُ الهمزةِ[1] على حذفِ حرفِ الاستفهامِ لدَلالةِ (أم) بعدَها عليها، أو على الإثباتِ بإضمارِ القَوْلِ؛ أي: لَكاذبونَ في قولِهم: (اصطَفَى) أو إبداله مِن ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾.

(١٥٤ ـ ١٥٥) ـ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بما لا يرتضيهِ عَقلٌ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنَّه مُنزَّهٌ عن ذلك.

(١٥٦) ـ ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾: حجَّةٌ واضحَةٌ نزلَتْ عليكُم مِن السَّماءِ بأنَّ الملائكةَ بناتُه[2].

(١٥٧) ـ ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ﴾ الذي أُنزلَ عَليكُم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دَعواكُم.

(١٥٨) ـ ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ يعني: الملائكةَ، ذكرَهُم باسمِ جنسِهِم وضعًا مِنْهُم أنْ يبلغُوا هذه المرتبةَ.

وقيل: قالوا: إنَّ اللهَ صاهرَ الجنَّ فخَرجتِ الملائكةُ.

وقيل: قالوا: إن اللهَ والشَّيطانَ أخوَانِ.

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ﴾: إنَّ الكفرةَ، أو الإنسَ، أو الجِنَّةَ إن فُسِّرت بغيرِ الملائكةِ ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ في العَذابِ.

(١٥٩) ـ ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ مِن الولدِ والنسبِ.

(١٦٠) ـ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استثناءٌ مِن المحضَرينَ مُنقطعٌ، أو مُتَّصلٌ إن فُسِّرَ الضَّميرُ بما يعمُّهُم وما بينَهُما اعتراضٌ، أو مِن ﴿يَصِفُونَ﴾.

---

(١) قرأ أبو جعفر بوصل الهمزة على لفظ الخبر، فيبتدئ بهمزة مكسورة، واختلف عن ورش، فروى الأصبهاني عنه كذلك، وهي رواية إسماعيل بن جعفر عن نافع، وروى عنه الأزرق بقطع الهمزة على لفظ الاستفهام، وكذلك قرأ الباقون، انظر: «السبعة» (ص: ٥٤٩)، و«النشر» (٢/ ٣٦٠).

(٢) في نسخة الخيالي: «بنات الله».

(١٦١ - ١٦٣) - ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ عـودٌ إلـى خِطابِهِـم ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾: علـى اللهِ ﴿بِفَٰتِنِينَ﴾: مفسـدينَ النَّـاسَ بالإغـواءِ ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ إلا مَـن سـبقَ فـي علمِـهِ أنَّه مِـن أهـلِ النَّـارِ ويَصلاهـا[1] لا محالَة.

و﴿أَنتُمْ﴾ ضَميرٌ لَهُم ولآلهتهم غلَّبَ فيه المخاطَبُ على الغائبِ.

ويجوزُ أن يكونَ ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ لِمَا فيه مِن معنى المقارنةِ سادًّا مسدَّ الخبرِ؛ أي: إنَّكُم وآلهتكُم قُرَناءُ لا تزالونَ تعبدونَها، ما أَنْتُم على ما تعبدونَهُ بفَاتنينَ: بباعثينَ على طريق الفِتنَةِ إلَّا ضالًّا مُستوجِبًا للنَّارِ مثلَكُم.

وقُرِئَ: (صَالُ) بالضمِّ[2] على أنَّه جمعٌ محمولٌ على معنى ﴿مَن﴾ ساقطٌ واوُهُ لالتقاءِ السَّاكنينِ، أو تخفيفُ صائلٍ على القلبِ كشاكٍ في شائكٍ، أو المحذوفُ منه كالمنسيِّ كما في قولِهم: (مَا باليْتُ بهِ بَالَةً) فإنَّ أصلَها: بَالِيَةً كعَافِيَةٍ.

(١٦٤) - ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ حكايةُ اعترافِ الملائكَةِ بالعُبوديَّةِ للردِّ على عَبدَتِهم، والمعنى: وما مِنَّا أَحَدٌ إلَّا لَهُ مَقامٌ مَعلومٌ في المعرفَةِ والعبادَةِ والانتهاءِ إلى أمرِ اللهِ تَعالى في تَدبيرِ العالمِ لا نتجاوزُه، فحُذِفَ الموصوفُ وأُقِيمتِ الصفةُ مُقامَه.

ويحتملُ أن يكونَ هذا وما قبلَه مِن قولِه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ مِن كلامِهِم؛ ليتَّصِلَ بقولِه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾ كأنَّه قال: ولقد علِمَ الملائكةُ أنَّ المشركينَ مُعذَّبونَ بذلك، وقالوا: (سُبحانَ اللهِ) تنزيهًا له عنه، ثمَّ استثنَوا المخلَصينَ تبرئَةً[3] لهم منه، ثم

---

(١) في نسخة التفتازاني: «يصلاها» بدون واو.

(٢) وهي قراءة الحسن، انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٩٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣١٥)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٣٠٠)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٩)، و«المحتسب» (٢/ ٢٢٨).

(٣) في نسخة الفاروقي: «تنزيها».

خاطَبُوا الكفرةَ بأن الافتتانَ بذلك(١) للشَّقاوةِ المُقدَّرَةِ، ثمَّ اعترفُوا بالعُبوديَّةِ وتَفاوُتِ مَراتِبِهم فيها لا يَتجاوَزُونَها، فحُذِفَ الموصوفُ وأُقيمَت الصِّفَةُ مُقامَهُ.

(١٦٥) ـ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ﴾ في أداءِ الطَّاعةِ ومنازلِ الخدمةِ.

(١٦٦) ـ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ المنزِّهونَ اللهَ عمَّا لا يليقُ بـه، ولعلَّ الأوَّلَ إشارةٌ إلى دَرَجاتِهم في الطَّاعاتِ وهذا في المعارفِ، وما في (إنَّ) واللامِ وتوسيطِ الفَصلِ مِن التَّأكيدِ والاختصاصِ؛ لأنَّهُم المواظِبُونَ على ذلك دائمًا مِن غيرِ فترةٍ، دونَ غيرِهم.

وقيل: هو كلامُ النبيِّ والمُؤمنينَ، والمعنى: وما مِنَّا إلا لهُ مَقامٌ مَعلومٌ في الجنَّةِ أو بينَ يَدي اللهِ في القيامَةِ، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ﴾ له في الصَّلاةِ والمنزِّهونَ لهُ عن السُّوءِ.

(١٦٧ ـ ١٦٩) ـ ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ﴾؛ أي: مُشركو قُريشٍ: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾: كتابًا مِن الكُتبِ التي نزلَتْ عَلَيهم ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾: لأخلَصْنا العبادةَ له ولم نُخَالِف مِثلَهُم.

(١٧٠) ـ ﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾؛ أي: لَمَّا جاءَهُم الذِّكرُ الذي هو أشرَفُ الأذكارِ والمهيمِنُ عليها.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبةَ كُفرِهم.

(١٧١ ـ ١٧٣) ـ ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: وَعْدُنا لهم بالنَّصرِ والغلبَةِ، وهو قولُه: ﴿إنهم لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ وهو باعتبارِ الغالبِ والمقضِيِّ بالذَّاتِ، وإنَّما سَمَّاهُ كلمَةً وهي كلماتٌ، لانتِظامِهَا في مَعنًى واحدٍ.

(١٧٤) ـ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾: فأعرِضْ عَنْهُم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ هو الموعِدُ لنصرِكَ عليهِمْ وهوَ يومُ بَدرٍ، وقيل: يومُ الفَتحِ.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «بأن ذلك الافتتان».

(١٧٥) ـ ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ على ما يَنالُهُم حينئذٍ، والمرادُ بالأمرِ: الدَّلالَةُ على أنَّ ذلك كائِنٌ قَريبٌ كأنَّه قدَّامه.

﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ما قضَيْنَا لكَ مِن التَّأييدِ والنُّصرَةِ والثَّوابِ في الآخرةِ، و(سوفَ) للوَعيدِ لا للتَّبعيدِ.

(١٧٦) ـ ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ رُوِيَ أنَّه لَمَّا نزلَ ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ قالوا: مَتى هذا؟ فنزلَ[1].

(١٧٧) ـ ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾: فإذا[2] نزلَ العَذابُ بِفِنائِهِم، شبَّهَهُ بجيشٍ هجَمَهُم فأناخَ بِفِنائِهِم بغتةً، وقيل: الرَّسولُ عليهِ السَّلامُ.

وقرئ: (نُزِل)[3] على إسنادِهِ إلى الجارِّ والمَجرورِ، و: (نُزِّل)[4]؛ أي: العذابُ.

﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾: فبئسَ صباحُ المنذرينَ صباحُهُم، واللامُ للجنسِ، والصَّباحُ مُستعَارٌ مِن صباحِ الجيشِ المبيِّتِ لوَقتِ نُزولِ العَذابِ[5]، ولَمَّا كَثُرَ فيهِم الهجومُ والغارةُ في الصَّباحِ سَمَّوا الغارةَ صباحًا وإن وَقَعت في وقتٍ آخرَ.

(١٧٨ ـ ١٧٩) ـ ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تأكيدٌ إلى تأكيدٍ، وإطلاقٌ بعدَ تَقييدٍ؛ للإشعارِ بأنَّهُ يُبصِرُ وأنَّهُم يبصِرونَ ما لا يحيطُ به الذِّكرُ مِن أَصنافِ المسرَّةِ وأنواعِ المَسَاءَةِ، أو الأوَّلُ لعذابِ الدُّنيَا والثَّاني لعذابِ الآخرةِ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٤٤٠).

(٢) في نسخة التفتازاني: «أي إذا».

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٩)، و«المحتسب» (٢/ ٢٢٩)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) عزاها ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٥٥٦) إلى ابن مسعود، وأبي عمران، والجحدري، وابن يعمر.

(٥) قوله: «لوقت...» متعلِّق بـ«مستعار». انظر: «حاشية الخفاجي».

(١٨٠) ـ ﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾: عمَّا قالَهُ المُشرِكُونَ فيه على ما حُكِيَ في السُّورَةِ، وإضافَةُ الرَّبِّ إلى العِزَّةِ لاختصاصِهَا به إِذْ لا عِزَّةَ إلَّا لهُ أو لِمَن أعزَّهُ، وقد أدرجَ فيه جملةَ صِفاتِهِ السَّلبيَّةِ والثُّبوتيَّةِ مع الإشعارِ بالتَّوحيدِ.

(١٨١) ـ ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ تعميمٌ للرُّسُلِ بالتَّسليمِ بعدَ تخصيصِ بعضِهِم .

(١٨٢) ـ ﴿ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ على ما أفاضَ عليهم وعلى مَن اتَّبَعَهُم مِن النِّعَمِ وحسنِ العَاقِبَةِ، ولذلك أخَّرَهُ عن التَّسليمِ، والمرادُ: تَعليمُ المُؤمنينَ كيفَ يَحمدُونَهُ ويسلِّمونَ على رُسلِهِ.

وعَن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عنهُ: مَن أَحَبَّ أَنْ يَكتالَ بالمِكْيَالِ الأَوْفَى مِن الأجرِ يومَ القِيامَةِ فليَكُن آخرُ كلامِهِ مِن مَجلِسِه: ﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ ﴾.. إلى آخرِ السُّورَةِ[١].

وعن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قَرَأَ: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ أُعْطِيَ مِن الأجرِ عشرَ حَسناتٍ بعدَدِ كُلِّ جِنِّيٍّ وشَيطانٍ، وتباعَدَتْ عنهُ مَرَدَةُ الجِنِّ والشَّياطين، وبَرِئَ مِن الشِّركِ وشَهِدَ له حافِظَاهُ يومَ القِيامَةِ أنَّه كانَ مُؤمِنًا بالمُرسَلِينَ»[٢].

***

(١) رواه بهذا اللفظ موقوفا على علي رضي الله عنه الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٤٤٥ ـ ٤٤٦)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٣٦)، ومن طريق الثعلبيِّ البغويُّ في «تفسيره» (٧/ ٦٦). وفي إسناده الأصبغ بن نباتة رمي بالكذب، ورواياته عن علي لا يتابع عليها كما قال ابن عدي. انظر: «تهذيب الكمال» للمزي (٣/ ٣٠٨). ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٣٤) عن الشعبي.

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٢/ ٣١٦) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وقد تقدم الكلام عليه مراراً.

# (٣٧) سُورَةُ الصَّافَّاتِ مَكِّيَّة
## وَآيَاتُهَا اثْنَتَانِ وَثَمَانُونَ وَمِائَة

روى النسائي، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف ويؤمنا بالصافات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾

قال ابن مسعود رضي الله عنه ﴿والصافات صفاً﴾، ﴿فالزاجرات زجراً﴾، ﴿فالتاليات ذكراً﴾: هي الملائكة[1]؛ وقال قتادة: الملائكة صفوف في السماء، روى مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «ألا تصفّون كما تصف الملائكة عند ربهم؟» قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال ﷺ: «يتمون الصفوف المتقدمة، ويتراصّون في الصف»[2]. وقال السدي معنى قوله تعالى ﴿فالزاجرات زجراً﴾: أنها تزجر السحاب، وقال الربيع بن أنس ﴿فالزاجرات زجراً﴾: ما زجر الله تعالى عنه في القرآن، ﴿فالتاليات ذكراً﴾ قال السدي: الملائكة يجيئون بالكتاب والقرآن من عند الله إلى الناس، كقوله تعالى: ﴿فالملقيات ذكراً * عذراً أو نذراً﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿إن إلهكم لواحد رب السماوات والأرض﴾، هذا هو المقسم عليه أنه تعالى لا إله إلا هو رب السماوات والأرض ﴿وما بينهما﴾ أي من المخلوقات، ﴿ورب المشارق﴾ أي هو المالك المتصرف في الخلق، بتسخيره بما فيه من كواكب تبدو من المشرق وتغرب من المغرب، واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليه، وقد صرح بذلك في قوله عزّ وجلّ: ﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون﴾، وقال تعالى ﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾ يعني في الشتاء والصيف، للشمس والقمر.

---

(١) وهو قول ابن عباس ومسروق وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد والسدي وقتادة وغيرهم.

(٢) وفي صحيح مسلم أيضاً «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة» الحديث.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾

**يخبر تعالى** أنه زين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض بزينة الكواكب، فالكواكب السيارة والثوابت تضيء لأهل الأرض، كما قال تعالى: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين * وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾، فقوله جلّ وعلا ههنا ﴿وحفظاً﴾ تقديره: وحفظناها حفظاً ﴿من كل شيطان مارد﴾ يعني المتمرد العاتي، إذا أراد أن يسترق السمع أتاه شهاب ثاقب فأحرقه، ولهذا قال جلّ جلاله: ﴿لا يسّمعون إلى الملأ الأعلى﴾ أي لئلا يصلوا إلى ﴿الملأ الأعلى﴾ وهي السماوات ومن فيها من الملائكة، كما تقدم بيان ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿ويقذفون﴾ أي يرمون ﴿من كل جانب﴾ أي من كل جهة يقصدون السماء منها، ﴿دحوراً﴾ أي رجماً يدحرون به ويزجرون، ويمنعون من الوصول إلى ذلك ويرجمون، ﴿ولهم عذاب واصب﴾ أي في الدار الآخرة، لهم عذاب دائم موجع مستمر، كما قال جلّت عظمته: ﴿وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾، وقوله تبارك وتعالى ﴿إلا من خطف الخطفة﴾ أي إلا من اختطف من الشياطين الخطفة، وهي الكلمة يسمعها من السماء، فيلقيها إلى الذي تحته، ويلقيها الآخر إلى الذي تحته، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يأتيه الشهاب فيحرقه، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن، كما تقدم في الحديث، ولهذا قال: ﴿إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾ أي مستنير، قال ابن عباس: كان للشياطين مقاعد في السماء، فكانوا يستمعون الوحي، وكانت النجوم لا تجري، وكانت الشياطين لا ترمى، فإذا سمعوا الوحي نزلوا إلى الأرض، فزادوا في الكلمة تسعاً، فلما بعث رسول الله ﷺ، جعل الشيطان إذا قعد مقعده جاءه شهاب فلم يخطئه حتى يحرقه، فشكوا ذلك إلى إبليس لعنه الله، فقال: ما هو إلا من أمرٍ حدَث، فبعث جنوده فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي بين جبلي نخلة، قال وكيع: يعني بطن نخلة، قال: فرجعوا إلى إبليس، فأخبروه، فقال: هذا الذي حدث[1].

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝١٢ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ۝١٣ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۝١٤ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٥ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝١٧ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ۝١٨ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ۝١٩﴾

**يقول تعالى**: فسل هؤلاء المنكرين للبعث أيما أشد خلقاً هم أم السماوات والأرض، وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة؟ فإنهم يقرون أن هذه المخلوقات أشد خلقاً منهم، وإذا كان الأمر كذلك فلم

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ينكرون البعث؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا، كما قال عزّ وجلّ: ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ ثم بيَّن أنهم خلقوا من شيء ضعيف فقال: ﴿إنا خلقناهم من طين لازب﴾ قال مجاهد والضحّاك: هو الجيد الذي يلتزق بعضه ببعض، وقال ابن عباس وعكرمة: هو اللزج الجيد، وقال قتادة: هو الذي يلزق باليد، وقوله عزّ وجلّ: ﴿بل عجبت ويسخرون﴾ أي بل عجبت يا محمد من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله تعالى من الأمر العجيب، وهو إعادة الأجسام بعد فنائها، وهم بخلاف أمرك من شدة تكذيبهم يسخرون مما تقول لهم من ذلك، قال قتادة: عجب محمد ﷺ وسخر ضلّال بني آدم، ﴿وإذا رأوا آية﴾ أي دلالة واضحة على ذلك ﴿يستسخرون﴾، قال مجاهد: يستهزئون، ﴿وقالوا إن هذا إلا سحر مبين﴾ أي ما هذا الذي جئت بـه إلا سحر مبين، ﴿أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ۝ أو آباؤنا الأولون﴾؟ يستبعدون ذلك ويكذبون به ﴿قل نعم وأنتم داخرون﴾، أي قل لهم يا محمد: نعم تبعثون يوم القيامة، بعدما تصيرون تراباً وعظاماً، ﴿وأنتم داخرون﴾ أي حقيرون تحت القدرة العظيمة، كما قال تعالى: ﴿وكل أتوه داخرين﴾، وقال تعالى: ﴿سيدخلون جهنم داخرين﴾، ثم قال جلت عظمته: ﴿فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون﴾ أي فإنما هو أمر واحد من الله عزّ وجلّ، يدعوهم أن يخرجوا من الأرض، فإذا هم قيام بين يديه ينظرون إلى أهوال يوم القيامة.

وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾

**يخبر تعالى** عن قيل الكفار يوم القيامة، أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم، فإذا عاينوا أهوال القيامة، ندموا كل الندامة حيث لا ينفعهم الندم، ﴿وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين﴾، فتقول لهم الملائكة والمؤمنون: ﴿هذا يوم الفصل الذي كنتم بـه تكذبون﴾ على وجه التقريع والتوبيخ، ويأمر الله تعالى الملائكة أن تميز الكفار من المؤمنين، في الموقف في محشرهم ومنشرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾، قال النعمان بن بشير: يعني بأزواجهم أشباههم وأمثالهم[1]؛ وعن عمر بن الخطاب: ﴿وأزواجهم﴾ قال: إخوانهم، وقال النعمان: سمعت عمر يقول: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ قال: أشباههم، قال: يجيء أصحاب الزنا مع أصحاب الزنا، وأصحاب الربا مع أصحاب الربا، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر، وقال ابن عباس: ﴿أزواجهم﴾ قرناءهم، ﴿وما كانوا يعبدون من دون الله﴾ أي من الأصنام والأنداد تحشر معهم في أماكنهم، وقوله تعالى: ﴿فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾ أي أرشدوهم إلى طريق جهنم، وهذا كقوله تعالى: ﴿مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً﴾، وقوله تعالى: ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾ أي قفوهم

(١) وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد والسدي وأبو العالية وغيرهم. وروي عن ابن عباس أنه قال ﴿أزواجهم﴾ نساؤهم، وهو غريب والمعروف عنه الأول.

حتى يسألوا عن أعمالهم وأقوالهم، التي صدرت عنهم في الدار الدنيا، قال ابن عباس: يعني احبسوهم إنهم محاسبون، وقد قال رسول الله ﷺ: «أيما داع دعا إلى شيء كان موقوفاً معه إلى يوم القيامة لا يغادره ولا يفارقه، وإن دعا رجل رجلاً» ثم قرأ: ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾[1]، وقال ابن المبارك: «إن أول ما يسأل عنه الرجل جلساؤه» ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ ﴿ما لكم لا تناصرون؟﴾ أي كما زعمتم أنكم جميع منتصر؟ ﴿بل هم اليوم مستسلمون﴾ أي منقادون لأمر الله لا يخالفونه ولا يحيدون عنه، والله أعلم.

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾

**يذكر تعالى**: أن الكفار يتلاومون في عرصات القيامة، كما يتخاصمون في دركات النار، ﴿فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار﴾؟ كما قال تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين﴾ وهكذا قالوا لهم ههنا: ﴿إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين﴾، قال ابن عباس، يقولون: كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا، لأنا كنا أذلاء وكنتم أعزاء، وقال مجاهد: يعني عن الحق، تقوله الكفار للشياطين، وقال قتادة: قالت الإنس للجن: ﴿إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين﴾، قال: من قبل الخير فتنهونا عنه وتبطئونا عنه، وقال السدي: تأتوننا من قبل الحق وتزينوا لنا الباطل، وتصدونا عن الحق، قال الحسن: أي والله يأتيه عند كل خير يريده فيصده عنه، وقال ابن زيد: معناه تحولون بيننا وبين الخير، ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذي أمرنا به.

**وقوله تعالى**: ﴿قالوا بل لم تكونوا مؤمنين﴾ تقول القادة من الجن والإنس للأتباع: ما الأمر كما تزعمون، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان، قابلة للكفر والعصيان، ﴿وما كان لنا عليكم من سلطان﴾ أي من حجة على صحة ما دعوناكم إليه، ﴿بل كنتم قوماً طاغين﴾ أي بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق، فلهذا استجبتم لنا وتركتم الحق الذي جاءتكم به الأنبياء، ﴿فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون * فأغويناكم إنا كنا غاوين﴾، يقول الكبراء للمستضعفين: حقت علينا كلمة الله إنا من الأشقياء الذائقين للعذاب يوم القيامة، ﴿فأغويناكم﴾ أي دعوناكم إلى الضلالة ﴿إنا كنا غاوين﴾، أي فدعوناكم إلى ما نحن فيه فاستجبتم لنا، قال تعالى: ﴿فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون﴾ أي الجميع في النار كل بحسبه، ﴿إنا كذلك نفعل بالمجرمين * إنهم كانوا﴾ أي في الدار الدنيا ﴿إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون﴾ أي يستكبرون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون.

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير والترمذي عن أنس بن مالك مرفوعاً.

وفي الحديث: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عزّ وجلّ»[١]. وروى ابن أبي حاتم عن أبي العلاء قال: يؤتى باليهود يوم القيامة فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: نعبد الله وعزيراً، فيقال لهم: خذوا ذات الشمال؛ ثم يؤتى بالنصارى فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: نعبد الله والمسيح، فيقال لهم: خذوا ذات الشمال؛ ثم يؤتى بالمشركين فيقال لهم: لا إله إلا الله، فيستكبرون، ثم يقال لهم لا إله إلا الله، فيستكبرون، ثم يقال لهم: لا إله إلا الله، فيستكبرون، فيقال لهم: خذوا ذات الشمال، قال أبو نضرة: فينطلقون أسرع من الطير، قال أبو العلاء: ثم يؤتى بالمسلمين فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد الله تعالى، فيقال لهم: هل تعرفونه إذا رأيتموه؟ فيقولون: نعم، فيقال لهم: فكيف تعرفونه ولم تروه؟ فيقولون: نعلم أنه لا عدل له، قال: فيتعرف لهم تبارك وتعالى وتقدس وينجي الله المؤمنين[٢]. ﴿ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون﴾ أي أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون؟ يعنون رسول الله ﷺ، قال الله تعالى تكذيباً لهم ورداً عليهم: ﴿بل جاء بالحق﴾ يعني رسول الله ﷺ جاء بالحق، ﴿وصدّق المرسلين﴾ أي صدّقهم فيما أخبروا عنه من الصفات الحميدة، والمناهج السديدة، وأخبر عن الله تعالى في شرعه وأمره، كما أخبروا ﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾ الآية.

إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾

**يقول تعالى مخاطباً للناس:** ﴿إنكم لذائقوا العذاب الأليم * وما تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾، ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين، كما قال تعالى: ﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً * ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾، وقال تعالى: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين﴾، ولهذا قال جلّ وعلا ههنا ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ أي ليسوا يذوقون العذاب الأليم، ولا يناقشون في الحساب، بل يتجاوز عن سيئاتهم إن كان لهم سيئات، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وقوله جل وعلا ﴿أولئك لهم رزق معلوم﴾ قال السدي: يعني الجنة، ثم فسره بقوله تعالى: ﴿فواكه﴾ أي متنوعة ﴿وهم مكرمون﴾ أي يخدمون ويرفهون وينعّمون ﴿في جنات النعيم * على سرر متقابلين﴾، قال مجاهد: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض، وقوله تعالى: ﴿يطاف عليهم بكأس من معين * بيضاء لذة للشاربين * لا فيها غول ولا هم عنها

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة مرفوعاً.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي العلاء موقوفاً.

يتزفون﴾، كما قال تعالى: ﴿لا يصدّعون عنها ولا ينزفون﴾ نزّه الله سبحانه وتعالى خمر الجنة عن الآفات التي في خمر الدنيا، من صداع الرأس، ووجع البطن، وهو (الغول) وذهابها بالعقل جملة، فقال تعالى ﴿يطاف عليهم بكأس من معين﴾ أي بخمر من أنهار جارية، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها، قال زيد بن أسلم: خمر جارية بيضاء، أي لونها مشرق حسن بهي، لا كخمر الدنيا في منظرها البشع الرديء، من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدورة، إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم، وقوله عزّ وجلّ: ﴿لذة للشاربين﴾ أي طعمها طيب كلونها، وطيب الطعم دليل على طيب الريح، بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك، وقوله تعالى: ﴿لا فيها غول﴾ يعني وجع البطن[1]، كما تفعله خمر الدنيا، وقيل: المراد بالغول ههنا صداع الرأس، وروي عن ابن عباس، وقال قتادة: هو صداع الرأس ووجع البطن؛ وقال السدي: لا تغتال عقولهم، كما قال الشاعر:

فما زالت الكأس تغتالنا وتذهب بالأول الأول

وقال سعيد بن جبير: لا مكروه فيها ولا أذى، والصحيح قول مجاهد: أنه وجع البطن، وقوله تعالى ﴿ولا هم عنها ينزفون﴾ قال مجاهد: لا تذهب عقولهم[2]، وقال ابن عباس: في الخمر أربع خصال: (السكر، والصداع، والقيء، والبول)، فذكر الله تعالى خمر الجنة، فنزّهها عن هذه الخصال، وقوله تعالى: ﴿وعندهم قاصرات الطرف﴾ أي عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن، كذا قال ابن عباس ومجاهد، وقوله تبارك وتعالى: ﴿عين﴾ أي حسان الأعين، وقيل: ضخام الأعين، وهي النجلاء العيناء، فوصف عيونهن بالحسن والعفة، كقول زليخا في يوسف عليه السلام ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ أي هو مع هذا الجمال عفيف تقي نقي، وهكذا الحور العين ﴿خيرات حسان﴾، ولهذا قال عزّ وجل: ﴿وعندهم قاصرات الطرف عين﴾. وقوله جل جلاله: ﴿كأنهن بيض مكنون﴾ وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان، قال ابن عباس ﴿كأنهن بيض مكنون﴾ يقول: اللؤلؤ المكنون، وأنشد قول الشاعر

وهي زهراء مثل لؤلؤة الغوا ص ميزت من جوهر مكنون

وقال الحسن: ﴿كأنهن بيض مكنون﴾ يعني مصون لم تمسه الأيدي، وقال سعيد بن جبير: ﴿كأنهن بيض مكنون﴾ يعني بطن البيض، وقال السدي ﴿كأنهن بيض مكنون﴾ يقول: بياض البيض حين ينزع قشره، واختاره ابن جرير لقوله ﴿مكنون﴾ قال: والقشرة العليا يمسها جناح الطير والعش، وتنالها الأيدي بخلاف داخلها، وفي الحديث عن أنَس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا حزنوا، وأنا شفيعهم إذا حبسوا، لواء الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على الله عزّ وجلّ ولا فخر، يطوف علي ألف خادم كأنهن البيض المكنون - أو اللؤلؤ المكنون -»[3].

(١) قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد.

(٢) وكذا قال ابن عباس والحسن وعطاء والسدي.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم وروى بعضه الترمذي.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ۝٥٧ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ۝٦١﴾

**يخبر تعالى** عن أهل الجنة أنه ﴿أقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ أي عن أحوالهم وكيف كانوا في الدنيا، وماذا كانوا يعانون فيها، وذلك من حديثهم على شرابهم، واجتماعهم في تنادمهم، ومعاشرتهم في مجالسهم، وهم جلوس على السرر، والخدم بين أيديهم، يسعون ويجيئون بكل خير عظيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿قال قائل منهم إني كان لي قرين﴾ قال مجاهد: يعني شيطاناً، وقال ابن عباس: هو الرجل المشرك يكون له صاحب من أهل الإيمان في الدنيا[1]، ولا تنافي بين كلام مجاهد وابن عباس رضي الله عنهما، فإن الشيطان يكون من الجن فيوسوس في النفس، ويكون من الإنس فيقول كلاماً تسمعه الأذنان، وكلاهما يتعاونان، قال الله تعالى: ﴿يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾ وكل منهما يوسوس، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿من شر الوسواس الخناس * الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس﴾، ولهذا: ﴿قال قائل منهم إني كان لي قرين * يقول أئنك لمن المصدّقين﴾ أي أأنت تصدّق بالبعث والنشور، والحساب والجزاء؟ يعني يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد، والكفر والعناد ﴿أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون﴾؟ قال مجاهد والسدي: لمحاسبون، وقال ابن عباس: لمجزيون بأعمالنا، قال تعالى: ﴿قال هل أنتم مطلعون﴾ أي مشرفون، يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة ﴿فاطلع فرآه في سواء الجحيم﴾ قال ابن عباس والسدي: يعني في وسط الجحيم، وقال الحسن البصري: في وسط الجحيم كأنه شهاب يتقدم، وقال قتادة: ذكر أنه اطلع فرأى جماجم القوم تغلي، وقال كعب الأحبار: في الجنة كوى، إذا أراد أحد من أهلها أن ينظر إلى عدوه في النار، اطّلع فيها فازداد شكراً لله، ﴿قال تالله إن كدت لتردين﴾ يقول المؤمن مخاطباً للكافر: والله إن كدت لتهلكني لو أطعتك، ﴿ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين﴾ أي ولولا فضل الله عليّ لكنت مثلك في سواء الجحيم، محضر معك في العذاب، ولكنه رحمني فهداني للإيمان، وأرشدني إلى توحيده ﴿وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾. وقوله تعالى: ﴿أفما نحن بميتين * إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين﴾؟ هذا من كلام المؤمن، مغتبطاً نفسه بما أعطاه الله تعالى، من الخلد في الجنة والإقامة في دار الكرامة، بلا موت فيها ولا عذاب، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿إن هذا لهو الفوز العظيم﴾. قال الحسن البصري: علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه، فقالوا: ﴿أفما نحن بميتين * إلا موتتنا الأولى وما نحن

(١) القائل: هو أحد الرجلين اللذين قال الله فيهما: ﴿واضرب لهم مثلاً رجلين﴾ والقرين: الرجل الذي دخل جنته وهو ظالم لنفسه، وقد وردت قصتهما في سورة الكهف.

بمعذبين﴾ ؟ قيل: لا، ﴿قالوا إن هذا لهو الفوز العظيم﴾. وقوله جل جلاله: ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ قال قتادة هذا من كلام أهل الجنة، وقال ابن جرير: هو من كلام الله تعالى، ومعناه: لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون في الدنيا ليصيروا إليه في الآخرة.

**قال السدي:** كان شريكان في بني إسرائيل، أحدهما مؤمن والآخر كافر، فافترقا على ستة آلاف دينار، لكل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار، ثم افترقا فمكثا ما شاء الله تعالى أن يمكثا، ثم التقيا، فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت في مالك ؟ أضربت بـه شيئاً، اتجرت به في شيء ؟ قال له المؤمن: لا، فما صنعت أنت ؟ فقال اشتريت به أرضاً ونخلاً وثماراً وأنهاراً بألف دينار – قال – فقال له المؤمن: أو فعلت ؟ قال: نعم، قال: فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله تعالى أن يصلي، فلما انصرف أخـذ ألف دينار فوضعها بين يديه، ثم قال: اللهم إن فلاناً – يعني شريكه الكافر – اشترى أرضاً ونخلاً وثماراً وأنهاراً بألف دينار ثم يموت غداً ويتركها. اللهم إني اشتريت منك بهذه الألف دينار أرضاً ونخلاً وثماراً وأنهاراً في الجنة، قال: ثم أصبح فقسمها في المساكين، قال: ثم مكثا ما شاء الله تعالى أن يمكثا، ثم التقيا، فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت في مالك أضربت به في شيء ؟ أتجرت به في شيء ؟ قال: لا، قال: فما صنعت أنت ؟ قال: كانت ضيعتي قـد اشتد عليَّ مؤنتها، فاشتريت رقيقاً بألف دينار، يقومون لي فيها ويعملون لي فيها، فقال له المؤمن: أوفعلت ؟ قال: نعم، قال: فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله تعالى أن يصلي، فلما انصرف أخـذ ألف دينار فوضعها بين يديه ثم قال: اللهم إن فلاناً – يعني شريكه الكافر – اشترى رقيقاً من رقيق الدنيا بألف دينار يموت غداً فيتركهم أو يموتون فيتركونه، اللهم إني اشتريت منك بهذه الألف دينار رقيقاً في الجنة، قال: ثم أصبح، فقسمها في المساكين قال: ثم مكثا ما شاء الله تعالى أن يمكثا، ثم التقيا، فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت في مالك أضربت بـه في شيء، أتجرت بـه في شيء ؟ قال: لا، فما صنعت أنت ؟ قال: كان أمري كله قـد تم إلا شيئاً واحداً، فلانة قـد مات عنها زوجها فأصدقتها ألف دينار، فجاءتني بهـا ومثلها معها، فقال له المؤمن: أو فعلت ؟ قال: نعم، قال، فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله تعالى أن يصلي، فلمـا انصرف أخذ الألف دينار البـاقية فوضعها بـين يديه، وقال: اللهم إن فلاناً – يعني شريكه الكافر – تزوج زوجة من أزواج الدنيا بألف دينار، فيموت غداً فيتركها أو تموت غداً فتتركه، اللهم وإني أخطب إليك بهذه الألف دينار حوراء عيناء في الجنة – قال – ثم أصبح فقسمهـا بـين المساكين – قال – فبقي المؤمن ليس عنده شيء، فخرج شريكه الكافر وهو راكب، فلما رآه عرفه، فوقف عليه وسلم عليه وصافحه، ثم قـال له: ألم تأخذ من المال مثل مـا أخذت ؟ قال: بلى، قال: وهذه حـالي وهذه حالك ؟ قال: أخبرني ما صنعت في مالك ؟ قال: أقرضته، قال: من ؟ قال: المليء الوفي، قال: من ؟ قال: الله ربي، قال، فانتزع يده من يده، ثم قـال: ﴿أئنك لمن المصدقين * أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون﴾ ؟ قال السدي: محاسبون، قال: فانطلق الكافر وتركه، فلمـا رآه المؤمن وليس يلوي عليه رجع وتركه وجعل يعيش المؤمن في شدة من الزمان، ويعيش الكافر في رخـاء من الزمان، قال: فإذا كان يوم القيـامة وأدخل الله تعالى المؤمن الجنة، يمر فإذا هو بأرض ونخل وثمـار وأنهـار فيقول: لمن هـذا ؟ فيقال: هذا لك، فيقول: يا سبحان الله، أو بلغ من فضل عملي أن أثاب بمثل هذا ؟ قال، ثم يمر، فإذا هو برقيق لا تحصى عدتهم، فيقول: لمن

هذا ؟ فيقال : هؤلاء لك، فيقول : يا سبحان الله أو بلغ من فضل عملي أن أثاب بمثل هذا ؟ قال: ثم يمر ، فإذا هو بقبة من ياقوتة حمراء مجوفة فيها حوراء عيناء، فيقول: لمن هـذه ؟ فيقال: هذه لك، فيقول: يا سبحان الله أو بلغ من فضل عملي أن أثاب بمثل هذا ؟ قال: ثم يذكر المؤمن شريكه الكافر ، فيقول: ﴿ إني كان لي قرين ۞ يقول أئنك لمن المصدقين ۞ أئذا متنا وكنا تراباً وعظامـاً أئنا لمدينون﴾، قال، فالجنة عالية، والنار هاوية، قال: فيريه الله تعالى شريكه في وسط الجحيم من بـين أهل النـار ، فإذا رآه المؤمن عرفـه ، فيقول : ﴿ تالله إن كدت لتردين ۞ ولولا نعمـة ربي لكنت من المحضرين ۞ أفـا نحن بميتين إلا موتتنـا الأولى ومـا نحن بمعـذبين ۞ إن هـذا لهو الفوز العظيم ۞ لمثل هـذا فليعمل العاملون﴾ بمثل ما قد مُنَّ عليه ، قال: فيتذكر المؤمن ما مر عليه في الدنيا من شدة، فلا يذكر مما مر عليه في الدنيا من الشدة أشد عليه من الموت[1] .

أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾

**يقول الله تعالى** : أهذا الذي ذكر من نعيم الجنة، وما فيها من مآكل ومشارب ومناكح، وغير ذلك من الملاذ خير ضيافةً وعطاءً ﴿ أم شجرة الزقوم﴾ أي التي في جهنم ؟ وقوله عزّ وجلّ: ﴿ إنا جعلناها فتنة للظالمين﴾، قال قتادة : ذكرت شجرة الزقوم، فافتتن بها أهل الضلالة، وقالوا: صاحبكم ينبئكم أن في النار شجرة والنار تأكل الشجر ، فأنزل الله تعالى: ﴿ إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم﴾ غذيت من النار ومنها خلقت، وقال مجاهـد : ﴿ إنا جعلناها فتنة للظالمين﴾. قال أبو جهل لعنه الله : إنمـا الزقوم التمر والزبد أتزقمه ؟ **قلت**: ومعنى الآية: إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم، اختباراً نختبر بـه الناس، من يصدق منهم ممن يكذب ، كقوله تبارك وتعالى: ﴿ وما جعلنـا الرؤيا التي أرينـاك إلا فتنة للنـاس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوّفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾ وقوله تعالى: ﴿ إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم﴾ أي أصل منبتها في قرار النار : ﴿ طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾ تبشيع لهـا وتكريه لذكرها، وإنمـا شبّهها برؤوس الشياطين، وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين، لأنه قـد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر ، وقوله تعالى: ﴿ فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون﴾، ذكر تعالى أنهم يأكلون من هـذه الشجرة، التي لا أبشع منها ولا أقبح من منظرها، مع ما هي عليه من سوء الطعم والريح والطبع ، فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها، لأنهم لا يجدون إلا إياها وما هو في معناها، كما قال تعالى: ﴿ ليس لهم طعـام إلا من ضريع ۞ لا يسمن ولا يغني من جوع﴾، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ تلا هـذه الآية وقال: « اتقوا الله حق تقاته، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه ؟ »[2]

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم .

(٢) أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجة ،وقال الترمذي : حسن صحيح.

**وقوله تعالى** : ﴿ ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم ﴾، قال ابن عباس: يعني شرب الحميم على الزقوم، وعنه: ﴿ شوباً من حميم ﴾ مزجاً من حميم، وقال غيره: يعني يمزج لهم الحميم بصديد وغساق، مما يسيل من فروجهم وعيونهم، عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول: « يقرب - يعني إلى أهل النار - ماء فيتكرهه، فإذا أدني منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه فيه، فإذا شربه قطّع أمعاءه، حتى تخرج من دبره »[1]، وروى ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير قال: « إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم، فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم، فلو أن ماراً مر بهم يعرفهم لعرفهم بوجوههم فيها، ثم يصب عليهم العطش، فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل، وهو الذي قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم، التي سقطت عنها الجلود ويصهر ما في بطونهم، فيمشون تسيل أمعاؤهم، وتتساقط جلودهم ثم يضربون بمقامع من حديد، فيسقط كل عضو على حياله يدعون بالثبور »[2]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم ﴾ أي ثم إن مردهم بعد هذا الفصل لإلى نار تتأجج، وجحيم تتوقد، وسعير تتوهج، كما قال تعالى: ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ هكذا تلا قتادة هذه الآية عند هذه الآية، وهو تفسير حسن قوي، وكان عبدالله[3] رضي الله عنه يقول : والذي نفسي بيده لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار . ثم قرأ : ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾. وقوله تعالى: ﴿ إنهم ألفوا آباءهم ضالين ﴾ أي إنما جازيناهم بذلك لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة، فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك من غير دليل ولا برهان؛ ولهذا قال: ﴿ فهم على آثارهم يهرعون ﴾ قال مجاهد : شبَّهة بالهرولة، وقال سعيد بن جبير : يسفهون .

**وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾**

**يخبر تعالى** عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهة أُخرى . وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين ينذرونهم بأس الله، ويحذرونهم سطوته ونقمته، وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم، فأهلك الله المكذبين ودمرهم، ونجى المؤمنين ونصرهم وظفرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المنذرين إلا عباد الله المخلصين ﴾ .

**وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾**

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم .

(٢) هذا حديث موقوف أخرجه ابن أبي حاتم .

(٣) المراد به ابن مسعود رضي الله عنه وهي رواية السدي عنه .

لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة شرع يبين ذلك مفصلاً، فذكر نوحاً عليه الصلاة والسلام وما لقي من قومه من التكذيب، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة، لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نُفْرة ﴿فدعا ربه أني مغلوب فانتصر﴾، فغضب الله تعالى لغضبه عليهم، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون﴾ له، ﴿ونجيناه وأهله من الكرب العظيم﴾ وهو التكذيب والأذى، ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ قال ابن عباس: لم تبق إلا ذرية نوح عليه السلام، وقال قتادة: الناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام، وقد روى الترمذي عن سمرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ قال: سام وحام ويافث، وروى الإمام أحمد، عن سمرة رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم»[(١)]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ قال ابن عباس: يذكر بخير، وقال مجاهد: يعني لسان صدق للأنبياء كلهم، وقال قتادة والسدي: أبقى الله عليه الثناء الحسن في الآخرين، قال الضحّاك: السلام والثناء الحسن، وقوله تعالى: ﴿سلام على نوح في العالمين﴾ مفسر لما أبقى عليه من الذكر الجميل والثناء الحسن، أنه يسلم عليه في جميع الطوائف والأمم، ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ أي هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله تعالى، نجعل له لسان صدق يذكر به بعده، ثم قال تعالى: ﴿إنه من عبادنا المؤمنين﴾ أي المصدقين الموحدين الموقنين، ﴿ثم أغرقنا الآخرين﴾ أي أهلكناهم فلم تبق منهم عين تطرف، ولا ذكر ولا عين ولا أثر، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة.

* وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾

قال ابن عباس: ﴿وإن من شيعته لإبراهيم﴾ يقول: من أهل دينه، وقال مجاهد: على منهاجه وسنته ﴿إذ جاء ربه بقلب سليم﴾، قال ابن عباس: يعني شهادة أن لا إله إلا الله، روى ابن أبي حاتم، عن عوف قال: قلت لمحمد بن سيرين «ما القلب السليم؟ قال: يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور»[(٢)]، وقال الحسن: سليم من الشرك، ثمَّ قال تعالى: ﴿إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون﴾؟ أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿أئفكاً آلهة دون الله تريدون * فما ظنكم برب العالمين﴾؟ قال قتادة: يعني ما ظنكم أنه فاعل بكم إذا لاقيتموه وقد عبدتم معه غيره؟

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ

(١) أخرجه الإمام أحمد ورواه الترمذي في السنن.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم من كلام ابن سيرين.

مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾

إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك، ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم، فإنه كان قد أزف خروجهم إلى عيدهم، فأحب أن يختلي بآلهتهم ليكسرها، فقال لهم كلاماً هو حق في نفس الأمر، ففهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه، ﴿فتولوا عنه مدبرين﴾. قال قتادة: والعرب تقول لمن تفكر: نظر في النجوم، يعني قتادة أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما يلهيهم به، فقال: ﴿إني سقيم﴾ أي ضعيف، فأما قوله عليه السلام: «لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام غير ثلاث كذبات: ثنتين في ذات الله تعالى، قوله: [﴿إني سقيم﴾، وقوله: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾، وقوله في سارة: (هي أختي)] فهو حديث مخرج في الصحاح والسنن، ولكن ليس من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله حاشا وكلا؛ وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعي ديني كما جاء في الحديث: «إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب». قال ابن المسيب: رأى نجماً طلع فقال: ﴿إني سقيم﴾ كابد نبي الله عن دينه ﴿فقال إني سقيم﴾، وقيل: أراد ﴿إني سقيم﴾ أي مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله تعالى، وقال الحسن البصري: خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم فأرادوه على الخروج، فاضطجع على ظهره وقال: ﴿إني سقيم﴾ وجعل ينظر في السماء، فلما خرجوا أقبل إلى آلهتهم فكسرها[1]، ولهذا قال تعالى: ﴿فتولوا عنه مدبرين﴾، وقوله تعالى: ﴿فراغ إلى آلهتهم﴾ أي ذهب إليها بعد ما خرجوا في سرعة واختفاء، ﴿فقال ألا تأكلون﴾؟ وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاماً قرباناً لتبرّك لهم فيه، قال السدي: دخل إبراهيم عليه السلام إلى بيت الآلهة، فإذا هم في بهو عظيم، وإذا مستقبل باب البهو صنم عظيم، إلى جنبه أصغر منه، بعضها إلى جنب بعض، كل صنم يليه أصغر منه حتى بلغوا باب البهو، وإذا هم قد جعلوا طعاماً ووضعوه بين أيدي الآلهة، وقالوا: إذا كان حين نرجع وقد برّكت الآلهة في طعامنا أكلناه، فلما نظر إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى ما بين أيديهم من الطعام قال: ﴿ألا تأكلون * ما لكم لا تنطقون﴾، وقوله تعالى: ﴿فراغ عليهم ضرباً باليمين﴾ قال الفراء: معناه مال عليهم ضرباً باليمين، وقال قتادة والجوهري: فأقبل عليهم ضرباً باليمين، وإنما ضربهم باليمين لأنها أشد وأنكى، ولهذا تركهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون، كما تقدم في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تفسير ذلك. وقوله تعالى ههنا: ﴿فأقبلوا إليه يزفّون﴾ قال مجاهد: أي يسرعون، فلما جاءوا ليعاتبوه أخذ في تأنيبهم وعيبهم فقال: ﴿أتعبدون ما تنحتون﴾؟ أي أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم؟ ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ يحتمل أن تكون (ما) مصدرية، فيكون الكلام: خلقكم وعملكم، ويحتمل أن تكون بمعنى (الذي) تقديره والله خلقكم والذي تعملونه، وكلا القولين متلازم، والأول أظهر، لما رواه البخاري عن حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً قال: «إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعته» فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر فقالوا ﴿ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم﴾، وكان من أمرهم ما تقدم بيانه

(١) رواه ابن أبي حاتم عن الحسن البصري.

في سورة الأنبياء، ونجّاه الله من النار، وأظهره عليهم، وأعلى حجته ونصرها، ولهذا قال تعالى: ﴿ وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين ﴾ .

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا
بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي
إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا
كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ
فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ
بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

**يقول تعالى** مخبراً عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أنه بعدما نصره الله تعالى على قومه، وأيس من إيمانهم بعد ما شاهدوا من الآيات العظيمة، هاجر من بين أظهرهم وقال: ﴿ إني ذاهب إلى ربي سيهدين * رب هب لي من الصالحين ﴾ يعني أولاداً مطيعين يكونون عوضاً من قومه وعشيرته الذين فارقهم، قال الله تعالى: ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ هذا الغلام هو ( إسماعيل ) عليه السلام، فإنه أول ولد بشر بـه إبراهيم عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نص كتابهم أن إسماعيل عليه السلام ولد ولإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام تسع وتسعون سنة، وعندهم أن الله تبارك وتعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده، وفي نسخة أخرى: بكره، فأقحموا ههنا كذباً وبهتاناً ( إسحاق ) ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا إسحاق لأنه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم، وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو ( إسحاق ) وحكي ذلك عن طائفة من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة رضي الله عنهم أيضاً، وليس ذلك في كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تلقي إلا عن أحبار أهل الكتاب وأخذ ذلك مُسَلَّماً من غير حجة، وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بغلام حليم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك: ﴿ وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين ﴾، ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا ﴿ إنا نبشرك بغلام عليم ﴾، وقال تعالى: ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ أي يولد في حياتهما ولد يسمى يعقوب فيكون من ذريته عقب ونسل، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيراً ؟ وإسماعيل وصف ههنا بالحليم لأنه مناسب لهذا المقام، وقوله تعالى: ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ أي كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه، قال ابن عباس ومجاهد: ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ بمعنى شب وارتحل، وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل ﴿ قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾ قال عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وحي، ثم تلا هذه الآية: ﴿ قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾ ؟ ، وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه في صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه ﴿ قال يا أبت افعل ما تؤمر ﴾ أي امض

لما أمرك الله من ذبحي، ﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ أي سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عزّ وجلّ، وصدق صلوات الله وسلامه عليه فيما وعد، ولهذا قال الله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً﴾، قال تعالى: ﴿فلما أسلما وتله للجبين﴾ أي فلمـا تشهدا وذكرا الله تعالى (إبراهيم) على الذبح و (الولد) شهادة الموت، وقيل: ﴿أسلما﴾ يعني استسلما وانقادا، إبراهيم امتثل أمر الله تعالى وإسماعيل طاعة لله ولأبيه[1]، ومعنى ﴿تلّه للجبين﴾: أي صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه، ولا يشاهد وجهه عند ذبحـه ليكون أهون عليه، قال ابن عباس: ﴿وتله للجبين﴾ أكبه على وجهه[2].

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لمـا أمر إبراهيم عليه السلام بالمناسك عرض له الشيطان عند السعي فسابقه، فسبقه إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ثم ذهب بـه جبريل عليه السلام إلى جمرة العقبة، فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات، حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى، فرماه بسبع حصيات، وثم تلّه للجبين، وعلى إسماعيل عليه الصلاة والسلام قميص أبيض: فقال له: يا أبت إنه ليس لي ثوب تكفنني فيه غيره، فاخلعه حتى تكفنني فيه، فعالجه ليخلعه، فنودي من خلفه: ﴿أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا﴾ فالتفت إبراهيم، فإذا بكبش أبيض أقرن أعين »[3].

**وقوله تعالى**: ﴿وناديناه أن يا إبراهيم قـد صدقت الرؤيا﴾ أي قـد حصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح، وذكر السدي وغـيره أنـه أمرَّ السكين على رقبته فلم تقطع شيئاً، بل حـال بينها وبينه صفحـة من نحاس، ونودي إبراهيم عليه الصلاة والسلام عنـد ذلك ﴿قـد صدقت الرؤيا﴾، وقوله تعالى: ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ أي هكذا نصرف عمن أطاعنـا المكاره والشدائد، ونجعـل لهم من أمرهم فرجـاً ومخرجاً كقوله تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجـاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾، قال تعالى: ﴿إن هـذا لهو البـلاء المبين﴾ أي الاختبار الواضح الجلي حيث أمر بذبح ولده فسارع إلى ذلك، مستسلماً لأمر الله تعالى منقاداً لطاعته ولهذا قال تعالى: ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾، وقوله تعالى: ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ عن علي رضي الله عنه قال: بكبش أبيض أعين أقرن قـد ربط بسمرة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كبش قـد رعى في الجنة أربعين خريفاً، وروي عن سعيد بن جبير أنه قال: كان الكبش يرتع في الجنة، حتى شقق عنه ثبير، وكان عليه عهن أحمر[4]، قال مجاهد: ذبحه بمنى عند النحر، وقال الثوري، عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ قال: وعل، وقال الحسن: ما فدي إسماعيل عليه السلام إلا بتيس من الأروى، أهبط عليه من ثبير.

## (ذكر الآثار الواردة بأنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو الصحيح المقطوع به)

تقدمت الرواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه إسحاق عليه الصلاة والسلام، وروى مجاهد وعطاء وغير

---

(١) قاله مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي وهو الأظهر.

(٢) وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير والضحّاك وقتادة. (٣) هذا جزء من حديث رواه الإمام أحمد عن ابن عباس موقوفاً.

(٤) ذكر أن الكبش هو الذي قربه ابن آدم وكان في الجنة حتى فدي به إسماعيل وهو منقول عن بعض السلف.

واحد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه (إسماعيل) عليه الصلاة والسلام، وروى ابن جرير عن عطاء ابن أبي رباح، عن ابن عباس أنه قال: المفدى إسماعيل عليه السلام، وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود، وروى مجاهد، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: الذبيح إسماعيل، وقال مجاهد: هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وقد رأيت قرني الكبش في الكعبة، وقال محمد بن إسحاق، عن الحسن البصري: أنه كان لا يشك في ذلك أن الذي أمر بذبحه من ابني إبراهيم (إسماعيل) عليه السلام، قال ابن إسحاق: وسمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول: إن الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنيه (إسماعيل) وإنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى، وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابنيْ إبراهيم قال تعالى: ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾، ويقول الله تعالى: ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ يقول: بابن، وابن ابن، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الموعد بما وعده، وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل، قال ابن إسحاق: سمعته يقول ذلك كثيراً. وقال ابن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظي: أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه وهو خليفة إذ كان معه بالشام، فقال له عمر: إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه، وإني لأراه كما قلت، ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهودياً، فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم، فسأله عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه عن ذلك، قال محمد بن كعب: وأنا عند عمر بن عبد العزيز فقال له عمر: أيُّ ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين، وإن يهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه، والفضل الذي ذكر الله تعالى منه لصبره لما أمر به فهم يجحدون ذلك، ويزعمون أنه إسحاق، لأن إسحاق أبوهم، والله أعلم أيهما كان، وكل قد كان طاهراً طيباً مطيعاً لله عزَّ وجلَّ[1]، وقال عبدالله بن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: سألت أبي عن الذبيح، هل هو إسماعيل أو إسحاق؟ فقال: إسماعيل[2].

وقال ابن أبي حاتم، وسمعت أبي يقول: الصحيح أن الذبيح إسماعيل عليه الصلاة والسلام، قال: وروي عن علي، وابن عمر، وأبي هريرة، وأبي الطفيل، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، والشعبي، ومحمد بن كعب القرظي، وأبي جعفر محمد بن علي، وابي صالح رضي الله عنهم أنهم قالوا: الذبيح إسماعيل، وإنما عول ابن جرير في اختياره أن الذبيح إسحاق على قوله تعالى: ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ فجعل هذه البشارة هي البشارة بإسحاق في قوله تعالى: ﴿وبشروه بغلام عليم﴾، وليس ما ذهب إليه بمذهب ولا لازم، بل هو بعيد جداً، والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه (إسماعيل) أثبت وأصح وأقوى، والله أعلم.

**وقوله تعالى:** ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ لما تقدمت البشارة بالذبيح وهو إسماعيل عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق وقد ذكرت في سورتي هود والحجر، وقوله تعالى: ﴿نبياً﴾ أي سيصير منه نبي صالح، قال

---

(١) ذهب ابن جرير الطبري إلى أن الذبيح هو (إسحاق) وهو قول لبعض علماء السلف وإحدى الروايات عن ابن عباس رضي الله عنهما ورواية عن كعب الأحبار، والصحيح كما قال ابن كثير أن الذبيح هو (إسماعيل) للآثار الكثيرة الواردة وظاهر القرآن الكريم كما في رواية ابن إسحاق، والله أعلم.

(٢) ذكره ابن حنبل في كتاب الزهد.

ابن عباس: بشر بنبوته، حين ولد، وحين نبئ، وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ قال: بعد ما كان من أمره لما جاد لله تعالى بنفسه، وقوله تعالى: ﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ كقوله تعالى: ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾.

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على ( موسى ) و ( هارون ) من النبوة، والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمد في حقهم من الإساءة العظيمة، من قتل الأبناء واستحياء النساء، واستعمالهم في أخس الأشياء، ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم وأقر أعينهم منهم، فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم، وما كانوا جمعوه طول حياتهم، ثم أنزل الله عزّ وجلّ على موسى الكتاب العظيم، الواضح الجلي المستبين وهو ( التوراة ) كما قال تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء﴾. وقال عزّ وجلّ ههنا: ﴿وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم﴾ أي في الأقوال والأفعال، ﴿وتركنا عليهما في الآخرين﴾ أي أبقينا لهما من بعدهما ذكراً جميلاً، وثناء حسناً، ثم فسره بقوله تعالى: ﴿سلام على موسى وهارون * إنا كذلك نجزي المحسنين * إنهما من عبادنا المؤمنين﴾.

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

قال قتادة: يقال إلياس هو إدريس، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إلياس هو إدريس، وكذا قال الضحّاك، وقال وهب بن منبه: هو إلياس بن نسي بن فنحاص، بعثه الله تعالى في بني إسرائيل بعد ( حزقيل ) عليهما السلام، وكانوا قد عبدوا صنماً يقال له بعل، فدعاهم إلى الله تعالى، ونهاهم عن عبادة ما سواه، وكان قد آمن به ملكهم، ثم ارتد، واستمروا على ضلالتهم، ولم يؤمن به منهم أحد، فدعا الله عليهم فحبس عنهم القطر ثلاث سنين، ثم سألوه أن يكشف ذلك عنهم ووعدوه بالإيمان به إن هم أصابهم المطر، فدعا الله تعالى لهم، فجاءهم الغيث، فاستمروا على أخبث ما كانوا عليه من الكفر، فسأل الله أن يقبضه إليه، وكان قد نشأ على يديه ( اليسع بن أخطوب ) عليهما السلام.

﴿إذ قال لقومه ألا تتقون﴾ أي ألا تخافون الله عزّ وجلّ في عبادتكم غيره، ﴿أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين﴾؟ قال ابن عباس ومجاهد: ﴿بعلاً﴾ يعني رباً، قال عكرمة وقتادة: وهي لغة أهل اليمن، وقال ابن إسحاق: أخبرني بعض أهل العلم أنهم كانوا يعبدون امرأة اسمها بعل، وقال عبد الرحمن بن زيد: هو اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها بعلبك غربي دمشق، وقال الضحّاك: هو صنم كانوا يعبدونه، وقوله تعالى: ﴿أتدعون بعلاً﴾؟ أي أتعبدون صنماً، ﴿وتذرون أحسن الخالقين * الله ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ أي هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، قال الله تعالى: ﴿فكذبوه فإنهم لمحضرون﴾ أي للعذاب يوم الحساب، ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ أي الموحدين منهم، وهذا استثناء منقطع، وقوله تعالى: ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ أي ثناء جميلاً ﴿سلام على إلياسين﴾، كما يقال في إسماعيل إسماعين، وهي لغة بني أسد، وقوله تعالى: ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين﴾ قد تقدم تفسيره، والله أعلم.

وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله (لوط) عليه السلام أنه بعثه إلى قومه فكذبوه، فنجاه الله تعالى من بين أظهرهم هو وأهله إلا امرأته، فإنها هلكت مع من هلك من قومها، فإن الله تعالى أهلكهم بأنواع من العقوبات، وجعل محلتهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح[1]، وجعلها بسبيل مقيم يمر بها المسافرون ليلاً ونهاراً، ولهذا قال تعالى: ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون﴾؟ أي أفلا تعتبرون بهم كيف دمر الله عليهم وتعلمون أن للكافرين أمثالها..؟

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ * فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾

**قد تقدمت** قصة يونس عليه الصلاة والسلام في سورة الأنبياء، وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى» ونسبه إلى أمه، وفي رواية إلى أبيه، وقوله تعالى: ﴿إذ أبق إلى الفلك المشحون﴾ قال ابن عباس: هو الموقر أي المملوء بالأمتعة، ﴿فساهم﴾ أي قارع ﴿فكان من المدحضين﴾ أي المغلوبين، وذلك أن السفينة تلعبت بها الأمواج من كل جانب، وأشرفوا على الغرق، فساهموا

(١) اشتهرت بتسميتها (بحيرة لوط) وهي قريبة من شرق الأردن.

على أنّ من تقع عليه القرعة يلقى في البحر ، لتخف بهم السفينة ، فوقعت القرعة على نبي الله ( يونس ) عليه الصلاة والسلام ثلاث مرات ، وهم يضنّون بـه أن يلقى من بينهم ، فتجرد من ثيـابه ليلقي نفسه ، وهم يأبون عليه ذلك ، وأمر الله تعالى حوتاً أن يلتقم يونس عليه السلام ، فلا يهشم له لحماً ، ولا يكسر له عظماً ، فجـاء ذلك الحوت وألقي يونس عليه السلام ، فالتقمه الحوت وذهب بـه فطاف بـه البحار كلها ، ولمـا استقر يونس في بطن الحوت حسب أنه قـد مات ، ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه ، فإذا هو حي ، فقـام فصلى في بطن الحوت ، وكان من جملة دعائه : « يا رب اتخذت لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحـد من الناس » ، واختلفوا في مقدار ما لبث في بطن الحوت ، فقيل : ثلاثة أيام ، وقيل : سبعة ، وقيل : أربعين يوماً ، وقال مجاهد : التقمه ضحى ولفظه عشية ، والله تعالى أعلم بمقدار ذلك . وقوله تعالى : ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين ، للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ قيل : لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء ، قاله الضحّاك واختاره ابن جرير . وفي الحديث : « تعرّف إلى الله في الرخـاء يعرفك في الشدة »[1] . وقال ابن عباس والحسن وقتادة : ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين ﴾ يعني المصلين ، وقال بعضهم كان من المسبحين في جوف أبويه ، وقيل : المراد ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين ﴾ هو قوله عزّ وجلّ : ﴿ فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ . روى ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك رضي الله عنه – يرفعه – : « إن يونس النبي عليه الصلاة والسلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت ، فقال : اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فأقبلت الدعوة تحن بالعرش ، قالت الملائكة : يا رب هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيدة غريبة ، فقال الله تعالى : أما تعرفون ذلك ؟ قالوا : يا رب ومن هو ؟ قال عزّ وجلّ : عبدي يونس ، قـالوا : عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة ، قالوا : يا رب أو لا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه في البلاء ؟ قال : بلى ، فأمر الحوت فطرحه بالعراء »[2] .

**ولهذا قال تعالى** : ﴿ فنبذناه ﴾ أي ألقيناه ﴿ بالعراء ﴾ ، قال ابن عباس : وهي الأرض التي ليس بها نبت ولا بناء ، قيل : على جانب دجلة ، وقيل : بأرض اليمن ، فالله أعلم ، ﴿ وهو سقيم ﴾ أي ضعيف البدن ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : كهيئة الفرخ ليس عليه ريش ، وقال السدي : كهيئة الصبي حين يولد ، وهو المنفوس ، ﴿ وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس : (اليقطين) هو القرع[3] ، وقال سعيد بن جبير : كل شجرة لا ساق لهـا فهي من اليقطين ، وفي رواية عنه : كل شجرة تهلك من عامها فهي من اليقطين ، وذكر بعضهم في القرع فوائد : منها سرعة نباته ، وتظليل ورقه لكبره ونعومته ، وأنه لا يقربها الذباب ، وجودة تغذية ثمره ، وأنـه يؤكل نيئاً ومطبوخاً بلبه وقشره أيضاً ، وقـد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يحب الدباء ، ويتبعه من حواشي الصفحة ، وقوله تعالى : ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ ، روي عن ابن عباس أنه قـال : إنمـا كانت رسالة يونس عليه الصلاة والسلام بعد ما نبذه الحوت[4] ، وقال مجاهد : أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت . **قلت** : ولا مانـع أن يكون الذين أرسل إليهم أولاً أمر بالعودة إليهم بعد خروجه من الحوت ، فصدقوه كلهم وآمنوا بـه ، وحكى البغوي :

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه . (٢) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه ابن جرير عن ابن وهب .

(٣) وهو قول جمهور السلف .

(٤) رواه ابن جرير عن ابن عباس .

أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت كانوا مائة ألف أو يزيدون، وقوله تعالى: ﴿أو يزيدون﴾ قال ابن عباس: بل يزيدون، وكانوا مائة وثلاثين ألفاً، وقال سعيد بن جبير: يزيدون سبعين ألفاً، وقال مكحول: كانوا مائة ألف وعشرة آلاف، وقال ابن جرير، عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ قال: يزيدون عشرين ألفاً(١). وقد سلك ابن جرير ههنا ما سلكه عند قوله تعالى: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾، المراد ليس أنقص من ذلك بل أزيد، وقوله تعالى ﴿فآمنوا﴾ أي فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس عليه السلام جميعهم، ﴿فمتعناهم إلى حين﴾ أي إلى وقت آجالهم، كقوله جلت عظمته ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾.

**فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾**

**يقول تعالى** منكراً على هؤلاء المشركين في جعلهم لله تعالى البنات ﴿سبحانه ولهم ما يشتهون﴾ أي من الذكور، أي يودون لأنفسهم الجيد، ﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم﴾ أي يسوؤه ذلك ولا يختار لنفسه إلا البنين. يقول عزّ وجلّ فكيف نسبوا إلى الله تعالى القسم الذي لا يختارونه لأنفسهم، ولهذا قال تعالى ﴿فاستفتهم﴾ أي سلهم على سبيل الإنكار عليهم ﴿ألربك البنات ولهم البنون﴾؟ كقوله عزّ وجلّ: ﴿ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذاً قسمة ضيزى﴾، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون﴾ أي كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم كقوله جل وعلا ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون﴾ أي يسألون عن ذلك يوم القيامة، وقوله جلت عظمته ﴿ألا إنهم من إفكهم﴾ أي من كذبهم ﴿ليقولون ولد الله﴾ أي صدر منه الولد ﴿وإنهم لكاذبون﴾، فذكر الله تعالى عنهم في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكفر والكذب: فأولاً جعلوهم (بنات الله) فجعلوا لله ولداً تعالى وتقدس، ثُمّ جعلوا ذلك الولد (أنثى) ثم عبدوهم من دون الله تعالى وتقدس وكل منها كاف في التخليد في نار جهنم، ثم قال تعالى منكراً عليهم: ﴿أصطفى البنات على البنين﴾ أي: أي شيء يحمله على أن يختار البنات دون البنين؟ كقوله عزّ وجلّ: ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً؟ إنكم لتقولون قولاً عظيماً﴾، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ما لكم كيف تحكمون﴾؟ أي ما لكم عقول تتدبرون بها ما تقولون ﴿أفلا تذكرون * أم لكم سلطان مبين﴾ أي حجة على ما تقولونه، ﴿فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين﴾ أي هاتوا برهاناً على ذلك يكون مستنداً إلى كتاب منزل من

(١) الحديث رواه ابن جرير وأخرجه الترمذي وقال: غريب.

السماء، عن الله تعالى أنه اتخذ ما تقولونه، فإن ما تقولونه لا يمكن استناده إلى عقل، بل لا يجوزه العقل بالكلية. وقوله تعالى: ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً﴾ قال مجاهد: قال المشركون: الملائكة بنات الله تعالى، فقال أبو بكر رضي الله عنه: فمن أمهاتهن؟ قالوا: بنات سروات الجن، ولهذا قال تعالى: ﴿ولقد علمت الجنة﴾ أي الذين نسبوا إليهم ذلك ﴿إنهم لمحضرون﴾ أي إن الذين قالوا ذلك ﴿لمحضرون﴾ في العذاب يوم الحساب، لكذبهم في ذلك وافترائهم وقولهم الباطل بلا علم، وقال ابن عباس: زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى هو وإبليس أخوان، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وقوله جلت عظمته: ﴿سبحان الله عما يصفون﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد، وعما يصفه به الظالمون الملحدون علواً كبيراً، وقوله تعالى: ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ استثنى منهم المخلصين وهم المتبعون للحق المنزل على كل نبي مرسل، وجعل ابن جرير هذا الاستثناء من قوله تعالى: ﴿إنهم لمحضرون إلا عباد الله المخلصين﴾ وفي هذا الذي قاله نظر، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾

**يقول تعالى** مخاطباً المشركين: ﴿فإنكم وما تعبدون * ما أنتم عليه بفاتنين * إلا من هو صال الجحيم﴾ أي إنما ينقاد لمقالتكم وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة، من هو أضل منكم ممن ذرئ للنار، ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ فهذا الضرب من الناس هو الذي ينقاد لدين الشرك والكفر والضلالة، كما قال تبارك وتعالى ﴿إنكم لفي قول مختلف * يؤفك عنه من أفك﴾ أي إنما يضل به من هو مأفوك ومبطل، ثم قال تبارك وتعالى منزهاً للملائكة مما نسبوا إليهم من الكفر بهم والكذب عليهم أنهم بنات الله: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ أي له موضع مخصوص في السماوات ومقام العبادات لا يتجاوزه ولا يتعداه، قال الضحّاك: كان مسروق يروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت، قال رسول الله ﷺ: «ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم» فذلك قوله تعالى: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾[1]. وقال الأعمش، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إن في السماوات لسماء ما فيها موضع شبر إلا عليه جبهة ملك أو قدماه، ثم قرأ عبد الله رضي الله عنه: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾، قال ابن جريج: كانوا لا يصفون في الصلاة حتى نزلت: ﴿وإنا لنحن الصافون﴾ فصفوا، وقال أبو نضرة: كان عمر رضي الله عنه إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه، ثم قال: أقيموا صفوفكم، استووا قياماً، يريد الله تعالى بكم هدي الملائكة، ثم يقول: ﴿وإنا لنحن الصافون﴾، تأخر يا فلان، تقدم يا فلان، ثم يتقدم فيكبر»[2].

---

(١) أخرجه الضحاك في تفسيره ورواه ابن عساكر بنحوه وأصله في الصحاح. (٢) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

وفي صحيح مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض مسجداً، وتربتها طهوراً» الحديث، ﴿وإنا لنحن المسبحون﴾ أي نصطف فنسبح الرب ونمجده ونقدسه وننزهه عن النقائص، فنحن عبيد له فقراء إليه خاضعون لديه، وقال ابن عباس ومجاهد: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ الملائكة، ﴿وإنا لنحن الصافون﴾ الملائكة، ﴿وإنا لنحن المسبحون﴾ الملائكة تسبح الله عزّ وجلّ، وقال قتادة: ﴿وإنا لنحن المسبحون﴾ يعني المصلون يثبتون بمكانهم من العبادة[1]. وقوله جل وعلا: ﴿وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكنا عباد الله المخلصين﴾، أي قد كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله، وما كان من أمر القرون الأولى ويأتيهم بكتاب الله كما قال جل جلاله: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً﴾، وقال تعالى: ﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين﴾ ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فكفروا به فسوف يعلمون﴾ وعيد أكيد وتهديد شديد، على كفرهم بربهم عزّ وجلّ وتكذيبهم رسوله ﷺ.

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾

**يقول تبارك وتعالى**: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾ أي تقدم في الكتاب الأول أن العاقبة للرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾، وقال عزّ وجلّ ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾، ولهذا قال جل جلاله: ﴿إنهم لهم المنصورون﴾ أي في الدنيا والآخرة كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم، ممن كذبهم وخالفهم، كيف أهلك الله الكافرين ونجى عباده المؤمنين، ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾ أي تكون لهم العاقبة، وقوله جل وعلا: ﴿فتول عنهم حتى حين﴾ أي اصبر على أذاهم لك وانتظر إلى وقت مؤجل، فإنا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر، وقوله جلت عظمته: ﴿وأبصرهم فسوف يبصرون﴾ أي انظرهم وارتقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال بمخالفتك وتكذيبك، ولهذا قال تعالى على وجه التهديد والوعيد: ﴿فسوف يبصرون﴾، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾ أي هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم بك، ومع هذا يستعجلون العذاب والعقوبة، قال الله تعالى: ﴿فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين﴾ أي فإذا نزل العذاب بمحلتهم فبئس ذلك اليوم يومهم، بإهلاكهم ودمارهم، وقال السدي: ﴿فإذا نزل بساحتهم﴾ يعني بدارهم ﴿فساء صباح المنذرين﴾ أي فبئس ما يصبحون أي بئس الصباح صباحهم، ولهذا ثبت في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: صبح رسول الله ﷺ خيبر، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش رجعوا، وهم يقولون: محمد والله، محمد والخميس، فقال النبي ﷺ: «الله

---

(١) الصحيح أن المراد به الملائكة وهو قول ابن عباس ومجاهد.

أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين »[١] ، وقوله تعالى: ﴿ وتول عنهم حتى حين ◌ وأبصر فسوف يبصرون﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾

ينزه تبارك وتعالى نفسه الكريمة ويقدسها، ويبرئها عما يقول الظالمون المكذبون المعتدون ، تعالى وتنزه وتقدس عن قولهم علواً كبيراً، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ سبحان ربك رب العزة﴾ أي ذي العزة التي لا ترام ﴿ عما يصفون﴾ أي عن قول هؤلاء المعتدين المفترين، ﴿ وسلام على المرسلين﴾ أي سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة، ﴿ والحمد لله رب العالمين﴾ أي له الحمد في الأولى والآخرة في كل حال، عن قتادة قال، قال رسول الله ﷺ : « إذا سلمتم عليَّ فسلموا على المرسلين » فإنما أنا رسول من المرسلين »[٢] . وعن أبي سعيد رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ : أنه كان إذا أراد أن يسلم قال: « سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين » ثم يسلم[٣] ، وروى ابن أبي حاتم عن الشعبي قال: قال رسول الله ﷺ : « من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم: ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ◌ وسلام على المرسلين ◌ والحمد لله رب العالمين﴾ »[٤] . وقد وردت أحاديث في كفارة المجلس: سبحانك اللهم وبحمدك ، لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، قال ابن كثير : وقد أفردت لها جزءاً على حدة ، ولله الحد والمنة .

[ آخر تفسير سورة الصافات ، والله أعلم ]

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن أنس، ومعنى قولهم ( محمد والخميس ) أي محمد والجيش .

(٢) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم مرسلاً ورواه ابن أبي حاتم مسنداً عن أبي طلحة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الحافظ أبو يعلى، قال ابن كثير : إسناده ضعيف ، أقول : وله ما يؤيده من الشواهد الصحيحة .

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم مرسلاً ، وروي موقوفاً عن علي رضي الله عنه .

## تفسير سورة الصافات

[وهى] [١]مكية.

قال النسائى: أخبرنا إسماعيل بن مسعود، حدثنا خالد ـ يعنى ابن الحارث ـ عن ابن أبى ذئب قال: أخبرنى الحارث بن عبد الرحمن، عن سالم بن عبد الله، عن عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا [٢]بالتخفيف، ويؤمنا بالصافات. تفرد به النسائى[٣].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥)﴾.

قال سفيان الثورى، عن الأعمش، عن أبى الضُّحَى، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، أنه قال: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ وهى: الملائكة، ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ وهى: الملائكة، ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾، هى: الملائكة.

وكذا قال ابن عباس، ومسروق، وسعيد بن جُبَيْر، وعِكْرِمة، ومجاهد، والسُّدِّىّ، وقتادة، والربيع بن أنس.

قال قتادة: الملائكة صفوف فى السماء.

وقال[٤] مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبى شَيْبَة، حدثنا محمد بن فُضَيْل، عن أبى مالك الأشجعى، عن رِبْعِىّ، عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلنا على الناس بثلاث: جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً [٥] وجُعلت لنا تُربتها [٦]طهوراً إذا لم نجد الماء»[٧].

وقد روى مسلم أيضاً، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجه، من حديث الأعمش، عن المُسَيَّب بن رافع، عن تميم بن طَرَفَة، عن جابر بن سَمُرَة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا تَصُفُّون كما تصف الملائكة عند ربهم؟» قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال: «يُتمون الصفوف المتقدمة ويَتَراصون فى الصف»[٨].

وقال السدى وغيره: معنى قوله: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾: أنها تزجر السحاب.

وقال الربيع بن أنس: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾: ما زجر الله عنه فى القرآن. وكذا رَوَى مالك، عن

(١) زيادة من ت، س. (٢) فى ت: «يأمر».
(٣) سنن النسائى (٢/ ٩٥).
(٤) فى ت: «وروى». (٥) فى س: «مسجدا وطهورا». (٦) فى ت، س: «تربتها لنا».
(٧) صحيح مسلم برقم (٥٢٢).
(٨) صحيح مسلم برقم (٤٣٠) وسنن أبى داود برقم (٦٦١) وسنن النسائى (٢/ ٩٢) وسنن ابن ماجه برقم (٩٢٢).

زيد بن أسلم.

﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ قال السدى: الملائكة يجيئون بالكتاب، والقرآن من عند الله إلى الناس. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا. عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات: ٥، ٦].

وقوله: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾، هذا هو المقسم عليه؛ أنه تعالى لا إله إلا هو ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أى: من المخلوقات، ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ أى: هو المالك المتصرف فى الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب[١] ثوابت، وسيارات تبدو من المشرق، وتغرب من المغرب. واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليه. وقد صرح بذلك فى قوله: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠]. وقال فى الآية الأخرى: ﴿رَبُّ المشرقين ورب المغربين﴾ [الرحمن: ١٧]، يعنى: فى الشتاء والصيف، للشمس والقمر.

**﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠)﴾ .**

يخبر تعالى أنه زَين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض﴿ بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾، قرئ بالإضافة وبالبدل، وكلاهما بمعنى واحد، فالكواكب السيارة والثوابت يثقب ضوؤها جرمَ السماء الشفاف، فتضىء[٢] لأهل الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ٥]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ. إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ ـ ١٨].

وقوله هاهنا: ﴿ وَحِفْظًا﴾ تقديره: وحفظناها حفظاً، ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ يعنى: المتمرد العاتى إذا أراد أن يسترق السمع، أتاه شهاب ثاقب فأحرقه؛ ولهذا قال: ﴿لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَىٰ﴾ أى: لئلا يصلوا[٣] إلى الملأ الأعلى، وهى السموات ومن فيها من الملائكة، إذا تكلموا بما يوحيه الله مما يقوله من شرعه وقدره، كما تقدم بيان ذلك فى الأحاديث التى أوردناها عند قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [سبأ: ٢٣].

ولهذا قال: ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ أى: يرمون، ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ أى: من كل جهة يقصدون السماء منها، ﴿دُحُورًا﴾ أى: رجما يدحرون به ويزجرون، ويمنعون من الوصول إلى ذلك، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أى: فى الدار الآخرة لهم عذاب دائم موجع مستمر، كما قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥].

وقوله: ﴿ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ أى: إلا من اختطف من الشياطين الخطفة، وهى الكلمة يسمعها

(١) فى ت: «الكواكب». (٢) فى ت، س: «فيضىء». (٣) فى ت، س: «يصلون».

من السماء فيلقيها إلى الذى تحته، ويلقيها الآخر إلى الذى تحته، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها بقدر الله قبل أن يأتيه الشهاب فيحرقه، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن، كما تقدم فى الحديث؛ ولهذا قال: ﴿إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾ أى: مستنير.

قال[١] ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا وكِيع، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس قال: كانت للشياطين مقاعد فى السماء فكانوا[٢] يستمعون الوحى. قال: وكانت النجوم لا تجرى، وكانت الشياطين لا تُرْمى. قال: فإذا سمعوا[٣] الوحى نزلوا إلى الأرض، فزادوا فى الكلمة تسعاً. قال: فلما بعث رسول الله ﷺ، جعل الشيطان إذا قعد مقعده جاء شهاب فلم يُخْطئه حتى يُحرقَه. قال: فشكوا ذلك إلى إبليس، فقال: ما هو إلا من أمْر حدث. قال: فَبَثّ جنوده، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى بين جبلى نخلة ـ قال وكيع: يعنى بطن نخلة ـ قال: فرجعوا إلى إبليس فأخبروه، فقال: هذا الذى حدث[٤].

وستأتى الأحاديث الواردة مع الآثار فى هذا المعنى عند قوله تعالى إخبارا عن الجن أنهم قالوا: ﴿وأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا. وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا. وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ٨ ـ ١٠].

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩)﴾.

يقول تعالى: فَسَل هؤلاء المنكرين للبعث: أيما أشد خلقاً هم أم[٥] السموات والأرض، وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة؟ ـ وقرأ ابن مسعود: «أم من عددنا» ـ فإنهم يُقرّون أن هذه المخلوقات أشد خلقاً منهم، وإذا كان الأمر كذلك فلم ينكرون البعث؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا[٦]، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

ثم بين أنهم خُلقوا من شىء ضعيف، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾،

قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك: هو الجيّد الذى يلتزق بعضه ببعض. وقال ابن

(١) فى ت: «وروى». (٢) فى ت، س: «قال: فكانوا». (٣) فى أ: «استمعوا».
(٤) تفسير الطبرى (٢٣/ ٢٥).
(٥) فى س: «أو». (٦) فى ت، أ: «أنكروه».

عباس، وعكرمة: هو اللزج. وقال قتادة: هو الذى يلزق باليد.

وقوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ أى: بل عجبت ـ يا محمد ـ من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله به من الأمر العجيب، وهو إعادة الأجسام بعد فنائها. وهم بخلاف أمرك، من شدة تكذيبهم يسخرون مما تقول لهم من ذلك.

قال قتادة: عجب محمد ﷺ، وسَخِر ضُلاَّل بنى آدم.

﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ أى: دلالة واضحة على ذلك ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ قال مجاهد، وقتادة: يستهزئون.

﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: إن هذا الذى جئت به إلا سحر مبين، ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾ يستبعدون ذلك ويكذبون به، ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أى: قل لهم يا محمد: نعم تبعثون يوم القيامة بعد ما تصيرون ترابا وعظاما، ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أى: حقيرون تحت القدرة العظيمة، كما قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

ثم قال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ أى: إنما هو أمر واحد من الله عز وجل، يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض، فإذا هم [قيام][1] بين يديه، ينظرون إلى أهوال يوم القيامة.

**﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦)﴾ .**

يخبر تعالى عن قِيلِ الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة، ويعترفون بأنهم[2] كانوا ظالمين لأنفسهم فى الدار الدنيا، فإذا عاينوا أهوال القيامة نَدموا كلَّ الندم حيث لا ينفعهم الندم، ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ ، فتقول لهم الملائكة والمؤمنون: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾. وهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ، ويأمر الله الملائكة أن تُميزَ الكفار من المؤمنين فى الموقف فى محشرهم ومنشرهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال النعمان ابن بشير[3]، رضى الله عنه: يعنى بأزواجهم أشباههم وأمثالهم. وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن

---

(١) زيادة من ت، س، أ.

(٢) فى ت: «أنهم».

(٣) فى أ: «بشر».

جُبَيْر، وعِكْرِمة ومجاهد، والسُّدِّى، وأبو صالح، وأبو العالية، وزيد بن أسلم [وغيرهم][١].

وقال سفيان الثورى، عن سمَاك، عن النعمان بن بشير[٢]، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال: إخوانهم[٣].

وقال شريك، عن سماك، عن النعمان قال: سمعت عمر يقول: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال: أشباههم. قال: يجىء صاحب الربا مع أصحاب الربا، وصاحب[٤] الزّنا مع أصحاب الزّنا، وصاحب[٥] الخمر مع أصحاب الخمر.

وقال خُصَيْف، عن مِقْسَم، عن ابن عباس: ﴿أَزْوَاجَهُمْ﴾: نساءهم.

وهذا غريب، والمعروف عنه الأول، كما رواه مجاهد وسعيد بن جبير، عنه: ﴿أَزْوَاجَهُمْ﴾: قُرَناءهم[٦].

﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أى: من الأصنام والأنداد، تحشر معهم فى أماكنهم.

وقوله: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أى: أرشدوهم إلى طريق جهنم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ أى: قفوهم حتى يُسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التى صدرت عنهم فى الدار الدنيا كما قال الضحاك، عن ابن عباس: يعنى احبسوهم إنهم محاسبون.

وقال ابن أبى حاتم[٧]: حدثنا أبى، حدثنا النُّفَيلى، حدثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعت ليثا يُحدّث عن بشر، عن أنس بن مالك [رضى الله عنه][٨] قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما داع دعا إلى شىء كان موقوفاً معه إلى يوم القيامة، لا يغادره ولا يفارقه، وإن دعا رجل رجلا»، ثم قرأ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾.

ورواه الترمذى، من حديث ليث بن أبى سليم[٩]. ورواه ابن جرير، عن يعقوب بن إبراهيم، عن معتمر، عن ليث، عن رجل، عن أنس مرفوعا[١٠].

وقال عبد الله بن المبارك: سمعت عثمان بن زَائِدَةَ يقول: إن أول ما يُسأل عنه الرجل جلساؤه، ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أى: كما[١١] زعمتم أنكم جميع منتصر، ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ أى: منقادون لأمر الله، لا يخالفونه ولا يحيدون عنه.

(١) زيادة من ت .
(٢) فى أ: «بشر».
(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٣/ ٣١).
(٤، ٥) فى ت، س، أ: «أصحاب».
(٦) فى س: «قرباؤهم».
(٧) فى ت: «الترمذى».
(٨) زيادة من ت.
(٩) سنن الترمذى برقم (٣٢٢٨).
(١٠) تفسير الطبرى (٢٣/ ٣٢).
(١١) فى ت: «كلما».

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ(٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) ﴾ .

يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون فى عرصات القيامة، كما يتخاصمون فى دركات النار، ﴿ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨]. وقال: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ [١] مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ .وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: ٣١ـ٣٣]. قالوا لهم هاهنا: ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس: يقولون: كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا؛ لأنا[٢] كنا أذلاء وكنتم أعزاء.

وقال مجاهد: يعنى: عن الحق، الكفار تقوله[٣] للشياطين.

وقال قتادة: قالت الإنس للجن: ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ قال: من قبل الخير، فتنهونا عنه وتبطئونا عنه.

وقال السدى: تأتوننا [عن اليمين][٤] من قبل الحق، تزينون[٥] لنا الباطل، وتصدونا عن الحق.

وقال الحسن فى قوله: ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ إى والله، يأتيه عند كل خير يريده فيصده عنه.

وقال ابن زيد: معناه تحولون بيننا وبين الخير، ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذى أمرنا به.

وقال يزيد الرشْك: من قبل «لا إله إلا الله». وقال خُصيف: يعنون من قبل ميامنهم. وقال

(١) فى ت، س: «المجرمون». (٢) فى أ: «لأننا». (٣) فى ت: «يقوله».
(٤) زيادة من أ. (٥) فى أ: «وتزينوا».

عكرمة: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾، قال: من حيث نأمنكم.

وقوله: ﴿قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ : تقول القادة من الجن، والإنس للأتباع: ما الأمر كما تزعمون؟ بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان، قابلة للكفر والعصيان، ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم[1] مِّن سُلْطَانٍ﴾ أى: من حجة على صحة ما دعوناكم إليه، ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ أى: بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق؛ فلهذا استجبتم لنا وتركتم الحق الذى جاءتكم به الأنبياء، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاؤوكم به، فخالفتموهم.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ . فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾، يقول الكبراء للمستضعفين: حقت علينا كلمة الله[2]: إنا من الأشقياء الذائقين العذاب يوم القيامة، ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾ أى: دعوناكم إلى الضلالة، ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ أى: دعوناكم[3] إلى ما نحن فيه، فاستجبتم لنا، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أى: الجميع فى النار، كل بحسبه، ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ . إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ أى: فى الدار الدنيا ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أى: يستكبرون أن يقولوها، كما يقولها المؤمنون.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخى ابن وَهْب، حدثنا عمى، حدثنا الليث، عن ابن مُسافر ـ يعنى عبد الرحمن بن خالد ـ عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هُرَيرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله، وأنزل الله فى كتابه ـ وذكر قوما استكبروا ـ فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾»[4].

وقال[5] ابن أبى حاتم أيضا: حدثنا أبى، حدثنا أبو سلمة موسى بن إسماعيل، حدثنا حمَّاد، عن سعيد الجُرَيرى، عن أبى العلاء قال: يؤتى باليهود يوم القيامة فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: الله وعُزَيراً. فيقال لهم: خذوا ذات الشمال، ثم يؤتى بالنصارى فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: نعبد الله والمسيح. فيقال لهم: خذوا ذات الشمال. ثم يؤتى بالمشركين فيقال لهم: «لا إله إلا الله»، فيستكبرون. ثم يقال لهم: «لا إله إلا الله»، فيستكبرون. ثم يقال لهم: «لا إله إلا الله» فيستكبرون. فيقال لهم: خذوا ذات الشمال ـ قال أبو نضرة: فينطلقون أسرع من الطير ـ قال أبوالعلاء: ثم يؤتى بالمسلمين فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد الله. فيقال لهم: هل تعرفونه إذا رأيتموه؟ فيقولون: نعم. فيقال لهم: فكيف تعرفونه ولم تروه؟ قالوا: نعلم أنه لا عِدْلَ له. قال: فيتعرف لهم تبارك وتعالى، وينجى الله المؤمنين.

---

(١) فى ت: «لكم علينا». (٢) فى أ: «كلمة ربك».

(٣) فى ت، س: «فدعوناكم».

(٤) وقد رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢١) بدون ذكر الآية من طريق يونس عن الزهرى به.

(٥) فى ت: «وروى».

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ أي: أنحن[١] نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول [هذا][٢] الشاعر المجنون، يعنون رسول الله ﷺ؟! قال الله تعالى تكذيبا لهم، وردا عليهم: ﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ ﴾، يعني رسول الله ﷺ جاء بالحق في جميع شرعة[٣] الله له من الإخبار والطلب، ﴿ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: صدّقهم فيما أخبروه[٤] عنه من الصفات الحميدة، والمناهج السديدة، وأخبر عن الله في شرعه [وقدره][٥] وأمره كما أخبروا، ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ الآية [فصلت: ٤٣].

**﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (٤٩) ﴾.**

يقول تعالى مخاطباً للناس: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ . وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين، كما قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ. إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ١ـ٣].

وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ. إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: ٤ـ٦]، وقال: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا . ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ. إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ [المدثر: ٣٨، ٣٩]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: ليسوا يذوقون العذاب الأليم، ولا يناقشون في الحساب، بل يتجاوز عن سيئاتهم، إن كان لهم سيئات، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، إلى ما يشاء الله من التضعيف.

وقوله: ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾ قال قتادة، والسدي: يعني الجنة. ثم فسره بقوله تعالى: ﴿فَوَاكِهُ﴾ أي: متنوعة ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ أي: يُخدمون [ويرزقون][٦] ويرفهون وينعمون، ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ قال مجاهد: لا ينظر بعضهم في قفا بعض.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يحيى بن عبدك[٧] القزويني، حدثنا حسان بن حسان[٨]، حدثنا إبراهيم ابن بشر[٩]، حدثنا يحيى بن معين، حدثنا إبراهيم القرشي، عن سعيد بن شرحبيل، عن زيد بن أبي أوفى قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فتلا هذه الآية: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ ينظر بعضهم إلى بعض.

---

(١) في ت: «نحن». (٢) زيادة من ت، س. (٣) في أ: «ما شرعه».
(٤) في ت، س: «أخبروا». (٥) زيادة من ت، أ. (٦) زيادة من أ.
(٧) في أ: «عبد الله». (٨) في أ: «حبان». (٩) في أ: «بشير».

حديث غريب(١).

وقوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ. بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ. لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ . لا يُصَدَّعُونَ عَنهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٧ ـ ١٩]، فنزه الله خمر الآخرة(٢) عن الآفات التى فى خمر الدنيا، من صداع الرأس ووجع البطن ـ وهو الغول ـ وذهابها بالعقل جملة، فقال هاهنا: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أى: بخمر من أنهار جارية، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها.

قال مالك، عن زيد بن أسلم: خمر جارية(٣) بيضاء، أى: لونها مشرق حسن بهى لا كخمر الدنيا فى منظرها البشع الردىء، من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدورة(٤)، إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم.

وقوله: ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ أى: طعمها طيب كلونها، وطيب الطعم دليل على طيب الريح، بخلاف خمر الدنيا فى جميع ذلك.

وقوله: ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ﴾ يعنى: لا تؤثر فيهم غولا ـ وهو وجع البطن. قاله مجاهد، وقتادة، وابن زيد ـ كما تفعله خمر الدنيا من القُولَنْج ونحوه، لكثرة مائيتها.

وقيل: المراد بالغول هاهنا: صداع الرأس. وروى هكذا عن ابن عباس.

وقال قتادة: هو صداع الرأس، ووجع البطن. وعنه، وعن السدى: لا تغتال عقولهم، كما قال الشاعر:

فما زَالَتِ الكَأسُ تَغْتَالُنا وتَذْهبُ بالأوَّل الأوَّلِ(٥) (٦)

وقال سعيد بن جبير: لا مكروه فيها ولا أذى. والصحيح قول مجاهد: أنه وجع البطن.

وقوله: ﴿وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ قال مجاهد: لا تذهب عقولهم، وكذا قال ابن عباس، ومحمد بن كعب، والحسن، وعطاء بن أبى مسلم الخراسانى، والسدى، وغيرهم.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: فى الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقىء، والبول. فذكر الله خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال، كما ذكر فى سورة «الصافات» (٧).

وقوله: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أى: عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن. كذا قال ابن

---

(١) ورواه البخارى فى التاريخ الكبير (٣/ ٣٨٦) فى ترجمة زيد بن أبى أوفى من طريق حسان بن حسان به، وقال: «لا يتابع عليه».
(٢) فى ت، س: «الجنة». (٣) فى ت، س: «جارى». (٤) فى ت: «كدرة».
(٥) فى ت: «فالأول».
(٦) البيت فى تفسير الطبرى (٢٣/ ٣٥).
(٧) فى ت: «والصافات».

عباس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وقتادة، والسدى، وغيرهم.

وقوله: ﴿عِينٌ﴾ أى: حسان الأعين. وقيل: ضخام الأعين. وهو يرجع إلى الأول، وهى النجلاء العيناء، فوصف عيونهن بالحسن والعفة، كقول زليخا فى يوسف حين جملته وأخرجته على تلك النسوة، فأعظمنه وأكبرنه، وظنن أنه ملك من الملائكة لحسنه وبهاء منظره، قالت: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] أى: هو مع هذا الجمال عفيف تقى نقى، [فأرتهن جماله الظاهر وأخبرتهن بجماله الباطن ](١). وهكذا الحور العين ﴿ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ [الرحمن: ٧٠]، ولهذا قال: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ .

وقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾: وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، رضى الله عنهما: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ يقول: اللؤلؤ المكنون.

وينشد هاهنا بيت أبى دهبل الشاعر فى قصيدة له:

وَهْيَ زَهْرَاء مِثْلَ لؤلؤة الغوّ اص مُيِّزَتْ مِن جوهر مكْنُون(٢)

وقال الحسن: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ يعنى: محصون(٣) لم تمسه الأيدى.

وقال السدى: البيض فى عشه مكنون.

وقال سعيد بن جبير: ﴿[ كَأَنَّهُنَّ ](٤)بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾، يعنى: بطن البيض(٥).

وقال عطاء الخراسانى: هو السحاء الذى يكون بين قشرته العليا ولباب البيضة.

وقال السدى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ يقول: بياض البيض حين ينزع قشره. واختاره ابن جرير لقوله: ﴿ مَّكْنُونٌ﴾، قال: والقشرة العليا يمسها جناح الطير والعش، وتنالها الأيدى بخلاف داخلها، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، حدثنا محمد بن الفرج الصدفى الدمياطى، عن عمرو بن هاشم، عن ابن أبى كريمة، عن هشام، عن الحسن، عن أمه، عن أم سلمة(٦)، رضى الله عنها، قلت(٧): يا رسول الله، أخبرنى عن قول الله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾(٨) قال: «رقتهن كرقة الجلدة التى رأيتها فى داخل البيضة، التى تلى القشر، وهى الغِرْقِئ»(٩).

(١) زيادة من ت.

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٢٣/ ٣٧).

(٣) فى ت: «مصون». (٤) زيادة من ت. (٥) فى ت: «العين».

(٦) فى ت: « وروى ابن جرير بإسناده عن أم سلمة». (٧) فى ت: «عنها قالت: قلت».

(٨) فى ت، س: « أخبرنى عن قول الله: ﴿حور عين﴾ قال: « العين: الضخام العيون، شفر الحوراء مثل جناح النسر». قلت: يا رسول الله، أخبرنى عن قول الله: ﴿كأنهن بيض مكنون﴾.

(٩) تفسير الطبرى (٢٣/ ٣٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٣/ ٣٦٧) حدثنا بكر بن سهل الدمياطى حدثنا عمرو بن هاشم به، قال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١١٩): «فيه سليمان بن أبى كريمة ضعفه أبو حاتم وابن عدى».

وقال[١] ابن أبى حاتم: حدثنا أبى: حدثنا أبو غسان النهدى، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن ليث، عن الربيع بن أنس، عن أنس، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا حزنوا، وأنا شفيعهم إذا حبسوا، لواء الحمد يومئذ بيدى، وأنا أكرم ولد آدم على ربى عز وجل ولا فخر، يطوف على ألف خادم كأنهن البيض المكنون ـ أو: اللؤلؤ المكنون»[٢].

**﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) ﴾.**

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، أى: عن أحوالهم، وكيف كانوا فى الدنيا، وماذا كانوا يعانون فيها؟ وذلك من حديثهم على شرابهم[٣]، واجتماعهم فى تنادمهم وعشرتهم فى مجالسهم، وهم جلوس على السرر، والخدم بين أيديهم، يسعون ويجيؤون بكل خير عظيم، من مآكل ومشارب وملابس، وغير ذلك مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. **﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾** قال مجاهد: يعنى شيطانا.

وقال العوفى، عن ابن عباس: هو الرجل المشرك، يكون له صاحب من أهل الإيمان فى الدنيا.

ولا تنافى بين كلام مجاهد، وابن عباس؛ فإن الشيطان يكون من الجن فيوسوس فى النفس، ويكون من الإنس فيقول كلاما تسمعه الأذنان، وكلاهما متعاديان[٤]، قال الله تعالى: **﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾** [الأنعام: ١١٢]. وكل منهما يوسوس، كما قال[٥] تعالى: **﴿ [قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ. مَلِكِ النَّاسِ. إِلَٰهِ النَّاسِ][٦]. مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ. الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ. مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾** [سورة الناس]؛ ولهذا **﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ. يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴾** أى: أأنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء؟! يعنى: يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد، والكفر والعناد، **﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾** قال مجاهد، والسدى: لمحاسبون؟ وقال ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظى: لمجزيون بأعمالنا؟

---

(١) فى ت: «وروى».

(٢) ورواه البيهقى فى دلائل النبوة (٤٨٣/٥) من طريق منصور بن أبى الأسود عن ليث عن الربيع بن أنس به، ثم رواه من طريق حبان بن على عن ليث عن عبيد الله بن زحر عن الربيع عن أنس به، وقال: «تابعه ـ أى الليث ـ محمد بن فضيل عن عبيد الله بن زحر».

(٣) فى أ: «سراتهم». (٤) فى ت، س: «متعاونان». (٥) فى ت: «قال الله تعالى».

(٦) زيادة من ت، س، أ.

قال : ﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ أى: مشرفون. يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة. ﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾. قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وخليد العصرى وقتادة، والسدى، وعطاء الخراسانى [وغيرهم][١]: يعنى فى وسط الجحيم.

وقال الحسن البصرى: فى وسط الجحيم كأنه شهاب يتقد.

وقال قتادة: ذكر لنا أنه اطلع فرأى جماجم القوم تغلى. وذكر لنا أن كعب الأحبار قال: فى الجنة كوى إذا أراد أحد من أهلها أن ينظر إلى عدوه فى النار اطلع فيها، فازداد شكرا.

﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾، يقول المؤمن مخاطبا للكافر: والله إن كدت لتهلكنى لو أطعتك، ﴿ وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ أى: ولولا فضل الله على لكنت مثلك فى سواء الجحيم حيث أنت، محضر معك فى العذاب، ولكنه تفضل [علىّ][٢] ورحمنى فهدانى للإيمان، وأرشدنى إلى توحيده، ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقوله: ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلا مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾، هذا من كلام المؤمن مغبطا نفسه بما أعطاه الله من الخلد فى الجنة[٣] والإقامة فى دار الكرامة، لا موت فيها ولا عذاب؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

قال[٤] ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهرانى، حدثنا حفص بن عمر العَدَنى، حدثنا الحكم ابن أبان، عن عكرمة قال: قال ابن عباس، رضى الله عنهما، فى قول الله تبارك وتعالى لأهل الجنة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الطور: ١٩]، قال ابن عباس، رضى الله عنهما: قوله: ﴿هَنِيئًا﴾ أى: لا يموتون[٥] فيها. فعندها قالوا: ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾.

وقال الحسن البصرى: علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه، فقالوا: ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلا مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾، قيل [لهم][٦]: لا. قالوا: ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

وقوله: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ قال قتادة: هذا من كلام أهل الجنة.

وقال ابن جرير: هو من كلام الله تعالى، ومعناه: لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون فى الدنيا، ليصيروا إليه فى الآخرة[٧].

وقد ذكروا قصة رجلين كانا شريكين فى بنى إسرائيل، تدخل فى ضمن عموم هذه الآية الكريمة.

قال أبو جعفر بن جرير: حدثنى إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد، حدثنا عتاب بن بشير، عن خصيف، عن فرات بن ثعلبة البهرانى فى قوله: ﴿ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ قال: إن رجلين كانا

---

(١) زيادة من ت. (٢) زيادة من س، أ. (٣) فى ت: «فى الجنة من الخلد».
(٤) فى ت: «روى». (٥) فى ت، س: «لا تموتون». (٦) زيادة من ت، أ.
(٧) تفسير الطبرى (٢٣/ ٤٠).

شريكين، فاجتمع لهما ثمانية آلاف دينار، وكان أحدهما له حرفة، والآخر ليس له حرفة، فقال الذى له حرفة للآخر: ليس عندك حرفة، ما أرانى إلا مفارقك ومقاسمك، فقاسمه وفارقه، ثم إن الرجل اشترى دارًا بألف دينار كانت لملك، مات، فدعا صاحبه فأراه فقال: كيف[١] ترى هذه الدار؟ ابتعتها بألف دينار؟ قال: ما أحسنها! فلما خرج قال: اللهم، إن صاحبى ابتاع[٢] هذه الدار بألف دينار، وإنى أسألك دارا من دور الجنة، فتصدق بألف دينار، ثم مكث ما شاء الله أن يمكث، ثم إنه تزوج بامرأة[٣] بألف دينار، فدعاه وصنع له طعاما. فلما أتاه قال: إنى تزوجت امرأة بألف دينار. قال: ما أحسن هذا! فلما انصرف قال: يارب، إن صاحبى تزوج امرأة بألف دينار، وإنى أسألك امرأة من الحور العين. فتصدق بألف دينار، ثم إنه مكث ما شاء الله أن يمكث. ثم اشترى بستانين بألفى دينار، ثم دعاه فأراه فقال: إنى ابتعت هذين البستانين[٤]. فقال: ما أحسن هذا! فلما خرج قال: يارب، إن صاحبى قد اشترى بستانين بألفى دينار، وأنا أسألك بستانين فى الجنة. فتصدق بألفى دينار، ثم إن الملك أتاهما فتوفاهما، ثم انطلق بهذا المتصدق، فأدخله دارا تعجبه، وإذا امرأة تطلع يضىء ما تحتها من حسنها، ثم أدخله بستانين وشيئا الله به عليم[٥]، فقال عند ذلك: ما أشبه هذا برجل كان من أمره كذا وكذا. قال: فإنه ذاك، ولك هذا المنزل والبستانان والمرأة. قال: فإنه كان لى صاحب يقول: أئنك لمن المصدقين؟ قيل له: فإنه فى الجحيم. قال: هل أنتم مطلعون؟ فاطلع فرآه فى سواء الجحيم. فقال عند ذلك: ﴿ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ .وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ الآيات.

قال ابن جرير: وهذا يقوى قراءة من قرأ: «أئنك لمن الْمُصَّدِّقِينَ » بالتشديد.

وقال[٦] ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا عمر بن عبد الرحمن الأبار أبو حفص قال: سألت إسماعيل السدى عن هذه الآية: ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ . يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ ؟ قال: فقال لى: ما ذكرك هذا؟ قلت: قرأته آنفا فأحببت أن أسألك عنه؟ فقال: أما فاحفظ، كان شريكان فى بنى إسرائيل، أحدهما مؤمن والآخر كافر، فافترقا على ستة آلاف دينار، كل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار، فمكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت فى مالك؟ أضربت به شيئا؟ أتجرت به فى شىء؟ فقال له المؤمن: لا، فما صنعت أنت؟ فقال: اشتريت به أرضا ونخلا وثمارا وأنهارا[٧] قال: فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم. فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصلى، فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعها بين يديه، ثم قال: اللهم إن فلانا ـ يعنى شريكه الكافر ـ اشترى أرضا ونخلا وثمارا وأنهارا بألف دينار، ثم يموت غدا ويتركها، اللهم إنى اشتريت منك بهذه الألف دينار[٨] أرضا ونخلا وثمارا وأنهارا فى الجنة. قال: ثم أصبح فقسمها فى المساكين. قال: ثم مكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم التقيا فقال الكافر

(١) فى ت، س: «فكيف». (٢) فى ت، س: «إن صاحبى هذا قد ابتاع». (٣) فى ت، س: «امرأة».
(٤) فى ت، أ: «البستانين بألفى دينار». (٥) فى ت: «وفيهما ما الله به عليم». (٦) فى ت: «وروى».
(٧) فى ت، س: «وأنهار بألف دينار». (٨) فى س: «الدينار».

للمؤمن: ما صنعت فى مالك، أضربت به فى شيء؟ أتجرت به فى شيء؟ قال: لا، فما صنعت أنت. قال: كانت ضيعتى قد اشتد على مؤنتها، فاشتريت رقيقا بألف دينار، يقومون بى[١] فيها، ويعملون لى فيها. فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم. قال: فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصلى، فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعها بين يديه، ثم قال: اللهم إن فلانا ـ يعنى شريكه الكافر ـ اشترى رقيقا من رقيق الدنيا بألف دينار، يموت غدا ويتركهم، أو يموتون فيتركونه، اللهم، وإنى أشترى منك بهذه الألف الدينار رقيقا فى الجنة. ثم أصبح فقسمها فى المساكين. قال: ثم مكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت فى مالك؟ أضربت به فى شيء؟ أتجرت به فى شيء؟ قال: لا، فما صنعت أنت؟ قال: أمرى كله قد تم إلا شيئا واحدا، فلانة قد مات عنها زوجها، فأصدقتها ألف دينار، فجاءتنى بها ومثلها معها. فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم. فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصلى، فلما انصرف أخذ الألف الدينار الباقية، فوضعها بين يديه، وقال: اللهم إن فلانا ـ يعنى شريكه الكافر ـ تزوج زوجة من أزواج الدنيا[٢]، فيموت غدا فيتركها، أو يموت فتتركه، اللهم وإنى أخطب إليك بهذه الألف الدينار[٣] حوراء عيناء فى الجنة. ثم[٤] أصبح فقسمها بين المساكين. قال: فبقى المؤمن ليس عنده شيء. قال: فلبس قميصا من قطن، وكساء من صوف، ثم أخذ مَرًّا فجعله على رقبته، يعمل الشيء ويحفر الشيء بقوته. قال: فجاءه رجل فقال: يا عبد الله، أتؤاجرنى نفسك مشاهرة، شهرا بشهر، تقوم على دواب لى تعلفها وتكنس سَرْقينها؟ قال: نعم. قال: فواجره نفسه مشاهرة، شهرا بشهر، يقوم على دوابه. قال: فكان صاحب الدواب يغدو كل يوم ينظر إلى دوابه، فإذا رأى منها دابة ضامرة، أخذ برأسه فوجأ عنقه، ثم يقول له: سرقت شعير هذه[٥] البارحة؟ فلما رأى المؤمن هذه الشدة قال: لآتين شريكى الكافر، فلأعملن فى أرضه فيطعمنى هذه الكسرة يوما[٦]، ويكسونى هذين الثوبين إذا بليا. قال: فانطلق يريده، فلما انتهى إلى بابه وهو ممس، فإذا قصر مشيد فى السماء، وإذا حوله البوابون، فقال لهم: استأذنوا لى[٧] صاحب هذا القصر، فإنكم إذا فعلتم سره ذلك، فقالوا له: انطلق إن كنت صادقا فنم فى ناحية، فإذا أصبحت فتعرض له. قال: فانطلق المؤمن، فألقى نصف كسائه تحته، ونصفه فوقه، ثم نام. فلما أصبح أتى شريكه فتعرض له، فخرج شريكه الكافر وهو راكب، فلما رآه عرفه فوقف عليه وسلم عليه وصافحه، ثم قال له: ألم تأخذ من المال مثل ما أخذت؟ قال: بلى وهذه حالى[٨] وهذه حالك. قال: أخبرنى ما صنعت فى مالك؟ قال: لا تسألنى عنه. قال: فما جاء بك؟ قال: جئت أعمل فى أرضك هذه، فتطعمنى هذه الكسرة يوما بيوم، وتكسونى هذين الثوبين إذا بليا. قال: لا، ولكن أصنع بك ما هو خير من هذا، ولكن لا ترى منى خيرا حتى تخبرنى ما صنعت فى مالك؟ قال: أقرضته: قال: من؟ قال: الملىء الوفى. قال: من؟ قال: الله ربى. قال: وهو

---

(١) فى ت، س، أ: «لى».
(٢) فى ت، س: «الدنيا بألف دينار».
(٣) فى ت: «دينار».
(٤)فى ت، س: «قال: ثم».
(٥) فى ت: «هذه الدابة».
(٦) فى ت، س: «يوما بيوم».
(٧) فى ت، س: «لى على».
(٨) فى ت: «حالتى».

مصافحه، فانتزع يده من يده، ثم قال: ﴿ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ. أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ ـ قال السدى: محاسبون ـ قال: فانطلق[1] الكافر وتركه. قال: فلما رآه المؤمن ليس يلوى عليه، رجع وتركه، يعيش المؤمن فى شدة من الزمان، ويعيش الكافر فى رخاء من الزمان. قال: فإذا كان يوم القيامة وأدخل الله المؤمن الجنة، يمر فإذا هو بأرض ونخل وثمار وأنهار، فيقول: لمن هذا[2]؟ فيقال: هذا لك. فيقول: يا سبحان الله! أوَ بلغ من فضل عملى أن أثاب بمثل هذا؟! قال: ثم يمر فإذا هو برقيق لا تحصى عدتهم، فيقول: لمن هذا؟ فيقال: هؤلاء لك. فيقول: ياسبحان الله! أو بلغ من فضل عملى أن أثاب بمثل هذا؟! قال: ثم يمر فإذا هو بقبة من ياقوتة حمراء مجوفة، فيها حوراء عيناء، فيقول: لمن هذه؟ فيقال: هذه لك. فيقول: يا سبحان الله! أو بلغ من فضل عملى أن أثاب بمثل هذا؟! قال: ثم يذكر المؤمن شريكه الكافر فيقول: ﴿ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ . يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ. أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ قال: فالجنة عالية، والنار هاوية. قال: فيريه الله شريكه فى وسط الجحيم، من بين أهل النار، فإذا رآه المؤمن عرفه، فيقول: ﴿ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ. وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ. أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ. إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ : بمثل ما[3] مَنَّ عليه. قال: فيتذكر المؤمن ما مر عليه فى الدنيا من الشدة، فلا يذكر مما مر عليه فى الدنيا من الشدة، أشد عليه من الموت[4].

**﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) ﴾ .**

يقول الله تعالى: أهذا الذى ذكره[5] من نعيم الجنة وما فيها من مآكل ومشارب ومناكح وغير ذلك من الملاذ ـ خير ضيافة وعطاء ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾؟ أى: التى فى جهنم.

وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك شجرة واحدة معينة، كما قال بعضهم من أنها شجرة تمتد فروعها إلى جميع محال جهنم كما أن شجرة طوبى ما من دار فى الجنة إلا وفيها منها غصن.

وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك جنس شجر، يقال له: الزقوم، كقوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، يعنى الزيتونة. ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ . لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ [الواقعة: ٥١، ٥٢].

وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾، قال قتادة: ذكرت شجرة الزقوم، فافتتن بها أهل الضلالة،

(١) فى ت، س: «وانطلق». (٢) فى أ: «هذه». (٣) فى ت، س: «ما قد».
(٤) وهذا من أخبار بنى إسرائيل التى لا يعتمد عليها. (٥) فى أ: «ذكرته».

وقالوا: صاحبكم ينبئكم أن فى النار شجرة، والنار تأكل الشجر، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ غذت من النار، ومنها خلقت.

وقال مجاهد: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾، قال أبو جهل ـ لعنه الله ـ: إنما الزقوم التمر والزبد أتزقمه.

قلت: ومعنى الآية: إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم اختبارا تختبر[١] به الناس، من يصدق منهم ممن يكذب، كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلا طُغْيَانًا كَبِيراً﴾ [الإسراء : ٦٠].

وقوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أى: أصل منبتها فى قرار النار، ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ تبشيع [لها][٢] وتكريه لذكرها.

قال وهب بن منبه: شعور الشياطين قائمة إلى السماء.

وإنما شبهها برؤوس الشياطين وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين؛ لأنه قد استقر فى النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر.

وقيل: المراد بذلك ضرب من الحيات، رؤوسها بشعة المنظر.

وقيل: جنس من النبات، طلعه فى غاية الفحاشة.

وفى هذين الاحتمالين نظر، وقد ذكرهما ابن جرير، والأول أقوى وأولى، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾، ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التى لا أبشع منها، ولا أقبح من منظرها، مع ما هى عليه من سوء الطعم والريح والطبع، فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها، لأنهم لا يجدون إلا إياها، وما[٣] فى معناها، كما قال [تعالى][٤]: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ . لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٦، ٧].

وقال ابن أبى حاتم، رحمه الله: حدثنا أبى، حدثنا عمرو بن مرزوق، حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية، وقال: «اتقوا الله حق تقاته، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت فى بحار الدنيا، لأفسدت على أهل الأرض معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟».

ورواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، من حديث شعبة[٥]، وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ قال ابن عباس: يعنى شرب الحميم على الزقوم.

(١) فى ت، س: «تختبر».
(٢) زيادة من ت، س، أ.
(٣) فى ت، س: «أو ما هو».
(٤) زيادة من ت، س.
(٥) سنن الترمذى برقم (٢٥٨٥) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٠٧٠) وسنن ابن ماجه برقم (٤٣٢٥).

وقال فى رواية عنه: ﴿ شَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ : مزجا من حميم.

وقال غيره: يعنى يمزج لهم الحميم بصديد وغساق، مما يسيل من فروجهم وعيونهم.

وقال[1] ابن أبى حاتم، حدثنا أبى، حدثنا حَيْوَة بن شُرَيح الحضرمى، حدثنا بَقيَّة بن الوليد، عن صفوان بن عمرو، أخبرنى عبيد الله بن بسر[2] عن[3] أبى أمامة الباهلى، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ، أنه كان يقول: «يقرب ـ يعنى إلى أهل النار ـ ماء فيتكرهه، فإذا أدنى منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه فيه[4]. فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره»[5].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عمرو بن رافع، حدثنا يعقوب بن عبد الله، عن جعفر وهارون بن عنترة[6]، عن سعيد بن جبير قال: إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم، فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم [فيها][7]، فلو أن مارا يمر بهم يعرفهم لعرف وجوههم فيها، ثم يصب عليهم العطش، فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل ـ وهو الذى قد انتهى حره ـ فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التى قد سقطت عنها الجلود، ويصهر ما فى بطونهم، فيمشون تسيل أمعاؤهم وتتساقط جلودهم، ثم يضربون بمقامع من حديد، فيسقط كل عضو على حياله، يدعون بالثبور.

وقوله: ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أى: ثم إن مردهم بعد هذا الفصل لإلى نار تتأجج، وجحيم تتوقد، وسعير تتوهج، فتارة فى هذا وتارة فى هذا، كما قال تعالى: ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]. هكذا تلا قتادة هذه الآية عند هذه الآية، وهو تفسير حسن قوى.

وقال السدى فى قراءة عبد الله: « ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم» وكان عبد الله يقول: والذى نفسى بيده لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة فى الجنة، وأهل النار فى النار. ثم قرأ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ [الفرقان: ٢٤].

وروى الثورى، عن ميسرة، عن المنهال بن عمرو، عن أبى عبيدة، عن عبد الله قال: لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء ويقيل هؤلاء. قال سفيان: أراه، ثم قرأ: ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾، «ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم».

قلت: على هذا التفسير تكون «ثم» عاطفة لخبر على خبر.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ أى: إنما جازيناهم بذلك لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك، من غير دليل ولا برهان؛ ولهذا قال: ﴿ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ قال

(١) فى ت: «وروى». (٢) فى س، أ: «بشير». (٣) فى ت: «بإسناده».
(٤) فى ت، أ: «فروة رأسه فى فيه».
(٥) ورواه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٦٥) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٥١) من طريق عبد الله بن المبارك عن صفوان بن عمرو به.
(٦) فى ت: «وروى أيضا بإسناده». (٧) زيادة من ت.

مجاهد: شبيهة بالهرولة. وقال سعيد بن جبير: يسفهون.

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤) ﴾ .

يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهة أخرى. وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين، ينذرون بأس الله، ويحذرونهم سطوته ونقمته، ممن كفر به وعبد غيره، وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم. فأهلك المكذبين ودمرهم، ونجى المؤمنين ونصرهم وظفرهم؛ ولهذا قال: ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ . إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢) ﴾ .

لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة، شرع يبين ذلك مفصلا، فذكر نوحا، عليه السلام، وما لقى من قومه من التكذيب، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة، [فإنه][1] لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة، فدعى ربه أنى مغلوب فانتصر، فغضب الله لغضبه عليهم؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ أى: فلنعم المجيبون[2] له، ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾، وهو التكذيب والأذى، ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس يقول: لم تبق إلا ذرية نوح عليه السلام.

وقال سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة فى قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ قال: الناس كلهم من ذرية نوح [عليه السلام][3].

وقد روى الترمذى، وابن جرير، وابن أبى حاتم، من حديث سعيد بن بشير، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾، قال: «سام، وحام، ويافث».

وقال[4] الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب، عن سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة؛ أن نبى الله[5] ﷺ قال: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم».

ورواه الترمذى عن بشر بن معاذ العقَدىّ، عن يزيد بن زُرَيع، عن سعيد ـ وهو ابن أبى عروبة ـ

---

(١) زيادة من ت.
(٢) فى ت، س،أ: «المجيبون كنا له».
(٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى ت: «وروى».
(٥) فى ت: «النبى».

عن قتادة، به[١].

قال الحافظ أبو عمر بن عبد البرّ: وقد روى عن عمران[٢] بن حُصين، عن النبى ﷺ مثله[٣]. والمراد بالروم هاهنا: هم الروم الأوَل، وهم اليونان المنتسبون إلى رومى بن ليطى بن يونان بن يافث ابن نوح، عليه السلام. ثم روى من حديث إسماعيل بن عياش، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال: ولد نوح ثلاثة: سام وحام ويافث، وولد كل واحد من هذه الثلاثة ثلاثة، فولد سامُ العربَ وفارسَ والروم، وولد يافثُ التركَ والصقالبةَ ويأجوج ومأجوج، وولد حامُ القبطَ والسودان والبربر. وروى عن وهب بن منبه نحو هذا[٤]، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾، قال ابن عباس: يذكر بخير.

وقال مجاهد: يعنى لسان صدق للأنبياء كلهم.

وقال قتادة والسدى: أبقى الله عليه الثناء الحسن فى الآخرين. قال الضحاك: السلام والثناء الحسن.

وقوله تعالى: ﴿سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ مفسر لما أبقى عليه من الذكر الجميل والثناء الحسن أنه يسلم عليه فى جميع الطوائف والأمم.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: هكذا نجزى من أحسن من العباد فى طاعة الله، نجعل[٥] له لسانَ صدْق يذكر به بعده بحسب مرتبته فى ذلك.

ثم قال: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: المصدقين الموحدين الموقنين، ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ أى: أهلكناهم، فلم تبْق[٦] منهم عين تطرف، ولا ذكر لهم ولا عين ولا أثر، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة.

**﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧)﴾.**

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ﴾ يقول: من أهل دينه. وقال مجاهد: على منهاجه وسنته.

﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قال ابن عباس: يعنى: شهادة أن لا إله إلا الله.

---

(١) المسند (٥/ ٩) وسنن الترمذى برقم (٣٩٣١) وقال الترمذى: «هذا حديث حسن».

(٢) فى س: «عمر».

(٣) حديث عمران بن حصين: رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٨/ ١٤٦) من طريق سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن عمران بن حصين وسمرة بن جندب به.

(٤) فى ت: «مثله». (٥) فى ت، س: «يجعل». (٦) فى ت، أ: «يبق».

وقال [١]ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجّ، حدثنا أبو أسامة، عن عوْف: قلت لمحمد بن سيرين: ما القلب السليم؟ قال: يعلم [٢]أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور.

وقال الحسن: سليم من الشرك، وقال عروة: لا يكون لعانا.

وقوله: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾: أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد؛ ولهذا قال: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ . فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . قال قتادة: [يعنى][٣]: ما[٤]ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟!

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ(٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) ﴾ .

إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك؛ليقيم فى البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم، فإنه كان قد أزف خروجُهم إلى عيد لهم، فأحب أن يختلى بآلهتهم فيكسرها، فقال لهم كلاما هو حق فى نفس الأمر، فَهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه، ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ قال قتادة: والعرب تقول لمن تفكر: نظر فى النجوم: يعنى قتادة: أنه نظر فى[٥] السماء متفكرا فيما يلهيهم[٦] به، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أى: ضعيف.

فأما الحديث الذى رواه ابن جرير هاهنا: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا أبو أسامة، حدثنى هشام، عن محمد، عن أبى هريرة[٧]؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، غير ثلاث كذبات: ثنتين فى ذات الله، قوله: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾[الأنبياء: ٦٣]، وقوله فى سارة: هى أختى»[٨].فهو حديث مخرج فى الصحاح[٩] والسنن من طرق [١٠]، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقى الذى يذم فاعله، حاشا وكلا وإنما أطلق الكذب على هذا

---

(١) فى ت: «وروى». (٢) فى ت: «تعلم». (٣) زيادة من س، أ.
(٤) فى ت: «فما». (٥) فى ت، س: «إلى». (٦) فى س: «يكيدهم».
(٧) فى ت: « فأما الحديث الذى رواه البخارى وأهل السنن عن أبى هريرة»
(٨) تفسير الطبرى (٢٣/ ٤٥) ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٣٧٤) من طريق حماد بن أسامة به.
(٩) فى ت: «الصحيح».
(١٠) جاء من طريق أيوب عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة: رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٠٨٤) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٣٧١) من طريق جرير بن حازم به، ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٣٥٨) من طريق حماد بن زيد به. وجاء من طريق أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة: رواه الترمذى فى السنن برقم (٣١٦٦) من طريق محمد بن إسحاق به، ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٣٧٥) من طريق شعيب بن أبى حمزة به.

تجوزا، وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعي ديني، كما جاء في الحديث: «إن [في][١] المعاريض لمندوحة عن الكذب»[٢].

وقال[٣] ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن علي بن زيد بن جدعان، عن أبي نَضْرَة[٤]، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ في كلمات إبراهيم الثلاث التي قال: «ما منها كلمة إلا ما حمَل بها عن دين الله تعالى، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾، وقال للملك حين أراد المرأة: هي أختي»[٥].

قال سفيان في قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ يعني: طعين. وكانوا يفرون من المطعون، فأراد أن يخلو بآلهتهم. وكذا قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ.فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾، فقالوا له وهو في بيت آلهتهم: اخرج. فقال: إني مطعون، فتركوه مخافة الطاعون.

وقال قتادة، عن سعيد بن المسيب: رأى نجما طلع فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ كابد نبي الله عن دينه[٦] ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

وقال آخرون: فقال[٧]: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ بالنسبة إلى ما يستقبل، يعني: مرض الموت.

وقيل: أراد ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾أي: مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله عز وجل.

وقال الحسن البصري: خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم، فأرادوه على الخروج، فاضطجع على ظهره وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وجعل ينظر في السماء، فلما خرجوا أقبل إلى آلهتهم فكسرها. رواه ابن أبي حاتم.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ أي: إلى عيدهم، ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ أي: ذهب إليها بعد أن خرجوا في سرعة واختفاء، ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاما قربانا لتُبرّك لهم فيه.

قال السدي: دخل إبراهيم، عليه السلام، إلى بيت الآلهة، فإذا هم[٨] في بَهْوٍ عظيم، وإذا مستقبل باب البهو صنم عظيم، إلى جنبه [صنم آخر][٩] أصغر منه، بعضها إلى جنب بعض، كل صنم يليه أصغر منه، حتى بلغوا باب البهو، وإذا هم قد جعلوا طعاما وضعوه بين أيدي الآلهة، وقالوا: إذا كان حين نرجع وقد بَرَكَت الآلهةُ في طعامنا أكلنا، فلما نظر إبراهيم، عليه السلام، إلى ما بين أيديهم من الطعام قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ . مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾؟!

---

(١) زيادة من ت، س، أ.

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٩٩) من طريق داود بن الزبرقان عن سعيد عن قتادة عن زرارة عن عمران بن الحصين مرفوعًا.

ورواه أيضًا من طريق عبد الوهاب بن عطاء عن سعيد عن قتادة عن مطرف عن عمران بن الحصين موقوفًا وقال: «هذا هو الصحيح موقوفًا».

(٣) في ت: «وروى». (٤) في ت: «بإسناده».

(٥) ورواه الترمذي في السنن برقم (٣١٤٨) حدثنا ابن أبي عمر عن سفيان به فذكر حديث الشفاعة مطولاً، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح» وعلي بن زيد بن جدعان أجمع الأئمة على ضعفه.

(٦) في ت، أ: «ذنبه». (٧) في ت، س: «أراد». (٨) في أ: «هن».

(٩) زيادة من ت، أ.

وقوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾: قال الفراء: معناه مال عليهم ضربا باليمين.

وقال قتادة والجوهرى: فأقبل عليهم ضربا باليمين.

وإنما ضربهم باليمين لأنها أشد وأنكى؛ ولهذا تركهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون، كما تقدم فى سورة الأنبياء تفسير ذلك.

وقوله هاهنا: ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾: قال مجاهد وغير واحد: أى يسرعون.

وهذه القصة هاهنا مختصرة، وفى سورة الأنبياء مبسوطة، فإنهم لما رجعوا ما عرفوا من أول وهلة من فعل ذلك حتى كشفوا واستعلموا، فعرفوا أن إبراهيم، عليه السلام، هو الذى فعل ذلك. فلما جاؤوا ليعاتبوه أخذ فى تأنيبهم وعيبهم، فقال: ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ ؟! أى: أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم؟! ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ يحتمل أن تكون «ما» مصدرية، فيكون تقدير الكلام: والله خلقكم وعملكم. ويحتمل أن تكون بمعنى «الذى» تقديره: والله خلقكم والذى تعملونه. وكلا القولين متلازم، والأول أظهر؛ لما رواه البخارى فى كتاب «أفعال العباد»، عن على بن المدينى، عن مروان [(١)] بن معاوية، عن أبى مالك، عن ربْعىّ بن حراش، عن حذيفة مرفوعا قال: «إن الله يصنع كل صانع وصنعته»[(٢)]. وقرأ بعضهم: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر، فقالوا: ﴿ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ وكان من أمرهم ما تقدم بيانه فى سورة الأنبياء، ونجاه الله من النار وأظهره عليهم، وأعلى حجته ونصرها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ﴾.

**﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣) ﴾.**

يقول تعالى مخبرا عن خليله إبراهيم [عليه السلام][(٣)]: أنه بعد ما نصره الله على قومه وأيس من

(١) فى ت، س: «هارون».

(٢) خلق أفعال العباد (ص٧٣).

(٣) زيادة من ت، س.

إيمانهم بعد ما شاهدوا من الآيات العظيمة، هاجر من بين أظهرهم، وقال: ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ . رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني: أولادا مطيعين عوضاً من قومه وعشيرته الذين فارقهم. قال الله تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام، فإنه أولُ ولد بشر به إبراهيم، عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل فى نص كتابهم أن إسماعيل وُلِدَ ولإبراهيم، عليه السلام، ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمْر إبراهيم تسع وتسعون سنة. وعندهم أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده، وفى نسخة: بكْره، فأقحموا هاهنا كذبا وبهتانا «إسحاق»، ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا «إسحاق» لأنه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم، فزادوا ذلك وحَرّفوا وحيدك، بمعنى الذى ليس عندك غيره، فإن إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى جنب(١) مكة . وهذا تأويل وتحريف باطل، فإنه لا يقال: «وحيد» إلا لمن ليس له غيره، وأيضا فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ فى الابتلاء والاختبار.

وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وحكى ذلك عن طائفة من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة أيضا، وليس ذلك فى كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تُلقى إلا عن أحبار أهل الكتاب، وأخذ ذلك مسلما من غير حجة. وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾. ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، أى: يولد له فى حياتهما ولد يسمى يعقوب، فيكون من ذريته عقب ونسل. وقد قدمنا هناك أنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير؛ لأن الله [تعالى](٢) قد وعدهما بأنه سيعقب، ويكون له نسل، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيرا، وإسماعيل وصف هاهنا بالحلم؛ لأنه مناسب لهذا المقام.

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أى: كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشى معه. وقد كان إبراهيم، عليه السلام، يذهب فى كل وقت يتفقد ولده وأم ولده ببلاد «فاران» وينظر فى أمرهما، وقد ذكر أنه كان يركب على البراق سريعا إلى هناك، فالله أعلم.

وعن ابن عباس، ومجاهد، وعكْرِمة، وسعيد بن جُبَيْر، وعطاء الخراسانى، وزيد بن أسلم، وغيرهم: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ يعنى: شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعى والعمل، ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ قال عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وحى، ثم تلا هذه الآية: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾.

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين بن الجنيد، حدثنا أبو عبد الملك الكرندى، حدثنا

(١) فى ت: «حيث».

(٢) زيادة من ت.

سفيان بن عيينة، عن إسرائيل بن يونس، عن سِمَاك، عن عكرمة[١]، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رؤيا الأنبياء فى المنام وَحْى» ليس هو فى شىء من الكتب الستة من هذا الوجه[٢].

وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه من صغره على طاعة الله وطاعة أبيه.

﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أى: امض لما أمرك[٣] الله من ذبحى، ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ أى: سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل. وصدق، صلوات الله وسلامه عليه، فيما وعد؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا. وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥]. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أى: فلما تشهدا وذكرا الله تعالى[٤]: إبراهيم على الذبح والولد على شهادة الموت. وقيل: ﴿أَسْلَمَا﴾، [يعنى][٥]: استسلما وانقادا؛ إبراهيم امتثل أمْرَ الله، وإسماعيل طاعة الله وأبيه. قاله مجاهد، وعكرمة والسدى، وقتادة، وابن إسحاق، وغيرهم.

ومعنى ﴿تَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أى: صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه، ليكون أهون عليه، قال ابن عباس، ومجاهد[٦]، وسعيد بن جبير، والضحاك، وقتادة: ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾: أكبه على وجهه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا سُرَيْج[٧] ويونس قالا: حدثنا حماد بن سلمة، عن أبى عاصم الغَنَوِىّ، عن أبى الطفيل[٨]، عن ابن عباس أنه قال: لما أمر إبراهيم بالمناسك[٩] عَرَض له الشيطان عند السعى، فسابقه فسبقه إبراهيم، ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة، فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات، وثَمّ تَلَّه للجبين، وعلى إسماعيل قميص أبيض، فقال له: يا أبت، إنه ليس لى ثوب تكفننى فيه غيره، فاخلعه حتى تكفننى فيه. فعالجه ليخلعه، فنُودىَ من خلفه: ﴿أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾، فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين. قال ابن عباس: لقد رأيتنا نتبع ذلك الضرب من الكباش.

وذكر تمام الحديث فى «المناسك» بطوله[١٠]. ثم رواه أحمد بطوله عن يونس، عن حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير[١١]، عن ابن عباس، فذكر نحوه إلا أنه قال: «إسحاق»[١٢]. فعن ابن عباس فى تسمية الذبيح[١٣] روايتان، والأظهر عنه إسماعيل، لما سيأتى بيانه.

---

(١) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده».
(٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٢/٦) من وجه آخر عن سماك: فرواه من طريق الفريابى عن سفيان عن سماك بن حرب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به.
(٣) فى أ: «أنزل». (٤) فى ت، س، أ: «عز وجل». (٥) زيادة من ت، وفى أ: «بمعنى».
(٦) فى ت: «ومجاهد وغيرهما». (٧) فى أ: «شريح». (٨) فى ت: «بإسناده».
(٩) فى أ: «لما أمر الله إبراهيم عليه السلام بالمناسك».
(١٠) المسند (١/٢٩٧).
(١١) فى ت: «بسنده».
(١٢) المسند (١/٣٠٦).
(١٣) فى أ: «الذبح».

وقال محمد بن إسحاق، عن الحسن بن دينار، عن قتادة، عن جعفر بن إياس، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ قال: خرج عليه كبش من الجنة. قد رعى قبل ذلك أربعين خريفاً، فأرسل إبراهيم ابنه واتبع الكبش، فأخرجه إلى الجمرة الأولى، فرماه بسبع حصيات فأفلَتَه عندها، فجاء الجمرةَ الوسطى فأخرجه عندها، فرماه بسبع حصيات ثم أفلته[١] فأدركه عند الجمرة الكبرى، فرماه بسبع حصيات فأخرجه عندها. ثم أخذه، فأتى به المنحر من منى فذبحه، فوالذى نفسُ ابن عباس بيده لقد كان أول الإسلام، وإن رأس الكبش لمعلق بقرنيه فى ميزاب الكعبة قد حَشَّ[٢]، يعنى: يبس.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن الزهرى، أخبرنا القاسم قال: اجتمع أبو هريرة وكعب، فجعل أبو هريرة يحدث عن النبى ﷺ، وجعل كعب يحدث عن الكُتُب، فقال أبو هريرة: قال النبى ﷺ: «إن لكل نبى دعوة مستجابة، وإنى قد خَبَأتُ دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة». فقال له كعب: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: فداك أبى وأمى ـ أو: فداه أبى وأمى ـ أفلا أخبرك عن إبراهيم عليه السلام؟ إنه لما أُرِىَ ذَبْح ابنه إسحاق قال الشيطان: إن لم أفتن هؤلاء عند هذه لم أفتنهم أبدا. فخرج إبراهيم بابنه ليذبحه، فذهب الشيطان فدخل على سارة، فقال: أين ذهب إبراهيم بابنك؟ قالت: غدا به لبعض حاجته. قال: لم يغد لحاجة، وإنما ذهب به ليذبحه. قالت: ولَم يذبحه؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك. قالت: فقد أحسن أن يطيع ربه. فذهب الشيطان فى أثرهما فقال للغلام: أين يذهب بك أبوك؟ قال: لبعض حاجته. قال[٣]: إنه[٤] لا يذهب بك لحاجة، ولكنه يذهب بك ليذبحك. قال: ولم يذبحنى؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك. قال: فوالله لئن كان الله أمره بذلك ليفعلن. قال: فيئس منه فلحق[٥] بإبراهيم، فقال: أين غدوت بابنك؟ قال: لحاجة. قال: فإنك لم تغد به لحاجة، وإنما غدوت به لتذبحه قال: ولَم أذْبَحه؟ قال: تزعم أن ربك أمرك بذلك. قال: فوالله لئن كان الله أمرنى[٦] بذلك لأفعلن. قال: فتركه ويئس أن يطاع[٧].

وقد رواه ابن جرير عن يونس، عن ابن وَهْب، عن يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، أن عمرو ابن أبى سفيان بن أسيد[٨] بن جَارِيَةَ الثقفى أخبره، أن كعباً قال لأبى هريرة. . . فذكره بطوله، وقال فى آخره: وأوحى الله إلى إسحاق أنى أعطيتك دعوة أستجيب لك فيها. قال إسحاق: اللهم، إنى أدعو [٩]أن تستجيب لى: أيُّما عَبْد لقيك من الأولين والآخرين، لا يشرك بك شيئاً، فأدخله الجنة[١٠].

---

(١) فى س: «فأفلته». (٢) فى س: «وشح». (٣) فى أ: «فقال».
(٤) فى س: «فإنه». (٥) فى ت، س: «فيئس منه فتركه فلحق».
(٦) فى أ: «كان أمرنى ربى».
(٧) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٢٣).
(٨) فى أ: «أسد».
(٩) فى ت، س: «أدعوك».
(١٠) تفسير الطبرى (٢٣/ ٥٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن الوزير الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عطاء بن يسار(١)، عن أبي هريرة [رضي الله عنه](٢)قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خيرني بين أن يغفر لنصف أمتي، وبين أن أختبئ شفاعتي، فاختبأت شفاعتي، ورجوت أن تكفر الجَم(٣) لأمتي، ولولا الذي سبقني إليه العبد الصالح لتعجلت فيها دعوتي، إن الله لما فرج عن إسحاق كَرْبَ الذبح قيل له: يا إسحاق، سَلْ تُعْطَهْ. فقال: أما والذي نفسي بيده لأتعجلنها قبل نزغات الشيطان، اللهم من مات لا يشرك بك شيئا فاغفر له وأدخله الجنة».

هذا حديث غريب منكر(٤). وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف الحديث، وأخشى أن يكون في الحديث زيادة مُدْرَجَة، وهي قوله: «إن الله تعالى لما فرج عن إسحاق» إلى آخره، والله أعلم. فهذا إن كان محفوظاً فالأشبه أن السياق إنما هو عن «إسماعيل»، وإنما حرفوه بإسحاق؛ حَسَداً منهم كما تقدم، وإلا فالمناسك والذبائح إنما محلها بمنى من أرض مكة، حيث كان إسماعيل لا إسحاق [عليهما السلام](٥)، فإنه إنما كان ببلاد كنعان من أرض الشام.

وقوله تعالى: ﴿**وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ.قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا**﴾ أي: قد حصل المقصودُ من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح.

وذكر السدي وغيره أنه أمَرَّ السكين على رقبته فلم تقطع شيئاً، بل حال بينها وبينه صفيحة من نحاس، ونودي إبراهيم، عليه السلام، عند ذلك: ﴿**قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا**﴾.

وقوله: ﴿ **إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾ أي: هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجا ومخرجا، كقوله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا** ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقد استدل بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل، خلافا لطائفة من المعتزلة، والدلالة من هذه ظاهرة، لأن الله تعالى شرع لإبراهيم ذَبْحَ ولده، ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء، وإنما كان المقصود من شرعه أولا إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده وعزمه على ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ **إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ** ﴾ أي: الاختبار الواضح الجلي؛ حيث أمر بذبح ولده، فسارع إلى ذلك مستسلما لأمر الله، منقادا لطاعته؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى**﴾ [النجم: ٣٧].

---

(١) في ت: «وروى ابن أبي حاتم بإسناده». (٢) زيادة من ت.

(٣) في أ: «أن تكون أعم».

(٤) ورواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٣٦٠٣) وابن عدي في الكامل (٤/ ٢٧٢) من طريق الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم به، وذكره ابن أبي حاتم في العلل (٢/ ٢١٩) وقال: «سألت أبي، فقال: هذا حديث منكر».

(٥) زيادة من أ.

وقوله: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ قال سفيان الثورى، عن جابر الجُعْفى، عن أبى الطفيل، عن على، رضى الله عنه: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ قال: بكبش أبيض أعين أقرن، قد ربط بسمرة ـ قال أبو الطفيل وجدوه مربوطاً بسُمَرة فى ثَبِير[١].

وقال الثورى أيضا، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كبش قد رعى فى الجنة أربعين خريفاً.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا يوسف بن يعقوب الصفار، حدثنا داود العَطّار، عن ابن خثيم[٢]، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: الصخرة التى بمنى بأصل ثَبِير هى الصخرة التى ذبح عليها إبراهيم فداء ابنه، هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء، فذبحه، وهو الكبش الذى قَرّبه ابن آدم فتقبل منه، فكان مخزونا حتى فدى به إسحاق.

وروى أيضا عن سعيد بن جبير أنه قال: كان الكبش يرتع فى الجنة حتى تَشَقق عنه ثبير، وكان عليه عِهْن أحمر.

وعن الحسن البصرى: أنه كان اسم كبش إبراهيم: جرير.

وقال ابن جُرَيْج: قال عبيد بن عمير: ذبحه بالمقام. وقال مجاهد: ذبحه بمنى عند المنحر[٣]. وقال هُشَيْم، عن سيار، عن عكرمة؛ أنّ ابن عباس كان أفتى الذى جعل عليه نذراً أن ينحر نفسه، فأمره بمائة من الإبل. ثم قال بعد ذلك: لو كنت أفتيته بكبش لأجزأه أن يذبح كبشا، فإن الله تعالى قال فى كتابه: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

والصحيح الذى عليه الأكثرون أنه فُدى بكبش. وقال الثورى، عن رجل، عن أبى صالح، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ قال: وَعْلٌ.

وقال محمد بن إسحاق، عن عمرو بن عبيد، عن الحسن أنه كان يقول: ما فدى إسماعيل إلا بتيس من الأرْوَى، أهبط عليه من ثبير[٤].

وقد قال[٥] الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا منصور، عن خاله مُسافع[٦]، عن صفية بنت شيبة قالت: أخبرتنى امرأة من بنى سليم ـ وَلَدت عامة أهل دارنا ـ أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان ابن طلحة ـ وقال[٧] مرة: إنها سألت عثمان: لم دعاك النبى ﷺ؟ قال: قال: «إنى كنتُ رأيتُ قرنى الكبش، حين دخلت البيت، فنسيت أن آمرك أن تخمرهما، فَخَمَّرْهما، فإنه لا ينبغى أن يكون فى البيت شيء يشغل المصلى». قال سفيان: لم يزل قرنا الكبش معلقين[٨] فى البيت حتى احترق البيت، فاحترقا[٩].

---

(١) فى أ: «ثبين». (٢) فى أ: «خيثم». (٣) فى أ: «النحر».
(٤) فى أ: «ثبين». (٥) فى ت: «وروى». (٦) فى أ: «شافع».
(٧) فى أ: «وقالت». (٨) فى أ: «معلقة».
(٩) المسند (٤/٦٨).

وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل، عليه السلام، فإن قريشا توارثوا قرنى الكبش الذى فدى به إبراهيم [١]خلفا عن سلف وجيلا بعد جيل، إلى أن بعث الله رسوله ﷺ.

## فصل فى ذكر الآثار الواردة عن السلف فى أن الذبيح من هو؟:

ذكر من قال :هو إسحاق [عليه السلام][٢]:

قال حمزة الزيات، عن أبى ميسرة، رحمه الله، قال: قال يوسف، عليه السلام، للملك فى وجهه: ترغب أن تأكل معى، وأنا ـ والله ـ يوسف بن يعقوب نبى الله، ابن إسحاق ذبيح الله، ابن إبراهيم خليل الله.

وقال الثورى، عن أبى سنان، عن ابن أبى الهذيل: إن يوسف، عليه السلام، قال للملك كذلك أيضا.

وقال سفيان الثورى، عن زيد بن أسلم، عن عبد الله بن عبيد بن عمير، عن أبيه قال: «قال موسى: يارب، يقولون: يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فبم قالوا ذلك؟ قال: إن إبراهيم لم يعدل بى شىء قط إلا اختارنى عليه. وإن إسحاق جاد لى بالذبح، وهو بغير ذلك أجود. وإن يعقوب كلما زدته بلاء زادنى حسن ظن».

وقال شعبة، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص قال: افتخر رجل عند ابن مسعود فقال: أنا فلان بن فلان، ابن الأشياخ الكرام. فقال عبد الله: ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله، ابن إبراهيم خليل الله [صلوات الله وسلامه عليهم][٣].

وهذا صحيح إلى ابن مسعود، وكذا روى عكرمة، عن ابن عباس أنه إسحاق. وعن أبيه العباس، وعلى بن أبى طالب مثل ذلك. وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والشعبى، وعبيد بن عمير، وأبو ميسرة، وزيد بن أسلم، وعبد الله بن شقيق، والزهرى، والقاسم بن أبى بزة، ومكحول، وعثمان بن حاضر، والسدى، والحسن، وقتادة، وأبو الهذيل، وابن سابط. وهو اختيار ابن جرير. وتقدم روايته عن كعب الأحبار أنه إسحاق.

وهكذا روى ابن إسحاق عن عبد الله بن أبى بكر، عن الزهرى، عن أبى سفيان بن العلاء بن جارية[٤]، عن أبى هريرة، عن كعب الأحبار، أنه قال: هو إسحاق[٥].

وهذه الأقوال ـ والله أعلم ـ كلها مأخوذة عن كعب الأحبار، فإنه لما أسلم فى الدولة العمرية جعل يحدث عمر، رضى الله عنه، عن كتبه، فربما استمع له عمر، رضى الله عنه، فترخص الناس فى استماع ما عنده، ونقلوا عنه غثها وسمينها، وليس لهذه الأمة ـ والله أعلم ـ حاجة إلى حرف

---

(١) فى ت: «إسماعيل». (٢) زيادة من ت، س. (٣) زيادة من ت.
(٤) فى أ: «والعلاء بن حارث».
(٥) ورواه الطبرى فى تفسيره (٥٢/٢٣).

واحد مما عنده. وقد حكى البغوى هذا القول بأنه إسحاق عن عمر، وعلى، وابن مسعود، والعباس، ومن التابعين عن كعب الأحبار، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومسروق، وعكرمة، ومقاتل، وعطاء، والزهرى، والسدى ـ قال: وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس[١].

وقد ورد فى ذلك حديث ـ لو ثبت لقلنا به على الرأس والعين، ولكن لم يصح سنده ـ قال ابن جرير:

حدثنا أبو كريب، حدثنا زيد بن حباب، عن الحسن بن دينار، عن على بن زيد بن جدعان، عن الحسن، عن الأحنف بن قيس، عن العباس بن عبد المطلب، عن النبى ﷺ فى حديث ذكره قال: هو إسحاق[٢].

ففى إسناده ضعيفان[٣]، وهما الحسن بن دينار البصرى، متروك. وعلى بن زيد بن جدعان منكر الحدث. وقد رواه ابن أبى حاتم، عن أبيه، عن مسلم بن إبراهيم، عن حماد بن سلمة، عن على بن زيد بن جدعان، به مرفوعا [٤]. ثم قال: قد رواه مبارك بن فضالة، عن الحسن، عن الأحنف، عن العباس قوله، وهذا[٥] أشبه وأصح.

**[ذكر الآثار الواردة بأنه إسماعيل ـ عليه السلام ـ وهو الصحيح المقطوع به]**[٦]:

قد تقدمت الرواية عن ابن عباس أنه إسحاق. قال سعيد بن جبير، وعامر الشعبى، ويوسف بن مهران، ومجاهد، وعطاء، وغير واحد، عن ابن عباس، هو إسماعيل عليه السلام.

وقال ابن جرير: حدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى عمرو بن قيس، عن عطاء بن أبى رباح[٧]، عن ابن عباس أنه قال: المفدى إسماعيل، عليه السلام، وزعمت اليهود أنه إسحاق، وكذبت اليهود[٨].

وقال إسرائيل، عن ثور، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: الذبيح إسماعيل.

وقال ابن أبى نجيح، عن مجاهد: هو إسماعيل. وكذا قال يوسف بن مهران.

وقال الشعبى: هو إسماعيل، عليه السلام، وقد رأيت قرنى الكبش فى الكعبة.

وقال[٩] محمد بن إسحاق، عن الحسن بن دينار، وعمرو بن عبيد، عن الحسن البصرى: أنه كان لا يشك فى ذلك: أن الذى أمر بذبحه من ابنى إبراهيم إسماعيل.

قال ابن إسحاق: وسمعت محمد بن كعب القرظى وهو يقول: إن الذى أمر الله إبراهيم بذبحه

---

(١) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ٤٦).
(٢) تفسير الطبرى (٢٣/ ٥٢).
(٣) فى ت: «لأن فى سنده ضعيفين».
(٤) فى ت: « مرفوعا قال: هو إسحاق».
(٥) فى ت: «وهو».
(٦) زيادة من ت، س.
(٧) فى ت: «وروى ابن جرير بإسناده».
(٨) تفسير الطبرى (٢٣/ ٥٢).
(٩) فى ت: «وروى».

من ابنيه إسماعيل. وإنا لنجد ذلك فى كتاب الله، وذلك أن الله حين فرغ من قصة المذبوح من ابنى إبراهيم قال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾. يقول الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾، يقول: بابن وابن ابن، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من [الله][1] الموعود بما وعده[2]، وما الذى أمر بذبحه إلا إسماعيل.

وقال ابن إسحاق، عن بريدة بن سفيان بن فروة[3] الأسلمى، عن محمد بن كعب القرظى أنه حدثهم؛ أنه[4] ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام، فقال له عمر: إن هذا لشىء ما كنت أنظر فيه، وإنى لأراه كما قلت. ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام، كان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم، فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك ـ قال محمد ابن كعب: وأنا عند عمر بن عبد العزيز ـ فقال له عمر: أىُّ ابنى إبراهيم أُمِر بذبحه؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين، وإن يهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب، على أن يكون أباكم الذى كان من أمر الله فيه، والفضل الذى ذكره الله منه لصبره لما أمر به، فهم يجحدون ذلك، ويزعمون أنه إسحاق، بكون[5] إسحاق أبوهم، والله أعلم أيهما كان، وكل قد كان طاهرا طيبا مطيعا لله عز وجل[6].

وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: سألت أبى عن الذبيح، من هو؟ إسماعيل أو إسحاق؟ فقال: إسماعيل. ذكره فى كتاب الزهد.

وقال ابن أبى حاتم: وسمعت أبى يقول: الصحيح أن الذبيح إسماعيل، عليه السلام. قال: وروى عن على، وابن عمر، وأبى هريرة، وأبى الطفيل، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، والشعبى، ومحمد بن كعب القرظى، وأبى جعفر محمد بن على، وأبى صالح أنهم قالوا: الذبيح إسماعيل.

وقال البغوى فى تفسيره: وإليه ذهب عبد الله بن عمر، وسعيد بن المسيب، والسدى، والحسن البصرى، ومجاهد، والربيع بن أنس، ومحمد بن كعب القرظى، والكلبى، وهو رواية عن ابن عباس، وحكاه أيضا عن أبى عمرو بن العلاء[7].

وقد روى ابن جرير فى ذلك حديثا غريبا فقال: حدثنى محمد بن عمار الرازى، حدثنا إسماعيل ابن عبيد بن أبى كريمة، حدثنا عمر بن عبد الرحيم الخطابى، عن عبيد الله بن محمد العتبى ـ من ولد عتبة بن أبى سفيان ـ عن أبيه: حدثنى عبد الله بن سعيد، عن الصنابحى قال: كنا عند معاوية بن

(١) زيادة من أ. (٢) فى أ: «ما أوعده». (٣) فى أ: «بردة».
(٤) فى ت: «به». (٥) فى أ: «لأن».
(٦) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٣/ ٥٤).
(٧) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ٤٧).

أبى سفيان، فذكروا الذبيح: إسماعيل أو إسحاق؟ فقال: على الخبير[١] سقطتم، كنا عند رسول الله ﷺ، فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، عُدْ على مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين. فضحك رسول الله ﷺ، فقيل له: يا أمير المؤمنين، وما الذبيحان؟ فقال: إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل الله أمرها عليه، ليذبحن أحد ولده، قال: فخرج السهم على عبد الله، فمنعه أخواله وقالوا: افد ابنك بمائة من الإبل. ففداه بمائة من الإبل، وإسماعيل الثانى[٢].

وهذا حديث غريب جدا. وقد رواه الأموى فى مغازيه: حدثنا بعض أصحابنا، أخبرنا إسماعيل ابن عبيد بن أبى كريمة، حدثنا عمر بن عبد الرحمن القرشى، حدثنا عبيد الله[٣] بن محمد العتبى ـ من ولد عتبة بن أبى سفيان ـ حدثنا عبد الله بن سعيد، حدثنا الصنابحى قال: حضرنا مجلس معاوية، فتذاكر القوم إسماعيل وإسحاق، وذكره. كذا كتبته من نسخة مغلوطة[٤].

وإنما عول ابن جرير فى اختياره أن الذبيح إسحاق على قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾، فجعل هذه البشارة هى البشارة بإسحاق فى قوله: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]. وأجاب عن البشارة بيعقوب بأنه قد كان بلغ معه السعى، أى العمل. ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضا. قال: وأما القرنان اللذان كانا معلقين بالكعبة فمن الجائز أنهما نقلا من بلاد الشام. قال: وقد تقدم أن من الناس من ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك. هذا ما اعتمد عليه فى تفسيره، وليس ما ذهب إليه بمذهب ولا لازم، بل هو بعيد جدا، والذى استدل به محمد بن كعب القرظى على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى، والله أعلم[٥].

وقوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾، لما تقدمت البشارة بالذبيح ـ وهو إسماعيل ـ عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق، وقد ذكرت فى سورتى[٦] «هود» و «الحجر»[٧].

وقوله: ﴿نَبِيًّا﴾ حال مقدرة، أى: سيصير منه نبى من الصالحين.

وقال ابن جرير: حدثنى يعقوب، حدثنا ابن علية، عن داود، عن عكرمة قال: قال ابن عباس، رضى الله عنهما: الذبيح إسحاق. قال: وقوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: بشر بنبوته. قال: وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣] قال: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد: وهب له نبوته.

وحدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعت داود يحدث، عن عكرمة، عن ابن عباس فى هذه الآية: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: إنما بشر به نبيا حين فداه الله من الذبح، ولم تكن البشارة بالنبوة عند مولده[٨].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان الثورى، عن داود، عن عكرمة،

---

(١) فى س: «الخبر».
(٢) تفسير الطبرى (٢٣/ ٥٤).
(٣) فى أ: «عبد الله».
(٤) فى أ: «من نسخة كذا والله أعلم».
(٥) وقد حرر هذه المسألة الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فى الفتاوى. انظر المواضع فى: الفهرس العام (٣٦/ ٣٢).
(٦) فى ت: «سورة».
(٧) سورة هود، الآية: ٧١، وسورة الحجر، الآية: ٥٣ .
(٨) تفسير الطبرى (٢٣/ ٥٧).

عن ابن عباس: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: بشر به حين ولد، وحين نبئ.

وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في قوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: بعد ما كان من أمره، لما جاد لله بنفسه، وقال الله: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ .

وقوله: ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾، كقوله تعالى: ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود: ٤٨].

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) ﴾ .

يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمده فى حقهم من الإساءة العظيمة، من قتل الأبناء واستحياء النساء، واستعمالهم فى أخس الأشياء. ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم، وأقر أعينهم منهم، فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جمعوه طول حياتهم. ثم أنزل الله على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلى المستبين، وهو التوراة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً﴾ [الأنبياء: ٤٨]، وقال هاهنا: ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ. وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أى: فى[(١)] الأقوال والأفعال، ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ أى: أبقينا لها[(٢)] من بعدهما ذكرا جميلا وثناء حسنا، ثم فسره بقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ . إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ(١٣٢) ﴾ .

قال[(٣)] قتادة، ومحمد بن إسحاق، يقال: إلياس هو إدريس.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو نعيم، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عبيدة ابن ربيعة[(٤)]، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، قال: إلياس هو إدريس. وكذا قال الضحاك. .

---

(١) فى أ: «من» .
(٢) فى ت، س: «لهما».
(٣) فى ت: «وروى».
(٤) فى ت: «وقال ابن أبى حاتم بإسناده».

وقال وَهْب بن منبِّه: هو إلياس بن ياسين[١] بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران، بعثه الله فى بنى إسرائيل بعد حزقيل، عليهما السلام، وكانوا قد عبدوا صنما يقال له: «بعل»، فدعاهم إلى الله، ونهاهم عن عبادة ما سواه. وكان قد آمن به ملكهم ثم ارتد[٢]، واستمروا على ضلالتهم، ولم يؤمن به منهم أحد. فدعا الله عليهم، فحبس عنهم القطر ثلاث سنين، ثم سألوه أن يكشف ذلك عنهم، ووعدوه[٣] الإيمان به إن هم أصابهم المطر. فدعا الله لهم، فجاءهم الغيث فاستمروا على أخبث ما كانوا عليه من الكفر، فسأل الله أن يقبضه إليه. وكان قد نشأ على يديه اليسع بن أخطوب، عليه السلام، فأمر إلياس أن يذهب إلى مكان كذا وكذا، فمهما جاءه فليركبه ولا يهبه، فجاءته فرس من نار فركب[٤]، وألبسه الله النور وكساه الريش، وكان يطير مع الملائكة ملكا إنسيا سماويا أرضيا، هكذا حكاه وهب عن أهل الكتاب، والله أعلم بصحته.

**﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾** أى: ألا تخافون الله فى عبادتكم غيره؟ **﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾** قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدى: **﴿بَعْلاً﴾** يعنى: ربا.

قال قتادة وعكرمة: وهى لغة أهل اليمن. وفى رواية عن قتادة قال: هى لغة أزد شنوءة.

وقال ابن إسحاق: أخبرنى بعض أهل العلم أنهم كانوا يعبدون امرأة اسمها: «بعل».

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه: هو اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها: «بعلبك»، غربى دمشق.

وقال الضحاك: هو صنم كانوا يعبدونه.

وقوله: **﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً﴾** أى: أتعبدون صنما؟ **﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ. اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾** أى: هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

قال الله تعالى: **﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾** أى للعذاب يوم الحساب، **﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾** أى: الموحدين منهم. وهذا استثناء منقطع من مثبت.

وقوله: **﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾** أى: ثناء جميلا، **﴿سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾** كما يقال فى إسماعيل: إسماعين. وهى لغة بنى أسد. وأنشد بعض بنى نمير فى ضَبٍّ صَادَه.

يَقُولُ رَبّ السوق لما جينا هذا وربِّ البيت إسْرَائينا[٥]

ويقال: ميكال، وميكائيل، وميكائين، وإبراهيم وإبراهام، وإسرائيل وإسرائين ، وطور سيناء، وطور سينين. وهو موضع واحد، وكل هذا سائغ[٦].

وقرأ آخرون: «سلام على إدراسين»، وهى قراءة عبد الله بن مسعود. وآخرون: **«سَلامٌ عَلَىٰ آلْ يَاسِينَ»**، يعنى: آل محمد ﷺ.

وقوله: **﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾** قد تقدم تفسيره[٧].

---

(١) فى ت: «شبى» وفى س: «تبى».
(٢) فى ت: «ارتدوا».
(٣) فى ت، س: «فوعدوه».
(٤) فى ت، س: «فركبه».
(٥) البيت فى تفسير الطبرى (٢٣/ ٥٧).
(٦) فى أ: «شائع».
(٧) فى ت: «كما تقدم من تفسيرها».

**﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ .**

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط، عليه السلام، أنه بعثه إلى قومه فكذبوه، فنجاه الله من بين أظهرهم هو وأهله، إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها، فإن الله تعالى أهلكهم بأنواع من العقوبات، وجعل محلتهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح، وجعلها بسبيل مقيم يمر بها المسافرون ليلا ونهارا؛ ولهذا قال: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾: أى: أفلا تعتبرون بهم، كيف دمر الله عليهم، وتعلمون أن للكافرين أمثالها؟

**﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨) ﴾ .**

قد تقدمت قصة يونس، عليه السلام، فى سورة الأنبياء. وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما ينبغى لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متَّى ونَسَبَه إلى أمه»[1]، وفى رواية قيل: «إلى أبيه».

وقوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ قال ابن عباس: هو الموقر، أى: المملوء بالأمتعة.

﴿فَسَاهَمَ﴾ أى: قارع، ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أى: المغلوبين. وذلك أن السفينة تَلَعَّبَت[2] بها الأمواج من كل جانب، وأشرفوا على الغرق، فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقى فى البحر، لتخف بهم السفينة، فوقعت القرعة على نبى الله يونس، عليه الصلاة والسلام[3]، ثلاث مرات، وهم يضنون[4] به أن يلقى من بينهم، فتجرد من ثيابه ليلقى نفسه وهم يأبون عليه ذلك. وأمر الله تعالى حوتا من البحر الأخضر أن يشق البحار، وأن يلتقم يونس، عليه السلام، فلا يَهْشِمُ له لحما، ولا يكسر له عظما[5] . فجاء ذلك الحوت وألقى يونس، عليه السلام، نفسه، فالتقمه الحوت وذهب به فطاف به البحار كلها. ولما استقر يونس فى بطن الحوت، حسب أنه قد مات، ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حى، فقام يصلى فى بطن الحوت، وكان من جملة دعائه: «يا رب، اتخذتُ لك مسجدا فى موضع لم يبلغه أحد من الناس» واختلفوا فى مقدار ما لبث فى بطن الحوت، فقيل: ثلاثة أيام، قاله قتادة. وقيل: جُمُعَة[6]، قاله جعفر الصادق. وقيل: أربعين يوما، قاله أبو مالك.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٣٣٩٥) وصحيح مسلم برقم (٢٣٧٧).
(٢) فى أ: «تلعب».
(٣) فى ت: «عليه السلام».
(٤) فى ت: «يظنون».
(٥) فى س: «فلا تهشم له لحما ولا تكسر له عظما».
(٦) فى ت، س، أ: «سبعة».

وقال مُجَالد[١]، عن الشعبى: التقمه ضحى، وقذفه[٢] عشية.

والله أعلم بمقدار ذلك. وفى شعر أمية بن أبى الصلت:

وَأَنْتَ بِفَضلٍ مِنْكَ نَجَّيتَ يُونُساً وَقَدْ بَاتَ فِى أَضْعَافِ حُوتٍ لَيَالِيا[٣]

وقوله: ﴿ **فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾، قيل: لولا ما تقدم له من العمل فى الرخاء. قاله الضحاك بن قيس، وأبو العالية، ووهب بن مُنَبِّه، وقتادة، وغير واحد. واختاره ابن جرير. وقد ورد فى الحديث الذى سنورده ما يدل على ذلك إن صح الخبر. وفى حديث عن ابن عباس: «تَعَرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة»[٤].

وقال ابن عباس، وسعيد بن جُبَيْر، والضحاك، وعطاء بن السائب، والسدى، والحسن، وقتادة: ﴿ **فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ** ﴾، يعنى: المصلين.

وصرح بعضهم بأنه كان من المصلين قبل ذلك. وقال بعضهم: كان من المسبحين فى جوف أبويه.

وقيل: المراد: ﴿ **فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ** ﴾، هو قوله: ﴿ **فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨]، قاله سعيد بن جبير وغيره.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخى ابن وهب، حدثنا عمى، حدثنا أبو صخر[٥]: أن يزيد الرّقاشى حَدّثه: أنه سمع أنس بن مالك ـ ولا أعلم إلا أنّ أنسا يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ ـ «أن يونس النبى ﷺ[٦] حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات، وهو فى بطن الحوت، فقال: اللهم، لا إله إلا أنت سبحانك، إنى كنت من الظالمين. فأقبلت الدعوة تحف بالعرش، قالت الملائكة: يا رب، هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيدة غريبة؟ فقال: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: يا رب، ومن هو؟ قال: عبدى يونس. قالوا: عبدك يونس الذى لم يزل يرفع له عمل متقبل، ودعوة مستجابة؟ قالوا: يا رب، أو لا ترحم ما كان يصنع فى الرخاء فتنجِّيه من البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحوت فطرحه بالعَراء».

ورواه ابن جرير، عن يونس، عن ابن وهب، به[٧][٨]. زاد ابن أبى حاتم: قال أبو صخر حُمَيد ابن زياد: فأخبرنى ابن قُسَيط وأنا أحدثه هذا الحديث: أنه سمع أبا هريرة يقول: طرح بالعراء، وأنبت الله عليه اليقطينة. قلنا: يا أبا هريرة، وما اليقطينة، قال: شجرة الدُّباء. قال أبو هريرة: وَهَيَّأ الله له أرْوِيَّة وحشية تأكل من خشاش الأرض ـ أو قال: هشاش الأرض ـ قال: فَتَتَفشّح[٩] عليه فَتَرْوِيه من لبنها كل عَشيَّة وبُكرةٍ حتى نَبَت.

---

(١) فى ت: «مجاهد». (٢) فى أ: «ونقله».

(٣) البيت فى السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٢٨).

(٤) سيأتى تخريجه عند الآية: ٣٨ من سورة الزمر.

(٥) فى ت: «بإسناده». (٦) فى ت، س: «عليه السلام». (٧) بياض فى س.

(٨) تفسير الطبرى (٢٣/ ٦٤).

(٩) فى ت ، س: «فتنفشخ» .

وقال أمية بن أبى الصلت فى ذلك بيتا من شعره:

فَأنْبتَ يَقْطيناً عَلَيه برَحْمَةٍ   مِن الله، لَولا اللهُ ألفى ضَاحيا[١]

وقد تقدم حديث أبى هريرة مسنداً مرفوعا فى تفسير سورة «الأنبياء»[٢].

ولهذا قال تعالى: ﴿ فَنَبَذْنَاهُ ﴾ أى: ألقيناه ﴿ بِالْعَرَاءِ ﴾ قال ابن عباس، وغيره: وهى الأرض التى ليس بها نبت ولا بناء. قيل: على جانب دجلة. وقيل: بأرض اليمن. فالله أعلم.

﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أى: ضعيف البدن. قال ابن مسعود، رضى الله عنه: كهيئة الفرخ ليس عليه ريش. وقال السدى: كهيئة الصبى[٣]: حين يولد، وهو المنفوس. وقاله ابن عباس، وابن زيد أيضا.

﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾: قال ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ووهب بن منبه، وهلال بن يَسَاف، وعبد الله بن طاوس، والسدى، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخراسانى[٤]، وغير واحد قالوا كلهم: اليقطين هو القرع.

وقال هُشَيم، عن القاسم بن أبى أيوب، عن سعيد بن جبُير: كل شجرة لا ساق لها فهى من اليقطين.

وفى رواية عنه: كل شجرة تَهْلك من[٥] عَامِها فهى من اليقطين.

وذكر بعضهم فى القرع فوائد، منها: سرعة نباته، وتظليلُ ورقه لكبره، ونعومته، وأنه لا يقربها الذباب، وجودة أغذية ثمره، وأنه يؤكل نيئا ومطبوخا بلبه وقشره أيضا. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يُحِبّ الدُّبَّاء، ويتتبعه[٦] من حوَاشى الصَّحْفة[٧][٨].

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾: روى شَهْر بن حَوْشَب، عن ابن عباس أنه قال: إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذه الحوت. رواه ابن جرير: حدثنى الحارث قال: حدثنا الحسن قال: حدثنا أبو[٩] هلال، عن شهر، به.

وقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت.

قلت: ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولا، أمر بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت، فصدقوه كلهم وآمنوا به. وحكى البغوى أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت، كانوا مائة ألف أو يزيدون.

وقوله: ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال ابن عباس ـ فى رواية عنه ـ: بل يزيدون، وكانوا مائة وثلاثين ألفا.

---

(١) البيت فى السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٢٨).
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.
(٣) فى أ: «الصبى يعنى».
(٤) فى ت: «وابن عباس وغيرهما من التابعين».
(٥) فى ت: «فى».
(٦) فى أ: «ويتبعه».
(٧) فى ت: «القصعة».
(٨) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٤٣٩) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه.
(٩) فى أ: «ابن».

وعنه: مائة ألف وبضعةً وثلاثين ألفا. وعنه: مائة ألف وبضعةً وأربعين ألفا.

وقال سعيد بن جبير: يزيدون سبعين ألفا.

وقال مكحول: كانوا مائة ألف وعشرة آلاف. رواه ابن أبى حاتم.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الرحيم البَرْقى[(١)]، حدثنا عمرو بن أبى سلمة قال: سمعت زُهَيراً عمن سمع أبا العالية قال: حدثنى أبى بن كعب: أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾، قال: «يزيدون عشرين ألفا»[(٢)].

ورواه الترمذى عن على بن حُجْر، عن الوليد بن مسلم، عن زُهَير، عن رجل، عن أبى العالية، عن أبى بن كعب، به، وقال: غريب. ورواه ابن أبى حاتم من حديث زهير، به[(٣)].

قال ابن جرير: وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول فى ذلك: معناه إلى المائة الألف[(٤)]، أو كانوا يزيدون عندكم، يقول: كذلك كانوا عندكم.

وهكذا سلك ابن جرير هاهنا ما سلكه عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، وقوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩] أن المراد ليس أنقص من ذلك، بل أزيد.

وقوله: ﴿فَآمَنُوا﴾ أى: فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس، عليه السلام، جميعهم. ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أى: إلى وقت آجالهم، كقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

**﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠) ﴾.**

يقول تعالى منكراً على هؤلاء المشركين فى جعلهم لله البنات، سبحانه، ولهم ما يشتهون، أى: من الذكور، أى: يودّون لأنفسهم الجيد. ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨] أى: يسوؤه ذلك، ولا يختار لنفسه إلا البنين. يقول تعالى: فكيف نسبوا إلى الله

(١) فى أ: «الرقى».
(٢) تفسير الطبرى (٢٣/ ٦٧).
(٣) سنن الترمذى برقم (٣٢٢٩).
(٤) فى أ: «ألف».

[تعالى][١] القسم الذى لا يختارونه لأنفسهم؟ ولهذا قال: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أى: سلهم على سبيل الإنكار عليهم: ﴿ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ كقوله: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ. تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢].

وقوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ أى: كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم؟ كقوله: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩] أى: يسألون عن ذلك يوم القيامة.

وقوله: ﴿أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ أى: من كذبهم ﴿لَيَقُولُونَ. وَلَدَ اللَّهُ﴾أى: صدر منه الولد ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، فذكر الله عنهم فى الملائكة ثلاثة أقوال فى غاية الكفر والكذب، فأولا جعلوهم بنات الله، فجعلوا لله ولداً. وجعلوا ذلك الولد أنثى، ثم عبدوهم من دون الله. وكل منها كاف فى التخليد فى نار جهنم.

ثم قال منكرا عليهم: ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ أى: أىّ شىء يحمله عن[٢] أن يختار البنات دون البنين؟ كقوله: ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا ﴾ [الإسراء: ٤٠]؛ ولهذا قال: ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أى: ما لكم عقول تتدبرون بها ما تقولون؟ ﴿ أَفَلا تَذَكَّرُونَ .أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ أى: حجة على ما تقولونه، ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: هاتوا برهانا على ذلك يكون مستنداً إلى كتاب مُنَزّل من السماء عن الله: أنه اتخذ ما تقولونه، فإن ما تقولونه لا يمكن استناده[٣] إلى عقل، بل لا يُجَوِّزُه العقل بالكلية.

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ قال مجاهد: قال المشركون: الملائكةُ بناتُ الله. فسأل أبو بكر، رضى الله عنه: فمن أمهاتهن؟ قالوا: بنات سَرَوات الجن. وكذا قال قتادة، وابن زيد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾ أى: الذين نسبوا إليهم ذلك: ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أى: إن الذين قالوا ذلك لمحضرون فى العذاب يوم الحساب لكذبهم فى ذلك وافترائهم، وقولهم الباطل بلا علم.

وقال العوفى: عن[٤] ابن عباس فى قوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ قال: زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى هو وإبليس أخوان . حكاه ابن جرير[٥].

وقوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أى: تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد، وعما يصفه به الظالمون الملحدون علوا كبيرا.

وقوله: ﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ استثناء منقطع، وهو من مثبت، إلا أن يكون الضمير فى قوله: ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عائد إلى جميع الناس ثم استثنى منهم المخلصين، وهم المتبعون للحق المنزل على كل نبى ومرسل. وجعل ابن جرير هذا الاستثناء من قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ.إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾، وفى هذا الذى قاله نظر.

---

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) فى أ: «على».
(٣) فى س: «إسناده».
(٤) فى ت: «وعن».
(٥) تفسير الطبرى (٦٩/٢٣).

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) ﴾.

يقول تعالى مخاطبا للمشركين: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ . مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ . إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ أى: ما ينقاد[1] لمقالكم وما[2] أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة إلا من هو أضل منكم ممن ذُرى للنار. ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. فهذا الضرب من الناس هو الذى ينقاد لدين الشرك والكفر والضلالة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ . يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٨، ٩] أى: إنما يضل به من هو مأفوك ومبطل.

ثم قال تعالى مُنَزّها للملائكة مما نَسَبوا[3] إليهم من الكفر بهم والكذب عليهم أنهم بنات الله: ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ أى: له موضع مخصوص فى السماوات ومقامات العبادة[4] لا يتجاوزه ولا يتعداه[5].

وقال ابن عساكر فى ترجمته لمحمد بن خالد، بسنده إلى عبد الرحمن بن العلاء بن سعد[6]، عن أبيه ـ وكان ممن بايع يوم الفتح ـ أن رسول الله ﷺ قال يوما لجلسائه: «أطَّت السماء وحُقّ لها أن تَئطّ، ليس فيها موضع قَدَم إلا عليه ملك راكع أو ساجد». ثم قرأ: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾[7].

وقال الضحاك فى تفسيره: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ قال: كان مسروق يَرْوى عن عائشة، رضى الله عنها، أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم». فذلك قوله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾[8].

وقال الأعمش، عن أبى إسحاق، عن مسروق: عن[9] ابن مسعود، رضى الله عنه، قال: إن فى السموات لسماء ما فيها موضع شبر إلا عليه جبهة ملك أو قدماه، ثم قرأ عبد الله: ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ . وكذا قال سعيد بن جبير.

وقال قتادة: كانوا يُصَلُّون الرجال والنساء جميعاً، حتى نزلت: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾، فتقدم الرجال وتأخر النساء.

---

(١) فى أ: «منقاد». (٢) فى س: «ولما». (٣) فى أ: «نسبوهم».
(٤) فى ت، س، أ: «العبادات». (٥) فى س: «لا نتجاوزه ولا نتعداه». (٦) فى أ: «سعيد».
(٧) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٥/ ٢٧٧ «القسم المخطوط»).
(٨) ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (٥٠٨) والمروزى فى تعظيم قدر الصلاة برقم (٢٥٣) من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك به.
(٩) فى ت: «وعن».

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ أى: نقف صفوفاً فى الطاعة، كما تقدم عند قوله: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾. قال ابن جُرَيْج، عن الوليد بن عبد الله بن أبى مغيث قال: كانوا لا يصفون فى الصلاة حتى نزلت: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾، فصفوا.

وقال أبو نَضْرَة: كان عمر إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه، ثم قال: أقيموا صفوفكم، استووا قياماً، يريد الله بكم هدى الملائكة، ثم يقول: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾، تأخر يا فلان، تقدم يا فلان، ثم يتقدم فيكبر، رضى الله عنه. رواه ابن أبى حاتم، وابن جرير.

وفى صحيح مسلم عن حذيفة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلنا على الناس بثلاث: جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض مسجداً، وتربتها طهورا» الحديث[(١)].

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ أى: نصطف فنسبح الرب ونمجده ونقدسه وننزهه عن النقائص، فنحن عبيد له، فقراء إليه، خاضعون لديه.

وقال ابن عباس، ومجاهد: ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ : الملائكة، ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾: الملائكة، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾: الملائكة يسبحون الله عز وجل.

وقال قتادة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ ، يعنى: المصلون، يثبتون[(٢)] بمكانهم من العبادة، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ . وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩].

وقوله: ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ . لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الأَوَّلِينَ . لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أى: قد كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله، وما كان من أمر القرون الأولى، ويأتيهم بكتاب الله، كما قال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢]، وقال: ﴿ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، وعيد أكيد وتهديد شديد، على كفرهم بربهم ـ سبحانه وتعالى ـ وتكذيبهم ـ رسوله ﷺ[(٣)].

---

(١) سبق تخريجه فى أول السورة.

(٢) فى ت: «ينبثون».

(٣) فى أ: « ﷺ تسليمًا».

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) ﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ أى: تقدم فى الكتاب الأول أن العاقبة للرسل وأتباعهم فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة. كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم ممن كذبهم وخالفهم، وكيف أهلك الله الكافرين، ونجى عباده المؤمنين: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أى: تكون لهم العاقبة. وقوله جل وعلا: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أى: اصبر على أذاهم لك، وانتظر إلى وقت مؤجل، فإنا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر؛ ولهذا قال بعضهم: غيَّى[(١)] ذلك إلى يوم بدر. وما بعدها أيضاً فى معناها.

وقوله: ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ أى: انظرهم وارتقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال على مخالفتك[(٢)] وتكذيبك؛ ولهذا قال على وجه التهديد والوعيد: ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾. ثم قال عز وجل: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أى: هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم[(٣)]، فإن الله يغضب عليهم بذلك، ويعجل لهم العقوبة، ومع هذا أيضا كانوا من كفرهم وعنادهم يستعجلون العذاب والعقوبة، قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ أى: فإذا نزل العذاب بمحلتهم، فبئس ذلك اليوم يومهم، بإهلاكهم ودمارهم[(٤)].

قال السدى: ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ يعنى: بدارهم، ﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ أى: فبئس ما يصبحون، أى: بئس الصباح صباحهم؛ ولهذا ثبت فى الصحيحين من حديث إسماعيل بن عُلَيَّةَ، عن عبد العزيز بن صُهَيْب، عن أنس، رضى الله عنه، قال: صَبَّح رسول الله ﷺ خيبر، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش، رجعوا [وهم][(٥)] يقولون: محمد والله، محمد والخميس. فقال النبى ﷺ: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»[(٦)].

ورواه البخارى من حديث مالك، عن حُميد، عن أنس[(٧)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا رَوح، حدثنا سعيد بن أبى عَرُوبَة، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن أبى طلحة قال: لما صَبَّح رسول الله ﷺ خيبر، وقد أخذوا مساحيهم وغَدَوا إلى حروثهم

(١) فى أ: «عنا». (٢) فى ت، أ: «بمخالفتك». (٣) فى أ: «لتكذيبك وكفرهم بك».
(٤) فى أ: «وبإدمارهم». (٥) زيادة من أ.
(٦) صحيح البخارى برقم (٣٧١) وصحيح مسلم برقم (١٣٦٥).
(٧) صحيح البخارى برقم (٤١٩٧).

وأرضيهم، فلما رأوا النبى ﷺ ولوا[١] مدبرين، فقال نبى الله ﷺ: «الله أكبر، الله أكبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»[٢].

لم يخرجوه من هذه الوجه، وهو صحيح على شرط الشيخين.

وقوله: ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ . وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك.

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢) ﴾.

ينزه تعالى نفسه الكريمة ويقدسها ويبرئها عما يقوله الظالمون المكذبون المعتدون ـ تعالى وتقدس عن قولهم علواً كبيراً ـ ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ ، أي: ذى العزة التى لا تُرَام، ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أى: عن قول هؤلاء المعتدين المفترين، ﴿وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ أى: سلام الله عليهم فى الدنيا والآخرة، لسلامة ما قالوه فى ربهم، وصحته وحقيته[٣]، ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: له الحمد فى الأولى والآخرة فى كل حال. ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة[٤] من النقص بدلالة المطابقة، ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة، ويستلزم التنزيه من النقص ـ قرن بينهما في هذا الموضع، وفى مواضع كثيرة من القرآن؛ ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ .وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقال سعيد بن أبى عَرُوبَة، عن قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سلمتم علىَّ فسلموا على المرسلين، فإنما أنا رسول من المرسلين».

هكذا رواه ابن جرير، وابن أبى حاتم، من حديث سعيد، عنه كذلك[٥].

وقد أسنده ابن أبى حاتم، رحمه الله، فقال: حدثنا على بن الحسين بن الجنيد، حدثنا أبو بكر الأعين، ومحمد بن عبد الرحيم صاعقة قالا: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا شيبان، عن قتادة قال: حدث أنس بن مالك، عن أبى طلحة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سلمتم علىّ فسلموا على المرسلين»[٦].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمد بن أبى بكر، حدثنا نوح، حدثنا أبو هارون، عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا سلم[٧] قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلامٌ عَلَى

(١) فى س، أ: «نكصوا».
(٢) المسند (٢/ ٢٨).
(٣) فى أ: «وحقيقته». (٤) فى أ: «والتنزيه».
(٥) تفسير الطبرى (٢٣/ ٧٤).
(٦) ورواه ابن مردويه وابن سعد كما فى الدر المنثور (٧/ ١٤٠) من طريق سعيد عن قتادة عن أنس عن أبى طلحة به مرفوعا.
(٧) فى س، أ: «إذا أراد أن يسلم».

**الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** ثم يسلم. إسناده ضعيف[١].

وقال[٢] ابن أبى حاتم: حدثنا عمار بن خالد الواسطى، حدثنا شبابة، عن يونس بن[٣] أبى إسحاق[٤]، عن الشعبى قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم: **﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**[٥].

وروى من وجه آخر متصل موقوف على[٦] على، رضى الله عنه.

قال أبو محمد البغوى فى تفسيره: أخبرنا أبو سعيد أحمد بن شريح، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبى، أخبرنى ابن فنجويه، حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان، حدثنا إبراهيم بن سهلويه، حدثنا على بن محمد الطنافسى، حدثنا وكيع، عن ثابت بن أبى صفية، عن الأصبغ بن نباتة، عن على، رضى الله عنه، قال: من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه فى مجلسه: **﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**[٧].

وروى الطبرانى من طريق عبد الله بن صخر بن أنس[٨]، عن عبد الله بن زيد بن أرقم، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قال دبر كل صلاة: **﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** ثلاث مرات، فقد اكتال بالجريب الأوفى من الأجر»[٩].

وقد وردت أحاديث فى كفارة المجلس: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. وقد أفردت لها جزءا على حدة، فلتكتب هاهنا إن شاء الله تعالى[١٠].

## آخر تفسير سورة الصافات

---

(١) وفى إسناده عمارة بن جوين ـ أبو هارون العبدى ـ متروك الحديث، ورواه أبو يعلى فى مسنده (٢/ ٣٦٣) فقال: حدثنا إسحاق، حدثنا حماد، عن أبى هارون بنحوه.

(٢) فى ت: «وروى». (٣) فى أ: «عن». (٤) فى ت: «بسنده».

(٥) وذكره السيوطى فى الدر (٧/ ١٤١) ولم يعزه لغيره، وهو مرسل.

(٦) فى ت: «بسنده».

(٧) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ٦٦) ورواه الواحدى فى الوسيط (٣/ ٥٣٦) عن الأصبغ بن نباتة به، والأصبغ بن نباتة ضعفه الأئمة.

(٨) فى أ: «الأنسى».

(٩) المعجم الكبير (٥/ ٢١١) من طريق عبد المنعم بن بشير عن عبد الله بن محمد الأنسى عن عبد الله بن زيد بن أرقم عن أبيه مرفوعا. قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٠٣): «فيه عبد المنعم بن بشير، وهو ضعيف جدا».

(١٠) كذا ولم أجد إثباته فى النسخ، والأحاديث التى وردت فى كفارة المجلس جاءت عن جمع من الصحابة والتابعين وهم:

١ ـ أبو هريرة:

قال الترمذى فى سننه برقم (٣٤٣٣): أخبرنا أبو عبيدة بن أبى السفر الكوفى ـ أحمد بن عبد الله الهمدانى ـ حدثنا حجاج بن محمد قال: قال ابن جريج: أخبرنى موسى بن عقبة عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غفر له ما كان فى مجلسه ذلك».

ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٣٠)، والحاكم فى المستدرك (١/ ٥٣٦) من طريق ابن جريج به، وقال الترمذى: حسن صحيح»، وقال الحاكم: «إسناد على شرط مسلم إلا أن البخارى علله».

=

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

قال الحافظ ابن كثير: «علله الإمام أحمد والبخارى ومسلم وأبو حاتم وأبو زرعة والدارقطنى وغيرهم، ونسبوا الوهم فيه إلى ابن جريج»، على أن أبا داود قد رواه فى سننه برقم (٤٨٥٨) من طريق عبد الرحمن بن أبى عمرو عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة بنحوه.

**٢ ـ أبو برزة الأسلمى:**

قال أبو داود فى السنن برقم (٤٨٥٩): حدثنا محمد بن حاتم الجرجرائى وعثمان بن أبى شيبة، أن عبدة بن سليمان أخبرهم عن الحجاج بن دينار عن أبى هاشم عن أبى العالية عن أبى برزة الأسلمى قال: كان رسول الله ﷺ يقول بأخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»، فقال رجل: يا رسول الله، إنك لتقول قولا ما كنت تقوله فيما مضى، قال: «كفارة لما يكون فى المجلس»، ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٥٩)، والحاكم فى المستدرك (١/٥٣٧) من طريق الحجاج بن دينار به.

**٣ ـ رافع بن خديج:**

قال النسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٦٠): أخبرنا عبيد الله بن إبراهيم بن سعد قال: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا مصعب بن حيان ـ أخو مقاتل بن حيان ـ عن مقاتل بن حيان، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية الرياحى، عن رافع بن خديج قال: كان رسول الله ﷺ بأخرة إذا اجتمع إليه أصحابه فأراد أن ينهض قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، عملت سوءا، وظلمت نفسى، فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»، قال: فقلنا يا رسول الله، إن هذه كلمات أحدثتهن؟ قال: «أجل جاءنى جبريل عليه السلام فقال: يا محمد، هن كفارات المجلس»، ورواه الحاكم فى المستدرك (١/٥٣٧) من طريق يونس بن محمد به.

**٤ ـ عبد الله بن عمرو بن العاص:**

قال أبو داود فى السنن برقم (٤٨٥٧): حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب قال: أخبرنى عمرو أن سعيد بن هلال حدثه أن سعيد بن أبى سعيد المقبرى حدثه عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: كلمات لا يتكلم بهن أحد فى مجلسه عند قيامه ثلاث مرات إلا كفر بهن عنه، ولا يقولهن فى مجلس خير ومجلس ذكر إلا ختم له بهن عليه كما يختم بالخاتم على الصحيفة: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

هكذا رواه أبو داود موقوفا، وقد رواه الطبرانى من وجه آخر مرفوعا، قال الهيثمى فى المجمع (١٠/١٤٢): «وفيه محمد بن جامع العطار وثقه ابن حبان وضعفه جماعة، وبقية رجاله رجال الصحيح.

**٥ ـ عبد الله بن مسعود:**

قال الطبرانى فى المعجم الكبير (١٠/٢٠٣): حدثنا أحمد بن زهير التسترى، حدثنا عثمان بن حفص التومنى، حدثنا يحيى ابن كثير، عن عطاء بن السائب، عن أبى عبد الرحمن السلمى، عن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كفارة المجلس أن يقول العبد: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا الله، أستغفرك وأتوب إليك» .

**٦ ـ عائشة:**

قال الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٦١١) «مجمع البحرين»: حدثنا محمد بن أحمد الرقام، حدثنا أحمد بن المقدام العجلى، حدثنا النضر بن أبى النضر، عن عمرو بن عبد الجبار، عن الحكم بن عتيبة، عن مسروق، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه إلى سقف البيت قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك» قالت عائشة: فسألته عنهن، فقال: «أمرت بهن».

قال الطبرانى: لم يروه عن الحكم إلا عمرو، ولا عنه إلا النضر تفرد به أبو الأشعث.

وفى إسناده من لا يعرف.

ورواه النسائى فى عمل اليوم والليلة من وجه آخر، فرواه من طريق سعيد بن الحكم، عن خلاد بن سليمان، عن خالد بن أبى عمران، عن عروة بن الزبير، عن عائشة قالت: ما جلس رسول الله ﷺ مجلسا، ولا تلا قرآنا إلا ختم ذلك بكلمات، فقلت: يا رسول الله أراك ما تجلس مجلسا، ولا تتلو قرآنا، ولا تصلى إلا ختمت بهؤلاء الكلمات قال: «نعم، من قال خيرا كان له طابعا على ذلك الخير، ومن قال شرا كن كفارة له: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك».

**٧ ـ جبير بن مطعم:**

قال الطبرانى فى المعجم الكبير (٢/١٣٨): حدثنا العباس بن حمدان الحنفى، حدثنا عبد الجبار بن العلاء، حدثنا =

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

=سفيان، حدثنى ابن عجلان عن مسلم بن أبى مريم، عن نافع بن جبير عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال: سبحان الله وبحمده، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، فقالها فى مجلس ذكر؛ كان كالطابع يطبع عليه، ومن قالها فى مجلس لغو؛ كانت كفارة له»، ثم رواه من طريق خالد بن يزيد العمرى، عن داود بن قيس، عن نافع ابن جبير بنحوه.

**٨ ـ الزبير بن العوام:**

قال الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٦٠٦) «مجمع البحرين»: حدثنا محمد بن على الطرائفى الرقى، حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا الحسن بن محمد بن أعين قال: كتب محمد بن سلمة النصيبى يذكر أن عبد العزيز بن صهيب حدثه عن خباب مولى الزبير بن العوام عن الزبير قال: قلنا: يا رسول الله، إنا إذا قمنا من عندك أخذنا فى حديث الجاهلية فقال: «إذا جلستم تلك المجالس التى تخافون فيها على أنفسكم فقولوا عند مقامكم: سبحانك اللهم وبحمدك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك، يكفر عنكم ما أصبتم» قال الطبرانى: لا يروى عن الزبير إلا بهذا الإسناد، تفرد به محمد بن على. وفى إسناده مَن لا يعرف.

**٩ ـ أنس بن مالك:**

قال البزار فى مسنده برقم (٣١٢٣) «كشف الأستار»: حدثنا عمر بن موسى الشامى، حدثنا عثمان بن مطر، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «كفارة المجلس أن تقول: سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك»، قال البزار: لا نعلمه يروى عن أنس إلا من هذا الوجه، وعثمان لين الحديث روى عنه مسلم وغيره، ورواه الطبرانى فى الأوسط برقم (٤٦١٠) «مجمع البحرين» من طريق عثمان بن مطر به.

**١٠ ـ أم سلمة:**

قال الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٦٠٩) «مجمع البحرين»: حدثنا عبد الرحمن بن سلم، حدثنا سهل بن عثمان، حدثنا حفص بن غياث، عن عاصم، عن الشعبى، عن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ قبل أن يموت يكثر أن يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك، قلت: يا رسول الله، إنى أراك تكثر أن تقول: سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك قال: «إنى أمرت بأمر فقرأ: ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾» قال الطبرانى: لم يروه عن عاصم إلا حفص تفرد به سهل.

**١١ ـ السائب بن يزيد:**

قال الإمام أحمد فى مسنده (٣/ ٤٥٠): حدثنا يونس، عن ليث، عن يزيد ـ يعنى ابن الهاد ـ عن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر قال: بلغنى أن رسول الله ﷺ قال: «ما من إنسان يكون فى مجلس فيقول حين يريد أن يقوم: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك؛ إلا غفر له ما كان فى ذلك المجلس»، فحدثت هذا الحديث يزيد بن خصيفة، قال: هكذا حدثنى السائب بن يزيد عن رسول الله ﷺ. ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٧/ ١٥٤) من طريق الليث به.

وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٤١): «رجالهما رجال الصحيح».

**١٢ ـ إسماعيل بن عبد الله بن جعفر:**

وسياق حديثه فى الذى قبله وهو مرسل.

**١٣ ـ عمر بن الخطاب:**

لم أقع على إسناده، وقد ذكره الحافظ ابن كثير عند تفسير سورة الطور، وعزاه للإسماعيلى.

**١٤ ـ جبير بن نفير:**

لم أقع على إسناده، وقد ساقه المتقى الهندى فى كنز العمال برقم (٢٥٤٦٩) ولفظه: «كفارة المجلس ألا يقوم أحد حتى يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، تب علىَّ، واغفر لى، يقولها ثلاث مرات، فإن كان فى مجلس لغو، كانت كفارته، وإن كان فى مجلس ذكر، كان طابعا عليه»، وعزاه لابن النجار.

**١٥ ـ أبو عثمان الفقير:**

قال عبد الرزاق فى المصنف برقم (١٩٧٩٦): أخبرنا معمر، عن عبد الكريم الجزرى عن أبى عثمان الفقير أن جبريل علَّم =

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

= النبى ﷺ إذا قام من مجلسه أن يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، اشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

قال معمر: وسمعت غيره يقول: هذا القول كفارة المجلس.

**١٦ ـ أبو العالية الرياحى:**

قال النسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٦١): أخبرنا محمد بن بشار، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا سفيان، عن منصور، عن زياد بن حصين، عن أبى العالية الرياحى قال: قالوا: يا رسول الله ما كلمات سمعناك تقولهن؟ قال: «كلمات علمنيهن جبريل عليه السلام كفارة المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك» .

ثم رواه من طريق فضيل بن عمر وعاصم عن زياد بن حصين به مرسلا.

## / سورة الصافّات [٤٠٨و]

مكّيّة، وهي مائة وإحدى وثمانون آيةً،[1] وقيل: واثنتان وثمانون.[2]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ٣﴾

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ إقسامٌ مِن الله عزّ وجلّ بطوائفِ الملائكة الفاعلاتِ للصفوف، على أنّ المراد إيقاع نفْس الفعل مِن غير قصدٍ إلى المفعول، أو الصافّاتِ أنفُسَها، أي: الناظِماتِ لها في سِلك الصفوف بقيامها في مقاماتها المعلومة، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾ [الصافات، ١٦٤/٣٧]، وعلى هذين المعنيَين مَدار قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ [الصافات، ١٦٥/٣٧]. وقيل: الصافّاتِ أقدامَها في الصلاة. وقيل: أجنحتَها في الهواء.

﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾ أي: الفاعلاتِ للزَّجر، أو الزاجِراتِ لِما نِيط بها زَجْره مِن الأجرام العلويّة والسفليّة وغيرها على وجه يليق بالمَزجور، ومِن جملة ذلك زَجر العباد عن المعاصي، وزَجرُ الشياطين عن الوسوسة والإغواء، وعن استراق السمع كما سيأتي. و﴿صَفّٗا﴾ و﴿زَجۡرٗا﴾ مصدران مؤكِّدان لِما قبلهما، أي: صفًّا بديعًا، وزَجرًا بليغًا.

وأمّا ﴿ذِكۡرًا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ فمفعول ﴿ٱلتَّٰلِيَٰتِ﴾؛ أي: التاليات ذكرًا عظيمَ الشأن مِن آيات الله تعالى وكُتبه المنزّلة على الأنبياء عليهم السلام وغيرها مِن التسبيح والتقديس والتحميد والتمجيد. وقيل: هو أيضًا مصدر مؤكِّد لِما قبله، فإنّ التلاوة مِن باب الذِّكر.

---

[1] ط - آية.

[2] م - سورة الصافّات مكّيّة، وهي مائة وإحدى وثمانون آيةً، وقيل: واثنتان وثمانون؛ ط + آية.

ثمّ إنّ هذه الصفاتِ إن أُجريَت على الكلّ فعطفُها بـ"الفاء" للدلالة على ترتّبها في الفضل، إمّا بكون الفضل للصفّ ثمّ للزَّجر ثمّ للتلاوة، أو على العكس، وإن أُجريَت كلّ واحدة منهنّ على طوائف معيّنة فهو للدلالة على ترتّب الموصوفات في مراتب الفضل، بمعنى أنّ طوائف الصافّات ذوات فضل، والزاجراتُ أفضل، والتالياتُ أبهَر فضلًا، أو على العكس.

وقيل: المراد بالمذكورات نفوس العلماءِ العُمّال؛ الصافّاتُ أنفسَها في صفوف الجماعات، / وأقدامَها في الصلوات، الزاجراتُ[١] بالمواعظ والنصائح، [٤٠٨ظ] التالياتُ آياتِ الله تعالى، الدارساتُ شرائعَه وأحكامَه.

وقيل: طوائفُ الغزاة؛ الصافّاتُ أنفسَهم في مواطن الحروب، كأنّهم بنيان مَرصوص. أو طوائفُ قُوّادهم؛ الصافّاتُ لهم فيها، الزاجراتُ الخيلَ للجهاد سَوقًا، والعدوَّ في المعارك طَردًا، التالياتُ آياتِ الله تعالى وذِكرِه وتسبيحِه في تضاعيف ذلك.

والكلام في العطف ودلالتِه على ترتّب الصفات في الفضل أو ترتّب موصوفاتها فيه كالذي سلَف، وأمّا الدلالة على الترتّب في الوجود كما في قوله:

يا لَهفَ زَيّابةَ للحارثِ الصـ ـابحِ فالغانم فالآيبِ[٢]

فغير ظاهرة في شيءٍ مِن الطوائف المذكورة، فإنّه لو سلّم تقدّم الصفّ على الزَّجر في الملائكة والغزاة فتأخُّرُ التلاوة عن الزَّجر غير ظاهر.

وقيل: ﴿ٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾: الطير، مِن قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖ﴾ [النور، ٤١/٢٤]، و﴿ٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾ كلّ ما يَزجُر عن المعاصي، و﴿ٱلتَّٰلِيَٰتِ﴾ كلّ مَن يتلو كتابَ الله تعالى. وقيل: ﴿ٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾ القوارع القرآنيّة.

وقُرئ بإدغام "التاء" في "الصاد" و"الزاء" و"الذال".[٣]

---

١ س: والزاجرات.

٢ لابن زَيّابة التيمي، و"زَيّابة": اسم أمّه، أي: يا لَهفَ أمّي مِن أجل الحارث بن همّام الشيباني، قال التبريزي: معناه أنّه لهَف أمّه أن لا يلحقه في بعض غاراته فيقتله أو يأسِره. انظر: شرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي، ٣٢/٤.

٣ قرأ بها حمزة وأبو عمرو ويعقوب بخُلف عنهما. النشر لابن الجزري، ٣٠٠/٢.

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥﴾

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ جوابٌ للقسم. والجملة تحقيق للحقّ الذي هو التوحيد بما هو المألوف في كلامهم مِن التأكيد القسَمي، وتمهيدٌ لِما يعقُبه مِن البرهان الناطق به، أعني: قولَه تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ فإنّ وجودها وانتظامها على هذا النمط البديع مِن أوضح دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته، وأعدلِ شواهد وَحدته، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء، ٢٢/٢١].

و﴿رَّبُّ﴾ خبر ثانٍ لـ﴿إِنَّ﴾، أو خبر لمبتدأ محذوف، / أي: مالكُ السماوات والأرض [٤٠٩و]
وما بينهما مِن الموجودات ومربّيها، ومبلّغُها إلى كمالاتها. والمراد بـ﴿ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ مشارقُ الشمس. وإعادة "الربّ" فيها لغاية ظهور آثار الربوبيّة فيها وتجدّدِها كلَّ يوم، فإنّها ثلاثُمائةٍ وستّون مَشرقًا، تشرق كلَّ يوم مِن مَشرقٍ منها، وبحسبها تختلف المَغارب، وتغرُب كلَّ يوم في مَغرب منها. وأمّا قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن، ١٧/٥٥] فهما مَشرقا الصيف والشتاء ومَغرِباهما.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: القربى منكم ﴿بِزِينَةٍ﴾ عجيبةٍ بديعةٍ ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾ بالجرّ بدلٌ مِن ﴿زِينَةٍ﴾، على أنّ المراد بها الاسم، أي: ما يُزانُ به، لا المصدرُ، فإنّ الكواكب بأنفسِها وأوضاعِ بعضها مِن بعض زينةٌ وأيُّ زينةٍ.

وقُرئ بالإضافة[١] على أنّها بيانيّة، لِما أنّ "الزينة" مبهَمة صادقة على كلّ ما يُزان به، فيقع ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾ بيانًا لها. ويجوز أن يراد بـ"زِينَةِ الكَوَاكِبِ" ما زُيّنت هي به، وهو ضوءُها. ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «"بزينَةِ الكَوَاكِبِ": بضوءِ الكواكب».[٢] هذا، وأمّا على تقدير كون "الزينة" مصدرًا فالمعنى على تقدير إضافتها إلى الفاعل: بأن زانت الكواكبُ إيّاها، وأصلُه "بزينةِ الكواكبُ"،

---

[١] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر والكسائي وخَلَف. النشر لابن الجزري، ٣٥٦/٢.

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ١٤٠/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٥/٤.

وعلى تقدير إضافتها إلى المفعول: بأن زَانَ اللهُ الكواكبَ وحسَّنها، وأصله "بزينةِ الكواكبَ".

والمراد هو التزيين في رأي العين، فإنّ جميع الكواكب مِن الثوابت والسيّارات تبدو للناظرين كأنّها جواهر متلألِئة في سطح السماء[١] الدنيا بصور بديعةٍ وأشكال رائعة، ولا يقدح في ذلك ارتكاز الثوابت في الفلَك / الثامن، وما عدا القمر في [٤٠٩ظ]
الستة المتوسطة إن ثبتَ ذلك.

﴿وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ۝٧﴾

﴿وَحِفۡظٗا﴾ منصوب إمّا بعطفه على ﴿زِينَةٍ﴾ باعتبار المعنى، كأنّه قيل: إنّا خلقنا الكواكب زينةً للسماء وحِفظًا ﴿مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ﴾ أي: خارجٍ عن الطاعة برَمي الشُّهب، وإمّا بإضمار فِعله، وإمّا بتقدير فعل مؤخَّر معلَّل به، كأنّه قيل: وحِفظًا مِن كلّ شيطان مارد زيّنّاها بالكواكب، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك، ٦٧/٥].

﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۝٨﴾

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ كلام مبتدأ مَسوق لبيان حالهم بعد بيان حفظ السماء عنهم مع التنبيه على كيفيّة الحفظ وما يعتريهم في أثناء ذلك مِن العذاب، ولا سبيلَ إلى جعله صفةً لـ﴿كُلِّ شَيۡطَٰنٖ﴾،[٢] ولا جوابًا عن سؤال مقدَّر؛ لعدم استقامة المعنى، ولا علّةً للحفظ على أن يكون الأصل "لِئلّا يَسَّمَّعوا"، فتُحذف "اللام" كما حُذفت مِن قولك: "جِئتكَ أن تُكرمَني"، فيبقى "أن لا يَسَّمَّعوا"، ثمّ تُحذف "أن" ويُهدر عملها، كما في قول مَن قال:

ألَا أيُّهذا الزاجري أحضُرُ الوَغا[٣]

---

١ ط س: سماء.

٢ في الآية السابقة.

٣ وفي هامش ط س: تمامه:

وأن أشهدَ اللذّاتِ هل أنت مُخلدي

لطرَفة بن العبد، يقول: يا مَن يلومني أن أحضرَ الحرب وأن أنفِق في الخمر وغيرها مِن أبواب الفتوّة واللذّات؛ هل في وُسعك أن تخلّدني فأكفّ عن ذلك وأتركه. ديوان طرَفة بشرح الأعلم الشَّنتَمري، ص ٤٥.

لِما أنّ كلّ واحد مِن ذَينك الحذفَين غيرُ منكَر بانفراده، فأمّا اجتماعهما فمِن أنكَر المنكرات التي يجب تنزيه ساحة التنزيل الجليل عن أمثالها.

وأصل ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾: يتسمَّعون. و﴿ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾: الملائكة. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «هم الكتَبة».[1] وعنه: «أشراف الملائكة عليهم السلام».[2] أي: لا يتطلّبون السماعَ والإصغاءَ إليهم. وقُرئ: "يَسْمَعُونَ" بالتخفيف.[3]

﴿وَيُقۡذَفُونَ﴾ يُرمَون ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ مِن جميع جوانب السماء إذا قصدوا الصعود إليها.

﴿دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ۝٩﴾

﴿دُحُورٗا﴾ علّة للقذف، أي: للدُّحور؛ وهو الطرد، أو حال بمعنى: مَدحورين، أو مصدر مؤكِّد له؛ لأنّهما مِن وادٍ واحد. / وقُرئ: "دَحُورًا" بفتح "الدال"،[4] أي: قَذفًا دَحورًا مبالِغًا في الطرد. وقد جُوّز أن يكون مصدرًا كـ"القَبول" و"الوَلوع". [٤١٠و]

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ﴾ أي: ولهم في الآخرة غيرَ ما في الدنيا مِن عذاب الرَّجْم بالشُّهُب عذابٌ شديد دائم غير منقطع، كقوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك، ٥/٦٧].

﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ۝١٠﴾

﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ﴾ استثناء مِن "واو" ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾.[5] و﴿مَنۡ﴾ بدل منه. و"الخَطف": الاختلاس، والمراد اختلاس كلام الملائكة مسارقةً، كما يُعرِب عنه

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٣٦/٤. وبه فسّره الثعلبي دون نسبة إلى ابن عبّاس رضي الله عنهما. انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٤٠/٨.

[2] الكشّاف للزمخشري، ٣٦/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٩٢/٩.

[3] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٥٦/٢.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٤.

[5] الصافّات، ٨/٣٧.

تعريف ﴿ٱلْخَطْفَةَ﴾. وقُرئ بكسر "الخاء" و"الطاء" المشدّدة،[١] وبفتح "الخاء" وكسر "الطاء" وتشديدها،[٢] وأصلهما "اختَطَفَ".

﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ﴾ أي: تبِعه ولحِقه. وقُرئ: "فاتَّبَعَهُ".[٣] و"الشِّهاب": ما يُرى منقضًّا مِن السماء. ﴿ثَاقِبٌ﴾ مضيء في الغاية، كأنّه يثقب الجوّ بضوئه، يرجُم به الشياطين إذا صعِدوا لاستراق السمع، فيقتلهم أو يحرقهم أو يُخَبِّلهم. قالوا: وإنّما يعود مَن يسلم منهم حيًّا طمعًا في السلامة ونيلِ المراد كراكب السفينة.

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١﴾

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ فاستخبر مُشركي مكّة: ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أي: أقوى خِلقةً، وأمتنُ بُنيةً، أو أصعبُ خلقًا، وأشقُّ إيجادًا. ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ مِن الملائكة والسماء والأرض وما بينهما، والمشارِق، والكواكبِ، والشُّهبِ الثواقب. و﴿مَنْ﴾ لتغليب العقلاء على غيرهم، ويدلّ عليه إطلاقه ومجيئه بعد ذلك، لا سيّما قراءةُ مَن قرأ: "أَم مَنْ عَدَدْنَا".[٤]

وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ فإنّه الفارق بينهم وبينها، لا بينهم وبين مَن قبلهم مِن الأمم، كعادٍ وثمود، ولِأنّ المراد إثبات المعاد وردُّ استحالتهم.[٥] والأمر فيه بالإضافة إليهم وإلى مَن قبلهم سواء. / وقُرئ: "لَازِمٍ"، و"لَاتِبٍ".[٦] [٤١٠ظ]

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝١٢﴾

﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ أي: مِن قدرة الله تعالى على هذه الخلائق العظيمة وإنكارِهم للبعث، ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ مِن تعجّبك وتقريرك للبعث.

---

[١] أي: "خِطِّفَ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعرج وقتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٤.

[٢] أي: "خَطِّفَ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٤.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وقتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٤.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنهما. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٤.

[٥] وفي هامش م: أي: عدّهم له مُحالًا. «منه».

[٦] قراءتان شاذّتان، ذكرهما الزمخشري من غير نسبة. الكشّاف للزمخشري، ٣٧/٤.

وقُرئ بضمّ "التاء"،[١] على معنى أنّه بلغَ كمالُ قدرتي وكثرةُ مخلوقاتي إليّ حيث عَجبتُ منها، وهؤلاء لِجهلهم يَسخرون منها. أو عجبتُ مِن أن يُنكروا البعث ممّن هذه أفاعيله، ويسخروا ممّن يجوّزه. والعَجَب مِن الله تعالى إمّا على الفَرْض والتخييل، أو على معنى الاستعظام اللازم له، فإنّه رَوعة تَعتري الإنسان عند استعظام الشيء. وقيل: إنّه مقدَّر بالقول، أي: قل يا محمّد: بل عَجبتُ.

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟﴾ أي: ودأبهم المستمرّ أنّهم إذا وُعِظوا بشيء مِن المواعظ ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ لا يتّعظون، وإذا ذُكِر لهم ما يدلّ على صحّة البعث لا ينتفعون به لغاية بَلادَتهم وقُصورِ فكرهم.

﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً﴾ أي: معجزةً تدلّ على صدق القائل به ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يبالغون في السخرية، ويقولون: إنّه سِحر، أو يستدعي بعضهم مِن بعض أن يسخَر منها.

﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ﴾ أي: ما يرونه مِن الآية الباهرة ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهرٌ سحريّتُه.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ أي: كان بعضُ أجزائنا ترابًا، وبعضها عِظامًا. وتقديمُ "التراب" لأنّه منقلِب مِن الأجزاء البادية. والعامل في ﴿إِذَا﴾ ما دلّ عليه ﴿مَبْعُوثُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أي: نُبعَث، لا نفسُه؛ لأنّ دُونَه خُطوبًا[٢] لو تفرّد واحدٌ منها لكفى في المنع. وتقديم الظرف لتقوية الإنكار بالبعث بتوجيهه إلى حالة منافية له غايةَ المنافاة، وكذا تكرير "الهمزة" في ﴿أَءِنَّا﴾ للمبالغة والتشديد في ذلك، وكذا تحلية الجملة بـ"إنّ" و"اللام" لتأكيد الإنكار،

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٥٦/٢.

٢ وفي هامش م: هي "الهمزة" و"إنّ" و"اللام". «منه».

[٤١١و] / لا لإنكار التأكيد كما يوهمه ظاهر النظم،[١] فإنّ تقديم "الهمزة" لاقتضائها الصدارةَ، كما في مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة، ٤٤/٢] على رأي الجمهور، فإنّ المعنى عندهم تعقيبُ الإنكار، لا إنكارُ التعقيب، كما هو المشهور. وقُرئ بطَرح "الهمزة" الأولى،[٢] وبطرح الثانية فقط.[٣]

﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ رفع على الابتداء، وخبره محذوف عند سيبويه،[٤] أي: وآباؤنا الأوّلون أيضًا مبعوثون. وقيل: عطفٌ على محلّ "إنّ" واسمها. وقيل: على الضمير في ﴿مَبْعُوثُونَ﴾[٥] للفصل بهمزة الإنكار الجارية مَجرى حرف النفي في قوله تعالى: ﴿مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام، ١٤٨/٦]. وأيًّا ما كان فمرادهم زيادة الاستبعاد بناءً على أنّهم أقدم، فبَعثُهم أبعدُ على زعمهم. وقُرئ: "أَوْ آبَاؤُنَا".[٦]

﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿قُلْ﴾ تبكيتًا لهم: ﴿نَعَمْ﴾. والخطاب في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ لهم ولآبائهم بطريق التغليب. والجملة حال مِن فاعل ما دلّ عليه ﴿نَعَمْ﴾، أي: كلّكم مبعوثون والحال أنكم صاغِرون أذِلّاء. وقُرئ: "نَعِمْ" بكسر "العين"،[٧] وهي لغة فيه.

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ ﴿هِىَ﴾ إمّا ضمير مبهَم يفسّره خبره، أو ضمير "البَعثة". والجملة جواب شرط مضمَر، أو تعليل لنهيٍ مقدّر، أي: إذا كان كذلك فإنّما هي... إلخ، أو لا تستصعبوه فإنّما هي... إلخ. و"الزجرة": الصيحة، مِن "زَجَرَ الراعي غنَمَه" إذا صاح عليها؛ وهي النفخة الثانية.

﴿فَإِذَا هُمْ﴾ قائمون مِن مراقدهم أحياءً ﴿يَنظُرُونَ﴾ يُبصرون كما كانوا، أو يَنتظِرون ما يُفعَلُ بهم.

---

[١] س + الكريم.
[٢] قرأ بها ابن عامر الشامي. النشر لابن الجزري، ٣٧٣/١.
[٣] قرأ بها نافع والكسائي وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٣/١.
[٤] انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٩٥/٩.
[٥] في الآية السابقة.
[٦] قرأ بها أبو جعفر وابن عامر ونافع بخُلف عن وَرش. النشر لابن الجزري، ٣٥٧/٢.
[٧] قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢٦٩/٢.

﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝٢٠ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢١﴾

﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: المبعوثون، وصيغة الماضي للدلالة على التحقّق والتقرّر: ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ أي: هلاكَنا احضُر، فهذا أوان حضورك. وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ تعليل لدعائهم الويلَ بطريق الاستئناف، / أي: اليومُ الذي نُجازَى فيه بأعمالنا، وإنّما علموا ذلك لأنّهم كانوا يسمعون في الدنيا أنّهم يُبعَثون ويُحاسَبون ويُجزَون بأعمالهم، فلمّا شاهدوا البعثَ أيقَنوا بما بعده أيضًا. [٤١١ظ]

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ كلام الملائكة جوابًا لهم بطريق التوبيخ والتقريع. وقيل: هو أيضًا مِن كلام بعضهم لبعض.[١] و﴿ٱلْفَصْلِ﴾ القضاء، أو الفرقُ بين فِرَق الهدى والضلال.

﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣﴾

وقوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ خطاب مِن الله عزّ وجلّ للملائكة، أو مِن بعضهم لبعضٍ بحَشر الظلَمة مِن مقامهم إلى الموقف. وقيل: مِن المَوقف إلى الجحيم.

﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ أي: أشباهَهم ونُظراءَهم مِن العصاة، عابدُ الصنَم مع عَبَدته، وعابدُ الكوكب مع عَبَدته، كقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ [الواقعة، ٥٦/٧]. وقيل: قرناءَهم مِن الشياطين. وقيل: نساءَهم اللاتي على دينهم. ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مِن الأصنام ونحوِها زيادةً في تحسيرهم وتخجيلهم. قيل: هو[٢] عامّ مخصوص بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ الآيةَ الكريمةَ [الأنبياء، ٢١/١٠١]. وأنت خبير بأنّ الموصول عبارة عن المشركين خاصّةً، جيء به لتعليل الحُكم بما في حيّز صِلته، فلا عمومَ ولا تخصيصَ.

---

[١] س - لبعض.

[٢] ط س: وهو. | يظهر أثر كشطٍ في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: عرِّفوهم طريقَها، ووجِّهوهم إليها. وفيه تهكُّم بهم.

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَقِفُوهُمْ﴾ احبِسوهم في الموقف، كأنّ الملائكةَ عليهم السلام[1] سارَعوا إلى ما أُمِروا به مِن حَشرهم إلى الجحيم، فأُمِرُوا بذلك، وعُلِّل بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ إيذانًا مِن أوّل الأمر بأنّ ذلك ليس للعفو عنهم، ولا لِيستَريحوا بتأخير العذاب في الجملة؛ بل لِيُسألوا، لكن لا عن عقائدهم وأعمالهم كما قيل،[2] فإنّ ذلك قد وقع قبل الأمر بهم إلى الجحيم؛ بل عمّا يَنطق به قوله عزّ وجلّ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ بطريق التوبيخ والتقريع والتهكّم، أي: لا يَنصر بعضُكم بعضًا كما كنتم تزعمون في الدنيا. وتأخيرُ هذا السؤال إلى ذلك الوقت / لأنّه وقتُ تَنجزِ العذاب، وشدّةِ الحاجة إلى النُّصرة، وحالةُ انقطاع الرجاء عنها [٤١٢و] بالكلّيّة، فالتوبيخ والتقريع حينئذٍ أشدُّ وَقعًا وتأثيرًا. وقُرئ: "لَا تَتَنَاصَرُونَ"،[3] و"لَا تَّنَاصَرُونَ" بالإدغام.[4]

﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ منقادون خاضعون، لظهور عجزهم، وانسدادِ باب الحِيَل عليهم، أو أسلَم بعضُهم بعضًا وخَذَله عن عَجز، فكلُّهم مستسلم غير منتصِر.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَأَقْبَلَ﴾ حينئذ ﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ هم الأتباع والرؤساء، أو الكفرةُ والقرناء ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يسأل بعضهم بعضًا سؤالَ توبيخ بطريق الخصومة والجدال.

﴿قَالُوٓا۟﴾ استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ مِن حكاية تساؤلِهم، كأنّه قيل: كيف تساءَلُوا؟ فقيل: قالوا، أي: الأتباع للرؤساء، أو الكلّ للقُرناء: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا﴾

---

١ س – عليهم السلام.

٢ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٨/٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٤/٤٦٩.

٤ قرأ بها أبو جعفر والبزّي عن ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٢٣٤.

في الدنيا ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ عن أقوى الوجوه وأمْتَنِها، أو عن الدين، أو عن الخَير، كأنكم تنفعوننا نفعَ السانِح،[١] فتبِعناكم فهلَكنا. مستعار مِن يمين الإنسان الذي هو أشرف الجانبين وأقواهما وأنفعُهما، ولذلك يُسمّى يمينًا، ويُتيمَّن بالسانِح، أو عن القوّة والقَسر، فتقسروننا على الغيّ، وهو الأوفق للجواب، أو عن الحَلِف، حيث كانوا يَحلفون أنّهم على الحقّ.

﴿قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ٢٩ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ٣٠﴾

﴿قَالُواْ﴾ استئناف كما سبق، أي: قال الرؤساء أو القُرناء: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لم نمنعكم مِن الإيمان؛ بل لم تؤمنوا باختياركم وأعرضتم عنه مع تمكّنكم منه، وآثرتم الكفر عليه.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾ مِن قهرٍ وتسلّطٍ نسلُبكم به اختيارَكم؛ ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ مختارين للطغيان مُصرّين عليه.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ٣١ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ٣٢ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ٣٣﴾

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾ أي: لزِمَنا وثبت علينا ﴿قَوْلُ رَبِّنَا﴾ وهو قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص، ٣٨/٨٥]. ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ أي: العذابَ الذي وَرد به الوعيد.

﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ فدعوناكم / إلى الغيّ دعوةً غيرَ مُلجِئةٍ، فاستجبتم لنا [٤١٢ظ]
باختياركم واستحبابِكم الغيَّ على الرشد، ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ فلا عتَبَ علينا في تعرُّضنا لإغوائكم بتلك المرتبة مِن الدعوة لتكونوا أمثالنا في الغواية.

﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أي: الأتباعَ والمتبوعين ﴿يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ حسبما كانوا مشتركين في الغواية.

---

[١] السانِح: ما وَلّاك مَيامِنه مِن ظبي أو طائر أو غيرهما. والعرب تتيمَّن بالسانح، وتتشاءم بالبارح. الصحاح للجوهري، «سنح».

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الفعل البديع الذي يقتضيه الحكمة التشريعيّة ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ المتناهين في الإجرام، وهم المشركون، كما يُعرِب عنه التعليل بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ بطريق الدعوة والتلقين: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن القبول.

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ۞ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ردٌّ عليهم وتكذيب لهم ببيان أنّ ما جاءَ به مِن التوحيد هو الحقّ الذي قام به البرهان، وأجمع عليه كافّة الرسل عليهم السلام، فأين الشِّعر والجنون مِن ساحته الرفيعة.

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿إِنَّكُمْ﴾ بما فعلتم مِن الإشراك وتكذيب الرسول عليه السلام والاستكبار ﴿لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ والالتفاتُ لإظهار كمال الغضب عليهم. وقُرئ بنصب ﴿ٱلْعَذَابِ﴾[1] على تقدير النون كقوله:

ولا ذاكـــــــــــر الله إلّا قليـــــــــــلا[2]

وقُرئ: "لَذائِقونَ الْعَذابَ"[3] على الأصل.

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: إلّا جزاءَ ما كنتم تعملونه مِن السيّئات، أو إلّا بما كنتم تعملونه منها.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع مِن ضمير ﴿ذَآئِقُوا۟﴾،[4] وما بينهما اعتراض جيء به مسارعةً إلى تحقيق الحقّ ببيان أنّ ذوقهم العذابَ ليس إلّا

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال وأبان عن ثعلبة عن عاصم. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٩٩.

[2] صدره:
فـألـفـيـتـه غـيـرَ مـسـتـعـتـبٍ
وهو لأبي الأسود الدؤلي. انظر: خزانة الأدب للبغدادي، ١١/٣٧٥.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٥.

[4] في الآية السابقة.

مِن جهتهم، لا مِن جهة غيرهم أصلًا. وجعلُه استثناءً مِن ضمير ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾[1] على معنى أنّ الكفرة لا يُجزون إلّا بقدر أعمالهم، دون عباد الله المخلَصين، فإنّهم يُجزَون أضعافًا مضاعفةً ممّا لا وجهَ له أصلًا، لا سيّما جعلُه استثناء متّصلًا بتعميم الخطاب في ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾[2] لجميع المكلّفين، فإنّه ليس في حيّز الاحتمال، فالمعنى: إنّكم لذائقوا العذابِ الأليمِ، لكنّ عبادَ الله المخلَصين الموحِّدين ليسوا كذلك.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ﴿٤٥﴾ بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إليهم للإيذان بأنّهم ممتازون بما اتّصفوا به مِن الإخلاص في عبادته تعالى عمّن عداهم امتيازًا بالغًا، منتظِمون بسببه في سِلك الأمور المشاهَدة. وما فيه مِن معنى البُعد مع قرب العهد بالمُشار إليه للإشعار بعلوّ طبقتهم، وبُعد منزلتهم / في الفضل. وهو مبتدأ، وقوله [٤١٣و] تعالى: ﴿لَهُمۡ﴾ إمّا خبر له، وقوله تعالى: ﴿رِزۡقٞ﴾ مرتفع على الفاعليّة بما فيه مِن الاستقرار، أو مبتدأ، و﴿لَهُمۡ﴾ خبر مقدَّم، والجملة خبر لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، والجملة الكبرى استئناف مبيِّن لِما أفاده الاستثناء إجمالًا بيانًا تفصيليًّا. وقيل: هي خبر للاستثناء المنقطع، على أنّه متأوّل بالمبتدأ.

وقوله تعالى: ﴿مَّعۡلُومٞ﴾ أي: معلومُ الخصائص، مِن حُسن المنظَر، ولذّةِ الطَّعم، وطيبِ الرائحة، ونحوِها مِن نعوت الكمال. وقيل: معلومُ الوقت، كقوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ [مريم، ٦٢/١٩].

وقوله تعالى: ﴿فَوَٰكِهُ﴾ إمّا بدل مِن ﴿رِزۡقٞ﴾،[3] أو خبر مبتدأ مُضمَر، أي: ذلك الرزق فواكهُ. وتخصيصها بالذِّكر لأنّ أرزاق أهل الجنّة كلّها فواكه، أي:

---

[1] في الآية السابقة.
[2] في الآية السابقة.
[3] في الآية السابقة.

ما يؤكل لمجرّد التلذّذ دون الاقتيات؛ لأنّهم مُستغنون عن القُوت لكون خِلقتهم مُحكمةً محفوظة مِن التحلّل المُحوِج إلى البدل. وقِيل: لأنّ الفواكه مِن أتباع سائر الأطعمة، فذِكرها مُغنٍ عن ذِكرها.

﴿وَهُم مُّكۡرَمُونَ﴾ عند الله عزّ وجلّ، لا يلحقهم هوان، وذلك أعظم المَثوبات، وأليقُها بأولي الهِمَم. وقيل: مُكرَمون في نَيله، حيث يصل إليهم بغير تعب وسؤال، كما هو شأن أرزاق الدنيا. وقُرئ: "مُكَرَّمُونَ" بالتشديد.[١]

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: في جنّاتٍ ليس فيها إلّا النعيم، وهو ظرف، أو حالٌ مِن المستكِنّ في ﴿مُكۡرَمُونَ﴾، أو خبر ثانٍ لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾.[٢]

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ محتمل للحاليّة والخبريّة. فقوله تعالى: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ حال مِن المستكنّ فيه، أو في ﴿مُكۡرَمُونَ﴾.[٣]

وقوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾ إمّا استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية تكاملِ مجالس أُنسِهم، أو حال مِن الضمير في ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾،[٤] أو في أحد الجارَّين. وقد جُوّز كونه صفةً لـ﴿مُكۡرَمُونَ﴾.[٥]

[٤١٣ظ] ﴿بِكَأۡسٍ﴾ بإناء فيه خمر، أو بخمرٍ، فإنّ "الكأس" يطلق على / نفس الخمر، كما في قول مَن قال:

وكـــأسٍ شـــربـــتُ عـــلـــى لـــذّةٍ    وأخـــرى تـــداويـــتُ مـــنـــهـــا بـــهـــا[٦]

﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ متعلّق بمُضمَر هو صفة لـ﴿كَأۡسٍ﴾، أي: كائنةٍ مِن شرابٍ مَعِين، أو مِن نهرٍ مَعِين؛ وهو الجاري على وجه الأرض، الظاهرُ للعيون، أو الخارجُ مِن العيون. مِن "عانَ الماءُ" إذا نَبَعَ، وُصِف به الخمر وهو للماء لأنّها تجري في الجنّة في أنهار كما يجري الماء، قال تعالى: ﴿وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ﴾ [محمد، ١٥/٤٧].

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مقسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٥.
[٢] في الآية السابقة.
[٣] في الآية السابقة.
[٤] في الآية السابقة.
[٥] الصافات، ٤٢/٣٧.
[٦] للأعشى الكبير في ديوانه، ص ١٧٣.

﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ صفتان أيضًا لـ﴿كَأْسٖ﴾.[١] ووصفها بـ﴿لَذَّةٖ﴾ إمّا للمبالغة، كأنّها نفس اللذّة، أو لأنّها تأنيث "اللَّذّ" بمعنى "اللذيذ"، ووزنه "فَعِل"، قال:

ولَـذٍّ كطَعمِ الصَّـرخَـديِّ[٢] تركتُهُ بـأرضِ العِدى مِن خِيفة الحَدَثانِ[٣]

يريد به النوم.

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي: غائلةٌ كما في خمور الدنيا، مِن "غالَه" إذا أفسدَه وأهلكه، ومنه "الغُول".

﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ يَسكَرون، مِن "نُزِفَ الشاربُ فهو نَزيفٌ ومَنزوفٌ" إذا ذهب عقله، ويقال للمَطعون: "نُزِفَ فَماتَ" إذا خرجَ دمه كلّه. أُفرد هذا بالنفي مع اندراجه فيما قبله مِن نفي الغَول عنها لِما أنّه مِن معظم مفاسد الخمر، كأنّه جنس برأسه.

والمعنى: لا فيها نوع مِن أنواع الفساد مِن مَغص أو صُداع أو خِمار أو عربَدة أو لغو أو تأثيم، ولا هم يَسكرون.

وقُرئ: "يُنْزِفُونَ" بكسر "الزاء"،[٤] مِن "أنزَفَ الشاربُ" إذا نفِدَ عقلُه أو شرابُه. وقُرئ: "يَنْزُفُونَ" بضمّ "الزاء"،[٥] مِن "نَزُفَ يَنْزُفُ" بضمّ "الزاء" فيهما.

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۝٤٨ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۝٤٩ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٥٠﴾

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قَصرْن أبصارهنّ على أزواجهنّ، لا يمدُدن طَرْفًا إلى غيرهم، ﴿عِينٌ﴾ نُجلُ العيون، جمع "عَيناء"، والنَّجَل: سَعة العين.

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] وفي هامش م: الصَّرخَد بلد بالشام يُنسب إليه الخمر. «منه». | صَرخَد: بلد ملاصق لبلاد حَوران مِن أعمال دمشق، وهي قلعة حصينة، وولاية حسنة واسعة. معجم البلدان للحموي، ٤٠١/٣.

[٣] البيت بغير نسبة في لسان العرب لابن منظور، «لذذ». وأورده للراعي النميري بلفظ:
ولَـذٍّ كطعمِ الصرخديِّ دفعتُهُ
عشيةَ خِمسِ القوم والعينُ عاشِقُه

[٤] قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٣٥٧/٢.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٠١/٩.

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ شُبِّهن ببَيض النَّعام المَصون مِن الغبار ونحوِه في الصفاء والبياض المخلوط بأدنى صُفرة، فإنّ ذلك أحسن ألوان الأبدان.

[٤١٤و] / ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ معطوف على ﴿يُطَافُ﴾،[١] أي: يشربون فيتحادثون على الشراب، كما هو عادة الشرب، قال:

ومــا بـقـيـت مِــن الـلـذّات إلّا أحـاديـثُ الـكـرام عـلـى الـمُـدامِ[٢]

فيُقبِل بعضهم على بعض يتساءلون عن الفضائل والمعارف، وعمّا جرى لهم وعليهم في الدنيا. فالتعبير عنه بصيغة الماضي للتأكيد والدلالة على تحقّق الوقوع حتمًا.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣﴾

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ في تضاعيف محاوراتهم: ﴿إِنِّي كَانَ لِي﴾ في الدنيا ﴿قَرِينٌ﴾ مصاحِب، ﴿يَقُولُ﴾ لي على طريقة التوبيخ بما كنتُ عليه مِن الإيمان والتصديق بالبعث: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ أي: بالبعث. وقُرئ بتشديد "الصاد"[٣] مِن "التصدّق". والأوّل هو الأوفق لقوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي: لمبعوثون ومجزيّون، مِن "الدِّين" بمعنى الجزاء، أو لمَسوسون، يقال: "دانَه"، أي: ساسَه، ومنه الحديث: «العاقل مَن دانَ نفسه».[٤]

وقيل: كان رجل تصدّق بماله لوجه الله تعالى، فاحتاج، فاستَجْدى[٥] بعضَ إخوانه، فقال: «أين مالُك؟» قال: «تصدّقت به ليعوّضني الله تعالى في الآخرة خيرًا منه»، فقال: «أئنّك مِن المصدِّقين بيوم الدين؟ أو مِن المتصدّقين لطلب الثواب؟

---

١ الصافات، ٣٧/٤٥.

٢ بغير نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/١٠. ونسبه الألوسي إلى محمّد بن فيّاض، بلفظ:
مـحـادثـةُ الـكـرامِ عـلـى الـشـرابِ
روح المعاني للألوسي، ١٢/٨٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن كعب عن حمزة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٥.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤. وهو في سنن الترمذي، ٤/٦٣٨ (٢٤٥٩)؛ وسنن ابن ماجه، ٥/٣٢٨ (٤٢٦٠)، بلفظ: «الكيّس مَن دانَ نفسه».

٥ وفي هامش م: أي: طلب الجدوى. «منه».

والله لا أعطيك شيئًا».[١] فيكون التعرّض لذِكر موتهم وكونهم ترابًا وعظامًا حينئذ لتأكيد إنكار الجزاء المبنيّ على إنكار البعث.

﴿قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٥٥﴾

﴿قَالَ﴾ أي: ذلك القائل بعدما حكى لجُلسائه مقالَ قرينه في الدنيا: ﴿هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ أي: إلى أهل النار؛ لأُريكم ذلك القرين، يريد بذلك بيانَ صِدقه / فيما حكاه. وقيل: القائل هو الله تعالى، أو بعضُ الملائكة، يقول لهم: هل تحبّون أن تطّلعوا على أهل النار لأريكم ذلك القَرين فتعلَموا أين منزلتكم مِن منزلتهم؟ قيل: إنّ في الجنّة كُوًى يَنظر منها أهلها إلى أهل النار. [٤١٤ظ]

﴿فَٱطَّلَعَ﴾ أي: عليهم ﴿فَرَءَاهُ﴾ أي: قرينَه ﴿فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي: في وسَطها. وقُرئ: "فَأَطَّلِعَ"[٢] على لفظ المضارع المنصوب. وقُرئ: "مُطْلِعُونَ فَأَطْلَعَ"،[٣] و"فَأُطْلِعَ"[٤] بالتخفيف على لفظ الماضي والمضارعِ المنصوب. يقال: "طلَعَ علينا فلان" و"اطَّلَعَ" و"أطْلَعَ" بمعنًى واحد.

والمعنى: هل أنتم مطّلعون إلى القرين فأطَّلِعَ أنا أيضًا، أو عرض عليهم الاطِّلاعَ فقبِلوا ما عرضه فاطَّلَع هو بعد ذلك. وإن جُعل الاطِّلاع متعدّيًا فالمعنى: أنّه لمّا شرَط في اطّلاعه اطّلاعَهم كما هو ديدَن الجُلساء فكأنّهم مُطْلِعوه. وقيل: الخطاب على هذا للملائكة.

وقُرئ: "مُطْلِعُونِ" بكسر "النون"[٥] أراد مُطْلِعُونَ إيّايَ، فوُضع المتّصل موضع المنفصل، كقوله:

هـم الـفـاعـلـون الـخـيـرَ والآمِـرونَـه[٦]

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ١٦٩/٦ (الكهف، ٣٢/١٨)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٤/٤.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٦.

[٣] قراءة شاذّة، غير منسوبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٠٣/٩.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحَيصن. إتحاف فضلاء البشر للدمياطي، ص ٤٧٣.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٦.

[٦] وفي هامش م: تمامه:
إذا ما خَشُوا مِن مُحدَثِ الدهر مُعظمًا
بغير نسبة في خزانة الأدب للبغدادي، ٢٦٩/٤. وهو في الكتاب لسيبويه، ١٨٨/١، بلفظ:
هُـم الـقـائـلـون الـخـيـرَ والآمِـرونـه

أو شُبّه اسم الفاعل بالمضارع، لِما بينهما مِن التآخي.

﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٥٧ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩﴾

﴿قَالَ﴾ أي: القائل مخاطِبًا لقرينه: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ أي: لَتُهلِكُني بالإغواء. وقُرئ: "لَتُغْوِينِ".[١] و"التاء" فيه معنى التعجّب، و﴿إِن﴾ هي المخفَّفة مِن "إنّ"، وضمير الشأن الذي هو اسمُها محذوف، و"اللام" فارقة، أي: تالله إنّ الشأن كِدْتَ لَتُرديني.

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ بالهداية والعصمة ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ أي: مِن الذين أحضِروا العذابَ كما أُحْضِرتَهُ / أنت وأضرابُك. [٤١٥و]

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ رجوع إلى محاورة جُلسائه بعد إتمام الكلام مع قَرينه تَبَجّحًا وابتهاجًا بما أتاح الله عزّ وجلّ لهم مِن الفضل العظيم والنعيمِ المقيم. و"الهمزة" للتقرير، وفيها معنى التعجّب. و"الفاء" للعطف على مقدَّر يقتضيه نظم الكلام، أي: أنحن مخلَّدون منعَّمون، فما نحن بمَيِّتين، أي: بمَن شأنُه الموت؟ وقُرئ: "بِمَائِتِينَ".[٢]

﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ التي كانت في الدنيا، وهي متناوِلة لِما في القبر بعد الإحياء للسؤال. قاله تصديقًا لقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان، ٥٦/٤٤].

وقيل: إنّ أهل الجنّة أوّلَ ما دَخلوا الجنّة لا يعلمون أنّهم لا يموتون، فإذا جِيءَ بالموت على صورة كبشٍ أملَح وذُبِحَ فنُودي: «يا أهل الجنّة خلودٌ فلا موت، ويا أهل النار خلودٌ فلا موتَ»؛[٣] يعلمونَه فيقولون ذلك تحدّثًا بنعمة الله تعالى واغتباطًا بها.

---

[١] قراءة شاذّة، مروية عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٤٥/٤.

[٢] قراءة شاذّة، مروية عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٦.

[٣] صحيح البخاري، ٩٣/٦ (٤٧٣٠)؛ صحيح مسلم، ٢١٨٨/٤ (٢٨٤٩).

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ كالكُفّار، فإنّ النجاة مِن العذاب أيضًا نعمة جليلة مستوجِبة للتحدّث بها.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٠ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ۝٦١﴾

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: الأمرَ العظيم الذي نحن فيه ﴿لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾. وقيل: هو مِن قول الله عزّ وجلّ تقريرًا لقولهم وتصديقًا له. وقُرئ: "لَهُوَ الرِّزْقُ الْعَظِيمُ"،[1] وهو ما رُزِقوه مِن السعادة العُظمى.

﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ أي: لنَيل هذا المرام الجليل يجب أن يعمل العاملون، لا للحظوظ الدنيويّة السريعةِ الانصِرام، المَشوبةِ بفنون / الآلام. وهذا [٤١٥ظ] أيضًا يحتمل أن يكون مِن كلام ربّ العزّة.

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ۝٦٣﴾

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ أصل "النُّزُل" الفضل والرَّيع، فاستعير للحاصل مِن الشيء، فانتصابُه على التميز، أي: أَذلك الرزق المعلوم الذي حاصله اللذّة والسرور خيرٌ نزلًا أم شجرة الزقّوم التي حاصِلها الألَم والغمّ؟ ويُقال: "النُّزُل" لِما يُقام ويُهيَّأ مِن الطعام الحاضر للنازل، فانتصابُه على الحاليّة. والمعنى: أنّ الرزق المعلوم نُزُل أهل الجنّة، وأهلُ النار نُزُلهم شجرة الزقّوم، فأيُّهما خير في كونه نُزُلًا؟ و﴿ٱلزَّقُّومِ﴾ اسم شجرة صغيرة الورَق دَفِرَةٍ[2] مُرّةٍ كريهةِ الرائحة، تكون في تِهامة، سُمّيت به الشجرة الموصوفة.

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ مِحنةً وعذابًا لهم في الآخرة، وابتلاءً في الدنيا، فإنّهم لمّا سمعوا أنّها في النار قالوا: كيف يمكن ذلك، والنار تُحرق الشجر؟ ولم يعلموا أنّ مَن قدَر على خلق حيوان يعيش في النار ويتلذّذ بها أقدَر على خَلق الشجر في النار، وحِفظه مِن الإحراق.

---

[1] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥.

[2] أي: مُنتِنة. والدَّفَر: النَّتْنُ خاصّة. انظر: الصحاح للجوهري، «دفر».

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۝٦٥﴾

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ مَنبتُها في قَعر جهنّم، وأغصانُها ترتفع إلى دَرَكاتها. وقُرئ: "نَابِتَةٌ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ".[١]

﴿طَلْعُهَا﴾ أي: حَملُها الذي يخرج منها، مستعارٌ في طَلْع النخلة لمشاركته له في الشكل أو الطُّلوعِ مِن الشجر. قالوا: "أوّل التمر طَلْع، ثمّ خِلال، ثمّ بلَح، ثمّ بُسر، ثمّ رُطَب، ثمّ تَمر".

﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ في تناهي القُبح والهول. وهو تشبيه بالمُخيَّل، كتشبيه الفائق في الحسن بالمَلَك. وقيل: ﴿ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ الحيّات الهائلة القبيحة المنظر، لها أعراف. وقيل: إنّ شجرًا يُقال له: "الأَسْتَنُ" خَشِنًا مُنتِنًا مُرًّا، منكرَ الصورة، يُسمّى ثمرُه "رءوسَ الشياطين".

﴿فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝٦٧﴾

﴿فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا﴾ / أي: مِن الشجرة، أو مِن طَلعها، فالتأنيث مكتسَب مِن المضاف إليه. ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ لِغلَبة الجوع، أو للقَسر على أكلها وإن كرهوها، ليكون ذلك بابًا مِن العذاب. [٤١٦و]

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ على الشجرة التي مَلأُوا منها بطونهم بعدَ ما شبعوا منها، وغلبَهم العطش، وطال استسقاؤهم، كما يُنبئ عنه كلمة ﴿ثُمَّ﴾، ويجوز أن تكون لِما في شرابهم مِن مزيد الكراهة والبشاعة.

﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ لَشرابًا مِن غسّاق أو صديدٍ مَشوبًا بماءٍ حميم يُقطِّع أمعاءَهم. وقُرئ بالضمّ،[٢] وهو اسم لِما يُشاب، والأوّل مصدر سمّي به.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ۝٦٨﴾

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ أي: مصيرهم. وقد قُرئ كذلك.[٣] ﴿لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ إلى دَرَكاتها،

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن شيبان النحوي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٦.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٦.

أو إلى نفسِها، فإنّ الزقّوم والحميم نُزُلٌ يقدَّم إليهم قبلَ دخولها. وقيل: الحميم خارج عنها، لقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۞ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن، ٥٥/٤٣-٤٤]، يُذهَب بهم عن مَقارّهم ومنازلهم في الجحيم إلى شجرة الزقّوم، فيأكلون منها إلى أن يتملّئوا، ثمّ يُسقَون مِن الحميم، ثمّ يُردُّون إلى الجحيم. ويؤيّده أنّه قُرئ: "ثُمَّ إِنَّ مُنْقَلَبَهُمْ".[١]

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۞ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ۞ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ۞ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۞﴾

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾ تعليل لاستحقاقهم ما ذُكر مِن فنون العذاب بتقليد الآباء في الدين مِن غير أن يكون لهم ولا لآبائهم شيء يتمسّك به أصلًا، أي: وجدوهم ضالّين في نفس الأمر، ليس لهم ما يصلح شُبهةً فضلًا عن صلاحيّة الدليل.

﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ مِن غير أن يتدبّروا أنّهم على الحقّ أوّلًا مع ظهور كونهم على الباطل بأدنى تأمّلٍ. و"الإهراع": الإسراع الشديد، كأنّهم يُزعَجُون ويُحَثُّون حثًّا على الإسراع على آثارهم. وقيل: هو إسراع فيه شِبهُ رَعدة.

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبلَ قومك قريش ﴿أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مِن الأمم السالفة، وهو جواب قسَم محذوف.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ / أي: أنبياءَ أولي عدد كثير، [٤١٦ظ] وذوي شأنٍ خطير، بيّنوا لهم بطلان ما هم عليه، وأنذروهم عاقبتَه الوَخيمة. وتكرير القسَم لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمون كلٍّ مِن الجملتين.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ مِن الهول والفظاعة، لمّا لم يلتفتوا إلى الإنذار ولم يرفعوا له رأسًا. والخِطاب إمّا للرسول صلّى الله عليه وسلّم، أو لكلِّ أحدٍ ممّن يتمكّن مِن مشاهدة آثارِهم.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٦.

وحيث كان المعنى أنّهم أُهلِكوا إهلاكًا فظيعًا استثنِي عنهم المخلَصون بقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي: الذين أخلَصهم الله تعالى بتوفيقهم للإيمان، والعملِ بموجَب الإنذار. وقُرئ: "الْمُخْلِصِينَ" بكسر "اللام"،[1] أي: الذين أخلَصوا دينهم لله تعالى.

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ نوعُ تفصيل لِما أُجمِلَ فيما قبلُ ببيان أحوال بعض المرسلين وحُسن عاقبتهم، متضمّن لبيان سُوءِ عاقبة بعض المنذَرين حسبما أشيرَ إليه بقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [يونس، ٧٣/١٠]، كقوم نوح وآل فرعونَ وقوم لوط وقوم إلياس، ولبيان حُسن عاقبة بعضهم الذين أخلصهم الله تعالى،[2] ووفّقهم للإيمان، كما أشار إليه الاستثناء، كقوم يونس عليهم السلام. ووجه تقديم قصّة نوح على سائر القصص غنيّ عن البيان.

و"اللام" جواب قَسَم محذوف، وكذا ما في قوله تعالى: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ أي: وباللهِ لقد دعانا نوح حين يَئِس مِن إيمان قومه بعد ما دعاهم إليه أحقابًا ودُهورًا، فلم يزدهم دعاؤه إلّا فِرارًا ونُفورًا، فأجبناه أحسنَ الإجابة، فواللهِ لَنِعم المُجيبون نحن. فحُذف ما حُذف ثقةً بدلالة ما ذُكر عليه. والجمع دليل العظمة والكبرياء.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: مِن الغرَق. وقيل: مِن أذيّة قومه.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ فحسبُ حيث أهلكنا الكفرة بموجَب دعائه: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح، ٢٦/٧١]. وقد رُوي أنّه مات كلّ

---

[1] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٩٥/٢.

[2] س – تعالى.

مَن كان معه في السفينة غيرَ أبنائه وأزواجهم.[١] أو هم الذين بقُوا متناسلين إلى يوم القيامة. قال قتادة رضي الله عنه: «الناس كلّهم مِن ذرّية نوح عليه السلام».[٢]
/ وكان له ثلاثة أولاد سام وحام ويافثُ، فسام أبو العرب وفارسَ والروم، وحامٌ [٤١٧و]
أبو السُّودان مِن المشرق إلى المغرب، ويافثُ أبو التُّرك ويأجوجَ ومأجوجَ.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ مِن الأمم.

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ أي: هذا الكلام بعَينه، وهو وارد على الحكاية، كقولك: "قرأتُ ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾ [النور، ١/٢٤]". والمعنى: يُسلّمون عليه تسليمًا، ويدعون له على الدوام، أمّةً بعد أمّة. وقيل: ثمّةَ قول مقدَّر، أي: فقلنا. وقيل: ضُمِّن ﴿تَرَكْنَا﴾[٣] معنى "قُلنا".

وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ متعلّق بالجارّ والمجرور. ومعناه الدعاء بثبات هذه التحيّة واستمرارها أبدًا في العالَمين مِن الملائكة والثقلَين جميعًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لِما فُعِل به عليه السلام مِن التكرمة السنيّة، مِن إجابة دعائه أحسنَ إجابةٍ، وإبقاءِ ذرّيّته، وتبقيةِ ذِكره الجميل، وتسليمِ العالَمين عليه إلى آخر الدهر؛ بكونه مِن زُمرة المعروفين بالإحسان الراسخين فيه، وأنّ ذلك مِن قَبيل مُجازاة الإحسان بالإحسان، وذلك إشارة إلى ما ذُكر[٤] مِن الكرامات السنيّة التي وقعت جزاءً له عليه السلام. وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلوّ رتبته وبُعد منزلته في الفضل والشرف. و"الكاف" متعلّقة بما بعدها، أي: مثلَ ذلك الجزاء الكامل نجزي الكاملين في الإحسان، لا جزاءً أدنى منه.

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٤٨/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣/٥.
[٢] جامع البيان للطبري، ٥٦٠/١٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٨/٤.
[٣] في الآية السابقة.
[٤] وفي هامش م: إشارة إلى وجه التذكير. «منه».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تعليل لكونه مِن المحسنين بخلوص عبوديّته، وكمال إيمانه. وفيه مِن الدلالة على جلالة قدرِهما ما لا يخفى.

﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ أي: المغايرِين لنوح وأهله، وهم كفّار قومه أجمعين.

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ٨٣ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٍ سَلِيمٍ ٨٤﴾

[٤١٧ظ] ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: ممّن شايَعه في أصول الدين / ﴿لَإِبۡرَٰهِيمَ﴾ وإن اختلفت فروع شرائعهما. ويجوز أن يكون بين شريعتيهما اتّفاق كلّي أو أكثري. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «مِن أهل دينه، وعلى سنّته»،[١] أو ممّن شايَعه على التصلّب في دين الله، ومصابرةِ المكذّبين، وما كان بينهما إلّا نبيّان، هود وصالح عليهم السلام، وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستُّمائة وأربعون سنةً.

﴿إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ منصوب بـ"اذكر"، أو متعلّق بما في الشيعة مِن معنى المشايَعة، ﴿بِقَلۡبٍ سَلِيمٍ﴾ أي: مِن آفات القلوب، أو مِن العلائق الشاغِلة عن التبتّل إلى الله عزّ وجلّ. ومعنى "المجيء به ربَّه" إخلاصُه له، كأنّه جاء به مُتْحِفًا إيّاه بطريق التمثيل.

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ٨٥ أَئِفۡكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٧﴾

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ﴾ بدل مِن الأولى، أو ظرف لـ﴿جَآءَ﴾، أو لـ﴿سَلِيمٍ﴾، أي: أيَّ شيء تعبدون؟

﴿أَئِفۡكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ أي: أتريدون آلهةً مِن دون الله إفكًا، أي: للإفك، فقُدِّم المفعول على الفعل للعناية، ثمّ المفعول له على المفعول به؛ لأنّ الأهمّ مكافحتهم بأنّهم على إفكٍ وباطل في شركهم. ويجوز أن يكون ﴿إِفۡكًا﴾ مفعولًا به بمعنى: أتريدون إفكًا؟ ثمّ يفسّر "الإفك" بقوله: "آلهةً مِن دون الله" دلالةً على أنّها إفكٌ في نفسها للمبالغة، أو يُراد بها عبادتها بحذف المضاف، ويجوز أن يكون حالًا بمعنى "آفِكين".

---

[١] جامع البيان للطبري، ١٩/٥٦٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٨.

﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: بمَن هو حقيق بالعبادة لكونه ربًا للعالمين حتّى تركتم عبادته خاصّةً، وأشركتم به أخسّ مخلوقاته؟ أو فما ظنّكم به أيُّ شيء هو مِن الأشياء حتّى جعلتم الأصنام له أندادًا؟ أو فما ظنّكم به ماذا يفعل بكم؟ وكيف يعاقبكم بعد ما فعلتم مِن الإشراك به؟

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾

/ ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾ قيل: كانت له عليه السلام حمّى لها نوبة معيّنة في بعض ساعات الليل، فنظر ليَعرف هل هي تلك الساعة، فإذا هي قد حضرت، ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وكان صادقًا في ذلك، فجعله عُذرًا في تخلّفه عن عيدهم. وقيل: أراد إنّي سقيم القلب لكفركم. [٤١٨و]

وقيل: نظر في علمها، أو في كُتبها، أو أحكامها. ولا منعَ مِن ذلك حيث كان قصده عليه السلام إيهامهم حين أرادوا أن يخرجوا به عليه السلام إلى مُعَيَّدِهم ليتركوه، فإنّ القوم كانوا نجّامين، فأوهمهم أنّه قد استدلّ بأمارةٍ في علم النجوم على أنّه سقيم، أي: مُشارِف للسقم، وهو الطاعون، وكان أغلبَ الأسقام عليهم، وكانوا يخافون العدوى، ليتفرّقوا عنه، فهربوا منه إلى مُعَيَّدِهم وتركوه في بيت الأصنام، وذلك قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ أي: هاربين مخافةَ العدوى.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ أي: ذهب إليها في خُفْيةٍ، وأصلُه الميل بحيلةٍ، ﴿فَقَالَ﴾ للأصنام استهزاءً: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: مِن الطعام الذي كانوا يصنعونه عندها لِتُبَرِّك عليه.

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ أي: بجوابي.

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ فمالَ مستعليًا عليهم. وقوله تعالى: ﴿ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ مصدر مؤكِّدٌ لِـ﴿رَاغَ عَلَيْهِمْ﴾، فإنّه بمعنى "ضَرَبهم"، أو لفعل مُضمَر هو حال مِن فاعله،

أي: فراغَ عليهم يضرِبهم ضربًا، أو هو الحال منه على أنّه مصدر بمعنى الفاعل، أي: فراغَ عليهم ضاربًا باليمين، أي: ضربًا شديدًا قويًا؛ وذلك لأنّ اليمين أقوى الجارحتَين وأشدُّهما، وقوّة الآلة تقتضي قوّة الفعل وشدّته. وقيل: بالقوّة والمَتانة، كما في قوله:

إذا ما رايةٌ رُفِعَتْ لِمَجدٍ    تلقّاها عَرابةُ باليمينِ[1]

[٤١٨ظ] أي: بالقوّة، وعلى ذلك / مدارُ تسمية الحَلِف باليمين؛ لأنّه يقوّي الكلام ويؤكّده. وقيل: بسبب الحَلِف، وهو قوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء، ٥٧/٢١].

﴿فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ أي: المأمورون بإحضاره عليه السلام بعد ما رَجعوا عن عيدهم إلى بيت الأصنام، فوجدوها مكسورةً، فسألوا عن الفاعل، فظنّوا أنّه عليه السلام فعله، فقيل: فأْتوا به.

﴿يَزِفُّونَ﴾ حال مِن "واو" ﴿أَقۡبَلُوٓاْ﴾، أي: يُسرعون، مِن "زَفيف النَّعام". وقُرِئَ: "يُزِفُّونَ"[2] مِن "أزَفَّ" إذا دخل في الزَّفيف، أو مِن "أزَفَّه"، أي: حمله على الزَّفيف، أي: يُزِفُّ بعضهم بعضًا، و"يُزَفُّونَ"[3] على البناء للمفعول، أي: يُحمَلُون على الزَّفيف، و"يَزِفُونَ"[4] مِن "وَزَفَ يَزِفُ" إذا أسرع، و"يَزْفُونَ"[5] مِن "زَفاه" إذا حَداه، كأنّ بعضهم يَزْفُو بعضًا، لتسارعهم إليه عليه السلام.

﴿قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ۝٩٦﴾

﴿قَالَ﴾ أي: بعد ما أتَوا به عليه السلام وجرى بينه عليه السلام وبينهم مِن المحاورات ما نطق به قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾

---

[1] للشمّاخ في ديوانه، ص ٣٣٦. ونسبه الجوهري للحطيئة، وقال: «وعَرابة، بالفتح: اسم رجل مِن الأنصار مِن الأوس». انظر: الصحاح للجوهري، «عرب».

[2] قرأ بها حمزة الزيّات. النشر لابن الجزري، ٣٥٧/٢.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مقسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٦.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن زيد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٦.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٦.

[الأنبياء، ٦٢/٢١] إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء، ٦٥/٢١]: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ ما تنحتونه مِن الأصنام.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ حال مِن فاعل ﴿تَعْبُدُونَ﴾، مؤكِّدة للإنكار والتوبيخ، أي: والحال أنّه تعالى خلقكم وخلَق ما تعملونه، فإنّ جوهر أصنامهم ومادّتَها بخلقه تعالى، وشكلَها وإن كان بفعلهم لكنّه بإقداره تعالى إيّاهم عليه، وخلقِه ما يتوقّف عليه فعلُهم مِن الدواعي والعُدَدِ والأسبابِ.

و﴿مَا تَعْمَلُونَ﴾ إمّا عبارة عن الأصنام، فوضعُه موضع ضمير ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾ للإيذان بأنّ مخلوقيّتها لله عزّ وجلّ ليس مِن حيث نَحتُهم لها فقط؛ بل / مِن [٤١٩و]
حيث سائرُ أعمالهم أيضًا مِن التصوير والتحلية والتزيين ونحوها، وإمّا على عمومه، فينتظم الأصنامَ انتظامًا أوّليًا مع ما فيه مِن تحقيق الحقّ ببيان أنّ جميع ما يعملونه كائنًا ما كان مخلوقٌ له سبحانه.

وقيل: ﴿مَا﴾ مصدريّة، أي: عملَكم على أنّه بمعنى المفعول. وقيل: بمعناه، فإنّ فعلهم إذا كان بخَلق الله تعالى كان مفعولهم المتوقّف على فعلهم أولى بذلك.

﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾

﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: في النار الشديدة الاتّقاد، مِن "الجَحْمة"؛ وهي شدّة التأجُج، و"اللام" عوض مِن المضاف إليه، أي: جحيم ذلك البنيان، وقد ذُكر كيفيّة بنائهم له في سورة الأنبياء.[1]

﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾ فإنّه عليه السلام لمّا قهرهم بالحجّة وألقمهم الحجَر قصدوا ما قصدوا لئلّا يظهر للعامّة عجزهم، ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ الأذلّين بإبطال كيدهم، وجعلِه برهانًا نيّرًا على علوّ شأنه عليه السلام بجعل النار عليه بردًا وسلامًا.

---

[1] الأنبياء، ٦٨/٢١.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٩٩﴾

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أي: مهاجرٌ إلى حيث أمرَني ربّي، كما قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [العنكبوت، ٢٦/٢٩]؛ وهو الشام، أو إلى حيث أتجرّد فيه لعبادته تعالى.

﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي: إلى ما فيه صلاح ديني، أو إلى مَقصدي. وبَتُّ القول بذلك لسبق الوعد، أو لفَرْط توكّله، أو للبناء على عادته تعالى معه، ولم يكن كذلك حال موسى عليه السلام حيث قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص، ٢٢/٢٨]، ولذلك أتى بصيغة التوقّع.

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝١٠٠ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ۝١٠١﴾

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: بعضَ الصالحين، يعينني على الدعوة والطاعة، ويُؤنِسُني في الغُربة، يعني الولدَ؛ لأنّ لفظ / الهبة على الإطلاق خاصّ [٤١٩ظ] به، وإن كان قد ورد مقيّدًا بالأخوّة في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم، ٥٣/١٩]، ولقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ فإنّه صريح في أنّ المبشَّر به عينُ ما استوهبه عليه السلام.

ولقد جُمِع فيه بِشارات ثلاث: بشارة أنّه غلام، وأنّه يبلُغ أوانَ الحُلُم، وأنّه يكون حليمًا، وأيُّ حِلم يعادل حِلمَه عليه السلام حين عَرض عليه أبوه الذبح فقال: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.[1]

وقيل: ما نعتَ الله الأنبياءَ عليهم السلام بأقلّ ممّا نعتَهم بالحِلم لعِزّة وجوده غيرَ إبراهيمَ وابنه، فإنّه تعالى نَعتَهما به، وحالُهما المَحكيّة بَعدُ أعدلُ بيّنةٍ بذلك.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ۝١٠٢﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ فصيحة مُعرِبة عن مقدَّر قد حُذِف تعويلًا على شهادة الحال، وإيذانًا بعدم الحاجة إلى التصريح به

---

[1] في الآية التالية.

لاستحالة التخلّف والتأخّر بعد البِشارة، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ [يوسف، ٣١/١٢]، وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ [النمل، ٤٠/٢٧]، أي: فوَهَبْناهُ له، فَنَشَأ، فلمّا بلغ رتبةَ أن يسعى معه في أشغاله وحوائجه.

و﴿مَعَهُ﴾ متعلّق بمحذوف ينبئ عنه ﴿ٱلسَّعْىَ﴾، لا بنفسه؛ لأنّ صلة المصدر لا يتقدّمه،[١] ولا بـ﴿بَلَغَ﴾؛ لأنّ بلوغهما لم يكن معًا، كأنّه لمّا ذُكِر السعي قيل: مع مَن؟ فقيل: "معه"، وتخصيصه لأنّ الأب أكمل في الرفق والاستصلاح، فلا يستسعيه قبل أوانه، أو لأنّه استوهبه لذلك، وكان له يومئذ ثلاثَ عشرةَ سنةً.

﴿قَالَ﴾ أي: إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ أي: أرى هذه الصورةَ بعينها، أو ما هذه عبارتُه وتأويلُه. وقيل: إنّه رأى ليلة التروية كأنّ قائلًا يقول له: "إنّ الله يأمرك بذَبح ابنك هذا"، فلمّا أصبح روّى في ذلك مِن الصباح إلى الرّواح؛ أمِن اللهِ هذا الحُلُم أم مِن الشيطان؟ فمِن ثَمّةَ سمّي يومَ التروية، فلمّا أمسى رأى مِثل ذلك، فعَرف أنّه مِن الله تعالى، فمِن ثمّة / سُمّي [٤٢٠و] يومَ عرفةَ، ثمّ رأى مثله في الليلة الثالثة فهَمّ بنحره، فسُمّي اليومُ يومَ النحر.[٢]

وقيل: إنّ الملائكة حين بشّرته بغلام حليم قال: «إذَنْ ذبيح الله»، فلمّا وُلد وبلَغ حدَّ السعي معه قيل لَه: «أَوْفِ بنَذرك».[٣]

والأظهر الأشهر أنّ المخاطَب إسماعيل عليه السلام، إذ هو الذي وُهِبَ إثرَ المهاجَرة، ولأنّ البِشارة بإسحاق بعده معطوف على البِشارة بهذا الغلام، ولقوله صلّى الله عليه وسلّم: «أنا ابن الذبيحَين»،[٤] فأحدهما جدّه إسماعيل عليه السلام، والآخَر أبوه عبد الله، فإنّ عبدَ المطّلب نذَر أن يذبَح ولدًا إن سهّل الله تعالى له

---

[١] س: بتقدّمه.

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٦/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٣/٤.

[٣] جامع البيان للطبري، ٥٨٠/١٩؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٤/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٤/٤.

[٤] الكشّاف للزمخشري، ٥٤/٤. وقال الزيلعي: «غريب». تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ١٧٧/٣. وأخرجه الحاكم في المستدرك، ٦٠٤/٢ (٤٠٣٦)، مِن قول أعرابي للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ولفظه: «فعُد عليّ بما أفاءَ الله عليك يا ابن الذبيحَين»، فتبسّم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولم ينكِر عليه.

حفر بئر زمزم، أو بلغ بنوه عشرةً، فلمّا حصل ذلك وخرج السهم على عبد الله فداه بمائةٍ مِن الإبل،[١] ولذلك سُنّت الدية مائةً.

ولأنّ ذلك كان بمكّة، وكان قرنا الكبش معلَّقَين بالكعبة حتّى احترقا في أيّام ابن الزبير، ولم يكن إسحاقُ ثمّة، ولأنّ بشارة إسحاق كانت مقرونةً بولادة يعقوب منه، فلا يناسبه الأمر بذَبحه مراهِقًا.

وما رُوي أنّه صلّى الله عليه وسلّم سئل: «أيّ النسب أشرف؟» فقال: «يوسفُ صدّيق الله ابنُ يعقوبَ إسرائيلِ الله ابنِ إسحاقَ ذبيحِ الله ابنِ إبراهيمَ خليلِ الله»،[٢] فالصحيح أنّه عليه الصلاة والسلام قال: «يوسفُ بن يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ[٣] إبراهيمَ»،[٤] والزوائد مِن الراوي.[٥] وما رُوي مِن أنّ يعقوب كتب إلى يوسف مثلَ ذلك لم يثبت.[٦]

وقُرئ: "إنِّيَ" بفتح "الياء" فيهما.[٧]

﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ مِن "الرأي"، وإنّما شاوَره فيه وهو أمر محتوم ليَعلم ما عنده فيما نزَل مِن بلاء الله تعالى فيثبّت قدمه إن جزِع، ويأمَنَ عليه إن سلِم، ليوطّنَ نفسه عليه فيهون، ويكتسبَ المثوبة عليه بالانقياد له قبل نزوله. وقُرئ: "مَاذَا تُرِي"[٨] بضمّ "التاء" وكسر "الراء"،[٩] وبفتحها[١٠] مبنيًّا للمفعول.

---

[١] انظر حديث الأعرابي في جامع البيان للطبري، ١٩/٥٩٧؛ والمستدرك للحاكم، ٢/٦٠٤ (٤٠٣٦).

[٢] أخرج الطبراني في المعجم الكبير، ١٠/١٤٩ (١٠٢٧٨)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه سُئل: «مَن أكرم الناس؟»، قال: «يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيحِ الله».

[٣] س: ابن.

[٤] أخرج البخاري في صحيحه، ٤/١٥١ (٣٣٩٠)، عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسفُ بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام».

[٥] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/١٥.

[٦] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/١٥. وانظر: تفسير ابن كثير، ٤/٤٠٥.

[٧] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٠.

[٨] م ط س: ما تري. | وأظنه وقع سهوًا، والصواب ما أثبتُّه.

[٩] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٧.

[١٠] قراءة شاذّة، مروية عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٧.

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ أي: تؤمر به، / فحُذف الجارّ أوّلًا على القاعدة [٤٢٠ظ]
المطّردة، ثمّ حُذف العائد إلى الموصول بعد انقلابه منصوبًا بإيصاله إلى الفعل، أو حُذفا دفعةً، أو "افعَل أمرَك" على إضافة المصدر إلى المفعول وتسميةِ المأمور به أمرًا. وقُرئ: "مَا تُؤمَرُ بِهِ".[١] وصيغة المضارع للدلالة على أنّ الأمر متعلّق به متوجّه إليه، مستمرّ إلى حين الامتثال به.

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على الذبح، أو على قضاء الله تعالى.[٢]

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ أي: استسلَما لأمر الله تعالى، وانقادا وخضعا له. يقال: "سَلَّمَ لأمر الله" و"أَسلَمَ" و"استَسلَمَ" بمعنًى واحد، وقد قُرئ بهنّ جميعًا.[٣] وأصلُها مِن قولك: "سَلِمَ هذا لِفلان" إذا خَلُص له، ومعناه: سَلِمَ مِن أن ينازِعَ فيه. وقولهم: "سَلَّمَ لأمر الله" و"أَسلَمَ له" منقولان منه. ومعناهما: أخلَصَ نفسه لله، وجعلها سالمةً له، وكذلك معنى "استَسلَمَ" استَخلَصَ نفسه له تعالى. وعن قتادة رضي الله عنه في ﴿أَسۡلَمَا﴾: «أَسلَمَ إبراهيمُ ابنَه، وإسماعيلُ نفسَه».[٤]

﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ صرَعه على شِقّه، فوقع جَبينُه على الأرض، وهو أحد جانبَي الجبهة. وقيل: كبّه على وجهه بإشارته كيلا يَرى منه ما يورث رِقّةً تحُول بينه وبين أمر الله تعالى، وكان ذلك عند الصخرة مِن مِنًى. وقيل: في الموضع المُشرِف على مسجد مِنى. وقيل: في المَنحر الذي يُنحر اليومَ.

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦﴾

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٥٤/٤.

٢ س - تعالى.

٣ هي ثلاث قراءات: "أَسلَمَا" قراءة الجمهور. و"سَلَّمَا" قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وعليّ وابن عبّاس رضي الله عنهم ومجاهد والضحّاك وجعفر بن محمّد والأعمش والثوري. و"استَسلَمَا" قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ١١٧/٩.

٤ جامع البيان للطبري، ٥٨٤/١٩؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٦/٨.

﴿وَنَـٰدَيۡنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۞ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾ بالعزم على الإتيان بالمأمور به وترتيبِ مقدّماته. وقد رُوي أنّه أَمَرَّ السكّينَ بقوّته على حَلْقه مِرارًا فلم يقطع، ثمّ وضع السكّين على قَفاه فانقلب السكّين، فعند ذلك وقع النداء.[١]

وجواب ﴿لَمَّا﴾ محذوف إيذانًا بعدم وفاء التعبير بتفاصيله، كأنّه قيل: كان ما كان ممّا لا يحيط به نطاق البيان مِن استبشارهما وشكرهما الله تعالى على ما أنعم به عليهما مِن دفع البلاء بعد حلوله، والتوفيقِ لِما لم يوفَّق أحد لمِثله، وإظهارِ / فضلهما بذلك على العالمين مع إحراز الثواب العظيم، إلى غير ذلك. [٤٢١و]

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ تعليل لتفريج تلك الكُربة عنهما بإحسانهما. واحتجّ به مَن جوّز النسخ قبل وقوع المأمور به، فإنّه عليه السلام كان مأمورًا بالذبح لقوله تعالى: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ﴾،[٢] ولم يحصل.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَـٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ الابتلاء البيّن الذي يتميّز فيه المخلِص عن غيره، أو المِحنةُ البيّنةُ الصعوبةِ؛ إذ لا شيءَ أصعب منها.

﴿وَفَدَيۡنَـٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ ١٠٧﴾

﴿وَفَدَيۡنَـٰهُ بِذِبۡحٍ﴾ بما يُذبَح بدلَه فيتمّ به الفعل، ﴿عَظِيمٍ﴾ أي: عظيمِ الجُثّة سمينٍ، أو عظيمِ القَدر؛ لأنّه يفدي به الله نبيًّا ابنَ نبي وأيِّ نبيّ مِن نسله سيّدُ المرسلين.

قيل: كان ذلك كبشًا مِن الجنّة. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أنّه الكبش الذي قرّبه هابيل فتُقُبِّل منه، وكان يرعى في[٣] الجنّة حتّى فُدِي به إسماعيلُ عليه السلام».[٤] وقيل: فُدِي بوَعْل أُهبِطَ عليه مِن ثَبير.[٥]

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٤/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٦/٤.

[٢] الصافات، ١٠٢/٣٧.

[٣] م + في.

[٤] جامع البيان للطبري، ٦٠١/١٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٦/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١١٨/٩.

[٥] جامع البيان للطبري، ٦٠٤/١٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٥/٤.

ورُوي أنّه هرَب مِن إبراهيم عليه السلام عند الجمرة، فرماه بسبع حصيّات حتّى أخذه،[١] فبقي سُنّةً في الرمي. ورُوي أنّه رمى الشيطانَ حين تعرّض له بالوسوسة عند ذبح ولده.[٢]

ورُوي أنه لمّا ذبحه قال جبريل عليه السلام: «الله أكبر، الله أكبر»، فقال الذبيح: «لا إلٰه إلّا الله، والله أكبر»، فقال إبراهيم: «الله أكبر، ولله الحمد»،[٣] فبقي سُنّةً.

والفادي في الحقيقة هو إبراهيم، وإنّما قيل: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ﴾ لأنّه تعالى هو المعطي له والآمِرُ به على التجوّز في الفداء أو الإسناد.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْأَخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْأَخِرِينَ ۞ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ قد سلف بيانه في خاتمة قصّة نوح.[٤]

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى إبقاءِ ذِكره الجميل فيما بين الأمم، لا إلى ما أشيرَ إليه فيما سبَق، فلا تكرارَ. وعدم تصدير الجملة بـ"إنّا" للاكتفاءِ بما مرّ آنفًا.

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الراسخين في الإيمان على وجه الإيقان والاطمئنان.

﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: مقضيًا بنبوّته / مقدّرًا كونه مِن [٤٢١ظ]
الصالحين، وبهذا الاعتبار وقعا حالَين. ولا حاجةَ إلى وجود المبشَّر به وقتَ البِشارة، فإنّ وجود ذي الحال ليس بشرط، وإنّما الشرط مقارَنة تعلّقِ الفعل به لاعتبار معنى الحال. فلا حاجةَ إلى تقدير مضافٍ يُجعل عاملًا فيهما مثلَ:

---

[١] جامع البيان للطبري، ٦٠٣/١٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٥/٤.

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٥/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٥/٤.

[٣] الكشّاف للزمخشري، ٥٥/٤؛ تفسير القرطبي، ١٠٢/١٥.

[٤] الصافات، ٧٩/٣٧.

"وبشّرناه بوجود إسحاقَ؛ أي بأن يوجدَ إسحاق نبيًّا مِن الصالحين"، ومع ذلك لا يصير نظيرَ قوله: ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر، ٧٣/٣٩]، فإنّ الداخلين كانوا مقدِّرين خلودَهم وقت الدخول، وإسحاق عليه السلام لم يكن مقدِّرًا نبوّةَ نفسه وصلاحَها حين ما يوجد.

ومَن فسّر "الغلام" بإسحاق جعل المقصود مِن البِشارة نبوّتَه.

وفي ذِكر الصلاح بعد النبوّة تعظيمٌ لشأنه وإيماءٌ إلى أنّه الغاية لها، لتضمّنها معنى الكمال والتكميل بالفعل على الإطلاق.

﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ١١٣﴾

﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾ على إبراهيم في أولاده ﴿وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَ﴾ بأن أخرجنا مِن صُلبه أنبياء بني إسرائيل وغيرَهم كأيّوب وشعيب عليهم السلام، أو أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا. وقُرئ: "وَبَرَّكْنَا".[1]

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ﴾ في عمله، أو لنفسه بالإيمان والطاعة، ﴿وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ بالكفر والمعاصي، ﴿مُبِينٞ﴾ ظاهرٌ ظلمُه. وفيه تنبيه على أنّ النسب لا تأثيرَ له في الهداية والضلال، وأنّ الظلم في أعقابهما لا يعود عليهما بنقيصةٍ ولا عيبٍ.

﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١١٤ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ١١٥ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٦﴾

﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أي: أنعمنا عليهما بالنبوّة وغيرها مِن النعم الدينيّة والدنيويّة.

﴿وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا﴾ وهم بنو[2] إسرائيل ﴿مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ هو مَلَكةُ آل فرعونَ، وتسلُّطهم عليهم بألوان الغَشْم[3] والعذاب، كما في قوله تعالى:

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الرحمن بن عامر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٧.

[2] م: بنوا.

[3] وفي هامش م: "الغَشْم": الظلم.

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [الأعراف، ١٤١/٧]. وقيل: هو الغرق،[١] وهو بعيد؛ لأنه لم يكن عليهم كربًا ومشقةً.

﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾ أي: إيّاهما وقومهما على عدوّهم، ﴿فَكَانُوا۟﴾ بسبب ذلك ﴿هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ عليهم غلبةً لا غايةَ وراءَها بعدَ أن كان قومهما في أَسْرهم وقَسرهم مقهورين تحت أيديهم العادية يسومونهم سوءَ العذاب. وهذه التنجية وإن كانت بحسب الوجود مقارِنةً لِما ذُكر مِن النصر والغلبة، لكنّها لمّا كانت / بحسب [٤٢٢و] المفهوم عبارةً عن التخليص عن المكروه بُدِئ بها ثمّ بالنصر الذي يتحقّق مدلوله بمَحض تنجية المنصور مِن عدوّه مِن غير تغليبه عليه، ثمّ بالغلَبة؛ لتوفية مَقام الامتنان حقَّه بإظهار أنّ كلّ مرتبة مِن هذه المراتب الثلاث نعمةٌ جليلة على حِيالها.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا﴾ بعدَ ذلك ﴿ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ أي: البليغَ في البيان والتفصيلِ، وهو التوراة.

﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا﴾ بذلك ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الموصِّلَ إلى الحقّ والصوابِ بما فيه مِن تفاصيل الشرائع وتفاريعِ الأحكام.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أي: أبقَينا فيما بين الأمم الآخرين هذا الذكرَ الجميل والثناءَ الجزيل.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ الجزاءِ الكاملِ ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين هما مِن جملتهم، لا جزاءً قاصرًا عنه.

﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ سبق بيانه.

---

١ جامع البيان للطبري، ٦٠٩/١٩؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٨/٨.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ هو إلياس بن ياسين مِن سبط هارون أخي موسى عليهم السلام، بُعث بعده. وقيل: إدريس؛ لأنه قُرئ مكانَه: "إِدْرِيسَ"،[1] و"إِدْرَاسَ".[2] وقُرئ: "إِيلِيسَ".[3] وقُرئ: "الْيَاسَ" بحذف "الهمزة".[4]

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: عذابَ الله تعالى.

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ أتعبدونه وتطلبون الخيرَ منه؟ وهو اسم صنم كان لأهل بكٍّ مِن الشام، وهو البلد المعروف اليوم ببعلبكّ. قيل: كان مِن ذهَبٍ، طوله عِشرون ذراعًا، وله أربعة أوجه، فُتِنُوا به وعظَّموه حتّى أخدموه أربعمائة سَادِنٍ، وجعلوهم أنبياءَ، فكان الشيطان يدخل جوفَه ويتكلّم بشريعة الضلالة، والسَّدَنةُ يحفظونها ويعلّمونها الناس. وقيل: "البَعْل": الربّ بلغة اليمن، أي: أتعبدون بعض البُعول.

﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ أي: وتتركون عبادتَه. وقد أشيرَ إلى المقتضي للإنكار المعنيّ بـ"الهمزة"، ثمّ صُرِّح به بقوله تعالى: ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ بالنصب على البدليّة / مِن ﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾. وقُرئ بالرفع[5] على الابتداء. [٤٢٢ظ]

والتعرّض لذكر ربوبيّته تعالى لآبائهم لتأكيد إنكارِ تركِهم عبادتَه تعالى، والإشعارِ ببطلان آراءِ آبائهم أيضًا.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ﴾ بسبب تكذيبهم ذلك ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: العذابَ. والإطلاق للاكتفاء بالقرائن على أنّ الإحضار المطلَق مخصوص بالشرّ عُرفًا.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه وابن وثاب والأعمش والمنهال بن عمر والحكم بن عتيبة الكوفي. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٢١/٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. المحتسب لابن جنّي، ٢٢٥/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٢١/٩.

٤ قرأ بها ابن عامر بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٥٧/٢.

٥ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٦٠/٢.

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء مِن ضمير ﴿مُحْضَرُونَ﴾.[١]

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ۝١٢٩ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ۝١٣٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣١ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٣٢﴾

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ۞ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ هو لغة في "إلياس"، كـ"سِيناء" في "سينين". وقيل: هو جمع له أريدَ به هو وأتباعه، كـ"المُهَلَّبِين" و"الخُبَيْبِين".[٢] وفيه أنّ العَلَم إذا جُمع يجب تعريفه كالمثالَين. وقُرئ بإضافة "آلِ" إلى "يَاسِينَ"؛[٣] لأنّهما في المصحف مفصولان، فيكون ياسين أبا إلياس.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مرّ تفسيره.

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٣ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝١٣٤ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ۝١٣٥ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ۝١٣٦﴾

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ﴾ أي: اذكر وقت تَنجيتنا إيّاه ﴿وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: الباقين في العذاب، أو الماضين الهالكين.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ فإنّ في ذلك شواهد على جليّة أمره، وكونِه مِن جملة المرسلين.

﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٣٨﴾

﴿وَإِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكّة ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾ على منازلهم في متاجركم إلى الشام، وتشاهدون آثار هلاكهم، فإنّ سَذُومَ في طريق الشام، ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ داخلين في الصباح، ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾ أي: ومساءً، أو نهارًا وليلًا، ولعلّها وقعت بِقُربِ مَنزلٍ يمرّ بها المرتحِل عنه صباحًا، والقاصدُ له مساءً.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أتشاهدون ذلك فلا تعقلون حتّى تعتبروا به، وتخافوا أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم؟

---

١ في الآية السابقة.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٧/٥.

٣ قرأ بها نافع وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٦٠/٢.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ۝١٤١ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝١٤٢﴾

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وقُرئ بكسر "النون".[1] ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ أي: هرَب. وأصله: الهربُ مِن السيّد، لكن لمّا كان هرَبُه مِن قومه / بغير إذن ربّه حَسُن إطلاقه عليه. ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي: المَملوء. [٤٢٣و]

﴿فَسَاهَمَ﴾ فقارع أهلَه ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ فصار مِن المغلوبين بالقُرعة. وأصله: المُزلَقُ عن مقام الظفَر. رُوي أنّه عليه السلام لمّا وَعد قومَه بالعذاب خرَج مِن بينهم قبل أن يأمره الله تعالى به، فركِب السفينةَ، فوقفَتْ، فقالوا: «فيها عبد آبِق»، فاقترعوا، فخرجت القرعة عليه، فقال: «أنا الآبِق»، ورمى بنفسه في الماء.[2]

﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾ فابتلعه، مِن "اللُّقمة"، ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ داخل في المَلامة، أو آتٍ بما يُلام عليه، أو مُليمٌ نفسَه. وقُرئ: "مَلِيمٌ"[3] بالفتح مبنيًا مِن "لِيمَ"، كـ"مَشِيبٍ" في "مَشوب".

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤﴾

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ الذاكرين الله كثيرًا بالتسبيح مدّةَ عُمره، أو في بطن الحوت، وهو قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء، ٨٧/٢١]. وقيل: مِن المصلّين؛ فإنّه عليه السلام كان كثيرَ الصلاة في الرخاء.

﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ حيًا. وقيل: ميتًا. وفيه حثّ على إكثار الذِّكر، وتعظيمٌ لشأنه، ومَن أقبل عليه في السرّاء أخذ بيده عند الضرّاء.

---

[1] قراءة شاذّة، ذكرها أبو حيّان في سورة النساء من رواية ابن جمّاز عن نافع. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٣٧/٤ (النساء، ١٦٣/٤).

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٠/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٣٣/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٦١/٤.

[3] قراءة شاذّة، غير منسوبة. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٢٤/٩.

﴿فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ١٤٥﴾

﴿فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ﴾ بأن حملنا الحوت على لفظه بالمكان الخالي عمّا يغطّيه مِن شجرٍ أو نبت.

رُوي أنّ الحوت سار مع السفينة رافعًا رأسه يتنفس فيه يونس عليه السلام ويسبّح، ولم يفارقهم حتّى انتهَوا إلى البَرّ، فلفَظَه سالمًا لم يتغيّر منه شيء، فأسلَموا.[١] ورُوي أنّ الحوت قذَفه بساحل قرية مِن الموصل.[٢]

واختُلف في مقدار لُبثه؛ فقيل:[٣] أربعون يومًا، وقيل:[٤] عشرون، وقيل:[٥] سبعة، وقيل: ثلاثة، وقيل:[٦] لم يلبث إلّا قليلًا، ثمّ أُخرِج مِن بطنه بُعَيْدَ الوقت الذي التُقِمَ فيه. رُوي / أنّه حين ابتلعه أوحى الله تعالى إلى الحوت: «إنّي جعلتُ بطنك له سِجنًا، ولم أجعله لك طعامًا».[٧] [٤٢٣ظ]

﴿وَهُوَ سَقِيمٞ﴾ ممّا ناله، قيل: صار بدَنه كبدَن الطفل حين يُولَد.

﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ١٤٦﴾

﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ﴾ أي: فوقَه مُظِلّةً عليه ﴿شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾ وهو كلّ ما ينبسط على الأرض، ولا يقوم على ساق، كشجر البطّيخ والقثّاء والحنظل، وهو "يَفعِيل" مِن "قَطَنَ بالمكان" إذا أقام به، والأكثرون على أنّه الدُّبّاء غطّته بأوراقها عن الذباب، فإنّه لا يقع عليه، ويدلّ عليه أنّه قيل لرسول الله صلّى الله عليه

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٦٢/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٨/٥.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٦٢/٤؛ تفسير القرطبي، ١٢٨/١٥. وفي جامع البيان للطبري، ٦٣٨/١٩، مِن قول شَهر بن حَوشَب: «ثمّ انطلق به حتّى ألقاه في نِينَوى».

٣ وفي هامش م: كلبي. «منه». | انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٠/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٦٢/٤.

٤ وفي هامش م: ضحّاك. «منه». | انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٠/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٦٢/٤.

٥ وفي هامش م: عطاء. «منه». | انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٠/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٦٢/٤.

٦ وفي هامش م: حسن البصري. «منه». | انظر: الكشّاف للزمخشري، ٦٢/٤.

٧ الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٠/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٦٢/٤، من غير نسبة إلى عطاء. وفي جامع البيان للطبري، ٦٣٨/١٩، مِن قول شَهر بن حَوشَب: «فنُودي الحوت: أيا حوت، إنّا لم نجعل يونس لكَ رزقًا، إنّما جعلناك له حوزًا ومسجدًا».

وسلّم: «إنّك تُحِبّ القَرع؟»، قال: «أجَل، هي شجرةُ أخي يونس عليه السلام».[١] وقيل: هي التين. وقيل: المَوز، تَغَطّى بوَرقه، واستظلّ بأغصانه، وأفطر على ثماره. وقيل: كان يستظلّ بالشجرة، وكانت وَعْلَةٌ تختلف إليه، فيشرب مِن لبنها.

﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾

﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ﴾ هم قومه الذين هرَب منهم، وهم أهلُ نِينَوَى، والمراد به إرساله السابق، أُخبِر أوّلًا بأنّه مِن المرسلين على الإطلاق، ثمّ أُخبِر بأنّه قد أرسل إلى أمّة جمّةٍ. وكأنّ توسيط تذكير وقت هرَبه عليه السلام إلى الفُلك وما بعده بينهما لتذكير سببه، وهو ما جرى بينه عليه السلام وبين قومه مِن إنذاره إيّاهم عذابَ الله تعالى، وتعيينِه لوقت حلوله، وتعلُّلِهم وتعليقِهم لإيمانهم بظهور أَماراته، كما مرّ تفصيله في سورة يونس؛[٢] ليُعلَم أنّ إيمانهم الذي سيُحكَى بعدُ لم يكن عَقيبَ الإرسال كما هو المتبادر مِن ترتيب الإيمان عليه بـ"الفاء"؛ بل بعدَ اللّتيا والتي.[٣]

وقيل: هو إرسال آخَر إليهم. وقيل: إلى غيرهم،[٤] وليس بظاهر.

﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ أي: في مَرْأَى الناظر، فإنّه إذا نظر إليهم قال: إنّهم مائةُ ألف أو يزيدون، والمراد هو الوصف بالكَثرة. وقُرئ بـ"الواو".[٥]

[٤٢٤و] ﴿فَـَٔامَنُواْ﴾ أي: بعد ما شاهَدوا علائم حلول العذاب إيمانًا / خالصًا، ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾ أي: بالحياة الدنيا ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ قدّره الله سبحانه لهم.

---

١ س – عليه السلام. | الكشّاف للزمخشري، ٦٢/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩/٥. قال الولي العراقي: لم أقف عليه، وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده، وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه في قصّة يونس، قال النبيّ عليه السلام: «واليقطين القَرع». الفتح السماوي للمناوي، ٩٥٧/٣. وفي صحيح البخاري، ٧٩/٧ (٥٤٣٩)، مِن حديث أنس رضي الله عنه: «فرأيت رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم يتتبّع الدبّاء مِن حول الصَّحفة»، فلم أزَل أحبُّ الدبّاءَ مِن يومئذ.

٢ يونس، ٩٨/١٠.

٣ اللّتيا والّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللّتيا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١٦٤/١.

٤ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٦٢/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩/٥.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن جعفر بن محمد وأبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٨.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ۝١٤٩ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ۝١٥٠﴾

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أمر الله عزّ وجلّ في صدر السورة الكريمة رسولَه صلّى الله عليه وسلّم بتبكيت قريش، وإبطال مذهبهم في إنكار البعث بطريق الاستفتاء، وساقَ البراهينَ القاطعة الناطقة بتحقّقه لا محالةَ، وبيّنَ وقوعَه وما سيلقونه عند ذلك مِن فنون العذاب، واستثنى منهم عباده المخلَصين، وفصّل ما لهم مِن النعيم المقيم، ثمّ ذكَر أنّه قد ضلّ مِن قبلهم أكثرُ الأوّلين، وأنّه تعالى أرسل إليهم منذرين على وجه الإجمال، ثمّ أوردَ قصصَ كلٍّ واحد منهم على وجه التفصيل مُبيّنًا في كلّ قصّةٍ منها أنّهم مِن عباده تعالى، واصِفًا لهم تارةً بالإخلاص، وأخرى بالإيمان.

ثمّ أمره صلّى الله عليه وسلّم ههنا بتبكيتهم بطريق الاستفتاء عن وجه أمرٍ منكَرٍ خارجٍ عن العقول بالكلّيّة، وهي القسمة الباطلة اللازمة لِما كانوا عليه مِن الاعتقاد الزائغ، حيث كانوا يقولون كبعض أجناس العرب جُهَينةَ وبني سلمة وخُزاعة وبني مُلَيح: "الملائكةُ بناتُ الله".

و"الفاء" لترتيب الأمر على ما سبق مِن كون أولئك الرسل الذين هم أعلام الخَلق عليهم السلام عبادَه تعالى، فإنّ ذلك ممّا يؤكّد التبكيت، ويُظهِرُ بطلان مذهبهم الفاسد، ثمّ بتبكيتهم بما يتضمّنه كفرهم المذكور مِن الاستهانة بالملائكة بجعلِهم إناثًا، ثمّ أبطَلَ أصلَ كفرهم المنطوي على هذَين الكُفرين، وهو نسبة الولد إليه سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا،[1] ولم ينظِمه في سِلك التبكيت لمشاركتهم النصارى في ذلك.

أي: فاستخبِرهم: ﴿أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ﴾ / اللاتي هنّ أوضعُ الجنسين، ﴿وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ الذين هم أرفعهما؟ فإنّ ذلك ممّا لا يقول به مَن له أدنى شيء مِن العقل. [٤٢٤ظ]

وقوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا﴾ إضراب وانتقال مِن التبكيت بالاستفتاء السابق إلى التبكيت بهذا كما أشيرَ إليه، أي: بل أخلقنا الملائكة الذين هم

---

[1] س: كبير.

مِن أشرف الخلائق وأبعدهم مِن صفات الأجسام ورذائل الطبائع إناثًا، والأنوثةُ مِن أخسّ صفات الحيوان؟

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ استهزاء بهم وتجهيل لهم، كقوله تعالى: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف، ١٩/٤٣]، وقولِه تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف، ٥١/١٨]، فإنّ أمثال هذه الأمور لا تُعلم إلّا بالمشاهدة؛ إذ لا سبيلَ إلى معرفتها بطريق العقل. وانتفاءُ النقل ممّا لا ريب فيه، فلا بدّ أن يكون القائل بأنوثتهم شاهدًا عند خَلقهم.

والجملة إمّا حال مِن فاعل ﴿خَلَقْنَا﴾، أي: بل أخلقناهم إناثًا والحال أنّهم حاضرون حينئذ؟ أو عطفٌ على ﴿خَلَقْنَا﴾، أي: بل أهُم شاهدون؟

﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ١٥٢﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۞ وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ استئناف مِن جهته غيرُ داخل تحت الأمر بالاستفتاء، مَسوق لإبطال أصل مذهبهم الفاسد ببيان أنّ مَبناه ليس إلّا الإفكَ الصريحَ والافتراءَ القبيحَ، مِن غير أن يكون لهم دليل أو شبهة قطعًا.

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في قولهم ذلك كذبًا بيّنًا لا ريب فيه.

وقُرئ: "وَلَدُ اللهِ"[١] على أنّه خبر مبتدأ محذوف، أي: الملائكة ولَدُه تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، فإنّ "الولَد" "فَعَلٌ" بمعنى "مفعول"، يستوي فيه الواحد والجمع، والمذكّر والمؤنّث.

﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ١٥٣ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ١٥٤ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٥٥﴾

﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ إثبات لإفكهم، وتقرير لكذبهم فيما قالوا ببيان استلزامه لأمر بيّن الاستحالة، هو اصطفاؤه تعالى البناتِ على البنين، و"الاصطفاءُ" أخذ صفوة الشيء لنفسه.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٨.

وقُرئ بكسر "الهمزة"[١] على حذف حرف الاستفهام ثقةً بدلالة القرائن عليه. وجعلُه بدلًا[٢] مِن ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾[٣] ضعيف. وتقديرُ القول -أي: لكاذبون في قولهم: "اصْطَفى"... إلخ-[٤] / تعسّفٌ بعيد. [٤٢٥و]

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بهذا الحُكم الذين يقضي ببطلانه بديهةُ العقل؟

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بحذف إحدى التاءَين مِن "تَتذكّرون". وقُرئ: "تَذْكُرُونَ"[٥] مِن "ذَكَرَ". و"الفاء" للعطف على مقدَّر، أي: ألَا تلاحظون ذلك فلا تتذكّرون بطلانه، فإنّه مَركوز في عقل كلّ ذكيّ وغبيّ.

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ۝١٥٦ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٥٧﴾

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ إضراب وانتقال مِن توبيخهم وتبكيتهم بما ذُكر إلى تبكيتهم بتكليفهم ما لا يدخل تحت الوجود أصلًا، أي: بل ألَكم حجّة واضحة نزلت عليكم مِن السماء بأنّ الملائكة بناته تعالى؟ ضرورةَ أنّ الحكم بذلك لا بدَّ له مِن سنَدٍ حِسّي أو عقلي، وحيث انتفى كلاهما فلا بدَّ مِن سَنَدٍ نقلي، ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ﴾ الناطقِ بصحّة دعواكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيها.

وفي هذه الآيات مِن الإنباء عن السخط العظيم، والإنكارِ الفظيع لأقاويلهم، والاستبعادِ الشديد لأباطيلهم، وتسفيهِ أحلامهم، وتركيكِ عقولهم وأفهامهم، مع استهزاءٍ بهم، وتعجيبٍ مِن جهلهم؛ ما لا يخفى على مَن تأمّل فيها.

﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٥٨﴾

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ التفات إلى الغيبة للإيذان بانقطاعهم عن الجواب، وسقوطِهم عن درجة الخطاب، واقتضاءِ حالهم أن يُعرَض عنهم، وتُحكى جناياتهم لآخرين.

---

١ قرأ بها أبو جعفر ووَرش مِن طريق الأصبهاني. النشر لابن الجزري، ٣٦٠/٢.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٦٤/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩/٥.

٣ في الآية السابقة.

٤ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٩/٥.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٨.

والمراد بـ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾ الملائكة، قالوا: الجنس واحد، ولكنّ مَن خَبُثَ مِن الجنّ ومَرَدَ وكان شرًّا كلُّه فهو شيطان، ومَن طَهُر منهم ونسَكَ وكان خيرًا كلُّه فهو ملَك.

وإنّما عُبّر عنهم بذلك الاسم وَضعًا منهم وتقصيرًا بِهم مع عِظَم شأنهم فيما بين الخلق أن يبلُغوا منزلة المناسَبة التي أضافوها إليهم، فجَعْلُهم هذا عبارةٌ عن قولهم: "الملائكة بنات الله"، وإنّما أُعيد ذِكره تمهيدًا لِما يعقُبه مِن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: وبالله لقد علِمَت الجِنّة التي عظّموها بأن جعلوا بينها وبينه تعالى نسَبًا -وهم الملائكة- إنّ الكفرة لَمحضَرون النار، معذَّبون بها لكذِبهم وافترائهم في قولهم ذلك. والمراد به المبالغة في التكذيب ببيان أنّ الذين يدّعي هؤلاء لهم تلك النسبة ويعلَمون / أنّهم أعلم منهم بحقيقة الحال يكذّبونهم في ذلك، ويحكمون بأنّهم معذَّبون لأجله حكمًا مؤكّدًا. [٤٢٥ظ]

وقيل: إنّ قومًا مِن الزنادقة يقولون: "الله تعالى وإبليس أخوان، فالله هو الخيِّر الكريم، وإبليس هو الشرّير اللئيم"، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾. قال الإمام الرازي: «وهذا القول عندي أقرب الأقاويل، وهو مذهب المَجوس القائلين بيَزدان وأهْرَمَن».[1]

وقال مجاهد: «قالت قريش: "الملائكة بنات الله"، فقال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه: "فمَن أمّهاتُهم؟" تبكيتًا لهم، فقالوا: "سَروات الجنّ"».[2]

وقيل: معنى ﴿جَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾: جعلوا بينهما مناسبةً، حيث أشركوا به تعالى الجنّ في استحقاق العبادة.

فعلى هذه الأقاويل يجوز أن يكون الضمير في ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ لـ﴿ٱلْجِنَّةُ﴾، فالمعنى: لقد علِمَت الشياطين أنّ الله تعالى يُحضِرهم النار، ويعذّبهم بها، ولو كانوا مناسبين له تعالى أو شركاءَ في استحقاق العبادة لَما عذّبهم. والوجه هو الأوّل.

---

[1] تفسير الرازي، ٣٦٠/٢٦.

[2] تفسير مجاهد، ص ٥٧١؛ جامع البيان للطبري، ٦٤٥/١٩.

﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝١٦٠﴾

فإنّ قوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ حكاية لتنزيه الملائكة إيّاه تعالى عمّا وصفه المشركون به بعدَ تكذيبهم لهم في ذلك بتقدير قولٍ معطوفٍ على ﴿عَلِمَتْ﴾.[1]

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ شهادة منهم ببراءة المخلَصين مِن أن يَصِفوه تعالى بذلك، متضمّنة لتبرُّئهم منه بحكم اندراجهم في زمرة المخلَصين على أبلغ وجهٍ وآكَدِه، على أنّه استثناء منقطع مِن "واو" ﴿يَصِفُونَ﴾، كأنّه قيل: ولقد علمَت الملائكة أنّ المشركين لَمُعذَّبون لقولهم ذلك، وقالوا: سبحان الله عمّا يصفونه به، لكنّ عبادَ الله الذين نحن مِن جملتهم بُرَآء مِن ذلك الوصف.

﴿فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ ۝١٦١ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ ۝١٦٢ إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ ۝١٦٣﴾

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ ۝ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ تعليل وتحقيق لبراءة المخلَصين ممّا ذُكر ببيان عجزِهم عن إغوائهم وإضلالهم. والالتفات إلى الخطاب لإظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمون الكلام.

و﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ عبارة عن الشياطين الذين أغوَوهم. وفيه إيذان بتبرُّئهم عنهم وعن عبادتهم، كقولهم: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّ﴾ [سبأ، ٤١/٣٤]. و﴿مَا﴾ [٤٢٦و] نافية، و﴿أَنتُمۡ﴾ خطاب لهم ولمَعبوديهم تغليبًا. و"على" متعلّقة بـ﴿فَٰتِنِينَ﴾، يقال: "فَتَنَ فلان على فلانٍ امرأتَه"، أي: أفسَدَها عليه.

والمعنى: فإنكم ومعبوديكم أيّها المشركون لستم بفاتنين عليه تعالى بإفساد عباده وإضلالهم.

﴿إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ منهم، أي: داخلُها لِعلمه تعالى بأنّه يُصِرّ على الكفر بسوءِ اختياره، ويصير مِن أهل النار لا محالةَ، وأمّا المخلَصون منهم فأنتم بمَعزِلٍ مِن إفسادهم وإضلالهم، فهم لا جرَمَ بُرَآءُ مِن أن يَفْتِنوا بكم ويسلكوا مَسلَكَكم في وصفه تعالى بما وصفتموه به.

[1] في الآية السابقة.

وقُرئ: "صَالُ" بضمّ "اللام"[١] على أنّه جمع محمول على معنى ﴿مَنْ﴾، قد سقط واوه لالتقاء الساكنين.

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ١٦٤﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ تبيين لجَليّة أمرهم، وتعيينٌ لحيّزهم في موقف العبوديّة بعدَ ما ذُكر مِن تكذيب الكفرة فيما قالوا، وتنزيهِ الله تعالى عن ذلك، وتَبرئةِ المخلَصين عنه، وإظهارٌ لقصور شأنهم وقَماءَتِهم.

أي: وما منّا أحدٌ إلّا له مقام معلوم في العبادة، والانتهاءُ إلى أمر الله عزّ وجلّ مقصور عليه لا يتجاوزه، ولا يستطيع أن يزِلّ عنه خضوعًا لعظَمته، وخشوعًا لهَيبته، وتواضعًا لجَلاله، كما رُوي: «فمنهم راكع لا يُقيم صُلبَه، وساجدٌ لا يرفع رأسه».[٢]

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «ما في السماوات موضع شِبر إلّا وعليه ملَك يصلّي أو يسبّح».[٣]

ورُوي أنّه قال عليه السلام: «أطّت السماء، وحُقّ لها أن تَئِطّ، والذي نفسي بيده ما فيها موضع أربع أصابع إلّا وفيه ملَك واضع جبهتَه ساجد لله تعالى».[٤]

وقال السدّي: «﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ في القُربة والمشاهَدة».[٥]

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ١٦٦﴾

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ في مواقف الطاعة ومواطِنِ الخدمة، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ المقدِّسون لله سبحانه عن كلّ ما لا يَليق بجناب كبريائه. وتحلية كلامهم بفنون التأكيد لإبراز أنّ صدوره عنهم بكمال الرغبة والنشاط، هذا هو

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٨.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٦٦/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١٢٩/٩.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٢/٨؛ اللباب لابن عادل، ٣٥٧/١٦.

٤ سنن الترمذي، ٥٥٦/٤ (٢٣١٢)؛ سنن ابن ماجه، ٢٨٣/٥ (٤١٩٠).

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٢/٨؛ اللباب لابن عادل، ٣٥٧/١٦.

الذي يقتضيه جزالة التنزيل. وقد ذُكر في تفسير الآيات الكريمة وإعرابها وجوهٌ أُخَر، فتأمّل، والله الموفّق.

﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ﴾ / ﴿إن﴾ هي المخفّفة مِن الثقيلة، وضمير الشأن محذوف، و"اللام" هي الفارقة، أي: إنّ الشأن كانت قريش تقول: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: كتابًا مِن كُتب الأوّلين مِن التوارة والإنجيل، ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي: لأخلصنا العبادة لله تعالى، ولَما خالَفْنا كما خالفوا، وهذا كقولهم: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ [فاطر، ٤٢/٣٥]. [٤٢٦ظ]

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ فصيحة، كما في قوله تعالى: ﴿أَنِ[1] ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء، ٦٣/٢٦]، أي: فجاءَهم ذِكرٌ وأيُّ ذِكر، سيّدُ الأذكار، وكتابٌ مهيمَنٌ على سائر الكتب والأسفار، فكفروا به، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: عاقبةَ كفرهم وغائلتَه.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ استئناف مقرِّر للوعيد، وتصديرُه بالقسَم لغاية الاعتناء بتحقيق مضمونه، أي: وباللهِ لقد سبَق وَعْدُنا لهم بالنصرة والغلَبة، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۞ وَإِنَّ جُندَنَا﴾ وهم أتباع المرسلين ﴿لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ على أعدائهم في الدنيا والآخرة. ولا يقدح في ذلك انهزامهم في بعض المشاهد، فإنّ قاعدة أمرهم وأساسه الظفَر والنصرة، وإن وقع في تضاعيف ذلك شَوبٌ مِن الابتلاء والمِحنة، والحكمُ للغالب.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «إن لم يُنصَرُوا في الدنيا نُصِروا في الآخرة».[2]

---

[1] م ط س: فقلنا. | وهي في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ﴾ [البقرة، ٦٠/٢].

[2] الكشّاف للزمخشري، ٦٨/٤.

وقُرئ: "عَلَى عِبَادِنَا"[١] بتضمين ﴿سَبَقَتْ﴾ معنى "حقّت". وتسميتها "كلمةً" مع أنّها كلمات لانتظامها في معنًى واحد. وقُرئ: "كَلِمَاتُنَا".[٢]

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ۝١٧٤ وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ۝١٧٥﴾

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ فأعرِض عنهم واصبر ﴿حَتَّىٰ حِينٖ﴾ إلى مدّة يسيرة، وهي مدّة الكَفّ عن القتال. وقيل: يوم بدر. وقيل: يوم الفتح. ﴿وَأَبۡصِرۡهُمۡ﴾ على أسوإِ حالٍ، وأفظعِ نَكالٍ حلّ بهم مِن القتل والأسر. والمراد بالأمر بإبصارهم الإيذانُ بغاية قُربه، كأنّه بين يديه.

﴿فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾ ما يقع حينئذ مِن الأمور، / و"سوف" للوعيد دون التبعيد. [٤٢٧و]

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ۝١٧٦ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ ۝١٧٧﴾

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ رُوي أنّه لمّا نزل: ﴿فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾،[٣] قالوا: متى هذا؟ فنزل.

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ﴾ أي: فإذا نزل العذاب الموعود بفِنائهم كأنّه جيش قد هجمهم فأناخ بفِنائهم بغتةً، فشَنَّ عليهم الغارة وقطع دابِرَهم بالمرّة. وقيل: المراد نزول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوم الفتح. وقُرئ: "نُزِلَ بِسَاحَتِهِمْ"[٤] على إسناده إلى الجارّ والمجرور. وقُرئ: "نُزِّلَ"[٥] مبنيًا للمفعول مِن "التنزيل"، أي: نُزِّل العذاب.

﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ فبِئس صباح المنذَرين صباحُهم. و"اللام" للجنس. و"الصباح" مستعار مِن صباح الجيش المُبَيِّتِ لوقت نزول العذاب. ولمّا كثُرت منهم الغارة في الصباح سَمّوها صباحًا وإن وقعت ليلًا.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٦٨/٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٨.

٣ في الآية السابقة.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. المحتسب لابن جنّي، ٢٢٩/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٨.

رُوي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لمّا أتى خيبرَ، وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المساحي، قالوا: «محمّدٌ والخَمِيس»، ورجعوا إلى حصنهم، فقال صلّى الله عليه وسلّم: «الله أكبرُ، خَرِبَت خَيْبَرُ، إنّا إذا نزلنا بساحة قوم فساءَ صباح المنذَرين».[1]

﴿وَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ١٧٨ وَأَبۡصِرۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ١٧٩ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٢﴾

﴿وَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ۞ وَأَبۡصِرۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾ تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم إثرَ تسليةٍ، وتأكيدٌ لوقوع الميعاد غِبَّ تأكيد، مع ما في إطلاق الفعلين عن المفعول مِن الإيذان بأنّ ما يُبصره عليه السلام حينئذ مِن فنون المسارّ، وما يبصرونه مِن ألوان المَضارّ، لا يحيط به الوصف والبيان. وقيل: أريدَ بالأوّل عذاب الدنيا، وبالثاني عذاب الآخرة.

﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تنزيه لله سبحانه عن كلّ ما يصفه المشركون به ممّا لا يَليق بجَناب كبريائه وجَبروته ممّا ذُكر في السورة الكريمة وما لم يُذكر مِن الأمور التي مِن جُملتها تركُ إنجازِ الموعود على / موجَب كلمته السابقة لا سيّما في حقّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كما [٤٢٧ظ] يُنبئ عنه التعرّض لعنوان الربوبيّة المُعرِبة عن التربية والتكميل والمالكيّة الكلّيّة، مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام أوّلًا، وإلى العزّة ثانيًا، كأنّه قيل: سبحان مَن هو مربّيك ومكمِّلك ومالكُ العزّة والغلبة على الإطلاق عمّا يصفه المشركون به مِن الأشياء التي منها ترك نُصرتك عليهم، كما يدلّ عليه استعجالُهم بالعذاب.

وقوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ تشريف لهم عليهم السلام بعد تنزيهه تعالى عمّا ذُكر، وتَنوِيهٌ بشأنهم، وإيذانٌ بأنّهم سالِمون عن كلّ المكارِه، فائزون بجميع المآرب.

---

[1] صحيح البخاري، ١/١٢٥ (٦١٠)؛ صحيح مسلم، ٢/١٠٤٥ (١٣٦٥).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إشارة إلى وصفه عزّ وجلّ بصفاته الكريمة الثبوتيّة بعد التنبيه على اتّصافه بجميع صفاته السلبيّة، وإيذانٌ باستتباعها للأفعال الجميلة التي مِن جملتها إفاضتُه عليهم مِن فنون الكرامات السنيّة والكمالات الدينيّة والدنيويّة، وإسباغُه عليهم وعلى مَن تبعهم مِن صنوف النَّعماء الظاهرة والباطنة، الموجِبةِ لحمده تعالى، وإشعارٌ بأنّ ما وعده عليه السلام مِن النصرة والغلبة قد تحقّقت، والمرادُ تنبيه المؤمنين على كيفيّة تسبيحه تعالى وتحميده، والتسليمِ على رسله الذين هم وسائط بينهم وبينه عزّ وعلا في فيضان الكمالات الدينيّة والدنيويّة عليهم.

ولعلّ توسيطَ التسليم على المرسلين بينَ تسبيحه تعالى وتحميده لخَتم السورة الكريمة بحمده تعالى، مع ما فيه مِن الإشعار بأنّ توفيقه تعالى للتسليم عليهم مِن جملة نِعَمه المُوجِبة للحمد.

عن عليّ رضي الله تعالى[1] عنه: «مَن أحبّ أن يُكتال بالمِكيال الأوفى مِن الأجر يوم القيامة فليكن آخِرُ كلامه إذا قام مِن مجلسه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾».[2]

وعن رسول صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ أُعطِي مِن الأجر عَشرُ حسنات بعدَد كلّ جنّي وشيطان، وتباعدَت عنه مرَدة الشياطين، وبَرئ مِن الشرك، وشهِد له حافظاه يوم القيامة أنّه كان مؤمِنًا بالمرسلين».[3]

---

١ ط س - تعالى.

٢ مصنّف عبد الرزّاق، ٢/٢٣٦ (٣١٩٦)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/١٧٤.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/١٣٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٥٢١. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

٣٧

# سُورَةُ الصَّافَّاتِ

مكية، مِائَةٌ واثنتانِ وثمانون آية.

## بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿والصَّافَّاتِ صَفًّا﴾: الملائكةِ تصُفّ نُفوسَها في العِبادة أو أجنحتَها في الهواء، تنتظر ما تُؤمر به، ٢ ـ ﴿فالزَّاجِراتِ زَجرًا﴾: الملائكةِ تَزجرُ السحاب، أي: تسوقه، ٣ ـ ﴿فالتَّالياتِ﴾: جماعةِ قُرّاءِ القُرآن تتلوه ﴿ذِكرًا﴾: مصدرٌ من معنى: التاليات، ٤ ـ ٥ ـ ﴿إنَّ إلـٰهكُم﴾ ـ يا أهل مكّة ـ .........

---

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

قولُه: (فِي العِبَادَةِ) أو في مقامِ العُبوديَّةِ على مراتِبَ، باعتِبارِها تُفيضُ عليهم الأنوارَ الإلهيَّةَ.

قولُه: (تَنتَظِرُ) ناظرةٌ إلى الوجهَينِ.

قولُه: (السَّحَابَ) أو الأجرامَ العُلويَّةَ والسُّفليَّةَ بالتَّدبيرِ المأمورِ فيها، أو النَّاسَ عن المعاصي بإلهامِ الخَيرِ، والشَّياطينَ عن التَّعرُّضِ لهم.

قولُه: (جَمَاعَةُ) أخرجَ ابنُ أبي حاتمٍ عن ابنِ مسعودٍ، أنَّ المرادَ بالثَّلاثةِ: الملائكةُ[1]؛ يعني: التَّالينَ آياتِ اللهِ وجَلايا قُدسِهِ على أنبيائِهِ وأوليائِهِ.

قولُه: (مَصدَرٌ) الأظهرُ أنَّهُ مفعولٌ.

قولُه: (يَا أَهْلَ مَكَّةَ) بل: يا أيُّها النَّاسُ، جوابُ القسَمِ.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (٩٠٤١)، وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٧/ ٧٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ٢١٤) (٩٠٤١)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦٠٧) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي.

﴿لَوَاحِدٌ، رَبُّ السَّماواتِ والأرضِ وما بَينَهُما، ورَبُّ المَشارِقِ﴾ أي: والمغاربِ للشمس، لها كُلَّ يوم مشرِق ومغرِب.

٦ ـ ﴿إنّا زَيَّنّا السَّماءَ الدُّنيا بِزِينةٍ الكَواكِبِ﴾ أي: بضوئها أو بها ـ والإضافةُ للبيان، كقراءة تنوين «زينةٍ» المُبيَّنةِ بـ«الكواكبِ» ـ ٧ ـ ﴿وحِفظًا﴾: منصوبٌ بفعل مقدّر أي: حفظناها بالشهب ﴿مِن كُلِّ﴾: مُتعلّقٌ بالمقدّر ﴿شَيطانٍ مارِدٍ﴾: عاتٍ خارج عن الطاعة. ٨ ـ ﴿لا يَسَّمَّعُونَ﴾ أي: الشياطينُ ـ مستأنف، وسَماعهم هو في المعنى: المحفوظُ عنه ـ ﴿إلَى المَلَإِ الأعلَى﴾: الملائكة في السماء ـ وعُدِّيَ السَّماع ........................................

---

قولُه: (أي: والمَغَارِبِ) فحُذِفَ اكتفاءً، مع أنَّ الشُّروقَ أدَلُّ على القُدرَةِ، وأبلغُ في النِّعمَةِ.

قولُه: (للشَّمْسِ) وقيلَ: للكَواكِبِ.

قولُه: (لَهَا كُلَّ يَومٍ) فالجمعُ بهذا الاعتبارِ، والتَّثنيةُ في آيةٍ أخرى باعتبارِ مشرِقَي الشِّتاءِ والصَّيفِ، والإفرادُ في أخرى: باعتِبارِ الجنسِ.

قولُه: (أي: بِضَوئِهَا) يعني: بنورِ الكواكِبِ.

قولُه: (أو بِهَا) أي: بالكواكِبِ.

قولُه: (للبيَانِ) على أنَّها اسمٌ؛ أي: بزينَةٍ هي الكواكِبُ.

قولُه: (كقِرَاءَةِ تَنوِينٍ) معَ جَرِّ ﴿الكَواكِبِ﴾ لحفصٍ وحمزةَ[1].

قولُه: (المُبَيَّنَةِ) أو المبدَلَةِ، ويحتملُ إضافةَ المصدَرِ إلى المفعولِ، ويؤيِّدُه قراءةُ شعبةَ بالتَّنوينِ والنَّصبِ على الأصلِ[2].

قولُه: (بالشُّهُبِ) أي: برَمْيِها.

قولُه: (بالمُقَدَّرِ) لأنَّه أقوى في العَملِ.

قولُه: (مُستَأنَفٌ) أي: كلامٌ مبتَدَأٌ لبيَانِ حالِهِم بعدما حَفِظَ السَّماءَ عنهم.

قولُه: (المَحْفُوظُ) الظَّاهرُ: المحفوظَةُ.

قولُه: (المَلائِكَةِ) أو أشرافِهِم.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٦).

(٢) انظر المصدر السابق.

بـ «إلى» لتضمّنه معنى الإصغاء وفي قراءة بتشديد الميم والسين أصله «يَتَسَمَّعُونَ» أُدغمت التاء في السين ـ ﴿وَيُقۡذَفُونَ﴾ أي: الشياطينُ بالشُّهب ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ من آفاق السماء، ٩ ـ ﴿دُحُورًا﴾: مصدرُ: دَحَرَه، أي: طَرَده وأبعده، وهو مفعول له، ﴿وَلَهُمۡ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾: دائم، ١٠ ـ ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ﴾ مصدرٌ أي: المرّة ـ والاستثناء من ضمير «يسمعون» ـ أي: لا يسمع إلاّ الشيطان الذي سمع الكلمة من الملائكة فأخذها بسرعة، ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٌ﴾: كوكب مضيء ﴿ثَاقِبٌ﴾:

---

**قولُه:** (مَعنَى الإِصْغَاءِ) مبالغةً لنَفيِه وتهويلاً لِمَا يمنعُهُم عنهُ، ويدلُّ عليه قراءَةُ حمزةَ والكسائيِّ وحفصٍ بالتَّشديدِ من التَّسمُّعِ[1]: وهو تَطلُّبُ السَّماعِ.

**قولُه:** (أُدْغِمَتِ التَّاءُ) بعد إبدالِها سيناً.

**قولُه:** (أي: الشَّيَاطِينُ) أي: يُرمَونَ إذا قَصَدوا الصُّعودَ.

**قولُه:** (دَائِمٌ) أو شَديدٌ.

**قولُه:** (مِن ضَمِيرِ ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾) و﴿مَنْ﴾ بدلٌ منه.

**قولُه:** (بِسُرعَةٍ) الخَطفُ: الاختلاسُ، والمرادُ: اختلاسُ كَلامِ الملائكةِ مُسارَقَةً.

**قولُه:** (كَوْكَبٌ) وأتبَعَ؛ بمعنى: تَبِعَ، والشِّهابُ: ما يُرَى كأنَّ كوكَباً انقَضَّ، وما رُوِيَ أنَّ ذلك حَدَثَ بميلادِ النَّبيِّ ﷺ[2]، فلعلَّ المرادَ كثرةُ وقوعِهِ، واختُلِفَ في أنَّ المرجومَ يتأذَّى به فيَرجِعُ، أو يحتَرِقُ به لكن قد يُصيبُ الصَّاعدَ مرَّةً وقد لا يُصيبُ؛ كالمَوجِ لراكِبِ السَّفينَةِ، ولذلك لا يرتَدعونَ عنه رأساً.

**قولُه:** (مُضِيءٌ) الظَّاهرُ: أنَّه تفسيرٌ لـ﴿ثَاقِبٌ﴾، فكأنَّهُ يثقُبُ الجوَّ بضَوئِهِ، كما قالَهُ القاضي[3]، ويمكنُ أن يكونَ الضَّوءُ داخِلاً في مفهومِ الشِّهابِ؛ لأنَّه على ما في «القاموسِ»: شُعلَةٌ مِن نارٍ ساطعَةٍ، والماضِي في الأمرِ[4]، انتهى. فيجوزُ في المُضيِّ الهمزُ والتَّشديدُ.

---

(١) انظر: «تحبير التيسير في القراءات العشر» (ص: ٥٢٨).

(٢) ذكر الثعلبي في «الكشف والبيان» (١٥/ ٤٣٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه: فلما ولد محمَّد ﷺ منعوا من السماوات أجمع، فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رمي بشهاب.

وقد روى البخاري (٤٩٢١) ومسلم (٤٤٩) عن ابن عباس ما يفيد بأن ذلك لم يكن مختصًا بوقت الولادة، وفيه: انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قال: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث... الحديث.

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٦).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٠٣).

يَثقبُه أو يُحرقه أو يُخبّله.

١١ ـ ﴿فاستَفتِهِم﴾: استخبرْ كُفّار مكّة تقريرًا أو توبيخًا: ﴿أَهُم أَشَدُّ خَلقًا أم مَن خَلَقْنا﴾ من الملائكة والسماوات والأرَضِينَ وما فيهما؟ وفي الإتيان بـ«مَن» تغليبُ العقلاء. ﴿إنّا خَلَقْناهُم﴾ أي: أصلَهم آدمَ ﴿مِن طِينٍ لازِبٍ﴾: لازم يلصق باليد. المعنى أنّ خلقهم ضعيف، فلا يتكبّروا بإنكارِ النبيّ والقُرآن المؤدّي إلى هلاكهم اليسير.

١٢ ـ ﴿بَل﴾: للانتقال من غرض إلى آخر، وهو الإخبار بحاله وحالهم، ﴿عَجِبتَ﴾ ـ بفتح التاء خِطابًا للنبيّ ـ أي: من تكذيبهم إياك، ﴿وَ﴾ هم ﴿يَسخَرُونَ﴾ مِن تعجّبك،.........

---

قولُه: (أو يُحرِقُهُ) لا يقالُ: إنَّ الشَّيطانَ من النَّارِ فلا يحترِقُ= لأنَّهُ ليسَ من النَّارِ الصِّرفِ، كما أنَّ الإنسانَ ليسَ منَ التُّرابِ الخالِصِ، مع أنَّ النَّارَ القويَّةَ إذا استولَت على النَّارِ الضَّعيفَةِ استهلَكَتْها.

قولُه: (كُفَّارَ مَكَّةَ) أو المشركينَ.

قولُه: (تَقرِيراً) أي: حَمْلاً على الإقرارِ بالحَقِّ من الأمرَينِ.

قولُه: (ومَا فِيهَا) وفي نسخةٍ: «وما فيهما» يعني: من الكواكِبِ والشُّهُبِ الثَّواقِبِ.

قولُه: (تَغلِيبُ العُقَلاءِ) وقيلَ: المرادُ بـ﴿مَنْ خَلَقْنَا﴾: مَن قَبْلَهُم كعادٍ وثمودَ، وهو غيرُ صَحيحٍ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم﴾.

قولُه: (أي: أَصْلَهُم) أو: أصلَ مادَّتِهِم.

قولُه: (اليَسِيرِ) أي: الهَيِّنِ على اللهِ تعالى.

قولُه: (بِفَتْحِ التَّاءِ) وحمزةُ والكسائيُّ بضمِّها[١]؛ أي: بلغَ كمالُ قُدرَتي أنِّي تعجَّبْتُ منها وهؤلاءِ بجَهلِهِم يسخَرونَ منها، أو: عجِبْتُ مِن أن يُنكَرَ البعثُ مِمَّن هذه أفعالُهُ، وهم يسخَرُونَ ممَّن يُجوِّزُهُ، والعَجَبُ من اللهِ: إمَّا على سبيلِ الفَرْضِ، أو على معنى الاستعظامِ اللَّازمِ له، فإنَّه روعةٌ تَعتَري الإنسانَ عند استعظامِهِ لشيءٍ، وقيلَ: التَّقديرُ: قُل يا محمَّدُ.

قولُه: (مِنْ تكذِيبِهِم) أو من قُدرَةِ اللهِ، أو إنكارِهِم البعثَ.

قولُه: (هُم) أشارَ[٢] إلى أنَّ الجملةَ حاليَّةٌ.

قولُه: (مِنْ تَعجُّبِكَ) أو تقريرِكَ للبَعْثِ.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٦).

(٢) في (م): «إشارة».

١٣ ـ ﴿وإذا ذُكِّرُوا﴾: وُعظوا بالقُرآن ﴿لا يَذكُرُونَ﴾: لا يتّعظون، ١٤ ـ ﴿وإذا رأوا آيةً﴾ كانشقاق القمر ﴿يَستَسخِرُونَ﴾: يستهزئون بها، ١٥ ـ ﴿وقالُوا﴾ فيها: ﴿إنْ﴾: ما ﴿هذا إلاّ سِحرٌ مُبينٌ﴾: بيِّنٌ. وقالوا منكرين للبعث: ١٦ ـ ﴿أإذا مُتنا وكُنّا تُرابًا وعِظامًا أإنّا لَمَبعُوثُونَ﴾ ـ في الهمزتين في الموضعين التحقيقُ، وتسهيلُ الثانية، وإدخالُ ألف بينهما على الوجهين ـ ١٧ ـ ﴿أوْ آباؤُنا الأوَّلُونَ﴾؟ بسكون الواو عطفًا بـ «أو»، وبفتحها والهمزة للاستفهام والعطفُ بالواو. والمعطوف عليه محلُّ «إن» واسمِها، أو الضميرُ في «لمبعوثون» والفاصل همزة الاستفهام.

١٨ ـ ﴿قُلْ: نَعَم﴾ تُبعثون، ﴿وأنتُم داخِرُونَ﴾: صاغرون. ١٩ ـ ﴿فإنَّما هِيَ﴾: ضميرٌ مُبهم يُفسّره ﴿زَجْرةٌ﴾ أي: صيحة ﴿واحِدةٌ، فإذا هُم﴾ أي: الخلائق أحياءٌ ﴿يَنظُرُونَ﴾ ما يُفعل بهم،..........

---

**قولُه:** (بالقُرآنِ) أو بشَيءٍ.

**قولُه:** (فِيهَا) أي: الآيةِ، وقولُهُم: ﴿إِنْ هَٰذَا﴾ يَعنونَ ما يَرونَهُ.

**قولُه:** (بالهَمزَتَينِ) تقدَّمَ[1]، وقرأ الشَّاميُّ بالإخبارِ في الأوَّلِ، ونافعٌ والكسائيُّ في الثَّاني[2].

**قولُه:** (بِسُكُونِ الواوِ) قالونُ وشاميٌّ[3].

**قولُه:** (بـ﴿أو﴾) على التَّرديدِ.

**قولُه:** (والهَمْزَةُ) بالرَّفعِ.

**قولُه:** (والفَاصِلُ) بين المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ.

**قولُه:** (هَمزَةُ الاستِفهَامِ) لزيادةِ الاستِبْعادِ لبُعدِ زَمانِهِم.

**قولُه:** (تُبعَثُونَ) وفي البيضاويِّ: قُرِئَ (نَعِمْ) بالكسرِ[4]، سهوٌ؛ لأنَّه قراءَةُ الكسائيِّ حيثُ جاءَ[5].

**قولُه:** (ضَمِيرٌ مُبهَمٌ) وقالَ القاضي: جوابُ شَرطٍ مُقدَّرٍ؛ أي: إذا كانَ ذلك فإنَّما البَعثَةُ[6].

**قولُه:** (أيْ: صَيحَةٌ ﴿واحدةٌ﴾) وهي النَّفخَةُ الثَّانيةُ، من زَجَرَ الرَّاعي غنمَهُ: إذا صاحَ عليها.

**قولُه:** (أَحيَاءٌ) أو: قيامٌ مِن مَراقِدِهم يُبصِرونَ أو يَنتَظِرونَ.

---

(١) في الآية رقم: (٥) من سورة الرعد.

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٣٢).

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٦).

(٤) هذا لفظ الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٣٨)، أما البيضاوي فعبارته في «أنوار التنزيل» (٥/ ٧): وقرأ الكسائي....

(٥) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١١٠).

(٦) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٧).

٢٠ ـ ﴿وقالُوا﴾ أي: الكُفّار: ﴿يا﴾: للتنبيه ﴿وَيلَنا﴾: هلاكَنا. وهو مصدر لا فِعل له من لفظه. وتقول لهم الملائكة: ﴿هذا يومُ الدِّينِ﴾ أي: الحِسابِ والجزاء، ٢١ ـ ﴿هذا يومُ الفَصلِ﴾ بين الخلائق، ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

٢٢ ـ ٢٣ ـ ويقال للملائكة: ﴿احشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفُسَهم بالشِّرك ﴿وأزواجَهُم﴾: قُرناءهم من الشياطين، ﴿وما كانُوا يَعبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرَه من الأوثان، ﴿فاهدُوهُم﴾: دُلّوهم وسوقوهم ﴿إلَى صِراطِ الجَحِيمِ﴾: طريق النار، ٢٤ ـ ﴿وقِفُوهُم﴾: احبِسوهم عِند الصِّراط. ﴿إنَّهُم مَسؤُولُونَ﴾ عن جميع أقوالهم وأفعالهم. ويقال لهم توبيخًا: ٢٥ ـ ﴿مالَكُم لا تَناصَرُونَ﴾: لا ينصر بعضكم بعضًا، كحالكم في الدنيا؟ ويقال عنهم: ٢٦ ـ ﴿بَل هُمُ اليَومَ مُستَسلِمُونَ﴾: منقادون أذِلاّء.

٢٧ ـ ﴿وأقبَلَ بَعضُهُم على بَعضٍ يَتَساءَلُونَ﴾: يتلاومون ويتخاصمون. ٢٨ ـ ﴿قالُوا﴾ أي: الأتباعُ منهم للمتبوعين: ﴿إنَّكُم كُنتُم تأتُونَنا عَنِ اليَمِينِ﴾: عن الجِهة التي كنّا نأمنكم منها بحَلِفِكم إنكم على الحقّ، فصدّقناكم واتّبعناكم. المعنى: إنكم أضللتمُونا. ٢٩ ـ ﴿قالُوا﴾ أي: المتبوعون لهم: ﴿بَل لَم تَكُونُوا مُؤمِنِينَ﴾ ـ وإنما يَصدق الإضلالُ منّا أن لو كنتم مؤمنين، فرجَعتم عن الإيمان إلينا ـ

---

قولُه: (للتَّنْبِيهِ) والأظهرُ: أنَّه للنِّداءِ.

قولُه: (المَلائِكَةُ) والظَّاهرُ: أنَّ الأوَّلَ من كلامِ الكفَّارِ، والثَّاني جوابُ الملائكةِ، وقيل: هو أيضاً من كَلامِ بعضِهم لبعضٍ.

قولُه: (بَينَ الخَلائِقِ) والفَصْلُ: القضاءُ، أو الفرقُ بينِ المحسِنِ والمُسيءِ.

قولُه: (قُرَنَاءَهُم) أو: أشباهُهُم، كعابِدِ الصَّنمِ مع عبَدَةِ الصَّنمِ.

قولُه: (مِنَ الأَوْثَانِ) وغَيرِها، وهو عامٌّ مخصوصٌ بقولِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ الآيَةَ [الأنبياء: ١٠١].

قولُه: (عِنْدَ الصِّرَاطِ) أي: الجِسرِ، أو في الموقِفِ، والواوُ لا توجِبُ التَّرتيبَ.

قولُه: (وأَفْعَالِهِم) وعقائدِهِم.

قولُه: (بَعْضاً) بالتَّخليصِ، وهو توبيخٌ.

قولُه: (مُنقَادُونَ) لعجزِهِم.

قولُه: (ويَتَخَاصَمُونَ) أي: سؤالُهُم للتَّوبيخِ.

٣٠ ـ ﴿وما كانَ لَنا علَيكُم مِن سُلطانٍ﴾: قُوّة وقُدرة تقهركم على مُتابعتنا، ﴿بَل كُنتُم قَومًا طاغِينَ﴾: ضالّين مِثلَنا، ٣١ ـ ﴿فحَقَّ﴾: وجب ﴿علَينا﴾ جميعًا ﴿قَولُ رَبِّنا﴾ بالعذاب، أي قوله: «لأملأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنّةِ والنّاسِ أجمَعِينَ» ـ ﴿إنّا﴾ جميعًا ﴿لَذائقُونَ﴾ العذابَ بذلك القول ـ ونشأ عنه قولُهم: ٣٢ ـ ﴿فأغوَيناكُم﴾ المُعلَّلُ بقولهم: ﴿إنّا كُنّا غاوِينَ﴾.

٣٣ ـ قال تعالى: ﴿فإنَّهُم يَومَئذٍ﴾: يومَ القيامةِ ﴿في العَذابِ مُشتَرِكُونَ﴾ أي: لِاشتراكهم في الغَواية. ٣٤ ـ ﴿إنّا كَذلِكَ﴾: كما نفعل بهؤلاء ﴿نَفعَلُ بِالمُجرِمِينَ﴾ غيرِ هؤلاء، أي: نُعذّبهم التابعَ منهم والمتبوع. ٣٥ ـ ٣٦ ـ ﴿إنَّهُم﴾ أي: هؤلاء، بقرينة ما بعده، ﴿كانُوا إذا قِيلَ لَهُم: لا إلـٰهَ إلاّ اللهُ. يَستَكبِرُونَ، ويَقُولُونَ: أإنّا﴾ ـ في همزتيه ما تقدّم ـ ﴿لَتارِكُو آلِهتِنا لِشاعِرٍ مَجنُونٍ﴾ أي: لِأجل قول مُحمّد؟ ٣٧ ـ قال تعالى: ﴿بَل جاءَ بِالحَقِّ وصَدَّقَ المُرسَلِينَ﴾ الجائين به. وهو قول: لا إلـٰهَ إلاّ اللهُ.

٣٨ ـ ٣٩ ـ ٤٠ ـ ﴿إنَّكُم﴾ ـ فيه التفات ـ ﴿لَذائقُو العَذابِ الأليمِ، وما تُجزَونَ إلاّ﴾ جزاءَ ﴿ما كُنتُم تَعمَلُونَ، إلاّ عِبادَ اللهِ المُخلَصِينَ﴾ أي: المؤمنين، استثناءٌ منقطع، أي: ذُكِرَ جزاؤهم في قوله:........

---

قولُه: (ضَالِّيْنَ) مُختارينَ الطُّغيانَ والضَّلالَةَ.

قولُه: (بالعَذَابِ) يعني: أنَّ ضَلالَ الفريقينِ ووقوعَهُم في العذابِ كانَ أمْراً مَقضيًّا لا مَحيصَ لهم عنه، وأنَّ غايَةَ ما فعَلوا بهم أنَّهُم دَعَوهم إلى الغَيِّ؛ لأنَّهُم كانوا على الغَيِّ فأحبُّوا أن يكونوا مِثلَهُم، وفيه إيماءٌ بأنَّ غِوايَتَهُم في الحقيقةِ ليسَت مِن قِبَلِهِم، إذ لو كانَ كُلُّ غِوايَةٍ لإغواءِ غاوٍ فمَن أغواهُم، كذا أفادَهُ القاضي[1] رحمَهُ اللهُ رحمةً واسعَةً.

قولُه: (ونَشَأَ عنهُ) أي: عن القَولِ بالعذابِ على ما قدَّمناهُ.

قولُه: (كمَا نَفْعَلُ) الصَّحيحُ: مِثلَ ذلك الفعلِ نفعَلُ بالمشركينَ مُطلَقاً.

قولُه: (أي: هَؤُلاءِ) المشرِكونَ.

قولُه: (بقَرِينَةِ مَا بَعدَهُ) أي: يستكبِرونَ عن كلمَةِ التَّوحيدِ، أو على مَن يَدعوهُم إليه.

قولُه: (جَزَاءَ) أو مِثلَ.

قولُه: (ذُكِرَ جَزَاؤُهُم) والأظهرُ: لكنَّ ﴿عِبادَ اللهِ المُخلَصِينَ﴾ أولئكَ، بأن يكونَ ﴿عباد الله﴾ مبتدأً، والجملةُ خبرَه.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٩).

٤١ ـ ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ﴾ في الجنّة ﴿رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ بُكرةً وعشيًّا، ٤٢ ـ ﴿فَوَاكِهُ﴾: بدلٌ أو بيانٌ للرزق ـ وهو ما يُؤكل تلذّذًا لا لِحفظ صِحّة لأنّ أهل الجنّة مُستغنون عن حِفظها بخلق أجسامهم للأبد ـ ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ بثواب الله ٤٣ ـ ٤٤ ـ ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾: لا يَرى بعضهم قفا بعض.

٤٥ ـ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾: على كُلّ منهم ﴿بِكَأْسٍ﴾ هو الإناء بشرابه ﴿مِن مَّعِينٍ﴾: من خمرٍ تجري على وجه الأرض كأنهار الماء، ٤٦ ـ ﴿بَيْضَاءَ﴾ أشدَّ بياضًا من اللبن ﴿لَذَّةٍ﴾: لذيذة ﴿لِّلشَّارِبِينَ﴾، بخِلاف خمر الدنيا فإنها كريهة عند الشرب، .........................................

---

قولُه: (بُكرَةً وعَشيًّا) أو: خصائصُهُ من الدّوامِ وتمحُّضِ اللّذّةِ.

قولُه: (صِحَّةٍ) الظّاهرُ: بِنْيَةٍ.

قولُه: (بثَوَابِ اللهِ) أو في نَيلِ الرِّزقِ يَصِلُ إليهم مِن غَيرِ تَعَبٍ وسؤالٍ كما عليهِ رِزقُ الدُّنيا، وقولُه تعالى: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[٤٣] أي: في جَنَّاتٍ ليسَ فيها إلَّا النَّعيمُ، ولذا قالَ ﷺ: «اللَّهمَّ لا عَيْشَ إلَّا عَيْشُ الآخرةِ» رواهُ أحمدُ والشَّيخانِ[(١)].

قولُه: (لا يَرَى) لأنَّ التَّقابُلَ أتمُّ سُرورٍ وأُنسٍ، أو يكونُ هذا الوصفُ دائماً على خَرْقِ العادةِ.

قولُه: (هو الإِنَاءُ بشَرَابِهِ) في «القاموسِ»: الكأسُ: الإناءُ يُشرَبُ فيهِ، أو ما دامَ الشَّرابُ فيه مؤنَّثٌ[(٢)]. ولذا قالَ القاضي[(٣)]: بإناءٍ فيه خَمرٌ، أو خَمرٍ كقولِه:

وكَأْسٍ شُـربْتُ علـى لـذَّةٍ[(٤)]

والظَّاهرُ: أنَّ الثَّاني مَجازٌ: إمَّا بالتَّجريدِ، أو بإطلاقِ المحلِّ وإرادةِ الحالِّ.

قولُه: (مِنْ خَمْرٍ) أي: شرابٍ مَعيْنٍ، أو نَهرٍ مَعينٍ؛ أي: ظاهرٍ للعُيونِ جمعِ: عَينٍ، أو خارجٍ من العيونِ.

قولُه: (أَشَدَّ) هو وما بعدَهُ صِفَتانِ لـ﴿كَأْسٍ﴾.

قولُه: (لَذِيذَةٍ) إمَّا للمُبالغَةِ كـ: رجلٍ عدلٍ، أو لأنَّها تأنيثُ لَذٍّ؛ بمعنى: لذيذٍ.

---

(١) رواه البخاري (٦٤١٣)، ومسلم (١٨٠٥)، وأحمد في «مسنده» (١٢٧٥٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٥٦٩).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٠).

(٤) قائله الأعشى، انظر: «ديوانه» (ص: ١٧٣)، و«خزانة الأدب» (١١/ ٤٣٤). وتمامه:

وأخرى تداويت منها بها

٤٧ ـ ﴿لا فِيها غَولٌ﴾: ما يَغتال عُقولهم ﴿ولا هُم عَنها يُنزَفُونَ﴾ ـ بفتح الزاي وكسرها من: نُزِفَ الشاربُ وأنزفَ ـ أي: يَسكرون بخِلاف خمر الدنيا، ٤٨ ـ ﴿وعِندَهُم قاصِراتُ الطَّرْفِ﴾: حابساتُ الأعين على أزواجهنّ، لا ينظرْن إلى غيرهم لِحُسنهم عندهنّ، ﴿عِينٌ﴾: ضِخامُ الأعيُنِ حِسانُها، ٤٩ ـ ﴿كأنَّهنَّ﴾ في اللون ﴿بَيضٌ﴾ للنعام ﴿مَكنُونٌ﴾: مستور برِيشه لا يصل إليه غُبار، ولونه ـ وهو البياض في صُفرة ـ أحسنُ ألوان النساء.

---

قولُه: (مَا يَغْتَالُ) يُفسِدُ؛ أي: غائلةٌ كما في خمرِ الدُّنيا كالخِمارِ، من غالَهُ يغولُهُ: إذا أفسدَهُ، ومنهُ: الغَوْلُ؛ لأنَّه مُفسِدٌ، وفي «القاموسِ»: الغَولُ: الصُّداعُ والسُّكرُ والمشَقَّةُ[1].

قولُه: (وكَسْرِهَا) حمزةُ والكسائيُّ[2].

قولُه: (مِنْ: نُزِفَ) كعُنِيَ: ذهبَ عقلُهُ، أو سَكِرَ.

قولُه: (وأُنزِفَ) إذا نفدَ عقلُهُ أو شرابُه.

قولُه: (لحُسْنِهِم) ولغيرِهِ.

قولُه: (ضِخَامُ الأَعيُنِ) وقالَ القاضِي: نُجلُ العُيونِ[3]؛ يعني: الوِساع، وفي «القاموسِ»: عَيِنَ: كفَرِحَ، عَظُمَ سوادُ عَينِهِ في سَعَةٍ، جمع: عَيْناءَ[4].

قولُه: (حِسَانُهَا) تكميلٌ لدَفعِ توهُّمِ أن يكونَ كعُيونِ البَقرِ.

قولُه: (في اللَّونِ) والصَّفاءِ.

قولُه: (مَستُورٌ برِيْشِهِ) أو مَصونٌ من غُبارٍ ونحوِهِ.

قولُه: (ولَونُهُ) مبتدأٌ خبرُهُ (أَحسَنُ) وما بينهُما اعتراضٌ.

قولُه: (أَلوَانِ النِّسَاءِ) يعني: عندَ العربِ، وإلَّا فعندَ العَجَمِ والرُّومِ: الأبيضُ المشْرَبُ بحمْرَةٍ هو الأحسَنُ، ولذا قالَ تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٨] أي: اللُّؤلؤُ، وقالَ تعالى: ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٣]، فالظَّاهرُ أنَّ التَّشبيهَ هنا في الصَّفاءِ فقط، وفيه إيماءٌ إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، ولكنَّ اللَّونَ مُنحصِرٌ في البياضِ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٠٤٠).

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٦).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٠).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٢١٨).

٥٠ ـ ﴿فأقبَلَ بَعضُهُم﴾: بعضُ أهل الجنّة ﴿علَى بَعضٍ، يَتَساءَلُونَ﴾ عمّا مرّ بهم في الدنيا. ٥١ ـ ﴿قالَ قائلٌ مِنهُم: إنِّي كانَ لِي قَرِينٌ﴾: صاحبٌ يُنكر البعثَ، ٥٢ ـ ﴿يَقُولُ﴾ لي تَبكيتًا: ﴿أإنَّكَ لَمِنَ المُصَدِّقِينَ﴾ بالبعث؟ ٥٣ ـ ﴿أإذا مُتْنا وكُنّا تُرابًا وعِظامًا أإنّا﴾ ـ في الهمزتين في الثلاثةِ مواضعَ ما تقدّم ـ ﴿لَمَدِينُونَ﴾: مَجزِيّون ومُحاسَبون؟ أنكر ذلك أيضًا. ٥٤ ـ ﴿قالَ﴾ ذلك القائل لإخوانه: ﴿هَل أنتُم مُطَّلِعُونَ﴾ معي إلى النار لننظر حاله؟ فيقولون: لا.

٥٥ ـ ﴿فاطَّلَعَ﴾ ذلك القائل من بعض كُوى الجنّة، ﴿فرَآهُ﴾ أي: رأى قرينَه ﴿في سَواءِ الجَحِيمِ﴾: في وسَط النار. ٥٦ ـ ﴿قالَ﴾ له تشميتًا: ﴿تاللهِ، إنْ﴾: مُخفّفةٌ من الثقيلة ﴿كِدتَ﴾: قاربتَ ﴿لَتُردِينِ﴾: لَتُهلِكُنِي بإغوائك! ٥٧ ـ ﴿ولَولا نِعمَةُ رَبِّي﴾ أي: إنعامُه عليَّ بالإيمان ﴿لَكُنتُ مِنَ المُحضَرِينَ﴾ معك في النار.

ويقول أهل الجنّة: ٥٨ ـ ٥٩ ـ ﴿أفما نَحنُ بِمَيِّتِينَ إلاّ مَوتَتَنا الأُولَى﴾ التي في الدنيا، ﴿وما نَحنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾؟ هو استفهام تلذّذ وتحدُّث بنعمة الله ـ تعالى ـ من تأبيد الحياة وعدم التعذيب. ٦٠ ـ ٦١ ـ ﴿إنَّ هذا﴾ الذي ذُكِر لأهل الجنّة ........................................

---

قولُه: (عَمّا مَرَّ بِهم) أي: ما جَرى لهم وعليهم، أو: عن المعارفِ والفضائلِ، أو المعنى: يشرَبونَ فيتحدَّثونَ على الشَّرابِ كعادةِ أهلِ الشُّربِ، كما قالَ:

وما بقيَتْ مِنَ اللَّذّاتِ إلّا ... أحاديثُ الكِرامِ على المُدامِ[1]

قولُه: (صَاحِبٌ) جَليسٌ.

قولُه: (تَبْكِيتاً) وتوبيخاً على التَّصديقِ بالبَعثِ.

قولُه: (أَنْكَرَ ذَلِكَ) أي: الجزاءَ، كما أنكرَ البعْثَ.

قولُه: (لا) لا دلالة على «لا»، ولا على «بَلَى».

قولُه: (مِنْ بَعْضِ) أو من فَوقِ الغُرَفِ، والأظهرُ أنَّه اطِّلاعُ كَشفٍ بطريقِ خرقِ العادَةِ.

قولُه: (أَهْلُ الجَنَّةِ) أو ذلكَ القائلُ تَقْريعاً لقَرينِه، أو معاودَةً إلى مكالمةِ جلسائِه.

قولُه: (هُو اسْتِفهَامٌ) وما بعدَهُ عَطفٌ على محذوفٍ؛ أي: أنحنُ مُخلَّدونَ مُنعَّمونَ ﴿فما نحنُ بميِّتينَ﴾؛ أي: بمن شأنُهُ الموتُ، ونَصْبُ ﴿مَوْتَتَنَا﴾ على المصدَرِ من اسمِ الفاعلِ، وقيلَ: على الاستثناءِ المنقَطِعِ.

قولُه: (الَّذِي ذُكِرَ) من النِّعمَةِ والخُلودِ والأمنِ من العذابِ.

---

(١) نسبه في «يتيمة الدهر» (١/ ١٣٠، ١٣٢) لأبي محمد عبد الله بن عمرو بن محمد الفيّاض.

﴿لَهُوَ الفَوزُ العَظِيمُ. لِمِثلِ هذا فلْيَعمَلِ العامِلُونَ﴾ قيل: يقال لهم ذلك. وقيل: هم يقولونه.

٦٢ ـ ﴿أذلِكَ﴾ المذكورُ لهم ﴿خَيرٌ نُزُلاً﴾ ـ وهو ما يُعدُّ للنازل من ضيف وغيره ـ ﴿أم شَجَرةُ الزَّقُّومِ﴾ المُعدّةُ لأهل النار؟ وهي من أخبثِ الشجر المرّ بتِهامة، يُنبتها الله في الجحيم كما سيأتي.

٦٣ ـ ﴿إنّا جَعَلْناها﴾ بذلك ﴿فِتنَةً لِلظّالِمِينَ﴾ أي: الكافرين من أهل مكّة، إذ قالوا: النار تُحرق الشجرَ. فكيف تُنبتُه؟

٦٤ ـ ﴿إنَّها شَجَرةٌ، تَخرُجُ في أصلِ الجَحِيمِ﴾ أي: قعر جهنّم، وأغصانها ترتفع إلى دَرَكاتها، ٦٥ ـ ﴿طَلْعُها﴾ المُشبّهُ بطلع النخلة ﴿كأنَّهُ رُؤُوسُ الشَّياطِينِ﴾: الحيّاتِ القبيحة المنظر، ٦٦ ـ ٦٧ ـ ﴿فإنَّهم﴾ أي: الكُفّارَ ﴿لآكِلُونَ مِنها﴾، مع قُبحها لشِدّة جوعهم، ﴿فمالِئُونَ مِنها البُطُونَ، ثُمَّ إنَّ لَهُم علَيها لَشَوبًا مِن حَمِيمٍ﴾ أي: ماءٍ حارّ يشربونه، فيختلط بالمأكول منها فيصير شوبًا له، ..........................................

---

قولُه: (﴿ذَلِكَ﴾) ما ذُكِرَ من الآيتينِ.

قولُه: (لَهُم) لأهلِ الجنَّةِ.

قولُه: (مَا يُعَدُّ) ونصبُهُ على التَّمييزِ أو الحالِ.

قولُه: (بتِهَامَةَ) بالكسرِ: مكَّةَ، وأرضٍ معروفةٍ.

قولُه: (بذَلِكَ) أي: بذِكرِه، أو بتسميَتِه.

قولُه: (فَكَيفَ تُنبِتُهُ) ولم يعلموا أنَّ مَن قَدَرَ على خَلْقِ ما يعيشُ في النَّارِ ويُلتَذُّ بهَا، فهو أقدَرُ على خَلْقِ الشَّجرِ في النَّارِ، وحفظِهِ مِنَ النَّارِ، كذا قالَهُ القاضي[1].

ويمكنُ أن يُقالَ: فمَن قَدَرَ أن يَخلُقَ النَّارَ في الشَّجرِ فهو قادرٌ على أن يخلُقَ الشَّجَرَ في النَّارِ.

قولُه: (المُشَبَّهُ) أي: حِمْلُها.

قولُه: (أي: الحَيَّاتِ) الهائلَةِ لها أعرافٌ.

قولُه: (مَعَ قُبْحِهَا) أي: الشَّجرةِ أو طَلعِها.

قولُه: (لشِدَّةِ جُوعِهِم) أو الجَبرِ على أكلِها.

قولُه: (فيَصِيرُ شَوْباً) أو التَّقديرُ: لشَراباً من غسَّاقٍ أو صَديدٍ مَشوباً بماءِ حَميمٍ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١١).

٦٨ ـ ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرجِعَهُم لَإِلَى الجَحِيمِ﴾. يُفيد أنهم يخرجون منها لشُرب الحميم وأنه خارجَها.

٦٩ ـ ٧٠ ـ ﴿إِنَّهُم أَلفَوا﴾: وجدُوا ﴿آباءَهُم ضالِّينَ، فَهُم عَلَى آثارِهِم يُهرَعُونَ﴾: يُزعَجون إلى اتّباعهم، فيُسرعون إليه. ٧١ ـ ﴿ولَقَد ضَلَّ قَبلَهُم أَكثَرُ الأَوَّلِينَ﴾ من الأُمم الماضية، ٧٢ ـ ﴿ولَقَد أَرسَلْنا فِيهِم مُنذِرِينَ﴾ من الرُّسل مُخوِّفين. ٧٣ ـ ﴿فانظُرْ: كَيفَ كانَ عاقِبَةُ المُنذَرِينَ﴾ الكافرين؟ أي: عاقبتُهم العذابُ، ٧٤ ـ ﴿إِلاَّ عِبادَ اللهِ المُخلِصِينَ﴾ أي: المؤمنين. فإنهم نجَوا من العذاب لإخلاصهم في العبادة، أو لأنّ الله أخلصهم لها، على قراءة فتح اللام.

٧٥ ـ ﴿ولَقَد نادانا نُوحٌ﴾ بقوله: «رَبِّ إِنِّي مَغلُوبٌ فانتَصِرْ»، ﴿فلَنِعمَ المُجِيبُونَ﴾ له نحن! أي: دعانا على قومه فأهلكناهم بالغرَق، ٧٦ ـ ﴿ونَجَّيناهُ وأَهلَهُ مِنَ الكَربِ العَظِيمِ﴾ أي: الغرَق، ٧٧ ـ ﴿وجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقِينَ﴾ ـ فالناس كُلّهم من نسله عليه السلام. وكان له ثلاثة أولاد: سامٌ وهو أبو العرب وفارسَ والرومِ، وحامٌ وهو أبو السودانِ، ويافِثُ وهو أبو الترك والخَزَر ويأجوجَ ومأجوجَ وما هُنالك ـ.........

---

قولُه: (يُفِيدُ) فيه أنَّ هذهِ الإفادةَ مُخالِفَةٌ لظاهِرِ قولِهِ تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧]، فالصَّوابُ أن يُقالَ: إلى دَرَكاتِها، أو وَسَطِها، أو إلى نَفْسِها بأنَّ الزَّقُّومَ والحميمَ نُزُلٌ يُقدَّمُ إليهم قبلَ دخولِها.

قولُه: (فيُسرِعُونَ) من غيرِ تَوقُّفٍ على نَظَرٍ وبَحْثٍ.

قولُه: (مِنَ الأُمَمِ) قَبلَ قومِكَ.

قولُه: (مُخَوِّفِينَ) من العَواقِبِ.

قولُه: (فَتحِ اللَّامِ) نافعٌ وكوفيٌّ[1].

قولُه: (أي: الغَرَقِ) أو أذى قومِهِ.

قولُه: (مِن نَسْلِهِ) إذ رُوِيَ أنَّهُ ماتَ كلُّ من كانَ معَهُ في السَّفينةِ غيرَ بنيهِ وأزواجِهِم[2].

قولُه: (والخَزَرِ) محرَّكةٌ: اسمُ جيلٍ خُزرِ العُيُونِ؛ أي: ضيقها وصِغَرها؛ يعني: التَّتارَ، وهو صنفٌ من التُّركِ، وفي بعضِ النُّسخِ: «الخزرج»، وهو تصحيفٌ وخطأٌ فاحِشٌ؛ لأنَّهم قبيلةٌ من الأنصار.

قولُه: (ومَا هُنالِكَ) يعني: قوماً يقربونَ إلى مكانِ يأجوجَ ومأجوجَ ﴿لا يكادُونَ يفقهونَ قولاً﴾ [الكهف: ٩٣].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٤٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٥٩).

(٢) رواه الثعلبي في «الكشف والبيان» (٢٢/ ٣٥٧) (٢٤١٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

٧٨ ـ ﴿وتَرَكْنا﴾: أبقينا ﴿عليهِ﴾ ثناءً حسنًا ﴿في الآخِرِينَ﴾ من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة ـ ٧٩ ـ ٨٠ ـ ٨١ ـ ٨٢ ـ ﴿سَلامٌ﴾ منّا ﴿علَى نُوحٍ في العالَمِينَ. إنّا كَذلِكَ﴾: كما جزيناهُ ﴿نَجزِي المُحسِنِينَ. إنَّهُ مِن عِبادِنا المُؤمِنِينَ ثُمَّ أغرَقْنا الآخَرِينَ﴾: كُفّارَ قومه.

٨٣ ـ ﴿وإنَّ مِن شِيعتِهِ﴾ أي: مِمّن تابعه في أصل الدِّين ﴿لَإبراهِيمَ﴾، وإن طال الزمان بينهما ـ وهو ألفان وستُّمِائَةٍ وأربعون سنة وكان بينهما هود وصالح ـ ٨٤ ـ ﴿إذ جاءَ﴾ أي: تابعه وقتَ مجيئه ﴿رَبَّهُ بِقَلبٍ سَلِيمٍ﴾ من الشكّ وغيره، ٨٥ ـ ٨٦ ـ ﴿إذ قالَ﴾ في هذه الحالة المستمرّة له ﴿لِأبِيهِ وقَومِهِ﴾ مُوبِّخًا: ﴿ماذا﴾: ما الذي ﴿تَعبُدُونَ؟ أإفكًا﴾ ـ في همزتيه ما تقدّم ـ ﴿آلِهةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ﴾؟ وإفكًا: مفعول له، وآلهة: مفعول به لـ «تُريدون»، والإفك: أسوأُ الكذب، أي: أتعبدون غيرَ الله؟ ٨٧ ـ ﴿فما ظَنُّكُم بِرَبِّ العالَمِينَ﴾ إذ عبدتم غيره، أنه يترككم بلا عقاب؟ لا.

وكانوا نجّامِينَ، فخرجوا إلى عِيد لهم، وتركوا طعامهم عند أصنامهم ـ زعموا التبرُّك عليه ـ فإذا رجعوا أكلوه، وقالوا للسيّد إبراهيم: اخرُجْ معنا. ........................

---

قولُه: (ثَناءً حَسَناً) إشارَةٌ إلى أنَّ مفعولَ ﴿تَرَكْنَا﴾ محذوفٌ.

قولُه: (كَمَا جَزَيْنَاهُ) الظَّاهرُ: مِثلَ ذلك الجزاءِ.

قولُه: (في أَصْلِ الدِّيْنِ) ولا يبعُدُ اتِّفاقُ شرعِهِما في الفروعِ، أو غالبِها.

قولُه: (أَي: تَابَعَهُ) يعني: الظَّرفُ متعلِّقٌ بمَا في الشِّيعةِ من معنى المشايَعَةِ، أو التَّقديرُ: اذكُرْ.

قولُه: (وغَيْرِهِ) من الآفاتِ والعلائِقِ، ومعنى: المجيءِ به[1] ربَّهُ: إخلاصُهُ له، كأنَّهُ جاءَ مستَحِقًّا[2] إيَّاهُ.

قولُه: (في هَذِهِ الحَالَةِ) قالَ القاضي: بدلٌ من الأولى، أو ظرفٌ لـ﴿جَاءَ﴾، أو ﴿سَلِيمٍ﴾[3].

قولُه: (مَفعُولٌ لَهُ) قُدِّمَ لأنَّ الأهمَّ أن يُقرِّرَ أنَّهم على الباطلِ ومبنَى أمرِهم على الإفْكِ.

قولُه: (مَفعُولٌ بِهِ) قُدِّمَ للعنايَةِ، أو مُراعاةً للفاصلَةِ.

قولُه: (لا) يعني: الاستفهامُ إنكارُ ما يوجِبُ ظنًّا ـ فَضلاً عن قَطعٍ ـ يصُدُّ عن عبادَةِ غيرِه، أو يجوِّزُ الإشراكَ به، أو يقتَضي الأمنَ من عقابِهِ.

---

(١) أي: بقلب سليم.

(٢) كذا في النسخ، وفي «أنوار التنزيل» (٥/ ١٣): «متحفاً».

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٣).

٨٨ ـ ﴿فنظرَ نَظرةً في النُّجُومِ﴾ إيهامًا لهم أنه يعتمد عليها ليتّبعوه، ٨٩ ـ ﴿فقالَ: إنِّي سَقِيمٌ﴾: عليل، أي: سأسقَمُ. ٩٠ ـ ٩١ ـ ﴿فتوَلَّوا عَنهُ﴾ إلى عِيدهم ﴿مُدبِرِينَ، فراغَ﴾: مالَ في خِفية ﴿إلى آلِهتِهِم﴾ ـ وهي الأصنام ـ وعندها الطعام، ﴿فقالَ﴾ استهزاءً: ﴿ألا تأكُلُونَ﴾. فلم ينطقوا. ٩٢ ـ فقال: ﴿مالَكُم لا تَنطِقُونَ﴾؟ فلم يُجَب، ٩٣ ـ ﴿فراغَ عليهِم ضَربًا بِاليَمِينِ﴾: بالقُوّة، فكسرها.

فبلغ قومَه ممّن رآه، ٩٤ ـ ﴿فأقبَلُوا إليهِ يَزِفُّونَ﴾ أي: يُسرعون المشي، فقالوا له: نحن نعبدها وأنت تكسِرها. ٩٥ ـ ﴿قالَ﴾ لهم مُوبِّخًا: ﴿أتَعبُدُونَ ما تَنحِتُونَ﴾ من الحِجارة وغيرها أصنامًا، ٩٦ ـ ﴿واللهُ خَلَقَكُم وما تَعمَلُونَ﴾ من نحتكم ومنحوتكم؟..........

---

قولُه: (لِيَتَّبِعُوهُ) أو ليَتركوهُ.

قولُه: (أي: سَأَسْقَمُ) يعني: أنّه مُشارِفٌ للسَّقمِ، أو بصدَدِ الموتِ، ومنهُ المثَلُ: كَفَى بالسَّلامةِ داءً، وقولُ لَبِيدٍ:

فدَعَوتُ رَبِّي بالسَّلامةِ جَاهِداً ... لِيُصِحَّنِي فإذا السَّلامةُ داءُ[1]

ماتَ رجلٌ فجأةً، فقيلَ: ماتَ وهو صحيحٌ، فقالَ أعرابيٌّ: أصحيحٌ مَن الموتُ في عُنُقِهِ.

قولُه: (في خِفْيَةٍ) من روغَةِ الثَّعلبِ، وأصلُهُ: الميلُ بحيْلَةٍ.

قولُه: (بالقُوَّةِ) يعني: تقييدُهُ باليَمينِ للدِّلالَةِ على قوَّةِ الفعلِ، فإنَّ قوَّةَ الآلةِ تستَدْعي قوَّةَ الفعلِ، وقيلَ: باليَمينِ؛ يعني: قولَهُ ﴿تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٧]، والتَّعديةُ بـ«على» هنا للاستعلاءِ، وأنَّ الميلَ لمكروهٍ، و﴿ضَرْبًا﴾ مصدرٌ لـ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾؛ لأنَّهُ في معنى: ضَرَبَهُم.

قولُه: (فَبَلَّغَ) بالتَّشديدِ، والظَّاهرُ أنَّهم ظنُّوا أنَّه هو، كما بيَّنَهُ قولُه: ﴿مَنْ فَعَلَ هَٰذَا﴾ الآيَةَ [الأنبياء: ٥٩].

قولُه: (أي: يُسرِعُونَ) وحمزةُ بضمِّ الياءِ[2]، وقولُ البيضاويِّ[3]: وقراءَةُ حمزةَ على بناءِ المفعولِ[4]. سهوٌ، نعم، هو قراءةٌ شاذَّةٌ عنه أو عن غيرِهِ.

قولُه: (مِنْ نَحْتِكُم) فإنَّ فِعلَهُم إذا كان بخَلْقِ اللهِ فيهم كانَ مفعولُهُمُ المتوقِّفُ على فعلِهِم أولى بذلكَ، وبهذا المعنى تَمسَّكَ أهلُ السُّنَّةِ على خَلقِ الأعمالِ.

قولُه: (ومَنْحُوتِكُم) لما تقدَّمَ، أو لأنَّ جوهَرَها بخلقِهِ تعالى.

---

(١) لم أجده في ديوانه. ونسبه إليه الثعالبي في «التمثيل والمحاضرة» (ص: ٦١)، ونسبه القيرواني في «زهر الآداب» (١/ ٢٦٨) لعمرو بن قمينة.

(٢) أي: (يُزِفُّون) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٦).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٤).

(٤) أي: (يُزَفُّون). وتقدم الصواب فيها عن حمزة.

فاعبُدوه وحدَه. وما: مصدرية، وقيل: موصولة، وقيل: موصوفة. ٩٧ ـ ﴿قَالُوا﴾ بينهم: ﴿ابْنُوا لَهُ بُنيانًا﴾، فاملؤوه حطبًا، وأضرموه بالنار، فإذا التهب ﴿فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾: النارِ الشديدة.

٩٨ ـ ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ بإلقائه في النار لتُهلكه، ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾: المقهورين. فخرج من النار سالمًا، ٩٩ ـ ﴿وَقَالَ: إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾: مهاجر إليه من دار الكُفر، ﴿سَيَهْدِينِ﴾ إلى حيثُ أمرني ربّي بالمصير إليه، وهو الشام. فلمّا وصل إلى الأرض المُقدّسة قال: ١٠٠ ـ ١٠١ ـ ﴿رَبِّ، هَبْ لِي﴾ ولدًا ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ. فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ أي: ذي حِلم كثير.

١٠٢ ـ ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أي: أن يسعى معه ويُعينه ـ قيل: بلغ سبعَ سنين، وقيل: ثلاثَ عشرةَ سنة ـ ﴿قَالَ: يَا بُنَيَّ، إِنِّي أَرَى﴾ أي: رأيتُ ﴿فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾. ورؤيا الأنبياء حقّ، وأفعالُهم بأمر الله تعالى. ﴿فَانْظُرْ: مَاذَا تَرَى﴾ من الرأي؟ شاوَرَه ليأنس بالذبح وينقاد للأمر به. ﴿قَالَ: يَا أَبَتِ﴾ ـ التاء عِوَض عن ياء الإضافة ـ ﴿افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ به. ﴿سَتَجِدُنِي، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ على ذلك.

---

قولُه: (ومَا مَصدَرِيَّةٌ) ورُجِّحَت على الأخيرَينِ؛ لما فيهما مِن حَذْفٍ أو مَجازٍ.

قولُه: (أَضرَمُوهُ) بفتحِ الرَّاءِ: وَقدُوهُ.

قولُه: (النَّارِ) واللَّامُ بدلُ الإضافةِ؛ أي: جَحيمِ ذلك البُنْيانِ.

قولُه: (لتُهلِكَهُ) لئلَّا يظهَرَ عَجزُهُم للعامَّةِ.

قولُه: (إلى حَيثُ) أو: إلى ما فيه صَلاحُ ديني.

قولُه: (وهُو الشَّامُ) أو حيثُ تجرَّدَ فيه لعبادَتِهِ.

قولُه: (وَلَدًا) أو: بعضَ الصالحينَ، يعني: الولدَ؛ لأنَّ لفظَ الهبةِ غالِبٌ فيه.

قولُه: (أيْ: ذِي حِلْمٍ) بشَّرَهُ بالولدِ، وبأنَّهُ ذكَرٌ يبلغُ أوانَ الحُلُمِ.

قولُه: (يَسْعَى معَهُ) في أعمالِه الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، و﴿مَعَهُ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ دلَّ عليه ﴿السَّعْيَ﴾ لا به؛ لأنَّ صلةَ المصدرِ لا تتقدَّمُهُ، ولا بـ﴿بلغ﴾ فإنَّ بلوغَهُما لم يكن معاً، كأنَّهُ قالَ: فلمَّا بلغَ السَّعيَ، فقيلَ: مع مَن؟ فقيلَ: معه.

قولُه: (رَأَيْتُ) وذُكِرَ بلفظِ المضارعِ لتكريرِ الرُّؤيا، ويمكنُ: لاستحضارِها.

قولُه: (بِهِ) فحُذِفا دُفعَةً، أو على التَّرتيبِ بأن حُذفَتِ الباءُ ثمَّ الهاءُ بعدَ إيصالِ الفعلِ بها.

قولُه: (عَلَى ذَلِكَ) أي: على الذَّبحِ، أو قضاءِ اللهِ.

١٠٣ ـ ﴿فلمّا أسلَما﴾: خضعا وانقادا لأمر الله ـ تعالى ـ ﴿وتَلَّهُ لِلجَبِينِ﴾: صرَعه عليه ـ ولكُلّ إنسان جبينانِ بينهما الجبهةُ ـ وكان ذلك بمِنًى، وأمَرَّ السِّكّين على حلقه، فلم تعمل شيئًا بمانع من القُدرة الإلـهية، ١٠٤ ـ ١٠٥ ـ ﴿وناديْناهُ: أن يا إبراهِيمُ، قَد صَدَّقتَ الرُّؤيا﴾ بما أتيتَ به ممّا أمكنك من أمر الذبح، أي: يكفيك ذلك. فجملة ناديناه: جواب «لمّا» بزيادة الواو. ﴿إنّا كَذلِكَ﴾: كما جزيناك ﴿نَجزِي المُحسِنِينَ﴾ لأنفسهم بامتثال الأمر بإفراج الشِّدّة عنهم. ١٠٦ ـ ﴿إنّ هذا﴾ الذبحَ المأمورَ به ﴿لَهُوَ البَلاءُ المُبِينُ﴾ أي: الاختبار الظاهر.

١٠٧ ـ ﴿وفَدَيناهُ﴾ أي: المأمورَ بذَبحه ـ وهو إسماعيلُ أو إسحاق قولان ـ ﴿بِذِبحٍ﴾: بكبشٍ ﴿عَظِيمٍ﴾ من الجنّة، وهو الذي قرّبه هابيل، جاء به جبريل ـ عليه السلام ـ فذبحه السيّد إبراهيم مُكبّرًا، ١٠٨ ـ ﴿وتَركْنا﴾: أبقينا ﴿عليهِ في الآخِرِينَ﴾ ثناءً حسنًا: ١٠٩ ـ ١١٠ ـ ١١١ ـ ١١٢ ـ ١١٣ ـ ﴿سَلامٌ﴾ منّا ﴿علَى إبراهِيمَ ـ كَذلِكَ﴾: كما جزيناه ﴿نَجزِي المُحسِنِينَ. إنَّهُ مِن عِبادِنا المُؤمِنِينَ ـ وبَشَّرْناهُ بِإسحاقَ﴾، استُدِلَّ بذلك على أنّ الذبيح غيرُه، ﴿نَبِيًّا﴾: حالٌ مُقدّرة، أي: يُوجد مُقدَّرًا نُبوّتُه ﴿مِنَ الصّالِحِينَ، وبارَكْنا علَيهِ﴾ بتكثير ذُرّيّته، ﴿وعلَى إسحاقَ﴾: ولدِه، بجعلنا أكثرَ الأنبياء من نسله. ﴿ومِن ذُرِّيّتِهِما مُحسِنٌ﴾: مؤمنٌ ﴿وظالِمٌ لِنَفسِهِ﴾: كافرٌ ﴿مُبِينٌ﴾: بيِّنُ الكفرِ.

١١٤ ـ ﴿ولَقَد مَنَنّا علَى مُوسَى وهارُونَ﴾ بالنُّبوّة، ١١٥ ـ ﴿ونَجَّيناهُما وقَومَهُما﴾ بني إسرائيلَ ﴿مِنَ الكَربِ العَظِيمِ﴾، أي: من استعبادِ فِرعونَ إياهم،.......................

---

**قولُه:** (جَوَابُ) أو الجوابُ: قَبِلنا منهُ و﴿نَادَيْنَاهُ﴾ عطفٌ عليهِ، وهذا أحسنُ من القولِ بالزَّائدِ.

**قولُه:** (كمَا جَزَيْنَاكَ) والأظهرُ: جزَيْناه.

**قولُه:** (الظَّاهِرُ) الَّذي يتميَّزُ فيه المُخلِصُ مِن غيرِهِ.

**قولُه:** (وهُو إِسْمَاعِيلُ) وهو الأظهرُ عندَ الأكثرِ.

**قولُه:** (قَولانِ) توقَّفَ فيهما السُّيوطيُّ في «رسالتِهِ»(١) أيضاً.

**قولُه:** (كمَا جَزَيْنَاهُ) ولعلَّهُ لم يَقُلْ هنا: «إنَّا» اكتفاءً بذكرِهِ مرَّةً في هذه القصَّةِ.

**قولُه:** (استُدِلَّ) لأنَّ البِشارَةَ به معطوفٌ على البشارَةِ بالغُلامِ المذبوحِ.

**قولُه:** (مُقَدَّرًا نُبُوَّتَهُ) مقضيًّا كونُهُ من الصَّالحينَ.

**قولُه:** (أي: استِعْبَادِ) أو الغَرَقِ.

---

(١) «القول الفصيح في تعيين الذبيح» للسيوطي ضمن «الحاوي للفتاوى» (١/ ٣٧٧) ذكر فيها أدلة القولين.

١١٦ـ١١٧ـ ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾ على القِبط ﴿فَكَانُوا هُمُ الغَالِبِينَ، وَآتَيْنَاهُمَا الكِتَابَ المُسْتَبِينَ﴾: البليغَ البيانِ فيما أتى به من الحدود والأحكام وغيرها ـ وهو التوراة ـ ١١٨ ـ ١١٩ ـ ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ﴾: الطريق ﴿المُسْتَقِيمَ، وَتَرَكْنَا﴾: أبقينا ﴿عَلَيْهِمَا فِي الآخِرِينَ﴾ ثناءً حسنًا: ١٢٠ـ١٢١ـ١٢٢ـ ﴿سَلَامٌ﴾ منّا ﴿عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ. إِنَّا كَذَلِكَ﴾: كما جزيناهما ﴿نَجْزِي المُحْسِنِينَ. إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا المُؤْمِنِينَ﴾.

١٢٣ ـ ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ﴾، بالهمزةِ أوّلَه وتركِها، ﴿لَمِنَ المُرْسَلِينَ﴾. قيل: هو ابن أخي هارونَ أخي موسى، وقيل: غيره، أُرسل إلى قوم ببَعْلَبَكَّ ونواحيها، ١٢٤ ـ ﴿إِذْ﴾: منصوب بـ «اذكرْ» مُقدّرًا ﴿قَالَ لِقَوْمِهِ: أَلَا تَتَّقُونَ﴾ اللهَ. ١٢٥ ـ ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾: اسمٌ لصنم لهم من ذهب، وبه سُمّي البلد أيضًا مضافًا إلى «بكّ»، أي: أتعبدونه ﴿وَتَذَرُونَ﴾: تتركون ﴿أَحْسَنَ الخَالِقِينَ﴾ فلا تعبدونه؟ ١٢٦ ـ ﴿اللهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾، برفع الثلاثة على إضمار «هو»، وبنصبها على البدل من «أحسنَ».

---

قولُه: (عَلى القِبْطِ) الضَّميرُ لهما مع القَومِ.

قولُه: (بالهَمْزَةِ) المكسورةِ القطعيَّةِ لجمهورِ القُرَّاءِ، وبهمزةٍ مفتوحَةٍ وصليَّةٍ لابنِ ذكوانَ بخُلْفٍ عنهُ[1] على أن (أل) التَّعريف فتثبتُ في الابتداءِ وتسقُطُ في الدَّرْجِ، فعلى هذا يُحمَلُ قوله: (وتركِهَا)، وكذا قولُ البيضاويِّ: وبحذفِها[2].

قولُه: (أَخَا مُوسَى) نصبٌ بتقديرِ: أعني[3].

قولُه: (غَيرُهُ) أي: غيرُ ابنِ أخيهِ، أو: غيرُ هذا القولِ، قيلَ: هو إدريسُ.

قولُه: (اللهَ) أي: عذابَهُ، أو: مخالفتَهُ.

قولُه: (لَهُم) أي: لأهلِ بَكَّ من الشَّامِ.

قولُه: (وبِهِ سُمِّيَ البَلَدُ) الَّذي يُقالُ له الآن: بَعْلَبَكُّ.

قولُه: (مُضَافاً) فيه: أنَّ التَّركيبَ مَزجيٌّ لا إضافيٌّ، ولعلَّهُ أرادَ معناهُ اللُّغويَّ؛ أي: مُنْضَمًّا.

قولُه: (أَتَعبُدُونَهُ) أو: تَطلبونَ الخيرَ منهُ.

قولُه: (وبنَصْبِهَا) الكوفيُّ غيرَ شعبةَ[4] (على البَدَلِ) أو بتقديرِ: أعني.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٧).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٧).

(٣) وفي المتن: «أخي موسى» فلا حاجة للتقدير.

(٤) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٧).

١٢٧ ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُم لَمُحضَرُونَ﴾ في النار، ١٢٨ ـ ﴿إِلاَّ عِبادَ اللهِ المُخلَصِينَ﴾ أي: المؤمنين منهم ـ فإنّهم نجَوا منها ـ ١٢٩ ـ ﴿وتَرَكْنا عليهِ في الآخِرِينَ﴾ ثناءً حسنًا: ١٣٠ ـ ﴿سَلامٌ﴾ منّا ﴿علَى إِلْياسِينَ﴾ هو إلياسُ المُتقدّمُ ذِكرُه ومَن آمنَ معه، فجُمعوا معه تغليبًا، كقولهم للمُهلَّب وقومه: المُهلَّبونَ. وعلى قراءةِ «آلِ ياسِينَ» بالمدّ أي: أهلِهِ والمرادُ به إلياسُ أيضًا. ١٣١ ـ ١٣٢ ـ ﴿إنّا كَذلِكَ﴾: كما جزَيناه ﴿نَجزِي المُحسِنِينَ. إنَّهُ مِن عِبادِنا المُؤمِنِينَ﴾.

١٣٣ ـ ﴿وإنَّ لُوطًا لَمِنَ المُرسَلِينَ﴾، ١٣٤ ـ ١٣٥ ـ اذكرْ ﴿إذ نَجَّيناهُ وأهلَهُ أجمَعِينَ، إلاّ عَجُوزًا فِي الغابِرِينَ﴾ أي: الباقينَ في العذاب، ١٣٦ ـ ﴿ثُمَّ دَمَّرْنا﴾: أهلكنا ﴿الآخَرِينَ﴾: كُفّارَ قومه. ١٣٧ ـ ﴿وإنَّكُم لَتَمُرُّونَ علَيهِم﴾: على آثارهم ومنازلهم في أسفاركم ﴿مُصبِحِينَ﴾ أي: وقتَ الصباح يعني: بالنهار ١٣٨ ـ ﴿وبِاللَّيلِ. أفَلا تَعقِلُونَ﴾ ـ يا أهل مكة ـ ما حل بهم فتعتبرون به؟

---

قولُه: (في النّارِ) وإنّما أطلقَهُ اكتِفاءً بالقَرينَةِ، أو لأنَّ الإحضارَ المطلَقَ مخصوصٌ بالشَّرِّ عُرْفاً.

قولُه: (أي: المُؤمِنِينَ) مستثنًى مِن الواو لا مِن ﴿الْمُحْضَرِينَ﴾؛ لفسادِ المعنى؛ لأنَّهُ إذا لم يُستَثْنَ شيءٌ من واو «كذبُوا» كانَ كلُّهم مكذِّبينَ، فليسَ فيهم عبدٌ مُخلِصٌ فَضْلاً عن المُخلَصينَ.

قولُه: (المُهَلَّبُونَ) قالَ القاضي: لكن فيه: أنَّ العَلَمَ إذا جُمِعَ يجبُ تعريفُهُ باللّامِ[1]. قلتُ: لعلَّهُ حَسَّنَ الحذفَ لزومُ تَكرارِ (أل).

وقيل: جمعٌ للمنسوبِ إليه بحذفِ ياءِ النَّسَبِ كالأعجمينَ.

وقيل: ﴿إلياسين﴾ لغةٌ في إلياسَ، كسِيناء وسِينينَ[2].

قولُه: (بالمَدِّ) نافعٌ وشاميٌّ[3].

قولُه: (إليَاسُ) أو أبو إلياسَ، وقيلَ: محمَّدٌ، أو القرآنُ.

قولُه: (فِي أَسْفَارِكُم) إلى الشَّامِ، فإنَّ سَدومَ في طريقِهِ.

قولُه: (أي: وَقْتَ الصَّبَاحِ) أي: داخِلينَ في الصَّباحِ.

قولُه: (يَعني: بالنَّهَارِ) أو: صباحاً ومساءً، ولعلَّ الواو بمعنى: أو؛ للتَّنويعِ، أو التَّقديرُ: ﴿مصبحينَ﴾ مرَّةً ﴿وباللَّيلِ﴾ أخرى بحسبِ اتِّفاقِ المَسيرِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٧).

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (١٥/ ١١٩).

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٨٧).

١٣٩ ـ ١٤٠ ـ ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ أَبَقَ﴾: هربَ ﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾: السفينةِ المملوءة حين غاضب قومه، لمّا لم ينزل بهم العذاب الذي وعدهم به، فركب السفينة فوقفتْ في لُجّة البحر، فقال الملاّحون: هنا عبد أبَقَ من سيّده، تُظهره القُرعة. ١٤١ ـ ﴿فَسَاهَمَ﴾: قارعَ أهلَ السفينة، ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾: المغلوبين بالقُرعة، فألقوه في البحر، ١٤٢ ـ ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ﴾: ابتلعَه، ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: آتٍ بما يُلام عليه من ذهابه إلى البحر ورُكوبه السفينةَ بلا إذن من ربّه.

١٤٣ ـ ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾: الذاكرين بقوله كثيرًا في بطن الحوت: «لا إلَـهَ إلاّ أنتَ سُبحانَكَ. إنِّي كُنتُ مِنَ الظّالِمينَ»، ١٤٤ ـ ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ لصار بطن الحوت له قبرًا إلى يوم القيامة، ١٤٥ ـ ﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾: ألقيناه من بطن الحوت ﴿بِالْعَرَاءِ﴾: بوجه الأرض، أي: بالساحل،

---

قولُه: (هَرَبَ) وأصلُه: الهَرَبُ منَ السَّيِّدِ، لكن لمَّا كان هربُهُ من قومِهِ بغيرِ إذنِ ربِّهِ أُطلِقَ عليه.

قولُه: (المَغلُوبِينَ) وأصلُهُ: المزلِقُ عن مَقامِ الظَّفرِ.

قولُه: (فَأَلْقَوهُ) أو: رَمى نفسَهُ.

قولُه: (ابْتَلَعَهُ) من اللُّقمَةِ.

قولُه: (آتٍ) أو: داخِلٌ في الملامةِ، أو: مُليمٌ نفسَه.

قولُه: (بقَولِهِ) أو بالتَّسبيحِ مدَّةَ عُمرِه، وقيلَ: من المصلِّينَ.

قولُه: (قَبْراً) يعني: لبثَ مَيْتاً، وقيلَ: حيًّا، فيكونُ معناهُ كالقَبرِ، رُوِيَ: أنَّه أوحِيَ إلى الحوتِ: إنَّا جَعلنا بطنَكَ له سِجْناً، ولم نَجعَلْهُ لك طعاماً[1].

قولُه: (أَلْقَيْنَاهُ) بأن حَمَلنا الحوتَ على لَفْظِهِ.

قولُه: (بوَجْهِ الأَرْضِ) أي: بالمكانِ الخالي عمَّا يغطِّيهِ من شجرٍ أو نَبْتٍ.

قولُه: (بالسَّاحِلِ) قيلَ: بشاطِئِ دجلةَ، وقيلَ: بأرضِ اليَمَنِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١١٦) عن شهر بن حوشب.

وروى البزار في «مسنده» (٨٢٢٧)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لما أراد الله تبارك وتعالى حبس يونس في بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن لا تخدشن له لحماً، ولا تكسرن له عظماً فأخذه...» الحديث.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩٨): رواه البزار عن بعض أصحابه ولم يسمه، وفيه ابن إسحاق وهو مدلس، وبقية رجاله رجال الصحيح.

من يومه أو بعد ثلاثةٍ أو سبعةِ أيامٍ أو عشرين أو أربعين يومًا، ﴿وهُوَ سَقِيمٌ﴾: عليل كالفرخ المُمَّعِط، ١٤٦ ـ ﴿وأنبَتْنا علَيهِ شَجَرةً مِن يَقطِينٍ﴾ ـ وهي القَرْع تُظِلّه، وهو بسِياق على خِلاف العادة في القرع، مُعجزةً له. وكانت تأتيه وعلةٌ صباحًا ومساء، يشرب من لبنها حتّى قوي ـ ١٤٧ ـ ﴿وأرسَلْناهُ﴾ بعد ذلك كقَبلِه إلى قومٍ بنِينَوَى من أرض المَوصل، ﴿إلَى مِائَةِ ألفٍ ـ أو﴾: بل ﴿يَزِيدُونَ﴾ عشرين............

---

قولُه: (عَلِيلٌ) ممَّا نالَهُ، قيل: صارَ بدنُهُ كبدَنِ الطِّفلِ حينَ يولَدُ.

قولُه: (كالفَرْخِ) أي: ولدِ الطَّيرِ.

قولُه: (المُمَّعِطِ) بضمِّ الميمِ الأولى وتشديدِ الثَّانيةِ وكسرِ العينِ: المنتُوفِ الشَّعرِ.

قولُه تعالى: (﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ﴾) أي: فوقَهُ مُظِلَّةً عليهِ.

قولُه: (القَرْعُ) وعليهِ الأكثرُ، واليقطينُ شجرٌ ينبسِطُ على وجهِ الأرضِ ولا يقومُ على ساقِهِ، يَفْعِيلٌ مِن قَطَنَ بالمكانِ: إذا قامَ به.

قولُه: (تُظِلُّهُ) أو غطَّتْهُ بأوراقِها عن الذُّبابِ فإنَّهُ لا يقعُ عليه، وقيل: التِّينُ، وقيل: المَوزُ، وقيل: نامَ نومَةً فاستيقظَ وقد يبسَتِ الشَّجَرةُ فأصابَتْهُ الشَّمسُ فبكى، فأوحى اللهُ إليه: تحزَنُ على شجرةٍ يبسَتْ، ولا تحزَنُ على مئةِ ألفٍ أو يزيدونَ، أرسَلناكَ إليهم فلم يتَّبِعوكَ فأردْتَ إهلاكَهُم، كذا في «تفسيرِ الكواشيِّ»[1].

قولُه: (وَعْلَةٌ) في «القاموسِ»: الوَعَلُ؛ بالفتحِ، وككَتِفٍ: تيسُ الجبلِ، جمع: أوعَالٍ ووعُولٍ ووعلةٍ، والأنثى: بلفظِها[2].

قولُه: (بَل) وقُرِئَ به وبالواو[3].

قولُه: (عِشرِينَ) كذا في حديثٍ مرفوعٍ[4].

---

(١) انظر: «التلخيص في تفسير القرآن العزيز» (٤/ ٤٣).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٠٦٨). قوله: (والأنثى بلفظها)، أي: بلفظ وعلة الذي هو جمع أو اسم جمع. انظر: «تاج العروس» (٣١/ ٨٨).

(٣) قراءة (بل يزيدون) رويت عن ابن عباس، كما في «المحرر الوجيز» (٤/ ٤٨٧).

وقراءة (ويزيدون) نسبت لجعفر بن محمد وأبي البرهسم، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٠٨).

(٤) روى الترمذي (٣٢٢٩)، والطبري «تفسيره» (٢١/ ١١٥) عن أبي بن كعب، قال: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ قال: «عشرون ألفاً».

قال الترمذي: هذا حديث غريب.

أو ثلاثين أو سبعين ألفًا ـ ١٤٨ ـ ﴿فَآمَنُوا﴾ عِند مُعاينة العذاب الموعودين به، ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ﴾ أي: أبقَيناهم مُمتّعين بما لَهُم ﴿إِلَى حِينٍ﴾ تنقضي آجالُهم فيه.

١٤٩ ـ ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾: استخبرْ كُفّارَ مكّة توبيخًا لهم: ﴿أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ﴾، بزعمهم أنّ الملائكة بناتُ الله، ﴿وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ فيختصّون بالأسنَى؟ ١٥٠ ـ ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا، وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ خلْقَنا، فيقولون ذلك؟ ١٥١ ـ ١٥٢ ـ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ﴾: كذِبِهم ﴿لَيَقُولُونَ: وَلَدَ اللَّهُ﴾، بقولهم: الملائكةُ بناتُ الله. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيه. ١٥٣ ـ ١٥٤ ـ ﴿أَصْطَفَى﴾ ـ بفتح الهمزة للاستفهام، واستُغني بها عن همزة الوصل فحُذفت ـ أي: أختارَ ﴿الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ؟ مَا لَكُمْ؟ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكمَ الفاسد؟ ١٥٥ ـ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، بإدغام التاء في الذال، أنه ـ تعالى ـ مُنزّه عن الولد؟ ١٥٦ ـ ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾: حُجّة واضحة بأنّ لله ولدًا؟ ١٥٧ ـ ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ التوراةِ فأروني ذلك فيه، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم ذلك.

---

قولُه: (أو ثَلاثِينَ) عن ابنِ عبَّاسٍ[١]، وفي روايةٍ: أربعينَ[٢].

قولُه: (المَوعُودِينَ) نَصبُهُ بتقديرِ: أعني، أو المرسلونَ إليهم ثانيةً.

قولُه: (بِمَا لَهُمْ) بفتحِ اللَّامِ.

قولُه: (خَلْقَنَا) مفعولٌ للاستفهامِ الإنكاريِّ.

قولُه: (فحُذِفَتْ) بل حُذفَت على أصلِها في الدَّرجِ لا استغناءً، ونَقلُ القاضي[٣] عن نافعٍ حذْفَ الاستفهامِ شاذٌّ[٤].

قولُه: (بإدْغَامِ التَّاءِ) عندَ غيرِ حفصٍ وحمزةَ والكسائيِّ[٥].

قولُه: (واضِحَةٌ) نزلَتْ عليكم مِن السَّماءِ.

قولُه: (التَّورَاةِ) فيه: أنَّ الخطابَ مع كفَّارِ مكَّةَ.

قولُه: (فِي قَوْلِكُم) أي: دَعوَتِكم.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١١٥).

(٢) رواه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٧/ ١٣٢).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ١٩).

(٤) انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١٢٨).

(٥) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٠٨).

١٥٨ ـ ﴿وجَعَلُوا﴾ أي: المشركون ﴿بَيْنَهُ﴾ ـ تعالى ـ ﴿وبَيْنَ الجِنَّةِ﴾ أي: الملائكةِ لاجتنانهم عن الأبصار ﴿نَسَبًا﴾ بقولهم: إنّها بنات الله، ﴿ولَقَد عَلِمَتِ الجِنَّةُ إنَّهُم﴾ أي: قائلي ذلك ﴿لَمُحضَرُونَ﴾ النارَ يعذَّبون فيها.

١٥٩ ـ ﴿سُبحانَ اللهِ﴾: تنزيهًا له ﴿عَمّا يَصِفُونَ﴾ بأنّ لِلهِ ولدًا! ١٦٠ ـ ﴿إلاّ عِبادَ اللهِ المُخلَصِينَ﴾ أي: المؤمنين ـ استثناء منقطع ـ أي: لكنِ المؤمنون فإنّهم مُنزِّهون اللهَ عمّا يصفه هؤلاء. ١٦١ ـ ﴿فإنَّكُم وما تَعبُدُونَ﴾ من الأصنام. ١٦٢ ـ ﴿ما أنتُم علَيهِ﴾ أي: على معبودكم، وعليه: مُتعلّق بقوله ﴿بِفاتِنِينَ﴾ أي: أحدًا ١٦٣ ـ ﴿إلاّ مَن هُوَ صالِ الجَحِيمِ﴾ في عِلم الله تعالى.

قال جبريلُ للنبيّ ﷺ: ١٦٤ ـ ﴿وما مِنّا﴾ ـ معشرَ الملائكة ـ أحدٌ ﴿إلاّ لَهُ مَقامٌ مَعلُومٌ﴾ في السماوات، نعبد الله فيه لا نتجاوزه، ١٦٥ ـ ﴿وإنّا لَنَحنُ الصّافُّونَ﴾ أقدامَنا في الصلاة، ١٦٦ ـ ﴿وإنّا لَنَحنُ المُسَبِّحُونَ﴾: المُنزِّهون اللهَ عما لا يليق به.

١٦٧ ـ ١٦٨ ـ ﴿وإنْ﴾: مُخفّفةٌ من الثقيلة ﴿كانُوا﴾ أي: كُفّارُ مكّة ﴿لَيَقُولُونَ: لَو أنَّ عِندَنا ذِكرًا﴾: كِتابًا ﴿مِنَ الأوَّلِينَ﴾ أي: من كُتب الأُمم الماضية، ١٦٩ ـ ﴿لَكُنّا عِبادَ اللهِ المُخلَصِينَ﴾ العِبادةَ له. ١٧٠ ـ قال تعالى: ﴿فكَفَرُوا بِهِ﴾ أي: بالكِتاب الذي جاءهم، وهو القُرآن الأشرف من تلك الكُتب. ﴿فَسَوفَ يَعلَمُونَ﴾ عاقبة كُفرهم، ..........

---

قولُه: (أي: المَلائِكَةِ) ذكرَهُم باسمِ جنسِهِم وضعاً منهم أن يَبلُغوا هذهِ المرتبَةَ.

قولُه: (استِثْناءٌ) من «المحضرينَ»؛ أي: فإنَّهُم غيرُ محضرينَ، بل أولئك عنها مُبْعَدونَ، وما بينَهُما اعتراضٌ، أو من واو: ﴿يَصِفُونَ﴾ على ما اختارَهُ الشَّيخُ.

قولُه: (عَلى مَعبُودِكُم) أو على اللهِ.

قولُه: (أي: أحَداً) أي: مضلِّينَ، كذا في «الدُّرِّ»(١).

قولُه: (قَالَ جِبرِيلُ) اعترافاً بالعُبوديَّةِ وردًّا على عَبَدَتِهِم.

قولُه: (أَحَدٌ) فحُذِفَ الموصوفُ وأقيمَ الصِّفةُ مقامَهُ.

قولُه: (في السَّمَاوَاتِ) أو: في المعرفةِ والعبادةِ والانتهاءِ إلى أمرِ اللهِ في تدبيرِ العالَمِ لا يتجاوَزُهُ.

قولُه: (أَقدَامَنَا) أو في أداءِ الطَّاعةِ ومنازِلِ الخدمَةِ.

---

(١) انظر: «الدر المنثور» (٧/ ١٣٤)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ١٢٣).

١٧١ ـ ﴿ولَقَد سَبَقَتْ كَلِمتُنا﴾ بالنصر ﴿لِعِبادِنا المُرسَلِينَ﴾، وهي: «لَأَغلِبَنَّ أنا ورُسُلِي»، أو هي قوله: ١٧٢ ـ ١٧٣ ـ ﴿إنَّهُم لَهُمُ المَنصُورُونَ، وإنَّ جُندَنا﴾ أي: المؤمنين ﴿لَهُمُ الغالِبُونَ﴾ الكُفّارَ بالحُجّة والنُّصرة عليهم في الدنيا، وإن لم ينتصر بعض منهم في الدنيا ففي الآخرة.

١٧٤ ـ ﴿فتَوَلَّ عَنهُم﴾ أي: أعرِض عن كُفّار مكّة ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ تُؤمَر فيه بقِتالهم، ١٧٥ ـ ﴿وأبصِرْهُم﴾ إذا نزل بهم العذاب. ﴿فسَوفَ يُبصِرُونَ﴾ عاقبة كُفرهم ـ فقالوا استهزاء: متى نزول العذاب؟ قال تعالى تهديدًا لهم: ١٧٦ ـ ١٧٧ ـ ﴿أفبِعَذابِنا يَستَعجِلُونَ؟ فإذا نَزَلَ بِساحَتِهِم﴾: بِفِنائهم، قال الفرّاء: العرب تكتفي بذكر الساحة عن القوم، ﴿فساءَ﴾: بئسَ صباحًا ﴿صَباحُ المُنذَرِينَ﴾! فيه إقامة الظاهر مَقامَ الضمير ـ ١٧٨ ـ ١٧٩ ـ ﴿وتَوَلَّ عنهُم حَتَّى حِينٍ، وأبصِرْ فسَوفَ يُبصِرُونَ﴾. كُرّرَ تأكيدًا لتهديدِهم وتسليةً له ﷺ.

١٨٠ ـ ﴿سُبحانَ رَبِّكَ، رَبِّ العِزّةِ﴾: الغلبة ﴿عَمّا يَصِفُونَ﴾، بأنّ له ولدًا! ١٨١ ـ ﴿وسَلامٌ على المُرسَلِينَ﴾: المُبلِّغين عن الله التوحيدَ والشرائع، ١٨٢ ـ ﴿والحَمدُ لِلهِ رَبِّ العالَمِينَ﴾ على نصرهم وهلاك الكافرين.

---

قولُه: (إذا نَزَلَ بِهِم العَذَابُ) يومَ بدرٍ، أو يومَ الفَتحِ، أو يومَ القيامَةِ.

قولُه: (وتَسلِيَةً لَهُ) الظَّاهرُ: وتسليته ﷺ؛ ليدخُلَ تحتَ التَّأكيدِ؛ إذ فَهْمُ التَّسليةِ ممَّا سبقَ أيضاً، أو الأوَّلُ لعذابِ الدُّنيا، والثَّاني لعذابِ الآخرَةِ.

قولُه: (وَلَداً) أو شَريكاً.

قولُه: (المُبَلِّغِينَ) تَعميمٌ بعدَ تخصيصِ بعضِهِم، والمرادُ: تَعليمُ المؤمنينَ، واللهُ أعلمُ.

***

# سُورَةُ الصَّافَّاتِ

مكِّية، ولم يَحكوا في ذلك خلافاً. وهي مئةٌ وإحدى وثمانون آيةً عند البصريين، ومئةٌ واثنتان وثمانون عندَ غيرِهم. وفيها تفصيلُ أحوالِ القرونِ المشارِ إلى إهلاكها في قوله تعالى في السُّورة المتقدِّمة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٣١] وفيها من تفصيل أحوالِ المؤمنين وأحوالِ أَعدائهم الكافرين يوم القيامةِ ما هو كالإيضاح لمَا في تلك السورةِ من ذلك، وذُكر فيها شيءٌ مما يتعلَّق بالكواكب لم يُذكَر فيما تقدَّم، ولمجموعِ ما ذُكر ذُكرت بعدها.

وفي «البحر»[1]: مناسبةُ أولِ هذه السورةِ لآخر سورةِ «يس» أنَّه تعالى لمَّا ذكر المعادَ وقدرتَه سبحانه على إحياء الموتى، وأنَّه هو مُنشئهم، وأنَّه إذا تعلَّقت إرادتُه بشيءٍ كان، ذكر عزَّ وجلَّ هنا وحدانيتَه سبحانه؛ إذ لا يتمُّ ما تعلَّقت به الإرادة إيجاداً وإعداماً إلَّا بكون المريدِ واحداً، كما يُشير إليه قولُه تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١﴾ إقسامٌ من الله تعالى بالملائكة عليهم السلام، كما روي عن ابن عباسٍ وابن مسعودٍ ومسروقٍ ومجاهدٍ وعكرمةَ وقتادةَ والسُّديِّ.

وأَبى أبو مسلم ذلك، وقال: لا يجوز حملُ هذا اللفظ ـ وكذا ما بعدُ ـ على الملائكة؛ لأنَّ اللفظَ مشعرٌ بالتأنيث، والملائكةُ مبرَّؤون عن هذه الصفة.

---

(١) ٧/ ٣٥١.

وفيه أنَّ هذا في معنى جمعِ الجمع، فهو جمعُ: صافَّة، أي: طائفة، أو جماعة صافَّة. ويجوز أن يكونَ تأنيثُ المفردِ باعتبار أنَّه ذاتٌ ونفس، والتأنيثُ المعنويُّ هو الذي لا يَحسُن أن يُطلقَ عليهم، وأما اللفظيُّ فلا مانعَ منه، كيف وهم المسمَّون بالملائكة؟!

والوصفُ المذكورُ منزَّلٌ منزلةَ اللازم، على أنَّ المرادَ إيقاعُ نفسِ الفعلِ من غير قصدٍ إلى المفعول، أي: الفاعلات للصفوف، أو المفعولُ محذوف، أي: الصافَّاتِ أنفسَها، أي: الناظماتِ لها في سِلك الصفوفِ بقيامها في مقاماتها المعلومةِ حسبما ينطق به قولُه تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] وذلك باعتبار تقدُّم الرتبةِ والقربِ من حظيرة القُدس، أو: الصافَّاتِ أنفسَها القائماتِ صفوفاً للعبادة. وقيل: الصافَّات أقدامَها للصَّلاة. وقيل: الصافَّات أَجنحتَها في الهواء منتظراتٍ أمرَ اللهِ تعالى.

وقيل: المرادُ بـ «الصافَّات» الطير، من قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ﴾ [النور: ٤١]. ولا يعوَّل على ذلك.

و«صفًّا» مصدرٌ مؤكِّد، وكذا «زَجْراً» في قوله تعالى: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢﴾ وقيل: «صفًّا» مفعولٌ به، وهو مفردٌ أُريد به الجمع، أي: الصافَّاتِ صفوفَها. وليس بذاك.

والمرادُ بالزاجرات الملائكةُ عليهم السلام أيضاً عند الجمهور.

والزَّجرُ في الأصل: الدفعُ عن الشيءِ بتسلُّطٍ وصياحٍ، وأَنشدوا:

زجرَ أبي عروةَ السِّباعَ إذا أَشفقَ أن يختلطنَ بالغَنَمِ[1]

ويُستعمل بمعنى السَّوق والحثّ، وبمعنى المنعِ والنَّهي وإن لم يكن صياحٌ، والوصفُ منزَّلٌ منزلةَ اللازم، أو مفعولُه محذوف، أي: الفاعلاتِ للزَّجر، أو: الزاجراتِ ما نيط بها زجرُه من الأجرام العلويةِ والسُّفلية وغيرِها على وجهٍ يليق

(١) البيت للنابغة الجعدي، وهو في ديوانه ص ١٥٨.

بالمزجور، ومن جملة ذلك زجرُ العبادِ عن المعاصي بإلهام الخير، وزجرُ الشياطين عن الوسوسة والإغواء وعن استراق السَّمع، كما سيأتي قريباً إن شاء اللهُ تعالى.

وعن قتادة: المرادُ بالزاجرات آياتُ القرآن؛ لتضمُّنها النواهيَ الشرعية.

وقيل: كلُّ ما زجر عن معاصي اللهِ عزَّ وجلَّ. والمعوَّل عليه ما تقدَّم.

وكذا المرادُ ـ كما رُوي عن ابن عباسٍ وابن مسعودٍ وغيرِهما ـ في قوله تعالى: ﴿فَالتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣﴾ الملائكةُ عليهم السلام.

و«ذِكْراً» نصب على أنَّه مفعولٌ به، وتنوينُه للتفخيم، وهو بمعنى المذكورِ المتلوّ، وفسِّر بكتاب[1] اللهِ عزَّ وجلَّ.

قال أبو صالح: هم الملائكةُ يجيئون بالكتاب والقرآنِ من عند اللهِ عزَّ وجلَّ إلى الناس. فالمرادُ بتلاوته تلاوتُه على الغير.

وفسَّره بعضُهم بالآيات والمعارفِ الإلهية، والملائكةُ يتلونهما على الأنبياءِ والأولياء. وسيأتي إن شاء اللهُ تعالى في باب الإشارةِ ما يتعلَّق بتلاوة الملائكةِ ذلك على الأولياءِ قدَّس اللهُ تعالى أسرارَهم.

وقال بعض: أي: فالتالياتِ آياتِ اللهِ تعالى وكتبَه المنزلةَ على الأنبياءِ عليهم السلام، وغيرَها من التسبيح والتقديسِ والتحميدِ والتمجيد. ولعلَّ التلاوةَ على هذا أعمُّ من التِّلاوة على الغير وغيرها.

وقيل: «ذكراً» نصب على أنَّه مصدرٌ مؤكِّد على غير اللفظ؛ لتكونَ المنصوباتُ على نسقٍ واحد.

وقال قتادة: التاليات ذِكراً: بنو آدم يتلون كتابَه تعالى المنزلَ وتسبيحَه وتكبيرَه.

وجوِّز أن يكونَ اللهُ تعالى أقسم بنفوس العلماءِ العمَّال، الصافاتِ أنفسَها في صفوف الجماعات، أو أقدامَها في الصَّلوات، الزاجراتِ بالمواعظ والنصائح،

---

(١) في الأصل: بكتب.

التالياتِ آياتِ اللهِ تعالى، الدارسات شرائعَه وأحكامَه. أو بطوائفِ قوَّاد الغزاةِ في سبيل اللهِ تعالى التي تصفُّ الصفوفَ في مواطن الحروب، الزاجراتِ الخيلَ للجهاد سوقاً، أو العدوَّ في المعارك طرداً، التالياتِ آياتِ اللهِ سبحانه وذِكرَه وتسبيحَه في تضاعيف ذلك.

وجُوِّز أيضاً أن يكونَ أقسم سبحانه بطوائفِ الأجرامِ الفلكيةِ المرتَّبة كالصُّفوف، المرصوصةِ بعضُها فوق بعض، والنفوسِ المدبِّرة لتلك الأجرامِ بالتحريك ونحوِه، والجواهرِ القدسيةِ المستغرقة في بحار القدسِ يسبِّحون الليلَ والنهارَ لا يفتُرون، وهم الملائكةُ الكَروبيُّون ونحوُهم. وهذا بعيدٌ بمراحلَ عن مذهب السلفِ الصالح، بل عن مذهب أهلِ السنَّة مطلقاً كما لا يخفى.

والفاءُ العاطفةُ للصِّفات قد تكون لترتيب معانيها الوصفيةِ في الوجود الخارجيِّ إذا كانت الذاتُ المتَّصفةُ بها واحدة، كما في قوله:

يا لهفَ زيَّابةَ للحارث الصَّـ ... ـابحِ فالغانمِ فالآيبِ[1]

أي: الذي صَبَحَ فغَنِم فآبَ ورجع.

أو لترتيب معانيها في الرُّتبة إذا كانت الذاتُ واحدةً أيضاً، كما في قولك: أتمّ العقل فيك إذا كنت شابّاً فكهلاً.

أو لترتيب الموصوفاتِ بها في الوجود، كما في قولك: وقفتُ كذا على بَنيَّ بطناً فبطناً. أو في الرُّتبة، نحو: رحم اللهُ تعالى المحلِّقين فالمقصِّرين. وكلاهما مع تعدُّد الموصوف، والترتيبُ الرُّتبيُّ إما باعتبار الترقِّي أو باعتبار التدلِّي.

وهي ـ إذا كانت الذاتُ المتصفةُ بالصِّفات هنا واحدةً، وهم الملائكةُ عليهم السلام بأسرهم ـ تحتمل أن تكونَ للترتيب الرتبيِّ باعتبار الترقِّي، فالصفُّ في الرُّتبة الأُولى؛ لأنَّه عملٌ قاصر، والزَّجر أَعلى منه؛ لمَا فيه من نفع الغير، والتلاوةُ أَعلى وأعلى؛ لمَا فيها من نفع الخاصَّةِ الساري إلى نفع العامَّةِ بما فيه صلاحُ المعاشِ

---

(١) البيت لابن زيّابة التيمي، وسلف ١١/٤٠٩.

والمعاد. أو للترتيب الخارجيِّ من حيث وجودُ ذواتِ الصِّفات، فالصفُّ يوجد أوّلاً لأنَّه كمالٌ للملائكة في نفسها، ثم يوجد بعده الزَّجرُ للغير؛ لأنَّه تكميلٌ للغير يستعدُّ به، والشخصُ ما لم يكمُل في نفسه لا يتأهَّل لأن يُكملَ غيرَه، ثم توجد التلاوةُ بناءً على أنَّها إفاضةٌ على الغير المستعدِّ لها، وذا لا يتحقَّق إلَّا بعد حصولِ الاستعدادِ الذي هو من آثار الزَّجر.

وإذا كانت الذاتُ المتصفةُ بها من الملائكة عليهم السلام متعدِّدةً، بمعنى أنَّ صنفاً منهم كذا وصنفاً آخَرَ كذا، فالظاهرُ أنَّها للترتيب الرتبيِّ باعتبار الترقِّي كما في الشِّقِّ الأول، فالجماعاتُ الصافَّاتُ كاملون، والزاجراتُ أكملُ منها، والتالياتُ أكملُ وأكمل، كما يُعلم ممَّا سبق.

وقيل: يجوز أن يكونَ بعكس ذلك، بأن يرادَ بالصافَّات جماعاتٌ من الملائكة صافَّاتٌ من حول العرش، قائماتٌ في مقام العبودية، وهم الكَرُوبيُّون المقرَّبون، أو ملائكةٌ آخَرون يقال لهم ـ كما ذكر الشيخُ الأكبر قدَّس الله سرَّه ـ: المُهَيَّمون، مستغرقون بحبِّه تعالى، لا يدري أحدُهم أنَّ الله عزَّ وجلَّ خلق غيرَه، وذكر أنَّهم لم يؤمروا بالسُّجود لآدمَ عليه السلام لعدم شعورِهم باستغراقهم به تعالى، وأنَّهم المعنيُّون بالعالين في قوله تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥]. وبالزَّاجرات جماعاتٌ أُخرُ أُمرت بتسخير العُلويات والسفليات، وتدبيرِها لما خُلقت له، وهي في الفضل ـ على ما لها من النفع للعباد ـ دون الصافَّات. وبالتاليات ذِكراً جماعاتٌ أخرُ أُمرت بتلاوة المعارفِ على خواصِّ الخلق، وهي ـ لخصوص نفعِها ـ دونَ الزاجرات. أو المرادُ بالزاجرات الزاجراتُ الناسَ عن القبيح بإلهام جهةِ قبحِه وما ينفِّر عن ارتكابه، وبالتاليات ذِكراً الملهماتُ للخير والجهاتِ المرغِّبة فيه.

ولكون دفعِ الضرِّ أَولى من جلب الخير، ودرءِ المفاسدِ أهمَّ من جلب المصالح؛ ولذا قيل: التخلية ـ بالخاء ـ مقدَّمة على التحلية = كانت التالياتُ دون الزَّاجرات.

وحالُ الفاءِ ـ على سائر الأقوالِ السابقةِ في الصفات ـ لا يخفَى على مَن له أدنى تأمُّل.

ويجوز عندي ـ واللهُ تعالى أعلمُ ـ أن يرادَ بـ «الصافَّات»: المصطفُّون للعبادة، من صلاةٍ ومحاربةِ كفرةٍ مثلاً، ملائكةً كانوا أم أناسيَّ أم غيرَهما، وبـ «الزاجرات»: الزَّاجرون عن ارتكاب المعاصي بأقوالهم أو أفعالِهم، كائنين مَن كانوا، وبـ «التاليات ذِكراً»: التالون لآيات اللهِ تعالى على الغير، للتعليم أو نحوِه كذلك. ولا عنادَ بين هذه الصِّفات، فتجتمع في بعض الأشخاص.

ولعلَّ الترتيبَ على سبيل الترقِّي باعتبار نفسِ الصفات، فالاصطفافُ للعبادة كمال، والزجرُ عن ارتكاب المعاصي أكمل، والتلاوةُ لآياتِ اللهِ تعالى للتعليم؛ لتضمُّنه الأمرَ بالطاعات والنهيَ عن المعاصي، والتخلِّيَ عن الرذائل والتحلِّيَ بالمعارف، إلى أمورٍ أُخرَ أكملَ وأكمل.

وجَعلُ الصفاتِ المذكورةِ لموصوفٍ واحدٍ من الملائكة على ما مرّ، بأن تكونَ جماعاتٌ منهم صافَّات، بمعنى صافاتٍ أنفسَها في سلك الصفوفِ بالقيام في مقاماتها المعلومة، أو القائماتِ صفوفاً للعبادة، وتالياتٍ ذكراً بمعنى تالياتِ الآياتِ بطريق الوحي على الأنبياءِ عليهم السلام = لا يخلو عن بُعدٍ فيما أرى، على أن تعدُّدَ الملائكةِ التالين للوحي ـ سواءٌ كان صنفاً مستقلًا أم لا ـ ممَّا يُشكل عليه ما ذكره غيرُ واحدٍ أنَّ الأمينَ على الوحي التاليَ للذِّكر على الأنبياءِ هو جبريلُ عليه السلام لا غير. نَعَم من الآيات ما ينزل مشيَّعاً بجمعٍ من الملائكة عليهم السلام، ونطق الكتابُ الكريمُ بالرَّصد عند إبلاغ الوحي، وهذا أمرٌ والتلاوةُ على الأنبياءِ عليهم السلام أمرٌ آخَر، فتأمَّل جميعَ ذلك. وفي المراد بالصفات المتناسقةِ احتمالاتٌ غيرُ ما ذُكر، فلاتغفُل.

وأيَّاما كان، فالقَسَمُ بتلك الجماعاتِ أنفسِها ولا حَجرَ على الله عزَّ وجلَّ، فله سبحانه أن يُقسِمَ بما شاء، فلا حاجةَ إلى القول بأنَّ الكلامَ على حذفِ مضاف، أي: وربِّ الصافاتِ، مثلاً.

والآيةُ ظاهرةُ الدَّلالة على مذهب سيبويه والخليلِ في مثل: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ١-٢] من أنَّ الواوَ الثانيةَ وما بعدَها للعطف[١]، خلافاً لمذهب غيرِهما من أنَّها للقَسَم؛ لوقوع الفاءِ فيها موقعَ الواو، إلَّا أنَّها تُفيد الترتيب.

وأَدغم ابنُ مسعودٍ ومسروقٌ والأعمشُ وأبو عَمرٍو وحمزةُ التاءاتِ الثلاثَ فيما يليها[٢]؛ للتَّقارب، فإنَّها من طرف اللسانِ وأصولِ الثَّنايا.

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ۝٤﴾ جوابٌ للقَسَم. وقد جرت عادتُهم على تأكيد ما يهتمُّ به بتقديم القَسَم؛ ولذا قدِّم هاهنا، فلا يقال: إنَّه كلامٌ مع منكِرٍ مكذِّب، فلا فائدةَ في القَسَم. وما قيل من أنَّ وحدةَ الصانعِ قد ثبتت بالدليل النقليِّ بعد ثبوتِها بالعقل ففائدتُه ظاهرةٌ هنا = غيرُ تامّ؛ لأنَّ الكلامَ مع مَن لا يعترف بالتوحيد، وقد أُشير إلى البرهان في قولِه سبحانه: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ۝٥﴾ فإنَّ وجودَها على هذا النَّمط البديعِ أوضحُ دليلٍ على وَحدته عزَّ وجلَّ، بل في كلِّ ذرَّةٍ من ذرَّات العالمَ دليلٌ على ذلك:

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ ... تدلُّ على أنَّه واحدُ[٣]

و«ربّ» خبرٌ ثانٍ لـ «إنَّ» على مذهب مَن يجوِّز تعدُّدَ الأخبار. أو خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هو ربُّ السماواتِ.. إلخ. وجوَّز أبو البقاءِ[٤] وغيرُه كونَه بدلاً من «واحد» فهو المقصودُ بالنسبة. أي: خالقُ السماواتِ والأرضِ وما بينهما من الموجودات.

ويدخل في عموم الموصولِ أفعالُ العباد، فتدلُّ الآيةُ على أنَّها مخلوقةٌ له تعالى، ولا ينافي ذلك كونُ قدرةِ العبدِ مؤثِّرةً بإذنه عزَّ وجلَّ، كما ذهب إليه معظمُ السلف، حتى الأشعريُّ نفسُه في آخر الأمرِ على ما صرَّح به بعضُ الأجِلَّة.

(١) انظر الكتاب ٣/ ٥٠١.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٥٢، وانظر لقراءة أبي عمرو وحمزة التيسير ص ٢٢-٢٦ و١٨٥-١٨٦، والنشر ١/ ٢٨٦ فما بعد، و٢/ ٣٥٦.
(٣) سلف ١/ ٢٧١.
(٤) في الإملاء ٤/ ٢٣٢.

وفسَّر بعضُهم الربَّ هنا بالمالك وبالمربِّي. ولعلَّ الأوَّل أظهر، وفي دلالة الآيةِ على كون أفعالِ العبادِ مخلوقةً له على ذلك بحث.

والمرادُ بـ «المشارق» ـ عند جمع ـ مشارقُ الشمس؛ لأنَّها المعروفةُ الشائعة فيما بينهم، وهي بعدد أيامِ السَّنة؛ فإنَّها في كلِّ يومٍ تُشرق من مشرقٍ وتَغرب في مغرب، فالمغاربُ متعدِّدة تعدُّدَ المشارق، وكأنَّ الاكتفاءَ بها لاستلزامها ذلك، مع أنَّ الشروقَ أدلُّ على القدرة وأبلغُ في النِّعمة؛ ولهذا استدلَّ به إبراهيمُ عليه السلام عند محاجَّةِ النُّمروذ.

وعن ابن عطيةَ[(١)] أنَّ مشارقَ الشمسِ مئةٌ وثمانون.

ووفَّق بعضُهم بين هذا وما يقتضيه ما تقدَّم من مضاعفة العددِ بأنَّ مشارقَها من رأس السَّرطان، وهو أولُ بروجِ الصيف، إلى رأس الجَدي، وهو أوَّل بروجِ الشِّتاء، متَّحدةً معها من رأس الجديِ إلى رأس السَّرطان، فإن اعتُبر ما كانت عليه وما عادت إليه واحداً، كانت مئةً وثمانين، وإنْ نُظر إلى تغايرهما، كانت ثلاثَ مئةٍ وستين. وفي هذا إسقاطُ الكسر؛ فإنَّ السَّنةَ الشمسيةَ تزيد على ذلك العددِ بنحو ستَّة أيامٍ على ما بيِّن في موضعه.

وفسِّرت «المشارقُ» أيضاً بمشارق الكواكب، ورجِّح بأنَّه المناسبُ لقوله تعالى بعد: «إنا زينا. .» إلخ. وهي للسيَّارات منها متفاوتةٌ في العدد، وأكثرُها مشارقَ ـ على ما هو المعروفُ عند المتقدِّمين ـ زُحَل، ومشارقُه إلى أن يُتمَّ دورتَه أكثرُ من مشارق الشمسِ إلى أن تُتِمَّ دورتَها بألوف، ومشارق الثوابتِ إلى أن تُتمَّ الدورةَ أكثر وأكثر، فلا تغفُل وتبصَّر.

وتثنيةُ المشرقِ والمغربِ في قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧] على إرادة مشرقِ الصيفِ ومشرقِ الشتاءِ ومغربيهما. وإعادةُ «رب» هنا مع المشارقِ لغاية ظهورِ آثارِ الرُّبوبية فيها وتجدُّدِها كلَّ يوم.

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٥.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: أقربَ السماواتِ من أهل الأرض، فالدُّنيا هنا مؤنَّث أدنى، بمعنى أقرب، أفعلُ تفضيل ﴿بِزِينَةٍ﴾ عجيبةٍ بديعةٍ ﴿ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦﴾ بالجرِّ بدلٌ من «زينة» بدلَ كلٍّ، على أنَّ المرادَ بها الاسم، أي: ما يُزان به، لا المصدر؛ فإنَّ الكواكبَ بأنفُسها وأوضاعِ بعضِها من بعضٍ زينة، وأيُّ زينة:

فكأنَّ أجرامَ النجومِ لوامعاً ... دُرَرٌ نُثرنَ على بساطٍ أزرق[١]

وجوِّز أن تكونَ عطفَ بيان.

وقرأ الأكثرون: «بزينةِ الكواكبِ» بالإضافة[٢]، على أنَّها بيانية؛ لمَا أنَّ الزينةَ مبهَمةٌ صادقةٌ على كلِّ ما يزان به، فتقع الكواكبُ بياناً لها، ويجوز أن تكونَ لامية، على أنَّ الزينةَ للكواكب أضواؤها أو أوضاعُها. وتفسيرُها بالأضواءِ منقولٌ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

وجُوِّز أن تكونَ الزينةُ مصدراً كالنسبة، وإضافتُها من إضافة المصدرِ إلى مفعوله، أي: زيَّنّا السماءَ الدنيا بتزييننا الكواكبَ فيها، أو من إضافة المصدرِ إلى فاعله، أي: زينَّاها بأن زينتَها الكواكب.

وقرأ ابن وثَّابٍ ومسروقٌ بخلافٍ عنهما، والأعمش، وطلحة، وأبو بكر: «بزينةٍ» منوَّناً «الكواكبَ»[٣] نصباً. فاحتمل أن يكونَ «زينة» مصدراً، و«الكواكب» مفعولٌ به، كقوله تعالى: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝١٤ يَتِيمٗا﴾ [البلد: ١٤-١٥] وليس هذا من المصدر المحدودِ كالضَّربة حتى يقال: لا يصحُّ إعمالُه كما نصَّ عليه ابنُ مالك[٤]؛ لأنَّه وُضع مع التاءِ كالكتابة والإصابة، وليس كلُّ تاءٍ في المصدر للوحدة. وأيضاً ليست هذه الصيغةُ صيغةَ الوحدة. واحتمل أن يكونَ «الكواكب» بدلاً من «السماء» بدلَ اشتمال، واشتراطُ الضميرِ معه للمبدَل منه إذا لم يظهر

---

(١) قائله أبو طالب الرقي، وهو في يتيمة الدهر ١/ ٣٤٦، وأسرار البلاغة ص ١٣٧.

(٢) قرأ عاصم وحمزة بالتنوين والباقون بالإضافة. التيسير ص ١٨٦، والنشر ٢/ ٣٥٦.

(٣) البحر ٧/ ٣٥٢. وقراءة أبي بكر في التيسير ص ١٨٦، والنشر ٢/ ٣٥٦.

(٤) في التسهيل ص ١٤٢.

اتِّصالُ أحدِهما بالآخر، كما قرَّروه في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝ ٱلنَّارِ﴾ [البروج: ٤-٥] وقيل: اللامُ بدلٌ منه. وجوِّز كونُه بدلاً من محلِّ الجارِّ والمجرور، أو المجرورِ وحدَه على القولين، وكونُه منصوباً بتقدير: أعني.

وقرأ زيدُ بن عليٍّ رضي الله عنهما: «بزينةٍ» منوَّناً «الكواكبُ»[1] رفعاً على أنَّها خبرُ مبتدإٍ محذوف، أي: هي الكواكب. أو فاعلُ المصدر، ورفعُه الفاعلَ قد أجازه البصريُّون على قِلَّة، وزعم الفرَّاءُ أنَّه ليس بمسموع.

وظاهرُ الآية أنَّ الكواكبَ في السماءِ الدنيا، ولا مانعَ من ذلك وإن اختلفت حركاتُها وتفاوتت سرعةً وبطئاً؛ لجواز أن تكونَ في أفلاكها، وأفلاكُها في السماءِ الدنيا، وهي ساكنة، ولها من الثِّخن ما يمكن معه نضدُ تلك الأفلاكِ المتحرِّكةِ بالحركات المتفاوتةِ وارتفاعُ بعضِها فوقَ بعض.

وحكى النيسابوريُّ في تفسير سورةِ التكويرِ عن الكلبيِّ أنَّ الكواكبَ في قناديلَ معلَّقةٍ بين السماءِ والأرض بسلاسلَ من نُور، وتلك السلاسلُ بأيدي الملائكةِ عليهم السلام[2]، وهو مما يكذِّبه الظاهر، ولا أراه إلَّا حديثَ خُرافة.

وأمَّا ما ذهب إليه جُلُّ الفلاسفةِ من أنَّ القمرَ وحده في السماءِ الدنيا، وعُطارد في السماءِ الثانية، والزُّهَرة في الثالثة، والشمسَ في الرابعة، والمرِّيخ في الخامسة، والمشتريَ في السادسة، وزُحَلَ في السابعة، والثوابتَ في فلكٍ فوق السابعة، هو الكرسيُّ بلسان الشَّرع = فممَّا لا يقوم عليه برهانٌ يفيد اليقين، وعلى فَرْض صحَّتِه لا يقدح في الآية؛ لأنَّه يكفي لصحَّة كونِ السماءِ الدنيا مزيَّنةً بالكواكب كونُها كذلك في رأي العين.

﴿وَحِفْظًا﴾ نصب على أنَّه مفعولٌ مطلقٌ لفعلٍ معطوفٍ على «زينا»، أي: وحفظناها حفظاً. أو عطفٌ على «زينة» باعتبار المعنى، فإنَّه معنًى مفعولٌ له، كأنَّه قيل: إنَّا خلقنا الكواكبَ زينةً للسماءِ وحفظاً لها. والعطفُ على المعنى كثير، وهو

---

(١) البحر ٧/ ٣٥٢.

(٢) تفسير النيسابوري ٣٠/ ٣٤ ولكن عن عطاء.

غيرُ العطفِ على الموضع، وغيرُ عطفِ التوهُّم. وجوَّز كونُه مفعولاً له بزيادة الواو، أو على تأخيرِ العامل، أي: ولحِفظها زيَّناها.

وقولُه تعالى: ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾ متعلِّق بحفظنا المحذوف، أو بـ «حِفظاً». والماردُ كالمَريد: المتعرِّي عن الخيرات، من قولهم: شجرٌ أمرد: إذا تعرَّى من الورق، ومنه قيل: رملةٌ مَرداء: إذا لم تُنبت شيئاً، ومنه الأمرد؛ لتجرُّده عن الشَّعر. وفسِّر هنا أيضاً بالخارج عن الطَّاعة، وهو في معنى التعرِّي عنها.

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: لا يتسمَّعون، وهذا أصلُه، فأُدغمت التاءُ في السِّين، وضميرُ الجمعِ لـ «كلِّ شيطان»؛ لأنَّه بمعنى الشياطين.

وقرأ الجمهور: «لا يَسْمعونَ» بالتَّخفيف[1].

والملأ في الأصل جماعةٌ يجتمعون على رأيٍ فيملؤون العيونَ رُوَاء، والنفوسَ جلالةً وبهاء. ويُطلَق على مطلق الجماعة، وعلى الأشرافِ مطلقاً.

والمرادُ بـ «الملأ الأعلى» الملائكةُ عليهم السلام كما رُوي عن السُّدِّي؛ لأنَّهم في جهة العُلوّ، ويقابله الملأُ الأسفل، وهم الإنسُ والجِنّ؛ لأنَّهم في جهة السُّفل.

وقال ابن عباس: هم أشرافُ الملائكةِ عليهم السلام. وفي روايةٍ أخرى عنه أنَّهم كتَّابهم. وفسِّر العلوُّ على الرِّوايتين بالعلوِّ المعنويّ.

وتعديةُ الفعلِ على قراءة الجمهورِ بـ «إلى» لتضمينه معنى الإصغاء، أي: لا يسَّمعون مصغين إلى الملأ الأعلى. والمرادُ نفيُ سماعِهم مع كونِهم مصغين، وفيه دلالةٌ على مانعٍ عظيمٍ ودهشةٍ تُذهلهم عن الإدراك. وكذا على القراءة الأخرى، وهي قراءةُ ابنِ عباسٍ بخلافٍ عنه، وابنِ وثَّاب، وعبدِ الله بن مسلم، وطلحة، والأعمش، وحمزة، والكِسائيّ، وحفص[2]، بناءً على ما هو الظاهرُ من أنَّ التفعُّل لا يخالف ثلاثيَّه في التعدية، واستعمالُ تسمَّع مع «إلى» لا يقتضي كونه غيرَ مضمَّن. وقيل: لا يحتاج إلى اعتبار التضمينِ عليها، والتفعُّل مؤذِنٌ بالطلب،

(١) التيسير ص ١٨٦، والنشر ٢/٣٥٦. وقرأ بالتشديد حمزة والكسائي وخلف وحفص.
(٢) انظر التعليق السابق.

فتسمَّع بمعنى: طلب السَّماع. قيل: ويُشعر ذلك بالإصغاء؛ لأنَّ طلب السماعِ يكون بالإصغاء، فتتوافق القراءتان وإنْ لم يقل بالتَّضمين في قراءة التَّشديد. ولعلَّ الأَوْلى القولُ بالتضمين.

ونفيُ طلبِهم السماعَ مع وقوعِه منهم حتى قيل: إنَّه يَركب بعضُهم بعضاً لذلك، إمَّا ادِّعائيٌّ للمبالغة في نفي سماعِهم، أو هو ـ على ما قيل ـ بعدَ وصولِهم إلى محلِّ الخطر؛ لخوفهم من الرَّجم، حتى يُدهشوا عن طلب السَّماع.

وقال أبو حيَّان[1]: إنَّ نفيَ التسمُّع لانتفاء ثمرتِه، وهو السَّمع.

وقال ابنُ كمال: عدِّي الفعلُ في القراءتين بـ «إلى» لتضمُّنه معنى الانتهاء، أي: لا ينتهون بالسَّمع أو التسمُّعِ إلى الملأ الأعلى. وليس بذاك كما لا يخفَى على المتأمِّل الصادق.

والجملةُ في المشهور مستأنفةٌ استئنافاً نحوياً، ولم يجوِّز كونَها صفةً لـ «شيطان»، قالوا: إذ لا معنى للحِفظ من شياطينَ لا تسمع أو لا تسَّمَّع، مع إيهامه لعدم الحفظِ عمَّن عداها. وكذا لم يجوِّز كونَها استئنافاً بيانيّاً واقعاً جوابَ سؤالٍ مقدَّر؛ إذ المتبادرُ أنْ يؤخذَ السؤالُ من فحوى ما قبلَه، فتقديرُه حينئذٍ: لم تحفظ، فيعود محذورُ الوصفية. وكذا كونُها حالاً مقدَّرة؛ لأنَّ الحالَ كذلك يقدِّرها صاحبُها، والشياطينُ لا يقدِّرون عدمَ السَّماع أو عدمَ التسمُّع، ولا يريدونه.

وجوَّز ابن المنيرِ[2] كونَها صفة، والمراد: حفظ السماواتِ ممَّن لا يسمع أو لا يسَّمَّع بسبب هذا الحِفظ، وهو نظيرُ: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ [المؤمنون: ٤٤]. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [النحل: ١٢]. ومن هنا لم يجعل بعضُ الأَجِلَّة قولَه عليه الصلاة والسلام: «مَن قتل قتيلاً فله سلَبُه»[3] من مجاز الأَوْل.

---

(١) في البحر ٧/ ٣٥٣.

(٢) في الانتصاف ٣/ ٣٣٥.

(٣) سلف ١/ ٣٤٢.

وتعقِّب بأنَّ ذلك خلافُ المتبادر، ولا يكاد يُفهم من: اِضرب الرجلَ المضروب، كونُه مضروباً بهذا الضربِ المأمورِ به لا بضربٍ آخَرَ قبله.

وكذا جوَّز صاحبُ «الكشف» كونَها صفة، وكونَها مستأنفةً استئنافاً بيانيّاً أيضاً، ودفع المحذورَ وأبعدَ في ذلك المغزى كعادته في سائر تحقيقاتِه، فقال: المعنى: لا يمكَّنون من السَّماع مع الإصغاء، أو: لا يمكَّنون من التسمُّع، مبالغةً في نفي السَّماع، كأنَّهم مع مبالغتهم في الطلب لا يُمكنهم ذلك، ولا بدَّ من ذلك، جُعِلت الجملةُ وصفاً أو لا؛ جمعاً بين القراءتين، وتوفيةً لحقِّ الإصغاء المدلولِ عليه بـ «إلى»، وحينئذٍ يكون الوصفُ شديدَ الطِّباق، وردُّ الاستئنافِ البيانيِّ واردٌ على تقدير السؤال: لِمَ تحفظ؟ وليس كذلك، بل السؤالُ عمَّا يكون عند الحفظِ وعن كيفيَّته؛ لأنَّ قولَه سبحانه: (وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ) مما يحرِّك الذِّهن له، فقيل: «لا يسمعون» جواباً عمَّا يكون عنده «ويقذفون» لكيفيَّة الحفظ. وهذا أَولى من جعلها مبدأ اقتصاصٍ مستطرَد، لئلَّا ينقطعَ ما ليس بمنقطعٍ معنًى. انتهى.

واستدقَّه الخفاجيُّ واستحسنه[1]، وذكر أنَّ حاصلَه أنَّه ليس المنفيَّ هنا السماعُ المطلقُ حتى يلزمَ ما ظنُّوه من فساد المعنى؛ لأنَّه لمَّا تعدَّى بـ «إلى» وتضمَّن معنى الإصغاء، صار المعنى: حفظناها من شياطينَ لا تُنصت لمَا فيها إنصاتاً تامّاً تضبط به ما تقوله الملائكةُ عليهم السلام، ومآلُه: حفظناها من شياطينَ مسترِقةٍ للسَّمع، وقولُه سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ﴾ إلخ [الآية: ١٠] ينادي على صحَّته، والمناقشةُ بحديث الأوصاف قبل العلمِ بها أخبارٌ إن جاءت لا تتمّ، فالحديثُ غير مطَّرد.

وقيل: إنَّ الأصل: لئلَّا يسمعوا، على أنَّ الجارَّ متعلِّق بـ «حفظاً»، فحُذفت اللامُ كما في: جئتُك أن تُكرمَني، ثم حُذفت «أنْ» ورُفع الفعل، كما في قوله:

أَلَا أيُّهذا الزاجريْ أَحضرُ الوغى     وأنْ أَشهدَ اللذَّاتِ هل أنت مُخْلِدي[2]

وفيه أنَّ حذفَ اللامِ وحذفَ «أنْ» ورفعَ الفعلِ وإنْ كان كلٌّ منهما واقعاً في الفصيح، إلَّا أنَّ اجتماعَ الحذفين منكرٌ يصان كلامُ اللهِ تعالى عنه.

---

(١) في حاشيته ٧/ ٢٦١.
(٢) سلف ٢/ ٢٧٧.

وأبو البقاءِ يجوِّز كونَ الجملةِ صفة، وكونَها استئنافاً، وكونَها حالاً[١]، فلا تغفُل.

﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ أي: يُرمَون ويُرجَمون ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨﴾ من جوانب السماءِ إذا قصدوا الصعودَ إليها. وليس المرادُ أنَّ كلَّ واحدٍ يُرمَى من كلِّ جانب، بل هو على التوزيع، أي: كلُّ مَن صعد من جانبٍ رُمي منه.

وقرأ محبوبٌ عن أبي عَمرو: «يَقذِفون» بالبناءِ للفاعل[٢]، ولعلَّ الفاعلَ الملائكةُ، وجوِّز أن يكونَ الكواكبَ، وأمرُ ضميرِ العقلاءِ سهل.

وقولُه تعالى: ﴿دُحُورًا﴾ مفعولٌ له وعلَّة للقذف، أي: للدُّحور، وهو الطردُ والإبعاد. أو مفعولٌ مطلقٌ لـ «يقذفون»، كـ: قعدت جلوساً؛ لتنزيل المتلازمَين منزلة المتَّحدَين، فيقام «دحوراً» مُقامَ قذفاً، أو «يقذفون» مُقامَ يدحَرون. وعلى التقديرين هو مصدرٌ مؤكِّد.

أو حالٌ من ضمير «يُقذفون» على أنَّه مصدرٌ [مؤوَّلٌ][٣] باسم المفعولِ على القراءة الشائعة، وهو في معنى الجمع؛ لشمولِه للكثير، أي: مدحورين. وجوِّز كونُه جمعَ: داحرٍ، بمعنى مدحور، كـ: قاعدٍ وقُعود، وكونُه جمعَ داحرٍ من غير تأويلٍ بناءً على القراءة الأخرى.

وجوِّز أن يكونَ منصوباً بنزع الخافض، وهو الباء، على أنَّه جمعُ: دَحْر، كدَهْر ودُهور، وهو ما يُدحَر به، أي: يُقذفون بدُحور.

وقرأ السُّلَميّ، وابنُ أبي عبلة، والطبرانيُّ عن أبي جعفر: «دَحوراً» بفتح الدَّال[٤]، فاحتمل كونه نصباً بنزع الخافضِ أيضاً، وهو على هذه القراءةِ أظهر؛ لأنَّ فَعولاً بالفتح بمعنى ما يُفعل به كثير، كطَهور وغَسول، لمَا يُتطهَّر ويُغسل به.

---

(١) الإملاء ٤/ ٢٣٤.
(٢) البحر ٧/ ٣٥٣.
(٣) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٧/ ٢٦٢.
(٤) البحر ٧/ ٣٥٣، وزاد نسبتها إلى علي ﷺ، ونسبها ابن خالويه ص ١٢٧ للسلمي وعلي ﷺ، وابن جني ٢/ ٢١٩ للسلمي.

واحتمل أن يكونَ صفةً كصبورٍ لموصوفٍ مقدَّر، أي: قذفاً دَحوراً طارداً لهم. وأن يكونَ مصدراً كالقَبول، وفَعول في المصادر نادر، ولم يأتِ في كتب التصريفِ منه إلّا خمسةُ أحرف: الوَضوء، والطَّهور، والوَلوع، والوَقود، والقَبول، كما حُكي عن سيبويه[1]، وزِيدَ عليه: الوَزوعُ بالزاي المعجَمة، والهَوِيُّ بفتح الهاء، بمعنى السُّقوط، والرَّسول بمعنى الرِّسالة.

﴿وَلَهُمْ﴾ أي: في الآخرة ﴿عَذَابٌ﴾ آخَرُ غيرُ ما في الدنيا من عذاب الرَّجم بالشُّهب ﴿وَاصِبٌ ۝٩﴾ أي: دائم، كما قال قتادةُ وعكرمةُ وابنُ عباس، وأنشدوا لأبي الأسود:

لا أشتري الحمدَ القليلَ بقاؤه    يوماً بذمِّ الدهرِ أجمعَ واصبا[2]

وفسَّره بعضُهم بالشَّديد. قيل: والأوَّل حقيقةُ معناه، وهذا تفسيرٌ له بلازمه.

والآيةُ ـ على ما سمعتَ ـ كقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾ [الملك: ٥]. وجوَّز أبو حيانَ[3] أن يكونَ هذا العذابُ في الدنيا، وهو رجمُهم دائماً وعدمُ بلوغِهم ما يقصدون من استراق السَّمع.

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ استثناءٌ متصلٌ من واو «يسمعون» و«من» بدلٌ منه، على ما ذكره الزمخشريُّ[4] ومتابعوه.

وقال ابنُ مالك: إذا فُصل بين المستثنَى والمستثنَى منه، فالمختارُ النصب؛ لأنَّ الإبدالَ للتشاكل، وقد فات بالتراخي[5]. وذكره في «البحر»[6] هنا وجهاً ثانياً.

وقيل: هو منقطع، على أنَّ «من» شرطيةٌ جوابُها الجملةُ المقرونةُ بالفاء بعد. وليس بذاك.

---

(١) انظر الكتاب ٤/ ٤٢.
(٢) البيت في ديوانه ص ٥٧، وسلف ١٤/ ١٥٧.
(٣) في البحر ٧/ ٣٥٣.
(٤) في الكشاف ٣/ ٣٣٦.
(٥) انظر التسهيل ص ١٠١-١٠٢.
(٦) ٧/ ٣٥٣.

والخطف: الاختلاسُ والأخذُ بخفَّة وسرعةٍ على غفلة المأخوذِ منه. والمرادُ اختلاسُ كلامِ الملائكةِ مسارقةً، كما يُعرب عنه تعريفُ الخطفةِ بلام العهد؛ لأنَّ المرادَ بها أمرٌ معيَّن معهود، فهي نصبٌ على المصدرية. وجوَّز أن تكونَ مفعولاً به على إرادة الكلمة.

وقرأ الحسنُ وقتادة: «خِطِّفَ» بكسر الخاءِ والطاءِ مشدَّدةً[1]. قال أبو حاتم: ويقال: هي لغةُ بكرِ بن وائلٍ وتميمِ بن مُرّ، والأصل: اختطف، فسكِّنت التاءُ للإدغام وقبلها خاءٌ ساكنة، فالتقى ساكنان، فحرِّكت الخاءُ بالكسر على الأصل، وكُسرت الطاءُ للإتباع، وحُذفت ألفُ الوصلِ للاستغناءِ عنها.

وقُرئ: «خَطِّف» بفتح الخاءِ وكسرِ الطاءِ مشدَّدةً، ونسبها ابنُ خالويه إلى الحسن وقتادةَ وعيسى[2]. واستُشكلت بأنَّ فتحَ الخاءِ سديدٌ؛ لإلقاء حركةِ التاءِ عليها، وأمَّا كسرُ الطاء، فلا وجهَ له. وقيل في توجيهها: إنَّهم نقلوا حركةَ الطاءِ إلى الخاءِ وحُذفت ألفُ الوصل، ثم قلبوا التاءَ وأدغموا، وحرَّكوا الطاءَ بالكسر على أصل التقاءِ الساكنين. وهو كما ترى.

وعن ابن عباس: «خِطِف» بكسر الخاءِ والطاءِ مخفَّفةً، أَتبع ـ على ما في «البحر»[3] ـ حركةَ الخاءِ لحركة الطاءِ، كما قالوا: نِعِم.

﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾ أي: تَبِعه ولحقه، على أنَّ أتبعَ من الإفعال بمعنى تَبِعَ الثلاثي، فيتعدَّى لواحد ﴿شِهَابٌ﴾ هو في الأصل: الشعلةُ الساطعةُ من النار الموقَدة، والمرادُ به العارضُ المعروفُ في الجوّ، الذي يُرى كأنه كوكبٌ منقضٌّ من السماء ﴿ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ مضيءٌ، كما قال الحسنُ وقتادة، كأنَّه ثَقَبَ الجوَّ بضوئه.

وأخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن ابن زيدٍ: الثاقب: المتوقِّد. وهو قريبٌ ممَّا تقدَّم. وأخرج عن السُّدِّي: الثاقب: المحرِق.

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٥٣.
(٢) البحر ٧/ ٣٥٣، وانظر القراءات الشاذة ص ١٢٧.
(٣) ٧/ ٣٥٣.

وليست الشُّهبُ نفسَ الكواكبِ التي زيِّنت بها السماء، فإنَّها لا تنقضُّ، وإلَّا لانتقصت زينةُ السماء، بل لم تبقَ. على أنَّ المنقضَّ إن كان نفسَ الكوكبِ بمعنى أنَّه ينقلع عن مركزه ويُرمى به الخاطفُ فيُرى لسرعة الحركةِ كرمحٍ من نار، لَزِمَ أن يقعَ على الأرض، وهو إنْ لم يكن أعظمَ منها فلا أقلَّ من أنَّ ما انقضَّ من الكواكب من حين حدث الرَّمي إلى اليوم أعظمُ منها بكثير، فيلزم أن تكونَ الأرضُ اليومَ مغشيةً بأجرام الكواكب، والمشاهدةُ تكذِّب ذلك، بل لم نسمعْ بوقوع جِرم كوكبٍ أصلاً، وأصغرُ الكواكبِ عند الإسلاميِّين كالجبل العظيم، وعند الفلاسفةِ أعظمُ وأعظم، بل صغارُ الثوابتِ عندهم أَعظمُ من الأرض. وإن التزم أنَّه يُرمَى به حتى إذا تمَّ الغرضُ رجع إلى مكانه، قيل عليه: إنَّه حينئذٍ يلزم أن يسمعَ لهُويِّه صوتٌ هائل، فإنَّ الشهبَ تصل إلى محلٍّ قريبٍ من الأرض. وأيضاً عدمُ مشاهدةِ جرم كوكبٍ هابطاً أو صاعداً يأبى احتمالَ انقلاع الكوكبِ والرَّمي به نفسه. وإن كان المنقضُّ نورَه، فالنورُ لا أذى فيه، فالأرضُ مملوءةٌ من نور الشَّمس، وحشوُها الشياطين. على أنَّه إن كان المنقضُّ جميعَ نورِه، يلزم انتقاصُ الزِّينة، أو ذهابُها بالكلِّية، وإن كان بعضَ نورِه، يلزم أن تتغيَّرَ أضواءُ الكواكب، ولم يشاهد في شيءٍ منها ذلك.

وأمرُ انقضاضِه نفسِه أو انفصالِ ضوئه على تقدير كونِ الكواكبِ الثوابتِ في الفلك الثامنِ المسمَّى بالكرسيِّ عند بعضِ الإسلاميين وأنَّه لا شيءَ في السماءِ الدُّنيا سوى القمر، أبعدُ وأبعد. والفلاسفةُ يزعمون استحالةَ ذلك؛ لزعمهم عدمَ قبولِ الفلكِ الخرقَ والالتئام، إلى أمورٍ أُخَر. ويزعمون في الشُّهب أنَّها أجزاءٌ بخارية دخانيةٌ لطيفة، وصلت كرةَ النارِ فاشتعلت وانقلبت ناراً ملتهبة، فقد تُرى ممتدَّةً إلى طرف الدُّخان، ثم تُرى كأنَّها طفئت، وقد تمكث زماناً كذوات الأذناب، وربما تتعلَّق بها نفسٌ على ما فصَّلوه، وهم مع هذا لا يقولون بكونها تُرمَى بها الشياطين، بل هم يُنكرون حديثَ الرمي مطلقاً، وفي النُّصوص الإلهيةِ رجومٌ لهم.

ولعلَّ أقربَ الاحتمالاتِ في أمر الشُّهبِ أنَّ الكوكبَ يقذف بشعاعٍ من نوره، فيصل أثرُه إلى هواءٍ متكيِّف بكيفيةٍ مخصوصةٍ يقبل بها الاشتعالَ بما يقع عليه من شُعاع الكوكبِ بالخاصية، فيشتعلُ فيحصل ما يشاهَد من الشُّهب.

وإنْ شئتَ قلت: إنَّ ذلك الهواءَ المتكيِّف بالكيفية المخصوصةِ إذا وصل إلى محلٍّ مخصوصٍ من الجوّ، أثَّرت فيه أشعةُ الكواكبِ بما أَودعه اللهُ تعالى فيها من الخاصِّيَّة، فيشتعل فيحصل ما يحصل. وتأثيرُ الأشعةِ الحرقَ في القابل له ممَّا لا يُنكَر، فإنَّا نرى شعاعَ الشمسِ إذا قوبل ببعض المناظرِ على كيفيةٍ مخصوصة، أَحرقَ قابلَ الإحراقِ ولو توسَّط بين المنظرةِ وبين القابلِ إناءُ بِلَّورٍ مملوءٌ ماءً. ويقال: إنَّ اللهَ تعالى يصرف ذلك الحاصلَ إلى الشيطان المسترِقِ للسَّمع، وقد يحدث ذلك وليس هناك مسترِق.

ويمكن أن يقال: إنَّه سبحانه يخلق الكيفيةَ التي بها يقبل الهواءُ الإحراقَ في الهواء الذي في جهة الشَّيطان، ولعلَّ قُربَ الشيطانِ من بعض أجزاءٍ مخصوصةٍ من الهواء معدٌّ بخاصِّيَّةٍ أحدثها اللهُ تعالى فيه؛ لِخلقه عزَّ وجلَّ تلك الكيفيةَ في ذلك الهواءِ القريبِ منه، مع أنَّه عزَّ وجلَّ يخلق تلك الكيفيةَ في بعض أجزاءِ الهواءِ الجويَّة، حيث لا شيطانَ هناك أيضاً.

وإنْ شئتَ قلت: إنَّه يخرج شُؤبوبٌ من شعاع الكوكب، فيتأذَّى به الماردُ أو يحترق، والله عزَّ وجلَّ قادرٌ على أن يحرقَ بالماء ويرويَ بالنار، والمسبَّبات عند الأَسبابِ لا بها، وكلُّ الأشياءِ مسندةٌ إليه تعالى ابتداءً عند الأشاعرة. ولا يلزم على شيءٍ ممَّا ذُكر انتقاصُ ضوءِ الكوكب، ولو سلم أنَّه يلزم انتقاصٌ على بعض الاحتمالاتِ قلنا: إنَّه عزَّ وجلَّ يخلق بلا فصلٍ في الكوكب بدلَ ما نقص منه، وأمرُه سبحانه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

ولا ينافي ما ذكرنا قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥] لأنَّ جعلَها رجوماً يجوز أن يكونَ لأنَّه بواسطة وقوعِ أشعَّتِها على ما ذكرنا من الهواءِ تحدث الشُّهب، فهي رجومٌ بذلك الاعتبار، ولا يتوقَّف جعلُها رجوماً على أن تكونَ نفسها كذلك بأن تنقلعَ عن مراكزها ويرجمَ بها، وهذا كما تقول: جعل اللهُ تعالى الشمسَ يُحرق بها بعض الأجسام، فإنَّه صادقٌ فيما إذا أُحرق بها بتوسيط بعضِ المناظرِ وانعكاسِ شعاعِها على قابلِ الإحراق.

وزعم بعضُ الناسِ أنَّ الشهبَ شعلٌ ناريةٌ تحدث من أجزاءٍ متصاعدةٍ إلى كرة النَّار، وهي الرُّجوم؛ ولكونها بواسطة تسخينِ الكواكبِ للأرض قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا﴾ على التجوُّز في إسناد الجعلِ إليها، أو في لفظها. ولا يخفى أنَّ كرةَ النارِ ممَّا لم تثبت في كلام السَّلف، ولا ورد فيها عن الصادقِ عليه الصلاة والسلام خبر.

وقيل: يجوز أن تكونَ المصابيحُ هي الشُّهب، وهي غيرُ الكواكب، وزينةُ السماءِ بالمصابيح لا يقتضي كونَها فيها حقيقة؛ إذ يكفي كونُها في رأي العينِ كذلك.

وقيل: يجوز أن يرادَ بالسماء جهةُ العُلو، وهي مزيَّنة بالمصابيح والشُّهب، كما هي مزينةٌ بالكواكب.

وتعقِّب هذا بأنَّ وصفَ السماءِ بالدنيا يُبعد إرادةَ الجهةِ منها.

وتعقِّب ما قبله بأنَّ المتبادرَ أنَّ المصابيحَ هي الكواكب، ولا يكاد يُفهم من قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ إلَّا شيءٌ واحد، وأنَّ كونَ الشهبِ المعروفةِ زينةَ السماءِ مع سرعة تقضِّيها وزوالِها وربما دُهش من بعضها، ممَّا لا يسلَّم.

والقولُ بأنَّه يجوز إطلاقُ الكوكبِ على الشِّهاب للمشابهة، فيجوز أن يرادَ بالكواكب ما يشمل الشُّهبَ وزينةَ السماءِ على ما مرَّ آنفاً، زيد فيه على ما تقدَّم ما لا يخفَى ما فيه. نعم يجوز أن يقالَ: إنَّ الكوكبَ ينفصل منه نور إذا وصل إلى محلٍّ مخصوصٍ من الجوِّ انقلب ناراً ورُئي منقضّاً، ولا يُعجز اللهَ عزَّ وجلَّ شيء.

وقد يقال: إنَّ في السماءِ كواكبَ صغاراً جداً غيرَ مرئيةٍ ولو بالأرصاد؛ لغاية الصِّغر، وهي التي يُرمَى بها أنفسِها، وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ من باب: عندي درهمٌ ونصفُه، و﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا﴾ الآيةَ إن كان على معنى: وحفظاً بها، فهو من ذلك البابِ أيضاً، وإلَّا فالأمرُ أهون، فتدبَّر.

واختُلف في أنَّ المرجومَ هل يُهلَك بالشِّهاب إذا أصابه أو يتأذَّى به من غيرِ هلاكٍ؟ فعن ابن عباسٍ أنَّ الشياطينَ لا تُقتَل بالشِّهاب ولا تموت، ولكنها تُحرَق وتَخبُل، أي: يَفسد منها بعضُ أعضائها. وقيل: تَهلِك وتموت، ومتى أصاب الشهابُ مَن اختطف منهم كلمةً، قال للذي يليه: كان كذا وكذا، قبل أن يَهلِك. ولا يأبى تأثيرَ الشهابِ فيهم كونُهم مخلوقين من النَّار؛ لأنَّهم ليسوا من النار الصِّرفة، كما أنَّ الإنسان ليس من التُّراب الخالص، مع أنَّ النارَ القويةَ إذا استولت على الضعيفةِ استهلكتها.

وأيًّاما كان، لا يقال: إنَّ الشياطينَ ذوو فِطنة، فكيف يُعقَل منهم العودُ إلى استراق السمعِ مرةً بعد مرَّة، مع أنَّ المسترِقَ يَهلِك أو يتأذَّى الأذى الشديد، واستمرارُ انقضاضِ الشهبِ دليلُ استمرارِ هذا الفعلِ منهم؟ لأنَّا نقول: لا نسلِّم استمرارَ هذا الفعلِ منهم، واستمرارُ الانقضاضِ ليس دليلاً عليه؛ لأنَّ الانقضاضَ يكون للاستراق ويكون لغيره، فقد أشرنا فيما سبق أنَّ الهواءَ قد يتكيَّف بكيفيةٍ مخصوصة، فيحترق بسبب أشعَّةِ الكواكبِ وإن لم يكن هناك مسترِق.

وقيل: يجوز أن تُرى الشُّهب؛ لتعارضٍ في الأهوية واصطكاكٍ يحصل منه ما ترى، كما يحصل البرقُ باصطكاك السحابِ على ما رُوي عن بعض السَّلف، وحوادثُ الجوِّ لا يعلمها إلَّا اللهُ تعالى، فيجوز أن يكونوا قد استَرَقوا أوَّلاً، فشاهدوا ما شاهدوا فتُركوا، واستمرَّت الشهبُ تحدث لمَا ذُكر لا لاستراق الشَّياطين. ويجوز أن يقعَ أحياناً ممَّن حدث منهم ولم يعلم بما جرى على رؤوس المستَرِقين قبلَه، أو ممَّن لا يبالي بالأذى ولا بالموت، حبّاً لأن يقال: ما أجسرَه، أو: ما أشجعَه، مثلاً، كما يشاهَد في كثيرٍ من الناس يُقدِمون في المعارك على ما يتيقَّنون هلاكَهم به حبّاً لمثل ذلك، ولعلَّ في وصف الشيطانِ بالمارد ما يُستأنس به لهذا الاحتمال.

وأمَّا ما قيل: إنَّ الشهابَ قد يصيب الصاعدَ مرةً وقد لا يُصيب، كالموج لراكب السَّفينة؛ ولذلك لا يرتدعون عنه رأساً: فخلافُ المأثور؛ فقد أخرج ابنُ

أبي حاتم، وأبو الشَّيخ في «العَظَمة»(١) عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: إذا رُمي بالشِّهاب لم يُخطئ مَن رُمي به.

ثم إنَّ ما ذُكر من احتمال أنَّهم قد تُركوا بعد أن صحَّت عندهم التجربةُ لا يتمُّ إلَّا على ما رُوي عن الشعبيِّ من أنَّه لم يُقذَف بالنُّجوم حتى وُلد النبيُّ ﷺ، فلمَّا قُذف بها، جعل الناسُ يسيِّبون أنعامَهم ويُعتقون رقيقَهم، يظنُّون أنه القيامة، فأَتَوا عبدَياليل الكاهنَ وقد عمي، وأخبروه بذلك، فقال: انظروا إنْ كانت النجومُ المعروفةُ من السيَّارة والثوابت، فهو قيامُ الساعة، وإلَّا فهو أمرٌ حادث، فنظروا، فإذا هي غيرُ معروفة، فلم يمضِ زمنٌ حتى أتى خبرُ النبيِّ ﷺ.

ووافق على عدم حدوثِه قبلُ ابنُ الجوزيِّ في «المنتظم»(٢) لكنَّه قال: إنَّه حدث بعد عشرين يوماً من مبعثه.

والصحيحُ أنَّ القذفَ كان قبل ميلادِه عليه الصلاة والسلام، وهو كثيرٌ في أشعار الجاهلية، إلَّا أنَّه يحتمل أنَّه لم يكن طارداً للشياطين، وأن يكونَ طارداً لهم لكن لا بالكلِّية، وأن يكونَ طارداً لهم بالكلِّية. وعلى هذا لا يتأتَّى الاحتمالُ السابق، وعلى الاحتمال الأوَّلِ من هذه الاحتمالاتِ يكون الحادثُ يوم الميلادِ طردَهم بذلك، وعلى الثاني طردَهم بالكلِّية وتشديدَ الأمرِ عليهم؛ لينحسمَ أمرُهم وتخليطُهم ويصحَّ الوحي، فتكونُ الحجَّةُ أَقطع.

والذي يترجَّح أنَّه كان قبل الميلادِ طارداً، لكن لا بالكلِّية، فكان يوجد استراقٌ على النُّدرة، وشدِّد في بدءِ البعثة. وعليه يُراد بخبر: لم يُقذف بالنُّجوم حتى ولد النبيُّ ﷺ، أنَّه لم يَكثر القذفُ بها، وعلى هذا يخرَّج غيرُه إذا صحَّ، كالخبر المنقولِ في السِّيَر أنَّ إبليسَ كان يخترق السماواتِ قبل عيسى عليه السلام، فلَّما بُعث أو وُلد، حُجب عن ثلاثِ سماوات، ولمَّا وُلد النبيُّ ﷺ حُجب عنها كلِّها وقُذفت الشياطينُ بالنجوم، فقالت قريش: قامت السَّاعة، فقال عتبةُ بن ربيعة: انظروا إلى العَيُّوق، فإنْ كان رُمي به، فقد آن قيامُ الساعة، وإلَّا فلا.

---

(١) برقم (٦٨٩).
(٢) ٢/٣٥٦.

وقال بعضُهم: اتفق المحدِّثون على أنَّه كان قَبلُ، لكن كَثُرَ وشدِّد لمَّا جاء الإسلام؛ ولذا قال تعالى: ﴿مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن:٨] ولم يقل: حُرست.

وبالجملة لا جزمَ عندنا بأنَّ ما يقع من الشُّهب في هذه الأعصارِ ونحوِها رجومٌ للشياطين، والجزمُ بذلك رجمٌ بالغيب.

هذا وقد استُشكل أمرُ الاستراقِ بأمور، منها: أنَّ الملائكةَ في السماءِ مشغولون بأنواع العبادة: «أَطَّت السماءُ وحقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضعُ قدمٍ إلَّا وفيه مَلَكٌ قائمٌ أو راكعٌ أو ساجد»(١) فماذا تسترِق الشياطينُ منهم؟

وإذا قيل: إنَّ منهم مَن يتكلَّم بالحوادث الكونية، فهم على محدَّبها والشياطينُ تسترِق تحت مقعَّرها، وبينهما ـ كما صحَّ في الأخبار(٢) ـ خَمسُ مئةِ عام، فكيف يتأتَّى السَّماع، لاسيَّما والظاهرُ أنَّهم لا يرفعون أصواتَهم إذا تكلَّموا بالحوادث؛ إذ لا يظهر غرضٌ برفعها. وعلى تقدير أن يكونَ هناك رفعُ صوت، فالظاهرُ أنَّه ليس بحيث يُسمع من مسيرة خمسِ مئةِ عام. وعلى تقدير أن يكونَ بهذه الحيثية، فكُرةُ الهواءِ تنقطع عند كرةِ النار، ولا يُسمع صوتٌ بدون هواء.

وأُجيب بأنَّ الاستراقَ من ملائكة العَنان، وهم يتحدَّثون فيما بينهم بما أُمروا به من السماءِ من الحوادث الكونية، و«لمسنا السماء»: طلبنا خبرَها، أو من الملائكةِ النازلين من السماءِ بالأمر، فإنَّ ملائكةً على أبواب السماءِ ومن حيث ينزلون يسألونهم: بماذا تذهبون؟ فيُخبرونهم، وليس الاستراقُ من الملائكةِ الذين على محدَّب السماء، وأمرُ كرةِ النار لا يصحّ، والهواءُ غيرُ منقطع، وهو كلَّما رقَّ ولَطُفَ كان أعونَ على السَّماع، على أنَّ وجودَ الهواءِ مما لا يتوقَّف عليه السماعُ على أُصول الأَشاعرة، ومثلُه عدمُ البعدِ المفرِط.

وظاهرُ خبرٍ أَخرجه ابنُ أبي حاتم عن عكرمةَ أنَّ الاستراقَ من الملائكة في السَّماء، قال: إذا قضى اللهُ تعالى أمراً، تكلَّم تبارك وتعالى، فتخرُّ الملائكةُ كلُّهم

---

(١) سلف ١٤/ ٤١٧.

(٢) انظر ٣/ ٦٧ و١٣/ ٢٠-٢١.

سجَّداً، فتحسب الجِنُّ أنَّ أمراً يقضَى، فتسترِق، فإذا فُزِّع عن قلوب الملائكةِ عليهم السلام ورفعوا رؤوسَهم قالوا: ماذا قال ربُّكم؟ قالوا جميعاً: الحقَّ، وهو العليُّ الكبير.

وجاء في خبرٍ أخرجه ابنُ أبي شيبةَ وعبد بن حُميد وابنُ المنذر عن إبراهيمَ التيميِّ: إذا أراد ذو العرشِ أمراً، سمعت الملائكةُ كجرِّ السِّلسلة على الصَّفا، فيغشَى عليهم، فإذا قاموا قالوا: ماذا قال ربُّكم؟ قال مَن شاءَ الله: الحقَّ، وهو العليُّ الكبير(١).

ولعلَّه بعد هذا الجوابِ يُذكر الأمرُ بخصوصه فيما بين الملائكةِ عليهم السلام، وظاهرُ ما جاء في بعضِ الرِّوايات عن ابن عباسٍ من تفسير الملأِ الأعلى بكَتَبة الملائكةِ عليهم السلام أيضاً أنَّ الاستراقَ من ملائكةٍ في السماء؛ إذ الظاهرُ أنَّ الكتبةَ في السماء، ولعله يُتلى عليهم من اللوح ما يُتلى، فيكتبونه لأمرٍ ما، فتطمع الشياطينُ باستراق شيءٍ منه، وأمرُ البُعدِ كأمر الهواء، لا يضرُّ في ذلك على الأصول الأشعرية. ويمكن أن يدَّعَى أنَّ جِرم السماءِ لا يحجب الصوتَ وإن كَثُف، وكم خاصيةٍ أثبتها الفلاسفةُ للأفلاك ليس عدمُ الحجبِ أغربَ منها.

ومنها أنَّه يُغني عن الحفظ من استراق الشياطينِ عدمُ تمكينِهم من الصُّعود إلى حيث يُستَرق السَّمع، أو أمرُ الملائكةِ عليهم السلام بإخفاء كلامِهم بحيث لا يسمعونه، أو جَعلُ لغتِهم مخالفةً للغتهم بحيث لا يفهمون كلامَهم.

وأُجيب بأنَّ وقوعَ الأمرِ على ما وقع من باب الابتلاءِ، وفيه أيضاً من الحِكَم ما فيه. ولا يخفَى أنَّ مثل هذا الإشكال يجري في أشياءَ كثيرة، إلَّا أنَّ كونَ الصانعِ حكيماً، وأنَّه جلَّ شأنُه قد راعى الحكمةَ فيما خلق وأمر على أتمِّ وجهٍ حتى قيل: ليس في الإمكان أبدعُ ممَّا كان، يحلُّ ذلك ولا يبقَى معه سوى تطلُّبِ وجهِ الحكمة، وهو مما يتفضَّل اللهُ تعالى به على مَن يشاء من عباده.

---

(١) هو في مصنف ابن أبي شيبة ١٤/٢٨٨ مطولاً عن ابن فضيل عن عطاء عن سعيد عن ابن عباس.

والكلامُ في هذا المقامِ قد مرَّ شيءٌ منه فارجع إليه، وممَّا هنا وما هناك يحصل ما يَسرُّ الناظرين، ويُرضي العلماءَ المحقِّقين.

﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾ أي: فاستخبرهم. وأصلُ الاستفتاءِ: الاستخبارُ عن أمرٍ حدث، ومنه الفتى؛ لحداثة سِنِّه. والضميرُ لمشركي مكَّة، قيل: والآيةُ نزلت في أبي الأشدِّ بن كِلدةَ الجُمحي، وكُني بذلك لشدَّة بطشِه وقوَّته، واسمُه: أَسِيد. والفاءُ فصيحة، أي: إذا كان لنا من المخلوقاتِ ما سمعت، أو إذا عرفتَ ما مرَّ، فاستخبِر مشركي مكَة واسألهم على سبيل التبكيتِ ﴿أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا﴾ أي: أَقوى خِلقةً وأمتنُ بُنْيَة، أو أصعبُ خَلْقاً وأشقُّ إيجاداً ﴿أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآ﴾ من الملائكة والسماواتِ والأرضِ وما بينهما، والمشارقِ والكواكبِ والشياطينِ والشُّهبِ الثواقب. وتعريفُ الموصولِ عهديّ، أُشير به إلى ما تقدَّم صراحةً ودلالة، وغُلِّب العقلاءُ على غيرهم، والاستفهامُ تقريريّ، وجُوِّز أن يكونَ إنكارياً.

وفي مصحف عبدِ الله: «أم مَن عَددنا»[1] وهو مؤيِّد لدعوى العهد، بل قاطعٌ بها. وقرأ الأعمش: «أَمَن» بتخفيف الميمِ دون «أم»، جعله استفهاماً ثانياً تقريرياً، فـ «مَن» مبتدأٌ خبرُه محذوف، أي: أَمن خلقنا أشدّ؟

﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ﴿١١﴾﴾ أي: ملتصق، كما أَخرج ذلك ابنُ جَريرٍ[2] وجماعةٌ عن ابن عباس. وفي روايةٍ أخرى بلفظ: ملتزق، وبه أَجاب ابنَ الأزرقِ وأَنشد له قولَ النابغة:

فلا تحسبون الخيرَ لا شرَّ بعدَه ... ولا تحسبون الشرَّ ضربةَ لازبِ[3]

قيل: والمراد: ملتزقٌ بعضُه ببعض، وبذلك فسَّره ابنُ مسعود، كما أَخرجه ابنُ أبي حاتم، ويرجع إلى: حَسَن العجنِ جيِّد التخمير. وأَخرج ابنُ المنذرِ وغيرُه عن قتادةَ أنَّه يلزقُ باليد إذا مسَّ بها. وقال الطبريّ: خُلق آدمُ من ترابٍ وماءٍ وهواءٍ

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٥٤.
(٢) في تفسيره ١٩/ ٥١٢.
(٣) الديوان ص ١٣.

ونار، وهذا كلُّه إذا خُلط[1] صار طيناً لازباً يلزم ما جاوره، واللازبُ ـ عليه ـ بمعنى اللازم، وهو قريبٌ مما تقدَّم.

وقد قُرئ: «لازم» بالميم بدلَ الباء، و«لاتب» بالتاءِ بدلَ الزاي[2]، والمعنى واحد. وحَكَى في «البحر»[3] عن ابن عباسٍ أنَّه عبَّر عن اللازب بالحُرّ، أي: الكريمِ الجيِّد، وفي روايةٍ أنَّه قال: اللازب: الجيِّد.

وأَخرج عبدُ بن حُميد وابنُ المنذر عن مجاهدٍ أنَّه قال: «لازب» أي: لازم منتن. ولعلَّ وصفَه بمنتن مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] لكنْ أَخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن ابن عباسٍ أنَّه قال: اللازبُ والحمأُ والطينُ واحد، كان أولُه تراباً، ثم صار حمأً منتناً، ثم صار طيناً لازباً، فخلق اللهُ تعالى منه آدمَ عليه السلام.

وأيًّاما كان، فخلقُهم من طينٍ لازبٍ إما شهادةٌ عليهم بالضَّعف والرَّخاوة؛ لأنَّ ما يصنع من الطين غيرُ موصوفٍ بالصَّلابة والقوَّة، أو احتجاجٌ عليهم في أمر البعث، بأنَّ الطينَ اللازبَ الذي خُلقوا منه في ضمن خلقِ أبيهم آدمَ عليه السلام ترابٌ، فمن أين استنكروا أنْ يُخلقوا منه مرةً ثانيةً حيث قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧] ويَعضد هذا ـ على ما في «الكشَّاف»[4] ـ ما يتلوه من ذِكر إنكارهم البعثَ.

وقولُه تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ خطابٌ للرَّسول ﷺ، وجوِّز أن يكونَ لكلِّ مَن يقبله. و«بل» للإضراب، إمَّا عن مقدَّر يُشعر به «فاستفتهم..» إلخ، أي: هم لا يقرُّون ولا يُجيبون بما هو الحقّ، بل مثلُك ممَّن يُذعن ويتعجَّب من تلك الدَّلائل، أو عن الأمر بالاستفتاء، أي: لا تستفتهم؛ فإنَّهم معاندون لا ينفع فيهم الاستفتاءُ ولا يتعجَّبون من تلك الدَّلائل، بل مثلُك ممن يتعجَّب منها.

---

(١) عبارته في تفسيره ١٩/ ٥١١: والتراب إذا خلط بماء..
(٢) الكشاف ٣/ ٣٣٧.
(٣) ٧/ ٣٥٤.
(٤) ٣/ ٣٣٧.

﴿وَيَسۡخَرُونَ ١٢﴾ أي: وهم يسخرون منك ومن تعجُّبك وممَّا تريهم من الآيات. وجوِّز أن يكونَ المعنى: بل عجبتَ من إنكارهم البعثَ مع هذه الآياتِ وهم يسخرون من أمرِ البعث. واختير أن يكونَ المعنى: بل عجبتَ من قدرة اللهِ تعالى على هذه الخلائقِ العظيمةِ وإنكارِهم البعثَ وهم يسخرون من تعجُّبك وتقريرِك للبعث.

وزعم بعضُهم أنَّ المرادَ بـ «من خلقنا» الأُممُ الماضية. وليس بشيءٍ؛ إذ لم يسبق لهذه الأُمم ذِكر، وإنَّما سبق الذِّكرُ للملائكة عليهم السلام وللسماوات والأرضِ وما سمعتَ، مع أنَّ حرفَ التعقيبِ مما يدلُّ على خلافه.

ومَن قال ـ كصاحب «الفرائد» ـ: عليه جمهورُ المفسِّرين سوى الإمام(١)، ووجَّهه بأنَّه لما احتجَّ عليهم بما هم مقرُّون به من كونه ربَّ السماواتِ والأرضِ وربَّ المشارق، وألزمهم بذلك وقابلوه بالعناد، قيل لهم: فانتظروا الإهلاكَ كمن قبلكم؛ لأنَّكم لستم أشدَّ خلقاً منهم، فوُضع موضعَه «فاستفتهم أهم أشد خلقاً» وقولُه تعالى: «إنا خلقناهم» تعليل لأنَّهم ليسوا أشدَّ خلقاً، أو دليلٌ لاستكبارهم المنتجِ للعناد، وأيَّده بدلالة الإضراب، واستبعاد البعثِ بعده لدَلالته على أنَّه غيرُ متعلِّقٍ بما قبل الإضراب = فقد(٢) ذهب عليه أنَّ اللفظَ خفيُّ الدَّلالةِ على ما ذُكر من العناد واستحقاقِ الإهلاك كسالف الأُمم، وتعليلُ نفي الأشدِّية بما علَّل، ليس بشيء؛ لوضوح أنَّ السابقين أشدُّ في ذلك، وكم من ذلك في الكتابِ العزيز، وأما الإضراب، فعن الاستفتاءِ إلى أنَّ مثلَك ممَّن يُذعن ويتعجَّب من تلك الدَّلائل؛ ولذا عُطف عليه «ويسخرون» وجعل ما أنكروه من البعثِ من بعض مساخِرهم. قاله صاحبُ «الكشف» فلا تغفُل.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وابنُ سعدان وابن مِقسَم: «عجبتُ» بتاء المتكلِّم، ورُويت عن عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه، وابنِ عباس، وابنِ مسعود، والنَّخَعي، وابنِ وثَّاب، وطلحة، وشَقيق، والأعمش(٣).

---

(١) انظر التفسير الكبير ٢٦/ ١٢٤.

(٢) جواب لقوله: ومن قال كصاحب الفرائد. . .

(٣) البحر ٧/ ٣٥٤، وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص ١٨٦، والنشر ٢/ ٣٥٦.

وأنكر شُريحٌ القاضي هذه القراءةَ، وقال: إنَّ اللهَ تعالى لا يعجب من شيء، وإنَّما يعجب مَن لا يعلم. وإنكارُ هذا القاضي مما أُفتي بعدم قَبوله؛ لأنَّه في مقابل بيِّنةٍ متواترة، وقد جاء أيضاً في الخبر: «عجب ربُّكم من أَلِّكم وقنوطِكم»[١].

وأُوِّلت القراءةُ بأنَّ ذلك من باب الفرْض، أي: لو كان العجبُ ممَّا يجوز عليَّ لَعجبت من هذه الحال، أو التخييلِ، فيُجعل تعالى كأنَّه لإنكاره لحالهم يعدُّها أمراً غريباً ثم يُثبت له سبحانه العجب منها. فعلى الأول تكون الاستعارةُ تخييليةً تمثيلية، كما في قولهم: قال الحائط للوتد: لمَ تشقُّني؟ فقال: سَلْ مَن يدقُّني. وعلى الثاني تكون مَكنيةً وتخييلية، كما في نحو: لسانُ الحالِ ناطقٌ بكذا، والمشهورُ في أمثاله الحملُ على اللازم، فيكون مجازاً مرسلاً، فيحمل العجبُ على الاستعظام، وهو رؤيةُ الشيءِ عظيماً، أي: بالغاً الغايةَ في الحُسن أو القبح، والمرادُ هنا رؤيةُ ما هم عليه بالغاً الغايةَ في القُبح، وليس استعظامَ الشيءِ مسبوقاً بانفعالٍ يحصل في الرَّوع عن مشاهدة أمرٍ غريبٍ كما توهِّم ليقال: إنَّ التأويلَ المذكورَ لا يحسم مادَّةَ الإشكال.

وقال أبو حيان[٢]: يؤوَّل على أنَّه صفةُ فعلٍ يُظهرها اللهُ تعالى في صفة المتعجَّب منه، من تعظيمٍ أو تحقير، حتى يصيرَ الناسُ متعجِّبين منه، فالمعنى: بل عجبتُ من ضلالتهم وسوءِ نِحلتهم، وجعلتُها للناظرين فيها وفيما اقترن بها من شرعي وهُداي متعجَّباً.

وقال مكِّي[٣] وعليُّ بن سليمان: ضميرُ «عجبتُ» للنبيِّ عليه الصلاة والسلام، والكلامُ بتقدير القول، أي: قل: بل عجبتُ.

وعندي لو قدِّر القولُ بعدَ «بل» كان أَحسن، أي: بل قل: عجبتُ.

والذي يقتضيه كلامُ السلفِ أنَّ العجبَ فينا انفعالٌ يحصل للنَّفس عند الجهلِ

(١) ذكره أبو عبيد في غريب الحديث ٢/ ٢٦٩، وفي بعض نسخه كما في حاشيته: يروى هذا عن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون عن محمد بن عمرو يرفعه. والألّ: رفع الصوت بالدعاء.

(٢) في البحر ٧/ ٣٥٤.

(٣) في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦١١.

بالسَّبب؛ ولذا قيل: إذا ظهر السببُ بطل العجب، وهو في اللهِ تعالى بمعنًى يليق لذاته عزَّ وجلَّ هو سبحانه أعلمُ به، فلا يعيِّنون المراد، والخَلَفُ يعيِّنون.

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي: ودأبُهم أنَّهم إذا وُعظوا بشيءٍ لا يتَّعظون به. أو أنَّهم إذا ذُكر لهم ما يدلُّ على صحَّة الحشرِ لا ينتفعون به؛ لبَلادتهم وقلَّةِ فكرِهم. واستفادةُ الاستمرار من مقام الذَّمّ، ولعل في «إذا» والعطفِ على الماضي ما يؤيِّده.

وقرأ ابنُ حبيش: «ذُكِرُوا» بتخفيف الكاف[1].

﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً﴾ أي: معجزةً تدلُّ على صدق مَن يعظهم ويدعوهم إلى تركِ ما هم فيه إلى ما هو خير. أو معجزةً تدلُّ على صدق القائلِ بالحشر ﴿يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: يبالغون في السُّخرية، ويقولون: إنَّه سِحر. أو يطلب بعضُهم من بعضٍ أن يسخرَ منها. رُوي أنَّ رُكانةَ ـ رجلاً من المشركين من أهل مكَّة ـ لقيه الرسولُ ﷺ في جبلٍ خالٍ يرعى غنماً له، وكان من أقوى الناس، فقال له: يا رُكانة، أرأيتَ إنْ صرعتُك أتؤمن بي؟ فقال: نعم، فصرعه ثلاثاً، ثم عرض له بعضَ الآيات، دعا عليه الصلاة والسلام شجرةً فأقبلت، فلم يؤمنْ، وجاء إلى مكَّةَ فقال: يا بني هاشم، ساحِروا بصاحبكم أهلَ الأرض، فنزلت فيه وفي أضرابه[2].

وقُرِىء: «يستسحرون» بالحاء المهملة[3]، أي: يَعدُّونها سحراً.

﴿وَقَالُوا إِنْ هَٰذَآ﴾ ما يرونه من الآيات الباهرةِ ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ ظاهرٌ سحريَّته في نفسه. ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ أي: كان بعضُ أجزائنا تراباً وبعضُها عظاماً؛ وتقديمُ الترابِ لأنَّه منقلبٌ عن الأجزاء البادية.

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٢٧، والبحر ٧/ ٣٥٥.

(٢) القصة في سيرة ابن هشام ١/ ٣٩٠-٣٩١، وأسد الغابة ٢/ ٢٣٦، دون ذكر سبب النزول. وقال ابن الأثير: ثم أسلم بعدُ ونزل المدينة. اهـ. وذكره ابن حجر في الإصابة ٤/ ٢٨٦. وقد روى أمر المصارعة فقط أبو داود (٤٠٧٨)، والترمذي (١٧٨٤) وقال: هذا حديث حسن غريب، وإسناده ليس بالقائم.

(٣) البحر ٧/ ٣٥٥.

و«إذا» إمَّا شرطية، وجوابُها محذوفٌ دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي: نُبعَث، وفي عاملها الكلامُ المشهور.

وإما متمحّضة للظرفية، فلا جوابَ لها، ومتعلَّقها محذوفٌ يدلُّ عليه ذلك أيضاً، لا هو؛ لأنَّ ما بعدَ «إنَّ» واللامِ لا يعمل فيما قبلَه، أي: أَنُبعَث إذا متنا. وإنْ شئتَ فقدِّره مؤخَّراً، فتقديمُ الظرفِ لتقوية الإنكارِ للبعث، بتوجيهه إلى حالةٍ منافيةٍ له غايةَ المنافاة، وكذا تكريرُ الهمزةِ للمبالغة والتشديدِ في ذلك، وكذا تحليةُ الجملةِ بـ «إنَّ». واللامُ لتأكيد الإنكار، لا لإنكار التأكيدِ كما يوهمه ظاهرُ النظمِ الكريم، فإنَّ تقديمَ الهمزةِ لاقتضائها الصَّدارة.

وقرأ ابنُ عامرٍ بطرح الهمزةِ الأولى، وقرأ نافعٌ والكسائيُّ ويعقوبُ بطرح الثانية[١].

﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ مبتدأٌ حُذف خبرُه؛ لدلالة خبرِ «إنَّ» عليه، أي: أَوَ آباؤنا الأوَّلون مبعوثون أيضاً. والجملةُ معطوفةٌ على الجملة قبلها.

وهذا أحدُ مذاهبَ في نحو هذا التركيب، وظاهرُ كلامِ أبي حيَّانَ في «شرح التسهيل» أنَّ حذفَ الخبرِ واجب، فقد قال: قال مَن نحا إلى هذا المذهب: الأصلُ في هذه المسألةِ عطفُ الجمل، إلَّا أنهم لمَّا حذفوا الخبرَ لدلالة ما قبلُ عليه، أنابوا حرفَ العطفِ مكانَه، ولم يقدِّروا إذ ذاك الخبرَ المحذوفَ في اللفظ؛ لئلَّا يكونَ جمعاً بين العوضِ والمعوَّض عنه، فأشبه عطفَ المفرداتِ من جهةِ أنَّ حرفَ العطفِ ليس بعده في اللفظ إلَّا مفرد.

وثاني المذاهبِ: أن يكونَ معطوفاً على الضمير المستترِ في خبر «إنَّ» إنْ كان مما يتحمَّل الضمير وكان الضميرُ مؤكَّداً، أو كان بينه وبين المعطوفِ فاصلٌ ما، وإلَّا ضَعُفَ العطف.

ونسب ابنُ هشامٍ هذا المذهبَ والذي قبله إلى المحقِّقين من البصريين. وفي تأتِّيه هنا من غير ضعفٍ للفصل بالهمزة بحث؛ فقد قال أبو حيَّان: إنَّ همزةَ

(١) وقرأ بها أيضاً أبو جعفر كما في النشر ٢/ ٣٧٣، وانظر التيسير ص ٣٢.

الاستفهامِ لا تدخلُ على المعطوف إلَّا إذا كان جملة؛ لئلَّا يَلزمَ عملُ ما قبلَ الهمزةِ فيما بعدها، وهو غيرُ جائز؛ لصدارتها(١).

والجوابُ بأنَّ الهمزةَ هنا مؤكِّدة للاستبعاد فهي في النيَّة مقدَّمةٌ داخلةٌ على الجملة في الحقيقة لكن فُصل بينهما بما فُصل، قد بُحث فيه بأنَّ الحرفَ لا يكرَّر للتوكيد بدون مدخولِه، والمذكورُ في النحو أنَّ الاستفهامَ له الصدرُ من غير فرقٍ بين مؤكِّد ومؤسِّس، مع أنَّ كونَ الهمزةِ في نيَّة التقديمِ يُضعف أمرَ الاعتدادِ بالفصل بها، لاسيَّما وهي حرفٌ واحد، فلا يقاس الفصلُ بها على الفصل بـ «لا» في قوله تعالى: ﴿مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام:١٤٨].

وثالثُها: أنَّ يكونَ عطفاً على محلِّ «إنَّ» مع ما عملت فيه، والظاهرُ أنَّه حينئذٍ من عطف الجملِ في الحقيقة.

ورابعُها: أن يكونَ عطفاً على محلِّ اسمِ «إنَّ»؛ لأنَّه كان قبل دخولِها في موضعِ رفع، والظاهرُ أنَّه حينئذٍ من عطف المفرَدات.

واعتُرض بأنَّ الرفعَ كان بالابتداء، وهو عاملٌ معنويّ، وقد بطل بالعامل اللفظيّ.

وأُجيب بأنَّ وجودَه كَلَا وجودٍ؛ لشَبَهِهِ بالزَّائد من حيث إنَّه لا يغيِّر معنى الجملة، وإنَّما يفيد التأكيدَ فقط.

واعتُرض أيضاً بأنَّ الخبرَ المذكورَ كـ: «مبعوثون» في الآية يكون حينئذٍ خبراً عنهما، وخبرُ المبتدأ رافعُه الابتداء، أو المبتدأ، أو هما، وخبرُ «إنَّ» رافعُه «إنَّ»، فيتوارد عاملان على معمولٍ واحد.

وأُجيب بأنَّ العواملَ النحويةَ ليست مؤثِّراتٍ حقيقية، بل هي بمنزلة العلامات، فلا يضرُّ توارُدُها على معمولٍ واحد. وهو كما ترى، وتمامُ الكلامِ في محلِّه.

وعلى كلِّ حالٍ الأَولى ما تقدَّم من كونه مبتدأً حُذف خبرُه، وقد قال أبو حيَّان:

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٥٥.

إنَّ أربابَ الأقوالِ الثلاثةِ الأخيرةِ متَّفقون على جواز القولِ الأوَّل، وهو يؤيِّد القولَ بأولويته.

وأيَّاما كان، فمرادُ الكفرةِ زيادةُ استبعادِ بعثِ آبائهم، بناءً على أنَّهم أقدم، فبعثُهم أبعدُ على عقولهم القاصرة.

وقرأ أبو جعفر، وشيبة، وابنُ عامر، ونافعٌ في رواية قالون[1]: «أَوْ» بالسكون، على أنَّها حرفُ عطف، وفيه الاحتمالاتُ الأربعة، إلَّا أنَّ العطفَ على الضميرِ على هذه القراءةِ ضعيف؛ لعدم الفصلِ بشيءٍ أصلاً.

﴿قُلْ نَعَمْ﴾ أي: تُبعثون أنتم وآباؤكم الأوَّلون. والخطابُ في قوله سبحانه: ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ لهم ولآبائهم بطريق التغليب، والجملةُ في موضع الحالِ من فاعل ما دلَّ عليه «نعم» أي: تُبعثون كلُّكم والحالُ أنَّكم صاغرون أذلَّاء، وهذه الحالُ زيادةٌ في الجواب، نظيرُ ما وقع في جوابه عليه الصلاة والسلام لأُبَيِّ بنِ خلفٍ حين جاء بعَظْمٍ قد رمَّ وجعل يفتُّه بيده ويقول: يا محمد، أترى الله يُحيي هذا بعدما رمَّ؟ فقال ﷺ له ـ على ما في بعض الرِّوايات ـ: «نعم ويبعثُك ويُدخلك جهنَّم»[2].

وقال غيرُ واحد: إنَّ ذلك من الأُسلوب الحكيم. وتعقِّب بأنَّ عدَّ الزيادةِ منه لا توافق ما قرِّر في المعاني، وإنْ كان ذلك اصطلاحاً جديداً، فلا مشاحَّةَ في الاصطلاح.

واكتُفي في الجواب عن إنكارهم البعثَ على هذا المقدارِ ولم يقم دليلٌ عليه، اكتفاءً بسبق ما يدلُّ على جوازه في قوله سبحانه: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ إلخ، مع أنَّ المخبِرَ قد عُلم صدقُه بمعجزاته الواقعةِ في الخارج التي دلَّ عليها قولُه سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً﴾ الآيةَ. وهزؤهم وتسميتُهم لها سحراً لا يضرُّ طالبَ الحقّ، والقولُ بأنَّ ذلك للاكتفاء بقيام الحجَّةِ عليهم في القيامة، ليس بشيء.

---

(١) في الأصل و(م): وقالون، وهو خطأ، انظر البحر ٧/ ٣٥٥، والتيسير ص ١٨٦، والنشر ٢/ ٣٥٧.

(٢) ينظر ٢٢/ ٤٢٠.

وقرأ ابن وثَّابٍ والكِسائي: «نَعِمْ» بكسر العين[١]، وهي لغةٌ فيه.

وقُرِىء: «قال»[٢]، أي: اللهُ تعالى أو رسولُه ﷺ.

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ الضميرُ راجعٌ إلى البعثة المفهومةِ ممَّا قبل. وقيل: للبعث، والتأنيثُ باعتبار الخبر. والزجرةُ: الصَّيحة، من: زجر الراعي غنمَه: صاح عليها. والمرادُ بها النفخةُ الثانيةُ في الصور، ولمَّا كانت بعثُتهم ناشئةً عن الزجرة، جُعلت إيَّاها مجازاً.

والفاءُ واقعةٌ في جواب شرطٍ مقدَّر، أو تعليليةٌ لنهيٍ مقدَّر، أي: إذا كان كذلك، فإنَّما البعثةُ زجرةٌ واحدة، أو لا تستصعبوها فإنَّما هي زجرة.

وجوَّز الزجَّاج[٣] أن تكونَ للتفسير والتفصيل، وما بعدها مفسِّر للبعث. وتعقِّب بأنَّ تفسيرَ البعثِ الذي في كلامهم لا وجهَ له، والذي في الجواب غيرُ مصرَّح به، وتفسيرُ ما كُني عنه بـ «نعم» ممَّا لم يُعهد. والظاهرُ أنَّه تفسيرٌ لما كُني عنه بـ «نعم»، وهو بمنزلة المذكور، لاسيَّما وقد ذُكر ما يقوِّي إحضارَه من الجملة الحالية، وعدمُ عهدِ التفسير في مثل ذلك ممَّا لا جزمَ لي به.

وأبو حيَّانَ نازع في تقدير الشَّرط، فقال: لا ضرورةَ تدعو إليه، ولا يُحذف الشرطُ ويبقى جوابُه إلَّا إذا انجزم الفعلُ في الذي يُطلق عليه أنَّه جوابُ الأمرِ والنهي وما ذُكر معهما على قول بعضِهم، أما ابتداءً فلا يجوز حذفُه[٤]. والجمهورُ على خلافه، والحقُّ معهم. وهذه الجملةُ إما من تتمَّة المقول، وإما ابتداءُ كلامٍ من قِبَله عزَّ وجلَّ.

﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي: فإذا هم قيامٌ من مراقدهم أحياءٌ يُبصرون كما كانوا في الدُّنيا. أو ينتظرون ما يُفعل بهم وما يؤمرون به.

---

(١) قراءة ابن وثاب في البحر ٧/ ٣٥٥، وقراءة الكسائي في التيسير ص ١١٠، والنشر ٢/ ٢٦٩.
(٢) الكشاف ٣/ ٣٣٧.
(٣) انظر معاني القرآن ٤/ ٣٠١.
(٤) البحر ٧/ ٣٥٦.

﴿وَقَالُوا﴾ أي: المبعوثون. وصيغةُ الماضي لتحقُّق الوقوع: ﴿يَوَيْلَنَا﴾ أي: يا هلاكَنا احضُر، فهذا أوانُ حضورِك ﴿هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾ استئنافٌ منهم لتعليلِ دعائهم الويل.

و«الدِّينُ» بمعنى الجزاء، كما في: كما تُدين تدان، أي: هذا اليومُ الذي نُجازَى فيه بأعمالنا، وإنَّما علموا ذلك؛ لأنَّهم كانوا يسمعون في الدُّنيا أنَّهم يُبعثون ويحاسَبون ويُجزَون بأعمالهم، فلمَّا شاهدوا البعثَ أيقنوا بما بعده أيضاً.

وقولُه تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ كلامُ الملائكة، جواباً لهم بطريق التوبيخِ والتقريع. وقيل: هو من كلام بعضِهم لبعضٍ أيضاً.

ووقف أبو حاتمٍ على «يا ويلنا» وجعل ما بعده كلامَ اللهِ تعالى، أو كلامَ الملائكةِ عليهم السلامُ لهم، كأنَّهم أجابوهم بأنَّه لا تنفع الولولةُ والتلهُّف.

و«الفصل»: القضاء، أو: الفرقُ بين المحسنِ والمسيء، وتمييزُ كلٍّ عن الآخَر بدون قضاء.

﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ خطابٌ من الله تعالى للملائكة، أو من الملائكةِ بعضِهم لبعض. أخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: تقول الملائكةُ للزَّبانية: «احشروا..» إلخ. وهو أمرٌ بحشر الظالمين من أماكنهم المختلفةِ إلى موقف الحساب، وقيل: من الموقفِ إلى الجحيم. والسِّياقُ والسباقُ يؤيِّدان الأوَّل.

﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أخرج عبدُ الرزاق، وابنُ أبي شيبة، وابنُ منيعٍ في «مسنده»، والحاكمُ وصحَّحه، وجماعة، من طريق النعمانِ بن بشير، عن عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه أنَّه قال: أزواجُهم: أمثالُهم الذين هم مثلُهم، يُحشر أصحابُ الرِّبا مع أصحاب الرِّبا، وأصحابُ الزِّنى مع أصحاب الزِّنى، وأصحابُ الخمرِ مع أصحابِ الخمر[1].

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٧٢، وهو في تفسير عبد الرزاق ٢/١٤٨، والمستدرك ٢/ ٤٣٠، دون قوله: يحشر أصحاب الربا... إلخ، ولعل هذه الزيادة مدرجة من كلام بعض الرواة.
وهو عند الحاكم من طريق عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن سماك بن حرب، عن النعمان، عن عمر. ورواه عبد الرزاق عن إسرائيل بهذا الإسناد، ولم يذكر عمر.

وأَخرج جماعةٌ عن ابن عباسٍ في لفظ: أشباهَهم، وفي آخَر: نظراءهم. ورُوي تفسيرُ الأزواجِ بذلك أيضاً عن ابن جُبيرٍ ومجاهدٍ وعكرمة.

وأصلُ الزوج: المقارِن، كزوجَي النَّعل، فأُطلق على لازِمه، وهو المماثل.

وجاءَ في روايةٍ عن ابن عباسٍ أنَّه قال: أي: نساءَهم الكافرات. ورجَّحه الرمَّاني.

وقيل: قرناءهم من الشَّياطين، ورُوي هذا عن الضحَّاك.

والواوُ للعطف، وجوِّز أن تكونَ للمعيَّة.

وقرأ عيسى بنُ سليمانَ الحجازي: «وأزواجُهم» بالرَّفع عطفاً على ضميرِ «ظلموا» على ما في «البحر»، أي: وظَلَمَ أزواجُهم(١).

وأنت تعلم ضعفَ العطفِ على الضمير المرفوعِ في مثله، والقراءةُ شاذَّة.

﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام ونحوِها. وحشرُهم معهم لزيادة التحسيرِ والتخجيل. و«ما» قيل: عامٌّ في كلِّ معبود، حتى الملائكة والمسيح وعُزير عليهم السلام، لكن خُصَّ منه البعضُ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ الآيةَ [الأنبياء:١٠١].

وقيل: «ما» كنايةٌ عن الأصنام والأوثان، فهي لِمَا لا يَعقل فقط؛ لأنَّ الكلامَ في المشركين عَبَدةِ ذلك.

وقيل: «ما» على عمومها، والأصنامُ ونحوُها غيرُ داخلة؛ لأنَّ جميعَ المشركين إنَّما عبدوا الشياطينَ التي حملتهم على عبادتِها. ولا يناسب هذا تفسير «أزواجهم» بقرنائهم من الشَّياطين، ومع هذا التخصيصُ أقرب، وفي هذا العطفِ دلالةٌ على أنَّ الذين ظلموا المشركون، وهم الأحِقَّاء بهذا الوصف؛ فإنَّ الشركَ لَظلمٌ عظيم.

﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ فعرِّفوهم طريقَها وأروهم إيَّاه. والمرادُ

---

(١) البحر ٧/ ٣٥٦، وهي في القراءات الشاذة ص ١٢٧.

بـ «الجحيم» النار، ويُطلق على طبقةٍ من طبقاتها، وهو من الجَحمة: شدَّة تأجُّجِ النار. والتعبيرُ بالصِّراط والهدايةِ للتهكُّم بهم.

﴿وَقِفُوهُمْ﴾ أي: احبسوهم في الموقف ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ عن عقائدهم وأعمالِهم، وفي الحديث: «لا تزولُ قدما عبدٍ حتى يسألَ عن خمس: عن شبابه فيما أبلاه، وعن عُمره فيما أفناه، وعن ماله ممَّ كسبه وفيمَ أنفقه، وعن عِلمِه ماذا عمل به»(١).

وعن ابن مسعود: يُسألون عن: لا إلهَ إلَّا الله. وعنه أيضاً: يُسألون عن شرب الماءِ البارِدِ، على طريق الهزءِ بهم.

وروى بعضُ الإماميةِ عن ابن جُبيرٍ عن ابن عباس: يُسألون عن ولاية عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه. ورووه أيضاً عن أبي سعيدٍ الخدريّ.

وأَولى هذه الأقوالِ أنَّ السؤالَ عن العقائد والأعمال، ورأسُ ذلك لا إلهَ إلَّا الله، ومن أَجلِّه ولايةُ عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه، وكذا ولايةُ إخوانِه الخلفاءِ الراشدين رضي الله عنهم أجمعين.

وظاهرُ الآيةِ أنَّ الحبسَ للسؤال بعدَ هدايتِهم إلى صراطِ الجحيم، بمعنى تعريفِهم إياه ودَلالتِهم عليه، لا بمعنى إدخالهم فيه وإيصالهم إليه. وجوِّز أن يكونَ صراطُ الجحيمِ طريقَهم له من قبورهم إلى مقرِّهم، وهو ممتدّ، فيجوز كونُ الوقفِ في بعضٍ منه مؤخَّراً عن بعض. وفيه من البُعد ما فيه.

وقيل: إنَّ الوقفَ للسؤال قبل الأمرِ المذكور، والواوُ لا تقتضي التَّرتيب.

وقيل: الوقفُ بعد الأمرِ عند مجيئهم النارَ والسؤالِ عمَّا ينطق به قولُه تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: لا ينصر بعضُكم بعضاً. والخطابُ لهم وآلهتهم، أو لهم فقط، أي: ما لكم لا ينصرُ بعضُكم بعضاً كما كنتم تزعُمون في الدنيا، فقد رُوي أنَّ أبا جهلٍ قال يومَ بدر: نحن جميعٌ منتصر. وتأخيرُ هذا السؤالِ إلى ذلك

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٦) من حديث ابن مسعود، وقال: هذا حديث غريب، و(٢٤١٧) من حديث أبي برزة الأسلمي ﷺ وحسَّنه.

الوقت؛ لأنَّه وقتُ تنجيزِ العذابِ وشدَّةِ الحاجة إلى النُّصرة وحالة انقطاعِ الرجاءِ، فالتقريعُ والتوبيخُ حينئذٍ أشدُّ وقعاً وتأثيراً.

وقيل: السؤالُ عن هذا في موقف المحاسبةِ بعد استيفاءِ حسابِهم والأمرِ بهدايتهم إلى الجحيم، كأنَّ الملائكةَ عليهم السلام لمَّا أُمروا بهدايتهم إلى النارِ وتوجيههم إليها، سارعوا إلى ما أُمروا به، فقيل لهم: قِفوهم إنَّهم مسؤولون.

والذي يترجَّح عندي أنَّ الأمرَ بهدايتهم إلى الجحيم إنَّما هو بعد إقامة الحجَّةِ عليهم وقطعِ أعذارهم، وذلك بعد محاسبتِهم. وعطف «اهدوهم» على «احشروا» بالفاءِ إشارةً إلى سرعة وقوعِ حسابِهم، وسؤالُهم: ما لَكم لا تناصرون، الأَليقُ أن يكونَ بعد تحقُّق ما يقتضي التناصر، وليس ذلك إلَّا بعد الحسابِ والأمرِ بهم إلى النَّار، فلعل الوقفَ لهذا السؤالِ في ابتداء توجُّهِهم إلى النار، واللهُ تعالى أعلم.

وقرأ عيسى: «أَنَّهم» بفتح الهمزة[1]، بتقدير: لأنَّهم. وقرأ البَزِّيُّ عن ابن كثير: «لا تّتَناصرون» بتاءين بلا إدغام[2]. وقُرئ بإدغام إحداهما في الأخرى[3].

﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ منقادون؛ لعجزهم وانسدادِ الحيلِ عليهم. وأصلُ الاستسلامِ طلبُ السَّلامة، والانقيادُ لازمٌ لذلك عرفاً؛ فلذا استُعمل فيه. أو متسالمونِ، كأنَّه يُسْلِمُ بعضُهم بعضاً للهلاك ويَخذله. وجوِّز في الإِضراب أن يكونَ عن مضمونِ ما قبله، أي: لا ينازعون في الوقوف وغيرِه، بل ينقادون، أو يخذلون. أو عن قوله سبحانه: «لا تناصرون» أي: لا يقدر بعضُهم على نصر بعض، بل هم منقادونَ للعذاب، أو مخذولون.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ هم الأتباعُ والرؤساءُ المضلُّون. أو الكفرةُ من الإنس وقرناؤهم من الجنّ، ورُوي هذا عن مجاهدٍ وقتادةَ وابنِ زيد ﴿يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ يسأل بعضُهم بعضاً سؤالَ تقريعٍ بطريق الخصومةِ والجدال.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٢٧، والبحر ٧/ ٣٥٦.

(٢) ذكرها أبو حيان في البحر ٧/ ٣٥٧ دون نسبة، وينظر التعليق الآتي.

(٣) هي قراءة البزي عن ابن كثير في حال الوصل كما في التيسير ص٨٣، والنشر ٢/ ٢٣٢-٢٣٣، والبدور الزاهرة ص٢٦٩.

﴿قَالُوٓا۟﴾ استئنافٌ بيانيّ، كأنَّه قيل: كيف يتساءلون؟ فقيل: قالوا، أي: الأَتباعُ للرؤساء، أو الكفرةُ مطلقاً للقرناء: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا﴾ في الدنيا ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾ أي: من جهة الخيرِ وناحيتِه، فتنهونا عنه وتصدُّونا، قاله قتادة.

ولشرف اليمين، جاهليةً وإسلاماً، دنيا وأُخرى، استُعيرت لجهة الخيرِ استعارةً تصريحيةً تحقيقية، وجُعلت اليمينُ مجازاً عن جهة الخيرِ مع أنَّه مجازٌ في نفسه، فيكونُ ذلك مجازاً على المجاز؛ لأنَّ جهةَ الخيرِ لشهرة استعمالِهِ التحقَ بالحقيقة، فيجوز فيه المجازُ على المجاز، كما قالوا في المسافة، فإنها موضعُ الشَّمِّ في الأصل؛ لأنَّه مَن: سافَ التراب: إذ شمَّه، فإنَّ الدليلَ إذا اشتبه عليه الطريقُ، أخذ تراباً فشمَّه ليعرفَ أنه مسلوكٌ أو لا، ثم جُعل عبارةً عن البُعد بين المكانَين، ثم استُعير لفرقِ ما بين الكلامين، ولا بُعدَ هناك.

واستظهر بعضُهم حملَ الكلامِ على الاستعارة التمثيليَّة، واعتبارَ التجوُّز في مجموع «تأتوننا عن اليمين» لمعنى: تمنعوننا وتصدُّوننا عن الخير، فَيَسلم الكلامُ من دعوى المجازِ على المجاز.

وكأنَّ المرادَ بالخير الإيمانُ بما يجب الإيمانُ به. وجوِّز أن يكونَ المرادُ به الخيرَ الذي يزعمه المضلُّون خيراً، وأنَّ المعنى: تأتوننا من جهة الخيرِ، وتزعمون ما أنتم عليه خيراً ودينَ حقّ، فتخدعوننا وتُضِلُّوننا. وحُكي هذا عن الزجَّاج[1].

وقال الجبَّائي: المعنى: كنتم تأتوننا من جهة النصيحةِ واليُمن والبركة، فترغِّبوننا بما أنتم عليه، فتضلُّوننا. وهو قريبٌ مما قبله.

وجوَّزوا أن تكونَ اليمينُ مجازاً مرسلاً عن القوَّة والقهر؛ فإنها موصوفةٌ بالقوَّة، وبها يقع البطش، فكأنَّه أطلق المحلَّ على الحالّ، أو السببَ على المسبَّب. ويمكن أن يكونَ ذلك بطريق الاستعارةِ وتشبيهِ القوَّة بالجانب الأيمنِ في التقدُّم ونحوِهِ، والمعنى: إنَّكم كنتم تأتوننا عن القوَّة والقهر، وتصدوننا عن السُّلطان والغلبة، حتى

---

(١) معاني القرآن ٤/ ٣٠٢.

تحملونا على الضَّلال وتَقسِرونا عليه. وإليه ذهب الفرَّاء[1].

وأن يكونَ اليمينُ حقيقةً بمعنى القَسَم، ومعنى إتيانهم عنه أنَّهم يأتونهم مُقسِمين لهم على حقِّيَّة ما هم عليه من الباطل، والجارُّ والمجرورُ في موضع الحال، و«عن» بمعنى الباء، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ [النجم:٣] أو هو ظرفٌ لغو. وفيه بُعد.

وأبعدُ منه أن يفسَّرَ اليمينُ بالشَّهوة والهوى؛ لأنَّ جهةَ اليمينِ موضعُ الكَبِد، وهو مخالفٌ لمَا حُكي عن بعضٍ من أنَّ مَن أتاه الشيطانُ من جهة اليمينِ، أتاه من قِبَل الدِّين فلبَّس عليه الحقّ، ومَن أتاه من جهة الشِّمال، أتاه من قبل الشَّهوات، ومَن أتاه من بين يديه أتاه من قِبَل التكذيبِ بالقيامة والثوابِ والعقاب، ومَن أتاه من خلفه خوَّفه الفقرَ على نفسه وعلى مَن يَخلُف بعده، فلم يَصِل رَحِماً ولم يؤدِّ زكاة.

﴿قَالُواْ﴾ استئنافٌ على طرز السابق، أي: قال الرُّؤساء، أو قال القرناءُ في جوابهم بطريق الإضراب عمَّا قالوه لهم: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٢٩﴾ وهو إنكارٌ لإضلالهم إياهم، أي: أنتم أَضللتم أنفسَكم بالكفر ولم تكونوا مؤمنين في حدِّ ذاتكم، لا أنَّا نحن أَضللناكم.

وقولهم: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾ أي: من قهرٍ وتسلُّطٍ نسلُبكم به اختيارَكم ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ۝٣٠﴾ مجاوزين الحدَّ في العصيان، مختارين له مصرِّين عليه، جوابٌ آخرُ تسليميٌّ ـ على فَرْض إضلالهم ـ بأنَّهم لم يُجبروهم عليه، وإنَّما دعَوهم له، فأجابوا باختيارهم لموافقة ما دُعوا له هواهم.

وقيل: الكلُّ جوابٌ واحد، محصَّله: إنَّكم اتَّصفتم بالكفر من غير جبرٍ عليه.

وقولهم: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ۝٣١﴾ تفريعٌ على صريح ما تقدَّم من عدم إيمان أولئك المخاصمين لهم وكونِهم قوماً طاغينَ في حدِّ ذاتِهم، وعلى ما اقتضاه وأشعرَ به خصامُهم من كفر هؤلاء المجيبين لأولئك الطَّاغين وغوايتِهم في أنفسهم.

---

(١) انظر معاني القرآن ٢/ ٣٨٤.

وضمائرُ الجمعِ للفريقين، فكأنَّهم قالوا: ولأجل أنَّا جميعاً في حدِّ ذاتنا لم نكن مؤمنين وكنَّا قوماً طاغين، لَزِمَنا قولُ ربِّنا وخالقِنا العالِمِ بما نحن عليه وبما يقتضيه استعدادُنا، وثبت علينا وعيدُه سبحانه بأنَّا ذائقون لا محالةَ لعذابه عزَّ وجلّ، ومرادُهم أنَّ منشأَ الخصامِ في الحقيقة الذي هو العذابُ أمرٌ مقضيٌّ لا محيصَ عنه، وأنَّه قد ترتَّب على كلٍّ منا بسبب أمرٍ هو عليه في نفسه، وقد اقتضاه استعدادُه وفَعَله باختياره، فلا يلومنَّ بعضُنا بعضاً، ولكن لِيَلُمْ كلٌّ منَّا نفسه. ونظموا أنفسَهم معهم في ذلك للمبالغة في سدِّ باب اللَّومِ والخصامِ من أولئك القوم.

والفاء في قولهم: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ أي: فدعوناكم إلى الغَيّ؛ لتفريع الدعاءِ المذكورِ على حقِّيَّة الوعيدِ عليهم، لا لمجرَّد التعقيبِ كما قيل. وعِلِّية ذلك للدُّعاء باعتبار أنَّ وجودَه الخارجيَّ متعلِّقاً بهم كان متفرِّعاً عن ذلك في نفس الأمر، لا باعتبار أنَّ إصدارَه وإيقاعَه منهم على المخاطَبين كان بملاحظة ذلك كما تُلاحَظ العِللُ الغائيةُ في الأفعال الاختيارية؛ لأنَّ الظاهرَ أنَّ رؤساءَ الكفرِ لم يكونوا عالمين في الدنيا حقِّيَّةَ الوعيدِ عليهم. نعم لا يَبعدُ أن يكونَ القرناءُ من الشياطين عالمين بذلك من أبيهم، وكذا تسميةُ دعائهم إيَّاهم إلى ما دعوهم إليه إغواء، أي: دعاءً إلى الغَيّ، بناءً على أنَّ الكلامَ المذكورَ من الرُّؤساء باعتبار نفسِ الأمرِ التي ظهرت لهم يومَ القيامة.

ومثلُ هذا يقال في قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾﴾ بناءً على أنَّهم إنَّما علموا ذلك يومَ التساؤلِ والخصام. والجملةُ مستأنفةٌ لتعليل ما قبلها. وكأنَّ ما أَشعر به التفريعُ باعتبار تعلُّقِ الإغواءِ بالمخاطبين، وهذا باعتبار صدورِ الإغواءِ نفسِه منهم، وهو تصريحٌ بما يستفاد من التفريع السَّابق.

ويجوز أن يكونَ إشارةً إلى وجه ترتُّب إغوائهم إياهم على حقِّيَّة الوعيدِ عليهم، وهو حبُّ أن يتَّصفَ أولئك المخاطَبون بنحو ما اتَّصفوا به من الغَيِّ ويكونوا مثلَهم فيه. وملخَّص كلامِهم أنَّه ليس منَّا في حقِّكم على الحقيقة سوى حبِّ أن تكونوا مثلَنا، وهو غيرُ ضارٍّ لكم، وإنَّما الضارُّ سوءُ اختيارِكم وقُبحُ استعدادِكم، فذلك الذي ترتَّب عليه حقِّيَّة الوعيدِ عليكم وثبوتُ هذا العذابِ لكم.

وجوِّز أن يقال: إنَّهم نفَوا عنهم الإيمانَ والاعتقادَ الحقّ، وأثبتوا لهم الطغيانَ ومجاورةَ الحدِّ في العصيان، حيث لم يلتفتوا على ما يوجب الاعتقادَ الصحيحَ مع كثرتِهِ وظهورِهِ، ورتَّبوا على ذلك مع ما يقتضيه البحثُ حقِّيَّةَ الوعيد، وفرَّعوا على مجموع الأمرين أنَّهم دعَوهم إلى الغَيِّ مراداً به الكفرُ؛ لاعتقاد أمرٍ فاسدٍ لا مجرَّدِ عدم الإيمان، أي: عدم التصديقِ بما يجب التصديقُ به بدون اعتقادِ أمرٍ آخَرَ يكفر باعتقاده، وأشاروا إلى وجه ترتُّبِ ذلك على ما ذُكر، وهو محبَّةُ أن يكونوا مثلَهم، فكأنَّهم قالوا: كنتم تاركين الاعتقادَ الحقَّ غيرَ ملتفتين إليه مع ظهور أدلَّتِهِ وكثرَتِها، وكنا جميعاً قد حقَّ علينا الوعيد، فدعوناكم إلى ما نحن عليه من الاعتقادِ الفاسد، حبّاً لأن تكونوا أسوةَ أنفسِنا، وهذا كقولهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ [القصص: ٦٣].

قال الراغب[1]: هو إعلامٌ منهم أنَّا قد فعلنا بهم غايةَ ما كان في وُسع الإنسانِ أن يفعلَ بصديقه ما يريد بنفسه، أي: أفدناهم ما كان لنا وجعلناهم أسوةَ أنفسِنا، وعلى هذا «فأغويناكم إنا كنا غاوين». انتهى.

وجوِّز على هذا التقديرِ أن يكونَ «فأغويناكم» مفرَّعاً على شرح حالِ المخاطَبين، من انتفاء كونِهم مؤمنين، وثبوتِ كونِهم طاغين وعن الآياتِ معرضين، وقولُهم: «فحقَّ علينا. . .» إلخ اعتراضٌ لتعجيل بيانِ أنَّ ما الفريقان فيه أمرٌ مقضيٌّ لا ينفع فيه القيلُ والقال، والخصامُ والجدال.

ويجوز على هذا أن يرادَ بضمير الجمعِ في «فحقَّ علينا. . .» إلخ الرؤساءُ أو القرناء، لا ما يعمُّهم والمخاطَبين، وأشاروا بذلك إلى أنَّ ما هم فيه يكفي عن اللَّوم ويومئُ إلى زيادة عذابِهم، ولا يخفَى أنَّ تجويزَ الاعتراضِ لا يخلو عن اعتراض. وتجويز كونِ الضميرِ في «علينا. . .» إلخ للرُّؤساء أو القرناءِ يجري على غيرِ هذا الاحتمال، فتدبَّر.

وأيَّاما كان، فقولُهم: «إنا لذائقون» هو قولُ ربِّهم عزَّ وجلَّ ووعيدُه سبحانه

---

(١) في المفرادات (غوي).

إياهم، ولو حُكي كما قيل، لَقيل: إنَّكم لذائقون، ولكنَّه عدل إلى لفظ المتكلِّم؛ لأنَّهم متكلِّمون بذلك من أنفسهم. ونحوُه قولُ القائل:

لـقـد زعـمـتْ هـوازنُ قـلَّ مـالـي[1] وهـل لـي غـيـرُ مـا أنـفـقـتُ مـالُ

ولو حَكَى قولَها لَقال: قلَّ مالُكَ، ومنه قول المحلِّف للحالف: اِحلف: لَأخرجنَّ، ولَتخرجَنَّ، الهمزةُ لحكاية لفظِ الحالف، والتاءُ لإقبال المحلِّف على المحلَّف.

وقال بعضُ الأجِلَّة: قولُ الربِّ عزَّ وجلَّ هو قولُه سبحانه وتعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]. والربطُ على ما تقدَّم أظهر.

﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أي: الفريقَين المتسائلَين. والكلامُ تفريعٌ على ما شُرح من حالهم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ يتساءلون، والمرادُ به يومُ القيامة ﴿فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ كما كانوا مشتركين في الغَواية. واستظهر أنَّ المُغْوين أشدُّ عذاباً، وذلك في مقابلة أوزارِهم وأوزارٍ مثلِ أوزارهم، فالشِّركةُ لا تقتضي المساواة.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الفعلِ البديعِ الذي تقتضيه الحكمةُ التشريعيةُ ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: بالمشركين؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ بطريق الدَّعوةِ والتلقين: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ عن القَبول.

وفي إعراب هذه الكلمةِ الطيبةِ أقوال:

الأوَّل: أن يكونَ الاسمُ الجليلُ مرفوعاً على البدليَّة من اسم «لا» باعتبار المحلِّ الأصليّ، وهو الرفعُ على الابتداء، بدلَ بعضٍ من كلّ، و«إلّا» مغنيةٌ عن الرَّبط بالضمير. وإذا قلنا: إنَّ البدلَ في الاستثناءِ قسمٌ على حِدَةٍ مغايرٌ لغيره من الأبدال، اندفع عن هذا الوجهِ كثيرٌ من القيل والقال، وهو الجاري على ألسنة المُعربين. والخبرُ عليه عند الأكثرين مقدَّر، والمشهورُ تقديرُه: موجود. والكلمةُ الطيِّبة في مقابلة المشركين، وهم إنَّما يزعمون وجودَ آلهةٍ متعدِّدةٍ ولا يقولون بمجرَّد

---

(١) كذا في الكشاف ٣/ ٣٣٩، والبحر ٧/ ٣٥٧. وفي الحماسة البصرية ٢/ ١٢: تسائلني هوازن أين مالي، ونسبه ليزيد بن الجهم.

الإمكان. على أنَّ نفيَ الوجودِ في هذا المقامِ يستلزم نفيَ الإمكان، وكذا نفيُ الإمكانِ عمَّن عداه عزَّ وجلَّ يستلزم ثبوتَ الوجودِ بالفعل له تعالى.

وجوَّز تقديرُه: مستحقٌّ للعبادة. ونفيُ استحقاقِها يستلزم نفيَ التعدُّد، لكن لا يتمُّ هذا التقديرُ على تفسير الإلهِ بالمستحقِّ للعبادة كما لا يخفَى.

واختار البازليُّ[1] تقديرَ الخبرِ مؤخَّراً عن «إلَّا الله»، بناءً على أنَّ تقديرَه مقدَّماً يوهم كونَ الاسمِ مستثنًى مفرَّغاً من ضمير الخبر، وهو لا يجوز عند المحقِّقين، وأجازه بعضٌ، وهو القولُ الثاني.

والثالث ـ ونُسب إلى الكوفيين ـ: أنَّ «إلَّا» عاطفة، والاسمَ الجليلَ معطوفٌ على الإله باعتبار المحلّ، وهي عندهم بمنزلة «لا» العاطفةِ في أنَّ ما بعدَها يخالف ما قبلها، إلَّا أنَّ «لا» لنفي الإيجاب، و«إلَّا» لإيجاب النفي.

والرابع: أنَّ الاسمَ الكريمَ هو الخبر، ولا عملَ لها فيه على رأي سيبويهِ من أنَّ الخبرَ مرفوعٌ بما كان مرفوعاً به قبل دخولِها، فلا يلزم عملُها في المعارف على رأيه، وهو لازمٌ على رأي غيرِه.

وضعَّف هذا القولُ به، وكذا بلزوم كونِ الخاصِّ خبراً عن العامّ. وكونُ الكلامِ مسوقاً لنفي العمومِ والتخصيصِ بواحدٍ من أفراد ما دلَّ عليه العامُّ لا يُجدي نفعاً؛ ضرورةَ أنَّ «لا» هذه عند الجمهورِ من نواسخ المبتدأ والخبر.

والخامس: أنَّ «إلَّا» بمعنى «غير»، وهي مع اسمِه عزَّ اسمُه صفةٌ لاسم «لا» باعتبار المحلّ، أي: لا إلهَ غيرُ اللهِ تعالى في الوجود.

ولا خللَ فيه صناعةً، وإنَّما الخللُ فيه ـ كما قيل ـ معنًى؛ لأنَّ المقصودَ نفي الأُلوهيةِ عن غيره تعالى وإثباتُها له سبحانه، وعلى الاستثناءِ يستفاد كلٌّ من المنطوق، وعلى هذا لا يفيد المنطوقُ إلَّا نفيَ الألوهيةِ من غيره تعالى دون إثباتها

---

(١) أبو عبد الله شمس الدين محمد بن داود البازلي الكردي الحموي الشافعي. كان زاهداً كثير العبادة ملازماً للتدريس. من كتبه: حاشية على جمع الجوامع للمحلِّي، وتقدمة العاجل لذخيرة الآجل. توفي (سنة ٩٢٥هـ). الكواكب السائرة ١/ ٤٧، وشذرات الذهب ٨/ ١٣٨.

له عزَّ وجلّ، واعتبارُ المفهومِ غيرُ مجمَعٍ عليه، لا سيَّما مفهومُ اللقب، فإنَّه لم يقل به إلَّا الدقَّاقُ وبعضُ الحنابلة.

والسادس ـ ونُسب إلى الزمخشريّ ـ: أنَّ «لا إله» في موضع الخبر، و«إلَّا الله» في موضع المبتدأ، والأصل: اللهُ إله، فلما أُريد قصرُ الصفةِ على الموصوف، قدِّم الخبرُ وقُرن المبتدأُ بـ «إلَّا»؛ إذ المقصورُ عليه هو الذي يلي «إلَّا»، والمقصورُ هو الواقعُ في سياق النفي، والمبتدأُ إذا قُرن بـ «إلَّا» وجب تقديمُ الخبرِ عليه، كما هو مقرَّر في موضعه.

وفيه تمحُّل، مع أنَّه يلزم عليه أن يكونَ الخبرُ مبنياً مع «لا»، وهي لا يُبنَى معها إلَّا المبتدأ، وأنَّه لو كان الأمرُ كما ذكر، لم يكن لنصب الاسمِ الواقعِ بعدَ «إلَّا» وجهٌ، وقد جوَّزه جماعةٌ في هذا التركيب، وتَرْكُ كلامهم لواحدٍ إن التزمتَه لا تجد لك ثانياً فيه.

والسابع: أنَّ الاسمَ المعظَّمَ مرفوعٌ بـ «إله»، كما هو حالُ المبتدأ إذا كان وصفاً، فإنَّ إلهاً بمعنى مألوه، من أله: إذا عبدَ، فيكون قائماً مقامَ الفاعلِ وسادّاً مسدَّ الخبر، كما في: ما مضروبٌ العمران.

وتعقِّب بمنع أن يكونَ «إله» وصفاً، وإلَّا لَوجب إعرابُه وتنوينُه، ولا قائلَ به.

ثم إنَّ هذه الكلمةَ الطيبةَ يندرج فيها معظمُ عقائدِ الإيمان، لكنَّ المقصودَ الأهمَّ منها التوحيد؛ ولذا كان المشركون إذا لقِّنوها أوَّلاً، يستكبرون وينفِرون ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ يعنون بذلك ـ قاتَلَهم الله تعالى ـ النبيَّ ﷺ، وقد جمعوا بين إنكار الوحدانيةِ وإنكار الرِّسالة.

ووصفُهم الشاعرَ بالمجنون قيل: تخليطٌ وهَذَيان؛ لأنَّ الشِّعرَ يقتضي عقلاً تامّاً به تُنظم المعاني الغريبة، وتُصاغ في قوالب الألفاظِ البديعة. وفيه نظر، وكم رأينا شعراءَ ناقصي العقول، ومنهم مَن يزعم أنَّه لا يحسن شِعره حتى يشربَ المسكِر، فيسكر ثم يقول. نَعَم كلٌّ من الوصفين هَذَيانٌ في حقِّه ﷺ.

﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ ردٌّ عليهم وتكذيبٌ لهم، ببيان أنَّ ما جاء به

عليه الصلاة والسلام من التوحيد هو الحقُّ الثابتُ الذي قام عليه البرهان، وأجمع عليه كافةُ المرسلين، فأين الشِّعرُ والجنونُ من ساحته ﷺ الرفيعةِ الشأن؟!

وقرأ عبدُ الله: «وصَدَقَ» بتخفيف الدَّال «اَلْمُرْسَلُونَ» بالواو رفعاً[1]، أي: وصدق المرسَلون في التبشيرِ به وفي أنَّه يأتي آخرَهم.

﴿إِنَّكُمْ﴾ بما فعلتم من الإشراك وتكذيبِ الرَّسول عليه الصلاة والسلام والاستكبارِ ﴿لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ والالتفاتُ لإظهار كمالِ الغضبِ عليهم، بمشافهتهم بهذا الوعيدِ وعدمِ الاكتراثِ بهم، وهو اللائقُ بالمستكبرين.

وقرأ أبو السَّمَّال، وأبانُ روايةً عن عاصم: «لَذائقوا العذابَ»[2] بالنَّصب على أنَّ حذفَ النونِ للتخفيف، كما حُذف التنوينُ لذلك في قول أبي الأسود:

فألفَيْتُه غيرَ مستعتبٍ ولا ذاكرِ اللهَ إلَّا قليلاً[3]

بجرِّ ذاكرٍ بلا تنوينٍ ونصب الاسمِ الجليل. وهذا الحذفُ قليلٌ في غير ما كان صلةً لـ «أل»، أمَّا فيما كان صلةً لها، فكثيرُ الورود؛ لاستطالة الصِّلةِ الداعيةِ للتخفيف، ونحوُ قولِه:

الحافظو عورةَ العشيرةِ لا يأتيهمُ من ورائهم نَطَفُ[4]

ونقل ابنُ عطيةَ[5] عن أبي السَّمَّال أنَّه قرأ: «لذائقٌ» بالإفراد والتنوينِ «العذابَ» بالنَّصب، وخرَّج الإفراد على أنَّ التقدير: لَجمعٌ ذائق، وقيل: على تقدير: إنَّ جمعَكم لَذائق.

وقُرِئ: «لذائقون» بالنُّون «العذابَ» بالنَّصب على الأصل[6].

---

(١) البحر المحيط ٧/٣٥٨.
(٢) البحر ٧/٣٥٨، وقراءة أبي السمال في القراءات الشاذة ص١٢٧.
(٣) البيت لأبي الأسود الدؤلي، وهو في ديوانه ص ٥٤، وسلف ٥/ ١٧٩.
(٤) سلف ١٧/ ٣٢٣.
(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٧١.
(٦) البحر ٧/٣٥٨.

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: إلَّا جزاءَ ما كنتم تعملونه من السيِّئات، أو: إلَّا بما كنتم تعملونه منها.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ إستثناءٌ منقطعٌ من ضمير ذائقوا، وما بينهما اعتراضٌ جيءَ به مسارعةً إلى تحقيق الحقّ، ببيان أنَّ ذوقَهم العذابَ ليس إلَّا من جهتهم لا من جهة غيرِهم أصلاً، فـ «إلَّا» مؤوَّلة بـ «لكن»، وما بعدُ كخبرها، فيصير التقدير: لكنَّ عبادَ اللهِ المخلَصين أولئك لهم رزقٌ وفواكه.. إلخ. ويجوز أن يكونَ المعنى: لكنَّ عبادَ اللهِ المخلَصين ليسوا كذلك.

وقيل: استثناءٌ منقطعٌ من ضمير «تجزون» على أنَّ المعنى: تُجزَون بمثل ما عملتم، لكنَّ عبادَ اللهِ المخلَصين يُجزون أضعافاً مضاعفةً بالنِّسبة إلى ما عملوا.

ولا يخفى بُعدُه. وأبعدُ منه جعلُ الاستثناءِ من ذلك متصلاً بتعميم الخطابِ في «تجزون» لجميع المكلَّفين؛ لمَا فيه ـ مع احتياجه إلى التكلُّف الذي في سابقه ـ من تفكيك الضَّمائر.

و«المخلصين» صفةُ مدحٍ حيث كانت الإضافةُ للتشريف.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي: العبادُ المذكورون. وفيه إشارةٌ إلى أنَّهم ممتازون بما اتَّصفوا به من الإخلاص في عبادته تعالى عمَّن عداهم امتيازاً بالغاً، وما فيه من معنى البعدِ مع قُرب العهدِ بالمشار إليه للإشعار بعلوِّ طبقتِهم وبُعدِ منزلتِهم في الفضل.

وهو مبتدأ، وقولُه تعالى: ﴿لَهُمْ﴾ إما خبرٌ له وقولُه سبحانه: ﴿رِزْقٌ﴾ مرتفعٌ على الفاعلية للظَّرف، وإمَّا خبرٌ مقدَّم، و«رزق» مبتدأ مؤخَّر، والجملةُ خبرُ المبتدأ، والمجموعُ كالخبر للمستثنَى المنقطعِ على ما أشرنا إليه، أو استئنافٌ لمَا أفاده الاستثناءُ إجمالاً بياناً تفصيلياً.

وقولُه تعالى: ﴿مَعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾ أي: معلومُ الخصائص، ككونه غيرَ مقطوعٍ ولا ممنوع، حسنَ المنظرِ لذيذَ الطعمِ طيِّبَ الرائحة، إلى غير ذلك من الصِّفات

المرغوبة، فلا يقال: إنَّ الرزقَ لا يكون معلوماً إلَّا إذا كان مقدراً بمقدار، وقد جاءَ في آيةٍ أخرى: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠] وما لا يدخل تحت الحسابِ لا يُحدُّ ولا يقدَّر، فلا يكونُ معلوماً.

وقيل: المراد: معلومُ الوقت؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

وعن قتادة: الرزقُ المعلوم: الجنَّة. وتعقّب بأنَّ «في جنات» بَعدُ يأباه. واعتُرض بأنَّه إذا كان المعنى: وهم مُكرَمون فيها، لم يكن به بأس. وأُجيب بأنَّ جعلَها مقرَّ المرزوقين لا يلائم جعلَها رزقاً، وأما إذا كان قيداً للرِّزق، فهو ظاهرُ الإِباء. وكونُ المساكنِ رزقاً للساكن فإذا اختلف العنوانُ لم يكن به بأس، لا يدفعُ ما قرِّر كما لا يخفَى على المنصف.

وقولُه تعالى: ﴿فَوَاكِهُ﴾ بدلٌ من «رزق» بدلَ كلٍّ من كلّ. وفيه تنبيهٌ على أنَّه مع تميُّزه بخواصِّه كلُّه فواكه. أو خبرُ مبتدأ محذوف، والجملةُ مستأنفة، أي: ذلك الرِّزقُ فواكه.

والمرادُ بها ما يؤكل لمجرَّد التلذُّذِ دونَ الاقتيات، وجميعُ ما يأكله أهلُ الجنةِ كذلك، حتى اللحم؛ لكونهم مستغنين عن القُوت، لإِحكام خِلقتهم، وعدمِ تحلُّل شيءٍ من أَبدانهم بالحرارة الغريزيةِ ليحتاجوا إلى بدلٍ يحصل من القُوت. فالمرادُ بالفاكهة هنا غيرُ ما أُريد بها في قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠-٢١] وهي هناك بالمعنى المعروف، فلا منافاة.

وجوِّز أن يكونَ عطفَ بيانٍ للرِّزق المعلوم، فوجهُ الاختصاصِ ما عُلم به من بين الأَرزاق أنَّه فواكه.

وقيل: هو بدلُ بعضٍ من كلّ، وتخصيصُها بالذِّكر؛ لأنَّها من أَتباع سائرِ الأَطعمة، فتدلُّ على تحقُّق غيرِها.

﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ ۝٤٢﴾ عند اللهِ تعالى، لا يَلحقهم هوانٌ، وذلك أعظمُ المثوباتِ وأَليقُها بأُولي الهمم. ولعلَّ هذا إشارةٌ إلى النَّعيم الروحانيِّ بعد النعيم الجسمانيِّ

الذي هو بواسطة الأكل. وقيل: مُكرَمون في نيل الرِّزق، حيث يصل إليهم من غير كسبٍ وكَدٍّ وسؤال، كما هو شأنُ أرزاقِ الدنيا.

وقرئ: «مكرَّمون» بالتَّشديد[1].

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٤٣﴾ أي: في جناتٍ ليس فيها إلَّا النعيم، على أنَّ الإضافةَ على معنى لامِ الاختصاصِ المفيدةِ للحصر، والظرفُ متعلِّق بـ «مكرمون»، أو بـ «معلوم»، أو بمحذوفِ حالٍ من المستكنِّ في «مكرمون»، أو خبرٌ ثانٍ لـ «أولئك»، أو لـ «هم».

وقولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ يحتمل أن يكونَ حالاً من المستكنِّ في «مكرمون» أو في الظَّرف قبله، وأن يكونَ خبراً، فيكونُ قولُه سبحانه: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٤﴾ حالاً من المستكنِّ فيه، أو في «مكرمون» أو في الظَّرف، أعني «في جنات» وأن يتعلَّقَ بـ «متقابلين»، فيكون حالاً من المستكنِّ في غيره.

وأُشير بتقابلهم إلى استئناس بعضِهم ببعض، فبعضُهم يقابل بعضاً للاستئناسِ والمحادثة. وفي بعض الأحاديثِ أنَّه تُرفع عنهم السُّتورُ أحياناً فينظر بعضُهم إلى بعض.

وقرأ أبو السمَّال: «سُرَرٍ» بفتح الراء[2]، وهي لغةُ بعضِ تميمٍ وكلب، يفتحون ما كان جمعاً على فُعل من المضعَّف إذا كان اسماً، واختلف النَّحويون في الصِّفة، فمنهم مَن قاسها على الاسم ففتح، فيقول: ذُلَل، بفتح اللامِ على تلك اللُّغة، ومنهم مَن خصَّ ذلك بالاسم، وهو موردُ السَّماع.

وقوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ إمَّا استئنافٌ لبيان ما يكون لهم في مجالس أُنسهِم، أو حالٌ من الضمير في «متقابلين» أو في أحد الجارَّين. وجوِّز كونُه صفةً لـ «مكرمون». وفاعلُ الطوافِ ـ على ما قيل ـ مَن مات من أولاد المشركين قبل

---

(١) الإملاء ٤/ ٢٣٥، والبحر ٧/ ٣٥٩.

(٢) البحر ٧/ ٣٥٩.

التكليف؛ ففي الصَّحيح أنَّهم خدمُ أهلِ الجنة[١]، وقد صرَّح به في موضعٍ آخرَ، وهو قولُه تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: ١٧] وقولُه سبحانه: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ [الطور: ٢٤].

﴿بِكَأْسٍ﴾ أي: بخمر، كما رُوي عن ابن عبَّاس. وأخرج ابنُ أبي شيبةَ وابن جَريرٍ[٢] وغيرُهما عن الضحَّاك قال: كلُّ كأسٍ ذكره اللهُ تعالى في القرآن إنَّما عنى به الخمر. ونُقل ذلك أيضاً عن الحَبر والأخفش. وهو مجازٌ مشهورٌ بمنزلة الحقيقة، وعليه قولُ الأعشى:

وكأسٍ شربتُ على لذَّةٍ     وأخرى تداويتُ منها بها[٣]

ويدلُّ على أنَّه أراد بها الخمرَ إطلاقاً للمحلِّ على الحالِّ قولُه: شربت، وتقديرُ: شربتُ ما فيها، تكلُّف، والقرينةُ هاهنا ما يأتي بعدُ.

وجوِّز تفسيرُه بمعناه الحقيقيّ، وهو إناءٌ فيه خمر، وأكثرُ اللغويين على أنَّ إناءَ الخمرِ لا يسمَّى كأساً حقيقةً إلَّا وفيه خمر، فإنْ خلا منه فهو قَدَح، والخمرُ ليس بمتعيّن.

قال في «البحر»[٤]: الكأسُ ما كان من الزُّجاج فيه خمرٌ أو نحوُه من الأنبذة، ولا يسمَّى كأساً إلَّا وفيه ذلك.

وقال الراغب[٥]: الكأس: الإناءُ بما فيه من الشَّراب، ويسمَّى كلُّ واحدٍ منهما بانفراده كأساً، يقال: كأسٌ خال[٦]، ويقال: شربتُ كأساً، و: كأسٌ طيِّبة. ولعل كلامَه أظهرُ في أنَّ تسميةَ الخالي كأساً مجاز.

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٤٠٩٠) من حديث أنس ﷺ، وأخرجه الطبراني في الكبير (٦٩٩٣) من حديث سمرة بن جندب ﷺ.
(٢) في تفسيره ١٩/ ٥٣١.
(٣) الديوان ص٢٢٣.
(٤) ٧/ ٣٥٩.
(٥) في المفردات (كأس).
(٦) قوله: يقال: كأس خال، ليس في المطبوع من المفردات.

وحُكي عن بعضهم أنَّه قال: الكأسُ من الأواني: كلُّ ما اتسع فمُه ولم يكن له مَقبِض، ولا يُراعَى كونُه لخمرٍ أو لغيره.

﴿مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ في موضع الصفةِ لكأس، أي: كائنةٍ من شرابٍ معين، أو نهرٍ معين، أي: ظاهرٍ للعيون، جارٍ على وجه الأرضِ كما تجري الأنهار، أو خارجٍ من العيون والمنابع. وأصلُه: مَعيون، من عَانَ الماء: إذا ظهر أو نبع، على أنَّ ميمَه زائدة، أو هو من: مَعَنَ، فهو فعيل، على أنَّ الميمَ أصلية.

ووصف به خمرُ الجنةِ تشبيهاً لها بالماء؛ لكثرتها، حتى تكون أنهاراً جاريةً في الجنان، ويؤذن ذلك برِقَّتها ولطافتها، وأنَّها لم تُدَس بالأقدام كخمر الدُّنيا، كما ينبئُ عن دَوْسها بها قولُه:

بِنتُ كرمٍ يتَّموها أمَّها ... ثم هانوها بدَوسٍ بالقدمْ

ثم عادوا حكَّموها فيهمُ ... وَيلَهمْ من جَورِ مظلومٍ حكَمْ[1]

وقولُ الآخر:

وشَمولةٍ من عهد عادٍ قد غدت ... صرعى تُداس بأرجُل العَصَّارِ

لانت لهمْ حتى انتشَوا فتمكَّنت ... منهمْ فصاحت فيهمُ بالثارِ[2]

وهذا مبنيٌّ على أنَّها خمرٌ في الحقيقة، وجوِّز أن تكونَ ماءً فيه لذةُ الخمرِ ونشوته، فالوصفُ بذلك ظاهر، وتفيد الآيةُ وصفَ مائهم باللَّذة والنشوة.

وما ذُكر أوَّلاً هو الظاهر، نعم قال غيرُ واحد: لا اشتراكَ بين ما في الدُّنيا وما في الجنَّة إلَّا بالأسماء، فحقيقةُ خمرِ الجنةِ غيرُ حقيقةِ خمرِ الدنيا، وكذا سائرُ ما فيهما.

﴿بَيْضَآءَ﴾ وصفٌ آخرُ للكأس يدلُّ على أنَّها مؤنَّثة. وعن الحسن أنَّ خمرَ الجنةِ أشدُّ بياضاً من اللَّبن.

---

(١) المستطرف ٢/٤٠٨ دون نسبة.

(٢) نسبها في وفيات الأعيان ٤/٤٣٥ لأبي غالب عبيد الله بن هبة الله بن الأصباغي.

وأخرج ابن جَريرٍ[١] عن السُّدِّيِّ أنَّ عبدَ اللهِ قرأ: «صَفراءَ» وقد جاء وصفُ خمرِ الدُّنيا بذلك، كما في قول أبي نُواس[٢]:

صفراءُ لا تنزل الأحزانُ ساحَتها لو مسَّها حجرٌ مسَّته سرَّاءُ

والمشهورُ أنَّ هذا بعدَ المزج، وإلَّا فهي قبله حمراءُ، كما قال الشاعر:

وحمراءَ قبل المزجِ صفراءَ بعده أتت في ثيابَيْ نرجسٍ وشقائقِ
حكت وجنةَ المحبوبِ صِرفاً فسلَّطوا عليها مِزاجاً فاكتست لونَ عاشقِ[٣]

﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٤٦﴾ وُصفت بالمصدرِ للمبالغة بجعلها نفسَ اللَّذة. وجوِّز أن تكونَ لذةٌ تأنيثَ لَذٍّ، بمعنى لذيذ، كطَبٍّ، بمعنى طبيبٍ حاذق، وأنشدوا قولَه:

ولَذٍّ كطعمِ الصَّرخديِّ تركتُه بأرض العِدَا من خشية الحَدَثانِ[٤]

يريد: وعيشٍ لذيذٍ كطعم الخمرِ المنسوبِ لصرخد بلدٍ بالشام، وفسَّره الزمخشريُّ[٥] بالنوم، وأراد أنَّه بمعنى لذيذ غلب على النوم، لا أنَّه اسمٌ جامد.

وقولَه:

بحديثك اللذِّ الذي لو كُلِّمتْ أُسدُ الفلاةِ به أتين سِراعا[٦]

وفي قوله تعالى: «للشاربين» دون: لهم، إشارةٌ إلى أنَّها يَلتذُّ بها الشاربُ كائناً مَن كان.

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي: غائلةٌ كما في خَمر الدنيا، من: غاله يغولُه: إذا أفسده. وقال الراغب[٧]: الغَول: إهلاكُ الشيءِ من حيث لا يحسُّ به، يقال: غاله يغوله

(١) في تفسيره ١٩/ ٥٣١-٥٣٢.
(٢) ديوانه ص٧.
(٣) وفيات الأعيان ٤/ ٣٢٧.
(٤) كتاب الحيوان ١/ ٢٦٦، والأمالي ١/ ٢١٠.
(٥) في الكشاف ٣/ ٣٤٠.
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤٧٢ دون نسبة.
(٧) في المفردات (غول).

غَولاً، واغتاله اغتيالاً، ومنه سمِّي السِّعلاةُ غولاً. والمرادُ هنا نفيُ أن يكونَ فيها ضررٌ أصلاً.

وروى البيهقيُّ وجماعةٌ عن ابن عباسٍ أنَّه قال في ذلك: ليس فيها صُدَاع(١).

وفي روايةِ ابن أبي حاتمٍ عنه: لا تغول عقولهم من السُّكر.

وأخرج الطستيُّ عنه أنَّ نافعَ بن الأزرقِ قال: أخبِرْني عن قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾. فقال: ليس فيها نتْنٌ ولا كراهيةٌ كخمر الدنيا، قال: وهل تعرف العربُ ذلك؟ فقال: نعم، أمَا سمعتَ قولَ أمرئِ القيس:

ربَّ كأسٍ شربتُ لا غَولَ فيها ... وسقيتُ النديمَ منها مِزاجا(٢)

وفي روايةٍ أخرى عنه أنَّه فسَّر ذلك بوجع البطن. ورُوي ذلك عن مجاهدٍ وابن زيدٍ وابن جُبَير.

واختير التعميم، وأنَّ التنصيصَ على مخصوصٍ من بابِ التمثيل. وتقديم الظرفِ ـ على ما قيل ـ للتَّخصيص، والمعنى: ليس فيها ما في خمور الدُّنيا من الغَول. وفيه كلامٌ في كتب المعاني.

﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: لا يسكرون، كما رُوي عن ابن عباسٍ وغيرِه، وهو بيانٌ لحاصل المعنى. وأصلُ النزف: نزعُ الشيءِ وإذهابُه بالتدريج، يقال: نزفتُ الماءَ من البئر: إذا نزحتَه ونزعته كلَّه منها شيئاً بعد شيء. ونزف الهمُّ دمعَه: نزعه كلَّه، ويقال: شارب نزيف، أي: نزفت الخمرُ عقلَه بالسُّكر وأَذهبته كما ينزف الرجلُ البئرَ وينزع ماءها، فكأنَّ الشاربَ ظرفٌ للعقل فنُزع منه.

فلا ينزَفون مبنيّاً للمفعول ـ كما قرأ الحِرْميَّان والعربيان(٣) ـ معناه: لا تنزع عقولهم، أي: لا تنزع الخمرُ عقولَهم ولا تُذهبها. أو الفاعلُ هو اللهُ تعالى، وتعديةُ

---

(١) البعث والنشور للبيهقي (٣٥٧)، وأخرجه أيضاً الطبري ١٩/ ٥٣٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٧٤، وأخرجه في الإتقان ١/ ٣٨٨-٣٨٩ من طريق الطستي. والبيت لم نقف عليه في الديوان.

(٣) وعاصم كما في التيسير ص١٨٦، والنشر ٢/ ٣٥٧، وكما سيأتي قريباً.

الفعلِ بـ «عن» قيل: لتضمينه معنى يَصدُرون، وقيل: «عن» للتعليل والسَّببية. وأُفرد هذا الفسادُ بالنفي وعطف على ما يعمُّه؛ لأنَّه من عِظَم فسادِه كأنَّه جنسٌ برأسه، وله سمِّيت الخمرُ: أمَّ الخبائث. والمرادُ استمرارُ النفي لا نفيُ الاستمرار.

وقرأ حمزةُ والكِسائي: «يُنزِفون» بضمِّ الياءِ وكسرِ الزاي، وتابعهما عاصمٌ في «الواقعة»، على أنَّه من: أنزفَ الشارب: إذا صار ذا نُزف، أي: عقل، أو شرابٍ نافذٍ ذاهب، فالهمزةُ فيه للصَّيرورة، وقيل: للدُّخول في الشيء؛ ولذا صار لازماً، فهو مِثل: كبَّه فأكبّ، وهو أيضاً بمعنى السُّكر؛ لنفاد عقلِ السَّكران، أو نفادِ شرابِه لكثرة شُربِه، فيلزمه عليهما السُّكر، ثم صار حقيقةً فيه، قال الأُبَيرِد اليربوعيّ[1]:

لَعمري لئن أُنزفتمُ[2] أو صحوتمُ ... لَبئس النَّدامَى كنتمُ آلَ أَبجرا

وفي «البحر»[3] أنَّ أنزف مشتركٌ بين سَكِرَ ونَفِدَ، فيقال: أَنزف الرجلُ: إذا سكر، وأنزف: إذا نَفِدَ شرابُه، وتعديةُ الفعلِ للتضمين كما سبق.

وجوِّز إرادةُ معنى النفادِ من غير إرادةِ معنى السُّكر، أي: لا ينفَد ولا يفنَى شرابُهم حتى ينغص عيشهم، وليس بذاك.

وقرأ ابنُ أبي إِسحاق: «يَنزِفون» بفتح الياءِ وكسر الزاي، وطلحةُ بفتح الياءِ وضمِّ الزاي[4]، والمرادُ في جميع ذلك نفيُ السُّكرِ على ما هو المأثورُ عن الجمهور.

ومن الغريب ما أخرج ابنُ أبي حاتمٍ وابنُ مردويه عن ابن عباسٍ قال: في الخمر أربعُ خصال: السُّكر، والصُّداع، والقيء، والبول، فنزَّه اللهُ تعالى خمرَ الجنةِ عنها، «لا فيها غولٌ» لا تغول عقولهم من السُّكر، «ولا هم عنها يُنزَفون»

(١) هو الأبيرد بن المعذَّر اليربوعي الرِّياحي، شاعر فصيح مُقِلٌّ، من شعراء الإسلام وأول دولة بني أمية. المؤتلف والمختلف ص٢٦، والأغاني ١٣/ ١٢٦، والبيت في الأغاني ١٣/ ١٣٣، والخزانة ٩/ ٣٨٨.
(٢) في مطبوع الأغاني: أُزْنِنْتُم. فليس فيه شاهد.
(٣) ٧/ ٣٥٠.
(٤) البحر ٧/ ٣٦٠.

لا يقيئون عنها كما يقيءُ صاحبُ خمرِ الدُّنيا عنها[١]. وهو أقربُ لاستعمال النزفِ في الأمور الحسِّية، كنزف البئرِ والرَّكِيَّة، وما أشبه القيءَ وإخراجَ الفضلاتِ من الجوف بنزف البئرِ وإخراجِ مائها عند نزحِها. ولولا أنَّ الجمهورَ على ما سمعتَ أوَّلاً ـ حتى ابنُ عباسٍ في أكثر الرِّواياتِ عنه ـ لَقلت: إنَّ هذا التفسيرَ هو الأَوْلى.

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قَصرنَ أبصارَهنَّ على أزواجهنّ، لا يَمددن طرفاً إلى غيرهم. قاله ابنُ عباسٍ ومجاهدٌ وابنُ زيد. فمتعلَّق القصرِ محذوف؛ للعلم به. والكلامُ إمَّا على ظاهره، أو كنايةٌ عن فَرط محبَّتِهنَّ لأزواجهنَّ وعدمِ ميلهِنَّ إلى سواهم.

وقيل: المراد: لا يفتحنَ أعينَهنَّ دلالاً وغَنَجاً.

والوصفُ على القولَين متعدٍّ، وجوِّز كونُه قاصراً، على أنَّ المعنى: ذابلاتُ الجفنِ مِراضُه، وما أُحيلَى ذبولَ الأجفان في الغواني الحِسَان؛ ولذا كثر التغزُّلُ بذلك قديماً وحديثاً، ومنه قولُ ابنِ الأزدي:

مَرِضتْ سلوتي وصحَّ غرامي ... من لحِاظٍ هي المِراضُ الصِّحاحُ

والطَّرْفُ في كلٍّ ذلك طرفُهنّ.

وجوِّز أن يكونَ الوصفُ متعدِّياً، والطرف طرفُ غيرِهنّ، والمعنى: قاصراتُ طرفِ غيرِهنَّ عن التجاوز إلى سواهنَّ؛ لغاية حُسنهنّ، فلا يتجاوزهنَّ طرفُ الناظرِ إليهنّ، كقول المتنبي:

وخصرٌ تثبت الأبصارُ فيه ... كأنَّ عليه مِن حَدَقٍ نِطاقا[٢]

وقد ذكر هذا المعنى أيضاً ابنُ رشيقٍ في قول امرئِ القيس:

من القاصرات الطَّرْفِ لو دبَّ مُحْوِلٌ ... من الذَّرِّ فوق الأنفِ[٣] منها لأثَّرا

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٧٤.
(٢) الديوان ٣/ ٤١.
(٣) في الديوان ص٦٨: الإتب، وهو ثوب رقيق له جيب وليس له كُمَّان، والمحول: الذي أتى عليه حول.

وهو لَعمري رشيق، بيد أنّي أقول: الظاهرُ هنا أنَّ العندية في مجالس الشُّرب، إتماماً للذَّة، فلعل الأوفقَ للغَيرة ـ وإنْ كانت الحظيرةُ حظيرةَ قدس ـ المعنى الأوّل، والجمهورُ قد قَصَروا الطرفَ عليه، ولا يُظَنُّ بهم أنَّهم من القاصرين.

والجملةُ قيل: عطفٌ على ما قبلَها، وقيل: في موضع الحال، أي: يطاف عليهم بكأسٍ والحالُ عندهم نساءٌ قاصراتُ الطرفِ.

﴿عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾ جمع: عَيناء، وهي الواسعةُ العينِ في جمال، ومنه قيل للبقر الوحشيّ: عِين. وقيل: العَيناء: واسعةُ العين، أي: كثيرةُ محاسنِ عينِها. والحقُّ أنَّ السَّعةَ اتساعُ الشِّقّ، والتقييدُ بالجمال يدفع ما عسى أنْ يقال. وما ألطفَ وأظرفَ ذِكر «عين» بعد «قاصرات الطرف»!.

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ البيضُ معروف، وهو اسمُ جنس، الواحدةُ بيضة، وتُجمع على بُيوض، كما في قوله:

بتيهاءَ قفرٍ والمطيُّ كأنَّها ... قطا الحَزْنِ قد كانت فِراخاً بيوضُها[١]

والمرادُ تشبيههنَّ بالبيض الذي كَنَّه الريشُ في العُشّ، أو غيرُه في غيره، فلم تمسَّه الأيدي ولم يُصبه الغبار، في الصفاء وشَوبِ البياضِ بقليلِ صُفرةٍ مع لمعانٍ كما في الدُّرّ. والأكثرون على تخصيصه ببيض النَّعامِ في الأداحيّ[٢]؛ لكونه أحسنَ منظراً من سائر البيض، وأبعدَ عن مسِّ الأيدي ووصولِ ما يغيِّر لونَه إليه.

والعربُ تشبِّه النساءَ بالبيض، ويقولون لهنَّ: بيضاتُ الخدور، ومنه قولُ امرئِ القيس:

وبيضةِ خِدرٍ لا يرام خِباؤها ... تمتَّعتُ من لهوٍ بها غيرَ مُعجَلِ[٣]

والبياضُ المشوبُ بقليل صُفرةٍ في النساءِ مرغوبٌ فيه جدّاً، قيل: وكذا البياضُ

(١) البيت لعمرو بن أحمر الباهلي، وهو في كتاب الحيوان ٥/ ٥٧٥، والمعاني الكبير ١/ ٣١٣، والخزانة ٩/ ٢٠١.

(٢) أُدْحِيُّ النعامة: موضعها الذي تفرخ فيه. الصحاح (دحو).

(٣) الديوان ص١٣.

المشوبُ بقليلِ حمرةٍ في الرِّجال، وأما البياضُ الصِّرف فغيرُ محمود؛ ولذا ورد في الحِلية الشَّريفة: أبيضُ ليس بالأمهَق[(١)].

وأخرج ابنُ المنذرِ عن ابن عباس، وهو وغيرُه عن ابن جُبير، وابنُ أبي حاتمٍ وابن جَريرٍ[(٢)] عن السُّدِّيِّ أنَّ البيضَ المكنونَ: ما تحت القِشر الصُّلبِ بينه وبين اللُّبابِ الأصفر. والمرادُ تشبيههنَّ بذلك بعد الطبخِ في النُّعومة والطَّراوة، فالبيضةُ إذا طُبخت وقُشرت، ظهر ما تحت القِشرةِ على أتمِّ نعومةٍ وأكملِ طراوة، ومن هنا تسمع العامَّةَ يقولون في مدح المرأة: كأنَّها بيضةٌ مقشَّرة، ورجَّح ذلك الطبريُّ[(٣)] بأنَّ الوصفَ بـ «مكنونٍ» يقتضيه دونَ المشهور؛ لأنَّ خارجَ قشرِ البيضةِ ليس بمكنون.

وفيه أنَّ المتبادرَ من البيض مجموعُ القشرِ وما فيه، و: أكلتُ كذا بيضةً، الأكلُ فيه قرينةُ إرادةِ ما في القِشر دون المجموع؛ إذ لا يؤكل عادةً، وحينئذٍ لا يتمُّ ما قاله الطبريّ، فالأوَّل هو المقبول، ومعنى المكنونِ فيه ظاهرٌ على ما سمعت.

وقد نقل الخفاجيُّ[(٤)] هذا المعنى عن بعض المتأخِّرين، وتعقَّبه بأنَّه ناشئٌ من عدم معرفةِ كلامِ العرب. وكأنَّه لم يقف على روايته عن الحَبر ومَن معه، وإلَّا لا يتسنَّى له ما قال، ولعل الروايةَ المذكورةَ غيرُ ثابتة، وكذا ما حكاه أبو حيَّان[(٥)] عن الحَبر من أنَّ البيضَ المكنونَ الجوهرُ المصون؛ لنبوِّ ظاهرِ اللفظِ عن ذلك.

وقالت فِرقة: المرادُ تشبيههنَّ بالبيض في تناسب الأجزاء، والبيضةُ أشدُّ الأشياءِ تناسبَ أجزاء، والتناسبُ ممدوح، ومن هنا قال بعضُ الأدباءِ متغزِّلاً:

تناسبت الأعضاءُ فيه فلا ترى ... بهنَّ اختلافاً بل أتينَ على قدر[(٦)]

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٤٧) و(٣٥٤٨) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٢) في تفسيره ١٩/ ٥٤٠.
(٣) في تفسيره ١٩/ ٥٤١.
(٤) في حاشيته ٧/ ٢٧٠.
(٥) في البحر ٧/ ٣٦٠.
(٦) البحر ٧/ ٣٦٠، والدر المصون ٩/ ٣٠٨، وفيه: تناسبت الأعضاء فيها...

وأنت تعلم ـ بعد فَرْض تسليمِ أنَّ تناسبَ الأجزاءِ في البيضة معروفٌ بينهم ـ أنَّ الوصفَ بالمكنون ممَّا لا يظهر له دخلٌ في التشبيه.

واستُشكل التشبيهُ على ما تقدَّم بآية عروسِ القرآن ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٥٨] فإنَّها ظاهرةٌ في أنَّ في ألوانهنَّ حُمرة، وأين هذا من التشبيهِ بالبيض المكنونِ على ما سمعتَ قبل، فيتعيَّن أن يرادَ التشبيهُ من حيث النعومةُ والطَّرواة كما رُوي ثانياً، أو من حيث تناسبُ الأجزاءِ كما قيل أخيراً. وأُجيب بأنَّه يجوز أن يكونَ المشبَّهاتُ بالبيض المكنونِ غيرَ المشبَّهات بالياقوت والمرجان. وكونُ البياضِ المشوبِ بالصُّفرة أحسنَ الألوانِ في النساء غيرُ مسلَّم، بل هو حسن، ومثلُه في الحُسن البياضُ المشوبُ بحمرة، على أنَّ الأحسنيةَ تختلف باختلاف طباعِ الرائين، وللناس فيما يعشقون مذاهبُ، والجنةُ فيها ما تشتهيه الأنفسُ وتلذُّ الأعين.

وقيل: يجوز أن يكونَ تشبيهُهنَّ بالبيض المكنونِ بالنظر إلى بياض أبدانهنَّ المَشُوبِ بصُفرة ما عدا وجوههنَّ، وتشبيهُهنَّ بالياقوت والمرجانِ بالنظر إلى بياض وجوهِهنَّ المشوبِ بحمرة.

وقيل: تشبيههنَّ بهذا ليس من جهة أنَّ بياضَهنَّ مشوبٌ بحمرة، بل تشبيهُهنَّ بالياقوت من حيث الصَّفاء، وبالمرجان من حيث الإملاسُ وجمالُ المنظر.

وإذا أُريد بالمرجان الدررُ الصِّغار ـ كما ذهب إليه جمع ـ دون الخرزِ المعروف، يجوز أن يكونَ التشبيهُ من حيث البياضُ المشوبُ بصُفرة، فلا إشكالَ أصلاً.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾ معطوفٌ على «يطاف» وما بينهما معترِض، أو من متعلّقات الأوّل، أي: يشربون فيتحادثون على الشُّرب، كما هو عادةُ المجتمعين عليه، قال محمد بنُ فيَّاض[1]:

(١) كذا في حاشية الشهاب ٧/ ٢٧٠-٢٧١. ونسبهما صاحب يتيمة الدهر ١/ ١٣٠-١٣٢ لأبي محمد عبد الله بن عمرو بن محمد الفياض، كاتب سيف الدولة ونديمه. وكذا في سلك الدرر ٤/ ١٨٩. وفي ثمار القلوب ص٥٦٥: أبو محمد البياضي.

وما بَقِيت من اللذَّات إلَّا مُحادثةُ الكرامِ على الشَّرابِ
ولثمُكَ وجنتَي قمرٍ منيرٍ يجول بوجهه ماءُ الشبابِ

وعبَّر بالماضي مع أنَّ المعطوفَ عليه مضارع؛ للإشعار بالاعتناءِ بهذا المعطوفِ بالنِّسبة إلى المعطوفِ عليه، فكيف لا يُقبلون على الحديثِ وهو أعظمُ لذَّاتهم التي يتعاطَونها، مع ما في ذلك من الإشارة إلى تحقُّق الوقوع حتماً، وتساؤلِهم عن المعارف والفضائلِ وما جرى لهم وعليهم في الدُّنيا، وما أحلى تذكُّرَ ما فات عند رفاهيةِ الحالِ وفراغِ البال.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ في تضاعيف محاورتِهم: ﴿إِنِّي كَانَ لِي﴾ في الدُّنيا ﴿قَرِينٌ ۝٥١﴾ مُصاحِبٌ ﴿يَقُولُ﴾ لي على طريق التوبيخِ بما كنتُ عليه من الإيمان والتصديقِ بالبعث المفضي إلى ما أنا عليه اليومَ: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢﴾ أي: بالبعث، كما يُنبئ عنه قولُه سبحانه: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣﴾ أي: لَمبعوثون ومجازَون، من الدِّين بمعنى الجزاء. وقيل: لَمسوسون مربوبون، من: دانه: إذا ساسَه، ومنه الحديثُ: «العاقلُ مَن دان نفسَه»[1].

وقُرئ: «المصَّدِّقين» بتشديد الصادِ، من التصدُّق[2].

واعتُرضت هذه القراءةُ بأنَّ الكلامَ عليها لا يلائم قولَه سبحانه: (أَءِذَا مِتْنَا) إلخ.

وتعقِّب بأنَّ فيه غفلةً عن سبب النُّزول، أخرج عبدُ الرزاق[3] وابنُ المنذر عن عطاءٍ الخراسانيِّ قال: كان رجلان شريكان، وكان لهما ثمانيةُ آلافِ دينارٍ، فاقتسماها، فعَمَدَ أكبرُهما فاشترى بألف دينارٍ أرضاً، فقال صاحبُه: اللهمَّ إنَّ فلاناً اشترى بألف دينارٍ أرضاً، وإنِّي أشتري منك بألف دينارٍ أرضاً في الجنة، فتصدَّق بألف دينار، ثم ابتنى صاحبُه داراً بألف دينار، فقال: اللهم إنَّ فلاناً قد

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٢٣)، والترمذي (٢٤٥٩) وحسَّنه، وابن ماجه (٤٢٦٠) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه، ولفظه عندهم: «الكيِّس..» وفي إسناده أبو بكر بن أبي مريم، وهو ضعيف.

(٢) البحر ٧/ ٣٦٠.

(٣) في تفسيره ٢/ ١٤٩ مختصراً، والكلام من الدر المنثور ٥/ ٢٧٥.

ابتنى داراً بألف دينار، وإنِّي أَشتري منك في الجنة داراً بألف دينار، فتصدَّق بألف دينار، ثم تزوَّج امرأةً فأنفق عليها ألفَ دينار، فقال: اللهمَّ إنَّ فلاناً تزوَّج امرأةً فأنفق عليها ألفَ دينار، وإني أَخطُب إليك من نساءِ الجنةِ بألف دينار، فتصدَّق بألف دينار، ثمَّ اشترى خدماً ومتاعاً بألفِ دينار، فقال: اللهمَّ إنَّ فلاناً اشترى خدماً ومتاعاً بألفِ دينار، وإني أَشتري منك خدماً ومتاعاً في الجنَّة بألف دينار، فتصدَّق بألف دينار، ثم أَصابته حاجةٌ شديدة، فقال: لو أتيتُ صاحبي هذا لعلَّه ينالني منه معروف، فجلس على طريقه حتى مرَّ به في حَشَمه وأهلِه، فقام إليه، فنظر الآخرُ فعرفه، فقال: فلان، قال: نعم، فقال: ما شأنُك؟ فقال: أصابتني بعدَك حاجة، فأتيتك لتصيبَني بخير، قال: فما فعلتَ بمالك؟ فقصَّ عليه القصَّة، فقال: أئنَّك لَمن المصدِّقين بهذا؟ اذهب فوالله لا أُعطيك شيئاً، فردَّه، فقضي لهما أن توفَّيا، فكان مآلُ المتصدِّقِ الجنةَ ومآلُ الآخَرِ النار، وفيهما نزلت الآية.

وقيل: هما أَخوان ورثا ثمانيةَ آلافِ دينارٍ واقتسماها، فكان من خبرِهما ما كان، وكان الاثنانِ من بني إسرائيل.

وهذا السببُ يدلُّ على أنَّ أحدَهما كان مصدِّقاً ومتصدِّقاً أيضاً، والآخَرَ ـ وهو القرين ـ أنكر عليه أنَّه أنفق ليجازَى على إنفاقه بما هو أعظمُ وأبقَى، فقد ضيَّع بزعمه مالَه فيما لا أصلَ له، وهو الجزاءُ الأخرويّ، ولا يكونُ هذا بدون البعث؛ فلذا أَنكره. وليت شِعري كيف يتوهَّم عدمُ الملاءمةِ مع قوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ ولعلَه أَنسبُ بتلك القراءة.

وحاصلُ المعنى: أنت المتصدِّق طلباً للجزاءِ في الآخرة، فهل نحن بعد ما نفنَى نُبعث ونجازَى؟ وذِكرُ العظامِ مع التُّراب مع أنَّ ذكرَ الترابِ يكفي ويُغني عن ذلك؛ لتصوير حالِ ما يشاهده ذلك الشخصُ من الأجساد البالية، من مصير اللحمِ وغيرِهِ تراباً عليه عظامٌ نَخِرة؛ ليذكِّرَه ويُخْطِرَ بباله ما ينافي مدَّعاه. وكونُه للتنزُّل في الإنكار أو للتأكيد، لا يرجِّحه بل يجوِّزه.

﴿قَالَ﴾ أي: ذلك القائلُ الذي كان له قرينٌ لجلسائه بعد ما حكى لهم مقالةَ قرينِه له في الدنيا: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾ على أهل النارِ لأُريَكم ذلك القرينَ الذي قال لي ما حكيتُ لكم.

والمرادُ من الاستفهامِ العرض، أو الأمرُ على ما قيل. والغرضُ من ذلك إراءتُهم سوءَ حالِ القرين ليؤنسَهم نوعَ إيناس. وقيل: يريد بذلك بيانَ صدقِه فيما حكاه. ولا يخفى أنَّ ظنَّ الكذبِ في غاية البعد.

واطِّلاعُ أهلِ الجنةِ على أهل النارِ ومعرفةُ مَن فيها مع ما بينهما من التباعد غيرُ بعيد، بأن يخلقَ اللهُ تعالى فيهم حدَّة نظرٍ ويعرِّفَهم مَن أرادوا الاطِّلاع عليه، ولعلهم إذا أرادوا ذلك، وقفوا على الأعراف فاطَّلعوا على مَن أرادوا من أهل النَّار. وقيل: إنَّ لهم طاقاتٍ في الجنَّة ينظرون منها من علوٍّ إلى أهل النَّار.

وعَلِمَ القائلُ بأنَّ القرينَ من أهل النارِ لعلمه بأنَّه كان يُنكر البعث، ومنكرُه منهم قطعاً، والأصلُ بقاؤه على الكفر. وقيل: علم ذلك بإخبار الملائكةِ عليهم السلام إيَّاه.

وقيل: قائلُ: «هل أنتم..» إلخ هو اللهُ تعالى، أو بعضُ الملائكةِ عليهم السلام يقول للمتحادثين من أهل الجنَّة: هل تحبُّون أن تطَّلعوا على أهل النارِ لأُريَكم ذلك القرينَ فتعلموا أين منزلتُكم من منزلتهم.

وقيل: القائلُ مَن كان له قرين، والمخاطَبون بـ «أنتم» الملائكةُ عليهم السلام، وفي الكلامِ حذف، كأنَّه قيل: فقال لهذا القائلِ حاضروه من الملائكة: قرينُك هذا يعذَّب في النار، فقال للملائكة الذين أخبروه: هل أنتم مطَّلعون. ولا يخفَى ما فيه.

﴿فَاطَّلَعَ﴾ أي: على أهل النَّار ﴿فَرَءَاهُ﴾ أي: فرأى قرينَه ﴿فِى سَوَآءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ أي: في وسطها، ومنه قولُ عيسى بن عمرَ لأبي عُبيدة: كنت أكتب حتى ينقطعَ سَوائي. وسمِّي الوسَطُ سواءً لاستواءِ المسافةِ منه إلى الجوانب.

وقرأ أبو عَمرٍو في رواية حسينٍ الجُعفي: «مُطْلِعونَ» بإسكان الطاءِ وفتحِ النون «فأُطْلِعَ» بضمِّ الهمزةِ وسكونِ الطاءِ وكسرِ اللام، فعلاً ماضياً مبنيّاً للمفعول. وهي قراءةُ ابنِ عباس، وابنِ محيصن، وعمارِ بن أبي عمار، وأبي سرَّاج.

وقُرئ: «مُطَّلعون» مشدَّداً «فأطَّلِعَ» مشدَّداً أيضاً، مضارعاً منصوباً على جوابِ الاستفهام.

وقُرئ: «مُطْلِعون» بالتخفيف «فأَطْلَعَ» مخفَّفاً، فعلاً ماضياً، و: «فأُطْلِعَ» مخفَّفاً مضارعاً منصوباً.

وقرأ أبو البرهسم، وعمارُ بن أبي عمارٍ فيما ذكره خَلَفٌ عنه: «مُطْلِعونِ» بتخفيف الطاءِ وكسرِ النُّون «فأُطْلِعَ» ماضياً مبنيّاً للمفعول[1]. وردَّ هذه القراءةَ أبو حاتمٍ وغيرُه؛ لجمعها بين نونِ الجمعِ وياءِ المتكلِّم، والوجه: مُطْلِعيَّ، كما قال عليه الصلاةُ والسلام: «أوَمُخرِجِيَّ هم»[2]، ووجَّهها أبو الفتحِ[3] على تنزيل اسمِ الفاعلِ منزلةَ المضارع، فيقال عنده: ضاربونه، مثلاً، كما يقال: يضربونه، وعليه قولُه:

هم الآمِرون الخيرَ والفاعلونَهُ إذا ما خشُوا مِن مُحدَث الدهرِ مُعظَما[4]

وأنشد الطبريُّ[5] قولَ الشاعر:

وما أدري وظنِّي كلّ ظنٍّ أَمُسلمني إلى قومي شَراحي[6]

ومثلُه قولُ الآخَر:

فهل فتًى من سَرَاة الحيِّ يحملني وليس حاملُني إلَّا ابنُ حمَّالِ[7]

---

(١) ذكر هذه القراءات صاحب البحر ٧/ ٣٦١، وليس في المتواتر منها شيء، والقراءة الأولى في القراءات الشاذة ص١٢٧-١٢٨، والمحتسب ٢/ ٢١٩-٢٢٠.

(٢) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٣) في المحتسب ٢/ ٢٢٠.

(٤) البيت في الكتاب ١/ ١٨٨، والخزانة ٤/ ٢٦٦ دون نسبة.

(٥) في تفسيره ١٩/ ٥٤٩، وذكره أيضاً الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٨٦، وقال البغدادي في شرح شواهد المغني ٦/ ٥٧: لم أقف على قائله، وقال العيني: قائله يزيد بن مخرم الحارثي. اهـ.

(٦) في هامش الأصل: قال الفراء [٢/ ٣٨٦]: يريد: شراحيل. اهـ منه.

(٧) الإنصاف ١/ ١٢٩، والبحر المحيط ٧/ ٣٦١، وعزاه المبرد في الكامل لأبي مُحلّم السَّعدي برواية:

أَلَا فتًى من بني ذُبيانَ يحملُني وليس يحملُني إلا ابنُ حَمَّالِ

وهذه النونُ عند جمعٍ نونُ الوقاية، أُلحقت مع الوصف حملاً له على الفعل، وليست مثلَ النونِ في القراءة وفي البيت، وإنْ كان إلحاقُ كلٍّ للحمل.

وقال بعضُهم: إنَّها نونُ التنوين؛ وحرِّكت لالتقاء السَّاكنين. ورُدَّ بأنه سمع إلحاقُها مع «أل»، كقوله:

وليس الموافيني[1] ...............

ومع أفعل التفضيل، كما وقع في الحديث: «غيرُ الدجَّالِ أَخوفُني عليكم»[2]. ويُعلَم من هذا عدمُ اختصاصِ إلحاقها بالشِّعر، نعم هو في غيرِه قليل.

وضعَّف بعضُهم ما وجَّه به أبو الفتحِ وقال: إنَّ ذلك لا يقع إلَّا في الشِّعر. وخرِّجت أيضاً على أنَّها من وضع المتصلِ موضعَ المنفصل، وأُريد بذلك أنَّ الأصل: مطلعونَ إياي، ثم جعل المنفصلُ متصلاً، فقيل: مطلعوني، ثم حُذفت الياءُ واكتُفي عنها بالكسرة، كما في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: ١٨] ومثلُه يقال في: الفاعلونه، في البيت السَّابق.

وردَّ ذلك أبو حيَّان[3] بأنَّ ما ذكر ليس من محالِّ المنفصلِ حتى يدَّعي أنَّ المتصلَ وقع موقعَه، وادَّعى أَولويةَ تخريجِ أبي الفتح، والبيتُ قيل: مصنوعٌ لا يصحُّ الاستشهادُ به، وقيل: إنَّ الهاءَ هاءُ السكت، حرِّكت للضَّرورة. وهو فرارٌ من ضرورةٍ لأخرى؛ إذ تحريكُها وإثباتُها في الوصل غيرُ جائز.

وللنُّحاة في مسألة إثبات النونِ مع إضافة الوصفِ إلى الضمير كلامٌ طويل، حاصلُه أنَّ نحو: ضاربُك وضارباك وضاربوك، ذهب سيبويه[4] إلى أنَّ الضميرَ فيه في محلِّ جرٍّ بالإضافة؛ ولذا حُذف التنوينُ ونونُ التثنيةِ والجمع. وذهب الأخفشُ

---

(١) الدر المصون ٩/ ٣١١، والمغني ص٤٥١، وشرح الأشموني ١/ ١٢٦ وتمامه:

وليس الموافيني ليُرفَدَ خائباً ... فإنَّ له أضعافَ ما كان أمَّلا

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٣٧) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه مطولاً.

(٣) في البحر ٧/ ٣٦١.

(٤) انظر الكتاب ١/ ١٨٤ فما بعد.

وهشامٌ إلى أنَّ الضميرَ في محلِّ نصب، وحذفهمُا للتخفيف، حتى وردتا ثابتين، كما في: الفاعلونه، و: أَمُسلمني، فالنونُ عندهما في الأخير ونحوِه تنوينٌ حرِّك لالتقاء السَّاكنين. وقد سمعتَ ما فيه. وحديثُ الحملِ على الفعل ـ على العِلَّات ـ أحسنُ ما قيل في التوجيه.

هذا، وطلع واطَّلع ـ بالتشديد ـ وأَطلع ـ بالتخفيف ـ بمعنًى واحد، والكلُّ لازم، ويجيءُ الإِطلاعُ متعدِّياً، يقال: أَطلعه على كذا فاطَّلع. و«مُطْلِعونَ» في قراءة أبي عَمرٍو بمعنى «مُطَّلعون» ـ بالتشديد ـ ونائبُ فاعلِ «أُطْلِعَ» ضميرُ القائل، والفاعلُ هم المخاطَبون، وإِطلاعُهم اياه باعتبار التسبُّب، كأنه لمَّا أراد الاطِّلاعَ وأحبَّ أَلَّا يستبدَّ به أدباً، عرض عليهم أن يطَّلعوا، فرغبوا واطَّلعوا، فكان ذلك وسيلةً إلى اطِّلاعه، فكأنَّهم هم الذين أَطلعوه، ففاء «فأُطْلِعَ» فصيحة، والعطفُ على مقدَّر.

والمعنى على القراءةِ التي بعدها: هل أنتم مطَّلعون حتى أَطَّلعَ أنا أيضاً؟ فاطَّلعوا واطَّلع هو بعد ذلك، فرآه في سواءِ الجحيم. ولا بدَّ من تقديرِ اطَّلعَ بعد ذلك؛ ليصلحَ ترتُّبُ «فرآه» على ما قبلَه، و«هل أنتم مطلعون» عليه بمعنى الأَمر، تأدُّباً ومبالغة.

وعلى القراءةِ الثانية، وهي قراءةُ التخفيفِ في الكلمتين والثانيةُ فعلٌ ماض، المعنى كما في قراءةِ الجمهور. وكذا على قراءةِ التي بعدها.

وعلى قراءة أبي البرهسمِ ومَن معه: هل أنتم مُطلعيّ؟ فأَطلعوه فرآه.. إلخ، وإِطلاعُهم إيَّاه ـ إذا كان الخطابُ للجلساء ـ بطريق التسبُّب، كأنَّه طلب أن يطَّلعوا ليوافقَهم فيطَّلع، وهو إذا كان الخطابُ للملائكة عليهم السلامُ على ما يتبادر إلى الذِّهن.

وعن صاحب «اللوامح» أنَّ طلع واطَّلع [إذا بدا وظهر، وأَطْلَعَ] إطْلاعاً بمعنى: أَقبلَ وجاء، والقائمُ مقامَ الفاعلِ على قراءة «أُطلِع» مبنيّاً للمفعول ضميرُ المصدر، أو جارٌّ ومجرورٌ محذوفان، أي: أُطلع به؛ لأنَّ أَطلع لازمٌ كأقبل.

وقد علمتَ أنَّ أطلعَ يجيء متعدِّياً، كأطلعتُ زيداً. وردَّ أبو حيَّان[(١)] الاحتمالَ الثانيَ بأنَّ نائبَ الفاعلِ لا يجوز حذفُه كالفاعل. فتأمَّل جميعَ ما ذكرنا ولا تغفُل.

﴿قَالَ﴾ أي: القائلُ لقرينه ﴿تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾﴾ أي: لتُهلكني. وفي قراءة عبدِ الله: «لَتُغْوِينِ»[(٢)].

و«إن» مخفَّفة من الثقيلة، واللامُ هي الفارقة. وفي «البحر»[(٣)] أنَّ القَسَمَ فيه التعجُّبُ من سلامته منه، إذ كان قرينُه قارَبَ أن يُرديَه.

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ عليّ، وهي التوفيقُ والعصمة ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ للعذاب، كما أُحضرتَه أنت وأضرابُك.

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾﴾ إلخ، رجوعٌ إلى محاورةِ جلسائه بعد إتمام الكلامِ مع قرينه، تبجُّحاً وابتهاجاً بما أتاح اللهُ تعالى له من الفضل العظيمِ والنعيمِ المقيم، وتعريضاً للقرين بالتوبيخ. وجوِّز أن يكونَ من كلامِ المتسائلين جميعاً، وأن يكونَ من تتمَّة كلامِ القائلِ يُسْمِعُ قرينَه على جهة التوبيخِ له. واختير الأوَّل.

والهمزةُ للتقرير، وفيها معنى التعجُّب، والفاءُ للعطف على مقدَّرٍ يقتضيه نظمُ الكلام، على ما ذهب إليه الزمخشريُّ[(٤)] ومتَّبعوه، أي: أنحن مخلَّدون فما نحن بميِّتين؟ أي: ممَّن شأنُه الموت، كما يؤذِن به الصفةُ المشبَّهة.

وقرئ: «بمائتين»[(٥)].

﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ﴾ التي كانت في الدُّنيا. وهي متناولةٌ عند أهل السنَّة لمَا في القبر بعد الإِحياءِ للسؤال؛ لعدم الاعتدادِ بالحياة فيه، لكونها غيرَ تامَّةٍ ولا قارَّة، وزمانُها قليلٌ جدّاً.

---

(١) في البحر ٧/ ٣٦١-٣٦٢، وما سلف بين حاصرتين منه.
(٢) الكشاف ٣/ ٣٤١.
(٣) ٧/ ٣٦٢.
(٤) في الكشاف ٣/ ٣٤١.
(٥) البحر ٧/ ٣٦٢.

والاستثناءُ مفرَّغ من مصدرٍ مقدَّر، كأنَّه قيل: أَفما نحن بميِّتين موتةً إلَّا موتَتَنا الأُولى؟ وجوِّز أن يكونَ منقطعاً، أي: لكن الموتة الأُولى كانت لنا في الدُّنيا.

وعلمُهم بأنَّهم لا يموتون ناشئٌ من إخبار أَنبيائهم لهم في الدُّنيا، وإعلامِهم إيَّاهم بأنَّ أهلَ الجنةِ لا يموتون، أو من قول الملائكةِ عليهم السلام لهم حين دخولِ الجنَّة: ﴿طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] وقولِهم: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦].

وقيل: إنَّ أهلَ الجنةِ أولَ ما دخلوا لا يعلمون أنَّهم لا يموتون، فإذا جيءَ بالموت على صورة كَبشٍ أَملحَ وذبح، فنودي: يا أهلَ الجنة، خلودٌ بلا موت، ويا أهلَ النار، خلودٌ بلا موت[1]، فحينئذٍ يعلمونه، فيقولون ذلك تحدُّثاً بنعمة اللهِ تعالى واغتباطاً بها. ولا يخفَى أنَّ كونَ هذا القولِ المحكيِّ هنا عند علمِهم بعدم الموتِ من ذبحه بعيدٌ في هذا المقام، والظاهرُ أنَّ هذا بعد الاطِّلاعِ والكلامِ مع القرين.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾ كأصحاب النار. والمرادُ استمرارُ النفيِ وتأكيدُه، وكذا فيما تقدَّم، واستمرارُ هذا النفيِ نعمةٌ جليلة، وهو متضمِّن نفيَ زوالِ نعيمهم المحكيِّ في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ الآيات [الصافات: ٤١]، فإنَّ زوالَ النعيمِ نوعٌ من العذاب، بل هو من أعظم أنواعِه، بل تصوُّر الزوالِ عذابٌ أيضاً لا يلذُّ معه عيش؛ ولذا قيل:

إذا شئتَ أن تحيا حياةً هنيَّةً ... فلا تتَّخذ شيئاً تخاف له فقدا

وكذا يتضمَّن نفيَ الهرمِ واختلالِ القُوى الذي يوهمه نفيُ الموت؛ فإنَّ ذلك نوعٌ من العذاب أيضاً، وكأنَّه إنَّما اختير التعرُّض لاستمرار نفيِ العذابِ دون إثبات استمرارِ النعيم؛ لأنَّ نفيَ العذابِ أسرعُ خطوراً ببال مَن لم يعذَّب عند مشاهدةِ مَن يعذَّب. وقيل: إنَّ ذاك لأنَّ درءَ الضررِ أهمُّ من جلب المنفعة.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ الظاهرُ أنَّ الإشارةَ إلى ما أُخبروا به من استمرار نفيِ الموتِ واستمرارِ نفي التعذيبِ عنهم. ويجوز أن تكونَ إشارةً إلى ما هم فيه من

---

(١) حديث سلف ١/ ٤٨٥.

النَّعيم مع استمرارِ النَّفيين، فإذا كان الكلامُ من تتمَّة كلامِ القائل: «أفما نحن بميتين» إلخ، فهو متضمِّن إشارةَ ذلك القائل إلى ظهور النَّعيم، ويكون تركُ التعرُّضِ للتصريح به؛ للاستغناءِ بذلك الظُّهور.

وجوَّز أن يكونَ هذا كلامَه تعالى، قاله سبحانه تقريراً لقول ذلك القائلِ وتصديقاً له، مخاطباً جلَّ وعلا به حبيبَه عليه الصلاة والسلام وأمَّتَه، والتأكيدُ للاعتناءِ بشأن الخبر.

وقُرئ: «لَهو الرِّزقُ العظيمُ»(١) وهو ما رزقوه من السَّعادة العُظمى.

﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: لنيل مثلِ هذا الأمرِ الجليلِ ينبغي أن يَعملَ العاملون، لا للحظوظ الدُّنيويةِ السريعةِ الانصرام، المشوبةِ بفنون الآلام، فتقديمُ الجارِّ والمجرور للحصر. و«هذا» إن كان إشارةً إلى مشخَّصٍ من حيث تشخُّصُه، فـ «مِثل» غيرُ مقحَمة، وإنْ كان إشارةً إلى الجنس، فهي مقحَمة، كما في: مِثْلك لا يبخل.

والكلامُ يحتمل أن يكونَ من تتمَّة كلامِ القائل، ولا يعكِّر عليه أنَّ الآخرةَ ليست بدار عمل؛ إذ ليس المرادُ الأمرَ بالعمل فيها، ويحتمل أن يكونَ من كلامه عزَّ وجلَّ.

وأما قوله سبحانه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾ فمن كلامه جلَّ وعلا عند الأكثرين، وهو متعلِّق بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الآية: ٤١] والقصَّةُ بينهما ذُكرت بطريق الاستطراد، فالإشارةُ إلى الرِّزق المعلوم.

وزعم بعضُهم جوازَ كونِه من كلام القائلِ السابق، وما هو من كلامه عزَّ وجلَّ قطعاً هو ما يأتي إن شاء الله تعالى.

وأصلُ النُّزُل: الفضل، والرَّيعُ في الطعام، ويستعمل في الحاصل من الشيء، ومنه: العسلُ ليس من إنزال الأرض، أي: ممَّا يحصل منها، وقولُ الشافعيِّ: لا يجب في العسل العُشر؛ لأنَّه نُزُلُ طائر، ويقال لما يُعدُّ للنازل من الرِّزق.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٤٢.

والزقُّوم: اسمُ شجرةٍ صغيرةِ الورق، مُرَّةٍ كريهةِ الرائحة، ذاتِ لبن، إذا أصاب جسدَ إنسانٍ تورَّم، تكون في تِهامةَ وفي البلاد المُجدبةِ المجاورةِ للصحراء، سمِّيت بها الشجرةُ الموصوفةُ بما في الآية.

وكلا المعنيين للنُّزل محتمل هنا، بيدَ أنَّه يتعيَّن على الأوَّل انتصابُه على التمييز، أي: أذلك الرِّزقُ المعلومُ الذي حاصلُه اللَّذة والسرورُ خيرٌ نزلاً وحاصلاً أم شجرةُ الزقُّوم التي حاصلُها الألمُ والغَمّ؟ ومعنى التفاضلِ بين النُّزلين التوبيخُ والتهكُّم، وهو أسلوبٌ كثيرُ الوردِ في القرآن، والحملُ على المشاكلة جائز.

وعلى الثاني الظاهرُ انتصابُه على الحال، والمعنى أنَّ الرِّزقَ المعلومَ نزلُ أهلِ الجنة، وأهلُ النارِ نزلُهم شجرةُ الزقُّوم، فأيُّهما خيرٌ حالَ كونِه نزلاً؟ وفيه ما مرَّ من التهكُّم.

والحملُ على التمييز لا مانعَ منه لفظاً، كما في نحو: هم أَكفاهم ناصراً، ولكنَّ المعنى على الحال أَسدّ؛ لأنَّ المعنى المفاضلةُ بين تلك الفواكهِ وهذا الطعامِ في هذه الحال، لا التفاضلُ بينهما في الوصف، وإنَّ ذلك في النُّزُليَّة أدخلُ من الآخَر، فافهم.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾ محنةً وعذاباً لهم في الآخرة، وابتلاءً في الدنيا؛ فإنَّهم لمَّا سمعوا أنَّها في النار، قالوا: كيف يُمكن ذلك والنارُ تحرق الشَّجر، كذا قال أبو جهل، ثم قال استخفافاً بأمرها لا إنكاراً للمدلول اللغويّ: واللهِ ما نعلم الزقُّومَ إلَّا التمرَ والزُّبد فتزقَّموا. ولم يعلموا أنَّ مَن قَدَرَ على خلق حَيَوانٍ يعيش في النار ويتلذَّذ بها، أقدرُ على خلق الشجرِ في النارِ وحفظهِ من الإحراق، فالنارُ لا تُحرق إلَّا بإذنه، أو أنَّ الإحراقَ عندها لا بها.

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾ منبتُها في قعر النار، وأغصانُها ترتفع إلى دَرَكاتها. وقُرئ: «نابتةٌ في أصلِ الجحيم»(١).

﴿طَلْعُهَا﴾ أي: حملُها، وأصلُه: طلع النَّخل، وهو أولُ ما يبدو وقبل أن تخرجَ شماريخُه، أبيضُ غضٌّ مستطيلٌ كاللَّوز، سُمِّي به حملُ هذه الشَّجرة، إمَّا لأنه

(١) الكشاف ٣/ ٣٤٢.

يشابهه في الشَّكل. أو الطُّلوع، ولعله الأولى؛ لمكان التشبيهِ بعد، فيكون استعارةً تصريحية، أو لاستعماله بمعنى ما يطلع مطلقاً، فيكون كالمَرسن[1] للأنف، فهو مجازٌ مرسل.

﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ أي: في تناهي الكراهةِ وقُبحِ المنظر، والعرب تشبِّه القبيحَ الصورةِ بالشَّيطان، فيقولون: كأنَّه وجهُ شيطان، أو رأسُ شيطان، وإن لم يروه؛ لمَا أنَّه مستقبحٌ جدّاً في طباعهم، لاعتقادهم أنَّه شرٌّ محضٌ لا يخلِطه خير، فيرتسم في خيالهم بأقبحِ صورة، ومن ذلك قولُ امرئِ القيس:

أتقتلُني والمَشرَفيُّ مُضاجعي ومسنونةٌ زُرْقٌ كأنيابِ أغوالِ[2]

فشبَّه بأنياب الأغوال ـ وهي نوعٌ من الشياطين ـ ولم يرها؛ لِمَا ارتسم في خيالِه، وعلى عكس هذا تشبيهُهم الصورةَ الحسنةَ بالمَلَك، وذلك أنَّهم اعتقدوا فيه أنَّه خيرٌ محضٌ لا شرَّ فيه، فارتسم في خيالِهم بأحسنِ صورة، وعليه قولُه تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١] وبهذا يُردُّ على بعض الملاحدةِ حيث طعن في هذا التشبيهِ بأنَّه تشبيهٌ بما لا يعرف، وحاصلُه أنَّه لا يشترط أن يكونَ معروفاً في الخارج، بل يكفي كونُه مركوزاً في الذِّهن والخيال.

وحملُ التشبيهِ في الآية على ما ذُكر هو المرويُّ عن ابن عباسٍ ومحمدِ بن كعب القرظيِّ وغيرهما، وزعم الجبَّائيُّ أنَّ الشياطينَ حين يدخلون النارَ تشوَّه صورُهم جدّاً وتستبشع أعضاؤهم، فالمرادُ: كأنَّه رؤوسُ الشياطينِ الذين في النَّار. وفيه أنَّ التشبيهَ عليه أيضاً غيرُ معروفٍ في الخارج عند النُّزول.

وقيل: «رؤوسُ الشياطين» شجرةٌ معروفةٌ تكون بناحية اليمنِ منكَرةُ الصورة، يقال لها: الأستَن، وإيَّاها عنَى النابغةُ بقوله:

تَحيدُ عن أستَنٍ سودٍ أسافلُهُ مِثلَ الإماءِ الغوادي تحمل الحُزَما[3]

---

(١) في (م): كالمرسل.

(٢) الديوان ص٣٣. والمشرفي: سيف نسب إلى قرى بالشام يقال لها: المشارف، وأراد بالمسنونة الزرق سهاماً محدَّدةَ الأزجَّة صافية.

(٣) الديوان ص١٠٣.

قال الأصمعيّ: ويقال لها: الصَّوم، وأنشد:

مـوكَّـلٌ بـشُـدوف الـصـومِ يـرقـبـهُ     من المغارب مهضومُ الحشا زَرِمُ(١)

وقيل: الشياطين: جنسٌ من الحيَّات ذواتُ أعراف، وأنشد الفرَّاء:

عـجـيـز(٢) تـحـلـفُ حـيـن أحـلـفُ     كـمـثـل شيـطـانِ الـحَـمَـاطِ(٣) أعـرَفُ

أي: له عرف. وأنشد المبرِّد(٤):

وفـي الـبـقـل إنْ لـم يـدفـع اللهُ شـرَّه     شياطينُ يعدو بعضُهنَّ على بعضِ

﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾ تفريعٌ على جَعْلِها فتنةً، أي: محنةً وعذاباً للظالمين. وضميرُ المؤنَّث للشَّجرة، و«مِن» ابتدائيةٌ أو تبعيضية، وهناك مضافٌ مقدَّر، أي: مِن طلعِها. وقيل: «مِن» تبعيضيَّة، والضميرُ للطلع، وأنِّث لإضافته إلى المؤنَّث، أو لتأويله بالثَّمرة، أو للشَّجرة على التجوُّز. ولا يخلو كلٌّ عن بُعدٍ ما.

﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾ لغلبة الجوعِ وإنْ كرهوها، أو للقَسرِ على أكلها.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ أي: على الشَّجرة التي ملؤوا منها بطونَهم ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ أي: لشراباً ممزوجاً بماءٍ شديدِ الحرارة. وهذا الشرابُ هو الغسَّاق، أي: ما يقطر من جراح أهلِ النارِ وجلودِهم. وقيل: هذا هو الصَّديد، وأما الغسَّاق: فعينٌ في النار تسيل إليها سمومُ الحيَّاتِ والعقارب، أو دموعُ الكفرةِ فيها، وشُربُهم ذلك لغَلَبة عطشِهم بما أكلوا من الشجرة، فإذا شربوا تقطَّعت أمعاؤهم.

---

(١) البيت لساعدة بن جؤية، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٩٤، وفيه: مخطوف الحشا. وجاء في هامش الأصل: يصف وعلاً يظن هذا الشجر قنّاصاً، فهو يرقبه، والشدوف: الشخوص، واحدها: شدف. اهـ منه. والزَّرِم: هنا معناه: الذي لا يثبت في مكان. اللسان (زرم).

(٢) كذا في البحر ٧/ ٣٦٣. وفي معاني القرآن ٢/ ٣٨٧، وثمار القلوب ص٤٢٢: عَنْجَرِد. وهي المرأة الخبيثة السيئة الخلق، كما في تهذيب اللغة ٣/ ٣٦٩-٣٧٠، واللسان والتاج (عنجرد) عند ذكر هذا البيت.

(٣) الحماط: نبت.

(٤) في الكامل ٢/ ٩٩٩.

وقُرئ: «لَشُوباً» بضمِّ الشين[1]، وهو اسمٌ لِمَا يشاب به، وعلى الأوَّل هو مصدرٌ سمِّي به.

وكلمة «ثم» قيل: للتَّراخي الزمانيّ، وذلك أنَّه بعد أن يملؤوا البطونَ من تلك الشَّجرة يعطشون، ويؤخَّر سقيُهم زماناً؛ ليزدادَ عطشُهم فيزدادَ عذابُهم.

واعتُرض بأنَّه يأباه عطفُ الشربِ بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾﴾ فلا بدَّ من عدم توسُّطِ زمان.

وأُجيب بأنَّه يجوز أن يكونَ شربُ الشرابِ الممزوجِ بالحميم متأخِّراً بزمانٍ عن ملئهم البطونَ دون شربِ الحميمِ وحده، وكذا يجوز أن يكونَ الحالُ مختلفاً، فتارةً يتأخَّر الشربُ مطلقاً زماناً، وأخرى لا يتأخَّر كذلك. وقال بعضُهم: ملؤهم البطونَ أمرٌ ممتدّ، فباعتبار ابتدائه يُعطف بـ «ثمّ»، وباعتبار انتهائه بالفاء.

وجوِّز كونُ «ثم» للتراخي الرُّتْبي؛ لأنَّ شرابَهم أشنعُ من مأكولهم بكثير، وعطف مَلئهم البطونَ بالفاء لأنَّه يعقب ما قبله، ولا يَحسُن فيه اعتبارُ التفاوتِ الرتبيِّ حُسنَه في شُربِ الشرابِ المشوبِ بالحميم مع الأكل.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ أي: مصيرَهم، وقد قُرئ كذلك، وقرئ أيضاً: «ثم إنَّ مَنفذَهم»[2].

﴿لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ أي: إلى مقرِّهم من النار؛ فإنَّ في جهنمَ مواضعَ أُعدَّ في كلِّ موضعٍ منها نوعٌ من البَلاء، فالقومُ يُخرجون من محلِّ قرارِهم حيث تأجَّج النار، ويُساقون إلى موضعٍ آخَرَ ممَّا دارت عليه جهنمُ فيه ذلك الشَّراب؛ ليَرِدوه ويُسقَوا منه، ثم يُردُّون إلى محلِّهم، كما تخرج الدوابُّ إلى مواضع الماءِ في البلد مثلاً لتردَه ثم تُردُّ إلى محلِّها. وإلى هذا المعنى أشار قتادة، ثم تلا قولَه تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٣-٤٤] ويؤيِّده قراءةُ ابنِ مسعود: «ثمَّ إنَّ مُنقلبَهم»[3] إذ الانقلابُ أظهرُ في الردّ.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٢٨، والمحتسب ٢/ ٢٢٠، والبحر ٧/ ٣٦٣.
(٢) الكشاف ٣/ ٣٤٣.
(٣) أخرجها الطبري ١٩/ ٥٥٦ عن السدي.

أو المراد: ثم إنَّ مرجعَهم إلى دَرَكات الجحيم، فهم يردَّدون في الجحيم من مكانٍ إلى آخَرَ أدنَى منه.

وقيل: إنَّ الشرابَ يقدَّم اليهم قبلَ دخولِ النار، فيشربون ويصيرون إلى الجحيم. وهذا يحتاج إلى توقيف، وإلَّا فهو خلافُ الظاهر.

وكأنَّ بين خروجِ القومِ للشُّرب وعودِهم إلى مساكنهم زماناً غيرَ يسيرٍ يتجرَّعون فيه ذلك الشَّراب؛ ولذا جيءَ بـ «ثُمَّ». وهذا الشرابُ في مقابلة ما لأهل الجنةِ من الشراب المدلولِ عليه بقوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝٤٥ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٤٦﴾ إلخ، كما أنَّ الزقُّوم في مقابَلة ما لهم من الفواكه.

وقد جاء عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: لو أنَّ قطرةً من زقُّوم جهنمَ أُنزلت إلى الأرض، لَأَفسدت على الناس معايشَهم. أخرجه ابنُ أبي شيبة[(١)]. فكيف بمَن هو طعامُه وشرابُه الغسَّاقُ والصديدُ مع الحميم؟ نسأل الله تعالى رضاه والجنَّة، ونعوذ به عزَّ وجلَّ من غضبه والنَّار.

وقولُه سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝٦٩ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ۝٧٠﴾ تعليلٌ لاستحقاقهم ما ذُكر من فنون العذاب بتقليد الآباءِ في أصول الدِّين من غير أن يكونَ لهم ولا لآبائهم شيءٌ يتمسَّك به أصلاً، أي: وجدوهم ضالِّين في نفس الأمر، ليس لهم ما يصلُح شبهةً فضلاً عن صلاحية كونِه دليلاً، فهم [على آثارهم يهرعون][(٢)] من غير أن يتدبَّروا أنَّهم على الحقِّ أوَّلاً مع ظهور كونِهم على الباطل بأدنَى تأمُّل.

والإهراع: الإسراعُ الشديد. وقيل: هو إسراعٌ فيه شبهُ رِعدة. وفي بناء الفعلِ للمفعول إشارةٌ إلى مزيد رغبتِهم في الإسراع على آثارهم، كأنَّهم يُزعَجون ويُحثُّون حثّاً عليه.

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبلَ هؤلاءِ الظالمين الذين جُعلت شجرةُ الزقُّوم فتنةً لهم، وهم قريشٌ ﴿أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٧١﴾ من الأمم السابقة، وهو جوابُ قَسَمٍ

(١) في المصنف ١٣/ ١٦١.

(٢) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٧/ ١٩٥، والكلام منه.

محذوف، وكذا قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ أنبياءَ أنذروهم سوءَ عاقبةِ ما هم عليه من الباطل. وتكريرُ القسمِ لإبراز كمالِ الاعتناءِ بتحقيق مضمونِ كلٍّ من الجملتين.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ من الهول والفظاعةِ لمَّا لم يلتفتوا إلى الإنذار ولم يرفعوا إليه رأساً.

والخطابُ إمَّا لسيِّد المخاطَبين ﷺ، أو لكلِّ مَن يتأتَّى منه مشاهدةُ آثارِهم.

وحيث كان المعنى أنَّهم أُهلكوا إهلاكاً فظيعاً، استثنَى عنهم المخلَصين بقوله عزَّ وجلّ: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ أي: الذين أخلصهم اللهُ تعالى بتوفيقهم للإيمان والعملِ بموجب الإنذار.

وقُرِئ: «المخلِصين» بكسر اللام[1]. أي: الذين أَخلصوا دينَهم لله سبحانه وتعالى.

والاستثناءُ على القراءتين إمَّا منقطعٌ إنْ خصِّص «المنذَرين»، وإمَّا متصل إنْ عمِّم.

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ﴾ نوعُ تفصيلٍ لما أُجمل فيما قبلُ ببيان أحوالِ بعض المرسَلين وحُسنِ عاقبتهم، متضمِّن لبيان سوءِ عاقبةِ بعضِ المنذَرين، كقوم نوحٍ عليه السلام، ولبيان حُسنِ عاقبةِ بعضِهم الذين أخلصهم اللهُ تعالى أو أَخلصوا دينَهم، على القراءتين، كقوم يونسَ عليه السلام. وتقديمُ قصَّة نوحٍ عليه السلام على سائر القصصِ غنيٌّ عن البيان. ونداؤه عليه السلام يتضمَّن الدعاءَ على كفار قومِه وسؤالَه النجاةَ وطلبَ النُّصرة.

واللامُ واقعةٌ في جواب قَسَمٍ محذوف، وكذا ما في قوله تعالى: ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾ والمخصوصُ بالمدح فيه محذوفٌ، والفاءُ فصيحة، أي: وتاللهِ لقد دعانا نوحٌ حين أَيِسَ من إيمان قومِه بعد أنْ دعاهم أحقاباً ودهوراً، فلم يزدهم دعاؤه إلَّا فراراً ونفوراً، فأجبناه أحسنَ الإجابة، فواللهِ لَنعم المجيبون نحن، فحذف ما حذف ثقةً بدلالةِ ما ذُكر عليه.

---

(١) قرأ الكوفيون ونافع وأبو جعفر بالفتح، والباقون بالكسر. التيسير ص١٢٨، والنشر ٢/ ٢٩٥.

والجمع للعظمة والكبرياء، وفيه من تعظيم أمر الاجابة ما فيه. وأخرج ابنُ مردويه عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: كان النبيُّ ﷺ إذا صلَّى في بيتي فمرَّ بهذه الآية: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ قال: «صدقتَ ربَّنا، أنت أقربُ مَن دُعي، وأقربُ مَن بُغي، فنِعمَ المدعوُّ ونعم المعطي، ونِعمَ المسؤولُ ونِعم المولى أنت ربَّنا ونِعمَ النصير»[1].

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ من الغرق، على ما رُوي عن السُّدِّي. وقيل: أذى قومِه. ولا مانعَ من الجمع. والكَرْبُ ـ على ما قال الراغب[2] ـ: الغمُّ الشديد، وأصلُ ذلك مِن كَرْبِ الأرض، وهو قلبُها بالحفر، فالغمُّ يثير النفسَ إثارةَ ذلك، ويصحُّ أن يكونَ من: كَرَبت الشمس: إذا دنت للمغيب، وقولهم: إناءٌ كَرْبَان، نحو قربان، أي: قريبٌ من المِلء. أو من الكَرَب، وهو عَقدٌ غليظٌ في رِشاء الدَّلْو، وقد يوصف الغمُّ بأنه عُقدةٌ على القلب.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ فحسْب، حيث أهلكنا الكفرةَ بموجب دعائه: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦] وقد رُوي أنَّه مات كلُّ مَن في السفينة ولم يُعقبوا عقباً باقياً غيرَ أبنائه الثلاثة: سام، وحام، ويافث، وأزواجِهم، فإنَّهم بقُوا متناسلين إلى يوم القيامة.

أَخرج الترمذيُّ وحسَّنه، وابنُ سعد، وأحمد، وأبو يعلى، وابنُ المنذر، وابنُ أبي حاتم، والطبرانيّ، والحاكمُ وصحَّحه[3]، عن سَمُرة، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «سامٌ أبو العرب، وحامٌ أبو الحبش، ويافثُ أبو الرُّوم»، وأخرج ابنُ مردويه عن أبي هريرةَ مرفوعاً نحوَه. نعم أخرج البزّار وابنُ أبي حاتمٍ والخطيبُ في «تالي التلخيص» عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «ولدُ نوحٍ ثلاثة: سامٌ وحامٌ ويافث، فولدُ سام: العربُ وفارس والرُّوم، والخيرُ فيهم، وولدُ يافث: يأجوجُ ومأجوجُ

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٧٨، وفي مطبوعه: من يعطي، بدل: من بُغي.

(٢) في المفردات (كرب).

(٣) جامع الترمذي (٣٢٣١) و(٣٩٣١)، وطبقات ابن سعد ١/ ٢٥-٢٦، ومسند أحمد (٢٠٠٩٩) و(٢٠١٠٠)، والمعجم الكبير (٦٨٧١)، والمستدرك ٢/ ٥٤٦.

والتركُ والصقالبة، ولا خيرَ فيهم، وولدُ حام: القِبطُ والسودان» ولا أعرف حالَ الخبر[(١)].

والأكثرون على أنَّ الناسَ كلَّهم في مشارق الأرضِ ومغاربِها من ذرِّية نوحٍ عليه السلام؛ ولذا قيل له: آدمُ الثاني. وإن صحَّ أنَّ لكنعانَ المغرقِ ولداً في السفينة، لا يَبعد إدراجُه في الذُّرِّية، فلا يُقتصر على الأولاد الثلاثة.

وعلى كون الناسِ كلِّهم من ذرِّيَّته عليه السلام استدلَّ بعضُهم بالآية.

وقالت فِرقة: أبقى اللهُ تعالى ذريةَ نوحٍ عليه السلام ومدَّ في نسله، وليس الناسُ منحصرين في نسله، بل من الأُمم مَن لا يرجع إليه، حكاه في «البحر»[(٢)]. وكأنَّ هذه الفرقةَ لا تقول بعموم الغَرَق، ونوحٌ عليه السلام إنَّما دعا على الكفَّار، وهو لم يُرسَل إلى أهل الأرضِ كافَّة؛ فإنَّ عمومَ البعثةِ ابتداءً من خواصِّ خاتَمِ المرسلين ﷺ، ووصولُ خبرِ دعوته وهو في جزيرة العربِ إلى جميع الأقطارِ ـ كقطر الصينِ وغيرِه ـ غيرُ معلوم.

والحصرُ في الآية بالنِّسبة إلى مَن في السَّفينة ممَّن عدا أولادَه وأزواجَهم، فكأنَّه قيل: وجعلنا ذرِّيته هم الباقين، لا ذرِّيةَ مَن معه في السفينة، وهو لا يستلزم عدمَ بقاءِ ذريةِ مَن لم يكن معه وكان في بعض الأقطارِ الشاسعةِ التي لم تصل إليها الدَّعوة، ولم يستوجب أهلُها الغَرَق، كأهل الصينِ فيما يزعمون.

ويجوز أن تكونَ قائلة بالعموم، وتجعل الحصرَ بالنسبة إلى المغرَقين، وتلتزم القولَ بأنَّه لم يبقَ عَقِبٌ لأحدٍ من أهلِ السفينةِ هو من ذرِّية أحدٍ من المغرقين، أي: وجعلنا ذريَّته هم الباقين لا ذريةَ أحدٍ غيرِه من المغرَقين، وولدُ كنعان ـ إن صحَّ، وصحَّ بقاءُ نسلِه ـ داخلٌ في ذرِّيته، واللهُ تعالى أعلم.

---

(١) وهو ضعيف، فقد أخرجه البزار (٢١٨ - كشف) من طريق سعيد بن المسيب عن أبي هريرة به. وفي إسناده يزيد بن سنان الرُّهاوي، قال عنه ابن كثير في البداية والنهاية ١/ ٢٧٠ بعد أن ذكر الحديث: ضعيف بمرة، لا يعتمد عليه. اهـ، وأخرجه الطبري في تاريخه ١/ ٢١٠ عن سعيد بن المسيب قوله، وهو المحفوظ كما قال ابن كثير.

(٢) ٧/ ٣٦٤.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝٧٨﴾ في الباقين غابرَ الدَّهر.

﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ﴾ مبتدأٌ وخبر، وجاز الابتداءُ بالنَّكرة لِمَا فيه من معنى الدُّعاء، والكلامُ واردٌ على الحكاية، كقولك: قرأت: «سورة أنزلناها» [النور:١] وهو على ما قال الفرَّاءُ وغيرُه من الكوفيين محكيٌّ بـ «تَرَكَ» في موضع نصبٍ بها، أي: تركنا عليه هذا الكلامَ بعينه.

وقال آخَرون: هو محكيٌّ بقولٍ مقدَّر، أي: تركنا عليه في الآخرين قولَهم: سلامٌ على نوح، والمراد: أبقينا له دعاءَ الناسِ وتسليمَهم عليه أمَّةً بعد أمَّة.

وقيل: هذا سلامٌ منه عزَّ وجلَّ لا من الآخَرين.

ومفعولُ «تركنا» محذوف، أي: تركنا عليه الثناءَ الحسنَ وأبقيناه له فيمن بعدَه إلى آخر الدَّهر. ونُسب هذا إلى ابن عباسٍ ومجاهدٍ وقتادةَ والسُّدِّي.

وجملةُ «سلام على نوح» معمولٌ لقولٍ مقدَّرٍ على ما ذكر الخَفاجي(١)، أي: وقلنا: سلام.. إلخ. وقال أبو حيَّان: مستأنَفة، سلَّم اللهُ تعالى عليه عليه السلام ليقتديَ بذلك البشر، فلا يذكره أحدٌ بسوء(٢).

وقرأ عبدُ الله: «سلاماً» بالنَّصب على أنَّه مفعولُ «تركنا»(٣).

وقولُه تعالى: ﴿فِي الْعَالَمِينَ ۝٧٩﴾ متعلِّق بالظَّرف؛ لنيابته عن عامله، أو بما تعلَّق الظرفُ به. وجوِّز كونُه حالاً من الضمير المستترِ فيه. وأيَّاما كان، فهو من تتمَّة الجملةِ السابقة، وجيءَ به للدَّلالة على الاعتناءِ التامِّ بشأن السَّلام، من حيث إنَّه أفاد الكلامُ عليه ثبوتَه في العالمين من الملائكة والثَّقلين، أو إنَّه حالَ كونِه في العالمين على نوح، وهذا كما تقول: سلامٌ على زيدٍ في جميع الأمكنةِ وفي جميع الأزمنة. وزعم بعضُهم جوازَ جعلِه بدلاً من قوله تعالى: (فِي الْآخِرِينَ) ويوشك أن يكونَ غلطاً كما لا يخفَى.

---

(١) في حاشيته ٧/ ٢٧٤.
(٢) البحر ٧/ ٣٦٤.
(٣) البحر ٧/ ٣٦٤.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٠﴾ تعليلٌ لما فعل به مما قصَّه اللهُ عزَّ وجلَّ بكونه عليه السلام من زمرة المعروفين بالإحسان الرَّاسخين فيه، فيكون ما وقع من قَبيل مجازاةِ الإحسان بالإحسان، وإحسانُه مجاهدتُه أعداءَ اللهِ تعالى بالدَّعوة إلى دينه، والصبرِ الطويلِ على أذاهم، ونحوِ ما ذكر، وذلك إشارة إلى ما ذُكر من الكرامات السَّنيةِ التي وقعت جزاءً له عليه السلام. وما فيه من معنى البُعد؛ للإيذان بعلوِّ رتبتِه، وبُعدِ منزلتِه في الفضل والشَّرف. والكافُ متعلِّقة بما بعدها، أي: مثلَ ذلك الجزاءِ الكاملِ نجزي الكاملين في الإحسان لا جزاءً أدنَى منه.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨١﴾ تعليلٌ لكونه عليه السلام محسناً المفهومِ من الكلام بخلوص عبوديَّته وكمالِ إيمانِه، وفيه من الدَّلالة على جلالة قدرِهما ما لا يخفَى، وإلَّا فمنصبُ الرسالةِ منصبٌ عظيم، والرسولُ لا ينفكُّ عن الخلوص بالعبودية وكمالِ الإيمان، فالمقصودُ بالصفة مدحُها نفسها، لا مدحُ موصوفِها.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝٨٢﴾ أي: المغايرين لنوحٍ عليه السلام وأهلِه، وهم كفارُ قومِه أجمعين. و«ثم» للتراخي الذِّكري؛ إذ بقاؤه عليه السلام ومَن معه متأخِّر عن الإغراق.

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: ممَّن شايع نوحاً وتابعه في أُصول الدِّين ﴿لَإِبْرَٰهِيمَ ۝٨٣﴾ وإن اختلفت فروعُ شريعتيهما. أو ممَّن شايعه في التصلُّب في دين اللهِ تعالى ومصابرةِ المكذِّبين، ونُقل هذا عن ابن عبَّاس. وجوَّز أن يكونَ بين شريعتيهما اتفاقٌ كلِّي أو أكثريّ، وللأكثر حكمُ الكلّ.

ورأيتُ في بعض الكتب ـ ولا أدري الآنَ أيّ كتابٍ هو ـ أنَّ نوحاً عليه السلام لم يُرسَل إلَّا بالتوحيد ونحوِه من أُصول العقائد، ولم يُرسَل بفروع. قيل: وكان بين إبراهيمَ وبينه عليهما السلام نبيَّان: هودٌ وصالحٌ لا غير. ولعله أُريد بالنبيِّ الرسول، لا ما هو أعمُّ منه. وهذا بناءً على أنَّ ساماً كان نبيّاً، وكان بينهما ـ على ما في «جامع الأصول» ـ ألفُ سنةٍ ومئةٌ واثنتان وأربعون سَنَة، وقيل: ألفان وستُّ مئةٍ وأربعون سنة.

وذهب الفرَّاءُ[1] إلى أنَّ ضمير «شيعته» لنبيِّنا محمدٍ ﷺ، والظاهرُ ما أشرنا إليه، وهو المرويُّ عن ابن عبَّاسٍ ومجاهدٍ وقتادةَ والسُّدِّي، وقلَّما يقال للمتقدِّم: هو شيعةٌ للمتأخِّر، ومنه قولُ الكميتِ الأصغرِ بن زيد:

ومـا لـيَ إلَّا آل أحـمـدَ شـيـعـةٌ ومـاليَ إلَّا مَشعبُ الحقِّ مشعبُ[2]

وذكر قصَّة إبراهيمَ عليه السلام بعد قصَّة نوحٍ؛ لأنَّه كآدمَ الثالثِ بالنِّسبة إلى الأنبياءِ والمرسَلين بعده؛ لأنَّهم من ذرِّيته إلَّا لوطاً، وهو بمنزلة ولدِه عليهما السلام، ويزيد حُسنَ الإرداف أنَّ نوحاً نجَّاه اللهُ تعالى من الغرق، وإبراهيمَ نجَّاه اللهُ تعالى من الحرق.

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ منصوبٌ بـ «اذكر»، كما هو المعهودُ في نظائره. وجوِّز تعلُّقه بفعلٍ مقدَّر يدلُّ عليه قولُه تعالى: (وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ) كأنَّه قيل: متى شايعه؟ فقيل: شايعه إذ جاء ربَّه.

وقيل: هو متعلِّق بشيعة؛ لِمَا فيه من معنى المشايعة.

وردَّ بأنَّه يلزم عملُ ما قبل لامِ الابتداءِ فيما بعدها، وهم لا يجوِّزون ذلك؛ للصَّدارة، فلا يقال: إنَّ ضارباً لقادمٌ علينا زيداً، وكذا يلزم الفصلُ بين العاملِ والمعمولِ بأجنبيّ، وهو لا يجوز.

وأُجيب بأنَّه لا مانعَ من كلٍّ إذا كان المعمولُ ظرفاً؛ لتوسُّعهم فيه.

﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ أي: سالمٍ من جميع الآفات كفساد العقائدِ والنيَّات السيئةِ والصفاتِ القبيحة، كالحسد والغِلِّ وغيرِ ذلك. وعن قتادةَ تخصيصُ السلامةِ بالسَّلامة من الشِّرك. والتعميمُ الذي ذكرناه أَوْلى.

أو سالمٍ من العلائق الدُّنيوية، بمعنى أنَّه ليس فيه شيءٌ من محبَّتها والرُّكونِ إليها وإلى أهلها.

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٨.
(٢) الديوان ص٥١٧.

رين. «سليم»، أي: حزين، وهو مجازٌ من السَّليم بمعنى اللديغ من حيَّةٍ أو عقرب؛ فإنَّ العربَ تسمِّيه سليماً تفاؤلاً بسلامته، وصار حقيقةً فيه. وما تقدَّم أنسبُ بالمقام.

والباءُ قيل: للتعدية.

والمرادُ بمجيئه ربَّه بقلبه إخلاصُه قلبَه له تعالى على سبيل الاستعارةِ التبعيةِ التصريحية، ومبناها تشبيهُ إخلاصه قلبَه له عزَّ وجلَّ بمجيئه إليه تعالى بتحفةٍ في أنَّه سببٌ للفوز بالرِّضا، ويكتفَى بامتناع الحقيقةِ مع كون المقامِ مقامَ المدحِ قرينة. فحاصلُ معنى التركيب: إذ أَخلص عليه السلام لله تعالى قلبَه السليمَ من الآفات، أو: المنقطعَ عن العلائق، أو: الحزينَ المنكسر.

وتعقِّب بأنَّ سلامةَ القلبِ عن الآفاتِ لا تكون بدون الإخلاص، وكذا الانقطاعُ عن العلائقِ لا يكون بدونه.

وأُجيب بأنَّهما قد يكونان بدون ذلك، كما في القلوب البُله.

وفي «المطلع»: معنى مجيئه ربَّه بقلبه أنَّه أَخلص قلبَه لله تعالى وعَلِمَ سبحانه ذلك منه كما يُعْلَم الغائبُ وأحوالُه بمجيئه وحضورِه، فضرب المجيء مثلاً لذلك. اهـ. وجُعل في الكلام عليه استعارةٌ تمثيلية، بأن تشبَّهَ الهيئةُ المنتزعةُ من إخلاص إبراهيمَ عليه السلام قلبَه لربِّه تعالى وعلمِه سبحانه ذلك الإخلاصَ منه موجوداً، بالهيئة المنتزعةِ من المجيءِ بالغائب بمحضرِ شخصٍ ومعرفتِه إيَّاه وعلمِه بأحواله، ثم يُستعار ما يستعار؛ ولتأدية هذا المعنى عدل عن: جاءَ ربَّه سليمَ القلب، إلى ما في النَّظم الجليل.

وقيل الباءُ للملابسة. ولعله المتبادِر. والمرادُ بمجيئه ربَّه حلولُه في مقام الامتثالِ ونحوِه. وذكر أنَّ نكتةَ العدولِ عما سمعتَ إلى ما في النَّظم سلامتُه من توهُّم أنَّ الحالَ منتقلة؛ لمَا أنَّ الانتقالَ أغلبُ حالَيها، مع أنَّه أظهرُ في أنَّ سلامةَ القلبِ كانت له عليه السلام قبل المجيءِ أيضاً، فليُتدبَّر.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾﴾ بدلٌ من «إذ» الأولى، أو ظرفٌ لـ «جاء»، أو لـ «سليم». أي: أيَّ شيءٍ تعبدون؟.

﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: أتريدون آلهةً من دون اللهِ تعالى إفكاً؟ أي: للإفك، فقدِّم المفعولُ به على الفعل للعناية؛ لأنَّ إنكارَه أو التقريرَ به هو المقصود، وفيه رعايةُ الفاصلةِ أيضاً، ثم المفعولُ لأجله لأنَّ الأهمَّ مكافحتُهم بأنَّهم على إفكٍ وباطلٍ في شركهم.

ويجوز أن يكونَ «إفكاً» مفعولاً به بمعنى: أتريدون إفكاً؟ وتكون «آلهة» بدلاً منه بدلَ كلٍّ، وجعلها عينَ الإفك على المبالغة. أو الكلامُ على تقديرِ مضاف، أي: عبادةَ آلهة، وهي صرفٌ للعبادة عن وجهها. وجوِّز كونُه حالاً من ضمير «تريدون»، أي: أفَّاكين، أو مفعولِه، أي: مأفوكة. وتعقِّب بأنَّ جعلَ المصدرِ حالاً لا يطَّرد إلَّا مع أمَّا، نحو: أمَّا عِلماً فعالم.

﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: أيُّ شيءٍ ظنُّكم بمَن هو حقيقٌ بالعبادة لكونه ربّاً للعالَمين؟ أشككتم فيه حتى تركتم عبادتَه سبحانه بالكلِّية؟ أو: أعلمتم أيُّ شيءٍ هو حتى جعلتم الأصنامَ شركاءه سبحانه وتعالى؟ أو: أيُّ شيءٍ ظنُّكم بعقابه عزَّ وجلَّ حتى اجترأتم على الإفك عليه تعالى ولم تخافوا؟

وكان قومُه عليه السلام يعظِّمون الكواكبَ المعروفة، ويعتقدون السُّعودَ والنُّحوسَ والخيرَ والشرَّ في العالَم منها، ويتَّخذون لكلِّ كوكبٍ منها هيكلاً، ويجعلون فيها أصناماً تناسب ذلك الكوكبَ بزعمهم، ويجعلون عبادتَها وتعظيمَها ذريعةً إلى عبادة تلك الكواكبِ واستنزالِ روحانيَّاتها، وكانوا يستدلُّون بأوضاعها على الحوادث الكونيةِ عامَّةً أو خاصَّة، فاتَّفق أن دنا يومُ عيدٍ لهم يخرجون فيه، فأرسل مَلِكُهم إلى إبراهيمَ عليه السلام أنَّ غداً عيدُنا فاحضُر معنا، فاستشعر حصولَ الفرصةِ لحصول ما عسى أن يكونَ سبباً لتوحيدهم، فأراد أن يعتذرَ عن الحضور على وجهٍ لا يُنكرونه عليه ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾ أي: فتأمَّل نوعاً من التأمُّل في أحوالها، وهو في نفس الأمرِ على طرز تأمُّل الكاملين في خلق السماواتِ

والأرض وتفكُّرِهم في ذلك؛ إذ هو اللائقُ به عليه السلام، لكنه أَوهمهم أنَّه تفكَّر في أحوالها، من الاتِّصال والتقابل ونحوِهما من الأَوضاع التي تدلُّ بزعمهم على الحوادث؛ ليرتِّبَ عليه ما يتوصَّل به إلى غرضه الذي يكون وسيلةً إلى إنقاذهم ممَّا هم فيه.

والظاهرُ بعد اعتبارِ الإيهام أنَّه إيهامُ التفكُّر في أحكام طالعِ ولادتِهِ عليه السلام، وما يدلُّ عليه بزعمهم ما تجدَّد له من الأَوضاع في ذلك الوقت. وهذا من معاريضِ الأفعال، نظيرُ ما وقع في قصَّة يوسفَ عليه السلام من تفتيش أوعيةِ إخوته بني عَلَّاته قبل وعاءِ شقيقه، فإنَّ المفتِّش بدأ بأَوعيتهم مع علمه أنَّ الصاعَ ليس فيها، وأخَّر تفتيشَ وعاءِ أخيه مع عِلمه بأنَّه فيها؛ تعريضاً بأنَّه لا يعرف في أيِّ وعاءٍ هو، ونفياً للتُّهَمة عنه لو بدأ بوعاءِ الأخ.

﴿فَقَالَ﴾ أي: لهم: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ أراد أنَّه سيسقم، ولقد صدق عليه السلام؛ فإنَّ كلَّ إنسانٍ لابدَّ أنْ يسقم، وكفى باعتلال المزاجِ أولَ سريانِ الموتِ في البدن سقاماً. وقيل: أراد: مستعدٌّ للسَّقم الآن، أو خارجُ المزاجِ عن الاعتدال خروجاً قلَّ مَن يخلو عنه، أو سقيمُ القلبِ لكفركم، والقومُ توهَّموا أنَّه أراد قربَ اتصافِه بسقمٍ لا يستطيع معه الخروجَ معهم إلى معيدهم، وهو - على ما رُوي عن سفيانَ وابنِ جبير - سقمُ الطاعون، فإنَّهما فسَّرا «سقيم» بمطعون، وكان - كما قيل - أغلبَ الأسقامِ عليهم، وكانوا شديدي الخوفِ منه؛ لاعتقادهم العدوَى فيه.

وهذا، وكذا قولُه عليه السلام: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] وقولُه في زوجته سارة: هي أختي(١)، من معاريض الأقوال، كقول نبيِّنا ﷺ لمن قال له في طريقِ الهجرة: ممَّن الرَّجل؟: «من ماء»(٢)، حيث أَراد عليه الصلاة والسلام ذِكرَ مبدأ خلقِه، ففهم السائلُ أنَّه بيانُ قبيلتِه، وكقول صاحبِه الصِّدِّيق - وقد سُئل عنه عليه الصلاة والسلام في ذاك أيضاً -: هو هادٍ يهديني. حيث أَراد شيئاً وفهم السائلُ آخَر، ولا يُعدُّ ذلك كذباً في الحقيقة.

---

(١) سلف ١/ ٤٣٢.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٦١٦.

وتسميتُه به في بعض الأحاديثِ الصحيحةِ بالنظر لِمَا فهم الغيرُ منه، لا بالنِّسبة إلى ما قصده المتكلِّم، وجعلُه ذنباً في حديث الشفاعةِ[1] قيل: لأنَّه ينكشف لإبراهيمَ عليه السلام أنَّه كان منه خلاف الأَولى، لا أنَّ كلَّ تعريضٍ هو كذلك، فإنَّه قد يجب، والإمامُ[2] لضيق محرابِه ومجالِه ينكر الحديثَ الواردَ في ذلك، وهو في الصَّحيحين، ويقول: إسناد الكذبِ إلى راويه أهونُ من إسناده إلى الخليلِ عليه السلام. وقد مرَّ الكلامُ في ذلك.

وقيل: كانت له عليه السلام حمًّى لها نوبةٌ معيَّنة في بعض ساعاتِ الليل، فنظر ليعرفَ هل هي تلك السَّاعة، فإذا هي قد حضرت، فقال لهم: إنِّي سقيم. وليس شيءٌ من ذلك من المعاريض. ونحوُه ما أخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن زيد بنِ أسلمَ قال: أَرسل إليه عليه السلام مَلِكُهم، فقال: إنَّ غداً عيدُنا فاخرُج معنا. فنظر إلى نجمٍ فقال: إنَّ ذا النجمَ لم يطلع قطُّ إلَّا طلع بسقمٍ لي.

وأنت تعلم أنَّ النظرَ المعدَّى بـ «في» بمعنى التأمُّل والتفكُّر، والنظرُ المشارُ إليه لا يحتاج إلى تفكُّر.

وعن أبي مسلمٍ أنَّ المعنى: نظر وتفكَّر في النُّجوم ليستدلَّ بأحوالها على حدوثها، وأنَّها لا تصلُح أن تكونَ آلهة، فقال: إنِّي سقيم، أي: سقيمُ النظر، حيث لم يحصل له كمالُ اليقين. انتهى.

وهذا لَعمري يسلب ـ فيما أرى ـ عن أبي مسلمٍ الإسلام، وفيه من الجهل بمقام الأنبياء ـ لاسيَّما الخليلُ عليه وعليهم السلام ـ ما يدلُّ على سقم نظرِه، نعوذ بالله تعالى من خِذلانه ومكرِه.

وأخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن قتادةَ أنَّ «نظر نظرة في النجوم» كلمةٌ من كلام العرب، تقول إذا تفكَّر الشخص: نظر في النُّجوم. وعليه فليس هو من المعاريض، بل قولُه: «إني سقيم» فقط منها. وهذا إن أيَّده نقلٌ من أهل اللغةِ حسنٌ جدّاً.

---

(١) سلف ١/ ٤٣٢.

(٢) في التفسير الكبير ٢٦/ ١٤٨.

وقيل: المعنى: نظر في أحوال النُّجوم، أو في علمها، أو في كتبها وأحكامِها؛ ليستدلَّ على ما يحدث له، والنظرُ فيها للاستدلال على بعض الأمورِ ليس بممنوعٍ شرعاً؛ إذا كان باعتقادِ أنَّ اللهَ تعالى جعلها علامةً عليه، والممنوعُ الاستدلالُ باعتقاد أنَّها مؤثِّرة بنفسها، والجزمُ بكلِّية أحكامِها. وقد ذكر الكرمانيُّ في «مناسكه» ـ على ما قال الخفاجيّ ـ أنَّ النبيَّ ﷺ قال لرجلٍ أراد السفرَ في آخر الشَّهر: «أتريد أن تخسرَ صفقتَك ويخيبَ سعيُك؟ اصبر حتى يهلَّ الهلال». انتهى[(١)].

وهذا البحثُ من أهمِّ المباحث، فإنَّه لم يزل معتركَ العلماءِ والفلاسفةِ الحكماء، وقد وعدنا بتحقيق الحقِّ فيه، وبيانِ كدرِه وصافيه، فنقول وباللهِ تعالى التوفيق، إلى سلوك أقومِ طريق[(٢)]:

إعلم أنَّ بعضَ الناسِ أنكروا أن يكونَ للكواكب تأثيرٌ في هذا العالَمِ غير وجودِ الضياءِ في المواضع التي تطلع عليها الشمسُ والقمرُ وعدمِه فيما غابا عنه، وما جرى هذا المجرَى. وهذا خروجٌ عن الإنصاف، وسلوكٌ في مسالكِ الجَورِ والاعتساف.

وبعضُهم قالوا: إنَّ لها تأثيراً مّا يجري على الأمر الطبيعيّ، مثل أن يكونَ البلدُ القليل العرضِ ذا مزاجٍ مائلٍ عن الاعتدال إلى الحرِّ واليبس، وكذا مزاجُ أهله، وتكون أجسامُهم ضعيفةً وألوانُهم سوداً وصفراً، كالنُّوبة والحبشة. وأن يكونَ البلدُ الكثيرُ العرضِ ذا مزاجٍ مائلٍ عن الاعتدالِ إلى البرد والرُّطوبة، وكذا مزاجُ أهلِه، وتكون أجسامُهم عبلةً[(٣)]، وألوانُهم بيضاً وشعورُهم شُقراً، مثلُ التركِ والصَّقالبة. ومثلُ نموِّ النباتِ واشتدادِه ونضجِ ثمرِه بالشَّمس والقمر، ونحوِ ذلك

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٢٧٦، والحديث أخرجه بنحوه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١٧٨١) من حديث رُقيبة بن عُقيبة أو عقيبة بن رقيبة (كذا ورد بالشك)، وإسناده ضعيف لانقطاعه، وينظر الإصابة ٣/ ٢٨٦.

(٢) الكلام الذي سيورده المصنِّف في هذه المسألة مذكور بحرفيَّته في كثير من المواضع في مفتاح دار السعادة ص ٤٨٧ وما بعدها حيث عزاه ابن القيم لأبي القاسم عيسى بن علي في رسالة ردَّ فيها على المنجمين، وبيَّن فيها تناقضهم وبطلان ما هم عليه من الضلال.

(٣) رجل عَبْل الذراعين: ضخمهما، وامرأة عبلة: تامة الخَلْق. الصحاح (عبل).

ممَّا يدرك بالحسّ. ولا بأسَ في نسبته إلى الكوكبِ على معنى أنَّ اللهَ تعالى أودع فيه قوةً مؤثِّرة فأثَّر بإذن اللهِ تعالى، كما يُنسب الإحراقُ إلى النار والرِّيُّ إلى الماء مثلاً، على معنى ذلك، وهو مذهبُ السلف ـ على ما قال الشيخُ إبراهيم الكوراني ـ في جميع الأسبابِ والمسبَّبات، وصرَّح به بعضُ الماتريدية.

أو على معنى أنَّ اللهَ تعالى خلق ذلك عنده وليس فيه قوَّةٌ مؤثِّرة مطلقاً، على ما يقوله الأشاعرةُ في كلِّ سببٍ ومسبَّب، فلا فرقَ بين الماءِ والنارِ مثلاً عندهم في أنَّه ليس في كلٍّ قوةٌ يترتَّب عليها ما يترتَّب، وإنما الفرقُ في أنَّه جرت عادةُ اللهِ تعالى بأن يخلقَ الإحراقَ دون الريِّ عند النارِ دون الماء، ويخلقَ الرِّيَّ دون الإحراقِ عند الماءِ دون النار، وليس للنار والماءِ مدخلٌ في الأثر من الإحراق والرِّيِّ سوى أنَّ كلًّا مقارنٌ لخلق اللهِ تعالى الأثرَ بلا واسطة.

وظواهرُ الأدلَّة مع الأوَّلين، ولا ينافي مذهبَهم توحيدُ الأفعالِ وأنَّه عزَّ وجلَّ خالقُ كلِّ شيء، كما حقِّق في موضعه.

وبعضُهم زعم أنَّ لها تأثيراً يعرفه المنجِّم غيرَ ذلك، كالسَّعادة والنُّحوسة، وطولِ العمرِ وقِصَره، وسَعةِ العيشِ وضيقه، إلى غير ذلك ممَّا لا يخفى على مَن راجع كتبَ أحكامِ طوالعِ المواليدِ وطوالعِ السِّنين والكسوفِ والخسوفِ والأعمالِ ونحوِها.

وهو ممَّا لا ينبغي أن يعوَّلَ عليه أو يُلتفتَ إليه؛ فليس له دليلٌ عقليٌّ أو نقليٌّ، بل الأدلةُ قائمةٌ على بطلانه، متكفِّلة بهدم أركانِه. والقائلون به بعد اتِّفاقِهم على أنَّ الخيرَ والشرَّ والإعطاءَ والمنعَ وما أشبه ذلك يكون في العالَم بالكواكب، على حسب السُّعود والنُّحوس، وكونِها في البروج المنافرةِ لها أو الموافقة، وحسب نظرِ بعضِها إلى بعض، بالتسديس والتربيعِ والتثليثِ والمقابلة، وحسب كونِها في شرفها وهبوطِها، ووبالِها ورجعتِها، واستقامتِها وإقامتها، اختلفوا في كثيرٍ من الأصول، وتكلَّموا بكلامٍ يضحك منه أربابُ العقول.

وذلك أنَّهم اختلفوا في أنَّه على أيِّ وجهٍ يكون ذلك؟ فزعم قومٌ منهم أن فعلَها بطبائعها. وزعم آخَرون أنَّ ذلك ليس فعلاً لها، لكنها تدلُّ عليه بطبائعها. وزعم

آخَرون أنَّها تفعل في البعض بالعَرَض وفي البعض بالذَّات. وزعم آخَرون أنَّها تفعل بالاختيار لا بالطَّبع، إلَّا أن السعدَ منها لا يختار إلَّا الخير، والنحسَ لا يختار إلَّا الشرّ. وهذا مع قولِهم: إنَّها قد تتَّفق على الخير وقد تتَّفق على الشرّ، مما يتعجَّب منه. وزعم آخَرون أنَّها لا تفعل بالاختيار، بل تدلُّ به. وهو كلامٌ لا يُعقل معناه.

واختلفوا أيضاً، فقالت فِرقة: من الكواكب ما هو سعدٌ ومنها ما هو نحس، وهي تُسعد غيرَها وتنحسه. وقالت أخرى: هي في أنفُسها طبيعةٌ واحدة، وإنَّما تختلف دلالتُها على السُّعود والنحوس، وهذا قولُ مَن يقول منهم: إنَّ للفلك طبيعةً مخالفةً لطبيعة الاستقصاءات[1] الكائنةِ الفاسدة، وأنَّها لا حارَّةٌ ولا باردة، ولا يابسةٌ ولا رطبة، ولا سعدَ ولا نحسَ فيها، وإنما يدلُّ بعضُ أجرامِها وبعضُ أجزائها على الخير والبعضُ على الشرّ، وارتباطُ الخيرِ والشرِّ والسعدِ والنحسِ بها ارتباطُ المدلولاتِ بأدلَّتها، لا ارتباطُ المعلولاتِ بعِلَلها. وهو أعقلُ من أصحاب القولِ بالاقتضاء الطبيعيِّ والعِلِّية، وإنْ كان قولُه أيضاً عند بعض الأَجلَّة ليس بشي؛ لأنَّ الدَّلالة الحسِّية لا تختلف ولا تتناقض.

واختلفوا أيضاً، فقالت فِرقة: تفعل في الأبدان والأنفُس جميعاً. وهو قولُ بطليموس وأتباعِه. وقال الأكثرون: تفعل في الأنفُس دون الأبدان. ولعلَّ الخلافَ لفظيّ.

واختلف رؤساؤهم: بطليموس ودوروسوس وأنطيقوس وريمس وغيرُهم من علماء الرومِ والهندِ وبابل في الحدود وغيرِها، وتضادُّوا في المواضع التي يأخذون منها دليلَهم. ومن ذلك اختلافُهم في أمر سهمِ السَّعادة، فزعم بطليموسُ أنَّه يُعلم بأن يؤخذَ أبداً العددُ الذي يحصل من موضع الشمسِ إلى موضع القمر، ويبتدئ من الطالع، فيرصد منه مثلُ ذلك العددِ على التوالي، فمنتهى العددِ موضعُ السهم. وزعم بعضُهم أنَّه يبتدئُ من الطالع، فيعدُّ مثل ذلك على خلاف التوالي. وزعم بعضُ الفرسِ أنَّ سهمَ السعادةِ يؤخذ بالليل من القمر إلى الشَّمس، وبالنَّهار من

(١) في الأصل و(م): الاستقصات. والمثبت من مفتاح دار السعادة ص٤٩٠.

الشمسِ إلى القمر. وزعم أهلُ مصرَ في الحدود أنَّها تؤخذ من أرباب البيوت، وزعم الكلدانيوُّن أنَّها تؤخذ من مدبري المثلَّثات.

واختلفوا أيضاً، فرتَّبت طائفةٌ البروجَ المذكَّرةَ والمؤنَّثةَ من الطالع، فعدُّوا واحداً مذكَّراً وآخَرَ مؤنَّثاً، وصيَّروا الابتداءَ بالمذكَّر، وقسمت طائفةٌ أخرى البروجَ أربعةَ أجزاء، وجعلوا المذكَّرةَ هي التي من الطالع إلى وسط السماءِ، والتي تقابلها من الغاربِ إلى وَتد الأرض، وجعلوا الرُّبعين الباقيين مؤنَّثين.

وممَّا يُضحِك العقلاءَ أنَّهم جعلوا البروجَ قسمين: حارَّ المزاجِ وباردَه، وجعلوا الحارَّ منها ذكراً، والباردَ أنثى، وابتدؤوا بالحَمَل فقالوا: هو ذكرٌ حارّ، والذي بعده مؤنَّث بارد، وهكذا إلى آخرها، فصارت ستةً ذكوراً وستةً إناثاً.

وقال بعضُهم: الأوَّل ذَكَرٌ والثلاثةُ بعده إِناث، والخامسُ ذكرٌ والثلاثةُ بعده إِناث، والتاسعُ ذكرٌ وما بعده إناث، فالذُّكور ثلاثة، وبعد كلِّ ذكرٍ إناثٌ ثلاثٌ مخالفةٌ له في الطبيعة.

ثم إنَّ هذه القسمةَ للمذكَّر والمؤنَّث ذاتيةٌ للبروج، ولها قسمةٌ ثانيةٌ بالعرض، وهي أنَّهم يبدؤون من الطالع إلى الثاني عشر، فيأخذون واحداً ذكراً وآخَرَ أنثى.

وبعضُهم يقول: هي أربعةُ أقسام، فمن وتد المشرقِ إلى وتد العاشرِ ذكرٌ شرقيٌّ مجفِّف سريع، ومن وتد العاشرِ إلى وتد الغاربِ مؤنَّث جنوبيٌّ مُحرِق وسط، ومن وتد الغاربِ إلى وتد الرابعِ ذكرٌ معتلٌّ رطبٌ غربيٌّ بطيء، ومن وتد الرابعِ إلى الطالع مؤنَّث ذليلٌ مبرِّد شماليٌّ وسط. وبعضُ الأوائلِ منهم لم يقتصرْ على ذلك، بل ابتدأ بالدَّرجة الأُولى من الحمل، فقال: هي ذكرٌ والدرجةُ الثانيةُ أنثى، وهكذا إلى آخر الحوت.

ولبطليموس هذيانٌ آخَر، فإنَّه ابتدأ بأوَّل درجةِ كلِّ برجٍ ذكر، فنسب منها إلى تمام اثنتي عشرةَ درجةً ونصفٍ إلى الذُّكورية، ومنه إلى تمام خمسٍ وعشرين درجةً إلى الأُنوثية، ثم قسم باقيَ البروجِ إلى قسمين، فنسب النصفَ الأوَّل إلى الذَّكر، والآخَرَ إلى الأنثى، وفعل مِثْلَ ذلك في كلِّ برجٍ أنثى.

ولدوروسوس هذيانٌ آخَرُ أيضاً، فإنَّه يقسم البروجَ كلَّ برجٍ ثمانيةً وخمسين دقيقةً ومئةً وخمسين ثانية[1]، ثم ينظر إلى الطالع، فإنْ كان برجاً ذكراً، أعطى القسمةَ الأولى للذَّكر، ثم الثانيةَ للأنثى، إلى أن يأتيَ على البروج كلِّها، وإن كان أنثى، أعطى القسمةَ الأولى للأنثى، ثم الثانيةَ للذَّكر، إلى أن يأتيَ على آخرها.

وما لهم في شيءٍ من ذلك دليل، مع أنَّ قولَهم ببساطة الفلكِ يأبى اختلافَ أجزائه بالحرارة والبرودة، والذُّكور والأنوثة.

ومثلُ هذيانِهم في قسمة الأجزاءِ الفلكيةِ إلى ما ذُكر قسمتُهم الكواكبَ إلى ذلك، فزعموا أنَّ القمرَ والزُّهرة مؤنَّثان، وأنَّ الشمسَ وزحلَ والمشتريَ والمرِّيخ مذكَّرة، وأنَّ عطارد ذَكَرٌ أنثى، وأنَّ سائرَ الكواكبِ تذكَّر وتؤنَّث، بسبب الأشكالِ التي تكون لها بالقياس إلى الشمس، وذلك أنَّها إذا كانت مشرِقةً متقدِّمة على الشمس فهي مذكَّرة، وإن كانت مغربةً تابعةً كانت مؤنَّثة، وأنَّ ذلك يكون لها بالقياس إلى أشكالها من الأُفق، وذلك أنَّها إذا كانت في الأشكال التي من المشرق إلى وسط السماءِ ممَّا تحت الأرض فهي مذكَّرة، وإذا كانت في الرُّبعين الباقيين، فهي مؤنَّثة. ويلزم عليه انقلابُ المذكَّر مؤنَّثاً والمؤنَّث مذكَّراً.

وأجاب بعضُهم عن هذا الهذيانِ أنَّه لا مانعَ من اتِّصاف شيءٍ بأمرٍ بالقياس إلى شيءٍ وبضدِّه بالقياس إلى آخَر، وهو في نفسه غيرُ متصفٍ بشيءٍ منهما، كالأدكَن، فإنَّه يقال فيه: أبيض، بالقياس إلى الأسود، وأسودُ، بالقياس إلى الأبيض، وهو في نفسه لا أسود ولا أبيض، فكذا الكواكب، يقال: إنَّها ذُكرانٌ وإناثٌ، بالقياس إلى الأشكال، أعني الجهات، والجهاتِ إلى الرِّياح، كالصَّبا والدَّبور، والرياحِ إلى الكيفيات، لا أنَّها ذُكرانٌ وإناثٌ في أنفسها.

وهو تلبيس، فإنَّ الأدكنَ فيه شائبةُ بياضٍ وسواد، فمقتضَى التشبيهِ يلزم أن يكونَ في الكوكب شائبةُ ذكورةٍ وأنوثة. وأيضاً الظاهرُ أنَّ الانقسامَ المذكورَ بحسب الطبيعةِ والتأثيرِ والتأثُّر، ولا يكاد يُعرف انقلابُ الحقيقةِ والطبيعةِ بحسب الموضعِ

(١) في الأصل و(م): دقيقة. والمثبت من مفتاح دار السعادة ص ٤٩٣.

والقربِ والبعد. ومنه يُعلم فسادُ ما قالوا: إنَّ القمرَ من أوّل ما يُهلُّ إلى وقت انتصافِه الأوّل في الضوءِ يكون فاعلاً للرُّطوبة خاصّة، ومن ذلك إلى وقت الامتلاءِ يكون فاعلاً للحرارة، ومنه إلى وقت الانتصافِ الثاني في الضوء يكون فاعلاً لليبس، ومن ذلك إلى وقتِ خفائه يكون فاعلاً للبرودة، وقاسوا ذلك على تأثيرات الشمسِ في الفصول، والفرقُ مثل الشمسِ ظاهر، ويلزم عليه كونُ الشهرِ الواحدِ ذا فصول، والحسُّ يدفعه.

وأيضاً كلامُهم هذا يخالف ما قالوه من أنَّ قوَّةَ القمرِ الترطيبُ؛ لقُرب فلكِه من الأرض، وقَبولِه للبخارات الرطبةِ التي ترتفع منها إليه، ثم إنَّ هذا القولَ باطلٌ في نفسه؛ لِمَا أنَّه يلزم عليه ازديادُ رطوبةِ القمرِ في كلِّ يومٍ لو سلِّم تصاعدُ البخاراتِ الرَّطبة إليه وتأثُّره منها، وكذا القولُ بأنَّ قوَّة زحلَ أن يبرِّد ويجفِّفَ تجفيفاً يسيراً؛ لبُعده عن حرارة الشمسِ والبخاراتِ الرَّطبة، وأنَّ قوَّةَ المريخِ مجفِّفة محرِقة؛ لمشاكلة لونِه لونَ النار، ولقُربه من الشمس، وكوكبُ الذَّنَبِ الأكبرِ كالمرِّيخ، وأنَّ عطارداً معتدلٌ في التجفيف والترطيب؛ لأنَّه لا يَبعد عن الشمس بُعداً كثيراً، ولا وضعُه فوقَ كرةِ القمر.

ومن العجائبِ استدلالُ فضلائهم على اختلاف طبائعِ الكواكبِ باختلاف ألوانِها، حيث قالوا: لمَّا كان لونُ زحلَ الغُبرةَ والكمودة، حكمنا بأنَّه على طبع السَّوداء، وهو البردُ واليَبَس؛ فإنَّ لها من الألوان الغُبرة، ولمَّا كان لونُ المرِّيخ كلون النار، قلنا: طبعُه حارٌّ يابس، والحرارةُ واليبسُ في الشمس ظاهرتان، ولمَّا كان لونُ الزُّهَرةِ كالمركَّب من البياضِ والصُّفرةِ والبياضُ أظهرُ فيها، قلنا: طبعُها البرودةُ والرُّطوبةُ كالبلغم، ولمَّا كان صُفرةُ المشتري أكثرَ مما في الزُّهَرة، كانت سخونتُه أكثرَ من سخونة الزُّهَرة، وكان في غايةِ الاعتدال، وأمَّا القمر فهو أبيض وفيه كُمودة، فيدلُّ بياضُه على البرودة، وأمَّا عطارد فتختلف ألوانُه، فربَّما رأيناه أَخضر، وربَّما رأيناه أغبر، وربَّما رأيناه على خلاف هذين اللَّونين، وذلك في أوقاتٍ مختلفة، مع كونِه من الأُفق على ارتفاعٍ واحد، فلا جَرَمَ يكون له طبائعُ مختلفة، إلَّا أنَّا لمَّا وجدناه في الأغلب أَغبرَ كالأرض، قلنا: هو مثلُها في الطَّبع.

ويَرِد عليه أنَّ المشاركةَ في بعض الصفاتِ لا تقتضي المشاركةَ في الطبيعة، ولا في صفةٍ أخرى، وأنَّ دلالةَ مجرَّد اللونِ على الطبيعة ضعيفةٌ جدّاً؛ لاشتراك الكثيرِ في لونٍ مع اختلاف الطبائع، وأيضاً الزُّرقة أظهرُ في الزُّهَرة، واختلافُ ألوانِ عطارد لأنَّا نراه قريبَ الأفق، فيكون بيننا وبينه بخاراتٌ مختلفة.

وقال أبو معشر(١): إنَّ القمرَ لا يَنسبُ لونَه إلى البياض إلَّا مَن عدِمَ قوَّةَ الحسِّ البَصَري. وفيه بَعدُ ما فيه، ولو سلِّم جميعُ ما قالوه من اختلاف طبائعِ البروج والكواكبِ بالحرارة والبرودةِ والرُّطوبة واليبوسة، فقصارَى ما يترتَّب على ذلك ما نجده من اختلاف الأقاليمِ حرارةً وبرودةً مثلاً، واختلافِ أشجارِها وأثمارِها، واختلافِ أجسامِ أهلها وألوانِهم، واختلافِ حَيَواناتها، إلى غير ذلك من الاختلافات.

ومع هذا نقول: إنَّ الكواكبَ جزءُ السببِ في ذلك، لكن من أين لهم القولُ بأنَّ جميعَ الحوادثِ في هذا العالم، خيرِها وشرِّها، وصلاحِها وفسادِها، وجميعَ أشخاصِه وأنواعه، وصورِه وقواه، ومُدَد بقاءِ أشخاصه، وجميعَ أحوالِها العارضة لها، وتكوُّن الجنين، ومدَّة لبثِه في بطن أمِّه وخروجِه إلى الدنيا، وعُمره ورزقه، وشقاوته، وحُسنه وقُبحه، وأخلاقه، وحَذَقه وبلادته، وجهله وعِلمه، إلى ما لا يُحصى من أحواله، وانقسامَ الحيوانِ إلى الطير وأصنافِه، وإلى الحيوان البحريِّ وأنواعِه، والبرِّيّ وأقسامِه، واختلافَ صورِ الحَيَونات وأفعالِها وأخلاقها، وثبوتَ العداوةِ بين أفراد نوعٍ وأفرادِ نوعٍ آخَرَ منها، كالذِّئاب والغنم، وثبوتَ الصداقةِ كذلك، وكذا ثبوتُ العداوةِ أو الصداقةِ بين أفرادِ النوعِ الواحد، إلى غير ذلك ممَّا يكون في العالم = لا يكون(٢) إلَّا بتأثير الكواكب؟ وهو ممَّا لا يكاد يصحّ؛ لأنَّ طريقَ صحَّته إمَّا الخبرُ الصادق، أو الحسُّ الذي يشترك فيه الناس، أو ضرورةُ العقل، أو نظرُه، وشيءٌ من هذا كلِّه غيرُ موجود.

---

(١) المنجم، جعفر بن محمد البلخي، صاحب التصانيف في النجوم والهندسة، توفي (٢٧٢هـ). السير ١٣/ ١٦١.

(٢) قوله: لا يكون... : هو خبرٌ لقوله: بأن جميع الحوادث في هذا العالم...

ولا يمكن الأحكاميين أن يدَّعوا واحداً من الثلاثة الأُول، وغايتُهم أن يدَّعوا أنَّ التجربةَ قادتهم إلى ذلك، ولا شكَّ أنَّ أقلَّ ما لا بدَّ منه فيها أن يحصلَ ذلك الشيء على حالةٍ واحدةٍ مرتين، والوضعُ المعيَّن لمجموع الكواكبِ لا يتكرَّر أصلاً، أو يتكرَّر بعد ألوفِ ألوفٍ من السنين، وعمرُ الإنسان الواحدِ بل عُمرُ البشرِ لا تفي به.

وزعم بعضُهم لذلك أنَّ مجموعَ الاتصالاتِ ونسبِ الكواكبِ بعضِها إلى بعضٍ غيرُ شرطٍ في التأثير لتتوقَّفَ التجربةُ على تكراره، بل يكفي بعضُ الاتِّصالات، وقد يكفي واحدٌ منها، وذلك يتكرَّر في أزمنةٍ قليلة، فتتأتَّى التجربة، مثلاً رداءةُ السفرِ وقد نزل القمرُ برجَ العقربِ يستند إلى هذا النزولِ بالتجربة، فإنَّا وجدنا تكرُّرَ ذلك وترتُّبَ الرداءةِ عليه كلَّ مرة، وهذا هو التَّجربة، وكذا يقال في نظائره.

وأنت تعلم أنَّ التجاربَ التي دلَّت على كَذِبَ ما يقولون بوقوع خلافِه أضعافُ التجاربِ التي دلَّت على صدقه؛ فقد أجمع حذَّاقُهم سنةَ سبعٍ وثلاثين عامَ خروجِ عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه إلى صفِّين على أنَّه يُقتل ويُقهر جيشُه، فانتصر على أهل الشام، ولم يقدروا على التخلُّص إلَّا بالحيلة. وإنْ لم يسلِّم هذا الإجماع، فإجماعُهم على مِثله في خروجه كرَّم اللهُ تعالى وجهَه لحرب الخوارجِ حيث كان القمرُ في العقرب، وقولِه ﷺ: نخرج ثقةً بالله تعالى، وتوكُّلاً عليه سبحانه، وتكذيباً لقول المنجِّم(١). ونُصرتِه الخارجةِ عن القياس = ممَّا شاع وذاع، ولو قيل بتواتره ولم يَبعُد.

وأجمعوا سنةَ ستٍّ وستِّين على غَلَبة عبيدِ الله بن زيادٍ وقد سار بنحوٍ من ثمانين ألف مقاتلٍ على المختار بنِ أبي عُبيد، فلقيه إبراهيمُ بن الأشترِ صاحبُ المختارِ بأرض نصِيبين فيما دون سبعةِ آلافِ مقاتل، فقَتل من عسكره نحواً من ثلاثةٍ وسبعين ألفاً، وضربه وهو لا يعرفه فقتله، ولم يُقتل من أصحابه أكثرُ من مئة.

وأجمعوا يومَ أسِّست بغدادُ سنةَ ستٍّ وأربعين ومئةٍ على أنَّ طالعَها يقضي بأنَّه لا يموت فيها خليفة، وشاع ذلك، حتى قال بعضُ شعراءِ المنصور مهنِّئاً له:

(١) أخرجه بنحوه مطولاً الحارث بن أبي أسامة في مسنده (٥٦٤ - بغية الباحث).

يَهنيك منها بلدةٌ تقضي لنا ... أنَّ المماتَ بها عليك حرامُ
لمَّا قضت أحكامُ طالعِ وقتها ... أنْ لا يُرى فيها يموت إمام

فأوَّلُ ما ظهر كذبُ ذلك بقتل الأمينِ بشارع باب الأنبار، فقال بعضُ الشعراء:

كذب المنجِّمُ في مقالته التي ... كان ادَّعاها في بِنا بَغدانِ
قَتلُ الأمينِ بها لَعمري يقتضي ... تكذيبَهم في سائر الحُسبانِ[1]

ثم مات فيها جماعةٌ من الخلفاء، كالواثق، والمتوكِّل، والمعتضِد، والناصر، وغيرِهم، إلى أمورٍ أخرَ لا تكاد تُحصَى، أجمعوا فيها على حكمٍ وتبيَّن كذبُهم فيه.

على أنَّه قد يقال لهم: المؤثِّر في السُّعود والنُّحوس ونحوهما هل هو الكوكبُ وحده، أو البرجُ وحده، أو الكوكبُ بشرط حصولِه في البرج؟ فإنْ قالوا بأحد الأمرين الأوَّلين، لَزِمهم دوامُ الأثر؛ لدوام المؤثِّر. وإنْ قالوا بالثالث، لَزِمهم القولُ باختلاف البروجِ في الطبيعة، وإلَّا لاتَّحدت آثارُ الكوكبِ فيها، وكلُّهم مُجمِعون على أنَّ الفلكَ بسيطٌ لا تركيبَ فيه، والتزامُ التركيبِ من طبائعَ مختلفةٍ ينافي قولَهم بامتناع الانحلال.

وزعمُ بعضِهم أنَّها تفعل ما تفعل بالاختيار يستدعي إلغاءَ أمرِ الاتصالِ والانفصال، والمقارنةِ والهبوط، ونحوِ ذلك، وكونُ ما ذكر شرطاً للاختيار لا يخفَى حالُه، والقولُ بأنَّها تستدعي من حيث طبيعةُ أشعتها التسخين والتبريد، وهما يوجبان اختلاف أمزجة الأبدان، واختلافها يوجب اختلاف أفعال النفس، يَرِدُ عليه أنَّا نرى التسخين مثلاً يقتضي حرارة وحِدَّة في المزاج، يفعل بها شخصٌ غايةَ الخيرِ والأفعالِ الحميدة، وآخَرُ غايةَ الشرِّ والأفعالِ الخبيثة، فلابدَّ لهذا الاختلافِ من موجبٍ غير التسخين. وأيضاً هم يقولون: جميعُ الحوادثِ الكونيةِ مستندٌ إلى الكواكب، وحديثُ التسخينِ والتبريدِ واستلزامُهما اختلافَ أفعالِ النفسِ لا يتمُّ به هذا الغرض.

---

(١) الأبيات مذكورة في مفتاح دار السعادة ص ٤٧٤.

وذكر الإمام الرازيُّ عليه الرحمةُ أنَّ المثبتين لعلم الأحكامِ والتأثيرات ـ أي: من الإسلاميِّين ـ احتجُّوا من كتاب اللهِ تعالى بآيات، وهي أنواع:

الأوَّل: الآياتُ الدالَّة على تعظيم الكواكب، فمنها قولُه تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥-١٦] وأكثرُ المفسِّرين على أنَّ المرادَ هو الكواكبُ التي تصير راجعةً تارةً ومستقيمةً أخرى. ومنها قولُه تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٦] وقد صرَّح سبحانه بتعظيم هذا القَسَم، وذلك يدلُّ على غاية جلالةِ مواقعِ النجومِ ونهايةِ شرفها. ومنها قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ١-٣] قال ابنُ عباس: الثاقبُ هو زُحَل؛ لأنَّه يثقب بنوره سَمْكَ السماواتِ السبع. ومنها قولُه تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] فقد بيَّن سبحانه إلهيتَه بكون هذه الكواكبِ تحت تدبيرِه وتسخيرِه.

النوعُ الثاني: ما يدلُّ على وصفه تعالى بعضَ الأيامِ بالنُّحوسة، كقوله سبحانه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ [فصلت: ١٦].

النوعُ الثالث: الآياتُ الدالَّة على أنَّ لها تأثيراً في هذا العالَم، كقوله تعالى: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ [النازعات: ٥] وقوله تعالى ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ [الذاريات: ٤] قال بعضُهم: المرادُ هذه الكواكب.

الرابع: الآياتُ الدالَّة على أنَّه تعالى جعل حركاتِ هذه الأجرام وخلقَها على وجهٍ ينتفع بها في مصالح هذا العالَم، كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [يونس: ٥] وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا﴾ [الفرقان: ٦١].

النوعُ الخامس: أنَّه تعالى حكى عن إبراهيمَ عليه السلام أنَّه تمسَّك بعلم النُّجوم، فقال سبحانه: ﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ﴾ [الصافات: ٨٨-٨٩].

السادس: أنَّه تعالى قال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر:٥٧] ولا يكونُ المرادُ كبرَ الجثَّة؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ يعلمه، فوجب أن يكونَ المرادُ كبرَ القدرِ والشَّرف، وقال سبحانه: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران:١٩١] ولا يجوز أن يكونَ المرادُ أنَّه تعالى خلقها ليستدلَّ بتركيبها وتأليفِها على وجود الصَّانع؛ لأنَّ هذا القدرَ حاصلٌ في تركيب البعوضة، ودلالةُ حصولِ الحياةِ في بنية الحيواناتِ على وجود الصانعِ أقوى من دلالة تركيبِ الأجرام الفلكيةِ عليه؛ لأنَّ الحياةَ لا يقدر عليها غيرُه تعالى، وجنسُ التركيبِ يقدر عليه الغير، فلما خصَّها سبحانه وتعالى بهذا التشريفِ المستفادِ من قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ علمنا أنَّ في تخليقها أسراراً عالية، وحِكَماً بالغة، تتقاصر عقولُ البشرِ عن إدراكها. ويَقرُب من هذه الآيةِ قولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص:٢٧] ولا يمكن أن يكونَ المرادُ أنَّه تعالى خلقها على وجهٍ يمكن الاستدلالُ بها على وجود الصانع الحكيم؛ لأنَّ كونَها دالَّةً على الافتقار إلى الصانع أمرٌ ثابتٌ لها لذاتها، لأنَّ كلَّ متحيِّزٍ محدَث، وكلُّ محدثٍ مفتقرٌ إلى الفاعل، فثبت أنَّ دلالةَ المتحيِّزاتِ على وجود الفاعلِ أمرٌ ثابتٌ لها لذواتها وأعيانِها، وما كان كذلك لم يكن سببَ الفعلِ والجعل، فلم يمكن حملُ الآيةِ على هذا الوجه، فوجب حملُها على الوجه الذي ذكر.

النوع السابع: رُوي أنَّ عمرَ بن الخيَّامِ(١) كان يقرأ كتابَ المجسطي على أستاذه، فدخل عليهم واحدٌ من المتفقِّهة فقال: ما تقرؤون؟ فقال عمر: نحن في تفسير آيةٍ من كتاب اللهِ تعالى ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق:٦] فنحن ننظر كيف خَلَقَ السماءَ وكيف بناها وكيف صانها عن الفُروج.

---

(١) أخرجه بنحوه مطولاً الحارث بن أبي أسامة في مسنده (٥٦٤ - بغية الباحث).

(٢) هو عمر بن إبراهيم أبو الفتح النيسابوري، شاعر فيلسوف فارسي، كان عالماً بالرياضيات والفلك واللغة والفقه والتاريخ. توفي سنة (٥١٥هـ). الأعلام ٥/٣٨.

الثامن: أنَّ إبراهيمَ عليه السلام لمَّا استدلَّ على إثبات الصانعِ تعالى بقوله: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨] قال له نُمروذ: أتدَّعي أنَّه يحيي ويُميت بواسطة الطبائعِ والعناصرِ أو لا بواسطتها؟ فإن ادَّعيتَ الأوَّل، فذلك ممَّا لا تجده ألبتَّة؛ لأنَّ كلَّ ما يحدث في هذا العالَمِ فهو بواسطة العناصرِ والحركاتِ الفلكية، وإن ادَّعيتَ الثاني، فمثلُ هذا الإحياءِ والإماتةِ حاصلٌ منِّي ومن كلِّ أحد، وهو المرادُ بقوله: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨] ثم إنَّ إبراهيمَ عليه السلام لم ينازعْ في كون هذه الحوادثِ السفليةِ مرتبطةً بالحركات الفَلَكية، بل أجاب بأنَّ اللهَ تعالى هو المبدأُ لتلك الحركات، فيكون الفعلُ منه سبحانه حقيقة، والواحدُ منَّا لا يقدر على تحريك الأفلاك، على خلاف التحريكِ الإلهيّ، وهذا هو المرادُ بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨].

وإذا عرفتَ نهجَ الكلامِ في هذا الباب، عرفتَ أنَّ القرآنَ العظيمَ مملوءٌ من تعظيم الأجرامِ الفلكية، وتشريفِ الكراتِ الكوكبية.

وأمَّا الأخبارُ فكثيرة، منها ما رُوي أنَّه عليه الصلاة والسلام نهى عن استقبال الشمسِ والقمرِ واستدبارِهما عند قضاءِ الحاجة(١). ومنها أنَّه لمَّا مات ولدُه ﷺ إبراهيم، انكسفت الشَّمس، فقال الناس: إنَّما انكسفت لموت إبراهيم، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الشمسَ والقمرَ آيتان من آيات اللهِ تعالى، لا ينكسفانِ لموت أحدٍ ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصَّلاة»(٢) ومنها ما روى ابنُ مسعودٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا ذُكر القدرُ فأمسكوا، وإذا ذُكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكر النجومُ فأمسكوا»(٣) ومن الناس مَن يروي أنَّه ﷺ قال: «لا تسافروا والقمرُ في العقرب»(٤) ومنهم مَن يرويه عن عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه(٥)، وإن كان المحدِّثون لا يقبلونه.

---

(١) قال ابن حجر في التلخيص الحبير ١/ ١٠٣: قال النووي في شرح المهذب: هذا حديث باطل لا يُعرَف. وقال ابن الصلاح: لا يُعرف وهو ضعيف. . . .

(٢) أخرجه البخاري (١٠٤٦)، ومسلم (٩٠١) من حديث عائشة ﵂.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٤٢٧) و(١٠٤٤٨) من حديث ثوبان وعبد الله بن مسعود ﵄.

(٤) ذكره الصغاني في الموضوعات (٩٩).

(٥) وهو من الكذب عليه رضي الله تعالى عنه كما سيَرِدُ.

وأمَّا الآثارُ فكثيرةٌ أيضاً، فعن عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه أنَّ رجلاً أتاه آخرَ الشهرِ فقال: أُريد الخروجَ في تجارة، فقال: تريد أن يمحقَ اللهُ تعالى تجارتَك، استقبل هلالَ الشهرِ بالخروج.

وعن عكرمةَ أنَّ يهوديًّا منجِّماً قال له ابنُ عباس: ويحكَ، تخبرُ الناسَ بما لا تدري، فقال: إنَّ لك ابناً في المكتب يحمُّ غداً ويموت في اليوم العاشر، فقال ابنُ عباس: ومتى تموت أنت؟ قال: على رأس السَّنة، ثم قال له: ولا تموتُ أنت حتى تعمَى، فكان كلُّ ذلك.

وعن الشعبيِّ قال: قال أبو الدَّرداء: لقد فارق رسولُ اللهِ ﷺ وترَكَنا ولا طائرٌ يطير بجناحيه إلَّا ونحن ندَّعي فيه علماً. وليست الكواكبُ موكلةً بالفساد والصَّلاح، ولكن فيها دليلُ بعضِ الحوادث، عُرف ذلك بالتجربة.

وجاءَ في الآثار أنَّ أوَّلَ مَن أُعطي هذا العلمَ آدمُ عليه السلام، وذلك أنَّه عاش حتى أَدرك من ذرِّيته أربعين ألفَ أهلِ بيت، وتفرَّقوا عنه في الأرض، وكان يغتمُّ لخفاءِ خبرهم، فأكرمه اللهُ تعالى بهذا العلم، فكان إذا أراد أن يعرفَ حالَ أحدِهم، نظر في النُّجوم فعرفه.

وعن ميمون بنِ مهرانَ أنَّه قال: إيَّاكم والتكذيبَ بالنجوم؛ فإنَّه من علم النبوَّة.

ورُوي عن الشافعيِّ أنَّه كان عالماً بالنُّجوم، وجاء لبعض جيرانِه ولد، فحكم له بأنَّ هذا الولدَ ينبغي أن يكونَ على عضوه الفلانيِّ خالٌ صفتُه كذا وكذا، فوُجد الأمرُ كما قال.

وروى ابنُ إسحاق أنَّ المنجِّمين أَخبروا فرعونَ أنَّه سيجيء ولدٌ من بني إسرائيلَ يكون هلاكُه على يده، وكذا كان، كما قصَّ الله تعالى: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٤].

وأمَّا المعقول، فهو أنَّ هذا العلمَ ما خلت عنه مِلَّةٌ من المِلَل، ولا أمةٌ من الأُمم، ولم يزالوا مشتغلين به، معوِّلين عليه في معرفةِ المصالح، ولو كان فاسداً

بالكلّية، لاستحال إطباقُ أهلِ المشرقِ والمغرب من أوّل بناءِ العالَم إلى آخره عليه، والتجاربُ في هذا البابِ أكثرُ من أن تُحصَى. اهـ كلامُه.

ولَعمري لقد نثر الكِنانة، ونفض الجُعبة، واستفرغ الوُسع، وبذل الجهد، وروَّج وبهرج، وقعقعَ وفرقع، ومن غير طحنٍ جعجع، وجمع بين ما يُعلم بالضَّرورة أنّه كذبٌ على رسول اللهِ ﷺ وعلى أصحابه، وما يُعلم بالضَّرورة أنَّه خطأٌ في تأويل كلامِ اللهِ تعالى ومعرفةِ مرادهِ سبحانه، ولا يروج ما ذكره إلَّا على مُفرِطٍ في الجهل، أو مقلّدٍ لأهل الباطلِ من المنجّمين.

وإن أردت الإيضاحَ وأَحببتَ الاتّضاح، فاسمعْ لما نقول: ما ذكره من الاستدلالات أوهَى من بيوت العناكب، وأشبهُ شيءٍ بنار الحُباحب.

فأمَّا الاستدلالُ بقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦﴾ ففيه أنَّا لا نسلِّم أنَّ هناك قَسَماً بالنجوم، فقد رُوي عن ابن مسعودٍ أنَّ المرادَ بالخنَّس بقرُ الوحش، وهي روايةٌ عن ابن عباس، واختاره ابنُ جبير، وحكى الماورديُّ[1] أنَّها الملائكة. وإذا سلِّم ذلك، بناءً على أنَّه الذي ذهب إليه الجمهور، فأيُّ دلالةٍ فيه على التأثير، وقد أَقسم سبحانه بالليل والنهارِ والضُّحى، ومكَّة، والوالدِ وما ولد، والفجرِ وليالٍ عشرٍ والشفعِ والوَتر، والسماءِ والأرض، واليومِ الموعودِ وشاهدٍ ومشهود، والمرسَلات، والعاصفات، والنَّاشرات، والفارقات، والنَّازعات، والنَّاشطات، والسَّابحات، والسَّابقات، والتينِ والزيتونِ وطورِ سِينين، إلى غير ذلك، فلو كان الإقسام بشيءٍ دليلاً على تأثيره، لَزِمَ أن يكونَ جميعُ ما أَقسم به تعالى مؤثِّراً، وهم لا يقولون به، وإنْ لم يكن دليلاً، فالاستدلالُ به باطل.

ومثلُه في ذلك الاستدلالُ بقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾ وقد فسَّر غيرُ واحدٍ مواقعَ النجومِ بمنازل القرآنِ ونجومِه التي نزلت على النبيِّ ﷺ في مدَّة ثلاثٍ وعشرين سنة، وكذا الاستدلالُ بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾.

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٢١٦.

وأمَّا قولُه تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ فلم يقل أحدٌ من الصَّحابة والتابعين وعلماءِ التفسيرِ أنَّه إقسامٌ بالنجوم؛ فهذا ابنُ عباسٍ وعطاءٌ وعبدُ الرحمن بنُ سابطٍ وابنُ قتيبةَ[1] وغيرُهم قالوا: إنَّ المرادَ بالمدبِّرات أمراً الملائكة، حتى قال ابنُ عطية[2]: لا أحفظ خلافاً في ذلك. وكذلك «المقسمات أمراً» فتفسيرُهما بالنُّجوم تفسيرُ المنجِّمين ومَن سلك سبيلَهم، وهو تفسيرٌ بالرأي، والعياذُ بالله تعالى.

وأمَّا وصفُه تعالى بعضَ الأيامِ بالنُّحوسة كما في الآية التي ذكرها، فليس ذلك لتأثير الكواكبِ ونحوستِها بحسَب ما يزعم المنجِّم، بل لأنَّ اللهَ تعالى عذَّب أعداءه فيها، فهي أيامٌ مشائيمُ على الأعداء، فوصفُ تلك الأيامِ بنَحِسات كوصف يومِ القيامةِ بأنَّه عسيرٌ على الكافرين.

وكذا يقال في قوله تعالى: ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩﴾ وليس «مستمر» فيه صفةَ «يوم» بل هو صفة «نحس»، أي: نحسٍ دائم، لا يُقلع عنهم كما تقلع مصائبُ الدُّنيا عن أهلها. والقولُ بأنَّه صفةُ «يوم» وأنَّ المرادَ به يومُ أربعاء آخِر الشهرِ وأنَّه نحسٌ أبداً، غلط، ولا يكاد المنجِّم يزعم نحوسةَ يومِ أربعاء آخر الشهرِ ولو شهر صفر أبداً، بل كثيراً ما يحكم بغاية سعدِه حسبَما تقتضيه الأوضاعُ الفلكيةُ فيه بزعمه.

وأمَّا استدلالُه بالآيات الدالَّةِ على أنَّه سبحانه وضع حركاتِ هذه الأجرامِ على وجهٍ يُنتفع بها في مصالح هذا العالَم، فمن الطَّرائف؛ إذ الأليق ـ لو صحَّ زعمُ المنجِّم ـ أنْ يذكرَ في الآية ما تقتضيه النجومُ من السَّعد والنَّحس، وتعطيه من السَّعادة والشَّقاوة، وتهبه من الأعمار والأرزاقِ والعلومِ والمعارف، وسائرِ ما في العالَم من الخير والشر؛ فإنَّ العِبرةَ بذلك أعظمُ من العِبرة بمجرَّد الضياءِ والنور، ومعرفةِ عددِ السِّنينَ والحساب.

وأمَّا ما ذكره عن إبراهيمَ عليه السلام من أنه تمسَّك بعلم النُّجومِ حين قال: «إني سقيم» فسقيمٌ جدّاً، وقد سمعتَ ما قيل في الآية، ولا ينبغي أن يظنَّ بإمام

(١) في غريب القرآن ص٥١٢.
(٢) في المحرر الوجيز ٥/ ٤٣١.

الحنفاءِ وشيخِ الأنبياءِ وخليلِ ربِّ الأرضِ والسماءِ أنَّه كان يتعاطى علمَ النجومِ ويأخذ منه أحكامَ الحوادث، ولو فُتح هذا البابُ على الأنبياءِ عليهم السلام، لاحتمل أن يكونَ جميعُ أخبارِهم عن المستقبَلات من أَوضاع النجومِ لا من الوحي. وهو كما ترى.

وأمَّا الاستدلالُ بقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ وأنَّ المرادَ به كِبَرُ القدرِ والشرفِ لا كبرُ الجثَّة، ففي غاية الفساد؛ فإنَّ المرادَ من الخلق هاهنا الفعلُ لا المفعول، والآيةُ للدَّلالة على المعاد، أي: إنَّ الذي خلق السماواتِ والأرضَ وخلقُهما أكبرُ من خلقكم كيف يُعجزه أن يُعيدَكم بعد الموت؟! ونظيرُها قولُه تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ وأين هذا من بحث أحكامِ النُّجوم وتأثيراتِها، ومثلُ هذا الاستدلالُ بقوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ فإنَّ خلقَ السماواتِ والأرضِ من أعظم الأدلَّةِ على وجود فاطرِهما وكمالِ قدرتِه وحكمتِه وعِلمه وانفرادِه بالرُّبوبية، ومَن سوَّى بينهما وبين البقَّةِ فقد كابر، ولذا ترى الأشياءَ الضعيفة، كالبعوضة والذبابِ والعنكبوت، إنَّما تُذكر في سياق ضربِ الأمثال، مبالغةً في الاحتقار والضَّعف، ولا تُذكر في سياق الاستدلالِ على عظمةِ ذي الجلالِ جلَّ شأنُه، على أنَّ الآيةَ لو دلَّت على أنَّ للكواكب تأثيراً، لَدلَّت على أنَّ للأرض تأثيراً أيضاً كالكواكب، وهم لم يقولوا به.

وما ذكره بعدُ من أنَّ دلالةَ حصولِ الحياةِ في أبدانِ الحيواناتِ أَقوى من دلالة السماواتِ والأرض. . إلى آخر ما قال، في حيِّز المنع. ونظيرُ ذلك الاستدلالُ بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ فإنَّه لا يدلُّ أيضاً على أنَّ للكواكب تأثيراً، وغايةُ ما تدلُّ عليه هذه الآيةُ ونظائرُها أنَّ تلك المخلوقاتِ فيها حِكَم ومصالح، وليست باطلة، أي: خاليةً عن ذلك، ونحن نقول بما تدلُّ عليه، ولكن لا نقولُ بأنَّ تلك الحكمَ هي الإِسعادُ والإِشقاء، وهبةُ الأعمارِ والأرزاق، إلى غير ذلك ممَّا يزعمه المنجِّمون، بل هي الآثارُ الظاهرةُ في عالَم الطبيعة ـ على ما سمعت ـ ونحوها، كالدَّلالة على وجود الصانعِ وكثيرٍ من صفاته جلَّ شأنُه التي

يُنكرها الكفرة، ولا مانعَ من أن يقال: خلق اللهُ تعالى كذا لتظهرَ دلالتهُ على كذا، ولا تتعيَّن العبارةُ التي ذكرها، على أنَّه لا بأسَ بها عند تدقيقِ النظر. ولعل ما قاله من فروع كونِ الماهيَات غيرَ مجعولة، والكلامُ فيه شهير.

وأمَّا ما ذكره عن عمرَ بنِ الخيَّام، فهو على طرف الثُّمام.

وأمَّا ما ذكره في محاجَّة إبراهيمَ عليه السلام وتقريرِ المناظرةِ على ما قرَّره، فلم يقل به أحدٌ من المفسِّرين؛ سلفِهم وخلفِهم، بل قد يُقطع بأنَّه لم يخطرْ بقلب المشركِ المناظر، وما هو إلَّا تفسيرٌ بالرأي والتشهِّي، نعوذ باللهِ تعالى من ذلك.

وأمَّا استدلالُه بما رُوي من نهيه عليه الصلاة والسلام عن استقبال الشمسِ والقمرِ عند قضاءِ الحاجة، فبعيدٌ عن حاجته، بل لا دلالةَ للنهي المذكورِ على تأثير الكواكبِ الذي يزعمونه، وإلَّا لدلَّ النهيُ عن استقبال الكعبةِ عند قضاءِ الحاجةِ على أنَّ لها تأثيراً، على أنَّ بعضَ الأجِلَّة[1] قد ذكر أنَّ ذلك النهيَ لم يُنقَل فيه عن رسول اللهِ ﷺ كلمةٌ واحدة، لا بإسنادٍ صحيحٍ ولا ضعيف، ولا متَّصلٍ ولا مرسل[2]، وإنَّما قال بعضُ الفقهاءِ في آداب التخلِّي: ولا يَستقبل الشمسَ والقمر، فقيل: لأنَّ ذلك أبلغُ في التستُّر، وقيل: لأنَّ نورَهما من نوره تعالى، وقيل: لأنَّ اسمَ اللهِ تعالى مكتوبٌ عليهما.

وأمَّا ما ذكر من حديث كسوفِ الشمسِ يومَ موتِ إبراهيمَ وقولِه عليه الصلاة والسلام ما قال، فصحيح، لكن لا يدلُّ على ما يزعمه المنجِّمون، وصدرُ الحديثِ يدلُّ على أنَّ الشمسَ والقمرَ آيتان، وليسا بربَّين ولا إلهين، ففيه إشارةٌ إلى نفي التصرُّفِ عنهما. وفي قوله عليه الصلاة والسلام: «لا ينكسفانِ لموت أحدٍ ولا لحياته» قولان: أحدُهما: أنَّ موتَ أحدٍ وحياتَه لا يكونان سبباً لانكسافهما. وثانيهما: أنَّه لا يحصلُ عن انكسافهما موتٌ ولا حياة، وإنَّما ذلك تخويفٌ من اللهِ

---

(١) جاء في هامش الأصل: ابن القيم عليه الرحمة. اهـ منه.

(٢) القائل ابن القيم في كتابه مفتاح دار السعادة ص٥٤٩-٥٥٠.

تعالى لعباده، أجرى العادةَ بحصوله في أوقاتٍ معلومةٍ بالحساب؛ لطلوع الهلالِ وإبدارِه وسِرَاره.

فأمَّا سببُ كسوفِ الشمس، فتوسُّطُ القمرِ بين جِرمِ الشمسِ وأبصارنا، كسحابةٍ تمرُّ تحتها، فإنْ لم يكن للقمر عرض، ستر عنا كلَّ الشمس، وإنْ كان له عرض، فبِقَدْرِ ما يوجبه عرضُه.

وأما سببُ خسوفِ القمر، فهو توسُّطُ الأرضِ بينه وبين الشَّمس، حتى يصيرَ ممنوعاً من اكتساب النُّورِ من الشمس ويبقى ظلامُ ظلِّ الأرضِ المخروطِ في ممرِّه، فقد يقع كلُّه في المخروط، وقد يقع بعضُه فيه ويبقى بعضُه الآخَرُ خارجاً.. إلى آخر ما قرِّر في موضعه، وليس في الشَّرع ما يأباه.

والوقوفُ على وقت الكسوفِ والخسوفِ ومقدارِهما أمرٌ سهل، ولا يَلزم من صدق المنجِّم في ذلك صدقُه فيما يزعم من التأثيرات، وما الإخبارُ بهما إلَّا كالإخبار بوقت طلوعِ الشمسِ في يومِ كذا في ساعةِ كذا، وكالإخبار بوقت الهلالِ والإبدارِ والسرار.

ثم إنَّا لا نُنكر أنَّ اللهَ تعالى يُحدث عند الكسوفَين من أَقضيته وأقدارِه ما يكون بلاءً لقومٍ ومصيبةً لهم، ويجعل الكسوفَ سبباً لذلك؛ ولهذا أَمر ﷺ عند الكسوفِ بالفزع إلى ذِكر اللهِ تعالى والصلاةِ والعَتاقةِ والصَّدقة، لأنَّ هذه الأشياءَ تكون سبباً لدفع موجبِ الكسفِ الذي جعله اللهُ تعالى سبباً لما جعله، فلولا انعقادُ سببِ التخويف، لَمَا أمر عليه الصلاة والسلام بدفع موجبِه بهذه العبادات. ولله تعالى في أيام دهرِه أوقاتٌ يُحدث فيها ما يشاء من البلاءِ والنَّعماء، ويقضي من الأسبابِ بما يدفع موجبَ تلك الأسبابِ لمن قامت به، أو يقلِّله، أو يخفِّفه، فمَن فزع إلى تلك الأسبابِ أو بعضِها اندفع عنه الشرُّ الذي جعل اللهُ تعالى الكسوفَ سبباً له أو بعضُه؛ ولهذا قلَّما يسلم أطرافُ الأرضِ حيث يخفَى الإيمانُ وما جاءت به الرسلُ فيها من شرٍّ عظيمٍ يحصل بسبب الكسوف، ويسلم منه الأماكنُ التي يظهر فيها نورُ النبوَّة والقيامُ بما جاءت به الرُّسل، أو يقلُّ فيها جدّاً.

وقد جاء أنَّه ﷺ لمّا كُسفت الشمس في عهده قام فَزِعاً مسرعاً يجرُّ رداءه، ونادى في الناس: «الصلاة جامعة» وخَطَبهم بتلك الخطبةِ البليغة، وأخبر أنَّه لم يرَ كيومه ذلك في الخير والشرّ، وأمرهم عند حصولِ مثلِ تلك الحالةِ بالعَتاقة والصدقةِ والصلاةِ والتوبة[١]، وما ذلك إلَّا لكونه عليه الصلاة والسلام أعلمَ الخلقِ بالله تعالى وبأمره وشأنِه وتصريفِه أمورَ مخلوقاتِه وتدبيرِه، وأنصحَهم للأمَّة، وأشْفَقَهم على العباد، ولم يبيِّن لهم عليه الصلاة والسلام أسبابَ الكسوفين وحسابَهما؛ لأنَّ الجهلَ بذلك لا يضرّ، والعلم به لا ينفع نفعَ العلمِ بما جاءت به الرُّسلُ عليهم السلام.

وقد يقال: الأمرُ بالصَّلاة عندهما كالأمر بالصَّلاة عند طلوعِ الفجرِ والغروبِ والزَّوال، مع تضمُّن ذلك رفعَ موجبِهما الذي جعلهما الله تعالى سبباً له.

ومن الناس مَن أنكر أن يكونَ الكسوفان سببين لشيءٍ من البلاءِ أصلاً، وأنَّ سببَ حصولِهما ليس ما أطال الكلامَ فيه المنجِّمون ومرَّ بعضُه، بل السببُ هو تجلِّي اللهِ تعالى عليهما؛ لِمَا أخرجه ابنُ ماجه في «سننه» والإمامُ أحمدُ والنَّسائيُّ[٢] من حديث النعمانِ بن بشيرٍ قال: انكسفت الشمسُ على عهد النبيِّ ﷺ، فخرج فزِعاً يجرُّ ثوبَه حتى أتى المسجد، فلم يزل يصلِّي حتى انجلت، ثم قال: «إنَّ ناساً يزعمون أنَّ الشمسَ والقمرَ لا ينكسفان إلَّا لموت عظيمٍ من العظماء، وليس كذلك، إنَّ الشمسَ والقمرَ لا ينكسفان لموت أحدٍ ولا لحياته، فإذا تجلَّى اللهُ تعالى لشيءٍ من خلقه خَشَعَ له».

وأنَّ الأمرَ بالصلاةِ لظهور آثارِ تجلِّي الجلالِ في هذين الجِرمين العظيمين، أو هو كالأمر بالصَّلاة عند غروبِ الشمسِ وطلوعِ الفجر مثلاً، وحكمتُه كحكمته، والقائلون بهذا مكابرون للفلاسفة في أشياءَ لا ينبغي المكابرةُ فيها، ولعلها تضرُّ بالدِّين، وتصيرُ سبباً لطعن الملحدين، فيكابرون في كون الأفلاكِ مستديرةً والأرضِ كُرَيةً، وأنَّ نورَ القمرِ مستفادٌ من ضياءِ الشمس، وأنَّ الكسوفَ القمري عبارة عن

---

(١) سلف حديث الكسوف قريباً ص٩٦.

(٢) سنن ابن ماجه (١٢٦٢)، ومسند أحمد (١٨٣٥١)، وسنن النسائي ٣/ ١٤١.

انمحاء نور القمر بتوسط الأرض بينه وبين الشمس، من حيث إنَّ نورَه مقتبسٌ منها، وأنَّ الكسوفَ الشمسيَّ عبارةٌ عن وقوع جِرم القمرِ بين الناظرِ والشمسِ عند اجتماعِهما في العُقدتين على دقيقةٍ واحدة، وقولُهم بتأثير الأسبابِ المحسوسةِ في مسبَّباتها وإثباتِ القُوى والطبائعِ والأفعالِ والانفعالاتِ إلى غير ذلك، ممَّا تقوم عليه الأدلةُ اليقينيةُ ولا تعارضه النصوصُ الشرعيةُ القطعية.

وما ذكروه من الحديث تعقَّبه حجَّةُ الإسلام الغزاليُّ فقال: إنَّ زيادة: فإنَّ الله[1].. إلخ، لم يصحَّ نقلُها، فيجب تكذيبُ قائلها، ولو صحَّت، لَكان تأويلُها أهونَ من مكابرة أمورٍ قطعية، فكم من ظواهرَ أوِّلت بالأدلة العقليةِ التي لم تبلغْ في الوضوح إلى هذا الحدّ، وأعظمُ ما يفرح به الملحدةُ أن يصرِّحَ ناصرُ الشرعِ بأنَّ هذا وأمثالَه على خلاف الشَّرع، فيسهل عليه إبطالُ الشرعِ إن كان شرطُه أمثالَ ذلك. اهـ.

وليس الأمرُ في هذه كما قال من عدم الصِّحَّة، فإنَّ إسنادَها لا مطعنَ فيه، فابنُ ماجه يروي الحديثَ بهذه الزيادةِ عن محمد بنِ المثنَّى وأحمدَ بنِ ثابتٍ وحُميدِ بن الحسن، وهم يروونه عن عبد الوهَّاب، عن خالدٍ الحذَّاء، عن أبي قِلابة، عن النُّعمان بنِ بشير، وكلُّ هؤلاء ثقاتٌ حفَّاظ[2]. نعم الحديثُ الخالي عنها رواه بضعةَ عشرَ صحابيّاً، منهم عليٌّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه، وابنُ عباس، وعائشة، وأسماء أختها، وأُبيُّ بن كعب، وجابرُ بن عبدِ الله، وسَمُرةُ بن جُندب، وقَبيصة الهلالي، وعبدُ الله بن عَمرو، ومن هنا خاف بعضُ الأَجلَّة أن تكونَ مدرجةً في الحديث، لكنه خلافُ الظاهر، وحينئذٍ يقال: إنَّ كسوفَ الشمسِ والقمرِ يوجب لهما ضَعْفَ سلطانِهما وبهائهما، وذلك يوجبُ لهما من الخشوع والخضوعِ لربِّ العالمين وعَظَمتِه وجلالِه سبحانه ما يكون سبباً لتجلِّيه عزَّ وجلَّ لهما، ولا يستنكَر أن يكونَ تجلِّي اللهِ سبحانه لهما في وقتٍ معيَّن كما يدنو سبحانه من أَهل الموقفِ عشية

---

(١) كذا في الأصل و(م)، والصواب: فإذا تجلَّى الله...

(٢) إلا أن رواية أبي قلابة عن النعمان بن بشير مرسلة فيما ذكر يحيى بن معين، وفيها اضطراب أيضاً، انظر مسند أحمد وقد سلف قريباً.

عرفة، وكما يَنزل تبارك وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى سماءِ الدنيا عند مُضيِّ نصفِ الليل، فيُحدث لهما ذلك التجلِّي خشوعاً آخَرَ ليس هو الكسوف، فإنه إنَّما حدث بالسَّبب الذي عرفت، ولم يقل النبيُّ ﷺ: إنَّ الله تعالى إذا تجلَّى لهما انكسفا، بل قال: «فإذا تجلَّى اللهُ لشيءٍ من خلقِه خشع له»[1]. وفي رواية الإمامِ أحمد: «إذا بدا اللهُ لشيءٍ من خلقه خَشَعَ له» فهاهنا خشوعان: خشوعٌ أَوجبه كسوفُهما الحادثُ من وضعهما الخاصّ، وخشوعٌ أَوجبه تجلِّيه تعالى لهما لذلك الخشوعِ الذي أَوجبه الكسوف. وهذا توجيهٌ لطيفُ المنزع، يقبله العقلُ المستقيمُ والفطرةُ السليمةُ إن شاء اللهُ تعالى.

وأمَّا استدلالُه بحديث ابنِ مسعود، ففيه ـ على ما قيل ـ أنَّ الحديثَ لو ثبت، لَكان حجَّةً عليه لا له؛ إذ لو كان علمُ النجومِ حقًّا، لم يأمر ﷺ بالإمساك عند ذكرِ النُّجوم، فالظاهرُ أنَّه عليه الصلاة والسلام لم يأمرْ بذلك إلَّا لأنَّ الخوضَ في ذلك خوضٌ فيما لا علمَ للخائض به، فتأمَّل.

وأمَّا حديثُ النهي عن السفر والقمر في العقرب، فصحيحٌ من كلام المنجِّمين، دونَ رسولِ ربِّ العالَمين ﷺ، وروايتُه عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه كذبٌ أيضاً، والمشهورُ عنه خلافُ ذلك، كما سمعتَ في قصَّة خروجِه لقتال الخوارج.

وأمَّا ما احتجَّ به من الأثر عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه أنَّ رجلاً أتاه.. إلخ، فلا يُعلم ثبوتُه عنه رضي الله عنه، والكذَّابون كثيراً ما يُنفقون سِلَعَهم الباطلةَ بنسبتها إليه أو إلى أهل بيتِه، ثم لو صحَّ عنه، فليس فيه تعرُّضٌ لثبوت أحكامِ النجومِ بوجه، وقد جاءَ عن النبيِّ عليه الصلاة والسلام أنَّه قال: «اللهمَّ بارِكْ لأمَّتي في بُكورها»[2] ونسبةُ أوَّل الشهرِ إليه كنسبة أولِ النَّهار إليه، وكان صخرٌ راوي الحديثِ إذا بعث تجارةً له، بعثها في أوَّلَ النهار، فأثرى وكثر مالُه. ولا يَبعُد أن يكونَ أوَّلُ السنةِ كأوَّل النهارِ أيضاً، فالأوائل مزيةُ القوَّة، كما هو مشاهدٌ في الشباب والشَّيخوخة،

---

(١) لم نقف عليها عند أحمد، وإنما هي في رواية النسائي.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٠٦)، والترمذي (١٢١٢)، وابن ماجه (٢٢٣٦) من حديث صخر الغامدي رضي الله عنه.

ولله تعالى تجلِّياتٌ في الأزمنة والأمكنةِ والأشخاص، وليس ذلك من تأثير الكواكبِ في شيء، ومثلُ هذا يقال فيما ذكره الكرمانيّ، وقد مرّ.

وأمّا ما ذكره عن اليهوديِّ الذي أخبر ابنَ عباسٍ ﵄، فلا نسلِّم صحَّته، وإنْ سُلِّم ذلك، فهو من جنس إخبار الكهَّانِ بشيءٍ من المغيَّبات، وقد أخبر ابنُ الصيَّاد النبيَّ ﷺ بما أخبر، فقال عليه الصلاةُ والسلام له: «إنَّما أنت من إخوان الكهَّان»(١)، وعِلمُ تقدمة(٢) المعرفةِ لا يختصُّ بما ذكر المنجِّمون، بل له عدةُ أسبابٍ يصدق الحكمُ معها ويكذب، منها الكَهانة، ومنها المنامات، ومنها الفألُ والزَّجر وضربُ الحصَى والخطُّ والكفُّ والكشفُ المستندُ إلى الرِّياضة، وهو كشفٌ جزئيٌّ عن بعض الحوادث، ويشترك فيه المؤمنُ والكافر، ومنها غيرُ ذلك. وللعمَّال في البحر والسُّعاة ونحوِهم في البَرِّ علاماتٌ يعرفون بها أوقاتَ المطرِ والصحوِ والبردِ والرِّيح وغيرِها، وقلَّما يُخطئون في أخبارهم، بل صوابُهم في ذلك أكثرُ من صواب المنجِّم.

وأمّا ما ذكره من حديثِ أبي الدرداء، فالمحفوظُ فيه: توفِّي رسولُ الله ﷺ وتَركنا وما طائرٌ يقلِّب جناحَيه إلَّا وقد ذكر لنا منه علماً(٣). وفيه رواياتٌ أخرُ صحيحةٌ أيضاً(٤)، وكلُّها ليس فيها: وليست الكواكب.. إلخ(٥)، فهو من أعظم الأدلَّةِ على بطلان دعوى المنجِّمين؛ إذ لم يذكرْ عليه الصلاة والسلام من أحكام النجومِ شيئاً ألبتَّة، وقد علَّمهم علمَ كلِّ شيءٍ حتى الخِراءة(٦).

وأمّا قولُه: إنَّه جاء في الآثار أنَّ أوَّل من أُعطي هذا العلمَ آدمُ عليه السلام.. إلخ، فكَذِبٌ وافتراءٌ على آدمَ عليه السلام، وقد عمل هذا الكاذبُ

(١) سلف خبر ابن الصياد ١٩/ ٣١٤.
(٢) في الأصل و(م): مقدمة، والمثبت من مدارج السالكين ص ٥٧٠، وهو الصواب.
(٣) أخرجه أبو يعلى (٥١٠٩)، والطبراني كما في مجمع الزوائد ٨/ ٢٦٤.
(٤) انظر مسند الإمام أحمد (١٨٢٢٤) و(٢١٣٦١).
(٥) يعني بذلك قول أبي الدرداء المتقدم ص ٩٥-٩٦.
(٦) كما ورد في حديث سلمان ﵁، وهو عند مسلم (٢٦٢).

المفتري بالمَثَل السائر: إذا كذبتَ فأبعِدْ شاهدَك، ونحوُه ما رُوي عن ميمون بنِ مهران.

وأمَّا ما نُسب إلى الشافعي، فهو بعضٌ من حكايةٍ ذكرها أبو عبد اللهِ الحاكمِ فيما ألَّفه في مناقبه، والحكاياتُ التي ذُكرت عنه في أحكام النجومِ ثلاث:

إحداها: قال الحاكم: قُرئَ على أبي يعلَى حمزةَ بنِ محمد العلويِّ وأكثرُ ظنِّي أنِّي حضرته: حدَّثنا أبو إسحاقَ إبراهيمُ بن محمدِ بن العباسِ الأَزْديّ في آخرين قالوا: حدَّثنا محمدُ بن أبي يعقوبَ الجوال الدِّينوري، حدَّثنا عبدُ الله بنُ محمدٍ البلوي، حدَّثني خالي عُمارةُ بن زيدٍ قال: كنت صديقاً لمحمد بنِ الحسن، فدخلتُ معه يوماً على هارونَ الرشيد، فساءَلَه، ثم إنِّي سمعت محمدَ بن الحسنِ وهو يقول: إنَّ محمدَ بن إدريسَ يزعم أنَّه للخلافة أهل[1]، قال: فاستشاط هارونُ من قوله غضباً، ثم قال: عليَّ به، فلمَّا مَثُل بين يديه، أَطرق ساعةً ثم رفع رأسَه إليه فقال: إيهاً[2]، قال الشافعي: ما إيهاً يا أميرَ المؤمنين! أنت الداعي وأنا المدعوّ، وأنت السائلُ وأنا المجيب. فذكر حكايةً طويلةً سأله فيها عن العلوم ومعرفتِه بها، إلى أن قال: كيف علمُك بالنُّجوم؟ قال: أعرف الفلكَ الدائرَ والنجمَ السائر، والقطبَ الثابتَ والمائيَّ والناري، وما كانت العربُ تسمِّيه الأنواءَ ومنازلَ النيِّرين، والاستقامةَ والرجوع، والنحوسَ والسُّعود، وهيئاتها وطبائعَها، وما أستدلُّ به في بَرِّي وبحري، وأَستدلُّ في أوقات صلاتي، وأعرف ما مضى من الأوقات في إمسائي وإصباحي وظَعْني في أسفاري، ثم ساق العلومَ على هذا النَّحو.

ومَن له علمٌ بالمنقولات يعلم أنَّ هذه الحكايةَ كذبٌ مختلَق، وإفكٌ مفترًى على الشافعي، والبلاءُ فيها من عند محمدِ بن عبد الله البَلَوي، فإنَّه كذَّاب وضَّاع، وهو الذي وضع رحلةَ الشافعيِّ وذكر فيها مناظرتَه لأبي يوسفَ بحضرة الرشيد، ولم يَرَ الشافعيُّ أبا يوسفَ ولا اجتمع به قطّ، وإنَّما دخل بغدادَ بعد موتِه، ويشهد بكَذِبها أنَّها تدلُّ على أنَّ محمداً وشى بالشافعيِّ إلى الرشيد وأراد قتلَه، ومحمدٌ أجلُّ من

---

(١) كذا في الأصل و(م)، وفي مفتاح دار السعادة ص٥٦٥: أن للخلافة أهلاً. ولَعلَّه الصواب.
(٢) يعني: أمراً بالسكوت. النهاية (إيه).

أن يُنسبَ إليه ذلك، وتعظيمُه للشافعيِّ ومحبَّته إياه هو المعروف، كتعظيم الشافعيِّ له وثنائه عليه، وفيها شواهدُ أُخَرُ على الكذب، يعرفها العالِمُ بالمنقول إذا اطَّلع عليها كلِّها.

وثانيتُها ـ وهي التي أخذت منها ما ذكرها الإمام ـ قال الحاكم: أخبرنا أبو الوليدِ الفقيهُ قال: حُدِّثت عن الحسن بنِ سفيان، عن حرملةَ قال: كان الشافعيُّ يديم النظرَ في كتب النُّجوم، وكان له صديق، وعنده جاريةٌ قد حَبِلت، فقال: إنَّها تلد إلى سبعةٍ وعشرين يوماً، ويكون في فخذ الولدِ الأيسرِ خالٌ أسود، ويعيش أربعةً وعشرينَ يوماً ثم يموت، فكان الأمرُ كما قال، فأحرق بعد ذلك تلك الكتبَ وما عاود النظرَ في شيءٍ منها.

وهذا الإسنادُ رجالهُ ثقات، لكنَّ الشأنَ فيمن حدَّث أبا الوليدِ عن الحسن بنِ سفيان، أو فيمن حدَّث الحسنَ عن حرملة، ويدلُّ على كَذِب الحكايةِ أنَّها لو صحَّت، لَوجب أن تُثنَى الخناصرُ على هذا العِلم، وتشدَّ به الأيدي، لا أن تُحرقَ كتبُه ولا يعاوَدَ النظرُ في شيءٍ منها، وأنَّ الطالعَ عند المنجِّمين طالعان: طالعُ مسقطِ النطفة، وهو الطالعُ الأصليُّ الذي يزعمون دلالتَه على وقت الولادة، والحكايةُ لم تتضمَّن أنَّ الشافعيَّ نظر فيه، ولو كان لتضمَّنته. وطالعُ الولادة، وإخبارُ الشافعيِّ قبلها؛ ضرورةَ أنَّه قال: إنَّها تلد إلى سبعةٍ وعشرين يوماً.

وثالثتُها: قال الحاكم: أنبأني عبدُ الرحمن بنُ الحسنِ القاضي، أنَّ زكريا بنَ يحيى الساجيَّ حدَّثهم قال: أخبرني أحمدُ بن محمد بن بنت الشافعيِّ قال: سمعتُ أبي يقول: كان الشافعيُّ وهو حَدَثٌ ينظر في النُّجوم، وما نظر في شيءٍ إلَّا فاق فيه، فجلس يوماً وامرأةٌ تلد، فحسب فقال: تلد جاريةً عوراءَ على فَرجِها خالٌ أسود، وتموت إلى كذا وكذا، فوَلَدت، فكان كما قال، فجعل على نفسه ألَّا ينظرَ فيه أبداً.

وأمرُ هذه الحكايةِ كالتي قبلها، فإنَّ ابنَ بنتِ الشافعيِّ لم يلقَ الشافعيَّ ولا رآه، والشأنُ فيمن حدَّث بها عنه، وأيضاً طالعُ مسقطِ النطفةِ لم يؤخذ، والخبرُ قبل

تحقُّقِ طالعِ الولادة، ثم إنَّ تحقُّقَ هذه الحكايةِ إن كان قبلَ تحقُّقِ الحكايةِ التي قبلها، لم تكد تحقَّق، وإن كان تحقُّقُ تلك قبل، لم تكد هذه تحقَّق، كما لا يخفى على المنصف.

والذي صحَّ عن الشافعيِّ في أمر النجومِ أنَّه كان يعرف ما كانت العربُ تعرفه من علم المنازلِ والاهتداءِ بالنُّجوم في الطُّرقات، وأما غيرُ ذلك من الأحكام التي يزعمها المنجِّمون، فلا. وكان ﷺ شديدَ الإنكار على المتكلِّمين، مُزرياً بهم، حُكمُه فيهم أن يُضرَبوا بالجريد ويطافَ بهم في القبائل، فما تراه يرى في المنجِّمين الذي شاع هَذَيانُهم، وقَبُحَ عند ذوي العقولِ السليمةِ شأنُهم؟ نَعَم كانت له ﷺ اليدُ الطُّولى في علم الفِراسة، وقد خرج إلى اليمنِ لجمع كتبِه، فجمع منها ما جمع، وله فيها حكاياتٌ يُقضَى منها العجب، ولعل إخبارَه بأمر المولودِ ـ لو صحَّ ـ من ذلك العِلم، والناقلُ ـ لجهله أو لأمرٍ آخر ـ أسنده للنَّظر في أحكام النجومِ وقال ما قال.

وأمَّا ما ذُكر عن ابن إسحاقَ من أنَّ فرعونَ كان يقتل أبناءَ بني إسرائيل لإخبار المنجِّمين إياه بأنَّه سيولد لهم مولودٌ يكون هلاكُه على يده، فهو ـ كما قال بعضُ الأجِلَّة ـ من أخبار أهلِ الكتاب، ومخالفٌ لروايات أكثرِ المفسرين، فإنَّهم أحالوا ذلك على أَخبار الكهَّان. وروى بعضُهم أنَّ قومَه أخبروه بأنَّ بني إسرائيلَ يزعمون أنَّه يولد منهم مولودٌ يكون هلاكُك على يديه، وفي أخبار الكهَّانِ ما هو أعجبُ من ذلك، ومنها خبرُهم بظهور خاتَم الرُّسل ﷺ وانتشارِ أمرِه. ونحن لا نُنكر علمَ تقدمةِ المعرفةِ بأسبابٍ مفضيةٍ إلى مثل ذلك يختلف قُوى الناسِ في إدراكها وتحصيلها، وإنما كلامُنا مع المنجِّمين في أصول علمِ الأحكام وبيانِ فسادِها وكَذِب أكثرِ الأحكامِ التي يُسندونها إليها.

وأمَّا ما ذكره في الاستدلال بالمعقول من أنَّه ما خلت عن هذا العلمِ مِلَّةٌ من الملل، ولا أمةٌ من الأمم، وأنَّهم لم يزالوا مشتغلين به، معوِّلين في معرفة المصالحِ عليه... إلى آخِر ما قال، ففِريةٌ من غير مِرية، ويا عجباً من دعواه إطباقَ أهلِ المشرقِ والمغربِ من أوَّل بناءِ العالَمِ إلى آخره عليه، وهم يقولون: إنَّما أُسِّست

أصولُه وأوضاعُه في زمن هرمس الهرامسة، يَعنون به إدريسَ عليه السلام، وهو بعدَ بناءِ العالَم بكثير. وأيضاً قد ردَّه كثيرٌ من الفلاسفة وجمعٌ غفيرٌ من أساطين الإسلام، حتى إنَّه قد أُلِّف ما يزيد على مئة مصنَّف في ردِّه وإبطاله، وقد قال أبو نصرٍ الفارابي: اِعلم أنَّك لو قلَبتَ أوضاعَ المنجِّمين، فجعلتَ الحارَّ بارداً والباردَ حارّاً، والسعدَ نحساً والنحسَ سعداً، والذَّكرَ أنثى والأُنثى ذَكَراً، ثم حكمت، لَكانت أحكامُك من جنس أحكامِهم، تصيب تارةً وتخطِئ تارات. وقد زيَّف أمرَهم ابنُ سينا في كتابَيه: «الشِّفاء» و«النَّجاة» وكذا أبو البركاتِ البغداديُّ في كتاب «التعبير» له.

هذا ما اختاره بعضُ المحقِّقين في الردِّ على المنجِّمين، وأعود فأقول: الذي أَراه في هذا المقام، ويترجَّح عندي من كلام العلماءِ الأعلام، أنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يخلق شيئاً باطلاً خالياً عن حِكمةٍ ومنفعة، بل خلق الأشياء؛ علويَّها وسفليَّها، جليلَها ودنيَّها، مشتملةً على حِكَمٍ لا تحصَى، ومنافعَ لا تستقصَى، وإنْ تفاوتت في أفرادها قلَّةً وكثرة، وخصَّ كلًّا منها بخاصَّة لا توجد في غيرها، مع اشتراك الكلِّ في الدَّلالة على وجوده تعالى، ووحدتِه وعلمِه وقدرتِه:

ولله في كلِّ تحريكةٍ ... وتسكينةٍ أبداً شاهدُ
وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ ... تدلُّ على أنَّه واحدُ(١)

فالأجرامُ العلويةُ مشتركةٌ في هذه الدَّلالة، مختصٌّ كلٌّ منها بخاصَّة، وشأنُ الكواكبِ في خواصِّها وتأثيراتِها كشأن النباتاتِ والمعدنياتِ والحَيَوانيات في خواصِّها وتأثيراتِها. فمنها ما خاصَّته في نفسه غيرُ متوقِّفة على ضمِّ شيءٍ آخرَ إليه. ومنها ما خاصَّته متوقفةٌ على ضمِّ شيءٍ آخر. ومنها ما إذا ضمَّ إليه شيءٌ أسقط خاصته وأَبطل منفعتَه. ومنها ما يُعقل وجهُ تأثيره. ومنها ما لا يُعقل. ومنها ما يؤثِّر في مكانٍ دونَ مكان، وزمانٍ دونَ زمان. ومنها ما يؤثِّر في جميع الأزمنةِ والأمكنة، إلى غير ذلك من الأحوال. وكونُها زينةً للسماءِ لا يستدعي نفيَ أن يكونَ فيها منفعةٌ

(١) سلف ١/ ٢٧١.

أخرى على حدٍّ ما في الأرض، فقد قال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ [الكهف:٧]. مع اشتمال الأزهارِ وغيرِها على ما تعلمُ وما لا تعلمُ من المنافع. وكذلك كونُها علاماتٍ يُهتدَى بها في ظلمات البرِّ والبحر، وكونُها رجوماً للشياطين.

ولا أقول ببساطة الأفلاك، ولا ببساطة الكواكب، ولا بانحصارِها فيما يشاهَد ببصرٍ أو رصد، ولا بذكورة بعضٍ وأنوثةِ آخَر، إلى كثيرٍ مما يزعمه المنجِّمون. وأقول: إنَّ الله تعالى أودع في بعضها تأثيراً حسبما أودع في أزهار الأرضِ ونحوِها، وإنَّها لا تؤثِّر إلَّا بإذنه عزَّ وجلّ، كما هو مذهبُ السلفِ في سائر الأسبابِ العادية، وإن شئتَ فقل كما قال الأشاعرةُ فيها. وإنَّه لا يَبعُد أن يكونَ بعضُها علاماتٍ لإحداثه تعالى أموراً لا بواسطتها في أحد العالمين العلويِّ والسُّفلي، يعرفها مَن يُوقِفه الله تعالى عليها من ملائكته وخواصِّ عبادِه. وارتباطُ كثيرٍ من السُّفليات بالعُلويات ممَّا قال به الأكابر، ولا يُنكِره إلَّا مكابر.

ولا أَنسب أثراً من الآثار إلى كوكبٍ بخصوصه على القطع؛ لاحتمال شركةِ كوكبٍ أو أمرٍ آخَر. نعم الظاهرُ يقتضي كثرةَ مدخليةِ بعضِ الكواكبِ في بعض الآثار، كالقمر في مدِّ البحارِ وجَزرِها، فإنَّ منها ما يأخذ في الازدياد حين يفارق القمرُ الشمسَ إلى وقت الامتلاء، ثم إنَّه يأخذ في الانتقاص، ولا يزال نقصانُه يستمر بحسَب نقصانِ القمرِ إلى المُحاق، ومنها ما يحصل فيه المدُّ في كلِّ يومٍ وليلةٍ مع طلوع القمرِ وغروبِهِ، كبحر فارس وبحرِ الهندِ وبحر الصِّين. وكيفيتُه أنَّه إذا بلغ القمرُ مشرقاً من مشارق البحر، ابتدأ البحرُ بالمدّ، ولا يزال كذلك إلى أن يصيرَ القمرُ في وسط سماءِ ذلك الموضع، فإذا زال عن مغربِ ذلك الموضع، ابتدأ المدُّ من تحت الأرض، ولا يزال زائداً إلى أن يصلَ القمرُ إلى وتد الأرض، فحينئذٍ ينتهي المدُّ منتهاه، ثم يبتدئُ الجزرُ ثانياً ويرجع الماءُ كما كان، ومثل المدِّ والجزرِ بحراناتُ الأمراض، فإنَّها بحسب زيادةِ القمرِ ونقصانِه على معنى كثرةِ مدخليةِ ذلك ظاهراً فيها، إلى أمورٍ كثيرة.

ولا أقول: إنَّ لكوكبٍ تأثيراً في السعادة والشقاوةِ ونحوِهما، ولا يَبعُد أن يكونَ كوكبٌ أو كواكبُ باعتبار بعض الأحوالِ علامةً لنحو ذلك يعرفها بعضُ

الخواصّ، ولا وثوقَ بما قاله الأَحكاميُّون، وكلُّ ما يقولونه ظنٌّ وتخمينٌ لا دليلَ لهم عليه، وهم فيما أسَّسوا عليه أحكامَهم متناقضون، وفي المذاهبِ مختلفون، فللبابليِّين مذهب، وللفُرس مذهب، ولأَهل الهندِ مذهب، ولأهل الصينِ مذهب، وقد ردَّ بعضُهم على بعض، وشهد بعضٌ على بعضٍ بفساد أصولِهم ومبنَى أحكامِهم، فقد كان أوائلُهم من الأقدمين وكبار رصَّادهم من عهد بطليموس وطيموحارس ومانالارس قد حكموا حكماً في الكواكب، واتَّفقوا على صحَّته، وأقام الناسُ على تقليدهم وبناءِ الأمرِ على ما قالوه أكثرَ من سبع مئةِ سنة، فجاء من بعدهم خالدُ بن عبد الملكِ المروَزي، وحسنٌ صاحبُ الزِّيج المأموني، ومحمدُ بن الجهم، ويحيى بنُ أبي منصور، فامتحنوا ما قالوا، فوجدوهم غالطين، وأجمعوا على غلطِهم، وسمَّوا رصدَهم الرصدَ الممتحن.

ثم حدثت بعدَهم بنحو ستِّين سنةً طائفةٌ أخرى زعيمُهم أبو معشرٍ محمدُ بن جعفر، فردَّ عليهم وبيَّن خطأهم، كما ذكره أبو سعيدٍ شاذانُ المنجِّم في كتاب «أسرار النُّجوم» له، وفيه: قلتُ لأبي معشر: الذَّنَب باردٌ يابس، فلمَ قلتم: إنَّه يدلُّ على التأنيث؟ فقال: هكذا قالوا، قلت: فقد قالوا: إنَّه ليس بصادق اليبَس، لكنَّه باردٌ عَفِن ملتوٍ كلُّ الأعراضِ الغائيةِ توهُّم لا يكون شيءٌ منها يقينيًا، وإنَّما يكون توهُّم أقوى من توهُّم. ومَن تأمَّل أحوالَ القوم، علم أنَّ ما معهم تفرُّسٌ يصيبون معه ويخطئون.

ثم حدثت بعدَهم طائفةٌ أخرى بنحو سبعين سَنَة، منهم أبو الحسينِ عبدُ الرحمنِ بنُ عمرَ المعروفُ بالصوفيّ، فردَّ على مَن قبله وغلَّطه، وألَّف كتاباً بيَّن فيه من الأغلاط ما بيَّن، وحمله إلى عَضُد الدولةِ ابنِ بويه، فاستحسنه وأجزل ثوابَه.

ثم جاءت بعد نحوِ ثلاثينَ سنةً طائفةٌ أخرى، منهم كوشيار الدَّيلمي، فألَّف «المجمَل في الأحكام» وجهَّل فيه مَن يحتجُّ للأحكام من الأحكاميِّين، وقال عن صناعةِ التنجيم: هي صناعةٌ غيرُ مُبَرْهَنةٍ، وللخواطر والظنونِ فيها مجال، إلى أنْ قال: ومن المنفردين بعلم الأحكامِ مَن يأتي على جزئيَّاته بحُجَجٍ على سبيل النظرِ والجدلِ فيظنُّ أنَّها براهين؛ لجهله بطريق البرهانِ وطبيعتِه.

ثم حدثت طائفةٌ أُخرى، منهم منجِّم الحاكم بالدِّيار المصريةِ المعروفُ بالفكري، فوضع هو وأصحابُه رصداً آخَرَ سمَّوه: الرصدَ الحاكمي، فخالفوا فيه أصحابَ الرصدِ الممتحن، وبنَوا أمرَ الأحكامِ عليه.

ثم حدثت طائفةٌ أخرى، منهم أبو الرَّيحانِ البيرونيُّ مؤلِّفُ كتاب «التفهيم إلى صناعةِ التنجيم»، وكان بعد كوشيار بنحو أربعينَ سنة، فخالف مَن تقدَّمه، وأتى من مناقضاتهم والردِّ عليهم بما هو دالٌّ على فساد صناعتِهم، وختم كتابَه بقوله في الخبءِ والضمير: ما أكثرَ افتضاحَ المنجِّمين فيه، وما أكثرَ إصابةَ الزاجرين بما يستعمل من الكلام وقتَ السؤال، ويرونه بادياً من الآثار والأفعالِ على السائل. . . إلى آخرِ ما قال.

ثم حدثت طائفةٌ أخرى، منهم أبو الصلتِ أميةُ بن عبدِ العزيز الأندلسي، وكان بعد البيرونيِّ بنحو ثمانين عاماً، وكان رأساً في الصِّناعة، ومع هذا اعترف بأنَّ قولَ المنجِّمين هَذَيان.

ثم حدثت طائفةٌ أخرى بالمغرب، منهم أبو إسحاقَ الزرقالُ وأصحابه، وكان بعد أبي الصَّلت بنحو مئةِ سنة، فخالف الأوائلَ والأواخرَ في الصِّناعتين: الرَّصدية، والأحكامية.

وآخرُ ما نعلم حدوثَه زيجُ لالنت والقسيني، وفيه من المخالفةِ لما قبله من الأزياج ما فيه. وقد ذُكر فيه تقويمُ هرشل ومقدارُ حركته، وهو كوكبٌ سيَّار ظفر به هرشلُ أحدُ فلاسفةِ الإفرنجِ وسمَّاه باسمه، ولم يظفرْ به أحدٌ قبله. وهذا الزيجُ أَضبطُ الأزياجِ فيما يزعم المنجِّمون اليوم.

والإفرنجُ على مهارة كثيرٍ منهم بعلم الرَّصدِ لا يقولون بشيءٍ مما يقول به الأحكاميُّون الأوائلُ والأواخر، ويسخرون منهم.

وقد ذكر مَن يوثق به وجوهاً تدلُّ على فسادِ ما بأيديهم من العلمِ وأنَّه لا يوثَق به:

الأوَّل: أنَّ معرفةَ جميعِ المؤثِّرات الفلكيةِ مما لا تتأتَّى:

أما أوَّلاً: فلأنَّه لا سبيلَ إلى معرفة الكواكبِ إلَّا بواسطة القُوى الباصرة، وإذا كان المرئيُّ صغيراً أو في غاية البعدِ يتعذَّر رؤيتُه، فإنَّ أصغرَ الكواكبِ التي في فلك الثوابت ـ وهو الذي به قوَّة البصر ـ مثلُ كرةِ الأرض بضعةَ عشرَ مرَّة، وكرةُ الأرضِ أعظمُ من كرة عطاردَ كذا مرَّة، فلو قدَّرنا أنَّه حصل في الفلك الأعظم كواكبُ كثيرة، كلٌّ منها كعطارد حجماً، فكيف ترى؟ ونفيُ هذا الاحتمالِ لا بدَّ له من دليل، ومع قيامِه لا يحصل الجزمُ بمعرفة جميعِ المؤثِّرات.

وإنْ قالوا: جاز ذلك إلَّا أنَّ آثارَ هذا الكوكبِ لصغره ضعيفة، فلا تصل إلى هذا العالَم، قلنا: صغرُ الجِرم لا يوجب ضعفَ الأثر، فقد أثبتُّم لعطارد آثاراً قويةً مع صغره بالنِّسبة إلى سائر السيَّارات، بل أثبتُّم للرأس والذنبِ وسهمِ السعادةِ وسهمِ الغيبِ آثاراً قويَّة، وهي أمورٌ وهمية.

وأمَّا ثانياً: فالمرصودُ من الكواكب المرئيةِ أقلُّ قليلٍ بالنِّسبة إلى غيرِ المرصود، فمن أين لهم الوقوفُ على طبيعة غيرِ المرصود؟

وأمَّا ثالثاً: فلأنَّه لم يحصل الوقوفُ على طبائع جميعِ المرصودِ أيضاً، وقلَّما تكلَّموا في معرفة غيرِ الثوابتِ التي من القَدْرِ الأوَّلِ والثاني.

وأمَّا رابعاً: فآلاتُ الرصدِ لا تفي بضبط الثواني والثوالثِ فما فوق، ولا شكَّ أنَّ الثانيةَ الواحدةَ مثلُ الأرضِ كذا ألف مرة، أو أقلُّ أو أكثر، ومع هذا التفاوتِ العظيمِ كيف الوصولُ إلى الغرضِ وقد قيل: إنَّ الإنسانَ الشديدَ الجري بين رفعِه رجلَه ووضعِه الأخرى يتحرَّك جِرمُ الفلكِ الأقصى ثلاثةَ آلافِ ميل؟ فإذا كان كذلك فكيف ضبطُ هذه المؤثِّرات؟

وأمَّا خامساً: فبتقديراتهم عرفوا طبائعَ هذه الكواكبِ حالَ بساطتها، فهل وقفوا على طبائعها حالَ امتزاجِ بعضِها ببعض، والامتزاجاتُ الحاصلةُ من طبائع ألفِ كوكبٍ أو أكثرَ ـ بحسب الأجزاءِ الفلكية ـ تبلغ في الكثرة إلى حيث لا يَقدر العقلُ على ضبطها.

وأمَّا سادساً: فيقال: هَبْ أنَّا عرفنا تلك الامتزاجاتِ الحاصلةَ في ذلك

الوقت، فلا ريبَ أنَّه لا يمكننا معرفةُ الامتزاجاتِ التي كانت حاصلةً قبله، مع أنَّا نعلم قطعاً أنَّ الأشكالَ السالفةَ ربَّما كانت عائقةً ومانعةً عن مقتضيات الأشكالِ الحاصلةِ في الحال، ولا ريبَ أنَّا نشاهد أشخاصاً كثيرةً من النبات والحَيَوانِ والإنسانِ تحدث مقارِنةً لطالعٍ واحد، مع أنَّ كلَّ واحدٍ منها مخالفٌ للآخر في أكثر الأُمور، وذلك أنَّ الأحوالَ السابقةَ في حقِّ كلِّ واحدٍ تكون مخالِفةً للأحوال السابقةِ في حقِّ الآخر، وذلك يدلُّ على أنَّه لا اعتمادَ على مقتضَى طالعِ الوقت، بل لابدَّ من الإحاطة بالطَّوالع السالفة، وذلك ممَّا لا وقوفَ عليه، فإنَّه ربَّما كانت تلك الطوالعُ دافعةً مقتضياتِ هذا الطالعِ الحاضر، وعلى هذا الوجهِ عوَّل ابنُ سينا في كتابيه «الشِّفاء» و«النَّجاة» في إبطال هذا العلم.

الثاني: أنَّ تأثيرَ الكواكبِ يختلف باختلاف أَقدارِها، فما كان من القَدْر الأوَّل، أثَّر بوقوعه على الدَّرجة وإن لم تضبط الدقيقة، وما كان من القَدْر الأخير، لم يؤثِّر إلَّا بضبط الدقيقة، ولا ريبَ بجهالة مقاديرِ جميعِ الكواكب، فكيف تُضبط الآثار؟

الثالث: فسادُ أصولِهم وتناقضُ آرائهم، واختلافُهم اختلافاً عظيماً من غير دليل، ومتى تعارضت الأقوالُ وتعذَّر الترجيحُ فيما بينها، لا يعوَّل على شيءٍ منها.

الرابع: أنَّ أرصادَهم لا تنفكُّ عن نوعِ خلل، وهي مبنَى أحكامِهم، وقد صنَّف أبو عليٍّ بنُ الهيثم رسالةً بليغةً في أقسام الخللِ الواقعِ في آلات الرَّصد، وبيَّن أنَّ ذلك ليس في وسع الإنسانِ دفعُه وإزالته، وإصابتُهم في أوقات الخسوفِ والكسوفِ مع ذلك الخللِ لا تستدعي إصابتَهم في غيرها معه.

الخامس: أنَّا نشاهد عالَماً كثيراً يُقتلون في ساعةٍ واحدةٍ في حرب، وخلقاً كثيراً يغرقون في ساعةٍ واحدة، مع اختلاف طوالعِهم واقتضائها أحوالاً مختلفةً عندكم، وهذا يدلُّ على عدم اعتبارِ ما اعتبرتموه أوَّلاً. فإن قلتم: إنَّ الطوالعَ قد يكون بعضُها أقوى من بعض، فلعل طالعَ الوقتِ أَقوى من طالع الأصل، فكان الحكم. قلنا: هذا بعينه يُبطل عليكم اعتبارَ طالعِ المولود، فإنَّ الطوالعَ بعده مختلفةٌ كثيرة، ولعل بعضَها أقوى منه، فلا يفيد اعتبارُه شيئاً.

السادس: أنَّ العقلَ لا مساغَ له في اقتضاء كوكبٍ معيَّن أو وضعٍ معيَّن تأثيراً خاصّاً، والتجربةُ على قصورها معارَضةٌ بتجربةٍ اقتضت خلافَها.

إلى غير ذلك من الوجوه، وأبو البركات البغداديُّ وإن زيَّف ما هم عليه، إلَّا أنَّه يُقرُّ بقَبول بعضِ الأحكام، فإنَّه قال بعد ذكر شيءٍ من أقوالهم التي لا دليلَ لهم عليها: وهذه أقوالٌ قالها قائل، فقَبِلها قابل، ونقلها ناقل، فحَسُنَ بها ظنُّ السامع، واغترَّ بها مَن لا خبرةَ له ولا قدرةَ له على النظر، ثم حكم بحسبها الحاكمون، بجيِّد ورديء، وسلبٍ وإيجاب، وسعدٍ ونحوس، فصادف بعضُه موافقةَ الوجودِ فصدق، فاغترَّ به المغترُّون ولم يلتفتوا إلى كذبٍ فيه، بل عذروه وقالوا: هو منجِّم، ما هو نبيٌّ حتى يصدقَ في كلِّ ما يقول، واعتذروا له بأنَّ العلمَ أوسعُ من أن يحيطَ به، ولو أحاط به لصدق في كلِّ شيء، ولَعمرُ اللهِ تعالى أنَّه لو أحاط به علماً صادقاً لَصدق، والشأنُ أن يحيطَ به على الحقيقة، لا على أن يفرضَ فرضاً ويتوهَّم وهماً، فينقله إلى الوجود، ويُثبته في الموجود، ويَنسب إليه ويقيس عليه، والذي يصحُّ منه ويلتفت إليه العقلاءُ هي أشياءُ غيرُ هذه الخرافاتِ التي لا أصلَ لها، ممَّا حصل بتوقيفٍ أو تجربةٍ حقيقية، كالقِرانات والانتقالاتِ والمقابلة، وممرِّ كوكبٍ من المتحيِّرة تحت كوكبٍ من الثابتة، وما يعرض للمتحيِّرة من رجوعٍ واستقامة، ورجوعٍ في شمال وانخفاضٍ في جنوب، وغيرِ ذلك.

وكأنِّي أريد أن أختصرَ الكلامَ هاهنا وأوافقَ إشارتك، وأعملَ بحساب اختيارِك رسالةً في ذلك، أذكر ما قيل فيها من علم أحكامِ النجوم، من أصولٍ حقيقيةٍ أو مجازيةٍ أو وهميةٍ أو غلطية، وفروعِ نتائجَ أُنتجت عن تلك الأصول، وأذكرَ الجائزَ من ذلك والممتنعَ والقريبَ والبعيد، فلا أردَّ علمَ الأحكامِ من كلِّ وجهٍ كما ردَّه مَن جَهِلَه، ولا أقبلَ فيه كلَّ قولٍ كما قبله مَن لم يعقله، بل أُوضِحَ موضعَ القبولِ والردّ، وموضعَ التوقيفِ والتجويز، والذي من المنجِّم والذي من التنجيم، والذي منهما، وأُوضحَ لك أنَّه لو أمكن الإنسانَ أن يحيطَ بشكلِ كلِّ ما في الفلك علماً، لأحاط بكلِّ ما يحويه الفلك؛ لأنَّ منه مبادي الأسباب، لكنَّه لا يمكن، ويَبعُد عن الإمكان بُعداً عظيماً، والبعضُ الممكنُ منه لا يَهدي إلى بعض الحكم؛ لأنَّ البعضَ الآخَرَ

المجهولَ قد يناقض المعلومَ في حكمه ويُبطل ما يوجبه، فنسبةُ المعلومِ إلى المجهول من الأحكام كنسبة المعلومِ إلى المجهول من الأسباب، وكفى بذلك بُعداً. انتهى. وفيه من التأييد لبعض ما تقدَّم من الأوجُه ما فيه[١].

وأنا أقول: إنَّ الإحاطةَ بالأسرار المودَعةِ في الأجرام لا يَبْعُد أن تحصلَ لبعض الخواصِّ ذوي النفوسِ القدسيَّة، لكن بطريق الكشفِ أو نحوِه، دون الاستدلالِ الفكريِّ والأعمالِ الرصديةِ مثلاً، وهو الذي يقتضيه كلامُ الشيخِ الأكبرِ قدِّس سرُّه، قال في الباب الثالثِ والسبعين من «الفتوحات»[٢]: ومن الأولياء النُّقباء، وهم اثنا عشرَ نقيباً في كلِّ زمان، لا يزيدون ولا ينقصون، على عدد البروجِ الاثني عشر، كلُّ نقيبٍ عالمٌ بخاصِّيَّة كلِّ برج، وبما أودع اللهُ تعالى في مقامه من الأسرار والتأثيرات، وما يُعطَى للنزلاءِ فيه من الكواكب السيَّارةِ والثوابت. ثم قال: ومنهم النُّجباء، وهم ثمانيةٌ في كلِّ زمان، إلى أن قال: ولهم القدمُ الراسخةُ في علم تسييرِ الكواكبِ من جهة الكشفِ والاطِّلاع، لا من جهة الطريقةِ المعلومةِ عند العلماءِ بهذا الشأن. والنقباءُ هم الذين حازوا علمَ الفلكِ التاسع، والنجباءُ حازوا علمَ الثمانيةِ الأفلاكِ التي دونه، وهي كلُّ فلكٍ فيه كوكب. ويُفهم من هذا القولُ بالتأثيرات، وأنها مفاضةٌ من البرج على النازلِ فيه من الكواكب.

وقد تكرَّرت الإشارةُ منه إلى ذلك، ففي الفصل الثالثِ من الباب الحادي والسبعين والثلاث مئة من «الفتوحات»[٣]: أنَّ اللهَ تعالى خلق في جوف الكرسيِّ جسماً شفَّافاً مستديراً، يعني الفَلَكَ الأطلس، قسمه اثني عشرَ قسماً، هي البروج، وأسكن كلَّ برجٍ منها ملكاً. إلى أن قال: وجعل لكلِّ نائبٍ من هؤلاء الأملاكِ الاثني عشرَ في كلِّ برجٍ ملَّكه إياه ثلاثين خزانة، تحتوي كلُّ خزانةٍ منها على علومٍ شتَّى، يهبون منها لمن نزل بهم ما تعطيه مرتبتُه، وهي الخزائنُ التي قال الله تعالى

(١) إلى هنا نهاية الكلام عن المنجمين وعلم التنجيم الذي أشار إليه فيما قَبْل، والذي أشرنا إليه بأن معظمه مذكور بحرفيته في مفتاح دار السعادة ص٤٨٧ وما بعدها.

(٢) ٢/ ٧-٨.

(٣) ٣/ ٤٣٣.

فيها: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] وهذه الخزائنُ تسمَّى عند أهلِ التعاليمِ: درجاتِ الفلك، والنازلون بها هم الجواري والمنازلُ وعيُّوقاتها من الثوابت، والعلومُ الحاصلةُ من هذه الخزائنِ الإلهيةِ هي ما يظهر في عالم الأركانِ من التأثيرات، بل ما يظهر في مقعَّر فلكِ الثوابتِ إلى الأرض. وجعل لهؤلاء الاثني عشرَ نظراً في الجِنان وأهلِها وما فيها مُخْلَصاً من غير حجاب، فما في الجِنان من حكم، فهو عن تولِّي هؤلاء بنفوسهم تشريفاً لأهل الجنَّة، وأما أهلُ الدنيا وأهلُ النار فما يباشرون ما لهم من الحكم إلَّا بالنوَّاب، وهم النازلونَ عليهم الذين ذكرناهم.

وقال قدِّس سرُّه في الفصل الرابع[1]: إنَّ الله تعالى جعل لكلِّ كوكبٍ من هذه الكواكبِ قطعاً في الفلك الأطلس؛ ليحصلَ من تلك الخزائنِ التي في بروجه وبأيدي ملائكتِه الاثني عشرَ من علوم التأثيرِ ما تعطيه حقيقةُ كلِّ كوكبٍ وجعلها على حقائقَ مختلفة. انتهى المرادُ منه.

وله قدِّس سرُّه كلامٌ غيرُ هذا أيضاً، وقد صرَّح بنحو ما صرَّح به المنجِّمون من اختلاف طبائعِ البروج، وأنَّ كلَّ ثلاثةٍ منها على مرتبةٍ واحدةٍ في المزاج.

وأنا لا أَزيد على القول بأنَّ للأجرام العلويةِ كواكبِها وأفلاكِها أسراراً وحِكَماً وتأثيراتٍ غيرَ ذاتية، بل مفاضة عليها من جانب الحقِّ والفيَّاض المطلقِ جلَّ شأنُه وعَظُمَ سلطانُه، ومنها ما هو علامةٌ لما شاء الله تعالى، ولا يتمُّ دليلٌ على نفي ما ذكر، ولا يَعلم كميةَ ذلك ولا كيفيتَه ولا أنَّ تأثيرَ كذا من كوكبِ كذا أو كوكبِ كذا علامةٌ لكذا في نفس الأمرِ إلَّا الله تعالى العليمُ البصيرُ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] إلَّا أنَّه سبحانه قد يُطلع بعضَ خواصِّ عبادِه من البشر والمَلَكِ على شيءٍ من ذلك، ولا يَبعُد أن يُطلعَ سبحانه البعضَ على الكلِّ، ووقوعُ ذلك لنبيِّنا ﷺ ممَّا لا أكاد أشكُّ فيه.

وقد نصَّ بعضُ ساداتِنا الصوفية ـ قدِّست أسرارُهم وأشرقت علينا أنوارُهم ـ على أنَّ علومَه عليه الصلاة والسلام التي وُهبت له ثلاثةُ أنواع:

---

(١) ٣/ ٤٣٧.

نوعٌ أَوجب عليه إظهارَه وتبليغَه، وهو علمُ الشريعةِ والتكاليفِ الإلهية، وقولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧] ناظرٌ إلى ذلك دون العمومِ المطلقِ أو خصوصِ خلافةِ عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه كما يقوله الشِّيعة.

ونوعٌ أَوجب عليه كتمانَه، وهو علمُ الأسرارِ الإلهية التي لا تتحمَّلها قوةٌ غيرُ قوَّتِه القدسيةِ عليه الصلاة والسلام، فكما أنَّ لله تعالى علماً استأثر به دون أحدٍ من خلقه، كذلك لحبيبه الأعظمِ ﷺ علمٌ استأثر به بعد ربِّه سبحانه، لكنه مفاضٌ منه تعالى عليه، ولعله أُشير إليه في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] وقد يكون بين المحبِّ والمحبوبِ من الأسرار ما يُضنُّ به على الأغيار، ومن هنا قيل:

ومستخبرٍ عن سرِّ ليلى تركتُه ... بعمياءَ من ليلى بغيرِ يقينِ
يقولون خبِّرنا فأنت أمينُها ... وما أنا إن خبَّرتهم بأمينِ(١)

ونوعٌ خيَّره اللهُ تعالى فيه بين الأمرين. وهذا منه ما أَظهره لمن رآه أهلاً له، ومنه ما لم يُظهره لأمرٍ ما، فلعل ما وُهب له عليه الصلاة والسلام من العلم بدقائق أسرارِ الأجرامِ العلوية وحِكَمِها وما أراد اللهُ تعالى بها ممَّا لم يُظهره للناس كعلم الشَّريعة؛ لأنَّه مما لا يُضبط بقاعدة، وتفصيلُ الأمرِ فيه لا يكاد يتيسَّر، والبعضُ مرتبطٌ بالبعض، ومع هذا لا يستطيع العالمُ به أن يجعل الإقامةَ سفراً، ولا الهزيمةَ ظَفراً، ولا العقدَ فلًّا، ولا الإبرامَ نقضاً، ولا اليأسَ رجاء، ولا العدوَّ صديقاً، ولا البعيدَ قريباً، ولا ولا، ويوشك لو انتشر أمرُه، وظهر حلوُه ومرُّه، أن يضعفَ توكُّل كثيرٍ من العوامِّ على الله تعالى، والانقطاعُ إليه، والرغبةُ فيما عنده، وأنْ يلهو به عن غيره، وينبذوا ما سواه من العلوم النافعةِ لأَجله، فكلٌّ يتمنَّى أن يعلمَ الغيبَ

---

(١) نسبهما صاحب غرر الخصائص الواضحة ص٤٥٣ لمجنون ليلى، وأبو تمام في الحماسة (شرح التبريزي ٣/ ١٣٤) لجابر بن الثعلب الجرمي الطائي، والبيت الثاني فيه:
فقال انتصحني إنني لك ناصح ... وما أنا...............
والبيت الأول في زيادات شعر الأحوص الأسدي ص٢٣٢.

ويطلعَ عليه، ويدركَ ما يكون في غدٍ أو يجدَ سبيلاً إليه، بل ربَّما يكون ذلك سبباً لبعض الأشخاصِ مفضياً إلى الاعتقادِ القبيح، والشركِ الصَّريح، وقد كان في العرب شيءٌ من ذلك، فلو فُتح هذا الباب، لاتَّسع الخَرقُ وعَظُمَ الشرّ، وقد ترك ﷺ هدمَ الكعبةِ وتأسيسَها على قواعدِ إبراهيمَ عليه السلام لنحوِ هذه الملاحظة، فقد رُوي أنَّه عليه الصلاة والسلام قال لعائشةَ ﵂: «لولا قومُكِ حديثو عهدٍ بكفر، لَهدمتُ الكعبةَ وأسَّستها على قواعد إبراهيم»[١].

ولا يَبعُد أيضاً أن يكونَ في علم اللهِ تعالى إظهارُ ذلك وعلمُ الناسِ به سبباً لتعطُّل المصالحِ الدنيوية، ومنافياً للحكمة الإلهية، فأوجب على رسوله ﷺ كتمَه وتركَ تعليمِه كما علَّم الشَّرائع.

ويمكن أن يكونَ قد عَلِمَ ﷺ أنَّ العلمَ بذلك من العلوم الوهبيةِ التي يَمُنُّ اللهُ تعالى بها على مَن يشاء مِن عباده، وأنَّ مَن وهب سبحانه له من أمَّته قوَّةً قدسية، يهب سبحانه له ما تتحمَّله قوتُه منه، وقد سمعتَ ما سمعت في النُّقباء والنُّجباء.

ويمكن أن يكونَ قد علَّم عليه الصلاة والسلام ذلك أمثالَهم ومَن هو أعلى قَدْراً منهم، كالأمير عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه، وهو بابُ مدينةِ العلم، بطريقٍ من طُرُق التعليم، ومنها الإفاضةُ التي يذكرها بعضُ أهلِ الطرائقِ من الصُّوفية.

ويجوز أن يقال: إنَّ سرَّ البعثةِ إنَّما هو إرشادُ الخلقِ إلى ما يقرِّبهم إليه سبحانه زُلفى، وليس في معرفة التأثيراتِ الفلكيةِ والحوادثِ الكونيةِ قربٌ إلى الله تعالى، والنبيُّ ﷺ لم يألُ جهداً في دعوة الخلقِ وإرشادهم إلى ما يقرِّبهم لديه سبحانه، وينفعهم يومَ قدومِهم عليه جلَّ شأنُه، وما يتوقَّف عليه من أمر النجومِ أمورُ دياناتهم، كمعرفة القِبلةِ وأوقاتِ العبادات، قد أرشد إليه مَن أرشد منهم، وترك ما يحتاجون إليه من ذلك في أمورِ دنياهم ـ كالزِّراعة ـ إلى عاداتهم وما جرَّبه كلُّ قومٍ في أماكنهم، وأشار إشارةً إجماليةً إلى بعض الحوادثِ الكونيةِ لبعض الكواكبِ في بعض أحوالِها، كما في حديث الكسوفِ والخسوفِ السابق، وأرشدهم إلى

(١) أخرجه البخاري (١٢٦) و(١٥٨٥)، ومسلم (١٣٣٣).

ما ينفعهم إذا ظهر مثلُ ذلك، ويتضمَّن الإشارةَ الإجماليةَ أيضاً أمرُه تعالى بالاستعاذة من شرِّ القمرِ في بعض حالاتِه، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق:١-٣] على ما جاءَ في حديث عائشةَ ﵂[1]. ويَقرُب في بعض الوجوهِ من شأنِه ﷺ شأنُه عليه الصلاة والسلام في أمر النباتاتِ ونحوِها، فبيَّن لهم ما يحلُّ ويَحرم من ذلك، وأشار إلى منفعة بعضِ الأشياءِ من نباتٍ وغيرِه، ولم يفصِّل القولَ في الخواصّ، وترك الناسَ فيما يأكلون ويشربون ـ ممَّا هو حلالٌ ـ على عاداتهم، إلَّا أنَّه قال: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف:٣١]. نعم نَهَى ﷺ عن الخوض في علم النجومِ لطلب معرفةِ الحوادثِ المستقبَلة بواسطة الأوضاعِ المتوقِّف بزعم المنجِّمين على معرفة الطَّبائع؛ سدّاً لباب الشرِّ والوقوعِ في الباطل، لأنَّ معرفةَ ذلك على التحقيق ليست كسبيَّة، كمعرفة خواصِّ النباتاتِ ونحوِها، والمعرفةُ الكسبيةُ التي يزعمها المنجِّمون ليست بمعرفة، وإنما هي ظنونٌ لا دليلَ لهم عليها كما تقدَّم، وصرَّح به أرسطاليس أيضاً، فإنَّه قال في أوَّل كتابِه «السَّماع الطبيعي»: إنَّه لا سبيلَ إلى اليقين بمعرفة تأثيرِ الكواكب، وحُكي نحوُه عن بطليموس.

وكونُ المنهيِّ عنه ذلك هو الذي صرَّح به بعضُ الأجلَّة، وعليه حُمل خبرُ أبي داودَ وابنِ ماجه[2]: «مَن اقتبس علماً من النجومِ اقتبس شُعبةً من السِّحر».

وأما الخوضُ في علم النُّجومِ لتحصيل ما يُعرف به أوقاتُ الصلواتِ وجهةُ القِبلة، وكم مضى من الليلِ أو النهار وكم بقي، وأوائلُ الشهورِ الشمسية، ونحوُ ذلك، ومنه ـ فيما أرى ـ ما يُعرف به وقتُ الكسوفِ والخسوف، فغيرُ منهيٍّ عنه، بل العلمُ المؤدِّي لبعض ما ذُكر من فروضِ الكفاية، بل إن كان علمُ النجومِ عبارةً عن العلم الباحثِ عن النُّجوم باعتبارِ ما يَعرض لها من المقارنة والمقابلةِ والتثليثِ والتسديس، وكيفيةِ سيرِها ومقدارِ حركاتها، ونحوِ ذلك ممَّا يُبحث عنه في الزِّيج،

(١) وذلك أن النبي ﷺ نظر إلى القمر فقال: «يا عائشة، استعيذي بالله من شر هذا؛ فإن هذا الغاسق إذا وقب» وهو عند الترمذي (٣٣٦٦)، والنسائي في الكبرى (١٠٠٦٤) و(١٠٠٦٥).
(٢) سنن أبي داود (٣٩٠٥)، وابن ماجه (٣٧٢٦) من حديث ابن عباس ﵄.

أو كان عبارةً عمَّا يعمُّ ذلك والعلمَ الذي يُتوصَّل به إلى معرفة ارتفاعِ الكوكبِ وانخفاضه، ومعرفة الماضي من الليلِ والنهار، ومعرفةِ الأطوال والأعراض، ونحوِ ذلك مما تضمَّنه علمُ الإسطرلابِ والرُّبعِ المجيَّب ونحوِهما، فهو ممَّا لا أرى بأساً في تعلُّمه مطلقاً.

وإنْ كان عبارةً عن العلم الباحثِ عن أحكامها وتأثيراتِها التي تقتضيها باعتبار أَوضاعِها وطبائِعها على ما يزعمه الأحكاميُّون، فهذا الذي اختُلف في أمره، فقال بعضُهم بحُرمة تعلُّمه؛ لحديث أبي داودَ وابنِ ماجه السابق. والقائلُ بهذا قائلٌ بحرمة تعلُّم السِّحر، وهو أحدُ أقوالٍ في المسألة فيها الإفراطُ والتفريط، ثانيها: أنَّه مكروه، ثالثها: أنَّه مباح، رابعها: أنَّه فرضُ كفاية، خامسها: أنَّه كفر، والجمهورُ على الأوَّل، ولأنَّ فيه ترويجَ الباطلِ وتعريضَ الجهلةِ لاعتقاد أنَّ أحكامَ النجومِ المعروفةَ بين أهلها حقٌّ والكواكب مؤثِّرة بنفسها.

وقيل: يَحرُم تعلُّمه؛ لأنَّه منسوخ، فقد قال الكرمانيُّ في «عجائبه»: كان علمُ النجومِ علماً نبويًّا فنُسخ.

وتعقِّب هذا بأنَّه لا معنى لنسخ العلمِ نفسِه، وإنْ حُمل الكلامُ على معنى: كان تعلُّمه مباحاً فنُسخ ذلك إلى التحريم، كان في الاستدلال مصادرة.

وقال بعضُهم: لا حرمةَ في تعلُّمه، إنما الحرمةُ في اعتقاد صحَّةِ الأحكامِ وتأثيراتِ الكواكب، على الوجه الذي يقوله جَهَلةُ الأحكاميين لا مطلقاً.

وأُجيب عن الخبر السابقِ بأنَّه محمولٌ على تعلُّم شيءٍ من علم النجومِ على وجه الاعتناءِ بشأنه، كما يرمز إليه «اقتَبَسَ» وذلك لا يتمُّ بدون اعتقادِ صحَّة حكمِه وأنَّ الكواكبَ مؤثِّرات، وتعلُّمه على هذا الوجهِ حرام، وبدونه مُباحٌ، وفيه بحث.

وقيل في الجواب: إنَّ الخبرَ فيمن ادَّعى علماً بحكمٍ من الأحكام آخذاً له من النُّجوم قائلاً: الأمرُ كذا ولا بدّ؛ لأنَّ النجمَ يقتضيه ألبتَّة، وهو لاشكَّ في إثمه وحُرمةِ دعواه التي قامت الأدلَّةُ على كذبها، وهو كما ترى.

وكلامُ بعضِ أجلةِ العلماءِ صريحٌ في إباحة تعلُّمه متى اعتقد أنَّ الله تعالى أجرى العادةَ بوقوع كذا عند حلولِ الكوكبِ الفلانيِّ منزلةَ كذا مثلاً مع جوازِ التخلُّف.

واستظهر بعضٌ حرمةَ التعلُّم مطلقاً، متى كان فيه إغراءُ الجهلةِ بذلك العلم، وإيقاعُهم في محذور اعتقادِ التأثير، أو كان فيه غيرُ ذلك من المفاسد، وكراهتَه إنْ سَلِم من ذلك؛ لمَا فيه من تضييع الأوقاتِ فيما لا فائدةَ فيه، ومبناه ظنونٌ وأوهامٌ وتخيُّلات.

ولا يَبعُد القولُ بأنَّه يباح للعالِم الراسخِ النظرُ في كتبه للاطِّلاع على ما قالوا، والوقوفِ على مناقضاتهم واختلافاتِهم التي سمعتَ بعضاً منها؛ لينفِّرَ عنها الناسَ ويردَّ العاكفين عليها، كما يباح له النظرُ في كتب سائرِ أهلِ الباطل ـ كاليهود والنَّصارى ـ لذلك، بل لو قيل بسنِّيَّته لهذا الغرض لم يَبعُد، لكن أنت تعلم أنَّ السلفَ الصالحَ لم يحوموا حول شيءٍ منه بسوى ذمِّه وذمِّ أهله، ولم يتطلَّبوا كتاباً من كتبه لينظروا فيه، على أيِّ وجهٍ كان النظر؛ ونسبةُ خلافِ ذلك إلى أحدٍ منهم لا تصحّ، فالحزمُ اتِّباعُهم في ذلك، وسلوكُ مسلكِهم، فهو لَعمري أقومُ المسالك.

هذا واعتُرض القولُ بإطلاعه ﷺ على ما ذُكر من شأن الأجرامِ العُلوية بأنَّ فيه فتحَ بابِ الشُّبهة في كون أخبارِهِ ﷺ بالغيوب من الوحي؛ لجواز أن تكونَ من أَحكام النُّجومِ على ذلك القول.

وأُجيب بأنَّ الشُّبهةَ إنما تتأتَّى لو ثبت أنَّه عليه الصلاة والسلام رَصَدَ ـ ولو مرَّة ـ كوكباً من الكواكب وحقَّق منزلتَه وأخبر بغيب؛ إذ مجرَّدُ العلمِ بأنَّ لكوكبِ كذا حكمَ كذا إذا حلَّ بمنزلة كذا لا يُفيد بدون معرفةِ أنَّه حلَّ في تلك المنزلة، فحيث لم يَثبت أنَّه ﷺ فعل ذلك، لا يُفتح بابُ الشُّبهة. وفيه بحثٌ ظاهر. وبأنَّ علمَه ﷺ بما تدلُّ عليه الأوضاعُ عند القائلينَ به ليس إلَّا عن وحي، فغايةُ ما يلزم على تلك الشُّبهةِ أن يكونَ خبرُه بالغيب بواسطة علمِ أحكام النُّجوم الذي عَلِمَه بالوحي، وأيُّ خللٍ يحصل من هذا في نبوَّته عليه الصلاة والسلام؟ بل هذه الشُّبهةُ تستدعي كونَه نبيّاً، كما أنَّ عدمَها كذلك.

وتُعقِّب بأنَّه متى سُلِّم أنَّ للأوضاع الفلكيةِ دلالةً على الأُمور الغيبية، وأنَّه ﷺ يعلم ما تدلُّ عليه، يقع الاشتباهُ بينه وبين غيرِه من علماءِ ذلك العلم المخبِرين بالغيب إذا وقع كما أَخبروا، والتفرقةُ بأنَّه عليه الصلاة والسلام قد أُوحي إليه بذلك دون الغيرِ فرعُ كونِه نبيًّا، وهو أوَّلُ المسألة.

واختير في الجواب أن يقال: إنَّ إخبارَه ﷺ بالغيب إن كان بعد ثبوتِ نبوَّته بمعجزٍ غيرِ ذلك، لا تتأتّى الشبهةُ إن أَفهم أنَّ خبرَه بواسطة الوحي، ولا تضرُّ إنْ لم يفهم، إذ غايةُ ما في الباب أنه نبيّ؛ لظهور المعجزِ على يده قبل إن أَخبرَ بغيبٍ بواسطة وضعٍ فلكيٍّ وشاركه غيرُه في ذلك، وإن كان قبلَ ثبوتِ نبوَّته بمعجزٍ غيرِه، بأن كان التحدِّي بذلك الخبرِ ووقوع ما أخبر به، فالذي يدفع الشبهةَ حينئذٍ عدمُ القدرةِ على المعارضة، فلا يستطيع منجِّم أن يُخبرَ صادقاً بمثل ذلك بمقتضَى علمِه بالأوضاع ومقتضياتِها، فتدبَّر.

ثم الظاهر ـ على ما ذكره الشيخُ الأكبرُ قدِّس سرُّه في النُّقباء والنُّجباء ـ أنَّ لكلٍّ من الأنبياءِ عليهم السلام اطِّلاعاً على ذلك، إذ رتبةُ النبيِّ فوق رتبةِ الولي، وعلمُه فوق علمِه؛ إذ هو الركنُ الأعظمُ في الفضل. ولا حجَّةَ في قصَّة موسى والخَضِرِ عليهما السلام على خلافه، أمَّا على القول بنبوَّة الخضرِ عليه السلام، فظاهر، وكذا على القولِ بولايته، وأنَّه فَعَلَ ما فَعَلَ عن أمر اللهِ تعالى بواسطة نبيّ، وأمَّا على القول بولايته وأنَّه فَعَلَ ذلك لعلمٍ أُوتيه بلا واسطةِ نبيّ؛ فلأنَّه لا يدلُّ إلَّا على فقدان موسى عليه السلام العلمَ بتلك الأمورِ الثلاثةِ وعلمِ الخضرِ بها، ولا يلزمُ من ذلك أن يكونَ الخضرُ أعلمَ منه مطلقاً، وهو الظاهر.

وعلى هذا جوَّز إبقاءُ الآيةِ على ظاهرها، فيكون إبراهيمُ عليه السلام قد نظر في النُّجوم حسبما علَّمه اللهُ تعالى من أحوالِ الملكوتِ الأعلى، واستدلَّ على أنَّه سيسقم بما استدلّ، ولعل نظرَه كان في طالع الوقتِ أو نحوِه، أو طالعِ ولادتِه، أو طالعِ سقوطِ النطفةِ التي خُلق منها، والعلمُ به بالوحي أو بواسطة العلمِ بطالعِ الوِلادة. والاعتراضُ على ذلك بأنَّه يلزم عليه تقويتُه عليه السلام ما هم عليه من الباطل في أمر النُّجوم واردٌ أيضاً على حَملِ ما في الآية على التعريض، والجوابُ هو الجواب.

هذا وإذا أحطتَ خُبراً بجميع ما ذكرتُ لك في هذا المقام، فأَحسِن التأمُّلَ فيما تضمَّنه من النقض والإبرام، وقد جمعتُ لك ما لم أعلم أنه جُمع في تفسير، ولا أُبرِّئُ نفسي عن الخطأ والسهوِ والتقصير، واللهُ سبحانه وليُّ التوفيق، وبيده عزَّ وجلَّ أَزِمَّةُ التحقيق.

وقوله تعالى ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ تفريعٌ على قوله عليه السلام: «إني سقيم» أي: أعرضوا وتركوا قربَه، والمرادُ أنَّهم ذهبوا إلى معيدِهم وتركوه. و«مدبرين» إما حالٌ مؤكِّدة، أو حالٌ مقيِّدة، بناءً على أنَّ المرادَ بـ «سقيم» مطعون، أو أنَّهم توهَّموا مرضاً له عدوى مرضِ الطاعونِ أو غيرِه، فإنَّ المرضَ الذي له عدوى بزعم الأطباءِ لا يختصُّ بمرض الطاعون، فكأنَّه قيل: فأعرضوا عنه هاربين مخافَةَ العدوى.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ فذهب بخفيةٍ إلى أصنامهم التي يعبدونها. وأصلُ الرَّوغان: ميلُ الشخصِ في جانبٍ ليخدعَ مَن خلفه، فتجوَّز به عمَّا ذكر لأنَّه المناسبُ هنا ﴿فَقَالَ﴾ للأصنام استهزاء: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾﴾ من الطعامِ الذي عندكم، وكان المشركون يضعون في أيام أعيادِهم طعاماً لدى الأصنامِ لتبرُّكَ عليه، وأتى بضمير العقلاءِ لمعاملته عليه السلام إيَّاهم معاملتَهم ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ بجوابي.

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ فمالَ مستعلياً عليهم. وقولُه تعالى: ﴿ضَرْبًا﴾ مصدرٌ لـ «راغ عليهم» باعتبار المعنى؛ فإنَّ المرادَ منه ضربُهم، أو لفعلٍ مضمَرٍ هو مع فاعله حالٌ من فاعله، أي: فراغ عليهم يضربهم ضرباً، أو هو حالٌ منه على أنَّه مصدرٌ بمعنى الفاعل، أي: ضارباً، أو هو مفعولٌ له، أي: لأجل ضرب.

وقرأ الحسن: «سَفقاً» و«صَفقاً» أيضاً[١].

﴿بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ أي: باليد اليمين، كما رُوي عن ابن عباس. وتقييدُ الضربِ باليمين للدَّلالة على شدَّته وقوَّته؛ لأنَّ اليمينَ أقوى الجارحتَين وأشدُّهما في الغالب، وقوةُ الآلةِ تقتضي شدَّةَ الفعلِ وقوَّته. أو: بالقوَّة، على أنَّ اليمينَ مجازٌ

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٢١، وانظر القراءات الشاذة ص١٢٨.

عنها؛ رُوي أنه عليه السلام كان يجمع يَديه في الآلةِ التي يضربها بها، وهي الفأس، فيضربها بكمال قوَّته.

وقيل: المرادُ باليمين الحَلِف، وسمِّي الحلفُ يميناً إمَّا لأنَّ العادةَ كانت إذا حلف شخصٌ لآخرَ جعل يمينَه بيمينه فحلف، أو لأنَّ الحلفَ يقوِّي الكلامَ ويؤكِّده، وأُريد باليمين قولُه عليه السلام: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧] والباءُ عليه للسببية، أي: ضرباً بسبب اليمينِ الذي حلفه قبل، وهي ـ على ما تقدَّم ـ للاستعانةِ أو للملابسة.

﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى إبراهيمَ عليه السلام بعد رجوعِهم من عيدهم وسؤالِهم عن الكاسر وقولِهم: ﴿فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ [الأنبياء: ٦١] ﴿يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ حالٌ من واو أقبلوا، أي: يُسرعون، من: زفَّ النَّعام: أَسرع؛ لخلطه الطيرانَ بالمشي، ومصدرُه الزَّفُّ والزفيف.

وقيل: «يزفون» أي: يمشون على تؤدةٍ ومهل، من زِفاف العروس، إذ كانوا في طمأنينةٍ من أن ينالَ أصنامَهم بشيء؛ لعزَّتها. وليس بشيء.

وقرأ حمزةُ ومجاهدٌ وابن وثَّابٍ والأعمش: «يُزِفُّون» بضمِّ الياء[(١)]، من أَزَفَّ: دخل في الزَّفيف، فالهمزةُ ليست للتعدية، أو حَمَلَ غيرَه على الزفيف، فهي لها. قاله الأصمعيّ.

وقرأ مجاهدٌ أيضاً وعبدُ الله بنُ يزيدَ والضحَّاك ويحيى بنُ عبد الرحمن المقري وابنُ أبي عبلة: «يَزِفُون» مضارعُ وَزَفَ بمعنى أَسرع[(٢)]، قال الكسائيُّ والفرَّاء: لا نعرف وَزَفَ بمعنى زفَّ. وقد أثبته الثِّقات، فلا يضرُّ عدمُ معرفتِهما.

وقُرئ: «يُزَفُّون» بالبناء للمفعول، وقُرئ: «يَزْفُون» بسكون الزَّاي[(٣)]، من زفاه: إذا حداه، كأنَّ بعضَهم يزفو بعضاً لتَسارُعِهم إليه.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٦٦، وقراءة حمزة في التيسير ص١٨٦، والنشر ٢/ ٣٥٧.

(٢) القراءات الشاذة ص١٢٨، والمحتسب ٢/ ٢٢١، والبحر ٧/ ٣٦٦، وعنه نقل المصنف.

(٣) البحر ٧/ ٣٦٦.

﴿قَالَ﴾ بعد أن أَتَوا به عليه السلام وجرى ما جرى من المحاورةِ على سبيل التوبيخِ والإنكار عليهم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾ أي: الذي تنحتونه من الأصنام، فـ «ما» موصولةٌ حُذف عائدُها، وهو الظاهرُ المتبادر.

وجوِّز كونُها مصدرية، أي: أتعبدون نحتكم؟ وتوبيخُهم على عبادة النحتِ مع أنَّهم يعبدون الأصنامَ وهي ليست نفسَ النَّحت؛ للإشارة إلى أنَّهم في الحقيقة إنمَّا عبدوا النَّحت، لأنَّ الأصنامَ قبلَه حجارة، ولم يكونوا يعبدونها، وإنمَّا عبدوها بعد أنْ نحتوها، ففي الحقيقةِ ما عبدوا إلَّا نحتَهم. وفيه ما فيه.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ في موضع الحالِ من ضمير «تعبدون» لتأكيد الإنكارِ والتوبيخ، والاحتجاجِ على أنَّه لا ينبغي تلك العبادة، و«ما» موصولةٌ حُذف عائدُها أيضاً، أي: خلقكم وخلق الذي تعملونه، أي: من الأصنام، كما هو الظَّاهر، وهي عبارةٌ عن موادَّ ـ وهي الجواهرُ الحجرية ـ وصورٌ حصلت لها بالنَّحت، وكونُ الموادِّ مخلوقةً له عزَّ وجلَّ ظاهر، وكونُ الصورِ والأشكالِ كذلك ـ مع أنَّها بفعلهم ـ باعتبار أنَّ الإقدارَ على الفعل وخلقَ ما يتوقَّف عليه من الدَّواعي والأسبابِ منه تعالى، وكونُ الأصنامِ ـ وهي ما سمعت ـ معمولةً لهم باعتبار جزئها الصُّوري، فهو مع كونِه معمولاً لهم مخلوقٌ لله تعالى بذلك الاعتبار، فلا إشكال.

وفي «المتمَّة للمسألة المهمَّة» تأليفُ الشيخ إبراهيمَ الكورانيِّ عليه الرَّحمة: صريحُ الكلامِ دالٌّ على أنَّ اللهَ تعالى خالقٌ للأصنام بجميع أجزاءها التي منها الأشكال، ومعلومٌ أنَّ الأشكالَ إنمَّا حصلت بتشكيلهم، فتكون الأشكالُ مخلوقةً لله تعالى معمولةً لهم؛ لكون نحتِهم وتشكيلِهم عينَ خلقِ اللهِ تعالى الأشكالَ بهم. ولا استحالةَ في ذلك؛ لأنَّ العبدَ لا قوَّة له إلَّا بالله تعالى بالنصّ، ومَن لا قوَّةَ له إلَّا بغيره، فالقوةُ لذلك الغيرِ لا له، فلا قوَّةَ حقيقةً إلَّا لله تعالى، ومن المعلوم أنَّه لا فعلَ للعبد إلَّا بقوَّة، فلا فعلَ له إلَّا بالله تعالى، فلا فعلَ حقيقةً إلَّا لله تعالى، وكلُّ ما كان كذلك، كان النحتُ والتشكيلُ عينَ خلقِ اللهِ سبحانه الأشكالَ بهم وفيهم بالذَّات، وغيرَه بالاعتبار، فيكون المعمولُ عينَ المخلوقِ بالذات وغيرَه

بالاعتبار، فإنَّ إيجادَ اللهِ عزَّ وجلَّ يتعلَّق بذات الفعلِ من حيث هو، وفعلُ العبدِ بالمعنى المصدريِّ يتعلَّق بالفعل بمعنى الحاصلِ بالمصدر، من حيث كونُه طاعةً أو معصيةً أو مباحاً؛ لكونه مكلَّفاً، واللهُ تعالى له الإطلاق، ولا حاكمَ عليه سبحانه. انتهى، فافهم.

والزمخشريُّ[1] جعل أيضاً «ما» موصولة، إلَّا أنَّه جعل المخلوقَ له تعالى هو الجواهر، ومعمولَهم هو الشكلَ والصُّورة، إمَّا على أنَّ الكلامَ على حذفِ مضاف، أي: وما تعملون شكلَه وصورتَه، وإمَّا على أنَّ الشائعَ في الاستعمال ذلك، فإنَّهم يقولون: عمل النَّجارُ الباب، و: الصائغُ الخلخال، و: البنَّاءُ البِناء، ولا يعنون إلَّا عملَ الشكلِ بدون تقدير شكلٍ في النظم، كأن تعلُّق العملِ بالشيءِ هو هذا التعلُّقُ لا تعلُّقُ التكوين.

وهو مبنيٌّ على اعتقاده الفاسدِ من أنَّ أفعالَ العبادِ مخلوقةٌ لهم، والاحتجاجُ في الآية على الأوَّل بأنْ يقال: إنَّه تعالى خلق العابدَ والمعبودَ مادَّةً وصورة، فكيفَ يَعبد المخلوقُ المخلوقَ؟ وعلى الثاني بأنَّه تعالى خلق العابدَ ومادَّةَ المعبود، فكيف يعبد المخلوقُ المخلوقَ؟ على أنَّ العابدَ منهما هو الذي عمل صورةَ المعبود، والأوَّلُ أظهر.

وعُدل عن ضميرِ «ما تنحتون»، أو الإتيان به دون: ما تعملون؛ للإيذان بأنَّ مخلوقيةَ الأصنامِ لله عزَّ وجلَّ ليس من حيث نحتُهم لها فقط، بل من حيثُ سائرُ أعمالِهم أيضاً، من التصوير والتحليةِ والتزيين.

وفي «الكشف»: فائدةُ العدولِ الدَّلالةُ على أنَّ تأثيرَهم فيها ليس النَّحتَ، ثم العملُ يقع على النَّحت والأثرِ الحاصلِ منه، ولا يقع النحتُ على الثاني، فلا بدَّ من العدول لهذه النُّكتة، وبه يتمُّ الاحتجاج، أي: الذي قيل على اعتبار الزمخشريّ.

وجوِّز أن يكونَ الموصولُ عامّاً للأصنام وغيرِها، وتدخل أوَّليًّا، ولا يتأتَّى عليه حديثُ العدول.

---

(١) في الكشاف ٣/ ٣٤٥.

وقيل: «ما» مصدريةٌ، والمصدرُ مؤوَّل باسم المفعول؛ ليطابقَ «ما تنحتون» على ما هو الظاهرُ فيه، ويتَّحد المعنى مع ما تقدَّم على احتمالِ الموصولية.

وجوِّز بقاءُ المصدرِ على مصدريَّته، والمرادُ به الحاصلُ بالمصدر، أَعني الأَثر، وكثيراً ما يرادُ به ذلك، حتى قيل: إنَّه مشتركٌ بينه وبين التأثيرِ والإِيقاع، أي: خلقكم وخلق عملَكم. واحتجَّ بالآية على المعتزلة.

وتعقِّب بأنَّه لا يصحّ؛ لأنَّ الاستدلالَ بذلك على أنَّ العابدَ والمعبودَ جميعاً خلقُ اللهِ تعالى، فكيفَ يَعبد المخلوقُ مخلوقاً؟ ولو قيل: إنَّ العابدَ وعملَه من خلق اللهِ تعالى، لفاتت الملاءمةُ والاحتجاج، ولأنَّ «ما» في الأوَّل موصولة، فهي في الثاني كذلك؛ لئلَّا ينفكَّ النظم.

وما قاله القاضي البيضاويُّ من أنَّه لا يفوت الاحتجاج، بل إنَّه أبلغُ فيه؛ لأنَّ فعلَهم إذا كان بخلق اللهِ تعالى، كان مفعولُهم المتوقِّف على فعلهم أَولَى بذلك[1]. وأُيِّد بأنَّ الأسلوبَ يصير من باب الكناية، وهو أَبلغُ من التصريح، ولا فائدةَ في العدول عن الظاهر إلَّا هذا، فيجب صوناً لكلام اللهِ تعالى عن العبث = تعقَّبه في «الكشف» بأنَّه لا يتمّ؛ لأنَّ الملازمةَ ممنوعةٌ عند القوم، أَلَا ترى أَنَّهم معترفون بأنَّ العبدَ وقدرتَه وإِرادتَه من خلق اللهِ تعالى، ثم المتوقِّف عليهما ـ وهو الفعل ـ يجعلونه خلقَ العبد، والتحقيقُ أَنَّه يفيد التوقُّفَ عليه تعالى، وهم لا يُنكرونه، إنَّما الكلامُ في الإِيجاد والإِحداث.

ثم قال: وأَظهرُ منه أن يقال: لأنَّ المعمولَ من حيث المادَّةُ كانوا لا يُنكرون أَنَّه من خلق اللهِ تعالى، فقيل: هو من حيث الصورةُ أيضاً خلقُه، فهو مخلوقٌ من جميع الوجوهِ مثلَكم من غير فرق، فلِمَ تسوُّونه بالخالق وما ازداد بفعلكم إلَّا بُعد استحقاقٍ عن العبادة[2]؟

ولمَّا كان هذا المعنى في تقرير الزمخشريِّ على أَبلغِ وجه، كان هذا البناءُ

---

(١) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٢٧٨.

(٢) في حاشية الشهاب ٧/ ٢٧٨: إلا بعداً عن استحقاق العبادة.

متداعياً كيفما قرِّر. على أنَّ فائدةَ العدولِ قد اتَّضحت حقَّ الوضوح، فبطل الحصرُ أيضاً، وقد قيل عليه: إنَّ المرادَ بالفعل الحاصلُ بالمصدر؛ لأنَّه بالمعنى الآخر - أعني الإيقاعَ - من النِّسب التي ليست بموجودةٍ عندهم، وتوقُّف الحاصلِ بالإيقاع على قدرة العبدِ وإرادته توقفٌ بعيد، بخلاف توقُّفِه على الإيقاع الذي لا وجودَ له، فيكونُ ما ذكره في معرض السندِ مجتمعاً مع المقدِّمة الممنوعة، فلا يصلح للسَّندية، والمرادُ بمفعولهم أشكالُ الأصنامِ المتوقِّف على ذلك المعنى القائمِ بهم، وإذا كان ذاك بخَلْقِه تعالى، فلأن يكونَ الذي لا يقوم بهم - بل بما يُباينهم - بخَلْقِه تعالى أَوْلى.

ولا مجالَ للخصم أن يمنعَ هذه الملازمة؛ إذ قد أثبت خلقَ المتولِّدات مطلقاً للعباد بواسطة خلقِهم لِمَا يقوم بهم، وانتفاءُ الأوَّلِ ملزومٌ لانتفاءِ الثاني، فتأمَّل.

وقال في «التقريب» انتصاراً لمن قال بالمصدريَّة: إنَّ الجواهرَ مخلوقةٌ له تعالى وِفاقاً، والأعمالُ مخلوقةٌ أيضاً؛ لعموم الآية، فكيف يُعبد ما لا مدخلَ له في الخلق؟ فدعوى فواتِ الاحتجاجِ باطلة، وكذلك فكُّ النظمِ والتبتير.

وتعقَّبه في «الكشف» أيضاً، فقال فيه: إنَّ المقدِّمة الوفاقيةَ إذا لم يكن بدٌّ منها ولم تكن معلومةً من هذا السِّياق، يَلزم فوات الاحتجاج، وأمَّا الحملُ على التغليبِ في الخطاب، فتوجيهٌ لا ترجيح، والكلامُ في الثاني.

ثم قال: وأمَّا أنَّ المصدريةَ أولى لئلَّا يلزمَ حذفُ الضمير، فمعارَضٌ بأنَّ الموصولةَ أكثرُ استعمالاً، وهي أنسبُ بالسِّياق السابق، على أنَّه لابدَّ من تقدير: عملَكم(١) في المنحوت، فيزداد الحذف.

واعتُرض بأنَّا لا نسلِّم الأكثرية، وكذا لا نسلِّم أنها أنسبُ بالسِّياق؛ لِمَا سمعتَ من أنَّ الأسلوبَ على ذلك من باب الكِناية، وهو أبلغُ من التصريح، والتقديرُ المذكورُ ليس بلازم؛ لجواز إبقاءِ الكلامِ على عمومه الشاملِ للمنحوتِ بالطريق الأَوْلى، أو يقدَّر بمصدرٍ مضافٍ إضافةً عهدية.

---

(١) في الأصل و(م): عملهم، والمثبت من حاشية الشهاب ٧/ ٢٧٨، وهو الصواب.

وبعضُهم جعلها موصولةً كنايةً عن العمل؛ لئلَّا ينفكَّ النظمُ ويظهرَ احتجاجُ الأصحابِ على خلق أفعالِ العباد. وتعقَّبه أيضاً بأنَّه أفسدُ من الأوَّل؛ لمَا فيه من التعقيد وفواتِ الاحتجاج، وكونِ الموصولِ في الأوَّل عبارةً عن الأعيان وفي الثاني كنايةً عن المعاني، وانفكاكُ النظمِ ليس لخصوص الموصوليةِ والمصدرية، بل لتباين المعنيَين، وهو باقٍ[1].

وصاحبُ «الانتصاف» قال بتعيُّن حملِها على المصدرية، لأنَّهم لم يعبدوا الأَصنامَ من حيث كونُها حجارة، وإنَّما عبدوها من حيث أَشكالُها، فهم في الحقيقة إنَّما عبدوا عملَهم، وبذلك تتبلَّج الحجَّةُ عليهم بأنَّهم وعملَهم مخلوقان لله تعالى، فكيف يَعبد المخلوقُ مخلوقاً مثلَه مع أنَّ المعبودَ كسبُ العابدِ وعملُه؟ وأَجاب عن حديث لزومِ انفكاكِ النَّظم بأنَّ لنا أن نحملَ الأُولى على المصدرية أيضاً، فإنَّهم في الحقيقة إنَّما عبدوا نحتَهم[2]. وفي دعوى التعيُّن بحث.

وجوَّز كونُ «ما» الثانيةِ استفهاميةً للإنكار والتحقير، أي: وأيَّ شيءٍ تعملون في عبادتكم أصناماً نحتُّموها؟ أي: لا عملَ لكم يعتبر. وكونُها نافية، أي: وما أنتم تعملون شيئاً في وقت خلقِكم ولا تقدرون على شيء.

ولا يخفى أن كلا الاحتمالين خلاف الظاهر، بل لا ينبغي أن يحمل عليه التنزيل، وأظهر الوجوه كونها موصولة، وتوجيهُ ذلك على ما يقوله الأصحاب، ثم كونُها مصدرية، والاستدلالُ بالآية عليه ظاهر، وقولُ صاحبِ «الكشف» و«الإنصاف»: إنَّ استدلالَ الأصحابِ بهذه الآيةِ لا يتمّ، إنْ أَراد به ترجيحَ احتجاجِ المعتزلة، خارجٌ عن دائرة الإنصاف، ثم إنَّها على تقدير ألَّا تكونَ دليلاً لهم، لا تكون دليلاً للمعتزلة أيضاً، كما لا يخفَى على المنْصف.

هذا ولمَّا غلبهم إبراهيمُ عليه السلام بالحجَّة، مالوا إلى الغلبة بقوَّة الشَّوكة ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا﴾ حائطاً توقِدون فيه النار، وقيل: مَنجنيقاً ﴿فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾

(١) ينظر الكشاف ٣/ ٣٤٦.
(٢) الانتصاف ٣/ ٣٤٦.

في النَّار الشديدة، من الجَحْمة، وهي شدَّةُ التأجُّج والاتِّقاد. واللامُ بدلٌ عن المضاف إليه، أو للعهد. والمرادُ جحيمُ ذلك البنيانِ التي هي فيه أو عنده.

﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾ سوءاً باحتيال، فإنَّه عليه السلام لمَّا قهرهم بالحجَّة، قصدوا تعذيبَه بذلك؛ لئلَّا يظهرَ للعامَّة عجزُهم ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ الأذلِّين بإبطال كيدِهم وجعلِه برهاناً ظاهراً ظهورَ نارِ القِرى ليلاً على عَلَمٍ، على علوِّ شأنِه عليه السلام، حيث جعل سبحانه النارَ عليه برداً وسلاماً. وقيل: أي: الهالكين. وقيل: أي: المعذَّبين في الدَّرْك الأسفلِ من النار. والأوَّل أنسب.

﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾ إلى حيث أمرني، أو حيث أَتجرَّد فيه لعبادته عزَّ وجلّ، جعل الذهابَ إلى المكان الذي أمره ربُّه تعالى بالذَّهاب إليه ذهاباً إليه، وكذا الذهابُ إلى مكانٍ يعبده تعالى فيه، لا أنَّ الكلامَ بتقديرِ مضاف.

والمرادُ بذلك المكانِ الشام. وقيل: مِصر. وكأنَّ المرادَ إظهارُ اليأسِ من إيمانهم وكراهة البقاءِ معهم، أي: إني مفارقُكم ومهاجرٌ منكم إلى ربِّي.

﴿سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ إلى ما فيه صلاحُ دِيني، أو إلى مقصدي، والسينُ لتأكيد الوقوعِ في المستقبل؛ لأنها في مقابلة «لن» المؤكِّدِ للنفي، كما ذكره سيبويه(١).

وبتَّ عليه السلام القول؛ لسبق وعدِه تعالى إيَّاه بالهداية لمَّا أمره سبحانه بالذَّهاب، أو لفَرْط توكُّلِه عليه السلام، أو للبناءِ على عادته تعالى معه، وإنَّما لم يقل موسى عليه السلام مثلَ ذلك، بل قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢] بصيغة التوقُّع، قيل: لعدم سبقِ وعدٍ وعدمِ تقدُّم عادة، واقتضاءِ مقامِه رعايةَ الأدبِ معه تعالى بألَّا يقطعَ عليه سبحانه بأمرٍ قبل وقوعِه، وتقديمِه على رعاية فَرط التوكُّل، ومقاماتُ الأنبياءِ متفاوتة، وكلُّها عالية.

وقيل: لأنَّ موسى عليه السلام قال ما قال قبلَ البعثة، وإبراهيمَ عليه السلام قال ذلك بعدَها.

---

(١) الكتاب ٣/ ١١٥.

وقيل: لأنَّ إبراهيمَ كان بصدد أمرٍ دينيّ، فناسبه الجزم، وموسى كان بصدد أمرٍ دنيويّ، فناسبه عدمُ الجزم.

ومن الغريبِ ما قيل ونحا إليه قتادةُ أنَّه لم يكن مرادُ إبراهيمَ عليه السلام بقوله: «إني..» إلخ الهجرة، وإنَّما أراد بذلك لقاءَ اللهِ تعالى بعد الإحراق، ظانًّا أنَّه يموت في النار إذا أُلقي فيها، وأراد بقوله: «سيهديني» الهدايةَ إلى الجنَّة.

ويدفع هذا القولَ دعاؤه بالولدِ حيث قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ بعض الصالحين، يُعينني على الدَّعوة والطاعة، ويؤنسني في الغربة. والتقدير: ولداً من الصالحين، وحُذف لدلالة الهبةِ عليه، فإنَّها في القرآن وكلام العربِ غلب استعمالُها مع العقلاءِ في الأولاد، وقولُه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم:٥٣] من غيرِ الغالب، أو المرادُ فيه هبةُ نبوَّته لا هبةُ ذاتِه، وهو شيءٌ آخر. ولقوله[(١)] تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ فإنَّه ظاهرٌ في أنَّ ما بشِّر به عينُ ما استوهبه، مع أنَّ مثلَه إنمَّا يقال عرفاً في حقِّ الأولاد.

ولقد جمع بهذا القولِ بشارات: أنَّه ذَكَرٌ لاختصاص الغلامِ به، وأنَّه يبلغ أوانَ البلوغِ بالسنِّ المعروف، فإنَّه لازمٌ لوصفه بالحليم؛ لأنَّه لازمٌ لذلك السنِّ بحسب العادة، إذ قلَّما يوجد في الصِّبيان سَعةُ صدرٍ وحُسنُ صبرٍ وإغضاءٌ في كلِّ أمر. وجوِّز أن يكونَ ذلك مفهوماً من قوله تعالى: «غلام» فإنَّه قد يختصُّ بما بعد البلوغِ وإنْ كان ورد عامّاً، وعليه العرفُ كما ذكره الفقهاء، وأنَّه يكون حليماً، وأيُّ حلمٍ مثلُ حلمِه، عرض عليه أبوه وهو مراهقُ الذبحَ فقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الآية:١٠٢] فما ظنُّك به بعد بلوغِه؟ وقيل: ما نَعَتَ اللهُ تعالى نبيًّا بالحلم ـ لعزَّة وجودِه ـ غيرَ إبراهيمَ وابنِه عليهما السلام، وحالُهما المذكورةُ فيما بعدُ تدلُّ على ما ذُكر فيهما.

والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ فصيحةٌ تُعرب عن مقدَّرٍ قد حُذف تعويلاً على شهادة الحال، وإيذاناً بعدم الحاجةِ إلى التصريحِ به؛ لاستحالة

---

(١) قوله: ولقوله...، عطف على قوله: لدلالة الهبة...

التخلُّف، أي: فوهبناه له ونشأ، فلمَّا بلغ رتبةَ أن يسعَى معه في أشغاله وحوائجِه.

و«مع» ظرفٌ للسعي، وهي تدلُّ على معنى الصحبةِ واستحداثِها.

وتعلُّقها بمحذوفٍ دلَّ عليه المذكور؛ لأنَّ صلةَ المصدرِ لا تتقدَّمه، لأنَّه عند العملِ مؤوَّل بـ «أنْ» المصدريةِ والفعل، ومعمولُ الصلةِ لا يتقدَّم على الموصول؛ لأنَّه كتقدُّم جزءِ الشيءِ المرتَّب الأجزاءِ عليه، أو لضعفه عن العمل = فيه بحث، أمَّا أولاً؛ فلأنَّ التأويلَ المذكورَ على المشهور في المصدر المنكَّر دون المعرَّف. وأمَّا ثانياً؛ فلأنَّه إذا سلِّم العموم، فليس كلُّ ما أوِّل بشيءٍ حكمُه حكمُ ما أوِّل به. وأمَّا ثالثاً؛ فلأنَّ المقدَّم هنا ظرف، وقد اشتهر أنَّه يغتفر فيه ما لا يغتفر في غيره. وصرَّحوا بأنَّه يكفيه رائحةُ الفعل، وبهذا يضعف حديثُ المنع؛ لضعف العاملِ عن العمل، فالحقُّ أنَّه لا حاجةَ في مثل ذلك إلى التقدير، معرَّفاً كان المصدرُ أو منكَّراً، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ [النور: ٢] وهو الذي ارتضاه الرضيُّ وقال به العلَّامة الثاني.

واختار صاحبُ «الفرائد» كونَها متعلِّقةً بمحذوفٍ وقع حالاً من «السعي»، أي: فلمَّا بلغ السعيَ حالَ كونِ ذلك السعيِ كائناً معه. وفيه أنَّ السعيَ معه معناه اتفاقُهما فيه، فالصحبةُ بين الشخصين فيه، وما قدَّره يقتضي الصحبةَ بين السعي وإبراهيمَ عليه السلام، ولا يطابق المقام.

وجوِّز تعلُّقه بـ «بلغ». ورُدَّ بأنَّه يقتضي بلوغَهما معاً حدَّ السعي؛ لِمَا سمعتَ من معنى «مع»، وهو غيرُ صحيح.

وأُجيب بأنَّ «مع» على ذلك لمجرَّد الصحبة على أن تكونَ مرادفةَ «عند»، نحو: فلانٌ يتغنَّى مع السُّلطان، أي: عنده، ويكون حاصلُ المعنى: بلغ عند أبيه وفي صحبته متخلِّقاً بأخلاقه متطبِّعاً بطباعه، ويستدعي ذلك كمالَ محبَّة الأبِ إياه. ويجوزُ على هذا أن تتعلَّقَ بمحذوفٍ وقع حالاً من فاعل «بلغ». ومن مجيءِ «مع» لمجرَّد الصحبةِ قولُه تعالى حكايةً عن بلقيس: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤] فلتكن فيما نحن فيه مثلَها في تلك الآية.

وتعقِّب بأنَّ ذاك معنًى مجازيّ، والحملُ على المجاز هنالك للصَّارف، ولا صارفَ فيما نحن فيه، فلْيُحمل على الحقيقة، على أنَّه لا يتعيَّن هنالك أن تكونَ لمعيَّة الفاعل؛ لجواز أن يراد: أسلمتُ لله ولرسوله، مثلاً. وتقديمُ «مع» إشعاراً منها بأنَّها كانت تظنُّ أنها على دِينٍ قبل، وأنها مسلمةٌ لله تعالى فيما كانت تعبد من الشَّمس، فدلَّ على أنه إسلامٌ يعتدُّ به من أثر متابعةِ نبيِّه، لا إسلامٌ كالأوَّل فاسد.

قال صاحبُ «الكشف»: وهذا معنًى صحيح، حَملُ الآيةِ عليه أولى، وإنْ حُمل على معيَّة الفاعلِ لم يكن بدٌّ من محذوف، نحو: مع بلوغِ دعوتِه وإظهار معجزتِه؛ لأنَّ فرقَ ما بين المقيَّد ومطلقِ الجمعِ معلومٌ بالضرورة. وزعم بعضٌ أنه لا مانعَ من إرادة الحقيقةِ واستحداثِ إسلامهما معاً، على معنى أنَّه عليه السلام وافقها أو لقَّنها. وليس بشيءٍ كما لا يخفَى.

وقيل: يراد بالسَّعي ـ على تقدير تعلُّق «مع» بـ «بَلَغَ» ـ المسعَى، وهو الجبلُ المقصودُ إليه بالمشي، وهو تكلُّف لا يصار إليه.

وبالجملة: الأَولى تعلُّقها بالسعي، والتخصيصُ لأنَّ الأبَ أكملُ في الرِّفق وبالاستصلاح له، فلا يستسعيه قبل أوانِه، أو لأنَّه عليه السلام استوهبه لذلك. وفيه على الأوَّل بيانُ أوانِه، وأنَّه في غضاضة عُودِه كان فيه ما فيه من رصانة العقلِ ورزانةِ الحلم، حتى أجاب بما أجاب، وعلى الثاني بيانُ استجابةِ دعائه عليه السلام، وكان للغلام يومئذٍ ثلاثَ عشرةَ سنة، والولدُ أحبُّ ما يكون عند أبيه في سنٍّ يقدر فيه على إعانة الأبِ وقضاءِ حاجه، ولا يقدر فيه على العِصيان.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ يحتمل أنَّه عليه السلام رأى في منامه أنَّه فعل ذبحه، فحمله على ما هو الأغلبُ في رؤيا الأنبياءِ عليهم السلامُ من وقوعها بعينها. ويحتمل أنَّه رأى ما تأويلُه ذلك، لكن لم يذكرْه وذكر التأويل، كما يقول الممتحَنُ وقد رأى أنَّه راكبٌ في سفينة: رأيت في المنام أنِّي ناجٍ من هذه المِحنة.

وقيل: إنَّه رأى معالجةَ الذبحِ ولم يرَ إنهارَ الدم، فـ «أنِّي أذبحك»: أنِّي أُعالج ذبحَك.

ويُشعر صنيعُ بعضِهم اختيارَ أنَّه عليه السلام أُتي في المنام فقيل له: اذبح ابنَك، ورؤيا الأنبياءِ وحيٌ كالوحي في اليقظة، وفي روايةٍ أنه رأى ليلةَ الترويةِ كأنَّ قائلاً يقول: إنَّ اللهَ تعالى يأمركَ بذبح ابنِك، فلمَّا أصبح روَّأ في ذلك[1]، وفكَّر من الصَّباح إلى الرَّواح، أَمِن اللهِ تعالى هذا الحُلُم أم من الشيطان؟ فمن ثَمَّ سمِّي يومَ التروية، فلمَّا أمسى رأى مثلَ ذلك، فعرف أنَّه من الله تعالى، فمن ثَمَّ سمِّي يومَ عرفة، ثم رأى مثلَه في الليلة الثالثة، فهمَّ بنحره، فسمِّي يومَ النحر.

وقيل: إنَّ الملائكةَ حين بشَّرته بغلامٍ حليم، قال: هو إذن ذبيحُ الله، فلمَّا وُلد وبلغ حدَّ السعي معه، قيل له: أَوفِ بنذرِك. ولعلَّ هذا القولَ كان في المنام، وإلَّا فما يصنع بقوله: «إني أرى في المنام أني أذبحك».

وفي كلام التوراةِ التي بأيدي اليهودِ اليومَ ما يرمز إلى أنَّ الأمرَ بالذَّبح كان ليلاً؛ فإنَّه بعد أن ذكر قولَ اللهِ تعالى له عليه السلام: خذ ابنَك وامضِ إلى بلد العبادةِ وأَصعده ثَمَّ قرباناً على أحد الجبالِ الذي أعرِّفك به، قيل: فأَدلج إبراهيمُ بالغداة، إلخ[2].

فالأمرُ إمَّا مناماً وإمَّا يقظة لكن وقع تأكيداً لما في المنام؛ إذ لا محيصَ عن الإيمان بما قصَّه اللهُ تعالى علينا فيما أَعجز به الثَّقلَين من القرآن، والحزمُ الجزمُ بكونه في المنام لا غير؛ إذ لا يعوَّل على ما في أيدي اليهود، وليس في الأخبار الصحيحةِ ما يدلُّ على وقوعه يقظةً أيضاً.

ولعلّ السرَّ في كونه مناماً لا يقظةً أن تكونَ المبادرةُ إلى الامتثال أدلَّ على كمال الانقيادِ والإخلاص.

وقيل: كان ذلك في المنام دون اليقظة؛ ليدلَّ على أنَّ حالتَي الأنبياءِ يقظةً ومناماً سواءٌ في الصدق. والأوَّلُ أَولى.

والتأكيدُ لِمَا في تحقُّق المخبرِ به من الاستبعاد.

---

(١) روَّأ في الأمر: نظر فيه، وتعقَّبه، ولم يعجل بجواب. القاموس (روأ).

(٢) الكتاب المقدس، العهد القديم ص ٩٩، وفيه: فبكَّر إبراهيم في الصباح...

وصيغةُ المضارعِ في الموضعين قيل: لاستحضار الصورةِ الماضيةِ لنوع غرابة، وقيل: في الأوَّل لتكرُّر الرؤيا، وفي الثاني للاستحضار المذكور، أو لتكرُّر الذبحِ حسب تكررِ الرُّؤيا، أو للمشاكلة. ومَن نظر بعدُ ظهر له غيرُ ذلك.

﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ من الرأي. وإنَّما شاوره في ذلك وهو حتمٌ ليعلمَ ما عنده فيما نزل من بلاءِ الله عزَّ وجلّ، فيثبتَ قدمه إن جزع، ويأمنَ عليه إن سلم، وليوطِّنَ نفسَه عليه فيهونَ عليه، ويكتسبَ المثوبةَ بالانقيادِ لأمر اللهِ تعالى قبل نزولِهِ، وليكونَ سنَّةً في المشاورة، فقد قيل: لو شاور آدمُ الملائكةَ في أكله من الشَّجرة، لَما فرط منه ذلك.

وقرأ حمزةُ والكسائيّ: «ماذا تُرِي» بضمِّ التاءِ وكسرِ الراءِ خالصة(١)، أي: ما الذي تريني إيَّاه من الصبر وغيرِه؟ أو: أيَّ شيءٍ تريني؟ على أنَّ «ما» مبتدأ، و«ذا» موصولٌ خبرُه، ومفعولَي «تُري» محذوفان. أو «ماذا» كالشيءِ الواحدِ مفعولٌ ثانٍ لـ «تُري»، والمفعولُ الأولُ محذوف.

وقُرئ: «ماذا تُرَى» بضمِّ التاءِ وفتحِ الراءِ على البناءِ للمفعول(٢)، أي: ماذا تريك نفسُك من الرأي؟

و«انظر» في جميع القراءاتِ معلَّقةٌ عن العمل، وفي «ماذا» الاحتمالان، فلا تغفُل.

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي: الذي تؤمرُ به، فحُذف الجارُّ والمجرورُ دفعة، أو حُذف الجارُّ أوَّلاً فعُدِّي الفعلُ بنفسه، نحو: أَمرتُك الخير، ثم حُذف المجرورُ بعد أن صار منصوباً ثانياً، والحذفُ الأولُ شائعٌ مع الأمر، حتى كاد يعدُّ متعدِّياً بنفسه، فكأنَّه لم يجتمع حذفان.

أو: افعل أمرَك، على أنَّ «ما» مصدرية، والمرادُ بالمصدر الحاصلُ بالمصدر، أي: المأمورُ به، ولا فرقَ في جواز إرادة ذلك من المصدر بين أن يكونَ صريحاً

(١) التيسير ص١٨٦-١٨٧، والنشر ٢/ ٣٥٧.
(٢) هي قراءة الأعمش والضحاك كما في المحتسب ٢/ ٢٢٢، والبحر ٧/ ٣٧٠.

وأن يكونَ مسبوكاً، وإضافتُه إلى ضمير إبراهيمَ إضافةٌ إلى المفعول. ولا يخفى بُعدُ هذا الوجه.

وهذا الكلامُ يقتضي تقدُّمَ الأمر، وهو غيرُ مذكور، فإمَّا أن يكونَ فهم من كلامه عليه السلام أنَّه رأى أنَّه يذبحه مأموراً، أو علم أنَّ رؤيا الأنبياءِ حقّ، وأنَّ مثل ذلك لا يُقدِمون عليه إلَّا بأمر.

وصيغةُ المضارعِ للإيذان بغرابة ذلك، مثلُها في كلام إبراهيمَ على وجه، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ ما قاله لم يكن إلَّا عن حلمٍ غيرِ مشوبٍ بجهل بحال المأمورِ به.

وقيل: للدَّلالة على أنَّ الأمرَ متعلّق به، متوجِّه إليه، مستمرٌّ إلى حين الامتثالِ به.

وقيل: لتكرُّر الرؤيا.

وقيل: جيءَ بها لأنَّه لم يكن بعدُ أمر، وإنَّما كانت رؤيا الذَّبح، فأخبره بها، فعلم لعلمه بمقام أبيه وأنَّه ممَّن لا يجد الشيطانُ سبيلاً بإلقاء الخيالاتِ الباطلةِ إليه في المنام أنَّه سيكون ذلك، ولا يكون إلَّا بأمرٍ إلهيّ، فقال له: افعلْ ما تؤمرُ بعدُ من الذَّبح الذي رأيتَه في منامك.

ولمَّا كان خطابُ الأبِ: «يا بني» على سبيل الترحُّم، قال هو: «يا أبت» على سبيل التوقيرِ والتعظيم، ومع ذلك أتى بجوابٍ حكيم؛ لأنَّه فوَّض الأمرَ حيث استشاره، فأجاب بأنَّه ليس مجازها[1]، وإنَّما الواجبُ إمضاءُ الأمر.

﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ على قضاءِ اللهِ تعالى، ذبحاً كان أو غيرَه. وقيل: على الذَّبح. والأوَّل أولى للعموم، ويدخل الذبحُ دخولاً أوليّاً. وفي قوله: «من الصابرين» دون: صابراً ـ وإنْ كانت رؤوسُ الآي تقتضي ذلك ـ من التواضع ما فيه. قيل: ولعله وفِّق للصَّبر ببركته مع بركةِ الاستثناء، وموسى عليه السلام لمَّا لم يسلكْ هذا المسلكَ من التواضع في قوله: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ [الكهف: ٦٩] حيث لم ينظم نفسَه الكريمةَ في سِلك الصابرين، بل أخرج

---

(١) كذا في (م)، وهي غير مقروءة في الأصل.

الكلامَ على وجهٍ لا يُشعر بوجود صابرٍ سواه، لم يتيسَّر له الصبر، مع أنَّه لم يُهمل أمرَ الاستثناء.

وفيه أيضاً إغراءٌ لأبيه عليه السلام على الصَّبر؛ لمَا يعلم من شفقته عليه مع عِظَم البلاء، حيث أشار إلى أنَّ لله تعالى عباداً صابرين، وهي زهرةُ ربيعٍ لا تتحمَّل الفرك.

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ أي: استسلما وانقادا لأمر اللهِ تعالى، فالفعلُ لازم، أو سلَّم الذبيحُ نفسَه وإبراهيمُ ابنَه، على أنه متعدٍّ والمفعولُ محذوف.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه، وابنُ عباس، وعبدُ الله، ومجاهد، والضحَّاك، وجعفرُ بن محمد، والأعمش، والثوري: «سلَّما»[(١)]، وخرِّجت على ما سمعت. ويجوز أن يكونَ المعنى: فوَّضا إليه تعالى في قضائه وقدرِه. وقُرئ: «استسلما»[(٢)].

وأصلُ الأفعالِ الثلاثةِ: سَلِمَ هذا لفلان: إذا خلص له، فإنَّه سلم من أن ينازَعَ فيه.

﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ١٠٣﴾ صرعه على شِقِّه فوقع جبينُه على الأرض. وأصلُ التلِّ: الرميُ على التلِّ، وهو الترابُ المجتمع، ثم عمِّم في كلِّ صرع، والجبينُ أحدُ جانبَي الجبهة، وشذَّ جمعُه على أجبُن، وقياسُه في القِلَّة: أَجبِنة، ككثيب وأكثبة، وفي الكثرة: جُبْنان وجُبُن، ككُثبان وكُثُب. واللامُ لبيان ما خرَّ عليه، كما في قوله تعالى: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ [الإسراء:١٠٧] وقولِه:

وخـرَّ صـريـعـاً لـلـيـديـن ولـلـفـمِ[(٣)]

وليست للتعدية.

وقيل: المراد: كبَّه على وجهِه، وكان ذلك بإشارةٍ منه، أخرج غيرُ واحدٍ عن مجاهدٍ أنَّه قال لأبيه: لا تذبحْني وأنت تنظرُ إلى وجهي، عسى أن ترحمَني فلا تُجهزَ

---

(١) القراءات الشاذة ص١٢٨، والمحتسب ٢/ ٢٢٢، والبحر ٧/ ٣٧٠.
(٢) البحر ٧/ ٣٧٠.
(٣) سلف ١٤/ ٣٩٧.

عليّ، اربط يدي إلى رقبتي ثم ضع وجهي للأرض. ففعل، فكان ما كان. ولا يخفى أنَّ إرادةَ ذلك من الآية بعيد، نعم لا يَبعدُ أن يكونَ الذبيحُ قال هذا.

وفي الآثار حكايةُ أقوالٍ غير ذلك أيضاً، منها ما في خبرٍ للسُّدِّيِّ أنَّه قال لأبيه عليهما السلام: يا أبتِ، اشدد رِباطي حتى لا أَضطرب، واكفُف عني ثيابَك حتى لا ينتضحَ عليها من دمي شيءٌ فتراه أمِّي فتحزن، وأَسْرِعْ مرَّ السكينِ على حلقي فيكونَ أهونَ للموت عليّ، فإذا أتيت أمِّي فاقرأ عليها السلامَ منيّ. فأقبل عليه إبراهيمُ يقبِّله وكلٌّ منهما يبكي.

ومنها ما في حديثٍ أخرجه أَحمدُ وجماعةٌ عن ابن عباسٍ أنَّه قال لأبيه وكان عليه قميصٌ أبيضُ: يا أَبتِ، ليس لي ثوبٌ تكفِّنُني فيه غيره، فاخلعه حتى تكفِّنَني فيه. فعالجه ليخلَعه، فكان ما قصَّ اللهُ عزَّ وجلّ[(١)].

وكان ذلك عند الصَّخرةِ التي بمِنى. وعن الحسن: في الموضع المشرفِ على مسجد مِنى. وعن الضحَّاك: في المنحر الذي يُنحر فيه اليوم. وقيل: كان ببيتِ المقدسِ، وحُكي ذلك عن كعب. وحَكَى الإمامُ مع هذا القولِ أنَّه كان بالشَّام.

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ قيل: ناداه مِن خَلْفِه مَلَكٌ من قِبَله تعالى بذلك، و«أنْ» مفسِّرة بمعنى «أيْ»، وقرأ زيدُ بن عليّ: «قد صدَّقْتَ» بحذفها[(٢)]. وقُرِئ: «صَدَقْتَ» بالتخفيف[(٣)].

وقرأ فيَّاض[(٤)]: «الرِّيَّا» بكسر الراءِ والإدغام.

وتصديقُه عليه السلام الرُّؤيا توفيتُه حقَّها من العمل، وبذلُ وسعِه في إيقاعها،

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٨٠، ومسند أحمد (٢٧٠٧)، وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير (١٠٦٢٨)، والبيهقي ٥/ ١٥٤، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٢٥٩ وقال: رواه أحمد والطبراني في الكبير، ورجاله ثقات.

(٢) أي: بحذف «أن». البحر ٧/ ٣٧٠.

(٣) القراءات الشاذة ص١٢٨، والبحر ٧/ ٣٧٠.

(٤) هو: فياض بن غزوان الضبي الكوفي، مقرئ موثق، أخذ القراءة عرضاً عن طلحة بن مصرف. غاية النهاية ٢/ ١٣. وقراءته في القراءات الشاذة ص١٢٨، والبحر ٧/ ٣٧٠.

وذلك بالعزم والإتيانِ بالمقدِّمات، ولا يَلزم فيه وقوعُ ما رآه بعينه. وقيل: هو إيقاعُ تأوِيلها، وتأويلُها ما وقع. ويُفهم من كلام الإمامِ[1] أنَّه الاعترافُ بوجوب العملِ بها، ولا يدلُّ على الإتيان بكلِّ ما رآه في المنام.

وهل أَمرَّ عليه السلام الشفرةَ على حَلْقِه أم لا؟ قولان، ذهب إلى الثاني منهما كثيرٌ من الأجِلَّة، وقد أخرج الإمامُ أحمدُ[2] عن ابن عباسٍ أنَّه عليه السلام لمَّا أخذ الشفرةَ وأراد أن يذبحَه نودي من خلفه أن: يا إبراهيمُ قد صدَّقتَ الرُّؤيا.

وأَخرج هو، وابن جَرير، وابنُ أبي حاتم، والطبرانيّ، وابنُ مردويه، والبيهقيُّ في «شُعَب الإيمان» عنه أنَّه عالج قميصَه ليخلَعه فنودي بذلك[3].

وأَخرج ابنُ المنذر، والحاكمُ وصحَّحه، من طريق مجاهدٍ عنه أيضاً: فلمَّا أَدخل يدَه ليذبحَه، فلم يحمل المِديةَ حتى نُودي أن: يا إبراهيمُ قد صدَّقتَ الرُّؤيا، فأَمسك يدَه[4].

وأَخرج عبد بنُ حُميدٍ وغيرُه عن مجاهد: فلمَّا أَدخل يدَه ليذبحَه، نودي أن: يا إبراهيمُ قد صدَّقت الرُّؤيا، فأَمسك يدَه ورفع رأسَه، فرأى الكبشَ ينحطُّ إليه، حتى وقع عليه، فذبحه.

وفي روايةٍ أخرى عنه أَخرجها عبدُ بن حُميد أيضاً وابنُ المنذرِ أنَّه أَمرَّ السكِّينَ فانقلبت[5].

وإلى عدم الإمرار ذهبت اليهودُ أيضاً؛ لمَا في توراتهم: مدَّ إبراهيمُ يدَه فأخذ

---

(١) في التفسير الكبير ٢٦/ ١٥٦.
(٢) في مسنده (٢٧٩٤).
(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٨٠، ومسند أحمد (٢٧٠٧)، وتفسير الطبري ١٩/ ٥٨٦، والمعجم الكبير للطبراني (١٠٦٢٨)، وشعب الإيمان ٣/ ٤٦٤-٤٦٥.
(٤) الدر المنثور٥/ ٢٨٠، والمستدرك ٢/ ٤٣٠-٤٣١، وورد في مطبوعه: فلم يحكّ، وورد في الدر: فلم تصل، بدل: فلم يحمل.
(٥) الدر المنثور٥/ ٢٨٣.

السِّكين، فقال له ملاكُ اللهِ من السماء قائلاً: يا إبراهيمُ يا إبراهيم، قال: لبَّيك، قال: لا تمدَّ يدَكَ إلى الغلام، ولا تصنعْ به شيئاً[1].

وذهب إلى الأوَّل طائفة، فمنهم مَن قال: إنَّه أمرَّها ولم تَقْطَعْ مع عدمِ المانع؛ لأنَّ القطعَ بخلق اللهِ تعالى فيها أو عندَها عادة، وقد لا يَخلق سبحانه. ومنهم مَن قال: إنَّه أمرَّها ولم تقطعْ لمانع؛ فقد أخرج سعيدُ بن منصورٍ وابنُ المنذرِ عن عطاء بنِ يسارٍ أنَّه عليه السلام قام إليه بالشَّفرة فبرك عليه، فجعل اللهُ تعالى ما بين لَبَّتِه إلى مَنحَره نحاساً لا تؤثِّر فيه الشَّفرة.

وأَخرج ابن جَريرٍوابنُ أبي حاتمٍ عن السُّدي أنَّه عليه السلام جرَّ السكينَ على حلقه فلم يَنحَر، وضرب اللهُ تعالى على حلقه صفيحةً من نحاس[2].

وأَخرج الخطيبُ في «تالي التلخيص» عن فُضيل بنِ عياض قال: أَضجعه ووضع الشَّفرة، فقلبها جبريلُ عليه السلام[3].

وأَخرج الحاكمُ ـ بسندٍ فيه الواقديُّ ـ عن عطاءٍ أنَّه نحر في حلقه، فإذا هو قد نحر في نحاس، فشحذ الشفرةَ مرَّتين أو ثلاثاً بالحجر. وضعّف جميع ذلك[4].

وقيل: إنَّه عليه السلام ذَبح، لكن كان كلَّما قطع موضعاً من الحَلْق، أَوصله اللهُ تعالى. وزعموا ورودَ ذلك في بعض الأخبار، ولا يكاد يصحّ. وسيأتي قريباً إن شاءَ اللهُ تعالى ما يتعلَّق بهذا المقامِ من الكلام.

وجوابُ «لمَّا» محذوفٌ مقدَّر بعد «صدَّقت الرؤيا» أي: كان ما كان ممَّا تنطق به الحال، ولا يُحيط به المقال، من استبشارهما وشكرِهما اللهَ تعالى على ما أنعم عليهما من دفع البلاءِ بعد حلولِه، والتوفيقِ لمَا لم يوفَّق غيرُهما لمثله، وإظهارِ فضلهما مع إحراز الثوابِ العظيم، إلى غير ذلك. وهو أَولى من تقدير: فإذا، ونحوِه. وقدَّره بعضُ البصريِّين بعد «وتلَّه للجبين» أي: أَجْزَلنا أجرَهما.

---

(١) الكتاب المقدس، العهد القديم ص ٩٩.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٨٣، وتفسير الطبري ١٩/ ٥٨٠-٥٨١.

(٣) الدر المنثور٥/ ٢٨٢.

(٤) الدر المنثور٥/ ٢٨٣، ومستدرك الحاكم٢/ ٥٥٦.

وعن الخليلِ وسيبويه تقديرُه قبلَ: «وتلَّه»، قال في «البحر»[1]: والتقدير: فلمَّا أَسلما أسلما وتلَّه. وقال ابنُ عطية[2]: وهو عندهم كقول امرئِ القيس:

فلمَّا أَجزنا ساحةَ الحيِّ وانتحَى[3]

أي: أَجزنا وانتحى. وهو كما ترى.

وقال الكوفيُّون: الجوابُ مثبت، وهو: «وناديناه» على زيادةِ الواو. وقالت فِرقة: هو «وتلَّه» على زيادتها أيضاً. ولعلَّ الأَوْلى ما تقدَّم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ ابتداءُ كلامٍ غير داخلٍ في النِّداء، وهو تعليلٌ لإفراج تلك الشدَّة المفهومِ من الجواب المقدَّر، أو من الجواب المذكور، أعني: نادينا... إلخ، على القول بأنَّه الجواب، أو منه وإنْ لم يكن الجواب، والعِلَّة في المعنى إحسانُهما. وكونُه تعليلاً لمَا انطوى عليه الجوابُ من الشُّكر، ليس بشيء.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ أي: الابتلاءُ والاختبار البيِّن الذي يتميَّز فيه المخلِصُ من غيره، أو المحنة البيِّنة، وهي المحنةُ الظاهرةُ صعوبتُها، وما وقع لا شيءَ أصعبُ منه، ولا تكاد تخفَى صعوبتُه على أحد، ولله عزَّ وجلَّ أن يبتليَ مَن شاءَ بما شاء، وهو سبحانه الحكيمُ الفعَّال لما يريد. ولعل هذه الجملةَ لبيان كونِهما من المحسنين، وقيل: لبيان حكمةِ ما نالهما. وعلى التقديرين هي مستأنفةٌ استئنافاً بيانيّاً، فليتدبَّر.

﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ﴾ بحيوانٍ يُذبح بدلَه ﴿عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ قيل: أي: عظيمِ الجثَّة سمين، وهو كبشٌ أبيضُ أقرنُ أعيَن، وفي رواية: أَملحُ، بدلَ: أَبيض. وعن الحسن أنه وَعل أُهبط عن ثَبير. والجمهورُ على الأوَّل، ووافقهم الحسنُ في روايةٍ رواها عنه

---

(١) ٧/ ٣٧٠.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٨١.

(٣) عجزه: بنا بطنُ حِقفٍ ذي رُكامٍ عقنقلِ، وهو في الديوان ص ١٥، والحقف من الرمل: المعوج، والعقنقل: المنعقد المتداخل.

ابنُ أبي حاتم، وفيها أنَّ اسمَه: حرير[1]. واليهودُ على أنَّه كبشٌ أيضاً.

وفسَّر المُعظَمُ العظيمَ بعظيم القَدْرِ، وذلك على ما رُوي عن ابن عباس؛ لأنَّه الكبشُ الذي قرَّبه هابيلُ فتقبِّل منه وبقي يرعى في الجنَّة إلى يوم هذا الفداء.

وفي روايةٍ عنه وعن ابن جُبيرٍ أنَّهما قالا: عِظَمُه كونُه من كباش الجنةِ؛ رعى فيها أربعين خريفاً.

وقال مجاهد: وصف بالعِظَم لأنَّه متقبَّل يقيناً. وقال الحسين[2] بنُ الفضل: لأنَّه كان من عند اللهِ عزَّ وجلّ. وقال أبو بكرٍ الورَّاق: لأنَّه لم يكن عن نسلٍ بل عن التكوين. وقال عَمرو بنُ عبيد: لأنَّه جرت السُّنَّةُ به وصار دِيناً باقياً [إلى] آخر الدهر. وقيل: لأنَّه فُدي به نبيٌّ وابنُ نبيّ.

وهبوطُه من ثَبير كما قال الحسنُ في الوَعل، وجاءَ ذلك في روايةٍ عن ابن عباس. وفي روايةٍ عن عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه أنَّه وجده عليه السلام قد رُبط بسَمُرةٍ في أصل ثَبير.

وعن عطاءِ بنِ السائب أنَّه قال: كنت قاعداً بالمنحر، فحدَّثني قرشيٌّ عن أبيه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال له: «إنَّ الكبشَ نزل على إبراهيمَ في هذا المكان»[3].

وفي روايةٍ عن ابن عباسٍ أنَّه خرج عليه كبشٌ من الجنةِ قد رعى فيها أربعين خريفاً، فأرسل إبراهيمُ عليه السلام ابنَه واتبعه، فرماه بسبع حَصَياتٍ وأحرجه عند الجمرةِ الأُولى، فأفلت، ورماه بسبع حَصَياتٍ وأحرجه عند الجمرةِ الوسطى، فأفلت، ورماه بسبع حصياتٍ وأحرجه عند الجمرةِ الكبرى، فأتى به المنحرَ من مِنًى فذُبح. قيل: وهذا أصلُ سُنِّيَّة رميِ الجمار، والمشهورُ أنَّ أصلَ السُّنِّيَّةِ رميُ الشيطانِ هناك؛ ففي خبرٍ عن قتادةَ أنَّ الشيطانَ أرادَ أن يصيبَ حاجتَه من إبراهيمَ وابنِه يومَ

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٨٤.

(٢) في الأصل و(م) ومطبوع البحر ٧/ ٣٧١ (والكلام وما سيأتي بين حاصرتين منه): الحسن، والمثبت هو الصواب، وذكر قوله أيضاً البغوي في تفسيره ٤/ ٣٥، وجاء الاسم فيه على الصواب.

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٨٤ وعزاه للبغوي.

أُمر بذبحه، فتمثَّل بصديقٍ له، فأَراد أن يصدَّه عن ذلك، فلم يتمكَّن، فتعرَّض لابنه، فلم يتمكَّن، فأتى الجمرةَ فانتفخ حتى سدَّ الوادي، ومع إبراهيمَ مَلَك، فقال له: اِرمِ يا إبراهيم، فرمى بسبع حصياتٍ يكبِّر في إثر كلِّ حصاة، فأفرج له عن الطريق، ثم انطلق حتى أتى الجمرةَ الثانيةَ فسدَّ الواديَ أيضاً، فقال الملك: اِرمِ يا إبراهيم، فرمى كما في الأُولى، وهكذا في الثالثة.

وظاهرُ الآيةِ أنَّ الفداءَ كان بحَيَوانٍ واحد، وهو المعروف، وأخرج عبدُ بن حُميد عن ابن عباسٍ أنَّه فُدي بكبشَين أَملَحين أقرنين أعينين[1]. ولا أعرف له صحَّة، ويراد بالذَّبحِ عليه ـ لو صحَّ - الجِنسُ.

والفادي على الحقيقة إبراهيمُ عليه السلام، وقال سبحانه: «فديناه» على التجوُّز في الفداء، أي: أَمرنا، أو: أعطينا، أو في إسناده إليه تعالى، وجوِّز أن يكونَ هناك استعارةٌ مكنيةٌ أيضاً، وفائدةُ العدولِ عن الأصل التعظيمُ.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾ سبق ما يُعلم منه بيانُه عند تفسيرِ نظيرِه في آخر قصَّة نوح، ولعلَّ ذِكرَ «في العالمين» هناك وعدمَ ذِكرِه هنا؛ لمَا أنَّ لنوحٍ عليه السلام من الشُّهرة ـ لكونه كآدمَ ثانٍ للبشر ونجاةِ مَن نجا من أهل الطوفانِ ببركته ـ ما ليس لإبراهيمَ عليه السلام.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾ «ذلك» إشارةٌ إلى إبقاء ذِكرِه الجميلِ فيما بين الأُمم، لا إلى ما يُشير إليه فيما سبق، فلا تكرار.

وطرحُ هنا «إنَّا» قيل: مبالغةً في دفع توهُّم اتِّحاده مع ما سبق، كيف وقد سيق الأوَّلُ تعليلاً لجزاء إبراهيمَ وابنِه عليهما السلام بما أُشير إليه قبل، وسيق هذا تعليلاً لجزاء إبراهيمَ وحده بما تضمَّنه قولُه تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ إلخ، وما أَلطفَ الحذفَ هنا اقتصاراً، حيث كان فيما قبله ما يُشبه ذلك من عدم ذِكر الابنِ والاقتصارِ على إبراهيم.

وقيل: لعل ذلك اكتفاءً بذِكر «إنَّا» مرَّةً في هذه القصَّة.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٨٤.

وقال بعض الأَجِلَّة: إنَّه للإشارة إلى أنَّ قصةَ إبراهيمَ عليه السلام لم تتمّ، فإنَّ ما بعدُ من قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾ إلخ من تكملة ما يتعلَّق به عليه السلام، بخلاف سائرِ القصصِ التي جعل «إنا كذلك نجزي المحسنين» مقطعاً لها، فإنَّ ما بعدُ ليس ممَّا يتعلَّق بما قبلُ، ومع هذا لم تخلُ القصةُ من مثل تلك الجملةِ بجميع كلماتِها، وسلك فيها هذا المسلكَ اعتناءً بها، فتأمَّل.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ الكلامُ فيه كما تقدَّم.

﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا﴾ حالٌ من «إسحاق»، وكذا قولُه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ وفي ذلك تعظيمُ شأنِ الصَّلاح، وفي تأخيره إيماءٌ إلى أنَّه الغايةُ لها[1]؛ لتضمُّنها معنى الكمالِ والتكميل، والمقصودُ منهما الإتيان بالأفعال الحسنةِ السَّديدة، وهو في الاستعمال يختصُّ بها.

وجوَّز كونُ «من الصالحين» حالاً، وكونُ «نبيًّا» حالاً من الضمير المستترِ فيه، وقدِّم في اللفظ للاهتمام، ولئلَّا تختلَّ رؤوسُ الآي، وفيه من البُعد ما فيه. على أنَّ في جواز تقديمِ الحالِ مطلقاً أو اطِّرادِه في مثل هذا التركيبِ كلاماً لا يخفَى على مَن راجع الألفيةَ وشروحَها، وفيه ما فيه بَعدُ.

وجوَّز أيضاً كونُه في موضع الصفةِ لـ «نبيًّا»، والكلامُ على الأوَّل ـ وهو الذي عليه الجمهور ـ أَمدحُ كما لا يخفى، والمرادُ كونُه نبيّاً وكونُه من الصالحين في قضاء اللهِ تعالى وتقديرِه، أي: مقضيّاً كونُه نبيّاً مقضيّاً كونُه من الصالحين، وإن شئتَ فقل: مقدَّراً، ولا يكونان بذلك من الحال المقدَّرةِ التي تذكر في مقابَلة المقارِنة، بل هما بهذا الاعتبارِ حالان مقارِنان للعامل، وهو فعلُ البِشارة، أو شيءٌ آخَرُ محذوف، أي: بشَّرناه بوجود إسحاقَ نبيّاً. . . إلخ.

وأَوجب غيرُ واحدٍ تقديرَ ذلك معلِّلاً بأنَّ البشارةَ لا تتعلَّق بالأعيان، بل بالمعاني.

---

(١) أي: للنبوة. ينظر تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٢٨٣.

وتعقِّب بأنَّه إن أُريد أنَّها لا تستعمل إلَّا متعلِّقة بالأعيان، فالواقعُ خلافُه، كـ : ﴿بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾ [النحل:٥٨] فإنْ قيل: إنمَّا يصحُّ بتقدير: ولادة، ونحوِه من المعاني، فهو محلُّ النِّزاع، فلا وجهَ له، والذي يميل إليه القلبُ أنَّ المعنى على إرادة ذلك، وربمَّا يدَّعى أنَّ معنى البشارةِ تستدعي تقديرَ معنًى من المعاني.

وقيل: هما حالان مقدَّران، كقوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر:٧٣] وفيه بحث.

﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: على إبراهيمَ عليه السلام ﴿وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ أي: أفضنا عليهما بركاتِ الدِّين والدنيا بأنْ كثَّرنا نسلَهما وجعلنا منهم أنبياءَ ورسلاً.

وقُرئ: «برَّكنا» بالتشديد؛ للمبالغة(١).

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾ في عمله، أو على نفسه بالإيمان والطاعة ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بالكفر والمعاصي، ويدخل فيها ظلمُ الغير ﴿مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ ظاهرٌ ظلمُه. وفي ذلك تنبيهٌ على أنَّ النَّسب لا أثرَ له في الهدى والضَّلال، وأنَّ الظلمَ في الأَعقاب لا يعود على الأُصول بنقيصةٍ وعيب.

هذا وفي الآيات بعدُ أبحاث:

الأوَّل: أنَّهم اختلفوا في الذَّبيح، فقال ـ على ما ذكره الجلالُ السيوطيُّ في رسالته «القولُ الفصيحُ في تعيين الذَّبيح»(٢) ـ عليّ، وابنُ عمر، وأبو هريرة، وأبو الطُّفيل، وسعيدُ بن جبير، ومجاهد، والشعبيّ، ويوسفُ بن مِهران، والحسنُ البصري، ومحمدُ بن كعبٍ القرظي، وسعيدُ بن المسيب، وأبو جعفرٍ الباقر، وأبو صالح، والربيعُ بن أنس، والكلبيّ، وأبو عَمرِو بنُ العلاء، وأحمدُ بن حنبل، وغيرُهم أنَّه إسماعيلُ عليه السلام لا إسحاقُ عليه السلام، وهو إحدى الرِّوايتين عن ابن عباس، ورجَّحه جماعة، خصوصاً غالبُ المحدِّثين، وقال أبو حاتم: هو

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٥١.
(٢) ١/ ٤٩٢ فما بعد (الحاوي في الفتاوي).

الصَّحيح. وفي «الهَدْي»[(١)]: إنَّه الصوابُ عند علماءِ الصحابةِ والتابعين فمَن بعدهم. وسئل أبو سعيدٍ الضريرُ عن ذلك فأنشد:

إنَّ الـذَّبيـحَ هُـديـتَ إسـمـاعـيـلُ ... نـصَّ الـكـتـابُ بـذاك والـتـنـزيـلُ
شـرفٌ بـه خـصَّ الإلـهُ نـبـيَّـنـا ... وأتـى بـه الـتـفـسـيـرُ والـتـأويـل
إنْ كـنـت أُمَّـتَـه فـلا تـنـكـرْ لـه ... شـرفاً بـه قـد خـصَّـه الـتـفـضـيـل[(٢)]

وفي دعواه النصَّ نظر، وهو المشهورُ عند العربِ قبل البعثةِ أيضاً، كما يُشعر به أبياتٌ نقلها الثعالبيُّ[(٣)] في تفسيره عن أميةَ بنِ أبي الصلت، واستدلَّ له بأنَّه الذي وُهب لإبراهيمَ عليه السلام إثرَ الهجرة، وبأنَّ البشارةَ بإسحاقَ بعدُ معطوفةٌ على البِشارة بهذا الغلام، والظاهرُ التغاير، فيتعيَّن كونُه إسماعيل، وبأنه بشِّر بأن يوجدَ وينبَّأ، فلا يجوز ابتلاءُ إبراهيمَ عليه السلام بذبحه؛ لأنَّه علم أنَّ شرطَ وقوعهِ منتفٍ.

والجوابُ بأنَّ الأولَ بشارةٌ بالوجود وهذا بشارةٌ بالنبوَّة ولكن بعد الذَّبحِ، قال صاحبُ «الكشف»: ضعيف؛ لأنَّ نظمَ الآيةِ لا يدلُّ على أنَّ البشارةَ بنبوَّته، بل على أنَّ البشارةَ بأمرٍ مقيَّد بالنبوَّة، فإمَّا أن يقدَّرَ بوجود إسحاقَ بعد الذبحِ ولا دلالةَ في اللفظ عليه، وإمَّا أن يقدَّرَ الوجودُ مطلقاً، وهو المطلوب.

فإنْ قلت: يكفي في الدَّلالة تقدُّمُ البشارةِ بالوجود أوَّلاً، قلتُ: ذاك عليك لا لك، ومَن يسلِّم أنَّ المتقدِّم بشارةٌ بإسحاق حتى يستتبَّ لك المرام، وبأنَّ البشارةَ به وقعت مقرونةً بولادة يعقوبَ منه على ما هو الظاهرُ في قوله تعالى في «هود»: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [الآية:٧١] ومتى بشِّر بالولد وولدِ الولدِ دفعة، كيف يتصوَّر الأمرُ بذبح الولدِ مراهقاً قبل ولادةِ ولده، ومَنعُ كونِه إذ ذاك مراهقاً لجواز أنِ يكونَ بالغاً كما ذهب إليه اليهودُ قد ولد له يعقوبُ وغيرُه = مكابرةٌ لا يُلتفت إليها.

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد١/ ٧١.
(٢) تفسير القرطبي ١٨/ ٦٣.
(٣) هو أبو إسحاق أحمد بن محمد النيسابوري، ويقال له: الثعلبي والثعالبي، كما ذكر ابن الأثير في اللباب ١/ ٢٣٨، والأبيات في تفسيره ٨/ ١٥٥، وديوان أمية ص ١٠٨.

وبأنَّه تعالى وصف إسماعيلَ عليه السلام بالصَّبر في قوله سبحانه: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء:٨٥]. وبأنَّه عزَّ وجلَّ وصفه بصدق الوعدِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ [مريم:٥٤]. ولم يصف سبحانه إسحاق بشيءٍ منهما، فهو الأنسبُ دونَه بأن يكونَ[1] القائل: «يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين» المصدِّق قولَه بفعله.

وبأنَّ ما وقع كان بمكَّة، وإسماعيلُ هو الذي كان فيها، وبأن قرنَي الكبشِ كانا معلَّقين في الكعبة، حتى احترقا معها أيامَ حصارِ الحجَّاجِ ابنَ الزبيرِ ﵄، وكانا قد توارثهما قريشٌ خلفاً عن سَلَف، والظاهرُ أنَّ ذاك لم يكن منهم إلَّا للفخر، ولا يتمُّ لهم إذا كان الكبشُ فِدًى لإسحاقَ دون أبيهم إسماعيل.

وبأنَّه روى الحاكمُ في «المستدرك» وابن جَريرٍ في «تفسيره»[2] والأمويُّ في «مغازيه» والخلعيُّ في «فوائده» من طريق إسماعيلَ بنِ أبي كريمة، عن عمرَ بن أبي محمدٍ الخطابي، عن العُتبيّ، عن أبيه، عن عبد اللهِ بن سعد، عن الصُّنابحيِّ[3] قال: حضرنا مجلسَ معاوية، فتذاكر القومُ إسماعيلَ وإسحاقَ أيُّهما الذَّبيح؟ فقال بعضُ القوم: إسماعيل، وقال بعضُهم: بل إسحاق، فقال معاوية: على الخبير سقطتم، كنا عند رسولِ اللهِ ﷺ، فأتاه أعرابيٌّ فقال: يا رسولَ الله، خلفت الكلأ يابساً، والماءَ عابساً، هلك العيال، وضاع المال، فعُد عليَّ مما أفاءَ اللهُ تعالى عليك يا ابنَ الذَّبيحين، فتبسَّم رسولُ اللهِ ﷺ ولم يُنكِر عليه، فقال القوم: مَن الذَّبيحان يا أميرَ المؤمنين؟ قال: إنَّ عبدَ المطلبِ لمَّا أُمر بحفر زمزم، نذر لله تعالى إن سهَّل أمرَها أن ينحرَ بعضَ بَنِيْه، فلمَّا فرغ أَسهم بينهم، فكانوا عشرة، فخرج السهمُ على عبد الله، فأراد أن ينحرَه، فمنعه أَخوالُه بنو مخزوم، وقالوا: أَرْضِ ربَّك وافْدِ ابنَك، ففداه بمئة ناقة، قال معاوية: هذا واحدٌ والآخَرُ إسماعيل.

---

(١) في (م): يقول، بدل: يكون.

(٢) المستدرك ٢/ ٥٥٤، وتفسير الطبري ١٩/ ٥٩٧-٥٩٨.

(٣) في الأصل و(م): عبد الله بن سعيد الصنابحي، وهي هكذا في الدر المنثور٥/ ٢٨٢، والصواب ما أثبتناه.

وبأنَّه ذُكر في التوراة أنَّ اللهَ تعالى امتحن إبراهيمَ فقال له: يا إبراهيم، فقال: لبيَّك، قال: خذ ابنَك وحيدَك الذي تحبُّه، وامضِ إلى بلد العبادةِ وأَصعده ثَمَّ قرباناً على أحد الجبالِ الذي أعرِّفك به. فإنَّ معنى وحيدَك: الذي ليس لك غيرُه[1]، ولا يصدق ذلك على إسحاقَ حين الأمرِ بالذَّبح؛ لأنَّ إسماعيلَ كان موجوداً إذ ذاك، لأنَّه وُلِد لإبراهيم ـ على ما في التوراة ـ وهو ابنُ ستٍّ وثمانين سنة، ووُلد له إسحاق ـ على ما فيها أيضاً ـ وهو ابنُ مئةِ سنة، وأيضاً قولُه تعالى: الذي تحبُّه، أَليقُ بإسماعيل؛ لأنَّ أوَّلَ ولدٍ له من المحبَّة في الأغلب ما ليس لمن بعدَه من الأولاد، ويُعلم ممَّا ذكر أنَّ ما في التوراة الموجودةِ بأيدي اليهودِ اليومَ مِن ذِكرِ: هو إسحاق، بعد: الذي تحبُّه[2]، من زياداتهم وأباطيلِهم التي أدرجوها في كلام اللهِ تعالى؛ إذ لا يكاد يلتئمُ مع ما قبله. وأَجاب بعضُ اليهودِ عن ذلك بأنَّ إطلاقَ الوحيدِ على إسحاق؛ لأنَّ إسماعيلَ كان إذ ذاك بمكَّة. وهو تحريفٌ وتأويلٌ باطل؛ لأنَّه لا يقال الوحيدُ وصفاً للابن إلَّا إذا كان واحداً في البنوَّة ولم يكن له شريكٌ فيها. وقال لي بعضٌ منهم: إنَّ إطلاقَ ذلك عليه لأنَّه كان واحداً لأمِّه ولم يكن لها ابنٌ غيرُه، فقلت: يُبعد ذلك كلَّ التبعيدِ إضافتُه إلى ضمير إبراهيمَ عليه السلام.

ويؤيِّد ما قلنا ما قاله ابنُ إسحاق: ذكر محمدُ بن كعبٍ أنَّ عمرَ بن عبدِ العزيز أَرسل إلى رجلٍ كان يهودياً فأَسلم وحَسُنَ إسلامه، وكان من علمائهم، فسأله: أيُّ ابنَي إبراهيمَ أُمر بذبحه؟ فقال: إسماعيلُ، واللهِ يا أميرَ المؤمنين، وإنَّ يهودَ لَتعلم بذلك، ولكنَّهم يحسدونكم معشرَ العرب.

وذكر ابنُ كثيرٍ[3] أنَّ في بعض نسخِ التوراة: بِكرَك، بدل: وحيدَك. وهو أَظهرُ في المطلوب.

وقيل: هو إسحاق، ونسبه القرطبيُّ[4] للأكثرين، وعزاه البغويُّ[5] وغيرُه إلى

(١) في (م): وغيره.
(٢) العهد القديم ص ٩٩.
(٣) في البداية والنهاية ١/ ٣٦٦.
(٤) في تفسيره ١٨/ ٦١.
(٥) في تفسيره ٤/ ٣٢.

عمر، وعليّ، وابنِ مسعود، والعباس، وعِكرمة، وسعيدِ بن جبير، ومجاهد، والشعبيّ، وعُبيدِ بن عمير، وأبي ميسرة، وزيدِ بن أسلم، وعبدِ الله بن شقيق، والزهريّ، والقاسمِ بن يزيد، ومكحول، وكعب، وعثمانَ بنِ حاضر، والسُّدِّي، والحسن، وقتادة، وأبي الهذيل، وابنِ سابط، ومسروق، وعطاء، ومقاتل، وهو إحدى الرِّوايتين عن ابن عباس، واختاره أبو جعفرٍ ابنُ جَريرٍ الطبري(١)، وجزم به القاضي عياضٌ في «الشِّفا»(٢)، والسُّهيلي في «التعريف والإعلام»(٣)، واستدلَّ له بأنَّه لم يَذكر اللهُ تعالى أنه بشَّر بإسماعيل قبل كونِه، فهو إسحاقُ لثبوته بالنصّ، ولأنَّه لم تكن تحته هاجر أمُّ إسماعيل، فالمدعوُّ ولد من سارة.

وأُجيب بأنَّه كفى هذه الآية دليلاً على أنَّه مبشَّر به أيضاً؛ لأنَّ قوله تعالى: «وبشرناه بإسحاق» بعد استيفاءِ هذه القصةِ وتذييلِها بما ذُيِّل ظاهرُ الدَّلالة على أنَّ هنالك بشارتَين متغايرتَين، ثم عدمُ الذِّكرِ لا يدلُّ على عدمِ الوجود، ولا يلزم أن يكونَ طلب ولد سارة، ولا علم أنَّه عليه السلام دعا بذلك قبل أن وُهبت هاجرُ منه؛ لأنها أُهديت إليه في حرَّان قبل الوصولِ إلى الشام، على أنَّ البشارةَ بإسحاقَ كانت في الشام نصّاً، فظاهرُ هذه الآيةِ أنَّها قبل الوصولِ إليها؛ لأن البشارةَ عقيبَ الدعاء، وكان قبل الوصولِ إلى الشام. قاله في «الكشف».

وبما رواه ابنُ جَرير(٤) عن أبي كُريب، عن زيد بن حُباب، عن الحسن بنِ دينار، عن عليِّ بن زيدِ بن جُدعان، عن الحسن، عن الأحنفِ بن قيس، عن العباس بنِ عبد المطلب، عن النبيِّ ﷺ قال: «الذبيحُ إسحاق». وتعقِّب بأنَّ الحسنَ بن دينارٍ متروك، وشيخَه منكرُ الحديث.

وبما أخرج الديلميُّ في «مسند الفِردوس» من طريق عبدِ الله بن ناجية، عن محمد بنِ حربٍ النسائي، عن عبد المؤمنِ بن عباد، عن الأعمش، عن عطية، عن

---

(١) في تفسيره ١٩/ ٥٩٨.
(٢) ١/ ٢٢٨ (شرح ملا علي القاري).
(٣) ص١٤٦.
(٤) في تفسيره ١٩/ ٥٨٨.

أبي سعيدٍ الخدريِّ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ داودَ سأل ربَّه مسألةً فقال: اِجعلني مثلَ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوب، فأَوحى اللهُ تعالى إليه: إني ابتليتُ إِبراهيمَ بالنار فصبر، وابتليت إسحاق بالذَّبح فصبر، وابتليت يعقوبَ فصبر».

وبما أَخرجه الدارقطنيُّ والديلميُّ في «مسند الفِردوس»(١) من طريقه، عن محمد بنِ أحمدَ بن إِبراهيمَ الكاتب، عن الحسين بنِ فهم، عن خلف بنِ سالم، عن بَهز بن أسد، عن شعبة، عن أبي إِسحاق، عن أبي الأَحوص، عن ابن مسعودٍ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «الذبيحُ إسحاق».

وبما أَخرجه الطبرانيُّ في «الأَوسط»(٢) وابنُ أبي حاتمٍ في تفسيره من طريق الوليدِ بن مسلم، عن عبد الرحمن بنِ زيد بنِ أسلم، عن أبيه، عن عطاء بنِ يسار، عن أبي هريرةَ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ تعالى خيَّرني بين أن يغفرَ لنصف أُمَّتي أو شفاعتي، فاخترت شفاعتي، ورجوت أن تكونَ أعمَّ لأمَّتي، ولولا الذي سبقني إليه العبدُ الصالحُ لعجَّلت دعوتي، إنَّ اللهَ تعالى لمَّا فرَّج عن إسحاقَ كربَ الذبح، قيل له: يا إِسحاق، سلْ تعطَه، قال: أَمَا واللهِ لأتعجَّلنَّها قبل نزغاتِ الشيطان، اللهمَّ مَن مات لا يشرك بك شيئاً قد أَحسن فاغفرْ له».

وتعقِّب هذا بأنَّ عبدَ الرحمنِ ضعيف، وقال ابنُ كثير(٣): الحديثُ غريبٌ منكر، وأَخشى أن يكونَ فيه زيادةٌ مدرَجة، وهي قولُه: إنَّ اللهَ تعالى لمَّا فرَّج... إلخ، وإن كان محفوظاً، فالأَشبهُ أنَّ السياقَ عن إِسماعيل وحرَّفوه بإسحاق.

إلى غير ذلك من الأَخبار، وفيها من الموقوف والضعيفِ والموضوعِ كثير، ومتى صحَّ حديثٌ مرفوعٌ في أنَّه إِسحاق، قَبِلناه ووضعناه على العينِ والرأس، والذاهبون إلى هذا القولِ يدَّعون صحَّةَ شيءٍ منها في ذلك.

---

(١) برقم (٣١٧٣).
(٢) برقم (٦٩٩٤).
(٣) في تفسيره ٤/١٦.

وأُجيب عن بعض ما استُدلَّ به للأوَّل بأنَّ وقوعَ القصةِ بمكةَ غيرُ مسلَّم، بل كان ذلك بالشام، وتعليقُ القرنين في الكعبة لا يدلُّ على وقوعها بمكَّة؛ لجواز أنَّهما نُقلا من بلاد الشامِ إلى مكةَ فعلِّقا فيها، وعلى تسليم الوقوعِ بمكَّة، لا مانعَ من أن يكونَ إبراهيمُ قد سار به من الشام إليها، بل قد رُوي القولُ به، أخرج عبدُ الله بن أحمدَ في «زوائد الزُّهد»[1] عن سعيد بنِ جُبيرٍ قال: لمَّا رأى إبراهيمُ في المنام ذبحَ إسحاق، سار به من منزله إلى المنحر بمنًى مسيرةَ شهرٍ في غَداةٍ واحدة، فلمَّا صُرف عنه الذبحُ وأُمر بذبح الكبش، ذبحه، ثم راح به رواحاً إلى منزله في عشيةٍ واحدةٍ مسيرةَ شهر، طُويت له الأوديةُ والجبال.

وأمرُ الفخرِ لو سُلِّم ليس بالاستدلال به كثيرُ فخر.

والخبرُ الذي فيه: يا ابنَ الذَّبيحين، غريب، وفي إسناده مَن لا يُعرف حالُه، وفيه ما هو ظاهرُ الدلالةِ على عدم صحَّته، من قوله: فلمَّا فرغ أَسهم بينهم فكانوا عشرةً فخرج السهمُ على عبد الله، فإنَّ عبدَ اللهِ بإجماع أهلِ الأخبار لم يكن مولوداً عند حفرِ زمزم، وقصةُ نذرِ عبد المطلبِ ذبحَ أحدِ أولادِه تُروَى بوجهٍ آخر، وهو أنَّه نذر الذبحَ إذا بلغ أولادُه عشراً، فلمَّا بلغوها بولادة عبدِ اللهِ كان ما كان.

وما شاع مِن خبر: «أنا ابنُ الذَّبيحَين» قال العراقيّ: لم أَقف عليه، والخبرُ السابقُ بعد ما عُرف حالُه لا يكفي لثبوته حديثاً، فلا حاجةَ إلى تأويله بأنَّه أُريد بالذَّبيحين فيه إسحاقُ وعبدُ الله، بناءً على أنَّ الأبَ قد يُطلق على العمّ، أو أُريد بهما الذابحان، وهما إبراهيمُ وعبدُ المطلب، بحمل فَعيل على معنى فاعل لا مفعول، وحَمَلَ هؤلاء: «وبشرناه بإسحاق نبياً» على البِشارة بنبوَّته، وما تقدَّم على البِشارة بأنْ يوجدَ قبل، ولمَّا كان التبشيرُ هناك قبل الولادة، والتسميةُ إنَّما تكون بعدها في الأَغلب، لم يسمِّ هناك وسمَّاه هنا؛ لأنَّه بعد الولادة، واستأنس للاتِّحاد بوصفه بكونه من الصالحين؛ لأنَّ مطلوبَه كان ذلك، فكأنَّه قيل له: هذا الغلامُ الذي بشِّرت به أوَّلاً هو ما طلبتَه بقولك: «ربِّ هَبْ لي من الصالحين».

---

(١) ص١٠٢.

وأنت تعلم أنَّ حملَه على البِشارة بالنبوَّة خلافُ الظاهر؛ إذ كان الظاهرُ أن يقالَ لو أُريد ذلك: بشَّرناه بنبوَّته، ونحوُه، وتقديرُ أن يوجدَ نبياً لا يدفعه كما لا يخفَى، وكذا وصفُه بالصَّلاح الذي طلبه، فتأمَّل.

ومن العلماء مَن رأى قوَّةَ الأدلَّةِ من الطرفين، ولم يترجَّح شيءٌ منها عنده، فتوقَّف في التعيين، كالجلال السيوطيِّ عليه الرحمة، فإنَّه قال في آخر رسالتِه السابقة: كنتُ مِلْتُ إلى القول بأنَّ الذبيحَ إسحاقُ في التفسير، وأنا الآن متوقِّف عن ذلك[1].

وقال بعضُهم ـ كما نقله الخَفاجي[2] ـ: إنَّ في الدَّلالة على كونه إسحاقَ أدلة كثيرة، وعليه جملةُ أهلِ الكتاب، ولم يُنقَل في الحديث ما يعارضه، فلعله وقع مرَّتين: مرةً بالشام لإسحاق، ومرةً بمكَّة لإسماعيلَ عليهما السلام.

والتوقُّف عندي خيرٌ من هذا القول، والذي أَميل أنا إليه أنه إسماعيلُ عليه السلام، بناءً على أنَّ ظاهرَ الآيةِ يقتضيه، وأنه المرويُّ عن كثيرٍ من أئمَّة أهلِ البيت، ولم أتيقَّن صحةَ حديثٍ مرفوعٍ يقتضي خلافَ ذلك، وحالُ أهلِ الكتابِ لا يخفَى على ذوي الألباب.

البحثُ الثاني: أنَّه استدلَّ بما في القصَّة على جواز النسخِ قبلَ الفعل، وهو مذهبُ كثيرٍ من الأصوليين، وخالف فيه المعتزلةُ والصَّيرفي. ووجهُ الاستدلالِ ـ على ما قرَّره بعضُ الأجلَّة ـ أن إبراهيمَ عليه السلام أُمر بذبح ولِده، بدليل قولِه: «افعل ما تؤمر» ولأنَّه عليه السلام أقدم على الذَّبح وترويعِ الولد، ولو لم يكن مأموراً به، لَكان ذلك ممتنعاً شرعاً وعادة، ونُسخ عنه قبلَ الفعل؛ لأنَّه لم يفعل، ولو كان ترك الفعل مع حضور الوقت، لَكان عاصياً.

واعتُرض عليه بأنَّا لا نسلِّم أنَّه لو لم يفعل وقد حضر الوقتُ لَكان عاصياً؛ لجواز أن يكونَ الوقتُ موسَّعاً فيحصل التمكُّن، فلا يعصي بالتأخير، ثم ينسخ.

---

(١) الحاوي للفتاوي ١/ ٤٩٨.

(٢) في الحاشية ٧/ ٢٨٠.

وأُجيب أمَّا أوَّلاً: فبأنَّه لو كان موسَّعاً، لَكان الوجوبُ متعلِّقاً بالمستقبل؛ لأنَّ الأمرَ باقٍ عليه قطعاً، فإذا نُسخ فقد نسخ تعلُّق الوجوبِ بالمستقبل، وهو المانعُ من النسخِ عندهم، فإنَّهم يقولون: إذا تعلَّق الوجوبُ بالمستقبل مع بقاءِ الأمرِ عليه، امتنع رفعُ ذلك التعلُّق بالنهي عنه، وإلَّا لزم تواردُ الأمرِ والنهي على شيءٍ واحد، وهو محال، فإذا جوَّزوا النسخَ في الواجب الموسَّعِ في وقته قبل فعلِه، مع أنَّ الوجوبَ فيه تعلَّق بالمستقبل، والأمرُ باقٍ عليه، فقد اعترفوا بجوازِ ما منعوه، وهو المطلوب.

وأمَّا ثانياً: فبأنَّه لو كان موسَّعاً، لأَخَّر الفعلَ ولم يُقدِم على الذَّبح وترويعِ الولدِ عادة، إمَّا رجاءَ أن يُنسخَ عنه، وإمَّا رجاءَ أن يموتَ فيسقطَ عنه؛ لعِظَم الأمر، ومثلُه مما يؤخَّر عادة.

وتعقِّب هذا بأنَّ عادةَ الأنبياءِ عليهم السلام المبادرةُ إلى امتثال أمرِ اللهِ تعالى على خلاف عادةِ أكثرِ الناس، ولا تُستبعد منهم خوارقُ العادات، وإبراهيمُ من أجلِّهم قدراً، سلَّمنا أنَّ العادةَ ولو بالنِّسبة إلى الأنبياءِ تقتضي التأخير، لكن من أين عُلم أنَّه عليه السلام لم يؤخِّر إلى آخر الوقتِ اتِّباعاً للعادة، فالمعوَّل عليه الجوابُ الأوَّل، وبه يتمُّ الاستدلال.

وربمَّا دفعوه بوجوهٍ أُخَر:

منها أنَّه لم يؤمَر بشيءٍ، وإنمَّا توهم ذلك توهُّماً بإراءة الرُّؤيا، ولو سُلِّم، فلم يؤمَر بالذبح، إنمَّا أُمر بمقدِّماته من إخراج الولدِ وأخذه المديةَ وتلِّه للجبين.

وتعقِّب هذا بأنَّه ليس بشيء؛ لما مرَّ من قوله: «افعل ما تؤمر» وإقدامِه على الذبح والترويعِ المحرَّم لولا الأمر، كيف ويدلُّ على خلافه قولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ وقولُه سبحانه: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾﴾ ولولا الأمرُ لَمَا كان بلاءً مبيناً، ولَمَا احتاج إلى الفداء، وكونُ الفداءِ عن ظنِّه أنَّه مأمورٌ بالذَّبح لا يخفى حالُه، وعلى أصل المعتزلةِ هو توريطٌ لإبراهيمَ عليه السلام في الجهلِ بما يظهر أنَّه أمرٌ وليس بأمر، وذلك غيرُ جائز، ومَن لا يجوِّز الظنَّ الفاسدَ على الأنبياءِ عليهم السلام فهذا عنده أدنى من لا شيء.

ومنها أنّا لا نسلِّم أنَّه لم يذبح، بل رُوي أنَّه ذبح، وكان كلَّما قطع شيئاً يلتحم عقيبَ القطع، وأنَّه خلق صفيحة نحاسٍ أو حديدٍ تمنع الذَّبح.

وتعقِّب بأنَّ هذا لا يُسمع:

أمَّا أوَّلاً: فلأنَّه خلافُ العادةِ والظاهر، ولم ينقل نقلاً معتبراً. وأُجيب بأنَّ الرِّوايةَ سندٌ للمنع، والضعفُ لا ينافيه، والاحتمالُ كافٍ في المقام، ولا ريبَ في جوازه، كإرسال الكبشِ من الجنة.

وأمَّا ثانياً: فلأنَّه لو ذُبح لَمَا احتيج إلى الفداء، وكونُه لأنَّ الإزهاقَ لم يحصل، ليس بشيء، ولو مُنع الذبحَ بالصفيحة مع الأمر به لَكان تكليفاً بالمحال، وهم لا يجوِّزونه، ثم قد نُسخ عنه، وإلَّا لأَثم بتركه، فيكون نسخاً قبل التمكُّن، فهو لنا لا علينا.

ومن السادة الحنفيةِ مَن قال: ما نحن فيه ليس من النسخ؛ لأنَّه رفعُ الحكمِ لا إلى بدل، وهنا له بدلٌ قائمٌ مقامَه، كالفدية للصوم في حقِّ الشيخِ الفاني، فعُلم أنَّه لم يرفع حكمُ المأمورِ به.

وفي «التلويح»: فإن قيل: هَبْ أنَّ الخلفَ قام مقامَ الأصل، لكنَّه استلزم حرمةَ الأصل، أي: ذبحَه، وتحريمُ الشيءِ بعد وجوبِه نسخٌ لا محالة؛ لرفع حكمه، قيل: لا نسلِّم كونَه نسخاً، وإنَّما يلزم لو كان حكماً شرعيّاً، وهو ممنوع، فإنَّ حرمةَ ذبحِ الولدِ ثابتةٌ في الأصل، فزالت بالوجوب، ثم عادت بقيام الشاةِ مقامَ الولد، فلا تكون حكماً شرعيّاً حتى يكونَ ثبوتُها نسخاً للوجوب. انتهى.

وتعقِّب بأنَّ هذا بناءً على ما تقرَّر من أنَّ رفعَ الإباحةِ الأصليةِ ليس نسخاً، أمَّا على أنَّه نسخٌ كما التزمه بعضُ الحنفيةِ إذ لا إباحةَ ولا تحريمَ إلَّا بشرعٍ كما قرَّروه، يكون رفعُ الحرمةِ الأصليةِ نسخاً، وإذا كان رفعُها نسخاً أيضاً، يبقى الإيرادُ المذكورُ من غير جواب، على ما قرِّر في «شرح التحرير»[1].

(١) ٣/ ٥٠ فما بعده.

هذا وتمامُ الكلامِ في حجَّة الفريقين مفصَّل في أصول الفقه، وهذا المقدارُ كافٍ لغرض المفسِّر.

البحث الثالث: أنَّه استدلَّ أبو حنيفةَ بالقصَّة على أنْ لو نذر أن يذبحَ ولدَه فعليه شاة، ووافقه في ذلك محمد، ونقله الإمام القرطبيُّ عن مالك[١].

وفي «تنوير الأبصار» وشرحِه «الدُّرِّ المختار»[٢]: نذر أن يذبحَ ولدَه فعليه شاة؛ لقصَّة الخليلِ عليه السلام، وألغاه الثاني[٣] والشافعيّ؛ كنذره قتلَه[٤]، ونقل الجصَّاص[٥] أنَّ نذرَ القتلِ كنذر الذبح، واعترض على الإمام بأنَّه نذرُ معصية، وجاء: «لا نذرَ في معصية اللهِ تعالى»[٦]، وقال هو: إنَّ ذلك في شرع إبراهيمَ عليه السلام عبارةٌ عن ذبح شاة، ولم يثبت نسخُه، فليس معصية.

وقال بعضُ الشافعية: ليس في النظم الجليلِ ما يدلُّ على أنَّه كان نذراً من إبراهيمَ عليه السلام حتى يستدلَّ به. وأُجيب بأنَّه ورد في التفسير المأثورِ أنَّه نذر ذلك، وهو في حكم النصّ؛ ولذا قيل له لمَّا بلغ معه السَّعي: أَوفِ بنذرك، وبأنَّه إذا قامت الشاةُ مَقامَ ما أوجبه اللهُ تعالى عليه، عُلم قيامُها مقامَ ما يوجبه على نفسه بالطريق الأولى، فيكون ثابتاً بدلالة النصّ.

والإنصافُ أنَّ مدركَ الشافعيِّ وأبي يوسفَ عليهما الرحمة أظهرُ وأقوى من مدرك الإمام الأعظمِ رضي الله عنه في هذه المسألة، فتأمَّل.

---

(١) قال القرطبي في تفسيره ١٨/ ٨٠: وذكر ابن عبد الحكم عن مالك فيمن قال: أنا أنحر ولدي عند مقام إبراهيم، في يمين، ثم حنث، فعليه هَدي، قال: ومن نذر أن ينحر ابنه ولم يقل: عند مقام إبراهيم، ولا أراده، فلا شيء عليه، قال: ومن جعل ابنه هَدْياً أهدى عنه.

(٢) ١/ ٣٩٥.

(٣) أي: أبو يوسف رحمه الله تعالى.

(٤) جاء في هامش الأصل: قوله: كنذره قتله، قال الخفاجي: عليه كفارة يمين عند الثاني نذر الذبح أو القتل. اهـ منه. وهو في الحاشية ٧/ ٢٨٢.

(٥) انظر أحكام القرآن ٣/ ٣٧٧.

(٦) سلف تخريجه ٣/ ٤٦٤.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾﴾ أنعمنا عليهما بالنبوَّة وغيرِها من المنافع الدينيةِ والدُّنيوية ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾ هذا وما بعدَه من قَبيل عطفِ الخاصِّ على العامّ، والكَرْبُ العظيمُ تغلُّب فرعونَ ومَن معه من القِبط، وقيل: الغرق. وليس بذاك.

﴿وَنَصَرْنَـٰهُمْ﴾ الضميرُ لهما مع القوم. وقيل: لهما فقط، وجيءَ به ضميرَ جمعٍ لتعظيمهما ﴿فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾ بسبب ذلك على فرعونَ وقومِه. و«هم» يجوز أن يكونَ فصلاً، أو توكيداً، أو بدلاً. والتنجيةُ وإنْ كانت بحسب الوجودِ مقارِنةً لمَا ذكر من النَّصر، لكنها لمَّا كانت بحسب المفهومِ عبارةً عن التخليصِ عن المكروه، بدأ بها، ثم بالنصر الذي يتحقَّق مدلولُه بمحض تنجيةِ المنصورِ من عدوِّه من غير تغلُّبٍ عليه، ثم بالغلبة؛ لتوفية مقامِ الامتنانِ حقَّه، بإظهار أنَّ كلَّ مرتبةٍ من هذه المراتبِ الثلاثِ نعمةٌ جليلةٌ على حيالها.

﴿وَءَاتَيْنَـٰهُمَا﴾ بعد ذلك ﴿ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾ أي: البليغَ في البيانِ والتفصيل، كما يُشعر به زيادةُ البنية، وهو التوراة ﴿وَهَدَيْنَـٰهُمَا﴾ بذلك ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾ الموصلَ إلى الحقِّ والصَّواب، بما فيه من تفاصيل الشَّرائعِ وتفاريعِ الأحكام.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ الكلامُ فيه نظيرُ ما سبق في نظيره.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ قال الطبريّ[١]: هو إلياس بنُ ياسين بن فِنْحاص بنِ العيزار بن هارونَ أخي موسى عليهما السلام، فهو إسرائيليٌّ من سِبط هارون. وحكى القتيبيُّ[٢] أنَّه من سِبط يوشع. وحكى الطبرسيُّ[٣] أنه ابنُ عمِّ اليسع، وأنَّه بُعث بعد حِزقيل. وفي «العجائب» للكرمانيِّ أنَّه ذو الكفل.

وعن وَهبٍ أنَّه عُمِّر كما عمِّر الخضر، ويبقى إلى فناءِ الدنيا.

---

(١) في تفسيره ١٩/ ٦١٢.
(٢) في المعارف ص٥١.
(٣) في مجمع البيان ٢٣/ ٨١-٨٢.

وأَخرج ابنُ عساكرٍ عن الحسن أنَّه موكلٌ بالفيافي، والخَضِرُ بالبحار والجزائر، وأنَّهما يجتمعان بالموسم في كلِّ عام[١]. وحديثُ اجتماعِه مع النبيِّ ﷺ في بعض الأسفار، وأكلِهِ معه من مائدةٍ نزلت عليهما ـ عليهما الصلاة والسلام ـ من السماءِ هي خبزٌ وحوتٌ وكَرَفس، وصلاتِهما العصرَ معاً، رواه الحاكمُ عن أنسٍ وقال: هذا حديثٌ صحيحُ الإسناد[٢]. وكلُّ ذلك من التعمير وما بعده لا يعوَّل عليه، وحديثُ الحاكمِ ضعَّفه البيهقيّ[٣]، وقال الذهبي[٤]: موضوعٌ قبَّح اللهُ تعالى مَن وضعه، ثم قال: وما كنت أحسب ولا أجوِّز أنَّ الجهلَ يبلغ بالحاكم إلى أن يصحِّحَ هذا؟!

وأَخرج عبدُ بن حُميد وابن جَريرٍ[٥] وابنُ المنذر وابنُ أبي حاتمٍ وابنُ عساكر عن ابن مسعودٍ أنَّ إلياسَ هو إدريس، ونُقل عنه أنَّه قرأ: «وإنَّ إدريسَ لَمِنَ المرسَلين»[٦]، والمستفيضُ عنه أنَّه قرأ كالجمهور، نعم قرأ ابنُ وثَّاب والأعمشُ والمِنهال بنُ عَمرٍو والحكم بنُ عُتيبة الكوفيُّ كذلك[٧].

وقُرئ: «إِدْراس» وهو لغةٌ في إدريس، كـ :إبراهام في إبراهيم[٨]. وإذا فسِّر إلياس بإدريس ـ على أنَّ أحدَ اللفظين اسمٌ والآخرُ لقب ـ فإنْ كان المرادُ بهما مَن سمعتَ نسبَه، فلا بأسَ به، وإنْ كان المرادُ بهما إدريسَ المشهورَ الذي رفعه اللهُ تعالى مكاناً عليّاً ـ وهو على ما قيل: أَخنوخ بنُ يزد بنِ مهلاييل بنِ أنوش بنِ قينان بنِ شيث بنِ آدم، وكان على ما ذكره المؤرِّخون قبلَ نوح، وفي «المستدرَك»[٩] عن ابن عباسٍ أنَّ بينه وبين نوحٍ ألفَ سنة، وعن وَهبٍ أنه جدُّ

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٩/ ٢١٠
(٢) المستدرك ٢/ ٦١٧.
(٣) في دلائل النبوة ٥/ ٤٢١-٤٢٢.
(٤) في تلخيص المستدرك ٢/ ٦١٧.
(٥) في تفسيره ٩/ ٣٨٣.
(٦) القراءات الشاذة ص١٢٨، والمحتسب ٢/ ٢٢٤، والبحر ٧/ ٣٧٢.
(٧) المحتسب ٢/ ٢٢٤، والبحر ٧/ ٣٧٢.
(٨) البحر ٧/ ٣٧٣، وانظر المحتسب ٢/ ٢٢٥.
(٩) ٢/ ٥٤٨.

نوح - أشكل الأمرُ في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٦] لأنَّ ضميرَ «ذريته» إمَّا أن يكونَ لإبراهيم؛ لأنَّ الكلامَ فيه، وإمَّا أن يكونَ لنوح؛ لأنَّه أقرب، ولأنَّ يونسَ ولوطاً ليسا من ذرِّية إبراهيم، وعلى التقديرَين لا يتسنَّى نظمُ إلياسَ المرادِ به إدريسُ الذي هو قبلَ نوح - على ما سمعت - في عِداد الذرِّية، ويَرِد على القول بالاتِّحاد مطلقاً أنَّه خلافُ الظاهر، فلا تغفُل.

وقرأ عكرمةُ والحسنُ بخلافٍ عنهما، والأعرج، وأبو رجاءٍ، وابنُ عامر، وابن مُحيصن: «وإنَّ الْياسَ» بوصل الهمزة[1]، فاحتمل أن يكونَ قد وصل همزةَ القطع، واحتمل أن يكونَ اسمُه ياساً ودخلت عليه «أل»، كما قيل في اليسع.

وفي حرف أُبيٍّ ومصحفِه: «وإنَّ إيْلِيْسَ» بهمزةٍ مكسورة، بعدها ياءٌ ساكنةٌ آخرُ الحروف، بعدها لامٌ مكسورة، بعدها ياءٌ أيضاً ساكنة[2]، وسينٌ مهملةٌ مفتوحة[3].

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ وهم - على المشهور في إلياس - سِبطٌ من بني إسرائيل، أَسكنهم يوشعُ لمَّا فتح الشامَ المدينةَ المعروفةَ اليومَ ببعلبك، وزعم بعضُهم أنَّها كانت تسمَّى بكَّة، وقيل: بكّ، بلا هاء، ثم سمِّيت بما عُرف على طريق التركيبِ المزجيّ.

و«إذ» عند جمعٍ مفعولُ: اذكر، محذوفاً، أي: اذكر وقتَ قولِه لقومه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ عذابَ اللهِ تعالى ونقمتَه، بامتثال أوامرِه واجتنابِ نواهيه.

---

(١) البحر ٧/ ٣٧٣، والمحتسب ٢/ ٢٢٣ إلا أنه لم يذكر الأعرج وابن عامر، وقراءة ابن عامر - بخلاف عنه - في التيسير ص١٨٧، والنشر ٢/ ٣٥٧.

(٢) بعدها في الأصل: وقيل: مفتوحة.

(٣) المحتسب ٢/ ٢٢٥، والبحر ٧/ ٣٧٣.

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ أي: أَتعبدونه؟ أو: تطلبون حاجَكم منه؟ وهو اسمُ صنمٍ لهم، كما قال الضحَّاك والحسنُ وابنُ زيد. وفي بعض نسخِ «القاموس»[1] أنَّه لقوم يونُس. ولا مانعَ من أن يكونَ لهما، أو ذلك تحريف.

قيل: وكان من ذهب، طولُه عشرون ذراعاً، وله أربعةُ أوجه، فُتنوا به وعظَّموه حتى أَخدموه أربعَ مئةِ سادن، وجعلوهم أنبياءَه، فكان الشيطانُ يدخل في جوفه ويتكلَّم بشريعة الضَّلالة، والسَّدنة يحفظونها ويعلِّمونها الناس.

وقيل: هو اسمُ امرأةٍ أتتهم بضلالةٍ فاتَّبعوها، واستؤنس له بقراءة بعضِهم: «بَعْلاءَ» بالمدِّ على وزن حمراء[2]، وظاهرُ صرفِه أنَّه عربيٌّ على القولين، فلا تغفُل.

وقال عكرمةُ وقتادة: البعلُ: الربُّ بلغة اليمن. وفي روايةٍ أخرى عن قتادة: بلغة أَزْد شَنُوءة. واستام ابنُ عباسٍ ناقةَ رجلٍ من حِميَرٍ فقال له: أنت صاحبُها؟ قال: بعلُها، فقال ابنُ عباس: «أَتَدْعون بعلاً»: أَتدْعون ربّاً، ممَّن أنت؟ قال: من حِميَر. والمرادُ عليه: أَتَدْعون بعضَ البعول؟ أي: الأَرباب، والمرادُ بها الأَصنام، أو المعبوداتُ الباطلة، فالتنكيرُ للتبعيض، فيرجع لما قيل قبله.

﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ أي: وتتركون عبادتَه تعالى؟! أو طلبَ جميعِ حاجِكم منه عزَّ وجلّ؟! على أنَّ الكلامَ على حذفِ مضاف. وقيل: إنَّ المرادَ بتركهم إيَّاه سبحانه تركُهم عبادتَه عزَّ وجلّ، والمرادُ بالخالق مَن يُطلَق عليه ذلك، وله بهذا الاعتبارِ أفرادٌ وإن اختلفت جهةُ الإطلاقِ فيها، فلا إشكالَ في إضافة أفعل إلى ما بعده.

وهاهنا سؤالٌ مشهور، وهو: ما وجهُ العدولِ عن: تَدَعون ـ بفتح التاءِ والدالِ مضارعِ وَدَعَ بمعنى ترك ـ إلى «تذرون» مع مناسبته ومجانستِه لـ «تَدْعون» قبلَه دونَ «تذرون»؟ وأُجيب عن ذلك بأَجوِبة:

---

(١) هي نسخة أبي عبد الله بن الطيب الفاسي كما ذكره تلميذه الزبيدي في تاج العروس (بعل).
(٢) البحر ٧/ ٣٧٣.

الأوَّل: أنَّ في ذلك نوعَ تكلُّف، والجناسُ المتكلَّف غيرُ ممدوحٍ عند البلغاء، ولا يُمدح عندهم ما لم يجئ عفواً بطريق الاقتضاء؛ ولذا ذمُّوا متكلَّفه، فقيل فيه:

طبعُ المجنِّس فيه نوعُ قيادةٍ     أوَما ترى تأليفَه للأحرفِ

قاله الخفاجيّ(١). وفي كون هذا البيتِ في خصوص المتكلَّفِ نظرٌ، وبعدُ فيه ما فيه.

الثاني: أنَّ في تَدعون إلباساً على مَن يقرأ من المصحف دون حفظٍ من العوامّ، بأن يقرأه كـ: تَدْعون الأوَّلِ ويظنَّ أنَّ المرادَ إنكارُ الجمع بين دعاءِ بعلٍ ودعاءِ أحسنِ الخالقين. وليس بالوجه؛ إذ ليس من سنَّة الكتابِ تركُ ما يلبِّس على العوامّ، كما لا يخفى على الخواصّ. والصحابةُ أيضاً لم يراعوهم، وإلَّا لَمَا كتبوا المصحفَ غيرَ منقوطٍ ولا ذا شكلٍ كما هو المعروفُ اليوم، وفي بقاء الرسمِ العثمانيِّ معتبراً إلى انقضاء الصحابةِ ما يؤيِّد ما قلنا.

الثالث: أنَّ التجنيسَ تحسين، وإنَّما يستعمل في مقام الرِّضا والإحسان، لا في مقام الغضبِ والتهويل. وفيه أنَّه وقع فيما نفاه، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥] وقال سبحانه: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣-٤٤] وفيهما الجناسُ التامّ، ولا يخفى حالُ المقام.

الرابع: ما نُقل عن الإمام، فإنَّه سئل عن سبب تركِ تَدعون إلى «تذرون» فقال: تُرك لأنهم اتَّخذوا الأصنامَ آلهةً وتركوا الله تعالى بعد ما علموا أنَّ الله سبحانه ربُّهم وربُّ آبائهم الأوَّلين، استكباراً واستنكاراً؛ فلذلك قيل: «وتذرون» ولم يقل: وتَدعون. وفيه القولُ بأنَّ: دَعْ، أمرٌ بالترك قبل العلم، و: ذَرْ، أمرٌ بالترك بعدَه، ولا تساعده اللغةُ والاشتقاق.

الخامس: أنَّ لإنكار كلٍّ من فعلَي دعاءِ بعلٍ وتركِ أحسنِ الخالقين علَّةً غيرَ عِلَّة إنكارِ الآخَر، فتُرك التجنيسُ رمزاً إلى شدَّة المغايرةِ بين الفعلين.

---

(١) في حاشيته ٧/ ٢٨٤.

السادس: أنَّه لمَّا لم يكن مجانسةٌ بين المفعولين بوجهٍ من الوجوه، تُرك التجنيسُ في الفعلين المتعلِّقين بهما، وإن كانت المجانسةُ المنفيةُ بين المفعولَين شيئاً والمجانسةُ التي نحن بصَدَدها بين الفعلين شيئاً آخر. وكلا الجوابَين كما ترى.

السابع: أنَّ: يَدَع، إنَّما استعملته العربُ في الترك الذي لا يذمُّ مرتكبُه؛ لأنَّه من الدَّعة بمعنى الراحة، و: يَذَر، بخلافه؛ لأنَّه يتضمَّن إهانةً وعدمَ اعتداد؛ لأنَّه من الوَذَر: قطعةِ اللحمِ الحقيرةِ التي لا يعتدُّ بها. واعتُرض بأنَّ المتبادرَ من قوله: بخلافه، أنَّ يذر إنَّما استعملته العربُ في الترك الذي يذمُّ مرتكبُه، فيَرِدُ عليه قولُه تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:١١٢] وقولُه سبحانه: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوٰٓا﴾ [البقرة:٢٧٨] إلى غير ذلك، وفيه تأمُّل.

الثامن: أنَّ يَدَع أخصُّ من يذر؛ لأنَّه بمعنى ترك الشيءِ مع اعتناءٍ به، بشهادة الاشتقاق، نحو الإيداع، فإنَّه تركُ الوديعةِ مع الاعتناءِ بحالها، ولهذا يُختار لها مَن هو مؤتمنٌ عليها، ونحوُه موادعة الأحباب، وأمَّا: يذر فمعناه التركُ مطلقاً، أو مع الإعراض والرفضِ الكلِّيِّ، قال الراغب[1]: يقال: فلانٌ يذر الشيءَ، أي: يقذفه لقلَّة الاعتدادِ به، ومنه: الوَذَر، وهو ما سمعتَ آنفاً. ولا شكَّ أن السِّياق إنَّما يناسب هذا دونَ الأوَّل، إذ المرادُ تبشيعُ حالِهم في الإعراض عن ربِّهم، وهو قريبٌ من سابقه، لكنه سالمٌ عن بعض ما فيه.

التاسع: أنَّ في: تَدَعون، بفتح التاءِ والدالِ ثقلاً ما، لا يخفى على ذي الذوقِ السليمِ والطبعِ المستقيم، و«تذرون» سالمٌ عنه؛ فلذا اختير عليه، فتأمَّل واللهُ تعالى أعلم.

وقد أَشار سبحانه وتعالى بقوله: «أحسن الخالقين» إلى المقتضي للإنكار المعنيِّ بالهمزة، وصرَّح به للاعتناءِ بشأنه في قولِه تعالى: ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ بالنَّصب على البدليَّةِ من «أحسن الخالقين» قال أبو حيَّان[2]: ويجوز كونُ ذاك عطفَ بيانٍ إنْ قلنا: إنَّ إضافةَ أفعل التفضيلِ محضة.

---

(١) في المفردات (وذر).

(٢) في البحر ٧/ ٣٧٣.

وقرأ غيرُ واحدٍ من السبعة بالرفع[١]، على أنَّ الاسمَ الجليلَ مبتدأ، و«ربكم» خبرُه، أو هو خبرُ مبتدأ محذوف، و«ربُّكم» عطفُ بيان، أو بدلٌ منه. ورُوي عن حمزةَ أنَّه إذا وصل نصب، وإذا وقف رفع[٢].

والتعرُّض لذِكر ربوبيَّته تعالى لآبائهم الأوَّلين لتأكيد إنكار تركِهم إيَّاه تعالى، والإشعارِ ببطلان آراءِ آبائهم أيضاً.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما تضمَّنه كلامُه من إيجاب اللهِ تعالى التوحيد، وتحريمِه سبحانه الإشراكَ، وتعذيبِه تعالى عليه. وجوِّز أن يكونَ تكذيبُهم راجعاً إلى ما تضمَّنه قولُه: «اللهَ ربَّكم».

﴿فَإِنَّهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ أي: في العذاب. وإنَّما أطلقه اكتفاءً بالقرينة، أو لأنَّ الإحضارَ المطلقَ مخصوصٌ بالشرِّ في العرف العامّ، أو حيث استُعمل في القرآن؛ لإشعاره بالجبر.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ استثناءٌ متصلٌ من الواو في كذَّبوه، فيدلُّ على أنَّ من قومه مخلَصين لم يكذِّبوه. ومُنعَ كونُه استثناءً متصلاً من ضمير «محضرون» لأنَّه للمكذِّبين، فإذا استُثني منه اقتضى أنَّهم كذَّبوه ولم يُحضَروا، وفسادُه ظاهر. وقيل: لأنَّه إذا لم يستثنَ من ضميرِ كذَّبوا، كانوا كلُّهم مكذِّبين، فليس فيهم مخلَصٌ فضلاً عن مخلَصين، ومآلُه ما ذكر. لكن اعترضه ابنُ كمالٍ بأنه لا فسادَ فيه؛ لأنَّ استثناءهم من القوم المحضَرين لعدم تكذيبِهم على ما دلَّ عليه التوصيفُ بالمخلَصين لا من المكذِّبين، فمآلُ المعنى واحد. ورُدَّ بأنَّ ضميرَ محضَرين للقوم كضمير كذَّبوا.

وقال الخفاجيّ[٣]: لا يخفى أنَّ اختصاصَ الإحضارِ بالعذاب ـ كما صرَّح به غيرُ واحد ـ يعيِّن كونَ ضمير محضَرين للمكذِّبين، لا لمطلق القوم، فإنْ لم يسلِّمه فهو أمرٌ آخر.

---

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي بالنصب، والباقون بالرفع.
(٢) البحر ٧/ ٣٧٣.
(٣) في حاشيته ٧/ ٢٨٤.

وفي «البحر»[1]: ولا يناسب أن يكونَ استثناءً منقطعاً؛ إذ يصير المعنى: لكن عبادَ اللهِ المخلَصين من غير قومِه لا يُحضَرون في العذاب. وفيه بحث.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ الكلامُ فيه كما في نظيره، بيدَ أنَّه يقال هاهنا: إنَّ «إلْ ياسين» لغةٌ في إلياس، وكثيراً ما يتصرَّفون في الأسماء الغيرِ العربية. وفي «الكشَّاف»[2]: لعل لزيادة الياءِ والنونِ معنًى في اللغة السُّريانية. ومن هذا البابِ سيناءُ وسينين. واختار هذه اللغةَ هنا رعايةً للفواصل.

وقيل: هو جمعُ: إلياس، على طريق التغليبِ بإطلاقه على قومه وأتباعِه، كالمهلَّبين للمهلَّب وقومِه.

وضعِّف بما ذكره النُّحاة من أنَّ العَلَمَ إذا جُمع أو ثُنِّي وجب تعريفُه باللام جبراً لمَا فاته من العَلَمية، ولا فرقَ فيه بين ما فيه تغليبٌ وبين غيرِه، كما صرَّح به ابنُ الحاجبِ في «شرح المفصل». لكن هذا غيرُ متفقٍ عليه، قال ابنُ يَعيش في «شرح المفصَّل»: يجوز استعمالُه نكرةً بعد التثنيةِ والجمع، نحو: زيدانِ كريمانِ وزيدونَ كريمون[3]. وهو مختارُ الشيخِ عبدِ القاهر، وقد أَشبعوا الكلامَ على ذلك في مفصَّلات كتبِ النحو. ثم إنَّ هذا البحثَ إنما يتأتَّى مع مَن لم يجعل لامَ إلياس للتعريف، أمَّا مَن جعلها له، فلا يتأتَّى البحثُ معه.

وقيل: هو جمعُ إلياسيّ، بياء النِّسبة، فخفِّف لاجتماع الياءاتِ في الجرِّ والنصب، كما قيل: أعجمين في أعجميِّين، وأشعرين في أشعريِّين. والمرادُ بإلياسين قومُ إلياس المخلَصون؛ فإنَّهم الأحِقَّاءُ بأن يُنسبوا إليه. وضعِّف بقلَّة ذلك وإلباسِه بإلياس إذا جُمع، وإنْ قيل: حذفُ لامِ إلياس مزيلٌ للإلباس. وأيضاً هو غيرُ مناسبٍ للسِّياق والسِّباق؛ إذ لم يُذكر آلُ أحدٍ من الأنبياء.

---

(١) ٧/ ٣٧٣.

(٢) ٣/ ٣٥٢.

(٣) قال في شرح المفصل ١/ ٤٦: اعلم أنك إذا ثنيت الاسم العلم ينكر وزال عنه تعريف العلمية... إلخ.

وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ ويعقوبُ وزيدُ بن عليٍّ: «آلِ ياسين» بالإضافة[١]، وكُتب في المصحف العثمانيِّ منفصلاً، ففيه نوعُ تأييدٍ لهذه القراءة، وخرِّجت على أنَّ ياسين اسمُ أبي إلياس، ويُحمل الآلُ على إلياس. وفي الكناية عنه تفخيمٌ له، كما في آل إبراهيم عن نبيِّنا ﷺ. وجوِّز أن يكونَ الآلُ مقحَماً، على أنَّ ياسين هو إلياسُ نفسه.

وقيل: ياسين فيها اسمٌ لمحمَّد ﷺ، فآلُ ياسين آلهُ عليه الصلاة والسلام، أخرج ابنُ أبي حاتمٍ والطبرانيُّ وابنُ مردويه عن ابن عباسٍ أنَّه قال في: «سلام على آل ياسين» نحنُ آلَ محمدٍ آلُ ياسين[٢]. وهو ظاهرٌ في جعل ياسين اسماً له ﷺ.

وقيل: هو اسمٌ للسورة المعروفة. وقيل: اسمٌ للقرآن. فـ «آل ياسين» هذه الأمةُ المحمدية، أو خواصُّها. وقيل: اسمٌ لغير القرآنِ من الكتب.

ولا يخفَى عليك أنَّ السياقَ والسِّباق يأبيانِ أكثرَ هذه الأقوال.

وقرأ أبو رجاءٍ والحسن: «على الْياسين» بوصل الهمزة[٣]. وتخريجُها يُعلم مما مرّ. وقرأ ابنُ مسعودٍ ومَن قرأ معه فيما سبق «إدريسَ»: «سلامٌ على إدْراسِين»[٤]، وعن قتادة: «وإنَّ إدْرِيسَ» وقرأ: «على إدْرِيسِين»[٥].

وقرأ أُبيّ: «على إيْلِيسَ» كما قرأ: «وإنَّ إيْلِيسَ لمن المرسلين»[٦].

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى الْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ سبق بيانُه في «الشُّعراء».

---

(١) التيسير ص١٨٧، والنشر ٢/ ٣٦٠ عن نافع وابن عامر، وقراءة يعقوب في النشر.
(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٨٦، والمعجم الكبير (١١٠٦٤) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ١٧٤: فيه موسى بن عمير القرشي وهو كذاب.
(٣) البحر ٧/ ٣٧٣.
(٤) البحر ٧/ ٣٧٣، والمحتسب ٢/ ٢٢٤، ونسبها ابن خالويه ص١٢٨ لابن مسعود ﷺ.
(٥) كذا في الأصل و(م)، وفي المحتسب ٢/ ٢٢٥، والبحر ٧/ ٣٧٤: «إدْرَسِينَ»، وقراءة: «إدرِيسين» مذكورة في الكشاف ٣/ ٣٥٢، والمحتسب ٢/ ٢٢٥ دون نسبة.
(٦) البحر ٧/ ٣٧٤. وتحرفت في مطبوعه: أُبيّ، إلى: ابن عليّ.

﴿وَإِنَّكُمْ﴾ يا أهلَ مكَّة ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾ على منازلهم في متاجركم إلى الشام، فإنَّ سدومَ[1] في طريقه ﴿مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ داخلين في الصَّباح ﴿وَبِالَّيْلِ﴾ قيل: أي: ومساءً، بأن يرادَ بالليل أولُه؛ لأنَّه زمانُ السير، ولوقوعه مقابلَ الصباح. وقيل: أي: نهاراً وليلاً. وهو تأويلٌ قبل الحاجة؛ ولذا اختير الأوَّل؛ ووجهُ التخصيصِ عليه بأنَّه لعل سدوم وقعت قريبَ منزلٍ يمرُّ بها المرتحلُ عنه صباحاً والقاصدُ مساء. وقال بعضُ الأجِلَّة: لو أُبقي على ظاهره ـ لأنَّ ديارَ العربِ لحرِّها يسافَر فيها في الليل إلى الصَّباح ـ خلا عن التكلُّف في توجيه المقابلة.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ أتشاهدون ذلك فلا تعقلون حتى تعتبروا به وتخافوا أن يصيبَكم مثلُ ما أصابهم؟ فإنَّ منشأ ذلك مخالفتُهم رسولَهم، ومخالفةُ الرسولِ قدرٌ مشتركٌ بينكم.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ يُروى ـ على ما في «البحر»[2] ـ أنَّه عليه السلام نُبِّئ وهو ابنُ ثمانٍ وعشرين سنة. وحكى في «البحر» أنَّه كان في زمن ملوكِ الطوائفِ من الفرس. وهو ابنُ مَتَّى، بفتح الميمِ وتشديدِ التاءِ الفوقيةِ، مقصور. وهل هذا اسمُ أمِّه أو أبيه؟ فيه خلاف، فقيل: اسمُ أمِّه. وهو المذكورُ في تفسير عبدِ الرزاق[3]. وقيل: اسمُ أبيه. وهذا ـ كما قال ابنُ حجر[4] ـ أصحّ. وبعضُ أهلِ الكتابِ يسمِّيه: يونان بنَ مائي، وبعضُهم يسمِّيه: يونه بن امتياي. ولم نقف في شيءٍ من الأخبار على اتِّصال نسبِه.

وفي اسمه عند العربِ ستُّ لغات: تثليثُ النونِ مع الواو والياءِ والهمزة، والقراءةُ المشهورةُ بضمِّ النونِ مع الواو، وقرأ طلحة[5] بنُ مصرِّف بكسر النُّون، قيل: أراد أن يجعلَه عربيًّا مشتقًّا من أنس. وهو كما ترى.

---

(١) جاء في هامش الأصل: سدوم، بالدال المهملة والذال المعجمة: بلد قوم لوط عليه السلام.
(٢) ٧/ ٣٧٥.
(٣) ٢/ ١٥٦.
(٤) في فتح الباري ٦/ ٤٥٢.
(٥) في الأصل و(م): وقرأ أبو طلحة، والتصويب من الإتقان ٢/ ١٠٧١، وعنه نقل المصنف.

﴿إِذۡ أَبَقَ﴾ هرب. وأصلُه الهربُ من السيِّد، لكن لمَّا كان هربُه من قومه بغير إذن ربِّه كما هو الأنسبُ بحال الأنبياءِ عليهم السلام، حَسُنَ إطلاقُه عليه، فهو إمَّا استعارة، أو مجازٌ مرسلٌ من استعمال المقيَّدِ في المطلق. والأوَّل أبلغ.

وقال بعضُ الكمَّل: الإباق: الفِرار من السيِّد بحيث لا يهتدي إليه طالب، أي: بهذا القصد. وكان عليه السلام هرب من قومه بغير إذن ربِّه سبحانه إلى حيث طلبوه فلم يجدوه، فاستُعير الإباقُ لهربه باعتبار هذا القيد، لا باعتبار القيدِ الأوَّل.

وفيه ـ بعد تسليمِ اعتبارِ هذا القيدِ على ما ذكره بعضُ أهلِ اللغة ـ أنَّه لا مانعَ من اعتبار ذلك القيد، فلا اعتبارَ بنفي اعتبارِه.

﴿إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ المملوءِ ﴿فَسَاهَمَ﴾ فقارع عليه السلام مَن في الفلك، واستدلَّ به مَن قال بمشروعية القُرعة.

﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ فصار من المغلوبين بالقُرعة. وأصلُه: المُزلَق ـ اسم مفعول ـ عن مقام الظَّفر. يُروى أنَّه وعد قومَه العذابَ وأخبرهم أنَّه يأتيهم إلى ثلاثة أيام، فلمَّا كان اليومُ الثالث، خرج يونُسُ قبل أن يأذنَ اللهُ تعالى له، ففقده قومُه، فخرجوا بالكبير والصغيرِ والدوابّ، وفرَّقوا بين كلِّ والدةٍ وولدِها، فشارف نزول العذابِ بهم، فعجُّوا إلى الله تعالى وأنابوا واستقالوا، فأقالهم اللهُ تعالى وصَرَفَ عنهم العذاب، فلمَّا لم يرَ يونسُ نزولَ العذاب، استحى أن يرجعَ إليهم وقال: لا أَرجع إليهم كذَّاباً أبداً، ومضى على وجهه، فأتى سفينةً فركبها، فلمَّا وصلت اللُّجَّةَ وقفت فلم تَسِر، فقال صاحبُها: ما يمنعها أن تسيرَ إلَّا أنَّ فيكم رجلاً مشؤوماً، فاقترعوا ليُلقوا مَن وقعت عليه القرعةُ في الماء، فوقعت على يونُس، ثم أَعادوا، فوقعت عليه، ثم أَعادوا، فوقعت عليه، فلمَّا رأى ذلك، رمى بنفسه في الماء ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ﴾ أي: ابتلعه، من اللُّقمة.

وفي خبرٍ أَخرجه أحمدُ وغيرُه عن ابن مسعودٍ أنَّه أتى قوماً في سفينة، فحملوه وعرفوه، فلمَّا دخلها ركدت والسفنُ تسير يميناً وشمالاً، فقال: ما بالُ سفينتِكم؟ قالوا: ما ندري، قال: ولكنِّي أدري، إنَّ فيها عبداً أبق من ربِّه، وإنَّها واللهِ لا تسير

حتى تُلقوه، قالوا: أمّا أنت واللهِ يا نبيَّ اللهِ فلا نُلقيك، فقال لهم: اقترِعوا، فمَن قُرع فلْيُلق، فاقترعوا ثلاثَ مرات، وفي كلِّ مرةٍ تقع القرعةُ عليه، فرمى بنفسه، فكان ما قصَّ اللهُ تعالى[1].

وكيفيةُ اقتراعِهم ـ على ما في «البحر»[2] عن ابنِ مسعود ـ أنَّهم أخذوا لكلٍّ سهماً، على أنَّ مَن طفا سهمُه فهو، ومَن غرق سهمُه فليس إيَّاه، فطفا سهمُ يونُس.

ورُوي أنَّه لمَّا وقف على شفير السفينةِ ليرميَ بنفسه، رأى حوتاً ـ واسمُه على ما أخرج ابنُ أبي حاتمٍ وجماعةٌ عن قتادةَ: نجم[3] ـ قد رفع رأسَه من الماء قَدْرَ ثلاثةِ أذرُعٍ يرقُبه ويترصَّده، فذهب إلى ركنٍ آخَر، فاستقبله الحوت، فانتقل إلى آخَر، فوجده، وهكذا حتى استدار بالسَّفينة، فلمَّا رأى ذلك، عرف أنَّه أمرٌ من الله تعالى، فطرح نفسَه، فأخذه قبل أن يصلَ إلى الماء.

﴿وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ أي: داخلٌ في الملامة، على أنَّ بناءَ أفعل للدُّخول في الشيء، نحو: أحرم، إذا دخل الحَرَم. أو آتٍ بما يُلام عليه، على أنَّ الهمزةَ فيه للصَّيرورة، نحو: أغدَّ البعير، أي: صار ذا غُدَّة، فهو هنا لمَّا أتى بما يستحقُّ اللومَ عليه صار ذا لوم. أو مليمٌ نفسَه، على أنَّ الهمزةَ فيه للتعدية، نحو: أقدمته، والمفعولُ محذوف. وما رُوي عن ابن عباسٍ ومجاهدٍ من تفسيره بالمسيء والمذنب، فبيانٌ لحاصل المعنى، وحسناتُ الأبرارِ سيِّئاتُ المقرَّبين.

وقرئ: «مَليم» بفتح أوَّله[4]، اسمُ مفعول، وقياسُه: مَلوم؛ لأنَّه واوي، يقال: لُمته ألومه لَوماً، لكنه جيءَ به على لِيْمَ، كما قالوا: مَشيب ومَدعيّ، في مَشوب ومَدعو، بناءً على: شِيب ودُعي، وذلك أنَّه لمَّا قُلبت الواوُ ياءً في المجهول، جُعل كالأصل، فحمل الوصفُ عليه.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٨٨، وعزاه لابن أبي شيبة في المصنف، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ٧/ ٣٧٥.

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٨٩.

(٤) البحر ٧/ ٣٧٥.

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ١٤٣﴾ أي: من الذَّاكرين الله تعالى كثيراً بالتسبيح كما قيل. وفي كلام قتادةَ ما يُشعر باعتبار الكثرة، واستفادتُها ـ على ما قال الخفاجيُّ[1] ـ من جعله من المسبِّحين دون أن يقال: مسبِّحاً؛ فإنَّه يُشعر بأنَّه عريقٌ فيهم، منسوبٌ إليهم، معدودٌ في عِدادهم، ومثلُه يستلزم الكثرة. وقيل: من التفعيل[2]. ورُدَّ بأنَّ معنى سبَّح لم يعتبَر فيه ذلك؛ إذ هو: قال: سبحانَ الله. وقد يقال: هي إرادة الثبوتِ من «المسبِّحين» فإنَّه يُشعر بأنَّ التسبيحَ ديدنٌ لهم.

والمرادُ بالتسبيح هاهنا حقيقتُه، وهو القولُ المذكور، أو ما في معناه، وروي ذلك عن ابن جُبير.

وهذا الكونُ عند بعضٍ قبل التقامِ الحوتِ إياه أيامَ الرَّخاء، واستظهر أبو حيَّانَ[3] أنَّه في بطن الحوت، وأنَّ التسبيحَ ما ذكره اللهُ تعالى في قوله سبحانه: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وحمله بعضُهم على الذِّكر مطلقاً، وبعضٌ آخرُ على العبادة كذلك، وجماعة ـ منهم ابنُ عباس ـ على الصلاة، بل رُوي عنه أنَّه قال: كلُّ ما في القرآن من التسبيحِ فهو بمعنى الصَّلاة. وأنت تعلم أنَّه إنْ كان اللفظُ فيما ذُكر حقيقةً شرعيةً ولم يكن للتسبيح حقيقةٌ أخرى شرعيةٌ أيضاً، لم يُحتَج إلى قرينة، وإن كان مجازاً أو كان للتسبيح حقيقةٌ شرعيةٌ أخرى، احتيج إلى قرينة، فإنْ وجدت فذاك، وإلَّا فالأمرُ غيرُ خفيٍّ عليك.

وكما اختُلف في زمان التسبيحِ بالمعنى السابق، اختُلف في زمانه بالمعاني الأُخر، أَخرج أحمدُ في «الزُّهد» وغيرُه عن ابن جُبيرٍ في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ قال: من المصلِّين قبل أن يدخلَ بطنَ الحوت.

---

(١) في حاشيته ٧/ ٢٨٦.

(٢) أي: استفادة الكثرة.

(٣) في البحر ٧/ ٣٧٥.

وأَخرج أحمدُ وغيرُه أيضاً عن الحسنِ في الآية قال: ما كان إلَّا صلاة أَحدثها في بطن الحوت. فذُكر ذلك لقتادة، فقال: لا، إنَّما كان يعمل في الرَّخاء[١].

ورُوي عن الحسنِ غيرُ ما ذُكر، فقد أَخرج عنه ابنُ أبي حاتمٍ والبيهقيُّ في «شُعب الإيمان» والحاكمُ أنَّه قال في الآية: كان يُكثر الصلاةَ في الرَّخاء، فلمَّا حصل في بطن الحوت، ظنَّ أنَّه الموت، فحرَّك رِجلَيه، فإذا هي تتحرَّك، فسجد وقال: يا ربِّ، اتخذتُ لك مسجداً في موضعٍ لم يسجدْ فيه أحد[٢].

وأَخرج ابنُ أبي شيبةَ[٣] عن الضحَّاك بنِ قيس قال: اذكروا اللهَ تعالى في الرَّخاء يذكرْكم في الشدَّة، فإنَّ يونسَ عليه السلام كان عبداً صالحاً ذاكراً لله تعالى، فلمَّا وقع في بطنِ الحوت، قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ إلخ، وإنَّ فرعونَ كان عبداً طاغياً ناسياً لذِكر اللهِ تعالى، فلمَّا أدركه الغرقُ قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] فقيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١].

والأَوْلى حملُ زمانِ كونِه من المسبِّحين على ما يعمُّ زمانَ الرخاءِ وزمانَ كونِه في بطن الحوت، فإنَّ لاتِّصافه بذلك في كلا الزمانَين مدخلاً في خروجه من بطن الحوتِ المفهوم من قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ كما يُشعر به ما في حديثٍ أَخرجه عبدُ الرزاق وابنُ جَريرٍ وابنُ أبي حاتمٍ وابنُ مردويه عن أنسٍ مرفوعاً من أنَّه عليه السلام لَمَّا التقمه الحوتُ وهَوَى به حتى انتهى إلى ما انتهى من الأرض، سمع تسبيحَ الأرض، فنادى في الظُّلمات أنْ: لا إله إلَّا أنت سبحانك إنِّي كنت من الظالمين، فأقبلت الدعوةُ نحو العرش، فقالت الملائكة: يا ربَّنا، إنَّا نسمع صوتاً ضعيفاً من بلادٍ غربة، قال سبحانه: وما تدرون ما ذاكم؟ قالوا: لا يا ربَّنا، قال: ذاك عبدي يونُس، قالوا:

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٨٩.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٨٩، وهو في الشعب (١١٤٤)، والمستدرك ٢/ ٥٨٤، دون قوله: فلما حصل... إلخ. وهذه الزيادة أ خرجها الحاكم من طريق آخر عن الحسن ٢/ ٥٨٥.

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٨٩، ومصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٧٥-٣٧٦.

الذي كنَّا لا نزال نرفع له عملاً متقبَّلاً ودعوةً مجابة؟ قال: نعم، قالوا: يا ربَّنا، ألَا ترحم ما كان يصنع في الرَّخاء وتُنجيه عند البلاء؟ قال: بلى، فأمر عزَّ وجلَّ الحوتَ فلَفَظه[١].

واستظهر أبو حيَّانَ[٢] أنَّ المرادَ بقوله سبحانه: ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ﴾ إلخ: لَبقي في بطنه حيًّا إلى يومِ البعث، وبه أقول. وتعقِّب بأنَّه ينافيه ما ورد من أنَّه لا يبقى عند النفخةِ الأولى ذو روحٍ من البشر والحيوانِ في البرِّ والبحر.

وأُجيب ـ بعد تسليم ورودِ ذلك أو ما يدلُّ عليه ـ بأنَّه مبالغةٌ في طول المدَّة، مع أنَّه في حيِّز «لو»، فلا يرد رأساً[٣]. أو المرادُ بوقت البعثِ ما يشمل زمانَ النفخة؛ لأنَّه من مقدِّماته، فكأنَّه منه.

وعن قتادة: لَكان بطنُ الحوتِ قبراً له. وظاهرُه أنَّه أُريد: لَلبِث ميِّتاً في بطنه إلى يومِ البعث. ولا مانعَ من بقاءِ بنيةِ الحوت كبنيته من غير تسلُّط البلاءِ إلى ذلك اليوم. وضميرُ «يبعثون» لغير مذكور، وهو ظاهر.

﴿فَنَبَذْنَـٰهُ﴾ بأنْ حملنا الحوتَ على لفظه، فالإسناد مجازيّ. والنَّبذُ على ما في «القاموس»[٤]: طرحُك الشيءَ أماماً أو وراءً، أو هو عامّ.

وقال الراغب[٥]: النبذ: إلقاءُ الشيءِ وطرحُه لقلَّة الاعتدادِ به. والمرادُ به هنا الطرحُ والرَّمي.

والقيدُ الذي ذكره الراغبُ لا أَرغب فيه؛ فإنَّه عليه السلام وإنْ أبق وخرج من غير إذن مولاه واعتراه من تأديبه تعالى ما اعتراه، فالربُّ عزَّ وجلَّ بأنبيائه رحيم، وله سبحانه في كلِّ شأنٍ اعتدادٌ بهم عظيم، فهو عليه السلام معتدٌّ به في حال

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٨٨، وتفسير عبد الرزاق ٢/ ١٥٦-١٥٧، وتفسير الطبري ١٩/ ٦٢٨-٦٢٩.
(٢) في البحر ٧/ ٣٧٥.
(٣) جاء في هامش (م): أو أنه يبقى حيًّا إلى وقت النفخة، ثم يموت مع من يموت ويبقى إلى يوم البعث في بطن الحوت، فلا إشكال. اهـ. عبد الله نجل المصنف. اهـ.
(٤) مادة (نبذ).
(٥) في المفردات (نبذ).

الإلقاء، وإن كان ذلك ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ أي: بالمكان الخالي عمَّا يغطِّيه من شجرٍ أو نبت.

يُروَى أنَّ الحوتَ سار مع السفينة رافعاً رأسَه يتنفَّس ويونسُ يسبِّح، حتى انتهَوا إلى البرِّ فلفظه. ورُدَّ بأنَّه يأباه قولُه تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وأُجيب بأنَّه بمجرَّد رفعِ رأسِه للتنفُّس لا يخرج منها، ثم إنَّ هذا لئلَّا يختنقَ يونسُ أو تنحصرَ نفسُه بحكم العادة، لا ليمتنعَ دخولُ الماءِ جوفَ الحوتِ حتى يقال: السمكُ لا يحتاج لذلك، ومع هذا نحن لا نجزم بصحَّة الخبر، فقد رُوي أيضاً أنَّه طاف به البحارَ كلَّها ثم نبذه على شطِّ دِجلَةَ قريب نِينُوى ـ بكسر النونِ الأُولى وضمِّ الثانيةِ كما في «الكشف»[1] ـ من أرض المَوصِل. والالتقامُ كان في دجلةَ أيضاً على ما صرَّح به البعض، وخالف فيه أهلُ الكتاب. وسيأتي إن شاءَ اللهُ تعالى نقلُ كلامِهم لك في هذه القصَّةِ لتقفَ على ما فيه.

والظاهرُ أنَّ الحوتَ من حيتان دجلةَ أيضاً، وقد شاهدنا فيها حيتاناً عظيمةً جدّاً. وقيل: كان من حيتان النِّيل؛ أخرج ابنُ أبي شيبةَ[2] عن وهبٍ أنَّه جلس هو وطاوسٌ ونحوُهما من أهل ذلك الزَّمان، فذَكروا أيُّ أمرِ اللهِ تعالى أسرع؟ فقال بعضُهم: قولُ اللهِ تعالى: ﴿كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧] وقال بعضُهم: السريرُ حين أُتي به سليمان. وقال وهب: أَسرعُ أمرِ اللهِ تعالى أنَّ يونسَ على حافة السفينةِ إذ أَوحى اللهُ سبحانه إلى نونٍ في نيل مِصر، فما خرَّ من حافتها إلَّا في جوفه.

ولا شبهةَ في أنَّ قدرةَ اللهِ عزَّ وجلَّ أعظمُ من ذلك، لكن الشبهةَ في صحَّة الخبر، وكأنِّي بك تقول: لا شبهةَ في عدم صحَّته.

واختُلف في مدَّة لَبثه، فأخرج عبدُ الله بن أحمدَ في زوائد «الزُّهد» وغيرُه عن الشعبيِّ قال: التقمه الحوتُ ضحًى ولَفَظه عشيَّة[3]. وكأنَّه أراد: حين أَظلم الليل.

---

(١) وفي معجم البلدان ٥/ ٣٣٩: بكسر النون الثانية.

(٢) في المصنف ١٣/ ٤٩٥.

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٨٩، وزوائد الزهد ص٤٥.

وأخرج عبدُ بن حُميد وغيرُه عن قتادةَ قال: إنَّه لبث في جوفه ثلاثاً(١). وفي كتب أهلِ الكتابِ: ثلاثةَ أيامٍ وثلاثَ ليال. وعن عطاءٍ وابن جُبيرٍ: سبعةَ أيام. وعن الضحَّاك: عشرين يوماً. وعن ابن عباسٍ وابن جُريج وأبي مالكٍ والسُّدِّيِّ ومقاتلِ بن سليمانَ والكلبيِّ وعِكرمة: أربعين يوماً.

وفي «البحر»(٢) ما يدلُّ على أنَّه لم يصحَّ خبرٌ في مدَّة لَبثِهِ عليه السلام في بطنِ الحوت.

﴿وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ مما ناله. قال ابنُ عباسٍ والسُّدِّي: إنَّه عاد بدنُه كبدن الصبيِّ حين يولد. وعن ابن جُبيرٍ أنَّه عليه السلام أُلقي ولا شعرَ له ولا جلدَ ولا ظفر. ولعل ذلك يستدعي بحكم العادةِ أنَّ لمدَّة لَبثِهِ في بطن الحوت طولاً ما.

﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ﴿١٤٦﴾﴾ أي: أنبتناها مُطِلَّةً عليه مظلَّةً له كالخيمة. فـ «عليه» حالٌ من «شجرة» قدِّمت عليها لأنَّها نكرة، واليقطين يَفعيل، من قطن بالمكان: إذا أقام به. وزاد الطبرسيُّ(٣): إقامةَ زائلٍ لا إقامةَ راسخ. والمرادُ به - على ما جاء عن الحسن السِّبط، وابن عباسٍ في رواية، وابنِ مسعود، وأبي هريرة، وعَمرو بنِ ميمون، وقتادة، وعكرمة، وابنُ جُبير، ومجاهدٍ في إحدى الرِّوايتين عنهما - الدُّبَّاء، وهو القرعُ المعروف، وكان النبيُّ ﷺ يحبُّه(٤).

وأنبتها اللهُ تعالى مُطِلَّةً عليه لأنَّها تجمع خصالاً: بردَ الظلِّ والملمس، وعِظَمَ الورق، وأنَّ الذبابَ لا يقع عليها على ما قيل، وكان عليه السلام لرقَّة جلِده بمُكثه في بطن الحوتِ يؤذيه الذبابُ ومماسَّة ما فيه خشونة، ويؤلمه حرُّ الشمس، ويستطيب باردَ الظلّ، فلطف اللهُ تعالى به بذلك. وذكر أنَّ ورقَ القرعِ أنفعُ شيءٍ لمن ينسلخ جلدُه.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٨٩.
(٢) ٧/ ١٤٥.
(٣) في مجمع البيان ٢٣/ ٨٤.
(٤) أخرجه بمعناه البخاري (٢٠٩٢)، ومسلم (٢٠٤١) من حديث أنس ﷺ.

واشتهر أنَّ الشجرَ ما كان على ساقٍ من عود، فيُشكل تفسيرُ الشجرةِ هنا بالدُّبَّاء. وأجاب أبو حيَّانَ[(١)] بأنَّه يحتمل أنَّ اللهَ تعالى أنبتها على ساقٍ لتظلَّه، خرقاً للعادة. وقال الكرماني: العامَّة تخصِّص الشجرَ بما له ساق، وعند العربِ كلُّ شيءٍ له أرومةٌ تبقى فهو شجر، وغيرُه: نجم، ويشهد له قولُ أفصحِ الفصحاءِ ﷺ: «شجرة الثُّوم»[(٢)]. انتهى.

وقال بعض الأَجِلَّة: لك أن تقول: أصلُ معناه ما له أرومة، لكنَّه غلب في عرف أهلِ اللغةِ على ما له ساقٌ وأغصان، فإذا أُطلق يتبادر منه المعنى الثاني، وإذا قيِّد ـ كما هنا وفي الحديث ـ يرد على أصله، وهو الظاهر. ثم ذكر أنَّ ما قاله أبو حيَّان تمحُّلٌ في محلٍّ لا مجالَ للرأي فيه.

وأَخرج عبدُ بن حُميدٍ وابن جَريرٍ عن ابن جُبير أنَّه قال: كلُّ شجرةٍ لا ساقَ لها فهي من اليقطين. والذي يكون على وجه الأرضِ من البِطِّيخ والقِثَّاء[(٣)]. وفي روايةٍ أخرى عنه أنَّه سئل عن اليقطين: أَهو القرع؟ قال: لا، ولكنَّها شجرةٌ سمَّاها اللهُ تعالى اليقطينَ أَظلَّته.

وفي روايةٍ عن ابن عباسٍ أنَّه كلُّ شيءٍ يَنبت ثم يموتُ من عامه، وفي أخرى: كلُّ شيءٍ يذهب على وجهِ الأرض.

وقيل: شجرةُ اليقطينِ هي شجرةُ الموز، تغطَّى بورقها، واستظلَّ بأغصانها، وأَفطر على ثمارها. وقيل: شجرةُ التين. والأصحُّ ما تقدَّم.

ورُوي عن قتادةَ أنَّه عليه السلام كان يأكل من ذلك القَرع.

وجاء في روايةٍ عن أبي هريرةَ أنَّه قال: طُرح بالعراء، فأنبت اللهُ تعالى عليه يقطينة. فقيل له: ما اليقطينة؟ قال: شجرةُ الدبَّاء، هيَّأ اللهُ تعالى له أُرْوِيَّة[(٤)]

---

(١) في البحر ٧/ ٣٧٥.

(٢) أخرج البخاري (٨٥٦)، ومسلم (٥٦٢) من حديث أنس ﷺ مرفوعاً: «من أكل من هذه الشجرة فلا يقربنا».

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٩١، وتفسير الطبري ١٩/ ٦٣٣.

(٤) الأروية، بالضم والكسر: أنثى الوعول. القاموس (روي).

وحشية، تأكل من خشاش الأرضِ فتفسح[1] عليه، فترويه من لبنها كلَّ عشيةٍ وبُكرةٍ حتى نبتت. وقيل: إنَّه كان يستظلُّ بالشجرة، وتختلف إليه الأرويَّةُ فيشربُ من لبنها.

وفي بعض الآثارِ أنَّها نبتت وأظلَّته في يومها؛ أخرج أحمدُ في «الزُّهد» وغيرُه عن وهبٍ أنَّه لمَّا خرج من البحرِ نام نومة، فأنبت اللهُ تعالى عليه شجرةً من يقطين، وهي الدُّبَّاء، فأظلَّته وبلغت في يومها، فرآها قد أظلَّته، ورأى خُضرَتها فأعجبته، ثم نام نومةً فاستيقظ، فإذا هي قد يَبِست، فجعل يحزن عليها، فقيل له: أنت الذي لم تَخلُق ولم تَسْقِ ولم تُنْبِتْ تحزنُ عليها، وأنا الذي خلقتُ مئةَ ألفٍ من الناس أو يزيدون ثم رحمتهم فشقَّ عليك[2]؟!

وهؤلاء هم أهلُ نِينوى المعنيُّون بقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ والإرسالُ ـ على ما أخرج غيرُ واحدٍ عن مجاهدٍ والحسنِ وقتادة ـ هو الإرسالُ الأوَّل الذي كان قبل أن يلتقمَه الحوت، فالعطفُ على قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ﴾ إلخ [الآية: ١٣٩] على سبيل البيان؛ لدلالته على ابتداءِ الحالِ وانتهائه، وعلى ما هو المقصودُ من الإرسال من الإيمان، واعترض بينهما بقصَّته اعتناءً بها؛ لغرابتها.

وأُورد عليه أنَّه يأبى عن حَمله على الإرسال الأوَّلِ الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنُواْ﴾ فإنَّ أولئك لم يؤمنوا عقيبَ إرساله الأوَّل، بل بعدَما فارقهم.

وأُجيب بأنَّه تعقيبٌ عُرفي، نحو: تزوَّج فوُلد له. وقيل: الأقربُ أنَّ الفاءَ للتفصيل، أو السببيَّة.

وقيل: هو إرسالٌ ثانٍ إليهم بعد أن أَصابه ما أصابه، فالعطفُ على ما عنده.

وأُورد عليه أنَّ المرويَّ أنَّهم بعد مفارقتِه لهم رأَوا العذابَ أو خافوه، فآمنوا، فقولُه تعالى: «فآمنوا» في النَّظم الجليلِ هنا يأبى عن حَمله على إرسالٍ ثان.

---

(١) كذا في الأصل و(م)، وفي الدر المنثور ٥/ ٢٩١ فتفشخ، وفي تفسير الطبري ١٩/ ٦٣٥: فتفشح. وفشخت الدابة وفشحت: إذا فرَّجت بين رجليها للحَلْب. اللسان (فشح) و(فشخ).

(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٩١.

وأُجيب بأنَّه يجوز أن يكونَ الإيمانُ المقرونُ بحرف التعقيبِ إيماناً مخصوصاً، أو أنَّ «آمَنوا» بتأويل: أَخلصوا الإِيمانَ وجدَّدوه؛ لأنَّ الأوَّل كان إِيمانَ يأس[1].

وقيل: هو إرسالٌ إلى غيرهم.

وقيل: إنَّ الأوَّلين بعد أن آمَنوا سألوه أن يرجعَ إليهم، فأبى؛ لأنَّ النبيَّ إذا هاجر عن قومه، لم يرجعْ إليهم مقيماً فيهم، وقال لهم: إنَّ اللهَ تعالى باعثٌ إليكم نبيّاً.

وفي خبرٍ طويلٍ أَخرجه أحمدُ في «الزُّهد» وجماعةٌ عن ابن مسعودٍ أنَّه عليه السلام بعد أن نُبذ بالعراءِ وأَنبت اللهُ تعالى عليه الشجرةَ وحَسُنَ حالُه، خرج فإذا هو بغلامٍ يرعى غنماً، فقال: ممَّن أنت يا غلام؟ قال: من قومِ يونُس، قال: فإذا رجعتَ إليهم فأَقرئهم السلام، وأَخبرهم أنَّك لقيتَ يونس، فقال له الغلام: إنْ تكن يونسَ فقد تعلم أنَّه مَن كذب ولم يكن له بيِّنة قتل، فمَن يشهد لي؟ قال: تشهد لك هذه الشجرةُ وهذه البقعة، فقال الغلامُ ليونُس: مُرْهما، فقال لهما يونُس: إذا جاءكما هذا الغلامُ فاشهدا له، قالتا: نعم، فرجع الغلامُ إلى قومه، وكان له إخوةٌ فكان في مَنَعة، فأتى الملكَ فقال: إنِّي لقيت يونسَ وهو يقرأ عليكم السَّلام، فأَمر به الملكُ أن يُقتل، فقال: إنَّ لي بيِّنة، فأَرسل معه، فانتهَوا إلى الشَّجرة والبقعة، فقال لهما الغلام: نشدتكما بالله هل أَشهدكما يونُس، قالتا: نعم، فرجع القومُ مذعورين يقولون: تشهد لك الشجرةُ والأرض! فأَتَوا الملكَ فحدَّثوه بما رأوا، فتناول الملكُ يدَ الغلامِ فأَجلسه في مجلسه وقال: أنت أحقُّ بهذا المكانِ مني، وأَقام لهم أمرَهم ذلك الغلامُ أربعين سنة[2].

وهذا دالٌّ بظاهره أنَّه عليه السلام لم يرجعْ بعد أن أصابه ما أصابه إليهم، فإن صحَّ يراد بالإرسال هنا إمَّا الإرسالُ الأوَّل الذي تضمَّنه قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ وإمَّا إرسالٌ آخَرُ إلى غير أولئك القوم. والمعروفُ عند أهل الكتابِ

---

(١) في الأصل و(م): بأس، والمثبت من حاشية الشهاب ٧/ ٢٨٧.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٨٨.

أنَّه عليه السلام لم يرسَل إلَّا إلى أهل نِينوى، وسيأتي إن شاء الله تعالى قريباً تفصيلُ قصَّته عندهم.

و«أو» ـ على ما نُقل عن ابن عبَّاس ـ بمعنى «بل». وقيل: بمعنى الواو، وبها قرأ جعفرُ بن محمدٍ رضي الله عنهما(١). وقيل: للإبهام على المخاطَب. وقال المبرِّد وكثيرٌ من البصريِّين: للشكِّ. نظراً إلى الناظر من البشر، على معنى: مَن رآهم شكَّ في عددهم وقال: مئةُ ألفٍ أو يزيدون. والمقصودُ بيانُ كثرتهم، أو أنَّ الزيادةَ ليست كثيرةً كثرةً مفرِطة، كما يقال: هم ألفٌ وزيادة.

وقال ابنُ كمال: المراد: يزيدون باعتبارٍ آخَر؛ وذلك أنَّ المكلَّفين بالفعل منهم كانوا مئةَ ألف، وإذا ضمَّ إليهم المراهقون الذين بصددِ التكليف، كانوا أكثر، ومن هاهنا ظهر وجهُ التعبيرِ بصيغة التجدُّد دون الثَّبات.

وتعقِّب بأنَّه مع أنَّ المناسبَ له الواوُ تكلُّف ركيك. وأقربُ منه أنَّ الزيادةَ بحسب الإرسال الثاني، ويناسبه صيغةُ التجدُّد وإنْ كانت للفاصلة، وهو معطوفٌ على جملة «أرسلنا» بتقدير: هم يزيدون، لا على «مئة» بتقدير: أشخاص يزيدون، أو تجريده للمصدرية؛ فإنَّه ضعيف.

والزيادةُ ـ على ما رُوي عن ابنِ عباس ـ ثلاثون ألفاً. وفي أخرى عنه: بضعةٌ وثلاثون ألفاً. وفي أخرى: بضعةٌ وأبعون ألفاً. وعن نوفٍ وابن جُبير: سبعون ألفاً.

وأخرج الترمذيُّ وابن جَرير وابنُ المنذر وابنُ أبي حاتمٍ وابنُ مردويه عن أُبيِّ بن كعبٍ قال: سألتُ رسولَ اللهِ ﷺ عن قول اللهِ تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال: يزيدون عشرين ألفاً(٢). وإذا صحَّ هذا الخبرُ بطل ما سواه(٣).

﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾ بالحياة ﴿إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ إلى آجالهم المسمَّاة في الأزل. قاله قتادةُ والسُّدِّي. وزعم بعضُهم أنَّ تمتيعَهم بالحياة إلى زمان المهديّ، وهم إذا ظهر من

---

(١) المحتسب ٢/٢٢٦، والبحر ٧/٣٧٦.

(٢) الدر المنثور ٥/٢٩١، وجامع الترمذي (٣٢٢٩)، وتفسير ابن جرير ١٩/٦٣٧.

(٣) ولم يصح، ففي إسناده راوٍ مبهم.

أَنصاره، فهم اليومَ أحياءٌ في الجبال والقفارِ لا يراهم كلُّ أحد، كالمهديِّ عند الإِمامية، والخَضرِ عند بعض العلماءِ والصوفية، وربمَّا يُكشف لبعض الناسِ فيرى أحداً منهم. وهو كذبٌ مفترًى.

ولعل عدمَ ختمِ هذه القصَّة والقصةِ التي قبلَها بنحو ما خُتم به سائرُ القصصِ من قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ * سَلَٰمٌ﴾ إلخ: تفرقةٌ بين شأن لوطٍ ويونسَ عليهما السلام وشأنِ أصحابِ الشرائع الكُبَر وأُولي العزمِ من المرسلين، مع الاكتفاءِ فيهما بالتسليم الشاملِ لكلِّ الرسلِ المذكورِ في آخر السورة، ولتأخُّرهما في الذِّكر قرباً منه، واللهُ تعالى أعلم.

والمذكورُ في شأن يونسَ عليه السلام في كتب أهلِ الكتابِ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أمره بالذَّهاب إلى دعوة أهلِ نينوى، وكانت إذ ذاك عظيمةً جدّاً، لا تُقطع إلَّا في نحو ثلاثةِ أيام، وكانوا قد عظم شرُّهم وكثر فسادُهم، فاستعظم الأمرَ وهرب إلى ترسيس، فجاء يافا، فوجد سفينةً يريد أهلُها الذهابَ بها إلى ترسيس، فاستأجر وأَعطى الأجرةَ وركب السفينة، فهاجت ريحٌ عظيمةٌ وكثرت الأَمواج، وأَشرفت السفينةُ على الغرق، ففزع الملَّاحون ورمَوا في البحر بعضَ الأمتعةِ لتخفَّ السفينة، وعند ذلك نزل يونسُ إلى بطن السفينة، ونام حتى علا نَفَسُه، فتقدَّم إليه الرئيسُ فقال له: ما بالُك نائماً؟ قُمْ وادعُ إلٰهَك لعله يخلِّصنا ممَّا نحن فيه ولا يُهلكنا. وقال بعضُهم لبعض: تعالَوا نتقارعْ لنعرفَ مَن أصابنا هذا الشرُّ بسببه، فتقارعوا، فوقعت القرعةُ على يونُس، فقالوا له: أَخبِرنا ماذا عملت، ومن أين أتيت، وإلى أين تمضي، ومن أيِّ كُورةٍ أنت، ومن أيِّ شعبٍ أنت؟ فقال لهم: أنا عبدُ الربِّ إلٰهِ السماءِ خالقِ البرِّ والبحر. وأخبرهم خبرَه، فخافوا خوفاً عظيماً، وقالوا له: لَمَ صنعتَ ما صنعت؟ يلومونه على ذلك. ثم قالوا له: ما نصنع الآن بك ليسكُنَ البحرُ عنا؟ فقال: أَلقُوني في البحر يسكن، فإنَّه من أجلي صار هذا الموجُ العظيم، فجهد الرجالُ أن يردُّوها إلى البرِّ فلم يستطيعوا، فأَخذوا يونسَ وألقوه في البحر لنجاة جميع مَن في السفينة، فسكن البحر، وأمر اللهُ تعالى حوتاً عظيماً فابتلعه، فبقي في بطنه ثلاثةَ أيامٍ وثلاثَ ليال، وصلَّى في بطنه إلى ربِّه واستغاث به، فأمر سبحانه

الحوتَ فألقاه إلى اليبس، ثم قال عزَّ وجلَّ له: قم وامضِ إلى نِينوى، ونادِ في أهلها كما أمرتُك من قبل، فمضى عليه السلامُ ونادى، وقال: تُخسف نِينوى بعد ثلاثةِ أيام، فآمنت رجالُ نينوى بالله تعالى ونادَوا بالصِّيام ولبسوا المسوحَ جميعاً، ووصل الخبرُ إلى الملك، فقام عن كرسيِّه ونزع حلَّته ولبس مِسْحاً وجلس على الرَّماد، ونودي أن لا يذقْ أحدٌ من الناس والبهائمِ طعاماً ولا شراباً، وجأروا إلى الله تعالى، ورجعوا عن الشرِّ والظلم، فرحمهم اللهُ تعالى فلم يُنزل بهم العذاب، فحزن يونسُ، وقال: إلهي من هذا هربت، فإني علمت أنَّك الرحيمُ الرؤوفُ الصبورُ التوَّاب، يا ربِّ خذ نفسي، فالموتُ خيرٌ لي من الحياة، فقال: يا يونس، حزنتَ من هذا جدّاً؟ فقال: نعم يا ربِّ، وخرج يونسُ وجلس مقابلَ المدينة، وصنع له هناك مِظلَّةً وجلس تحتها إلى أن يرى ما يكونُ في المدينة، فأمر اللهُ تعالى يقطيناً فصَعِدَ على رأسه ليكون ظلًّا له من كَربه، ففرح باليقطين فرحاً عظيماً، وأمر اللهُ تعالى دودةً فضربت اليقطينَ فجفّ، ثم هبَّت ريحٌ سَمومٌ وأشرقت الشمسُ على رأس يونسَ عليه السلام، فعظم الأمرُ عليه واستطيب الموت، فقال له الربّ: يا يونُس، أحزنتَ جدّاً على اليقطين؟ فقال: نعم يا ربّ، حزنتُ جدّاً، فقال سبحانه: حزنتَ عليه وأنت لم تتعب فيه ولم تربِّه، بل صار من ليلته وهلك من ليلته، فأنا لا أُشفق على نِينوى المدينةِ العظيمةِ التي فيها سكانٌ أكثرُ من اثني عشرَ ربوةً من الناس، قوم لا يعلمون يمينَهم ولا شِمالَهم، وبهائمُهم كثيرة. انتهى.

وفيه من المخالفة للحقِّ ما فيه، ولتطَّلعَ على حاله نقلتُه لك، وكم لأهل الكتابِ من باطل.

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ أمر اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ في صدر السورةِ الكريمةِ بتبكيت قريشٍ وإبطالِ مذهبِهم في إنكار البعثِ بطريق الاستفتاء، وساق البراهينَ الناطقةَ بتحقُّقه لا محالة، وبيَّن وقوعَه وما يلقَونه عند ذلك من فنونِ العذاب، واستثنَى منهم عبادَه المخلَصين، وفصَّل سبحانه ما لهم من النَّعيم المقيم، ثم ذكر سبحانه أنَّه قد ضلَّ من قبلهم أكثرُ الأوَّلين، وأنَّه تعالى أرسل إليهم منذِرين على وجه الإِجمال، ثم أورد قصصَ بعضِ الأنبياءِ عليهم السلام بنوعِ تفصيل،

متضمِّناً كلٌّ منها ما يدلُّ على فضلهم وعبوديتِهم له عزَّ وجلّ، ثم أمره ﷺ هاهنا بتبكيتهم بطريق الاستفتاءِ عن وجه ما تُنكره العقولُ بالكلِّية، وهي القسمةُ الباطلةُ اللازمةُ لما كانوا عليه من الاعتقاد الزَّائغ، حيث كانوا يقولون ـ كبعض أجناسِ العرب: جهينةَ وسليم وخزاعةَ وبني مُلَيح ـ: الملائكةُ بناتُ الله، سبحانه وتعالى عمَّا يقولون علوّاً كبيراً. ثم بتبكيتهم بما يتضمَّنه كفرُهم المذكورُ من الاستهانةِ بالملائكة عليهم السلام بجعلهم إناثاً.

ثم أَبطل سبحانه أصلَ كفرِهم المنطوي على هذين الكفرَين، وهو نسبةُ الولدِ إليه، سبحانه وتعالى عن ذلك علوّاً كبيراً، ولم ينظمْه سبحانه في سِلك التبكيت؛ لمشاركتهم اليهودَ القائلين: عُزيرٌ ابنُ الله، والنصارى المعتقدين عيسى ابنَ الله، تعالى اللهُ عن ذلك.

والفاء، قيل: لترتيب الأمرِ على ما يُعلم ممَّا سبق من كون أولئك الرُّسلِ أعلامِ الخلقِ عليهم السلام عبادَه تعالى؛ فإنَّ ذلك مما يؤكِّد التبكيتَ ويُظهر بطلانَ مذهبِهم الفاسد، فكأنَّه قيل: إذا كان رسلُ ربِّك مَن علمتَ حالَهم، فاستخبِرْ هؤلاء الكفرةَ عن وجه كونِ البنات ـ وهنَّ أوضعُ الجنسَين ـ له تعالى بزعمهم، والبنينَ الذين هم أَرفعُهما لهم، فإنَّهم لا يستطيعون أن يُثبتوا له وجهاً؛ لأنَّه في غاية البطلانِ لا يقوله مَن له أدنى شيءٍ من العقل.

وقال بعضُ الأجِلَّة: الكلامُ متَّصل بقوله تعالى في أوَّل السورة: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ [الآية: ١١] على أنَّ الفاءَ هنا للعطف على ذاك والتعقيب؛ لأنَّه أمر بهما من غير تراخٍ، وهي هناك جزائيةٌ في جواب شرطٍ مقدَّر. وبهذا القولِ أَقول.

وأَورد عليه أبو حيَّانَ[1] أنَّ فيه الفصلَ الطويل، وقد استقبح النُّحاة الفصلَ بجملة، نحو: أكلت لحماً واضرب زيداً وخبزاً، فما ظنُّك بالفصل بجُمَل، بل بما يَقرب من سورة.

وأُجيب بأنَّ ما ذكر في عطف المفردات، وأمَّا الجمل، فلاستقلالها يُغتفر فيها

(١) في البحر ٧/ ٣٧٦.

ذلك، والكلامُ هنا لمَّا تعانقت معانيه، وارتبطت مبانيه، وأخذ بعضُها بحُجَز بعضٍ حتى كأنَّ الجميعَ كلمةٌ واحدة، لم يُعدَّ البعدُ بعداً، كما قيل:

وليس يضير البعدُ بين جسومِنا إذا كان ما بين القلوبِ قريبا[1]

ووجهُ ترتُّب المعطوفِ على ما قبلُ كوجه ترتُّبِ المعطوفِ عليه، فإنَّ كونَه تعالى ربَّ السماواتِ والأرضِ وتلك الخلائقِ العظيمةِ كما دلَّ على وحدته تعالى وقدرتِه عزَّ وجلَّ دالٌّ على تنزُّهه سبحانه عن الولد، ألا ترى إلى قوله جلَّ شأنُه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ [الأنعام: ١٠١].

والمناسبةُ بين الردِّ على منكري البعثِ والردِّ على مثبتي الولدِ ظاهرة، وقد اتَّحد في الجملتين السائلُ والمسؤولُ والآمر.

وجوَّز بعضُهم كونَ ضميرِ «استفتهم» للمذكورين من الرُّسل عليهم السلام والبواقي لقريش، والمرادُ الاستفتاءُ ممَّن يعلم أخبارَهم ممن يوثق بهم ومن كتبهم وصحفِهم، أي: ما منهم أحدٌ إلَّا وينزِّه الله تعالى عن أمثالِ ذلك، حتى يونسُ عليه السلام في بطنِ الحوت.

ولَعمري إنَّ الرجلَ قد بلغ الغايةَ من التكلُّف من غير احتياجٍ إليه، ولعله لو استغنَى عن ارتكاب التجوُّز بالتزام كونِ الاستفتاءِ من المرسَلين المذكورين، حيث يجتمع رسولُ اللهِ ﷺ معهم اجتماعاً روحانياً كما يدَّعيه لنفسه الشيخُ محيي الدِّين قدِّس سرُّه مع غير واحدٍ من الأنبياءِ عليهم السلام، ويدَّعي أنَّ الأمرَ بالسؤال المستدعي للاجتماع أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥] على هذا النَّمط = لَكان الأمرُ أهون، وإنْ كان ذلك منزعاً صوفيّاً.

وأُضيف الربُّ إلى ضميرهِ عليه الصلاة والسلام دون ضميرِهم؛ تشريفاً لنبيِّه ﷺ، وإشارةً إلى أنَّهم في قولهم بالبنات له عزَّ وجلَّ كالنافين لربوبيَّته سبحانه لهم.

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٢٨٧.

وقولُه سبحانه: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا﴾ إضرابٌ وانتقالٌ من التبكيت بالاستفتاءِ السابق إلى التبكيتِ بهذا، أي: بل أَخلقنا الملائكةَ الذين هم من أشرف الخلائقِ وأقواهم وأعظمِهم تقدُّساً عن النقائص الطبيعيةِ إناثاً، والأنوثةُ من أخسّ صفاتِ الحَيَوان؟!

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ استهزاءٌ بهم وتجهيلٌ لهم، كقوله تعالى: ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف:١٩] فإنَّ أمثالَ هذه الأمورِ لا تُعلم إلَّا بالمشاهدة؛ إذ لا سبيلَ إلى معرفتها بطريقِ العقل، وانتفاءُ النقلِ مما لا ريبَ فيه، فلا بدَّ أن يكونَ القائلُ بأنوثتهم شاهداً عند خلقِهم. والجملةُ إمَّا حالٌ من فاعل «خلقنا»، أي: بل أَخلقناهم إناثاً والحالُ أنَّهم حاضرون حينئذ، أو عطفٌ على «خلقنا»، أي: بل أهم شاهدون؟

وقوله تعالى ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ استئنافٌ من جهته تعالى غيرُ داخلٍ تحت الاستفتاء، مسوقٌ لإبطال أصلِ مذهبِهم الفاسد، ببيان أنَّ مبناه ليس إلَّا الإفكَ الصَّريح، والافتراءَ القبيح، من غير أن يكونَ لهم دليلٌ أو شبهة. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ فيما يتديَّنون به مطلقاً، أو في هذا القول. وفيه تأكيدٌ لقوله تعالى: «من إفكهم».

وقُرِئ: «ولدُ اللهِ»(١) بالإضافة ورفعِ «ولد» على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: لَيقولون: الملائكةُ ولدُ الله. والولدُ فَعَلٌ بمعنى مفعول، يقع على المذكَّر والمؤنَّث، والواحدِ والجمع؛ ولذا وقع هنا خبراً عن الملائكة المقدَّر.

﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ بهمزةٍ مفتوحة، هي حرفُ استفهامٍ حُذفت بعدها همزةُ الوصل، والاستفهامُ للإنكار، والمرادُ إثبات إفكِهم وتقريرُ كذبهم. والاصطفاءُ أخذ صفوةِ الشيءِ لنفسه.

وقرأ نافعٌ في رواية إسماعيل، وابنُ جماز، وجماعة، وإسماعيلُ بن أبي جعفر، وشيبة: «اِصطفى» بكسر الهمزة(٢)، وهي همزةُ الوصل، وتُكسر إذا ابتُدِئَ بها.

---

(١) البحر ٧/ ٣٧٦.

(٢) البحر ٧/ ٣٧٧، وانظر لقراءة نافع وأبي جعفر النشر ٢/ ٣٦٠.

وخرِّجت على حذف أداةِ الاستفهامِ لدلالة «أم» بعدُ وإن كانت منقطعةً غيرَ معادلةٍ لها؛ لكثرة استعمالِها معها. وجوِّز إبقاءُ الكلامِ على الإخبار، إمَّا على إضمار القول، أي: لَكاذبون في قولهم: اصطفى.. إلخ، أو: يقولون: اصطفى.. إلخ على ما قيل، أو على الإبدال من قولهم: ولد الله، أو الملائكةُ ولدُ الله، وليس دخيلاً بين نسيبين. والأولى التخريجُ على حذف الأداةِ وحسمِ البحث، فتأمَّل.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ بهذا الحكمِ الذي تقضي ببطلانه بداهةُ العقول. والالتفاتُ لزيادة التوبيخ.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ بحذف أحد التاءين من: تتذكَّرون. وقرأ طلحةُ بن مصرِّف: «تذْكُرون» بسكون الذالِ وضمِّ الكافِ من ذَكَرَ[١]. والفاءُ للعطف على مقدَّر، أي: تلاحظون ذلك فلا تتذكَّرون بطلانَه، فإنَّه مركوزٌ في عقل كلِّ ذكيٍّ وغبي؟

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ إضرابٌ وانتقالٌ من توبيخهم وتبكيتِهم بما ذُكر [إلى تبكيتهم][٢] بتكليفهم ما لا يدخل تحت الوجودِ أصلاً، أي: بل ألكم حجَّة واضحةٌ نزلت من السماءِ بأنَّ الملائكةَ بناتُه تعالى؟ ضرورةَ أنَّ الحكمَ بذلك لابدَّ له من سندٍ حسيٍّ أو عقلي، وحيث انتفى كِلاهما فلابدَّ من سندٍ نقلي.

﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ الناطقِ بصحة دعواكم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ فيها. والأمرُ للتعجيز، وإضافة الكتابِ إليهم للتهكُّم.

وفي الآيات من الإنباء عن السخط العظيمِ والإنكار الفظيعِ لأقاويلهم، والاستبعادِ الشديدِ لأباطيلهم، وتسفيهِ أحلامهم، وتركيكِ عقولهم وأفهامِهم، مع استهزاءٍ بهم وتعجيبٍ من جهلهم، ما لا يخفَى على مَن تأمَّل فيها.

وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ التفاتٌ إلى الغَيبة؛ للإيذان بانقطاعهم عن الجواب، وسقوطِهم عن درجةِ الخطاب، واقتضاءِ حالهم أن يُعرَضَ عنهم، وتُحكَى لآخرين جناياتُهم.

(١) المحرر الوجيز ٤/٤٨٨.
(٢) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٧/٢٠٨، والكلام منه.

واستُظهر أنَّ المرادَ بالجِنَّة الشياطين، وأُريد بالنَّسب المجعولِ المصاهرة. أَخرج آدمُ بن أبي إياس وعبدُ بن حُميد وابن جَريرٍ وغيرُهم عن مجاهدٍ قال: قال كفَّارُ قريش: الملائكةُ بناتُ الله تعالى، فقال لهم أبو بكرٍ الصِّدِّيق ﷺ ـ أي: على سبيل التبكيت ـ: فمَن أمهاتُهم؟ فقالوا: بناتُ سَرَواتِ الجنّ[1]. وروى هذا ابن أبي حاتمٍ عن عطية[2].

أو أُريد: جعلوا بينه سبحانه وبينَهم مناسبة، حيث أَشركوهم به تعالى في استحقاقِ العبادة. ورُوي هذا عن الحسن.

وقيل: إنَّ قوماً من الزَّنادقة يقولون: اللهُ عزَّ وجلَّ وإبليسُ عليه اللعنةُ أَخوان، فاللهُ تعالى هو الخيِّر الكريم، وإبليسُ هو الشِّرير اللئيم، وهو المرادُ بقوله سبحانه: «وجعلوا. .» إلخ. وحكى هذا الطبرسيُّ عن الكلبيّ[3]. وقال الإمام الرازي: وهذا القولُ عندي أقربُ الأقاويل، وهو مذهبُ المجوسِ القائلين بيزدان وأَهرمن، ويعبِّرون عنهما بالنُّور والظلمة[4]. ويُبعد هذا القولَ عندي أنَّ الظاهرَ أنَّ ضمير «جعلوا» كالضمائر السابقةِ لقريش، ولم يشتهرْ ذلك عنهم، بل ولا عن قبيلةٍ من قبائلِ العرب، وليس المقامُ للردِّ على الكفرة مطلقاً.

وأخرج غيرُ واحدٍ عن مجاهد، وعبدُ بن حُميد عن عكرمة، وابنُ أبي شيبةَ عن أبي صالحٍ أنَّ المرادَ بالجِنَّة الملائكة[5]. وحكاه في «مجمع البيان»[6] عن قتادة، واختاره الجبَّائي. والمرادُ بالجعل المذكور ما تضمَّنه قولُهم: الملائكةُ بناتُ الله، وأُعيد تمهيداً لما يعقُبه، وهو مبنيٌّ على أنَّ الجِنَّ والمَلَكَ جنسٌ واحد، مخلوقون من عنصرٍ واحدٍ وهو النار، لكن مَن كان مِن كثيفها الدخانيِّ فهو شيطان، وهو شرٌّ

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٩٢، وتفسير الطبري ١٩/ ٦٤٥، وأخرجه أيضاً البيهقي في الشعب (١٤١).

(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٩٢.

(٣) مجمع البيان ٢٣/ ٨٨.

(٤) التفسير الكبير ٢٦/ ١٦٩.

(٥) الدر المنثور ٥/ ٢٩٢.

(٦) ٢٣/ ٨٨.

وتمرُّد، ومَن كان من صافي نورِها فهو مَلَك، وهو خيرٌ كلُّه. ووجهُ التسميةِ بالجنِّ الاستتارُ عن عيوننا، فالجنُّ والجِنَّةُ بمعنى مفعول، من: جَنَّهُ: إذا ستره، ويكون على هذا تخصيصُ الجنِّ بأحد نوعَيه تخصيصاً طارئاً كتخصيص الدابَّة، وعلى الأصلِ جاء ما هنا.

ونُقل عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنَّ نوعاً من الملائكة عليهم السلام يسمَّى الجِنّ، ومنهم إبليس، وعبَّر عن الملائكة بالجِنَّة حطّاً لهم ـ مع عِظَم شأنهم في أنفسهم ـ أن يبلغوا منزلَة المناسبةِ التي أضافوها إليهم في قولهم ذلك.

وقد يقال: إنَّ الاستتارَ كالداعي لهم إلى ذلك الزعمِ الباطل، بناءً على توهُّمهم بأنَّه إنمَّا يَليق بالإناث، فقالوا: لو لم يكونوا بناتِه سبحانه وتعالى، لَمَا سترهم عن العيون؛ فلذا عبَّر عنهم بـ : «الجِنَّة».

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ أي: واللهِ لقد عَلِمت الشياطين ـ أي: جِنسهم ـ أنَّ اللهَ تعالى يُحضرهم ولا بدَّ النارَ ويعذِّبهم بها، ولو كانوا مناسبين له تعالى أو شركاءَ في استحقاق العبادةِ أو التصرُّف، لَمَا عذَّبهم سبحانه، فضميرُ «إنهم» للجِنَّة، على ما عدا الوجهَ الأخيرَ من الأوجهِ السابقة، وأمَّا عليه فهو للكَفَرة، أي: واللهِ لقد عَلِمت الملائكةُ الذين جعلوا بينه تعالى وبينهم نسباً وقالوا: هم بناتُه، أنَّ الكفرةَ لَمحضرون النارَ معذَّبون بها؛ لِكذبهم وافترائهم في قولهم ذلك. والمرادُ به المبالغةُ في التكذيب، ببيان أنَّ الذين يدَّعي لهم هؤلاء تلك النسبةَ ويعلمون أنَّهم أعلمُ منهم بحقيقة الحالِ يكذِّبونهم في ذلك ويحكمون بأنَّهم معذَّبون لأجله حكماً مؤكَّداً.

ويجوز على الأوجه الأُوَل عودُ الضميرِ على الكَفَرة أيضاً، والمعنى على نحو ما ذُكر، وعلمُ الملائكةِ أنَّ الكفرةَ معذَّبون ظاهر، وعلم الشياطين بأنهم أنفسُهم ـ وكذا سائرُ الكفرة ـ معذَّبون؛ لِمَا أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ توعَّد إبليسَ عليه اللعنةُ بما يدلُّ على ذلك.

وقولُه سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ على جميع الأوجهِ السابقةِ تنزيهٌ من جهته تعالى لنفسه عن الوصفِ الذي لا يَليق به.

وقولُه تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ استثناءٌ منقطعٌ من «المحضَرين» وما بينهما اعتراض، أي: ولكنِ المخلَصون ناجُون.

وجوِّز كونُه استثناءً متصلاً منه، ويفسَّر ضمير «أنهم» بما يعمّ، وهو خلافُ الظاهر.

وجوِّز كونُه استثناءً منقطعاً من ضمير «يصفون» وكونُه استثناءً متصلاً منه. وهو خلافُ الظاهرِ أيضاً.

وجوِّز كونُه استثناءً من ضمير «جعلوا» على الانقطاعِ لا غير، وما في البينِ اعتراض.

واختار الواحديُّ الوجهَ الأول[1]. قال الطِّيبي: ويَحسن كلَّ الحسنِ إذا فسَّر الجِنَّةَ بالشياطين. أي: وضميرُ «أنهم» بالكفرة؛ ليرجعَ معناه إلى قوله تعالى حكايةً عن اللعين: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢-٨٣] أي: إنَّهم لمُحضَرون النارَ ومعذَّبون حيث أطاعونا في إغوائنا إياهم، لكن الذين أَخلصوا الطاعةَ لله تعالى وطهَّروا قلوبَهم من أرجاس الشركِ وأنجاسِ الكفرِ والرذائلِ ما عَمِلَ فيهم كيدُنا، فلا يُحضَرون، ويكون ذلك مدحاً للمخلَصين، وتعريضاً بالمشركين وإرغاماً لأنوفهم، ومزيداً لغيظهم، أي: إنَّهم بخلاف ما هم عليه من سفه الأَحلامِ وجهلِ النفوسِ وركاكةِ العقول. اهـ. وفي بيان المعنى نوعُ قصور.

وقولُه تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ عودٌ إلى خطابهم. والفاءُ في جواب شرطٍ مقدَّر، أي: إذا عَلِمتم هذا، أو إذا كان المخلَصون ناجين فإنَّكم.. إلخ. والواوُ للعطف، و«ما تعبدون» معطوفٌ على الضمير في «إنكم» وضميرُ «عليه» لله عزَّ وجلَّ، والجارُّ متعلِّق «بفاتنين»، وعُدِّي بـ «على» لتضمُّنه معنى الاستيلاء، وهو استعارة، من قولهم: فتن غلامَه أو امرأتَه عليه: إذا أفسده، والباءُ زائدة، وهو خبر «ما» والجملةُ خبرُ «إنَّ»، والاستثناءُ مفرَّغ من مفعول فاتنين المقدَّر، و«أنتم» خطابٌ للكفرة ومعبوديهم على

(١) الوسيط ٣/ ٥٣٤.

سبيل التغليب، نحو: أنت وزيدٌ تخرجان، أي: ما أنتم ومعبودوكم مفسدين أحداً على الله عزَّ وجلَّ بإغوائكم إلَّا مَن سبق في علم اللهِ تعالى أنَّه من أهل النارِ يصلاها ويدخلها لا محالة.

وجوِّز كونُ الواوِ هنا مثلَها في قولهم: كلُّ رجلٍ وضيعتُه، فجملة «ما أنتم عليه..» إلخ مستقلَّة ليست خبراً لـ «إنَّ»، وضميرُ «عليه» لـ «ما» بتقدير مضاف، وهو متعلِّق «بفاتنين» أيضاً، بتضمينه معنى البعثِ أو الحمل، ولا تغليبَ في الخطاب، كأنَّه قيل: إنَّكم وآلهتَكم قرناءُ لا تبرحون تعبدونها، ثم قيل: ما أنتم على عبادةِ ما تعبدون بباعثين أو حاملين على طريق الفتنةِ والإضلال أحداً، إلَّا مَن سبق في علمه تعالى أنَّه من أهلِ النار.

وظاهرُ صنيعِ بعضِهم أنَّ أمرَ التغليبِ في «أنتم» على هذا على حالِه، وأنت تعلم أنَّ الظاهرَ الاتصال.

وجوِّز أن يرادَ معنى المعيَّة، وخبرُ «إنَّ» جملةُ «ما أنتم عليه» إلخ، ويكون الكلامُ على أسلوب قولِ الوليدِ بن عقبةَ بن أبي مُعَيط ـ عامله اللهُ تعالى بما هو أهلُه ـ يحضُّ معاويةَ على حرب الأميرِ عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه:

فإنَّك والكتابَ إلى عليٍّ كدابغةٍ وقد حَلِمَ الأديمُ[(١)]

قال في «الكشف»: ومعنى الآية ـ أي: عليه ـ: إنَّكم يا كفرةُ مع معبوديكم لا يتسهَّل لكم إلَّا أن تَفتنوا مَن هو ضالٌّ مثلكم. وهو بيانٌ لخلاصة المعنى.

واستظهر أبو حيانَ[(٢)] العطفَ وكونَ الضميرِ للعبادة، وتضمينَ «فاتنين» معنى الحمل، وتغليبَ المخاطَبِ على الغائب في «أنتم»، وكونَ الجملةِ المنفيةِ خبرَ «إنَّ». وحكي عن بعضهم القول بأنَّ «على» بمعنى الباء، والضميرَ المجرورَ به لـ «ما تعبدون»، فتأمَّل.

(١) مجمع الأمثال ٢/ ١٥٠، واللسان (حلم) وقوله: حلم الأديم، أي: أصابته الحَلَمَة، وهي دودة تقع في الجلد فتأكله، فإذا دبغ تَخرَّقَ وتَشقَّقَ.
(٢) في البحر ٧/ ٣٧٨.

وقرأ الحسنُ وابنُ أبي عبلة: «صالو الجحيم» بالواو على ما في كتاب «الكامل» للهُذلي[(١)]. وفي كتاب ابنِ خالويه[(٢)] عنهما: «صالُ» بالضمِّ ولا واو. وفي «اللَّوامح» و«الكشَّاف»[(٣)] عن الحسن: «صالُ[(٤)] الجحيم» بضمِّ اللام. فعلى إثبات الواوِ هو جمعُ سلامةٍ سقطت النونُ للإضافة، وفي الكلام مراعاةُ لفظِ «مَن» أوَّلاً، ومعناها ثانياً، كما في قولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

وعلى عدم إثباتها فيه ثلاثةُ أَوجه:

الأوَّل: أن يكونَ جمعاً حُذفت النونُ منه للإضافة، ثم واوُ الجمعِ لالتقاءِ الساكنين، وأُتبع الخطُّ اللفظ.

الثاني: أن يكونَ مفرداً حُذفت لامُه ـ وهي الياء ـ تخفيفاً وجُعلت كالمنسي، وجرى الإعرابُ على عينِه كما جرى على عين: يد ودم، وعلى ذلك قولُه تعالى: «وجنى الجنتين دانٌ» [الرحمن: ٥٤] وقولُه سبحانه: «وله الجوارُ المنشآت» [الرحمن: ٢٤] بضمِّ نون «دان» وراءِ «الجوار»[(٥)]، وقولُهم: ما باليْتُ به بالة، فإنَّ أصلَ بالة باليَة، بوزن عافية، حُذفت لامُه فأُجري الإعرابُ على عينه، ولمَّا لحقته الهاءُ انتقل اليها.

الثالث: أن يكونَ مفرداً أيضاً، ويكون أصلُه: صايل، على القلب المكانيّ، بتقديم اللامِ على العين، ثم حُذفت اللامُ المقدَّمة، وهي الياء، فبقي صال بوزن فاع، وصار مُعرَباً كباب، ونظيرُه: شاكٍ، الجاري إعرابُه على الكاف في لغة.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ حكايةٌ لاعتراف الملائكةِ

---

(١) البحر ٧/ ٣٧٩.
(٢) القراءات الشاذة ص١٢٨، ونسبها ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٢٨ للحسن فقط.
(٣) ٣/ ٣٥٦، والكلام من البحر ٧/ ٣٧٩.
(٤) في (م): صالوا، وهو خطأ.
(٥) البحر ٧/ ٣٧٩، وقراءة ضم الراء في «الجوار» وردت عن الحسن كما في القراءات الشاذة ص ١٤٩.

بالعبودية؛ للردِّ على مَن يزعم فيهم خلافَها، فهو من كلامه تعالى، لكنَّه حُكي بلفظهم، وأصلُه: وما منهم إلَّا.. إلخ، أي: وما منا إلَّا له مقامٌ معلومٌ في العبادة والانتهاءِ إلى أمر اللهِ تعالى في تدبيرِ العالَم، مقصورٌ عليه لا يتجاوزه، ولا يستطيع أن يزلَّ عنه؛ خضوعاً لعظمته تعالى، وخشوعاً لهيبته سبحانه، وتواضعاً لجلاله جلَّ شأنُه، كما رُوي: فمنهم راكعٌ لا يُقيم صلبَه، وساجدٌ لا يرفع رأسَه.

وقد أخرج الترمذيُّ وحسَّنه، وابنُ ماجه، وابنُ مردويه عن أبي ذرٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترَون وأسمعُ ما لا تسمعون، إنَّ السماءَ أَطَّت، وحقَّ لها أن تئطّ، ما فيها موضعُ أربعِ أصابعَ إلَّا وفيه مَلَكٌ واضعاً جبهتَه ساجداً لله»(١).

وأخرج ابن جَرير، وابنُ أبي حاتم، وأبو الشَّيخ، ومحمدُ بن نَصرٍ المروزيُّ في كتاب «الصلاة» عن عائشةَ قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «ما في السماءِ موضعُ قدمٍ إلَّا عليه مَلَكٌ ساجدٌ أو قائم» وذلك قولُ الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾(٢).

وعن السُّدِّيّ: «إلا له مقام معلوم» في القُرب والمشاهدة.

وجَعَل بعضُهم(٣) ذلك من كلام الجِنَّة بمعنى الملائكةِ متَّصلاً بما قبلَه من كلامهم، وهو من قولِه تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ إلى ﴿ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ فقال بعد أن فسَّر الجِنةَ بالملائكة: إنَّ «سبحان الله عمَّا يَصِفون» حكايةٌ لتنزيه الملائكةِ إيَّاه تعالى عمَّا وصفه المشركون به بعد تكذيبِهم لهم في ذلك، بتقدير قولٍ معطوفٍ على «عَلِمَتْ»، و«إلَّا عبادَ الله المُخلَصين» شهادةٌ منهم ببراءة المخلَصين من أنْ يَصِفوه تعالى بذلك، متضمِّنةٌ لتبرئتهم منه بحكم اندراجِهم في زمرة المخلَصين على أبلغِ وجهٍ وآكدِه، على أنَّه استثناءٌ منقطعٌ من واو «يصفون»، كأنَّه

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٩٣، وجامع الترمذي (٢٣١٢)، وسنن ابن ماجه (٤١٩٠).
(٢) تعظيم قدر الصلاة للمرزوي (٢٥٣)، وتفسير الطبري ١٩/ ٦٥١، والعظمة (٥١٠).
(٣) هو أبو السعود في تفسيره ٧/ ٢٠٩-٢١٠.

قيل: ولَقَد عَلِمت الملائكةُ إنَّ المشركين لَمعذَّبون لقولهم ذلك، وقالوا: سبحانَ اللهِ عمَّا يصفون، لكنَّ عبادَ اللهِ الذين نحن من جملتهم براءٌ من ذلك الوصف. و«فإنكم» إلخ تعليلٌ وتحقيقٌ لبراءة المخلَصين عمَّا ذكر، ببيان عجزِهم عن إغوائهم وإضلالِهم. والالتفاتُ إلى الخطاب لإظهار كمالِ الاعتناءِ بتحقيق مضمونِ الكلام، و«ما تعبدون» الشياطينُ الذين أغوَوهم، وفيه إيذانٌ بتبرِّيهم عنهم وعن عبادتِهم، كقولهم: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ [سبأ: ٤١]. وقولُهم: «وما منَّا إلا له مقام..» إلخ تبيينٌ لجليَّة أمرِهم، وتعيينٌ لحيِّزهم في موقف العبوديةِ بعد ما ذُكر من تكذيب الكفرةِ فيما قالوا، وتنزيهِ اللهِ تعالى عن ذلك، وتبرئةِ المخلَصين عنه، وإظهارٌ لقصور شأنِهم. وجَعَل تفسير الجِنَّة بالملائكة هو الوجهَ لاقتضاءِ ربطِ الآياتِ وتوجيهها بما ذكر إياه.

وفي التعليل شيء، نعم إنَّ هذه الآيةَ تقوِّي قولَ مَن يقول: المرادُ بالجِنَّة فيما سبق الملائكةُ عليهم السلام تقويةً ظاهرةً جداً، وأنَّ الربطَ الذي ذكر في غاية الحُسن.

وقيل: هو من قول الرسولِ عليه الصلاة والسلام، أي: وما من المسلمين إلَّا له مقامٌ معلومٌ على قَدْرِ أعمالِه يومَ القيامة، وهو متصلٌ بقوله: «فاستفتهم»، كأنَّه قيل: فاستفتهم وقل: وما منَّا.. إلخ، على معنى: بكِّتهم بذلك وانعَ عليهم كُفرانَهم، وعدِّد ما أنت وأصحابُك متَّصف به من أضدادِها، وإنْ شئتَ لم تقدِّر «قل» بعد علمِك بأنَّ المعنى ينساق إليه، وهو بعيدٌ فافهم، واللهُ تعالى أعلم.

و«منا» خبرٌ مقدَّم، والمبتدأُ محذوفٌ للاكتفاء بصفته، وهي جملةُ «له مقام»، أي: ما منَّا أحدٌ إلَّا له مقامٌ معلوم. وحذفُ الموصوف بجملةٍ أو شبهِها إذا كان بعضَ ما قبلَه من مجرورٍ بـ «مِن» أو «في» مطَّردٌ، وهذا اختيارُ الزمخشريِّ[(١)].

وقال أبو حيَّان[(٢)]: «منا» صفةٌ لمبتدأ محذوف، والجملةُ المذكورةُ هي الخبر، أي: وما أحدٌ كائنٌ منَّا إلَّا له مقامٌ معلوم. وتعقَّب ما مرَّ بأنَّه لا ينعقد كلامٌ مِن:

---

(١) في الكشاف ٣/ ٣٥٦.

(٢) في البحر ٧/ ٣٧٩.

ما منَّا أحد، وقولُه سبحانه: «إلا له مقام معلوم» هو محطُّ الفائدة، فيكون هو الخبر، وإن تخيَّلَ(١) أنَّ «إلَّا» بمعنى «غير» وهي صفة، لا يصحّ؛ لأنَّه لا يجوز حذفُ موصوفِها، وفارقَتْ غيراً إذا كانت صفةً في ذلك؛ لتمكُّن «غير» في الوصف وقلَّة تمكُّن «إلَّا» فيه.

وقال غيرُه: إنَّ فيه أيضاً التفريغَ في الصفات، وهم منعوا ذلك.

ودُفع بأنَّه ينعقد منه كلامٌ مفيدٌ مناسبٌ للمقام؛ إذ معناه: ما منَّا أحدٌ متَّصف بشيءٍ من الصفات إلَّا بصفة أن يكونَ له مقامٌ معلومٌ لا يتجاوزه، والمقصودُ بالحصر المبالغة، أو يقال: إنَّه صفةُ بدلٍ محذوف، أي: ما منا أحدٌ إلَّا أحدٌ له مقامٌ معلوم، كما قاله ابنُ مالكٍ في نظيره.

وفيه أنَّ فيه اعترافاً بأنَّ المقصودَ بالإفادة تلك الجملة، وهو يستلزم أولويةَ كونِها خبراً، وما ذُكر من احتمال كونِه صفةً لبدلٍ محذوفٍ، فليس بشيء؛ لأنَّ فيه حذفَ المبدلِ والمبدلِ منه، ولا نظيرَ له.

وبالجملة ما ذكره أبو حيَّان أسلمُ من القيلِ والقال، نعم قيل: يجوز أن يقال: القصدُ هنا ليس إفادةَ مضمونِ الخبر، بل الردَّ على الكفرة؛ ولذا جُعِل الظرفُ خبراً وقدِّم، فالمعنى: ليس منا أحدٌ يتجاوز مقامَ العبوديةِ لغيرها بخلافكم أنتم، فقد صدر منكم ما أخرجكم عن رتبة الطَّاعة. وفيه نظر.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾ أنفسَنا أو أقدامَنا في الصلاة. وقال ناصرُ الدِّين: أي: في أداء الطاعةِ ومنازلِ الخدمة(٢).

وقيل: الصافُّون حولَ العرشِ ننتظر الأمرَ الإلهيّ. وفي «البحر»: داعين للمؤمنين(٣).

وقيل: صافُّون أجنحَتنا في الهواءِ منتظرين ما يؤمر.

---

(١) أي: الزمخشري.
(٢) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٢٩١.
(٣) البحر ٧/ ٣٧٩.

وأخرج ابنُ أبي حاتمٍ من طريق ابنِ جُريج عن الوليد بنِ عبد اللهِ بن [أبي] مغيثٍ قال: كانوا لا يصفُّون في الصلاةِ حتى نزلت ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾[1].

وأخرج مسلمٌ[2] عن حذيفةَ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «فضِّلنا على الناسِ بثلاث: جُعلت صفوفُنا كصفوفِ الملائكة، وجُعلت لنا الأرضُ مسجداً، وجُعلت لنا تربتُها طَهوراً إذا لم نجد الماءَ».

وأخرج هو أيضاً وأبو داودَ والنَّسائيُّ وابنُ ماجه عن جابر بنِ سَمُرة قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «ألَا تصفُّون كما تصفُّ الملائكةُ عند ربِّهم»[3]. وهذه الأخبارُ ونحوُها ترجِّح التفسيرَ الأوَّل.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ أي: المنزِّهون اللهَ تعالى عمَّا لا يَليق به سبحانه، ويدخل فيه ما نسبه إليه تعالى الكَفَرة. وقيل: أي: القائلون: سبحانَ الله. وأخرج عَبد بن حُميد وغيرُه عن قتادةَ أنَّه قال: «المسبِّحون» أي: المصلُّون[4]. ويقتضيه ما رُوي عن ابن عباسٍ أنَّ كلَّ تسبيحٍ في القرآنِ بمعنى الصلاة. والظاهرُ ما تقدَّم. ولعل الأوَّل إشارةٌ إلى مزيد أدبِهم الظاهرِ مع ربِّهم عزَّ وجلَ، والثاني إشارةٌ إلى كمال عرفانِهم به سبحانه. وقال ناصرُ الدِّين: لعل الأولَ إشارةٌ إلى درجاتهم في الطَّاعة، وهذا في المعارف[5].

وما في «إنَّ» واللامِ وتوسيطِ الفصلِ من التأكيدِ والاختصاص؛ لأنَّهم المواظبون على ذلك دائماً من غير فَتْرة، وخواصُّ البشرِ لا تخلو من الاشتغالِ بالمعاش، ولعل الكلامَ لا يخلو عن تعريضٍ بالكفرة.

والظاهرُ أنَّ الآياتِ الثلاث، أعني قولَه تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ﴾ إلى هنا نزلت

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٩٣، وما بين حاصرتين منه، وهو الصواب.

(٢) في صحيحه (٥٢٢).

(٣) صحيح مسلم (٤٣٠)، وسنن أبي داود (٦٦١)، والنسائي ٢/ ٩٢، وابن ماجه (٩٩٢).

(٤) الدر المنثور ٥/ ٢٩٥.

(٥) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٢٩١، ويعني بالأول كونهم صافين أنفسهم أو أقدامهم في أداء الطاعة ومنازل الخدمة.

كما نزلت أخواتُها. وعن هبة اللهِ المفسِّرِ[1] أنَّها نزلت لا في الأرضِ ولا في السماء، وعدَّ معها آيتين من آخر سورةِ البقرةِ وآيةً من «الزُّخرف»: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ الآية [٤٥]. قال ابنُ العربي: ولعلَّه أراد: في الفضاءِ بين السماءِ والأرض. وقال الجلالُ السُّيوطي[2]: لم أقف على مستندٍ لما ذكره إلَّا آخرَ «البقرة»، فيمكن أن يستدلَّ له بما أخرجه مسلمٌ[3] عن ابنِ مسعود: لمَّا أُسري برسول اللهِ ﷺ، انتهى إلى سِدرة المنتهى.. الحديثَ، وفيه: فأُعطي الصلواتِ الخمس، وأُعطي خواتيمَ سورةِ البقرة، وغُفر لمن لا يُشرك من أمَّته بالله شيئاً المُقْحِمات[4]. انتهى فلا تغفُل.

﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ١٦٧﴾ «إنْ» هي المخفَّفة، واللامُ هي الفارقة، والضميرُ لكفَّار قريش، كانوا يقولون قبل مبعثِ النبيِّ ﷺ: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ١٦٨﴾ أي: كتاباً من جنس الكتبِ التي نزلت عليهم ومثلَها في كونه من عند اللهِ تعالى ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ١٦٩﴾ لأخلصنا العبادةَ له تعالى ولكنَّا أهدى منهم.

والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾ فصيحة، مثلُها في قوله تعالى: ﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ﴾ [الشعراء:٦٣] أي: فجاءهم ذِكرٌ وأيُّ ذِكر، سيِّدُ الأذكار، وكتابٌ مهيمنٌ على سائر الكتبِ والأخبار، فكفروا به ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ١٧٠﴾ أي: عاقبةَ كفرِهم وما يحلُّ بهم من الانتقام.

وقيل: أُريد بالذِّكر العلم، أي: لو أنَّ عندنا علماً من الذين تقدَّمونا وما فعل اللهُ تعالى بهم بعد أن ماتوا هل أثابهم أم عذَّبهم، لأخلصنا العبادةَ له تعالى، فجاءهم ذلك في القرآن العظيمِ فكفروا به. ولا يخفى بُعدُه.

---

(١) هو أبو القاسم هبة الله بن سلامة البغدادي الضرير، كان من أحفظ الناس لتفسير القرآن، له كتاب الناسخ والمنسوخ. توفي ببغداد سنة (٤١٠هـ). تاريخ بغداد ١٤/ ٧٠، وغاية النهاية ٢/ ٣٥١.

(٢) في الإتقان ١/ ٧٤.

(٣) في صحيحه (١٧٣).

(٤) أي: الذنوب العظام الكبائر التي تهلك أصحابها وتوردهم النار وتقحمهم إياها. شرح النووي ٣/ ٣.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ استئنافٌ مقرِّر للوعيد، وتصديرُه بالقَسَم لغاية الاعتناءِ بتحقيق مضمونِه، أي: وبالله لقد سبق وعدُنا لهم بالنُّصرة والغلبة، وهو قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ فيكون تفسيراً، أو بدلاً من «كلمتنا»، وجوِّز أن يكونَ مستأنفاً، والوعدُ ما في محلٍّ آخَرَ من قوله تعالى: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١] والأوَّل أظهر.

والمرادُ بالجند أتباعُ المرسلين، وأَضافهم إليه تعالى تشريفاً لهم وتنويهاً بهم. وقال بعضُ الأجِلَّة: هو تعميمٌ بعد تخصيص، وفيه من التأكيدِ ما فيه.

والمرادُ عند السدِّي بالنُّصرة والغَلَبة ما كان بالحجَّة.

وقال الحسنُ: المراد: النصرةُ والغلبةُ في الحرب، فإنَّه لم يقتل نبيٌّ من الأنبياء في الحرب، وإنَّما قُتل مَن قُتل منهم غِيلة، أو على وجهٍ آخَرَ في غير الحرب، وإن مات نبيٌّ قبل النصرةِ أو قتل، فقد أجرى اللهُ تعالى أن ينصرَ قومَه من بعده، فيكون في نُصرة قومِه نصرةٌ له.

وقريبٌ منه ما قيل: إنَّ القصرين[1] باعتبار عاقبةِ الحالِ وملاحظةِ المآل.

وقال ناصرُ الدِّين: هما باعتبار الغالبِ والمقضيِّ بالذات[2]؛ لأنَّ الخيرَ هو مرادُه تعالى بالذات، وغيرُه مقضيٌّ بالتَّبع لحكمةٍ وغرضٍ آخر، أو للاستحقاقِ بما صدر من العباد؛ ولذا قيل: بيده الخير، ولم يذكر الشرّ، مع أنَّ الكلَّ من عنده عزَّ وجلَّ.

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: إنْ لم يُنصَروا في الدنيا نُصروا في الآخرة. وظاهرُ السِّياق يقتضي أنَّ ذلك في الدنيا، وأنَّه بطريق القهرِ والاستيلاء، والنيلِ من الأعداء، إمَّا بقتلهم، أو تشريدِهم، أو إجلائهم عن أوطانهم، أو استئسارِهم، أو نحوِ ذلك.

والجملتان دالَّتان على الثَّبات والاستمرار، فلا بدَّ من أن يقال: إنَّ استمرارَ ذلك عرفيٌّ. وقيل: هو على ظاهره، واستمرارُ الغلبةِ للجند مشروطٌ بما تُشعر به

(١) كذا في الأصل و(م)، ولعلها: النصرين.
(٢) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٢٩٢، وما بعده من كلام الشهاب.

الإضافة، فلا يُغلب أتباعُ المرسلين في حربٍ إلَّا لإخلالهم بما تُشعر به، بميلٍ ما إلى الدنيا، أو ضعفِ التوكُّل عليه تعالى، أو نحوِ ذلك. ويكفي في نُصرة المرسلين إعلاءُ كلمتهم، وتعجيزُ الخلقِ عن معارضتهم، وحفظُهم من القتل في الحروب، ومن الفرارِ فيها ولو عَظُمت هنالك الكروب، فافهم.

ولا يخفَى وجهُ التعبير بـ «منصورون» مع المرسَلين، وبـ «الغالبون» مع الجند، فلا تغفُل.

وسمَّى الله عزَّ وجلَّ وعدَه بذلك كلمةً وهي كلمات؛ لأنَّها لمَّا اجتمعت وتضامَّت وارتبطت غايةَ الارتباط، صارت في حكم شيءٍ واحد، فيكون ذلك من باب الاستعارة. والمشهورُ أنَّ إطلاقَ الكلمةِ على الكلام مجازٌ مرسلٌ من إطلاق الجزءِ على الكلّ. وقال بعضُ العلماء: إنَّه حقيقةٌ لغوية، واختصاصُ الكلمةِ بالمفرد اصطلاحٌ لأهل العربية، فعليه لا يُحتاج إلى التأويل.

وقرأ الضحَّاك: «كَلِماتُنا» بالجمع[1]. ويجوز أن يرادَ عليها: وُعودُنا، فتفطَّن. وفي قراءة ابنِ مسعود: «على عبادِنا»[2] على تضمين «سَبَقَتْ» معنى حقَّت.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عنهم واصبر ﴿حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾﴾ إلى وقت انتهاءِ مدَّة الكفِّ عن القتال. وعن السُّدِّي: إلى يومِ بدر. ورجَّحه الطبري[3]. وقيل: إلى يومِ الفتح، وكان قبله مهادنةُ الحديبية.

وأخرج ابن جَريرٍ[4] وغيرُه عن قتادةَ أنَّه قال: إلى يوم موتِهم. وحكاه الطبرسيُّ[5] عن ابن عباسٍ أيضاً. وقال ابنُ زيد: إلى يومِ القيامة. وهو والذي قبلَه ظاهران في عدم اختصاصِ النُّصرةِ بما كان في الدنيا.

---

(١) البحر ٧/ ٣٨٠.
(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٩٥.
(٣) في تفسيره ١٩/ ٦٥٩.
(٤) في تفسيره ١٩/ ٦٥٨.
(٥) في مجمع البيان ٢٣/ ٩١.

﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ وهم حينئذٍ على أسوأ حالٍ وأفظعِ نكال، قد حلَّ بهم ما حلَّ من الأسر والقتل. أو: أَبصِرْ بلاءهم، على أنَّ الكلامَ على حذفِ مضاف، والأمرُ بمشاهدة ذلك وهو غيرُ واقعٍ للدَّلالة على أنَّه لشدَّة قربِه كأنه حاضرٌ قدَّامه وبين يديه مشاهَدٌ، خصوصاً إذا قيل: إنَّ الأمرَ للحال أو الفور.

﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾ ما يكون لك من التأييدِ والنصر. وقيل: المعنى: أبصِر ما يكون عليهم يومَ القيامةِ من العذاب، فسوف يُبصرون ما يكون لك من مزيدِ الثَّواب. و«سوف» للوعيد لا للتسويف والتبعيدِ الذي هو حقيقتُها، وقُربُ ما حلَّ بهم مستلزمٌ لقُرب ما يكون له عليه الصلاة والسلام، فهو قرينةٌ على عدم إرادة التبعيدِ منه.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ استفهامُ توبيخ. أخرج جُويبر عن ابن عباسٍ قال: قالوا: يا محمد، أَرِنا العذابَ الذي تخوِّفنا به وعجِّله لنا، فنزلت.

ورُوي أنَّه لمَّا نزل: «فسوف يبصرون» قالوا: متى هذا؟ فنزلت.

﴿فَإِذَا نَزَلَ﴾ أي: العذابُ الموعودُ ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾[1] وهي العَرْصة الواسعة عند الدور، والمكان الواسع مطلقاً، وتجمع على سُوح، قال الشاعر:

فكان سِيَّانَ ألَّا يَسرحوا نَعَماً أو يَسرحوه بها واغبرَّت السُّوحُ[2]

وفي الضمير استعارةٌ مكنية، شبَّه العذابُ بجيشٍ يهجم على قومٍ وهم في ديارهم بغتةً فيحلُّ بها، والنزولُ تخييل.

وقرأ ابنُ مسعود: «نُزِل» بالتخفيف والبناءِ للمجهول[3]، وهو لازم، فالجارُّ والمجرورُ نائبُ الفاعل. وقُرئ: «نُزِّل» بالتشديد والبناءِ للمجهول أيضاً[4]، وهو متعدٍّ، فنائبُ الفاعلِ ضميرُ العذاب.

---

(١) جاء في هامش الأصل: قال الفراء: العرب تقول: نزل بساحتهم ويريدون نزل بهم، فلا تغفل. اهـ منه.

(٢) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، انظر ديوان الهذليين ١/ ١٠٧، والخزانة ٤/ ٨٩ و٥/ ١٣٤.

(٣) القراءات الشاذة ص١٢٨، والمحتسب ٢/ ٢٢٩، والبحر ٧/ ٣٨٠.

(٤) الكشاف ٣/ ٣٥٧، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٢٩٢.

﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ ۝١٧٧﴾ أي: فبئس صباحُ المنذَرين صباحُهم، على أنَّ ساء بمعنى بئس، وبها قرأ عبدُ الله[١]، والمخصوصُ بالذمِّ محذوف، واللامُ في «المنذَرين» للجِنس لا للعهد؛ لاشتراطهم الشيوعَ فيما بعدَ فِعلَي الذمِّ والمدح، ليكونَ التفسيرُ بعد الإبهام، والتفصيلُ بعد الإجمال، ولو كان ساء بمعنى قَبُحَ على أصله، جاز اعتبارُ العهدِ من غير تقدير.

والصباحُ مستعارٌ لوقت نزولِ العذاب ـ أيَّ وقتٍ كان ـ من صباح الجيشِ المبيِّت للعدو، وهو السائرُ إليه ليلاً ليهجمَ عليه وهو في غفلته صباحاً، وكثيراً ما يسمُّون الغارةَ صباحاً؛ لِمَا أنَّها في الأعمِّ الأغلبِ تقع فيه، وهو مجازٌ مرسل أُطلق فيه الزمانُ وأُريد ما وقع فيه، كما يقال: أيَّام العرب، لوقائعهم. وجوَّز حملُ الصباحِ هنا على ذلك.

وفي «الكشَّاف»[٢]: مثَّل العذابَ النازلَ بهم بعد ما أُنذروه فأنكروه بجيشٍ أنذر بهجومه قوماً بعضُ نصَّاحهم، فلم يلتفتوا إلى إنذاره، ولا أخذوا أُهبتَهم، ولا دبَّروا أمرَهم تدبيراً ينجيهم، حتى أناخ بفِنائهم بغتة، فشنَّ عليهم الغارةَ وقطع دابرَهم، وكانت عادةُ مغاويرِهم إصباحاً، فسمِّيت الغارةُ صباحاً وإنْ وقعت في وقتٍ آخرَ. وما فَصُحَت هذه الآيةُ ولا كانت لها الروعةُ التي يُحَسُّ بها ويروقك موردُها على نفسك وطبعِك إلَّا لمجيئها على طريقةِ التمثيل. انتهى.

وظاهرُه أنَّ الكلامَ على الاستعارة التمثيلية، وفضلُها على غيرها أشهرُ من أن يذكر، وأجلُّ من أن يُنكَر.

وقيل: ضمير «نزل» للنبيِّ ﷺ، ويراد حينئذٍ نزولُه يومَ الفتحِ لا يومَ بدر؛ لأنَّه ليس بساحتهم إلَّا على تأويل، ولا بخيبر؛ لقوله ﷺ حين صبَّحها: «الله أكبر، خَرِبت خيبر، إنَّا إذا نزلنا بساحة قومٍ فساءَ صباحُ المنذرين»[٣] لأنَّ تلاوتَه عليه

---

(١) البحر ٧/ ٣٨٠.
(٢) ٣/ ٣٥٧.
(٣) أخرجه البخاري (٣٧١)، ومسلم (١٣٦٥) من حديث أنس ﷺ مطولاً.

الصلاة والسلام ثمَّت لاستشهاده بها، والكلامُ هنا مع المشركين. ولا يخفى بُعد رجوعِ الضميرِ إليه عليه الصلاة والسلام.

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ تسليةٌ لرسول الله ﷺ إثر تسلية، وتأكيدٌ لوقوع الميعادِ غِبَّ تأكيد، مع ما في إطلاق الفعلين عن المفعول من الإيذان ـ ظاهراً ـ بأنَّ ما يُبصره عليه الصلاة والسلام حينئذٍ من فنون المسارّ، وما يُبصرونه من فنون المضارّ، لا يحيط به الوصفُ والبيان. وجوِّز أن يرادَ بما تقدَّم عذابُ الدنيا، وبهذا عذابُ الآخرة.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ تنزيهٌ لله تعالى شأنُه عن كلِّ ما يصفه المشركون به، ممَّا لا يليقُ بجناب كبريائه وجبروته مما حُكي عنهم في السُّورة الكريمة، وما لم يحكَ من الأمور التي من جملتها تركُ إنجاز الموعودِ على موجَب كلمتِه تعالى السابقة، لاسيَّما في حقِّ الرسولِ ﷺ، كما ينبئُ عنه التعرُّض لعنوان الرُّبوبيةِ المعربة عن التربية والتكميلِ والمالكيةِ الكلِّية، مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام أوَّلاً وإلى العزَّة ثانياً، كأنه قيل: سبحان مَن هو مربِّيك ومكمِّلك، ومالكُ العزةِ والغلبةِ على الإطلاق، عمَّا يصفه المشركون به من الأشياءِ التي منها تركُ نصرتِك عليهم، كما يدلُّ عليه استعجالهُم بالعذاب.

ومعنى ملكِه تعالى العزَّةَ على الإطلاق، أنَّه ما من عزَّةٍ لأحدٍ من الملوك وغيرِهم إلَّا وهو عزَّ وجلَّ مالكُها. وقال الزمخشري[1]: أُضيف الربُّ إلى العزَّة لاختصاصه تعالى بها، كأنَّه قيل: ذو العزَّة، كما تقول: صاحبُ صِدق؛ لاختصاصه بالصِّدق. ثم ذكَرَ جوازَ إرادةِ المعنى الذي ذكرناه. والفرقُ أنَّ الإضافةَ على ما ذكرنا على أنَّه سبحانه المعِزّ، وعلى الآخَر على أنَّه عزَّ وجلَّ العزيزُ بنفسه. ولكلٍّ وجهٌ من المبالغة خلا عنه الآخَر.

وقولُه تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ تشريفٌ للرُّسل كلِّهم بعد تنزيهِه تعالى عمَّا ذكر، وتنويهٌ بشأنهم، وإيذانٌ بأنهم سالمون عن كلِّ المكاره، فائزون بكلِّ المآرب.

---

(١) في الكشاف ٣/ ٣٥٧-٣٥٨.

وقولُه سبحانه: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ إشارةٌ إلى وصفه تعالى بصفاته الكريمةِ الثبوتية، بعد التنبيهِ على اتِّصافه عزَّ وجلَّ بجميع صفاتِه السلبية، وإيذانٌ باستتباعها للأفعال الحميدة، التي من جُملتها إفاضتُه تعالى على المرسَلين من فنون الكراماتِ السَّنية، والكمالاتِ الدِّينية والدُّنيوية، وإسباغُه جلَّ وعلا عليهم وعلى مَن تبعهم من صنوف النَّعماءِ الظاهرةِ والباطنةِ الموجبةِ لحمده تعالى، وإشعارٌ بأنَّ ما وُعده عليه السلام من النُّصرة والغلبةِ قد تحقَّق. والمرادُ تنبيهُ المؤمنين على كيفية تسبيحِه سبحانه وتحميدِه، والتسليمِ على رسله عليهم السلام، الذين هم وسائطُ بينه تعالى وبينهم في فيضان الكمالاتِ مطلقاً عليهم. وهو ظاهرٌ في عدم كراهةِ إفراد السلامِ عليهم.

ولعل توسيطَ التسليمِ على المرسلين بين تسبيحِه تعالى وتحميدِه؛ لختم السورةِ الكريمةِ بحمده تعالى، مع ما فيه من الإشعار بأنَّ توفيقَه تعالى للتسليم من جملة نِعَمِه تعالى الموجبةِ للحمد، كذا في «إرشاد العقل السليم»[(١)].

وقد يقال: تقديمُ التنزيهِ لأهمِّيته ذاتاً ومقاماً. ولمَّا كان التنزيهُ عما يصف المشركون، وقد ذكر عزَّ وجلَّ إرشادَ الرُّسلِ إياهم وتحذيرَهم لهم من أن يصفوه سبحانه بما لا يَليق به تعالى، وضمَّن ذلك الإشارةَ إلى سوءِ حالهم وفظاعةِ منقلَبهم = أردف جلَّ وعلا ذلك بالإشارة إلى حُسن حالِ المرسَلين الداعين إلى تنزيهه تعالى عمَّا يصفه به المشركون. وفيه من الاهتمام بأمر التنزيهِ ما فيه. وأتى عزَّ وجلَّ بالحمد للإشارة إلى أنَّه سبحانه متصفٌ بالصِّفات الثُّبوتية، كما أنَّه سبحانه متصفٌ بالصِّفات السلبية، وهذا وإن استدعى إيقاعَ الحمدِ بعد التسبيحِ بلا فصل، كما في قولهم: سبحانَ اللهِ والحمدُ لله، وهو المذكورُ في الأخبار، والمشهورُ في الأذكار، إلَّا أنَّ الفصلَ بينهما هنا بالسلام على المرسَلين ممَّا اقتضاه مقامُ ذِكرِهم فيما مرّ، وجدَّد الالتفاتَ إليهم تقديمُ التنزيهِ عمَّا يصفه به مَن يرسلون إليه.

ولعل مَن يدقِّق النظرَ يرى أنَّ السلامَ هنا أهمُّ من الحمد نظراً للمقام، وإن كان هو أهمَّ منه ذاتاً، والأهميةُ بالنظر للمقام أَوْلى بالاعتبار عندهم؛ ولذا تراهم

---

(١) ٧/ ٢١٢.

يقدِّمون المفضولَ على الفاضل إذا اقتضى المقامُ الاعتناءَ به، ولعله من تتمّة جملةِ التسبيح، وبهذا ينحلُّ ما يقال من أنَّ حمدَه تعالى أجلُّ من السلام على الرُّسل عليهم السلام، فكان ينبغي تقديمُه عليه على ما هو المنهجُ المعروفُ في الكتب والخطب، ولا يحتاج إلى ما قيل: إنَّ المرادَ بالحمد هنا الشكرُ على النِّعم، وهي الباعثةُ عليه، ومن أجلِّها إرسال الرُّسلِ الذي هو وسيلةٌ لخيرَي الدارين، فقدِّم عليه لأنَّ الباعثَ على الشيءِ يتقدَّم عليه في الوجود وإنْ كان هو متقدِّماً على الباعث في الرُّتبة، فتدبَّر.

وهذه الآيةُ من الجوامعِ والكوامل، ووقوعُها في موقعها هذا ينادي بلسانٍ ذَلِقٍ أنه كلامُ مَن له الكبرياء، ومنه العزَّة جلَّ جلالُه وعمَّ نوالُه. وقد أَخرج الخطيبُ[(١)] عن أبي سعيدٍ قال: كان رسولُ اللهِ ﷺ يقول بعد أن يسلِّم: «سبحانَ ربِّك ربِّ العزَّةِ عمَّا يصفون، وسلامٌ على المرسَلين، والحمدُ لله ربِّ العالمين».

وأَخرج الطبرانيُّ عن زيد بنِ أَرقمَ عن رسول اللهِ ﷺ قال: «مَن قال دُبُرَ كلِّ صلاة: سبحانَ ربِّك ربِّ العزَّة عمَّا يصفون، وسلامٌ على المرسلين، والحمدُ لله ربِّ العالمين. ثلاثَ مرَّات، فقد اكتال بالمكيال الأَوفَى من الأَجر»[(٢)].

وأَخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن الشعبيِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن سرَّه أن يكتالَ بالمكيال الأَوفى من الأَجر يومَ القيامة، فليقل آخرَ مجلسِه حين يريدُ أن يقوم: سبحانَ ربِّك ربِّ العزَّة» إلى آخر السورة. وأخرجه البغويُّ من وجهٍ آخَرَ متصلٍ عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه موقوفاً[(٣)].

وجاء في ختم المجلسِ بالتسبيح غيرُ هذا، ولعله أصحُّ منه؛ فقد أَخرج أبو داودَ

---

(١) في تاريخ بغداد ١٣/١٣٨، وأخرجه أيضاً أبو يعلى (١١١٨)، وفي إسناده أبو هارون العبدي عمارة بن جوين، قال عنه الحافظ في التقريب: متروك، ومنهم مَن كذَّبه.

(٢) المعجم الكبير (٥١٢٤) قال في المجمع ١٠/١٠٣: فيه عبد المنعم بن بشير، وهو ضعيف جدًّا.

(٣) تفسير البغوي ٤/٤٦، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق (٣١٩٦). وفي إسناده الأصبغ بن نباته، وهو متروك.

عن ابن عمرو[(١)] رضي الله عنهما قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «كلماتٌ لا يتكلَّم بهنَّ أحدٌ في مجلسه عند قيامِه ثلاثَ مرَّاتٍ إلَّا كفِّر بهنَّ عنه، ولا يقولهنَّ في مجلس خيرٍ وذِكرٍ إلَّا خُتم له بهنَّ عليه كما يُختم بخاتَم على الصحيفة: سبحانكَ اللهمَّ وبحمدك، لا إلهَ إلَّا أنت، أَستغفركَ وأتوبُ إليك»[(٢)] لكنَّ المشهورَ اليومَ بين الناسِ أنَّهم يقرؤون عند ختمِ مجلسِ القراءةِ أو الذِّكر أو نحوهما الآيةَ المذكورة: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٢﴾.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في الآياتِ ما قالوا: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ هي الأرواحُ الكاملةُ المكمِّلة من الصفِّ الأوَّل وهو صفُّ الأنبياءِ عليهم السلام، والصفُّ الثاني وهو صفُّ الأصفياءِ ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا﴾ عن الكفر والفسوقِ بالحُجَج والنصائحِ والهِمم القدسية ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ آياتِ اللهِ تعالى وشرائعَه عزَّ وجلّ.

وقيل: الصافَّات: جماعةُ الملائكةِ المهيمين، والزَّاجرات: جماعةُ الملائكةِ الزَّاجرين للأجرام العلويةِ والأجسامِ السُّفلية بالتدبير، والتاليات: جماعةُ الملائكةِ التاليةِ آياتِ الله تعالى وجلايا قُدسِه على أنبيائه وأوليائه.

وتنزُّلُ الملائكةِ على الأولياء ممَّا قال به الصوفيةُ قدَّس اللهُ تعالى أسرارَهم، وقد نطق بأصل التنزُّلِ عليهم قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

وقد يطلقون على بعض الأولياء أنبياء الأولياء، قال الشعراويُّ في رسالة «الفتح في تأويل ما صدر عن الكُمَّل من الشَّطح»: أنبياءُ الأولياءِ هم كلُّ وليٍّ أقامه الحقُّ تعالى في تجلٍّ من مظهر تجلِّياته، وأقام له مظهرَ محمدٍ ﷺ ومظهرَ جبريلَ عليه السلام، فأَسمعه ذلك المظهرُ الروحانيُّ خطابَ الأحكامِ المشروعةِ لمظهر

(١) في الأصل و(م): عمر، والمثبت هو الصواب.
(٢) سنن أبي داود (٤٨٥٧)، وله شواهد تنظر في حاشية مسند أحمد عند الحديث (١٥٧٢٩).

محمدٍ ﷺ، حتى إذا فرغ من خطابه وفُزِّع عن قلب هذا الوليّ، عَقَلَ صاحبُ هذا المشهدِ جميعَ ما تضمَّنه ذلك الخطابُ من الأحكام المشروعةِ الظاهرةِ في هذه الأمَّة المحمدية، فيأخذها هذا الوليُّ كما أخذها المظهرُ المحمدي، فيردُّ إلى حسِّه وقد وعى ما خاطب الروحُ به مظهرَ محمدٍ ﷺ وعلم صحَّتَه علمَ يقين، بل عينَ يقين، فمثلُ هذا يعمل بما شاءَ من الأحاديث، لا التفاتَ له إلى تصحيح غيرِه أو تضعيفِه، فقد يكون ما قال بعضُ المحدِّثين بأنَّه صحيحٌ لم يقلْه النبيُّ عليه الصلاة والسلام، وقد يكون ما قالوا فيه: إنَّه ضعيف، سمعه هذا الوليُّ من الرُّوح الأمينِ يلقيه على حقيقة محمدٍ ﷺ، كما سمع بعضُ الصحابةِ حديثَ جبريلَ في بيان الإسلام والإيمانِ والإحسان، فهؤلاء هم أنبياءُ الأولياء، ولا ينفردون قطُّ بشريعة، ولا يكون لهم خطابٌ بها إلَّا بتعريف أنَّ هذا هو شرعُ محمدٍ عليه الصلاة والسلام، أو يشاهدون المنزلَ على رسوله ﷺ في حضرة التمثُّل الخارجِ عن ذاتهم والداخلِ المعبَّر عنه بالمبشِّرات في حقِّ النائم، غيرَ أنَّ الوليَّ يشترك مع النبيِّ في إدراك ما تدركه العامَّةُ في النوم في حالِ اليقظة، فهؤلاء في هذه الأمةِ كالأنبياءِ في بني إسرائيل، على مرتبة تعبُّد هارونَ بشريعة موسى مع كونِه نبياً، وهم الذين يحفظون الشريعةَ الصحيحةَ التي لا شكَّ فيها على أنفسهم وعلى هذه الأمَّة، فهم أعلمُ الناسِ بالشرع، غير أنَّ غالبَ علماءِ الشريعةِ لا يسلِّمون لهم ذلك، وهم لا يلزمهم إقامةُ الدليلِ على صدقهم؛ لأنَّهم ليسوا مشرِّعين، فهم حفَّاظ الحالِ النبويِّ والعلمِ اللَّدُنِّي والسرِّ الإلهي، وغيرُهم حفَّاظُ الأحكامِ الظاهرة. وقد بسطنا الكلامَ على ذلك في «الميزان». اهـ.

وقال بُعيدَ هذا في رسالته المذكورة: اِعلم أنَّ بعضَ العلماءِ أنكروا نزولَ المَلَك على قلب غيرِ النبيِّ ﷺ لعدم ذوقِه له، والحقُّ أنه ينزل ولكن بشريعة نبيِّه ﷺ، فالخلافُ إنَّما ينبغي أن يكونَ فيما ينزل به الملكُ لا في نزول المَلَك، وإذا نزل على غير نبيٍّ لا يظهر له حالَ الكلامِ أبداً، إنَّما يسمع كلامَه ولا يرى شخصَه، أو يرى شخصَه من غير كلام، فلا يجمع بين الكلامِ والرؤيةِ إلَّا نبيّ، والسلام. اهـ. وقد تقدَّم لك طرفٌ من الكلام في رؤية المَلَك، فتذكَّر.

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ إخبارٌ بذلك ليعلموه ولا يتَّخذوا من دونه تعالى آلهةً من الدنيا والهوى والشَّيطان. ومعنى كونِه عزَّ وجلَّ واحداً تفرُّده في الذات والصفاتِ والأفعال، وعدمُ شركةِ أحدٍ معه سبحانه في شيءٍ من الأشياء، وطبَّقوا أكثرَ الآياتِ بعدُ على ما في الأنفس.

وقيل في قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾: فيه إشارةٌ إلى أنَّ للسالك في كلِّ مقام وقفةً تناسب ذلك المقام، وهو مسؤولٌ عن أداءِ حقوقِ ذلك المقام، فإن خرج عن عُهدة جوابِه أُذن له بالعبور، وإلَّا بقي موقوفاً رهيناً بأحواله إلى أن يؤدِّيَ حقوقَه. وكذا طبَّقوا ما جاء من قصصِ المرسَلين بعدُ على ما في الأنفس.

وقيل في قولِه تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾: يشير إلى أنَّ المَلَكَ لا يتعدَّى مقامَه إلى ما فوقه، ولا يهبط عنه إلى ما دونه، وهذا بخلاف نوعِ الإنسان، فإنَّ من أَفراده مَن سار إلى مقامِ «قابَ قوسين» بل طار إلى منزل «أو أدنى» وجرَّ هناك مطارفَ ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] ومنها مَن هوى إلى أسفلِ سافلين، وانحطَّ إلى قعر سِجِّين ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥] وقد ذكروا أنَّ الإنسان قد يترقَّى حتى يصلَ إلى مقام المَلَك، فيعْبُره إلى مقام قربِ النوافل، ومقامِ قربِ الفرائض، وقد يهبط إلى درك البهيميةِ فما دونَها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

نسأل اللهَ تعالى أن يرقِّينا إلى مقامِ يرضاه، ويرزقَنا رضاه يومَ لِقاه، وأن يجعلَنا من جُنده الغالبين، وعباده المخلَصين، بحرمة سيِّد المرسَلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبِه أجمعين، وسلامٌ على المرسَلين، والحمد لله ربِّ العالمين.